فلسفة التاريخ

تمهيد

فى ايامنا هذه ، ونحن نسير فى سرعة تصعب على العقل ملاحقتها نحو القرن الحادى والعشرين ، تدخل الانسانية كلها عصراً جديداً يختلف عن كل ما سبقه ، حتى ليعجز الانسان عن تصور المصير الذى ستصير اليه ، فى ذلك العصر الحافل بالمفاجآت والهزات والاخطار تدخل علوم البشر جميعها فى طور جديد جداً ، يمتاز بالدقة المتناهية والعمق البالغ ، والشمول البعيد المدى ، والسرعة التى جعلت حقائق العلم تتجاور حد الخيال ، حتى أن شطحات رجل مثل **جول فيرن** ، التى كانت تعتبر فى الماضى طرائف تسلى بها فى اوقات الفراغ ، اصبحت اشياء بالية قديمة تخطاها العلم بمراحل شاسعة ، واين حديثه عن معجزة الطواف حول الارض فى ثمانين يوما ؟ واين تصوراته للغواصات والطائرات مما نحن فيه اليوم من رحلات الفضاء والتجول على سطح القمر ؟

● اشرف على اختيار موضوعات هذا العدد وراجع مادته العلمية الاستاذ الدكتور حسين مؤنس .

في هذا العصر كان لا بد للتاريخ ايضا ان يساير هذا التطور ، والا انتهى امره وانصرف الناس منه ، واصبح جزءا من حطام العلوم البائدة كالسيمياء التي كانت تسعى الى تحويل الحديد والرصاص الى ذهب ، وبالفعل ارتفعت اصوات كثيرة بعد الحرب العالمية الاولى تهاجم التاريخ وتنكر عليه مكانته بين العلوم ، وزادت الحملة بعد الحرب العالمية الثانية على التاريخ واصبح مصيره في الميزان فعلا ، لولا حركة التجديد التي ادخلها على مفهومه ومناهجه علماء افذاذ ، ومؤرخون من ذوي الجد والبصر ، والعلم الواسع بشئون البشر ، فاخرجوا التاريخ من نطاق المرويات واساطير الاولين ، وادخلوا عليه مناهج البحث والاستقصاء ، ومدوا نطاقه حتى شمل الحاضر والمستقبل ، وجعلوا منه دراسات اجتماعية وسياسية وفكرية ، وفتحوا له بذلك آفاقا جديدة ، فبعثوه بذلك حيا من جديد ، ودعوا كل امة الى ان تعيد النظر في تاريخها وتاريخ البشر جميعا لتفهم نفسها وغيرها فهما جديداً . .

وهذا هو الذي حدا « بعالم الفكر » الى ان تخصص للتاريخ عددا من اعدادها ، يصور ازمة علم التاريخ وخروجه منها بشرح مفهومه الماضي والحاضر ، وتفاسيره الكثيرة عند كبار المؤرخين . ويلقي نظرة على مستقبل هذا العلم وماذا يرجى منه في قابل الايام حتى لا يفقد مكانته كعلم له اصول ومناهج ووظيفة في الحياة .

وقد حدا « بعالم الفكر » الى تخصيص هذا المجلد لعلم التاريخ لان تاريخنا الاسلامي نفسه يعاني في ايامنا هذه ازمة ربما كانت اخطر على مصيره عندنا من ازمته في بلاد الغرب ، لان صورة التاريخ عندنا جمدت من زمن طويل عند قوالب جامدة لا تتصل بالحاضر الا من بعيد ، ثم ان الكثيرين استخدموا التاريخ كوسيلة للوعظ والتوجيه الفكري بل السياسي ، واقتحم ميدانه الكثيرون ممن لا يعرفون اصله ومناهجه كعلم له اصوله ومناهج بحثه المقررة ، وما اكثر اهل الادب الذين حاجهم موضوع يكتبون فيه فمالوا الى بحر التاريخ واغترفوا منه اغتراف حاطب الليل ، ثم مضوا يؤلفون كتبا هي في حقيقتها مؤلفات ادبية او نظرات شخصية لا تنفع التاريخ او قارئه في شيء ، فتكدست كتب التاريخ عندنا على غير طائل ، وفي غمار هذا الاندفاع نحو التاريخ كاد المنهج التاريخي نفسه يضيع حتى عند نفر من اساتذة الجامعات ممن اكثروا من التاليف في التاريخ دون تمحيص او صبر او تنقيب مستبلغ في الاصول ، ولا روية فيما يقرأون ويكتبون ، مما هون امر التاريخ على الناس وقلل الفائدة منه .

لهذا يجيء هذا العدد من « عالم الفكر » وكأنه وقفة تامل وتدبر ومحاولة للعودة بالتاريخ الى اصوله ومناهجه ، وتذكير بما اهملناه من مسئوليات المؤرخ ودوره في المجتمع . ثم دعوة الى اعادة النظر في مفهوم التاريخ عندنا والاجتهاد في تقويمه ــ او اعادة بنائه بتعبير ادق ــ حتى يصبح التاريخ كما ينبغي ان يكون علما نافعا يعين الامة على ادراك حقيقة نفسها وحقائق غيرها من الامم ، ويمكن لنا من ان نتخذ من الماضي نبراسا يضيء لنا زوايا الحاضر وطريق المستقبل ، لان الماضي في ذاته لا يفيد الا اذا كان له انعكاس على الحاضر . ولا قيمة لدراسة التاريخ الحاضر او الجاري الا اذا كان وسيلة لانارة طريق الغد امامنا ، والاعصر تتغير ولكن الانسان واحد ، وهو لا يتعلم الا من التجارب وكلما كانت احاطته بتجارب الماضي اشمل كان ذلك اعون على شق طريقه الوعر الى الغد ، وقد قال اسلافنا ان الخيول على اعراقها تجري

ونحن في هـذه الابحـاث نريد ان نقول ان الامم على هدي من تجاربها في الماضي تسير وترقى ، وان التاريخ لا يدرس للعبرة ، لان الحقيقة ان احداً لا يعتبر بما يقرا من اخبار الماضين كمـا سنرى فيما بعد ، وانما نحن ندرسـه على انه تجـارب الماضين او تجـارب الامم كما قال ابن مسكويه ، فتتسع معارفنا بتجاربهم ، وتزداد بصيرة بالدنيا واحوالها ، ولا يهم هنا ان نتعظ او لا نتعظ ، بل المهم ان نعلم والحال هنا كحال رجل ينتقل من بلاده الى بلاد اخرى ، فيرى لطبيعتها صورا واشكالا تختلف عما الفه في بلاده فتزداد معرفته بالارض ومـا فيها دون أن يحـاول تحوير مناظـر الطبيعة في بلاده الى صورة تشابه ما رآه في غيرها . وهـذا في ذاته مستحيل استحالة الاتعاظ بتجـارب الاخرين ، لان الانسـان جـزء من تجربة حياته ، ولهذا فـلا يمكن لانسان آخـر ان يقـوم بنفس التجربة ، ومن هنا فهي لا تنفع غير صاحبهـا الا في القليل النادر . وكذلك يصعب ان نتصور امة تقوم بنفس التجربة التي قامت بهـا اخـرى ، وتصل الى نفس النتيجة فيما عدا بعض النتائج العامة لتجارب الامم مثل ضرورة ضبط الادارة ، ووضع قواعد لها ، والتدقيق في مصارف الاموال والحـرص على اقامة علاقات طيبـة مع الامـم الاخرى ، واقامة الحكم على أساس الشـورى والتراضي ، وهي الديمقراطية ، وما الى ذلـك من البديهيات .

وهذا الكلام الذي نقوله يبدو للغالبيـة العظمى من القراء وكانه مناقض للحقيقة بسبب تعودهم السماع عن عبر التاريخ ودروسه . وقد يستنكر كلامنا هذا نفر من الواغلين في التاريخ ، الداخلين ميدانه من غير بابه ، لان لهم كتبا شتى في التاريخ يقبل الناس على قراءتها فيتوهـم اصحابها انهم يكتبون تاريخا وما هم في الحقيقة الا اهل ادب او تأملات او فلسفات . والكثير من هذه المؤلفات جيد وممتع ، ولكنه ليس بتاريخ ولا فائدة فيه للمؤرخ المنقطع لهذا الفن وطلابـه الذين يدرسون عليه .

وهذا المجلد من « عالم الفكـر » يحاول ان يوضح هذه النواحي ويعرف الناس بالتاريخ ، اى شيء هو وما منهجـه وكيف يكـون ، وكيف يتأتى لنا فهمه على الوجه العلمي المضبوط ، لهذا فقد تعاونت على كتابته جماعة من اساتذة التاريخ الذين قضوا اعمارهم في خدمته باحثين ومؤلفين ومعلمين وموجهين لابنائهم من الباحثين ، واتجه الاهتمام الى تقسيم موضوعات العلم التاريخي بينهم على نحو يمكن القارىء من ان يلم بهـذا العلم وخصائصه ومدارسه الماما عاما ، فتنفتح امامه موضوعاته لكي يستزيد منها اذا شاء المزيد .

وقد قصرنا معظم الابحاث على علم التاريخ عامة دون ان نطيل الوقوف عند علم التاريخ عند العرب ، لان هذا في ذاته بحث طويل يستحـق اكثر من اشارات ولمحات ، وربما اعان الله ومد في الاجل حتى يفرد لعلم التاريخ عند العرب مجلد قائم بذاته ، وهو في الحق جدير بمجلدات عدة .

البحث الأول من هذا المجلد وموضـوعه «التاريخ والمؤرخون» كتبه د. حسين مؤنس مدخلا عاما لهذا العلم . تناول فيه مباحث شتى مثل ماهية التاريخ ولماذا ندرسه ، وتطوره في الغرب خلال العصور الحديثة ، واهم نظرياته ومراحل تطوره ، وشمل الحديث بناة علم التاريخ الحديث واهم اعمالهم . وقد اتجه الجهد في هـذا البحث الى التبسيط والتقريب ، لان الآراء في تعريف التاريخ وتحديد

ماهيته وفائدة دراسته كثيرة جدا ، وبعضها معقد لا يفهم فى سطور ، وبعضها الاخر يقوم على نظريات معروفة فى علم الاجتماع او علم النفس وما اليها ، ولهذا فقد اجتهدنا فى التوضيح وتقريب المعاني اكثر من اجتهادنا فى التفصيل والتفريع حتى يستطيع الافادة من البحث رجل التاريخ المنقطع اليه وطالب التاريخ المبتدىء فيه والقارىء العادى الذى يقرا ليتثقف ويوسع افقه .

ولهذا فقد طال الكلام بعض الشيء فى بعض الفقرات . ولكن لم يكن من ذلك مفر اذا اريد لهذا الكلام أن يكون عميم النفع .. وقد تطلب الامر احيانا مقارنة بعض النظريات الفرعية بمذاهب وآراء مؤرخين من العرب مثل **ابن خلدون وشمس الدين السخاوى** .

ومن الواضح اننا عندما نتكلم مثلا عن الغرض من دراسة التاريخ فاننا لا بد أن نشير الى آراء ائمة العلم التاريخي عندنا الى جانب من نذكر من آراء غير العرب فى هذا الموضوع .

وتعرض البحث بعد ذلك لتطور الدراسات التاريخية فى الغرب من مطالع العصر الحديث ، ولم يتسع المجال للكلام عن انظار اليونان والرومان واهل العصور الوسطى فى هذا العلم ، لان الحقيقة أن علم التاريخ ، الذى تقرا المؤلفات فيه اليوم ، انما هو من عمل طائفة من اعلام المفكرين الغربيين المحدثين ، ما زالوا يعملون حتى اعطوا علم التاريخ شخصيته المميزة له ، وحددوا له الغايات التي يسعى اليها ، ورسموا له مناهج البحث الخاصة به . وقد تتبعنا عمل اولئك المفكرين ، وعرضنا وجوه انظارهم وخاصة ذلك الراى الطريف الذى يقول ان التاريخ حوار بين الماضي والحاضر ، حوار بين الاجيال ، بين الانسان والزمان ، بين المؤرخ والقارىء ، وانتهينا من عرض هذه الآراء الى القول بان كل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظره ومفهومه الخاص وعلى ضوء ظروفه . ومن هنا فلا يمكن ان يكون لاى بلد من البلاد ، او العالم كله تاريخ واحد ، بل تواريخ متعددة ومعنى هذا ان عملية اعادة كتابة التاريخ ينبغي أن تكون متجددة ومسايرة للتطور الفكرى والحضارى .

وانتقلنا بعد ذلك الى الكلام على الاتجاهات السائدة فى كتابة التاريخ فى عصرنا هذا ، فبدانا بالكلام على بعث الدراسات التاريخية نتيجة لتنبه الناس لمجموعات الوثائق الضخمة التي احتفظت بها الكنائس ، ودور محفوظات الدول ، ومكتبات البلديات ، وما الى ذلك ، وانكباب المؤرخين على تنظيم هذه المجموعات وقراءتها لاستخلاص المادة التاريخية منها ، وتكلمنا عن التيارات المختلفة لكتابة التاريخ نتيجة لظهور هذا القدر الضخم من المادة التاريخية الخامة او الاصيلة ، وفصلنا امر الواقعية الموضوعية والايجابية التاريخية ، ثم النسبية التاريخية ونظرية ارتباط الماضي بالحاضر . واعقبنا ذلك بالكلام على تطور العلم التاريخي على ايدى النابهين من اصحاب هذه الاتجاهات ، بادئين بفولتير ثم تحدثنا عن ادوارد جيبون والموسوعيين الفرنسيين ، وديفيد هيوم ، وآدم سميث ، وليوبولد فون رانكه ومدرسته ، وجوهان جوتفريد هيردر ، وبارتولد جيورج نيبوهر ، وجيزو ، واوجستان فيرى ، ويوركهارت وميشليه . ووقفنا طويلا عند هيجل والمثالية التاريخية . وانتقلنا بعد ذلك للكلام على مذهب المادية التاريخية الذى ابتكره كارل ماركس وفريدريش انجل وفصلنا الكلام فيه . وختمنا

هذا الكلام عن المذاهب التاريخية بالكلام عن مذهب جديد فى التاريخ يؤمن به الكثيرون من ائمة علم التاريخ فى عصرنا وهو مذهب التاريخ الكلي . ويراد به التاريخ للعصر الذى تؤرخ له بصورة كاملة تتناول كل نواحيه سياسية كانت ام اقتصادية ام فكرية ، لان هذه النواحي مجتمعة تعطي الصورة الحقيقية للعصر الذى تؤرخ له . ثم تكلمنا عن اعلام التاريخ فى عصرنا مثل كولنجوود وكروتشي وشبنجلر وتوينبي ، وشرحنا مذهب كل منهم شرحا وافيا ولكنه مبسط على نحو يستطيع معه اى قارىء مثقف ان يفهمه فهما صحيحا ، لاننا لاحظنا ان معظم النظريات العلمية والادبية لا يفهمها القارىء العربي فهما صحيحا ، لان الذين يتولون تقديمها اليه لا يقدمونها اليه تقديما صحيحا اولا ، ثم انهم يصوغون كلامهم على نحو لا يستطيع القارىء العادى معه ان يدرك حقيقة هذه النظريات والآراء ، وخذ مثلا نظريات داروين وانظر كيف يفهمها الناس عندنا .

• • •

وتناول **د. شاكر مصطفى** موضوع « التاريخ بين العلوم » تناولا جديدا من كل ناحية . وجعل مقاله مقدمة للموضوع نفسه الذى تصدى له ، فطاف بنا طوافا بعيدا فى موضوع علم التاريخ بادئا بالكلام على الانسان نفسه وهو صانع التاريخ ، او اداة تنفيذ الحوادث بتعبير ادق ، ثم وقف طويلا عند الاجابة على سؤال رئيسى هو : **هل التاريخ علم ؟** فعرض آراء الكثيرين من اساتذة ذلك العلم فى الغرب ، وتحدث عما سماه « ثورة التاريخ » فى عصرنا ، وهى ثورة حقيقية تشمل الانسانية كلها وعلومها ومن بينها التاريخ . وتناول اسباب هذه الثورة ومداها وقال ان ثورة التاريخ اليوم رغم انها تجرى فى « الصمت الاخرس » ، تسهم فى الانقلاب الجذرى للفكر الانسانى ، وقال ، انها قائمة متصلة « بهذا الانقلاب فى وقت معا ، ابعادها تتناول مادة التاريخ تناولها لمناهجه ومداره فى العمق والشمول » وتناول بالمناقشة عوامل تلك الثورة فى ميدان التاريخ فتحدث عن تضخم مادته فى عصرنا الراهن بزيادة عدد الأمم التى بلغت الوعى واخذت تكتب تواريخها ، ثم تناول الثورة من ناحية المنهج وذكر كيف ان التاريخ ما كان يمكن ان يظل بعيدا عن الثورة العامة التى تشمل مناهج العلوم جميعا .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ثم تحدث عن التاريخ « لا كأحداث تمر الزمن ، ولكن كممارسة فكرية وجهد تكوينى » وهنا يتناول موضوع التاريخ بتفصيل طويل بعد ان يعرض لآراء عدد كبير من المشتغلين بهذا الموضوع من شيوخ الفن . ثم يقف وقفة طويلة عند موضوع « الزمان » وتحديد معناه ، وهو فصل طويل من فصول الفلسفة . ولكنه فى نفس الوقت موضوع اساسى من موضوعات التاريخ . لان التاريخ يدور فى الزمان ، وبلا زمان فلا تاريخ . ويعقب ذلك بالحديث عن الماضى وامكان معرفته ، ووسائل هذه المعرفة ، وهل يمكن ان تكون كاملة . ويقف طويلا عند سؤال شغل بال الكثيرين من المؤرخين وهو : الى اى حد نستطيع القول بان التاريخ الذى نقرؤه هو الصورة الحقيقية لما مضى من الاحداث ، وينتهى الى القول بان معرفتنا التاريخية لا بد ان تكون جزئية ومحدودة .

وعلى هذا النحو الفلسفى الرفيع يمضى شاكر مصطفى فى تناول موضوعه الواسع العسير . وهو يقف عند كل صغيرة ويناقشها مناقشة فلسفية مدعمة بالحجج مما قرأ من اصول التاريخ وكتب المؤرخين وما عاناه هو نفسه كمؤرخ نشيط لا يكف عن التنقيب فى نواحى

ذلك الميدان الواسع من ميادين المعرفة الانسانية. ويستوقف النظر كلامه عن « الحادث . وما يراد به ثم حركة التاريخ وما هى » وميكانيكية العملية التاريخية » وهنا يعرض عشرات من آراء اعلام التاريخ فى تلك المشاكل التى تعرض لها وخاصة المعرفة التاريخية وطبيعتها وحدودها وينتهى بأن يضعنا على عتبة موضوع دراسته وهو «مكان التاريخ بين العلوم .. فيتحدث طويلا عن عملية التاريخ ، ثم عن الموضوعية وما هى وما حدودها ، والنقد التاريخى والذاتية التاريخية والسببية التاريخية وما الى هذه من الموضوعات التى يثيرها فى ذهن القارىء ذلك البحث الممتع .

• • •

وننتقل بعد ذلك الى المقال الثالث وهو الذى كتبه **د. عبد الرحمن بدوى** عن احدث النظريات فى فلسفة التاريخ .. وعبد الرحمن بدوى فيلسوف أصيل الف فى الفلسفة ما يمكن أن يوصف بانه موسوعة كاملة تتناول كل مسائلها وعصورها ، وهو يتناول الموضوع هنا تناول الخبير العارف بكل كلمة يكتبها ، وهو يسير فى موضوعه سيرا منهجيا دقيقا يضع السؤال ويجيب عليه ثم ينتقل الى الذى يليه ، وهكذا حتى يستوى بحثه على احسن وجه يكون .

وهو ــ كفيلسوف ــ يبدأ بالكلام عن الزمان ، ويعطينا فى سطور آراء اهم الفلاسفة الذين تعرضوا لذلك الموضوع الذى تعرض له شاكر مصطفى فى بحثه من وجهة نظر المؤرخين . ثم ينتقل الى الكلام عن مسار التاريخ وهل هو يسير فى خط مستقيم او فى دوائر . ويتحدث عن كثير من المشاكل التى تناولها شاكر مصطفى ولكن فى اسلوب فلسفى كمسألة النسبية التاريخية ، والعلية التاريخية وامكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ ، ومن تعرضوا لبحثها من اعلام فلسفة التاريخ . ويقف عند الكسيس دى توكفيل ويعقوب بوركارت وفريدريش نيتشه وكارل ياسبرز .

ثم يخصص فصولا ضافية حافلة بالعمق لعدد من فلاسفة التاريخ فى العصر الحديث وهم فلهلم دلتاى ورأيه فى تاريخية الانسان . ثم يتحدث عن جورج زمل ونظريته فى نسبية المعرفة التاريخية . ورأيه فى امكان وجود قوانين تحكم سير التاريخ .

وبعد ذلك يتحدث د. بدوى عن بندتو كروتشى وفلسفته التاريخية ، ويعطينا عرضا شاملا موجزا لآراء هذا المفكر الايطالى الذى يعتبر فى طليعة فلاسفة التاريخ فى عصرنا هذا . وليس من اليسير ايجاز كلام بدوى هنا ، لانه فى ذاته خلاصة دقيقة لدراسات واسعة فى كروتشه وكتبه ، وخاصة ما يتعلق منها بالتاريخية المطلقة .

ويقف بدوى بعد ذلك عند كارل ياسبرز وهو من أكثر فلاسفة التاريخ تعقيدا ، ولكنه استطاع ان يشرح لنا آراءه شرحا وافيا ، يوضح جوانبها ، وخاصة فيما يتعلق بالموضوعات الرئيسية التى تعرض لها مثل حدود التاريخ ، والتراكيب الأساسية للتاريخ ، ووحدة التاريخ والوعى التاريخى ، والعلو على التاريخ ، والتاريخ والكون والوراثة والمنقول والفردى والكلى .

وقد استطرد بدوى عن الكلام عن اشبنجلر لان له عنه كتابا كاملا ، ولم يطل الوقوف عند آرنولد توينبى لانه فى الحقيقة مؤرخ لا فيلسوف تاريخ ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل فى المقال الاول من ذلك المجلد .

ونصل الى المقال الممتع الذى كتبه د. **محمد عواد حسين** عن صناعة التاريخ الى كتابته ، فقدم لنا دراسة منهجية ذات اهمية كبرى فى المنهج الامثل لكتابة التاريخ . وهذه الدراسة ذات قيمة عظيمة لأى مشتغل بهذا العلم . واذا كان طالب التاريخ فى الجامعة ، وخاصة طالب الدراسات العليا فى التاريخ ، يفيد اعظم الفائدة من هذا المقال فان كل مؤرخ ـ حتى أولئك الذين تمكنوا من المنهج التاريخى ، والفوا كتبا تعتبر عيونا من مؤلفات هذا الفن ، يفيدون من ذلك المقال ويجدون متعة وفائدة فى قراءته ، اذ ان كاتبه خبير بذلك الموضوع سواء بما الف ونشر من الكتب عن الاغريق والرومان ، أم بما تولى من تدريس هذا الموضوع لطلاب الدراسات العليا فى اقسام التاريخ فى مصر والكويت .

ولقد قرأته فى امعان وروية وخرجت من قراءتى بمعرفة ادق وبطريقة مثلى فى التجويد فى الصنعة التاريخية ، لأن د. عواد يسير بنا خطوة خطوة من جمع المادة الى ترتيبها وتصنيفها ، الى صياغتها فى صورة مقال او كتاب ، واحسب ان هذا المقال ينبغى ان يكون فى مقدمة ما ينصح اهل التاريخ جميعا بقراءته ، والتفكير فيه وتطبيقه تطبيقا دقيقا .

• • •

ونصل اخيرا الى مقال : **التاريخ ومشاكل اليوم والغد** الذى يهديه الينا **د. محمد الطالبى** وسط هذه المجموعة من الابحاث والدراسات عن علم التاريخ .

و د. الطالبى طراز فريد من مؤرخى العرب المعاصرين ، فهو تونسى من نفس المدرسة التى اخرجت لنا ابن خلدون التونسى الاصل مثله ، ودراسته عربية فرنسية ، تجمع بين اصالة العلم التونسى التى تتجلى فى اعمال مفكرين تونسيين مثل سعيد بن عبد السلام المعروف بسحنون ـ درة التاريخ الفكرى التونسى الخالص فى العصور الوسطى ، ومحمد بن ابى زيد القيروانى الذى شأى اضرابه من فقهاء المالكية برسالته الصغيرة حجما العظيمة قدرا والتى تعتبر ـ فى رأيى ـ من اجمل وادق ما كتب فى الفقه على مذهب مالك امام دار الهجرة .

وثقافة د. الطالبى بعد ذلك فرنسية ، وقارئه يستمتع وهو يقرؤه بهذه الطلاوة التى يعرضها كل مطلع على الكتابات الفرنسية ، فان المفكر الفرنسى عادة دقيق فى تفكيره ودقيق فى تعبيره ، وهذه الدقة لا تحول دونه ودون العمق والشمول والنظرة الواسعة ، وهذا بالضبط هو ما يجده القارىء فى مقال د. الطالبى الذى يحمل الينا جدّة فى الاسلوب واصالة فى التفكير. ومع أن الموضوع الذى طلبنا اليه الكتابة فيه موضوع عسير وهو « التاريخ ومشاكل اليوم والغد » الا انه عرف كيف يتناوله تناول استاذ جمع اطراف الفن التاريخى فى يديه ، ومضى بنا فى مباحث ومسارات من التفكير تحمل الينا طعم الفكر الفرنسى وما يمتاز به من ذكاء وحدة .

واقرأ مثلا كلامه البديع عن موقف الانسان والتاريخ اليوم ، واستمع اليه يجيب عن سؤال عظيم الاهمية وهو : « هل الحوادث اى الهزات العظيمة التى اعتاد ان يسجلها التاريخ هى حقيقة اجل ما يوجه عجلة مصيرنا ؟ وجوابه « ان الزلازل التى اعتاد ان يسجلها الانسان فى ذعر

محمد الطالبي *

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما فائدة التاريخ بالنسبة لمشاكلنا اليوم وغدا ؟ وما هو مستقبله في عالم التقنيات والعلوم التجريبية ، والقوانين الكونية التي تضع بيد الانسان مقاليد التحكم في المصير وتكييف العالم الحاضر والقادم ؟ انه يحسن بالمؤرخ ، وبكل ذي علم على الاطلاق ، ان يقف من حين الى حين وقفة تأمل وتساؤل من جدوى العلم الذي وهب له حياته . ولعل هذه الوقفة اوكد ما تكون في ايامنا هذه التي اخذت فيها البشرية تخرج من جلدها ، وتقفز في الاجواء العليا محققة ما انبأ به التنزيل ـ « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان » (١) ـ وما ورد في الأثر : « لو تعلقت همة بني آدم بما وراء العرش لنالته » . فاليوم اعطيت البشرية سلطانا عظيما ، وتاقت همتها الى ما وراء العرش ، وقبلت

---

* الدكتور محمد الطالبي استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الآداب بالجامعة التونسية . يمتاز بثقافة واسعة وعلم غزير بتاريخ الاسلام العام والمغرب خاصة معظم مؤلفاته بالفرنسية . آخرها عن ابن خلدون وفلسفته التاريخية والاجتماعية نشره بالفرنسية .

(١) الرحمن ، سورة ٥٥ ، آية ٣٣ .

التحدى . فما سيكون المصير ؟ وما دور المؤرخ والتاريخ فى هذا الوضع الجديد والانقلاب الحاسم .

فالانقلاب اليوم اجسم واهول بكثير مما شاهده فى زمانه مؤرخ عربى فذ ، حضرمي النسب ، اندلسي الاجداد ، تونسي المنبت ، مغربي التجربة والتنقل ، ومصرى الخاتمة والمنقلب ، اعنى **ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون** (٧٣٢ ـ ١٣٣٢/٨٠٨ ـ ١٤٠٦) حيث كتب فى ذلك الاسلوب المحكم الصادر عن وضوح الملاحظة وعن نفاذ بصيرة مدهش : « واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من اصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون احوال الخليقة والآفاق (٢) » .

ولعهدنا هذا الذى نعيش فيه فنحن اضعاف اوكد حاجة الى من « يدون احوال الخليقة والآفاق » ، احوال الخليقة عامة ، لا احوال بعض الجماعات المنفردة مهما كانت هامة فى حد ذاتها ، او عزيزة على نفوسنا لسبب من الاسباب. ذلك ان « الخلق الجديد » الذى نعيشه ، حسب عبارة ابن خلدون ، ان لم يكن اول خلق للبشرية من نوعه ، فهو بدون منازع اجسم من كل ما سبق ، وهو اجسم منعرج من تلك المنعرجات العديدة التي تسوق حتما الخليقة نحو مصيرها .

ثم ان البشرية ، ان كانت قديما تساق نحو مصيرها فى غيبوبة بين الغفلة والوعي ، فهي اليوم يزداد وعيها وضوحا اكثر فاكثر ، وهي تعالج فى تعثر توجيه خطاها عن يقظة وتبصر نحو اهداف لم تتضح لها بعد كامل الوضوح ، يطغى عليها ذلك الجانب المادى الصرف الذى حذر منه ابن خلدون (٣) . فالوعى البشرى الجماعي اخذ يتفتق من اكمامه ، اكمام الحدود العديدة ، حدود الانحياز ، وضيق الاذهان ، والتعصب الطائفي او الاقليمي ، او الجنسي ، وغير ذلك مما يسد الافق ويحول دون الشمول ووضوح الرؤية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الانسان والتاريخ اليوم :

ان الكائن البشرى يمتاز من بين كل الكائنات بالذاكرة ، ذاكرة فردية وذاكرة جماعية ان التاريخ هو ذاكرة الجماعات هكذا كان قديما ، وهكذا هو اليوم . غير اننا اليوم توغلنا فى منعرج سوف يصبح فيه التاريخ ، عندما يبلغ التطور غايته ، ذاكرة الجنس البشرى بدون حصر او تقييد .

والحقيقة ان هذا التطور الذى سيجعل فى النهاية من التاريخ ذاكرة الجنس الذى ننتمي اليه بدا منذ احقاب او قرون ، لكن بصفة بطيئة وئيدة ، لا يسلك سبيلا واضحة سوية ، بل كثيرا ما يتيه فى ادغال التعصب والتحزب والشعوبيات ، قبل ان يعود الى الجادة على يد بعض الرواد الافذاذ الذين لم تنطمس امامهم السبيل مهما نسجتها من جنوب وشمال . ولنا الى هذه الناحية من البحث عود .

وريثما يتم التطور الذى نعتقد ان التاريخ سوف يصبح فى نهايته علما حقيقيا ـ وان اختلف عن علوم الطبيعة ـ فما نشاهد اليوم ؟ ما التاريخ ، وما علاقته بالانسان فى يومنا هذا ، وفى هذه

---

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ص ٥٢ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٥١ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ـ ٦٧٤ .

المرحلة الحاسمة التي تقطعها بين ماض يزداد تشعبا كلما زدنا في درسه تعمقا ، ومستقبل نحن على ابوابه في منزلة بين المنزلتين ، يتقاذفنا الوجل والأمل ؟ ان كل من اعتاد تقليب الصفحات الصفراء ، صفحات تواريخنا القديمة ، وكل من راض نفسه على سبر بطونها ، ونفض غبارها ، واستكشاف ما احتوت عليه من افراح واتراح ، لعله يجنح الى الظن الى ان كلمة تاريخ انما هي مرادف كارثة او عجيبة .

هكذا فهم اجدادنا التاريخ عندما كان في طور الطفولة ، لم يتخلص بعد من خضم الاساطير التي منها طفا شيئا فشيئا . كان بعضهم يقصد منه التسلية ، وبعضهم يسجل به مفاخر القبيلة ، او مآثر الآلهة ، وهذا يجعل منه مدرسة عظة وارشاد ، والآخر يضعه للملوك كي يكتسبوا من خلاله ما يحتاجون اليه من خبرة سياسية اويستغلوه لتدعيم ملكهم وسلطانهم . وهكذا اتت التواريخ تدوي بصليل السيوف ، وتقطر دماء ، وتضج بالتهليل والتكبير ، او بالتدبيب والعويل . وهكذا وردت في شكل حوليات شحنت بكل حادثة جليلة اعتبرت جديرة بأن تسجل على صفحات التاريخ الغراء او السوداء .. فاذا بصفحات هذا التاريخ تكاد تكون خالية من وصف الانسان في حياته اليومية ، واذا بك تلتمس الانسان العادي الذي تنبض فيه الحياة ويكسوه اللحم والدم ، وتبحث عنه في بطون هذه السجلات القديمة ، فلا تكاد تعثر له على اثر . هنا ايضا كما هو بالنسبة لعلوم اخرى ، طغى التغريب والولوع بالشاذ على ما به العمل وعليه المعول . الحوادث احتلت كل مكان ، وطردت في النهاية الانسان . وبقيت هذه النزعة العتيقة التي لا ترى في التاريخ الا وعاء لأهم الحوادث وذكرا مفصلا لها مسيطرة على كثير من العقول الى يومنا هذا ، اذ انصارها المخلصون لها لم ينقرضوا بعد ولم يستسلموا ، وان قلت صفوفهم وخفتت اصواتهم .

ARCHIVE

ذلك انه قويت نزعة اخرى جعلت التاريخ يعير اكثر عناية للانسان العادي ويوجه نحوه الانوار التي كانت مقصورة على الحدث البارز الذي كثيرا ما كان اروقة البلاط او ساحة الوغى . وهذه النزعة اكثر كشفا عن واقع الانسان ، واجزل فائدة بالنسبة الينا ، بالنسبة لعقلياتنا ، ومتصوراتنا ، وحاجات يومنا ، فنحن لا ننكر ـ وهذا ما يجب ان نؤكده حتى لا نتخلص من تطرف لنقع في تطرف معاكس ـ ما للحوادث الحاسمة من قيمة ممتازة . غير ان هذه الحوادث ، مهما كانت جسيمة ، فهي لا تزيد على ان تكون شبيهة بتلك التجاعيد التي تكسو سطح البحار . فهي وليدة ما يجري في الاعماق ، وتلك الاعماق هي ، بالنسبة لنا ، بواطن روح الانسان العادي ، وصروف حياة الشعوب الكادحة ، وما يطرأ على المحيط التي يحويها من تغير وتفاعل يهتز له بعنف ، من حين الى حين سطح التاريخ . لقد اعتاد التاريخ التقليدي ان يسجل الهزات السطحية ، واصبحنا نبحث عن اسبابها البعيدة واسرارها الدفينة . ذلك هو التغير الجذري الذي طرأ على العلاقة الجدلية التي تربط الانسان ، انسان اليوم ، بتاريخه . فمن موقف الاندهاش امام الرجات التي كان يكتفي بتاريخها ، اي بضبط زمانها ، خرج الى البحث عن اسبابها . ومن ادراك ؟ لعله اذا ما اهتدى الى الكشف عن العلة وجد السبيل الى تفادي ما يتبعها من محن واحن ، او حال دون وقوعها ولنا الى هذا عود .

ثم لنا سؤال آخر ، هل الحوادث ، اي الهزات العظيمة التي اعتاد ان يسجلها التاريخ مهما بدت ممتازة ، هي حقيقة اجل ما يوجه عجلة مصيرنا ، واجدر ما يستوجب عنايتنا ؟ واذا ما اردنا ان نضرب مثلا قلنا : اي شيء اشد اثرا في تكييف وجه البسيطة ، الهزات العنيفة

التي ترتعد لها الفرائص والقلوب ، أم التعاريج الهادئة البطيئة التي لا تثير الانتباه ولا يحسب لوجودها ادنى حساب ؟ الجواب اصبح اليوم يسيرا لأن الجيولوجية علمتنا ان الزلازل التي اعتاد ان يسجلها الانسان في ذعر وفزع لا تزيد على أن تخدش وجه الارض خدشا يكاد لا يبقى له اثر ، بينما التعاريج الوديعة الخفيئة على العيان هي التي تكيف الجبال والاودية والبحار .

فهذا الاكتشاف جعل الانسان اليوم يقيّم الدوافع التاريخية ــ او الاسباب ان شئت ــ تقييما جديدا . اننا اصبحنا لا نقيس هذه القيمة بمقياس خطورة الكارثة ، وشدة المحنة ، وعدد القتلى . فكم من كارثة رهيبة ، أو انتصار باهر ، لم يغيرا مجرى التاريخ بقدر انملة ، وكم من دقيقة لطيفة ، لم ينتبه لها أيام ظهورها لدقتها ، اسفرت عن جسيم العواقب . فاكتشاف العجلة ، واكتشاف صنع الفولاذ ــ وليسا من الحوادث التاريخية بالمفهوم العادى القديم ــ غيرا وضع البشرية . وكذلك اكتشاف العالم الجديد ، وشق السبيل الى الهند عن طريق البحر ، قد عملا لتقويض قاعدة العرب الاقتصادية ولتدهورهم وانحطاطهم ، ما لم تعمله الحروب الضوارس . فالحوادث اذن ، جليلها ودقيقها ، لبنة لا يستغنى منها طبعا التاريخ ، الا انها ليست التاريخ كله .

فليس التاريخ اذن ، في نظر انسان اليوم ، كما كان الشأن بالنسبة لانسان الامس ، سلسلة من حوادث متعاقبة في زمن مضى ومنسوبة الى الاهمية بوجه وبدون وجه . فاذا خرج التاريخ ان يكون هذا تعريفه ، فما هو اذن ؟ فلقد عرّفه بعضهم بانه « علم الماضي » غير ان هذا التعريف لا يرضى تماما ايضا ، لان الماضي وعاء لكل مظاهر الكون ، بمختلف اشكالها والوانها ، يتسع للجيولوجية ، ولعلم تطور الحياة ونشوئها وارتقائها ، ولعلم الفلك وغيره . فلكل صنف من اصناف الكائنات ، من جماد ونبات وحيوان تاريخ وهذا التاريخ له علماؤه وله اختصاصيوه .

وكذلك للكائن البشرى تاريخه ــ في جملة الكائنات ــ اذ ان هذا الكائن لا نستطيع ان نتصوره الا في محيط وفي وضع وحالة . فالتاريخ اذن علم الانسان في وضعه واحواله المتبدّلة دائما ابدا . فهو علم نطلب منه ان يساعدنا على حل لغز الحياة ، وفي حقه طبعا حلّ للغز الكائن البشرى على العموم . وهذا العلم لا يبسط سلطانه طبعا الا على الماضي ، الا ان هذا الماضي التاريخي من نوع خاص . فهو ليس بماض قارّ ذي حدود معينة ثابتة . هو ماض في امتداد مستمر . فهو كالظل يأكل في كل آن ولحظة الحاضر ويتحفز ليرخي سدوله على المستقبل . فالتاريخ اذن ليس علم ماضي الانسان ، بل هو علم تطور الانسان بلا انقطاع على مدى الزمان . فهو علم يعدو وراء الانسان محاولا ان يدركه وان يفهمه ويفهمه ، وان ينيره لنا في مختلف المراحل المتتابعة المتداخلة التي مر بها ، ويتجه نحوها ويدأب على المرور بهاوطيها في طيات التاريخ .

غاية التاريخ اذن وهدفه ان يشرح لنا الانسان . وهكذا يتضح لك ان الحوادث ــ بارزها وما خفي منها في الاعماق ــ ليس لها في حد ذاتها ، من حيث هي حوادث مجردة كبير قيمة ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني . ذلك انما تصبح الحوادث ذات قيمة عندما ينطقها المؤرخ بعد خرس باستفساره اياها والحاحه في سؤالها عن قدر مسئوليتها ومدى تاثيرها في تغيير وضع الانسان وتوجيه مصيره . فالتاريخ اذن غايته ورسالته ان يفهم ، ان يربط العلل بالمعلولات والاسباب بالمسببات ، وان يجعل من كامل الواقع المتشعب والمترامي الاطراف شيئا له نظامه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وانسجامه اضطرارا والزاما بحكم التسلسل والتولد المنطقي. التاريخ بناء منطقي لعالم الانسان. واذا كان الامر كذلك فانه ينبغي – كي يكون البناء متين الاسس وفي مأمن من مزالق الخيال – ان لا يهمل المؤرخ اي مظهر من مظاهر الواقع ، اذ هذا الاغفال قد يؤدي الى عدم الفهم ، او الى شر من ذلك ، الى سوء الفهم واشادة قصور من ورق سرعان ما تنهار وتسلم اصحابها الى اوخم العواقب . انه يستحيل عليك مثلا ان تفهم الانسان فهما صحيحا مفيدا اليوم وغدا – والانسان هو موضوع علم التاريخ – اذا اكتفيت باحصاء الكوارث ، واذا اجتهدت في وضع قوائم الحوادث. اذ الانسان كلٌّ لا تفهمه ما لم تعتن ايضا بحياته الاقتصادية ، والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية عامة ، وغير ذلك مما يكوّنه ويكوّن بيئته وماهيته . ولذا ترى المؤرخ اليوم يلجأ الى تخصص ادق فادق حتى يتمكن من اداء رسالة التاريخ على وجهها ، اي حتى يتمكن من اعانتنا على فهم ذاتنا اكثر فاكثر . وذلك ان سبل التاريخ في تشعب مستمر كلما ازداد موضوع بحثه تعمقا واتساعا وكلما ازداد وضع الانسان تعقدا ، اي كلما ازدادت انسانية الانسان تكاملا على مر التاريخ وبفضله .

فهناك حركة جدلية بين الانسان والتاريخ . فالتاريخ يضع الانسان ويكيفه ، والانسان هو الذي يصوغ التاريخ ويصوره . لا تاريخ لو لم ينقش الانسان التاريخ على صفحات ذهنه قبل ان ينقشه على صفحات ابقى على مر الزمان . فالانسان ، في علاقته مع تاريخه ، فاعل منفعل . فهو يجلي هذا التاريخ في مرآة فكره ويقلبه الى منصورات محكمة الهيكل ينعكس تأثيرها بدورها على اتجاه مصيره . فلا وجود للتاريخ ، كما لا وجود للزمن الذي هو وعاء التاريخ ، اي لا وجود للظروف والمظروف لولا الفكر الذي يفكر التاريخ والزمن . انما التاريخ من خلق فكر الانسان فليس الانسان اذن ريشة تسير في اتجاه ريح التاريخ ، انما هو يريد ان يكون ارادة تحاول ان تجري الرياح بما تشتهي السفن ، فيمكن السيل ويخضعه لعزيمته .

لكن التجربة البشرية التي بلغها علمنا حتى الآن تعلمنا ايضا ان سيل التاريخ يجرف الانسان في تياره . فهل لهذا السيل اتجاه وغاية ، وهل يتوجه الانسان ، او يوجّه من طرفه ؟ هذا مشكل من اشد المشاكل تعقدا واستعصاء على الحل انكب عليه فلاسفة ومؤرخون عديدون ، وبالرغم مما اسال من حبر فهو لم يزل الى يومنا هذا قائما ، شائك الجوانب ، حافزا للتحمس بل قل للتعصب ، في اتجاهات متناقضة (٤) ، وسوف لن يزال كذلك الى امد بعيد . ذلك ان

---

(٤) انه يعسر الاستيعاب في هذا الصدد . لكن يمكن ان نحيل القارىء على المصادر التالية التي هي من اهم ما كتب حول الموضوع :

L'homme et l'Histoire, Acts du VIe Congres des sociétés de Philosophie de Langue Française (Strasbourg 10-14 Septembre 1952) P.U.F., Paris 1952.

في هذا الصدد يبسط المؤتمرون آراء اهم القدماء والمحدثين ، من فلاسفة ومؤرخين في القضية

L'Histoire et ses interprétations ; Entretiens au tour de Arnold Toynbee, sous la direction de Raymond Aron, Paris 1961.

في هذا المؤلف نجد نقاشا لآراء ارنولد توينبي – بحضور الكاتب نفسه – وكثير من هذه الآراء تدور حول اتجاه التاريخ وعلاقته بارادة الانسان

Janus, No. IV, Paris Décembre 1964 — Janvier 1965, Ansacré a la question,, **L'Histoire a-t-elle un sens ?**

Rene Sédillot, **L'Histoire n pas de sens,** Paris, A. Fayord, 1965.

M. Talli, **Ibn Khaldun et l'Histoire,** Maison Tunisienne de L'Edition, Tunis 1973.

جدلية ارتباط الانسان بالتاريخ لعلها في قرارتها تلتحق بجدلية الجبر والاختيار التي اعيت كل العقول ، لانها ولا شك تتعدى الادراك الذى يحشر دون استيعاب كل اطراف القضية ـ وهو شرط لحلها ـ في مرحلتنا هذه التي وصلها نمونا الفكرى وبلغتها قدرتنا على الالمام . فالامر بالنسبة للقول بحتمية اتجاه التاريخ لا يختلف في جوهره عن الاعتقاد في ابرام القضاء والقول بالجبر . واذا ما اعتقد المرء هذا اعتقادا صادقا لا لبس فيه ، اداه حتما هذا الاعتقاد ، بحكم التولد المنطقي الاضطرارى ، الى اسلام امره الى اعنة القضاء المبرم التي تقود التاريخ ، فتقوده بالتبعية ، فيما ومن تقود ، الى ما لا يعلمه ولا يتحكم فيه . ان هذا التصور مثير ، وهو ، كالقول بالجبر ، يدك ويقوض من الاساس اركان الجهد والاجتهاد والمسئولية . او هو ، في بعض الاحيان ، يخدم سياسة او مذهبية معينة تدعي انها منتصرة ، لاريب في ذلك ، لانها في اتجاه التاريخ ، ولان تطور العالم يداب حتما نحوها . لكن هذا ليس من التاريخ في شيء ، وانما هو ضرب من التزييف والتزوير سوف نعود اليه في حينه .

والذى نذهب اليه هو ان اقرب المواقف الى الصواب في هذه المسالة ، كما هو بالنسبة لمسالة الجبر والاختيار ، هو موقف الاعتدال . ان الانسان في تفاعله مع التاريخ موجه وموجِّه . انه لا شك في نظرنا ان التاريخ لا يخبط خبط عشواء في ليلة دكناء . ان ما نعلمه عنه يفيدنا انه يسير ، من طريق لعلها ليست بالسوية كرمية قوس نحو المرمى ، لكنها تقصد ، مهما كانت منعرجاتها المثيرة الحيرة ، هدفا وغاية . لكن هذه الغاية التي نحوها يسير بنا ركب التاريخ ، ليست في نظرنا ، كما اعتقد البعض نظاما اجتماعيا معينا ، ولا مذهبية سياسية دون غيرها ، انما هي اسمى من كل ذلك ، اسمى وابقى من كل هذه الجزئيات الفانية التي لا تزيد ـ اذا ما نظر اليها من زاوية التاريخ ـ على ان تكون اعراضا متغيرة بتغير الظروف ، زائلة بزوالها . ان الغاية التي يسير بنا ـ او بفضلنا ـ نحوها التاريخ انما هي نفس الغاية التي تحرك كل الخليقة من النشوء الى الارتقاء . ان عجلة التاريخ تدفعنا ، بوسائل شتى تختلف باختلاف الظروف ، وكثيرا ما تكون اليمة قاسية ، نحو انسانية اكمل ، تخلق لنفسها ، في كل مرحلة من مراحل سيرها الى الامام ، الاطار الاجتماعي ، والاقتصادى والسياسي الملائم لوضعها ولنضجها . ان حركة التاريخ الوحيدة التي لا جدال فيها ، هي حركة النشوء والارتقاء ، ذلك هو اتجاهه ، وتلك هي غايته .

ويتضح لنا هكذا ان التاريخ ، اذا ما وضعناه في هذه الابعاد ، لم يبدأ من يوم نقش الانسان مآثره على المدر او الورق ، او حتى من يوم انضج الخزف او سن الحجر وصقله بل من يوم نفخ الله فيه روح الانسية ، وفصله وفضله بذلك عن سائر الحيوان . « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشيء النشاة الاخرة ، ان الله على كل شيء قدير » (٭) . لقد سار العلماء في الارض واجتهدوا كي ينظروا كيف بدأ الله الخلق ، واتضح لهم بصفة لا تقبل الشك ان الانسان في تطور لم يزل مستمرا ، ويؤمل ان يستمر .. ان لم تكن كارثة واجهاض .

والحقيقة ان هذا الاكتشاف ليس بجديد تماما في خواتمه ونتائجه . ذلك ان الانسان ان لم يقم عليه الدليل العلمي قديما كما هو الشان الان ، فقد انتهى اليه بمجرد التامل ، قبل ان

(٭) العنكبوت ، سورة رقم ٢٩ ، آية ٢٠ .

بهديه السير في الارض ، وفحص اديمها ، الى العثور على حلقات السلسلة التي تربط اوله بحالة اليوم . ومن بين المفكرين العرب الذين كان لهم – قبل داروين بقرون – القسط الاوفر في هذا الصدد ، يجدر ان تخص بالذكر اخوان الصفا (٦) ، ومسكويه (٧) (توفي سنة ٤٢١/ ١٠٣٠) وابن خلدون ، الذي يلاحظ فيما يخص نشوء الانسان وارتقائه في سلم الكائنات :

« واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعه ، وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والرؤية ، ترتفع اليه من عالم القردة (٨) الذي اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل . وكان ذلك أول أفق من الانسان وبعده . وهذا غاية شهودنا (٩) » .

ويضيف **ابن خلدون** : « .. فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات في لمحة من اللمحات ، **وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانية بالفعل** كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالافق الذي بعدها ، شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه (١٠) » .

وهكذا يصبح التاريخ وراء الحركة تقدم جدلية يتوق الانسان من خلالها ، وبفضل الانتصار على تناقضاته المتجسمة في اجهاضات الحضارات المتتالية ، الى السالية اكمل **فاكمل . فهو في كل يوم يبني ، بالتطبطل خيباته** المتكررة ، السابقة ، وما الخيبات في هذا الصدد الا جملة من الانحرافات التي ، ان مالت السير في طريق الارتقاء ، لا تقطعه ولا تغير اتجاهه . وهذه الطريق تؤدي الى الافق الذي يلي ، افق يكون فيه – حسب تعبير ابن خلدون – « الانسلاخ من البشرية الى الملكية » ، اى الاقتراب من عالم الروحانيات . ومن يدريك ! لعل في خاتمة مطاف هذه المرحلة ينشيء الله يوما الانسان نشأة اخرى ، لا تقل خطورة عن تلك التي فضله بها وفضله على عالم الحيوان ! فالتاريخ اذن ليس بالنسبة للانسان تسلسلا زمنيا لمجرد ذات الحوادث ، انما هو حركة تطورية جدلية ، يستمر بها الخلق .

هذه الحركة توجه الانسان بلا ريب . لكن هذه الحركة ، في نفس الوقت ، لم يكن ليكون لها وجود لولا الانسان ذو اليد والروية ، لان الانسان هو نقطتها المركزية ومحركها الدافع لها . لا اتجاه

---

(٦) انظر رسائل اخوان الصفا ، ط . بيروت ١٩٥٧ ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ ، وانظر ايضا المؤلف التالي

S. H. Nasr, An introduction to islamic cosmological doctrines, Conceptions of Nature and Methods used for its study by the Ihwan El-Safa, Al-Birun and Ibn Sina, Harvard Universitd Press, 1964.

(٧) انظر الفوز الاصغر ، ط. القاهرة ١٣٢٥ هـ ، ص ٧٦ – ٨٢ .

(٨) الرواية التي اخترناها هنا هي التي اثبتها كاترمار Quatermere في طبعه المقدمة ، باريس ١٨٥٨ ، ج ١ ص ١٧٤ ، وهي التي اعتمدها ايضا روزنتال Fr. Rosenthal في ترجمته الانجليزية المقدمة (ج ١ ص) و (٩ و ج ٢ ص ٤٢٢) نقلا بما ورد في مخطوط المقدمة الذي راجعه ابن خلدون بنفسه وبقلمه والمحتفظ به في استنبول وهذه الرواية هي الوحيدة التي تنسجم مع السياق . اما الطبعات الاخرى المتعددة للمقدمة ، فاننا نقرا بها عوض « القردة » « القدرة » وهذا الاختيار لا يتماشى مع السياق ويأسف له ساطع الحصري في دراساته عن مقدمة ابن خلدون ، بغداد ١٩٥٣ ، ص ٢٠٢ .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٧ .

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٨ .

للتاريخ لو لم يكن ذلك الاتجاه في خلد الانسان الاول كالشجرة في النواة . التاريخ انما هو التجلي التدريجي لحاجات الانسان الكامنة في بنيته الاولى ، واتخاذ الوسائل المؤدية لتحقيقها . فهو خروج مسترسل من القوة الى الوجود ، وتحقيق متواصل للغاية التي يحمل سرّها الانسان في غيب تكوينه وفي الطاقات المودعة فيه ، وان كان لا يدرك دائما على حقيقتها ، وفي كل وضوح تلك الغاية ، وان كثيرا ما اشتبهت عليه السبل ، وانحرف وتاه في معارجها ، واساء استعمال طاقاته ولم يحسن تقييمها وتوجيهها . غير ان الطاقة الموجّهة للتاريخ كامنة فيه بلا منازع . فتاريخ الانسان في الانسان من اول الخليقة .

لكن ان كانت القوى الدافعة للتاريخ كامنة في الانسان ، هل هي متساوية فيه من حيث هو انسان على العموم ، ام هل هي تختلف باختلاف الافراد ، فيكون لبعضهم دور احسم ووزن اجسم في توجيه عجلة التاريخ ؟ انكر بعضهم ـ خاصة بعدما ظهرت المنهجية الماركسية في التاريخ ـ ان يكون للفرد دور يذكر حقيقي في التطور التاريخي، اذ الدوافع الحقيقية كامنة في الجماعات وما يحدث في حياتها من تغيير . **فهي الأعماق** التي تتكون في صلبها التعاريج العظمى التي تغير وجه الكون ، والهزّات التي يرتجف لها من حين لحين . **غير ان هذه النظرية ـ على ما فيها من حقائق لا تجحد ـ تمثل تطرّفا** جديدا في التفسير والفهم يمثل رد فعل معاكس ضد تطرف آخر طغى على التاريخ قرونا طويلة وجعل منه مجموع ملحمة وردية تارة وسوداء تارة اخرى ـ لبعض الابطال المتوّجين وغيرهم . والصواب في نظرنا في **الابتعاد** عن كل انواع **التطرف** ، **وفي التقييم** السليم لتكامل العناصر ، اذ تفاعل الانسان بتاريخه ، على مستوى **الأفراد والجماعات** ، شديد التعقد كثير التشابك ، فمن ينكر الدور الذي لعبه « **انف كليوبترا** » اي سحر شباكها ، في تاريخ مصر وروما ؟ وهل تاريخ انجلترا كان يكون على ما كان عليه لو حذفنا **كرومويل** (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨) Cromwell ؟ وما قولنا في **هتلر** Hitler هل حال عالمنا اليوم كان يكون على ما هو عليه ، لولا هذا الرجل الغريب ، بشذوذ عقليته ، واحتدام مزاجه ، واختلال توازنه ، وقدرته على الهاب الجماهير وتجنيدها ؟ طبعا يمكن ان نلاحظ انه لو لم يجد حطبا جزلا ، لما استطاع ان يبعث الحريق . لكن يمكن ايضا ان نعكس الآية ونقول : لولا قدرته العجيبة على قدح الزناد ، لما اضطرم الحطب ، وما شب الحريق بتلك الصورة التي نعرفها على الاقل . وهكذا نجد دائما في طريقنا تداخل العوامل وتشابكها ، وتفاعل الانسان ، على مستوى الافراد والجماعات ، مع تاريخه . فهو مؤثر مؤثّر فيه ، فاعل منفعل على الدوام بصور واشكال مختلفة تعجز الحصر والاحاطة والاحصاء .

وخلاصة القول ان صلة الانسان بالتاريخ وفهمه له قد تغيرا تغيرا بعيدا منذ تلك الايام الاولى التي لم يكن التاريخ فيها سوى ضرب من الميثولوجية او قصص اساطير الاولين . وان العرب قد لعبوا دورا حاسما في تقدم العلوم التاريخية وكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الأمم الاخرى . فعن طريق منهجية الحديث ، ادخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية ، **والتأكد من صحة الاخبار المروية بفضل قواعد الجرح** والتعديل ، والاعتناء بنقد السند والرجال ، اي بما نسميه اليوم النقد الخارجي . وبهذا جعلوا من التاريخ علما حقا ، ذا جدية ومنهجية . وكذلك قد حاولوا ان يخرجوا به من حدود الاقليمية الضيقة الى حدود اوسع هدفها ان تشمل العالم المتحضر المعروف في زمانهم .

ثم ظهرت مقدمة ابن خلدون التي شكلت منعرجا حاسما في كيفية فهم الانسان لتاريخه وتقييمه له، وما يرجو منه من كشف، لا عن ماضيه فحسب، بل خاصة عن تطور الجنس الذي ينتمي اليه ومصيره. لقد سبق ان بيناكيف اعتبر الناس – قبل ابن خلدون وحتى بعده بقرون – ان التاريخ انما هو رواية صادقة، مرتكزة على قواعد سليمة، عند اهل الجد من المؤرخين، غايتها الالمام بحوادث الماضي والاحصاء العددي لها. لقد حاول الانسان اولا ان يؤرخ للحوادث البارزة، اي ان يكون لنفسه، ولعشيرته، ولقومه ذاكرة تحفظ المفاخر خاصة، وتضبط ازمانها حسب السنوات، من دون ان يحاول ان يفهم فهما عقليا عميقا ضرورة بروزها في زمن وبيئة ما وسر تداخلها، ومدى تأثيرها على جنسه كانسان بقطع النظر عن الشعوبية الضيقة. واول من شذ عن هذه القاعدة اليوناني **توسيديد** Thucyolide الذي عاش بين سنة ٤٦٠ وسنة ٣٩٥ قبل المسيح. فلقد حاول التحليل والتعليل. لكن رغم الومضات الصادرة من حين الى حين عن بعض الافذاذ فان التاريخ بقي، بصفة عامة حتى القرن التاسع عشر مجرد دفتر به تضبط الوقائع حسب وقوعها، مع توخي الصدق والتحري في الرواية اذا كان المؤرخ امينا. وهذا ما جعل **ايف لاكوست** Yves Lacoste يجزم « ان قبل القرن التاسع عشر لم يكتب لاحد ان يفوت توسيديد سوى ابن خلدون : فالاول قد اخترع التاريخ، وعلى يد الثاني اكتسى هذا التاريخ صبغته العلمية » (١١).

فكيف اصبح يا ترى التاريخ علما – بالمعنى المعاصر للكلمة – على يد ابن خلدون ؟ كان ذلك قبل كل شيء عن طريق فهم ابن خلدون للعلاقة الجدلية الخلاقة التي تربط الانسان بتاريخه. ويتجلى ذلك بكل وضوح في تعريفه له حيث يكتب :

« حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني، الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتانس والعصبيات، واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشا عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال (١٢) ».

فهذا التعريف للتاريخ يدهشنا، اذ هو تعريف له كما تفهمه نحن اليوم، بل كما يفهمه انصار الحركة التجريدية الذين حملوا حملة شعواء في مؤتمر سنة ١٩٥٠ بباريس، على من بقي من المؤرخين متمسكا بالطريقة التقليدية في رواية الحوادث واعتبار التاريخ يكفي ان يكون سجلا لها. فابن خلدون يريد عكس ذلك، فهو يريد ان يجعل من التاريخ اداة كشف عن سر « الاجتماع الانساني »، وعن خروج هذا الانسان من « التوحش الى التانس » بفضل الصراع الجدلي الذي يعبّد سبيله، عبر عقبات متجددة، **نحو النشأة اكمل، عن طريق الرقي المستمر** الناشيء حتما عما « ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال »، وطبيعة الاحوال هذه التي يشير اليها

---

(١١) Yves dacoste, Ibn Khaldoun, raissance de l'histoire, passe du tiers-monde, Paris, F. Maspero, 1966, p. 187.

(١٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٧.

ابن خلدون ، ويعتبرها القانون الذى بمقتضاه يسير التطور الضرورى الذى لا يعاند ، انما هى سنة الله « التي توجه شراع الخليقة ، لبثة تارة عنيفة اخرى ، والتي اشار اليها القرآن فى اكثر من آية . وهكذا يصبح التاريخ استكشافا كليا لتطور الانسان ، ومحاولة حل للغز وضعه اليوم فى هذا الكون ، ولمصيره العاجل او الآجل .

وان لم يطبق ابن خلدون آراءه هذه الطموحة الجريئة فى كتاب العبر ، فان ذلك لا يسلبه فضل التعبير منها بغاية الدقة والوضوح . وبعدقانه يستحيل عمليا لا سيما فى زمانه ، تطبيقها من طرف باحث واحد ، فى موسوعة فتحت صفحاتها لتاريخ العالم الاسلامي باكمله . ولعل استعصاء تطبيق هذه الاراء فى كتاب العبر هو الذى جعل ابن خلدون يضمن خلاصة افكاره وعبره واعتباراته خاصة فى المقدمة . وهكذا فتح ابوابها للاجتماع والاقتصاد والمؤسسات ، وضروب الثقافات والعلوم ، لان كل ذلك ان لم يكن تاريخا صرفا بالمعنى الضيق فلا غنى للمؤرخ عنه ولا سبيل لفهم الانسان بدونه .

هل يعين التاريخ على حلّ مشاكل اليوم ؟

لقد حاولنا فيما سبق ان نعالج بعض القضايا الناشئة عن تفاعل **انسان يومنا بتاريخه ،** وان نستكشف **ابعادها** ، ودورها فى هيكلية كيانه ومحيطه . ولقد اتضح لنا ان **الانسان** ، ان كان كما **قيل قديما** « حيوانا اجتماعيا » **فهو ايضا** ، والى **درجة** ابعد ، « حيوان **تاريخي** » **فالتاريخ** يغذّى ويكيّف بصفة اعمق فاعمق على مر الزمان ، شعوره واللاشعوره .

فهل لهذا التاريخ ـ الذى اخذ الانسان يشعر اليوم بوضوح لم يسبق له مثيل بوزنه ـ فائدة عملية ، وهل يمكن ان نقلم منه غنما يلمس بصفة واقعية حسية لحل مشاكل الساعة ؟ ام هل هو علم مجاني ، لا مقابل من ورائه سوى مجرد المعرفة ولذة البحث ؟

هذه قضية قديمة ، وهذا السؤال ليس وليد مشاكل اليوم . ولقد اختلفت الاجابة عن هذا السؤال باختلاف الاوضاع والملابسات ، وباختلاف الامم والشعوب ، وتغير الازمنة والعقليات . لكن ، ان اختلف الناس قديما وحديثا فى تفاصيل الجواب ، فهم متفقون بدون استثناء ان للتاريخ فائدة .

وراوا اولا فوائده فى جوانبه الدينية . كان التاريخ يعتبر علما تكميليا للعلوم الدينية التي كانت تحتل مركز الدائرة بالنسبة للعلوم الاخرى الملتفة حولها ، السابحة فى فلكها . كانت وظيفته بالنسبة للحضارة الاسلامية فى ايام نشوئها ، انارة ظروف البعثة المحمدية ، وما نشأ عنها من غزوات وفتوحات ، وما نشأ عن الفتوحات من مشاكل فقهية تتعلق بنظام الارض حسب فتحها حلما او عنوة ، وبالجزية والخراج ، وقانون اهل الذمة ، كما يطلب منه تفصيل ما ورد فى القرآن من اشارات الى الانبياء ، والرسل والامم القديمة وما الى ذلك . التمس اذن السلف فى التاريخ حلا للمشاكل التي كانت قائمة فى ايامهم ، ووفقوا فى ذلك الى حد بعيد .

وتظهر هذه النزعة بوضوح فى تاريخ **الطبرى** (٢٢٤ ـ ٨٣٨/٣١٠ ـ ٩٢٣) ، وتبرز من اول وهلة جلية ، فى عنوان الكتاب « تاريخ الرسل والملوك » ، كما نجدها مفصلة فى المقدمة التي قدم له بها مؤلفه ، الذى كان فى نفس الوقت محدثا ومفسرا . ولعله يحسن ان نذكر هنا ان التاريخ بدا عند العرب اشبه ما يكون بعلم الحديث ، فى منهجه واسلوبه وطرق روايته . كانت هكذا غاية التاريخ لا تختلف كثيرا من غاية الدين فى حل مشاكل المجتمع والفرد .

ويؤكد **ابن الاثير** (٥٥٥ – ١١٦٠/٦٣٠ – ١٢٣٢) على هذه الناحية ايضا ، غير انه اصبح **يلح خاصة على الجوانب السياسية التي اخذت تحتل المكانة الاولى عندما انقلبت الخلافة الى الملك** ، حسب تعبير ابن خلدون (١٣) . ومعنى ذلك ان التاريخ الذى كان فى اول امره فى خدمة الدين اصبح فى خدمة السياسة . ففي وماله افرغ **مسكويه** (٣٢٠ – ٩٣٢/٤٢١ – ١٠٣٠) وغيره « تجارب الامم » ، كي يغترف من معينها اولو الامر الحلول الملائمة لما يحدث لهم من مشاكل فى سياسة الشعوب التي يديرون شؤونها . وهذا ابن الاثير يعبر عن ذلك بكل وضوح فى تاريخه الكامل الذى وضعه **لبدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الاتابكي ، الملقب بالملك الرحيم** (١٤) ، صاحب الموصل (توفي ٦٥٧ – ١٢٥٩) فهو يبين ما نصه :

فمن فوائد التواريخ : « ان الملوك ومن اليهم الامر والنهي اذا وقفوا على ما فيها من سيرة اهل الجور والعدوان ، ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس ، فيرويها خلف عن سلف ، ونظروا الى ما اعقبت من سوء الذكر ، وقبيح الاحدوثة ، وخراب البلاد وهلاك العباد ، وذهاب الاموال ، وفساد الاحوال ، استقبحوها ، واعرضوا عنها واطرحوها . واذا راوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وان بلادهم وممالكهم عمرت واموالها درت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه . هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الاعداء وخلصوا بها من المهالك ، واستمانوا نفائس المدن وعظيم الممالك . ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخرا .

ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث ، وما تصير اليه عواقبها ، فانه لا يحدث امر الا قد تقدم هو او نظيره ، فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لأن يقتدى به اهلا (١٥) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا شك ان ابن الاثير ، عندما كان يكتب هذه الأسطر ، كان يفكر فى الملك الرحيم ولي نعمته ، الذى استفاد من دروس التاريخ وعظته ، واستعان بها فى سياسة ملكه . **وهكذا حدث تطور فى فهم فوائد التاريخ وغاياته** ، **فاعتبره معاصرو مسكويه** ، وابن الاثير ، ومن اتى بعدهم ، زيادة على اغراضه الدينية ، مدرسة لتخريج الاطارات السياسية ولتخريج الملوك منهم خاصة . وتتخلى هكذا متانة الصلة التي تربط التاريخ ، فى نظر هذا الجيل من المؤرخين والقادة ، بمشاكل الحين والساعة .

---

(١٣) انظر الفصل الثامن والعشرين من الباب الثالث الذى عقده ابن خلدون بمقدمته (ص ٣٦٢ – ٣٧٤) تحت عنوان : « فى انقلاب الخلافة الى الملك » .

(١٤) خير الدين الزركلي ، الاعلام ، الطبعة الثالثة ، بيروت ج ٦ ص ١١١ . ويذكر ابن الاثير تاليف الكامل فى التاريخ لبدر الدين فى الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٥ . ويلاحظ ان هذا الملك ، الذى الف له ابن الاثير كتابه : كان من احسن الملوك سيرة ، مما ينم ما يذكر صاحب الكامل من فوائد التاريخ لسياسة الدولة . ولعله يحسن ان نثبت نبذة مما يروى ابن تغرى بردى فى شانه فى النجوم الزاهرة (ط. دار الكتب ، القاهرة ، ج ٧ ص ٧٠) وهذا نصها : « ... وكان شديد البحث عن اخبار رعاياه ، ما يخفى عنه من احوالهم الا ما قل ، وكان يلزم على القصاد والجواسيس فى كل سنة مالا عظيما . وكان اذا عدم من بلاده ما قيمته مائة درهم هان عليه ان يبذل عشرة الاف دينار ليبلغ غرضه فى عوده ، ولا يذهب مال رعيته . قلت : لله در هذا الملك ، ما احوج الناس الى ملك مثل هذا يملك الدنيا باسرها . وكانت وفاته بالموصل وهو فى عشر التسعين سنة » .

(١٥) ابن الاثير ، الكامل ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ١ ص ٧ .

ولم يشذ ابن خلدون فى هذا الاتجاه العام ، واعتبر هو بدوره التاريخ حقل لتجارب فريد ، ومجال تأمل واعتبار ، وابرز ذلك بصفة جلية فى جبهة موسوعته التاريخية التي اختار لها ، عن قصد وروية (١٦) ، اسم « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » فهوايضا حرص على بيان وتوضيح فوائد التاريخ بالنسبة لأهل العصر وما يحدث لهم من قضايا فكتب منبهاً :

« اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى احوال الدين والدنيا » .

لكن رغم هذا الاتفاق العام حول فوائد التاريخ ، وعدم مجانبته بالنسبة لشئون الحياة العاجلة والآجلة ، فانه حدث تغير جوهرى فى فهم نوعية هذه الفائدة وكيفية استثمارها . لقد رأينا منذ حين ان ابن الاثير كان يرى « انه لا يحدث امر الا قد تقدم هو او نظيره » **اى حسب العبارة** التي شاعت ، وما زالت شائعة فى اذهان الكثير **من ابناء يومنا « ان التاريخ يعيد نفسه »** .

وركز كل من يرى هذا الرأى فائدة التاريخ على امكانية الحصول من خوضه على حلول جاهزة، برهنت على نجاعتها قديما ، لمشاكل متكررة هى بعينها ، او نظائرها .. ويجمع المؤرخون اليوم ، وكل اهل الفكر ، ان هذا وهم وخطأ محض ، وسوء فهم للتاريخ .. ومن العجيب ان ابن خلدون قد سبق ـ قبلنا بقرون ـ الى نفس ما انتهينا اليه من نتائج ونبه الى ما اشرنا اليه من خطأ ، بفضل ما اوتي من عبقرية ، ونفاذ ملاحظة ، ودقة بصيرة ، وقدرة نادرة **على التاليف والتحليل**. فلقد اهتدى الى ان التاريخ لا يعيد نفسه ، واوضح ذلك ايضاحا لا لبس فيه . فكتب فى هذا الصدد ما نصه :

« ومن الغلط الخفي فى التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال فى الامم والاجيال ، بتبدل الاعصار ومرور الايام . وهو داء دوى ، شديد الخفاء ، اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة ، فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد من اهل الخليقة . وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم ، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . **انما هو اختلاف** على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك فى الاشخاص والاوقات والامصار ، **فكذلك يقع فى الآفاق والاقطار والازمنة والدول** . سنة الله التي قد خلت فى عباده (١٧) » .

ويعتمد ابن خلدون فى استنتاجاته هذه على الحضارات العديدة البائدة او القائمة فى زمانه ، كحضارات الفرس الأولى ، والسريانيين ، والنبط ، والتبابعة ، وبني اسرائيل ، والقبط ، والروم ، والفرنجة ، والترك ، والبربر ، وسائر العجم ، والعرب من مضر وغيرها .. فهذه الحضارات كلها تقيم الدليل القطعى ـ كما سبق ان بينا ـ ان التاريخ ليس تكرارا وعودا متواصلا على بدء ، انما هو تطور وخلق . وهذا الخلق لايزال يرتقي فى سلم « التدريج فى المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة (١٨) » . وهكذا ينتهي ابن خلدون الى خاتمة ما كان لينكرها لا **هيجل** Hegel (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) ولا **بول فاليرى** P. Valéry (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) خاتمة تمثل

---

(١٦) المقدمة ، ص ١٢ .

(١٧) المقدمة ص ٤٦ ، انظر ايضا ص ٤٨ .

(١٨) المقدمة ص ٤٧ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خلاصة تجربته الطويلة وتفكيره في جدوى التاريخ بالنسبة لحل قضايا اليوم والساعة ، وهي أنه « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر ، اذ كما اشتبها في امر واحد ، فلعلهما اختلفا في امور (١٩) » . ونتيجة هذا هي « ان العلماء من بني البشر **ابعد عن السياسة ومذاهبها (٢٠)** » . ويعلل ابن خلدون استنتاجه هذا ، الذي جعله عنوانا لفصل من الفصول الاخيرة التي يختم بها مقدمته ، والذي يمثل عصارة ما انتهى اليه في خاتمة مطافه في مجالي المغامرة والتأمل ، « بأن **العلماء - لأجل ما تعودوه من تعميم الاحكام** ، وقياس الأمور بعضها على بعض - اذا نظروا في السياسة ، افرغوا ذلك في قالب انظارهم ونوع استدلالهم ، فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم (٢١) » . ومعنى هذا **ان التاريخ يتحدى المنطق** وان صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها **من الانتزاع وبعدها عن المحسوس (٢٢)** » **اذا ما اقحمت** قهرا في حقله وطبقت عليه اعتباطا ، وكل ذلك لان التاريخ - خلافا للاعتقاد الذي ما زال شائعا في كثير من الاذهان - لا يعيد نفسه ، وذلك لانه خلق متجدد .

لكن اذا خرج التاريخ كما بينا ان يكون يعيد نفسه ، وان يكون وعاء حلول جاهزة او على الاقل جملة من الامثلة تجتلب منها بالاستقراء المنطقي النظائر والشبائه ، هل تبقى له مع ذلك فائدة تذكر لحل ما يعرض لنا من مشاكل في كل حين وساعة من حياتنا اليومية او السياسية ؟ أم هل هو بالعكس ، لا يرجى من ورائه نفع يلمس ، ولا يزيد على ان يكون عبئا **يثقل عبئا الذاكرة ، أو في احسن الحالات انما هو زينة يتحلى بها الرجل** المثقف والاديب الاريب ؟ .

لقد سبق ان قطعنا ، بدون تردد ولا توقف ان التاريخ ليس بعلم مجاني ، وان له نفعا وفائدة . في هذا جملة لا يختلف اثنان ولا يتناطح عنزان . لكن الاختلاف يظهر عند التفصيل وحصر مواطن النفع والفائدة . لقد عرضنا - لنحسن ضبط القضية وفهمها - لبعض آراء القدماء من بين اهم مؤرخي العرب . ولنا الآن على نور ما تقدم ، ان نضبط ابعاد القضية بالنسبة لوضعنا اليوم .

اننا اصبحنا اليوم لا نعتقد ان التاريخ يمدنا بحلول ، لانه لا يعيد نفسه . لكننا اصبحنا نعلم علم اليقين انه يعيننا اعانة جذرية على فهم واقعنا ، بل انه لا فهم لهذا الواقع ما لم نستعن **بنوره الذي لا يعوّض . والفهم الصحيح شرط** اساسي لالتماس الحل الناجع . لهذا نحن نعتقد اليوم ، كما اعتقد اسلافنا ، مع الاختلاف في التقدير ، ان التاريخ مدرسة لتخريج الاطارات السياسية ، او على الاقل انه لا غنى عنه في تكوين الرجل السياسي الذي بيده الحل والعقد .

فكيف يتأتى مثلا لصاحب الامر ان يفهم العالم الحديث ، وتوازن القوى المتصارعة حتى يحسن التصرف والسير بأمته في طريق السلامة ، **اذا ما جهل كيف كوّن هذا العالم في ارحام التاريخ** القريب منه والبعيد ؟ انه من البديهي ان نقول ان تصرفات العالم الغربي ، واختيارات قادته ، وملابسات سياستهم ، تكمن في ذلك الماضي الذي شهد تكون الراسمالية وانبثاق الثورة الصناعية ، وما تبعها من تسابق نحو مواطن الطاقة والمواد الاولية ، وما نشأ عن ذلك كله من توسع ،

---

(١٩) المقدمة ص ١٠١٩ .

(٢٠) المقدمة ص ١٠١٨ .

(٢١) المقدمة ص ١٠١٩ .

(٢٢) المقدمة ص ١٠١٩ .

واكتساح اراضي الغير واوطانهم بالقوة ، ومزاحمات ، ونزاعات مسلحة وانقلابات داخلية تزيد وتقل عنفا ، وظهور مذهبيات اجتماعية ثورية ، وما تبع ذلك كله من انعكاسات اليمة على ما تسميه اليوم بالعالم الثالث ، وعلى وطننا العربي بالخصوص ، الذى ذاق الأمرين نتيجة لانعزاله التدريجي من حظيرة التاريخ ، بعدما كان ، في القرون التي خلت ، مركز دائرته والمحرك الدافع لعجلته .

ولقد كون الغربيون ، لدعم سياستهم المتولدة من الانفجار الصناعي والتقني الذى شهدته ربوعهم مستشرقين عديدين ، وكثيرا من المختصين في شئون البلاد التي اخذوا يغزونها بسلاحهم وتقنيتهم ، وامتداد حضارتهم ولغاتهم ، سواء كانت تلك البلاد في امريكا ، او افريقيا او آسيا ، علما منهم انه لا تحكم في الواقع بدون فهمه جيدا . وهكذا يتضح لك لم كتب تاريخنا ـ اول ما كتب بصفة علمية في عصرنا ـ في لغات الحضارات الغربية الغازية . لم يكن ذلك عملا مجانيا صرفا ، مهما كان حب العلم والاطلاع داعيا اليه . وفي هذا دلالة واضحة بينت التجربة نجاعتها ، على اهمية التاريخ بالنسبة لشئون الوقت والساعة . ونتيجة هذا هي اننا اذا ما اردنا اليوم ان نحكم سياستنا نحو الغرب ، وننجح في علاقاتنا معه ، وجب علينا الا نكتفي بدرس تاريخنا ـ وهو ما نقصر عليه كامل طاقاتنا اليوم ـ بل ان ندرس ايضا تاريخ وحضارات الامم الأخرى التي نتعامل معها اكثر فاكثر . اى انه يجب علينا ان نكون ـ اذا صح التعبير ـ « مستغربين » مختصين في تاريخ الغرب وشؤونه . ولا يذهبن بكم الظن ان ما نعرفه من لغات القوم ، وما نقراه مما صنفه علماؤهم في تاريخهم ومختلف شؤونهم يغني من ذلك ويجزي . فان المثل يقول : « ما حك جلدك مثل ظفرك » . ولعل فشل سياستنا اليوم وسلبيتها في كثير من الاحيان يعزيان الى انعدام المختصين في صفوفنا في شئون الامم التي نتعايش معها او نتصادم . لقد سبق ان قلنا ان التاريخ بقي ايضا بالنسبة الينا ، لكن بمفهوم جديد ، مقوسة لتخريج الاطارات السياسية . وليس معنى ذلك ان رجل السياسة ينبغي ان يكون مؤرخا . ان التاريخ اختصاص يفني ـ كغيره من العلوم ـ الاعمار ، ولا يترك المجال للاشتغال بما سواه . لكن يجب ان يجد القائد السياسي من بني جلده وحوله ، من المؤرخين الاكفاء ، ومن الدراسات التاريخية المتينة ، ما ينير له السبيل ، ويمكنه من ادراك الوضع بوضوح ، حتى يحسن الخطاب والتصرف ، ويحقق النجاح لا لأنه ، كما توهم القدماء ، يستطيع ان يفترف حلولا جاهزة من الماضي يطبقها على الحاضر ـ مما قد يؤدى الى الكوارث الجسام ـ بل لان الحكم على الشيء ، كما بين ذلك المنطقيون فرع تصوره . وفي التاريخ عون عظيم على التصور الصحيح . واذا صح ماقدمنا من مقدمات ، فانه يصح ايضا ان نقول ان اخفاق السياسة في معالجة شئون اليوم ، انما هو الى حد بعيد اخفاق الجامعة قبل كل شيء .

وللتاريخ دور آخر في معالجة شئون اليوم يلعبه على المستوى الداخلي لامتنا العربية . ان هذه الامة تفتتت منذ قرون ، وتجرعت كاس الانحطاط ، وعرفت ذل الخضوع الى الغير ، وهددها الذوبان ، وجربت مرارة الهزيمة . فهل لكل هذه الادواء في التاريخ اعانة على العلاج ؟ طبعا ليس التاريخ عصا سحرية تحقق المعجزات . لكن ـ على هذا البساط ايضا ـ في التاريخ اعانة على الفهم ، والفهم الصحيح طريق الحل .

ان التاريخ من اهم مقومات الشخصية . فالفهم الصحيح له يعين على بنائها ، ووقايتها من الذوبان الذى يهددها ، وعلاجها من الامراض النفسية التي تعترضها ، وتشل طاقاتها . فكما

ان الانسان يحتاج الى ذاكرة ، فهو يحتاج الى تاريخ ، لأن التاريخ هو ذاكرته القومية ، وعلماء النفس يعلمون الاختلال الذى يطرا على التوازن العقلي والنفسي اذا ما فقد المرء ذاكرته . فكما يمرض الافراد لفقدان الذاكرة او اضطرابها ، كذلك تمرض الشعوب لضياع تاريخها او دخول التشويه والتشويش عليه .

وان شئت ان تفهم قيمة التاريخ بالنسبة لحياة الأمم ، وتوازن ذاتياتها الذى هو شرط نجاحها فى معركة الحياة ، فما عليك الا ان تلقى بنظرة على من لم يمنحهم القدر ـ او الحظ ـ تاريخا مرموقا او عريقا ، فهم كثير . فسترى العديد منهم يتألمون ـ عن شعور أو عدم شعور ـ من نقص وبتر ، كثيرا ما ترى قوما ، عظم شانهم او قل ، يبحثون عن قاعدة قارة متينة يضعون عليها أرجلهم ، ويشيدون عليها بنيانهم ، ويستمدون منها قواهم فى صراعهم اليومى . فهم تارة يخلقونها من عدم ، ويحصون كل كبيرة وصغيرة لوضع اسسها الحديثة التي لا عمق لها فى صلب الارض . وقد يرمي الياس بالضعفاء منهم فى احضان تاريخ غيرهم ، فيفضلون هكذا الذوبان فى معين غير معينهم ، والسباحة فى ماء ليس بمائهم ، على البقاء بدون تاريخ . فكأن **الكائن البشرى الذى لا تاريخ له كائن عار لا يجسر ان يظهر** للناس .

غير أنك تسمع أيضا المثل القائل ان الامم السعيدة لا تاريخ لها . كلا ان هذا المثل يرشح **بالاستسلام ، وينبىء** عن الضعف ، وينم عن الخوف ، والكبت ، والميل الى التوارى والنعاس **اللذيذ على هامش الحياة** ، والفشل والخمول والخذلان . هو مثل المقهورين الذين عضهم الزمن بنابه ومال عليهم بكلكله . كأن المحن والاحن ليست **لازمة ، كالافراح والنجاح ، لتكوين الكائن الحي** حقا ، **شحذ العزيمة** فيه ، وتدريبه على المغالبة والانتصار بفضل رياضة طويلة عسيرة لا تدرك **دائما سرها . وبعد فلقد** سبق ان بينا ان التاريخ ليس هو حتما ودائما تاريخ الكوارث والفتك تارة ، والنواح وتضميد الجراح تارة اخرى . ونحن نعتقد ان اهم ما فيه ليس من هذا القبيل . لم اننا نأمل ان يصبح يوما تاريخ عالمنا تاريخ عزة المعرفة ، والتقدم من الكمال والسعادة عن طريق السلامة ، طريق آمنة من حوادث المرور .

ومهما يكن الامر فالتاريخ مدرسة نتعلم من خلالها الاطوار التي مررنا بها فى طريق تكويننا ونضجنا ، مدرسة تعيننا ان ندرك ذاتيتنا ، وان نخرج ذلك الادراك من حيز التصور الغامض الى حيز الشعور الواضح البين . خذ مثلا من نفسك . انت مربي ، تدرك انك مربي لا بحكم الرقعة التي تحتلها من ارض الله ، بل لأن لك ذاتية خاصة تميزك عن غيرك من أهل البلاد الاخرى ، لانك تعرف وجهك فيما يحيط بك ، لانك تحس ان **هناك سببا يربط بينك وبين من سبقك على سطح هذا الوطن من الاجيال المتتابعة** . ان ذلك السبب هو سبب التاريخ . فلو قطعت هذا السبب لأضعت قاعدة ذاتيتك . كما انك ، اذا **سبرت اعماق تاريخك ، وتصورت تصورا واضحا** جليا نوع الروابط التي تربط بينك وبين من غبر ودثر من بني جلدتك ، تمكنت من تعزيز ذاتيتك .. كما تتمكن ايضا من شذبها اذا ما احتاجت الى شذب وتهذيب ، كي يسرى فيها الماء من جديد بفضل بتر الاغصان التي لا خير فيها ، وتستعيد هكذا شبابا متجددا ابدا ، وتستعيد القوى التي تمتصها من اعماق تربتها . والذاتيات القوية **الأصيلة الواعية هي التي تخلق العزائم الصادقة التي تستطيع ان تثبت فى رياح الدهر ، وتتابع** السير الى الامام باعتزاز وكرامة واحترام للغير .

لقد قلنا ان التاريخ يعين على التشذيب لاستعادة شباب ذاتياتنا اذا ما دعت الظروف الى ذلك . وهذا ما قد يغفل عنه الكثيرون لأن الرأى السائد هو ان التاريخ لا يزيد عن شحن وعاء

الذاكرة بمواد تزيد وتقل قيمة . وقلّ ما يهتدي المرء الى ان التاريخ كثيرا ما يكون ، لا شحنا ، بل طرحا للاعباء التي لا خير فيها ، الأعباء او الانقاض التي تتراكم على الذاتية ، وتغشيها بالادران التي تتوالى عليها عبر القرون ، فتخنقها ، ويعشش في زواياها **الكبت وانواع العقد العائقة عن الانطلاق .** فتمرض نفسيات الجماعات كما تمرض نفسيات **الافراد** ، فترى فيها **المركبات** سريان السرطان، **ويختل توازنها الذهان ويشلها العصاب ويدخل** عليها الارتباك . وفي التاريخ بمفهومه العلمي الصحيح علاج لهذه الادواء ، لانه يلعب بالنسبة لنفسيات الأمم والجماعات ، الدور الذي يلعبه التحليل النفساني بالنسبة للافراد .

ولنضرب لذلك مثلا حسيا . اتذكر انك انتبهت اكثر من مرة ـ وقد ضربت في الارض شوطا ومر عليك زمن منذ نزلت من الحافلة ـ انتبهت وانت تضم يدك ، وتعقد اناملك عقدا على التذكرة التي ابتعتها عند ركوبك ، وامرت ان تحتفظ بها كي تدلي بها عند الحاجة ، وتأمن المراقبة والحساب ؟ هل تساءلت عن السر في احتفاظك بتذكرة اصبحت عديمة العائدة بعد نزولك من الحافلة ، واخذك طريقك نحو غايتك على الاقدام ؟ هذه التذكرة فقدت صلاحيتها ، **واصبحت مجرد ثقل يثقل يدك** ، ويعوق حركتك، وانت تحتفظ بها ، فهل مر بخلدك ، وطرق ذهنك ، ان السر في ذلك هو ان الامر الذي صدر عن وعيك الباطن ليدك ولانامك بالاحتفاظ بالتذكرة لم يرفع بعد ؟ .. فاستمرت الانامل المأمورة على الامتثال للأمر **. وان رفعت الاسباب** التي من اجلها صدر ذلك الامر . بقي الامر مرسوما في طيات ، بل في طيات اعماق تغور وعيك الباطن واقصاها ، بقي في غضون اللاشعور كما لو رسم في قائمة الية ، فبقيت تمتثل اليه وانت لا تشعر به شعورا واضحا . حتى اذا انتبهت ووعيت ان الظروف قد تغيرت واستحالت ، صدرت عندها الأوامر بالتخلي عن التذكرة التي اصبحت عبثا لا نفع وراءه . **فتنبسط اناملك** كفك ، وتنطلق انامك وتسقط التذكرة ، وتشعر بنوع من الانفراج ، وبان عائقا قد رفع ، وان عقدة قد حلت ، وانك اصبحت قادرا على ان تصرف قواك التي كانت معطلة الى ميدان آخر ، هو اكثر نفعا ، في الظروف الجديدة القائمة . فخلاصة القصة هي ان نسيانك التذكرة لم يخلصك من عبثها غير الصالح ، وان الخلاص لم يتح ، والعقدة لم تحل الا عندما ادركت ، وتذكرت ووعيت .

وكذلك شأننا مع التاريخ ، فنسياننا اياه ، وتنكرنا له ، واعراضنا عنه ، وغض الطرف لا يعيننا كل ذلك لا قليلا ولا كثيرا على الانفلات من شبكته . فنحن ، ما دمنا نحمله في غضون اللاشعورنا دون فرز وتقييم وتمييز ، فاننا نظل نجر قيودا عديدة من عقائد بائدة ، ورواسب بالية ، واقشاش فانية ، تشوش شخصيتنا ، **وتعطل حركتنا وتثقلها مع انها قد فقدت الحاجة** اليها ، ولا نستطيع ان نتخلص منها وننطلق الا **عن طريق الاضطلاع البصير والوعي الجريء الذي** يمكن من طرح ما ينبغي طرحه ، وابداع ما ينبغي ايداعه في خزانة المحفوظات ايداعا مرتبا منظما . وهكذا نتمكن من شذب ذاتيتنا كي تبقى فتية ابدا ، تؤتي اكلها وافرا جيدا ، من دون ان تتنكر الى عودنا ، ولا تجتث ارومتنا .. واجتثاث الارومة يميت الشجرة ويذهب بالذات ، بينما التشذيب يزيدها قوة ويضمن لها الحياة . ان التاريخ عملية تطهير . فالوعي التاريخي السليم يقوم اذن مقام الوعي الذاتي بالنسبة للافراد : فيه سلامة روح الأمة عن طريق الوعي . فعندما نرتب عن علم

تاريخنا ، ترتب في نفس الوقت عن وعي ما بأنفسنا . و « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٢٢) ، ولقد قيل ان الامم المتخلفة اقتصاديا انما هي في الحقيقة متخلفة تحليلا . وهكذا نجد التاريخ في صلب مشاكل اليوم .

ولننظر الآن – على سبيل المثال ، ومع ترك الباب طبعا مفتوحا في وجه التأويل والتحليل – من بين قضايا الساعة في قضية واحدة وهي قضية الوحدة العربية ... وقضية وحدة الامة العربية هي قضية امم كثيرة تبحث اليوم عن الوحدة وتشعر بالحاجة الماسة اليها على جميع المستويات . ومن بين هذه الامم ، المعطيات الخام التي تمكن من بناء قاعدة هذه الوحدة ، لعلها اوفر عند العرب مما هي عند غيرهم . ولعل الحاجة اليها ايضا اوكد وامس بالنسبة الينا . لكننا نتوق الى الوحدة بصدق ، ونسلك اليها من طريق تؤدي الى التفرقة . لم ؟ انه يستحيل علينا ان نجيب عن هذا السؤال ، وأن نفهم السر في هذا التوق الصادق وهذا التناقض المضني – والفهم كما قدمنا طريق ضرورية نحو الحل – ما لم نستعن بمشعل التاريخ نهتدي في ظلمات الخفايا كي تنير السبيل نحو النجاح والوصول الى الاهداف .

طبعا انه يمكن أن نقتنع باليسير من التفسير ، فنقف عند قول عثمان لاصحابه قبيل ان يُدخَل عليه في بيته ، ويسفك دمه بغير حق : « لئن قتلوني لن يصلوا بعدي جميعا ابدا ولن يقاتلوا عدوا جميعا ابدا » ، فيذهب بنا الظن الى ان دعوة الخليفة الشهيد قد استجيبت ، والى أن العرب لم يزالوا ، ولن يزالوا يحملون دم عثمان على مر الايام ، اذ بذلك قضى القدر . فهذا تفسير ما ورائي لا نطمئن اليه .

غير انه يحمل ضربا من الحق انه ينبغي ان نبحث عن توق العرب الى الوحدة ، وانهماكهم في الانقسام ، في تلك الفترة التي عاشها العرب أيام الفتنة الكبرى ، فتنة صدعت وحدتهم صدعا لم يجبر بعد .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد مر عليهم ، من قبل ، ردح من الزمن تمتعوا فيه بحرية مطلقة ، حرية الفضاء الفسيح حرية المغامرة والغزو والنهب والاخذ بالثار ، حرية الخيام التي ترفع قصد التوغل في الصحارى المقفرة بين الاودية والرمال ، حرية الظعينة الثالية ، والاثافي الباقية ، والقلوب المكلومة الباكية على الاطلال . دهر اباه يشبه اباء الضواري ، قضي عندما ظهر فجر الاسلام ... غير انه ترك في النفوس والعقول آثارا لم يعفُ رسمها مهما نسجتها رياح الدين الجديد . ولعل هذه الآثار مازالت كامنة في طيات اللاشعور الى اليوم .

ولقد حاول الاسلام ان يجعل من المسلمين اخوانا ، وان ينزع ما في قلوبهم من غلّ ، ويمحو حمية الجاهلية . فسعى الى تأليف قلوبهم حول اله واحد ، وكتاب واحد وقبلة واحدة . وسوّى بينهم ، سوّى صفوفهم في الصلاة ، وسوّى طوافهم في ازار واحد محلقين الرؤوس حول الكعبة ، وخفف من التفاوت الاجتماعي بأن جعل – عن طريق الزكاة – حقا للفقير على الغني . وهكذا من هباء القبائل والعشائر والافراد ومن الغل والبغضاء خلق أمة موحدة تربط بين افرادها لحمة الاخوة وتضمن سلامتها عدالة التشريع وتوفير المساواة .

ودارت عجلة التاريخ دورتها . فاذا العصبية تبعث من رمسها – أو قل تستيقظ بعد اغفاء – واذا الحمية تحتدم ، واذا دم عثمان يسفك ، والشمل يمزق تمزيقا لم يلتئم بعده التئاما حقيقيا

(٢٢) سورة الرعد ١٣ ، الآية ١١ .

الى اليوم . لكن بذرة الاخاء والوحدة التي بذرها الاسلام لم تمت ايضا ، فبقيت كامنة في النفوس، لا تورق وتثمر ، ولا تزول وتفنى ، وذلك لأسباب يجب ان يميط عنها اللثام التاريخ ، اذا ما اردنا ان نهيء للبذرة الظروف الملائمة لازدهارها الدائم . لأن السبل التي اعتمدت الى اليوم لم تأت بطائل ولم تسفر عن نتائج قارة ، بل انتهت بنا في آخر الامر الى عكس ما اليه نقصد .

لقد عمد الأمويون الى لم شعث الأمة ، فاعتمدوا في الجملة على السيف الا شذوذا ، ونفخوا في العصبية ، وحاولوا اخضاع شق الى شق ، أو شق بشق . فتتابعت الفتن والثورات وأودت في النهاية بملكهم . وحاول ان يلم شعث الأمة العباسيون ، فاستعانوا بالخراسانية وأوكلوا أمرهم الى المرتزقة من أصناف الجند ، واحكموا نظام البريد والاستعلامات . فلم يغن عنهم ذلك شيئا ، ولم يجنوا من الاعتماد على القوة والبأس شيئا ما ، سوى انقسام دار السلام الى ممالك عديدة ، فلم يبق في يد الخليفة المقتفي بين وصيف وبغا شيء يذكر .

وبقيت دار السلام والعروبة متفرقة الشمل ، بل حربا على بعضها بعض . ومرت القرون . وحاول بعض الفقهاء ـ كالماوردي (٣٦٣ ـ ٤٥٠/٩٧٤ ـ ١٠٥٨) وابن تيمية (٦٦١ ـ ١٢٦٣/٧٢٨ ـ ١٣٢٨) وغيرهما ـ ان يبرروا الانقسام او ان يخفوه وراء ستور من الصيغ القانونية الملائمة . وقد يخال للانسان ان الشعور بالوحدة ، بعد هذا كله ، قد طوي في طيات التاريخ وقضي امره . فاذا بقرار الغاء الخلافة ـ الصادر في ٣ مارس ١٩٢٤ يحدث رجة عميقة في القلوب وأزمة في الضمائر . واذا الكتب تنشر حول هذا الموضوع ، تسيل أسى تارة ـ ككتاب مولوي محمد بركات الله ، الهندي الأصل ـ وتصف الدواء تارة اخرى ككتاب رشيد رضا الشهير في الخلافة .

وفي هذا دلالة واضحة على ان اللحمة التي نسجتها لغة القرآن بين كل الناطقين بها خاصة لم تبل بالرغم مما تعاقب عليها من الأحداث . تمزقت الأمة العربية على المستوى السياسي وبقيت حية على المستوى الحضاري والعاطفي . وفي بقائها حية ، وفي صمودها طوال القرون المتتالية في وجه كل دواعي التلاشي ، دلالة على أنها تملك ارضية يمكن ان نطمئن للبناء عليها .

لكن لمَ لم تنجح في اشادة هذا البناء بالرغم من كل المحاولات المعاصرة التي لا نشك في صدقها ؟ هذا يحتاج الى تحليل تاريخي عميق ودقيق لا يتسع له طبعا هذا المقال ، اذ يجب ان نخصه بعديد الدراسات التي تثير المشكل من جميع النواحي . اننا اخفقنا الى اليوم في حل أهم قضية من قضايا عصرنا لأننا لم نحسن تصور كامل ابعادها ، ولم نحسن ذلك التصور لأننا لم نحسن التحليل التاريخي ، ولم نمد رجال السياسة منا بما يضمن لمساعيهم التوفيق .

وعندي ـ اذا كان لي عند ـ ان السر في فشلنا يكمن في أننا ما زلنا ، بصفة وبأخرى بطرق مقنعة او صريحة ، نسعى الى الوحدة من تلك الطريق التي جربها الآباء في غير نجاح ، طريق القوة ، والاخضاع ، والهيمنة ، وتفوق عصبية على عصبية ، وشق على شق . ولقد اقام التاريخ دليله القطعي ان هذه الطريقة تنتهي الى رتاج (٢٤) : ان تسفك دم عثمان او ان تطالب به ، اي ان كل اصناف العنف ، ما يدعى منها بالثوري وما يدعى بالرجعي ، الفعل ورد الفعل ، كل ذلك لا يحل المشكل ولا يجمع شملا . الم تر ان الغرب ، عندما شعر بالحاجة الملحة الى الوحدة في أيامنا هذه ، اخذ يسعى اليها عن طريق توحيد المصالح وتأليف العقليات ؟

(٢٤) الرتاج هو الطريق المسدود .

لقد مر علينا دهر ونحن نتارجح بين قطبي الوحدة والتفرقة ، واعتقادي انه يستحيل علينا ان نخرج من هذا التارجح الى الانطلاق الا اذا وعينا تاريخنا واحسنا تحليله وفهمه ، وفهمنا دروسه . **ولا يمكن ان نفك الدائرة الموبوءة الا اذا غسلنا ايدينا من دم عثمان** — اى من وسائل العنف بكل انواعه — ولا يكون ذلك الا بتطهير ضمائرنا من بقايا حمية الجاهلية — التي مازالت ولا شك تختلج في اعمق اعماق اللاشعورنا — **فتنفتك فينا باماتة الوعي والارادة الصادقة** ، المبادىء التي بذرها في قلوبنا الاسلام ، **تلك المبادىء الخالدة لكنها لما تينع ايضا لعدم صفاء** تربة ضمائرنا . ان التحليل التاريخي الصحيح يمكن ان يحدث ثورة في نفوسنا لا لان فيه عمارة للذاكرة والقال لها ، بل لانه كثيرا ما يكون ، كما قدمنا ، عملية شذب وطرح للاعواد اليابسة ، ورفعا للكابح الذى يعوق الانطلاق .

هذا كله معناه ان التحليل التاريخي فيه فك للقيود التي تعوق حل مشاكل الساعة . فينبغي اذن ان نحذر ان نقع في الخطأ الذى حذر منه ابن خلدون ، وحذرنا منه بدورنا ، اى ان نعتبره خزانا لحلول جاهزة . ولقد وقعنا في هذا الخطأ فعلا ، فلم ننجح في نهضتنا التي سبقت نهضة اليابان زمنا ، وتأخرت عنها تحقيقا وانجازا بهوة ساحقة ، هي هوة تخلفنا الدائم . ولعل السر في ذلك هو ان حركة الاصلاح التي انبعث فينا كانت تدعو الى الرجوع الى السلف الصالح — وهل كان كل السلف صالحين ، فلنقلب صفحات التاريخ من صدق — وكان شعارها : **« لا يصلح حال حاضر هذه الامة الا بما صلح به اولها »** . فلم نوفق الى السبيل التي جعلت من اليابان ثالث قوة في عالمنا ، وما ذلك الا لاننا لم نع انه : « لا يقاس شيء من احوال العمران على **الآخر** » ، **كما علم التاريخ ذلك ابن خلدون** ، فعلمنا اياه ، فلم نفقه . **فحاولنا ان نقلد السلف** عوض ان نبتكر ونخلق ، او على الاقل تركنا في انفسنا عقلية تبعث على التقليد اكثر مما تبعث على الابداع والابتكار .

لذا يجدر بمؤرخينا اليوم ان يعتبروا كل هذا حتى لا يكون التاريخ ، اما علما مجانيا **لا فائدة ما ترجى من ورائه سوى مجرد المعرفة** ، واما سجل تمجيد نعالج به — بصفة غير ناجعة في الحقيقة — مركبات النقص ، ولا نجني منه في النهاية سوى التخدير ولذيذ النعاس على فراش مجد اسلافنا . يجب ، كي نعين على حل مشاكل اليوم ، ان نعطي الاولوية في بحوثنا الى تلك الفترات المظلمة في تاريخنا ، تلك الفترات التي انتهت بنا الى ما نقاسيه من تخلف وحرمان . الى هذا الحقل يجب ان نوجه جهود شبابنا من الباحثين . وبهذه الصورة نرجو ان يكون في التاريخ عون على الاقلاع الذهني الذى هو شرط ضروري للاقلاع في بقية الميادين .

تزوير التاريخ

لكن التاريخ لا يؤدى على الوجه الاكمل وظيفته هذه ، التي تخرجه من ان يكون علما مجانيا (٢٥) ، الا بشرط : شرط مطابقته للواقع حتى لا يكون بناء الحاضر والمستقبل على مقدمات واهية . ولسوء الحظ فان توفر هذا الشرط ، الذى يحلم به كل مؤرخ مخلص لعلمه ، ليس عسيرا فقط ، بل هو مستحيل تماما في كامل العلوم الانسانية اطلاقا ، وفي التاريخ على وجه الخصوص ، وذلك لاتحاد المنظور بالناظر . لقد سبق ان قدمنا اننا نصنع التاريخ بقدر ما يصنعنا . فكل كتابة للتاريخ اذن ، مهما احطنا ، تزوير بوجه من الوجوه وبدرجة من الدرجات .

---

(٢٥) يريد الكاتب بلفظ مجاني شيئا لا فائدة فيه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نكتبها لو بلغتنا المصادر التي الفت في ايام قيام دولتهم ؟ او لم يبلغ التزوير المدبر المنظم في ايام العباسيين الى تدليس وثيقة ، شهد على صحتها ثقات الشهود ، تدنس نسب الفاطميين ؟ ثم انظر ما كتبه السنيون والشيعيون في شأن عبد الله الداعي ، القائم بدعوة الفاطميين بافريقيا والباني لدولتهم . اي صورة نصدق ؟ وكيف نفرق الحقيقة من التمجيد او صريح الافتراء فيما كتبه القاضي **النعمان** ـ وكان منقطعا **للمعز لدين الله الفاطمي** ومتحزبا لمذهبه ـ او فيما وصلنا متفرقا من تاريخ الرقيق ، الذي كان من رجال دولة الزيريين ، اي من رجال السياسة في عصرهم ؟ وفي ايامنا هذه ، ماذا كان يكون تاريخ النازية لو انتصرت هذه النزعة وكتب تاريخها مؤرخون متحزبون لها ؟ ام لسنا نعلم ان تاريخ الحزب الشيوعي **تعاد كتابته كلما تغير ذوق الساسة** فيسطع نجم البعض من رجالاته ويأفل نجم الآخرين ؟ وهلم جرا .

وكل انواع التزوير هذه ، التي تزيد وتقل سفورا ووقاحة وتحديا ، فان تعددت وسائلها وتحسنت واحكمت على مر الايام بفضل التقدم التقني لاجهزة قلب الحقائق ، فانها بقيت واحدة في غاياتها ودواعيها . وهذه الدواعي هي التي تقصد عموما الى ان تجعل من التاريخ خادما طيعا لسياسة الساعة . فعوض ان يكون التاريخ بحشائزيها وعبيرا عن الحقيقة ، ومحاولة فهم صادق لوضعنا ، يصبح سلاحا مجردا لمناهضة سياسة ومناصرة اخرى . ويستحيل ان يكون ذلك بدون تحزب الى شق على شق ، وبدون انحياز الى هؤلاء على اولئك . فان **الالتزام في التاريخ ـ ما** لم يكن في خدمة الحقيقة ـ يجر حتما الى التزوير . فالاولى اذن بكل رجال السياسة ، على اختلاف مشاربهم ، الا يكون المؤرخ متحزبا ، حتى لا يكون حربا ، وحتى يتمكن من اداء رسالته العسيرة باكثر ما يمكن من امانة . ولقد راينا ان ذلك ليس بهين حتى في احسن الظروف ، فما بالك اذا ما تراكمت العقبات ؟! ولقد راينا ايضا ان في البحث التاريخي الصادق عونا لكل رجال السياسة الذين يكرسون جهودهم من اخلاص للتقدم بشعوبهم .

غير ان هنالك من يدعو جهرا الى تحزب المؤرخ وانحيازه في تاويله الى فريق او مذهب . ويعللون هذا بان التاريخ تصور ذهني . يستحيل ، مهما بذلنا من جهد ، ان يكون نسخة صادقة مطابقة للواقع . ونحن نعلم هذا ، ونظن اننا اكدنا عليه تاكيدا كافيا فيما سبق . لكننا نعتقد ايضا ان هذا التعليل ، وما يترتب عليه من تزييف متعمد مدبر للحقيقة ، انما هو ، كما قال علي ، « كلمة حق اريد بها باطل » . حق ان الواقع في قرارة ذاته لا يدخل تحت قبضة ادراكنا . وباطل ان نتخذ من ذلك ذريعة كي نشوه الواقع عن روية ، ونكيفه ، ونؤوله حسب ما يرتضيه حزبنا ، او ولي نعمتنا ، او ما نعتنقه من مذاهب . فان كان الواقع صعب المراس مستحيل المنال ، فانه لا عذر في ذلك للمؤرخ ان يفقد الايمان ويصبح من المرتزقة . بل يجب ان يدعوه ذلك الى المزيد من الحذر واليقظة حتى يتجنب اكثر ما يمكن من الشراك الباطنية والخارجية . وذلك ان الموضوعية المطلقة ، ان كانت غاية يستحيل تحقيقها لعدد من الاسباب التي تعرضنا لبعضها ، فمحاولة الموضوعية في امكان كل مؤرخ صادق العزيمة ، مخلص لعلمه ، واع لمسؤوليته ومتمكن من منهجية صناعته . كي تامن التزوير ، المضر في النهاية بالمزور والمزور له ، يجب اذن ان توفر للبحوث التاريخية اكثر ما يمكن من الحرية : حتى تتلاقح الآراء ، ويكشف هذا عما يغيب عن ذاك .

وهناك ضرب آخر من التزوير تكاد نجد انفسنا امامه عزلا من كل سلاح ، بل نكاد لا نتوهمه ولا يخطر لنا على بال ، لانه يندس الينا من طريق التكيف الذي لا يتفلت من قبضة اي

انسان يعيش في مجتمع متحضر . ذلك اننا ، في كل القضايا التي نعالجها ، نلقي على الماضي ما بانفسنا وما يشغل عصرنا . ونفعل ذلك عامة في كل شئوننا . وهذا ما ادركه الوعي الشعبي ولخصه في المثل القائل ان « كل اناء بما فيه يرشح » وهكذا يصبح التاريخ ــ رغم ارادتنا وفي دون وعي واضح منا ــ رشح شواغلنا وشواغل بيئتنا . فهذا ما وقع قديما وحديثا ، وما سيقع ايضا مستقبلا ، ريثما يصبح التاريخ في يوم من الايام علما صحيحا ــ اذا ما افترضنا حصول **ذلك ممكنا ــ او ان يقترب على الاقل اكثر فاكثر من العلوم الصحيحة** ، بفضل ازدياد الوعي بالمشاكل وبفضل ما تقوم به من نقد ، ونبذله من جهود منهجية . ولنكتف الان ببعض الامثلة على هذا الضرب الخفي من التحريف الصادر عن رشح اناء التاريخ بما في نفس المؤرخ المكيف بشواغل عصره .

اننا نجد **حسان بن النعمان** (٢٦) (توفي حوالي ٨٠/٦٩٩ ــ ٧٠٠) بعد هزيمته امام الكاهنة بافريقية ، يصف البربر الى **عبد الملك بن مروان** كما يلي : « ان امم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف احد منها على نهاية . كلما بادت امة خلفتها امم ، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم (٢٧) » هكذا انعكست صورة البربر على مرآة ضمير حسان المنهزم . فهو لم ير فيهم ، عن صدق ، سوى قطيع من « سائمة النعم » لا يتميز الا بالكثرة والجهل . ولم يخطر له على بال انهم امة ابية ، قاومت طوال قرون عديدة الاحتلال الاجنبي بثبات وعزيمة ، واستماتة . ان حسانا كان في حكمه ، من حيث لا يشعر مكيفا .

ARCHIVE

وهكذا نجد الوعي الجماعي لبعض **الاوساط العربية، لما** كان يغلب عليها من **تكيف بروح العصر،** تفرز هذه الاحاديث الملفقة التي تطفح بالاحتقار وتنافي تماما تعاليم الاسلام . يروى **ياقوت** (٢٨) ما يلي :

« وذكر **محمد بن احمد الهمذاني** في كتابه ، مرفوعا الى **انس بن مالك** قال : جئت الى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومعي وصيف بربري فقال : يا انس ما جنس **هذا الغلام ؟ فقلت :** بربري يا رسول الله . ــ فقال : يا انس ، بعه ، ولو بدينار ــ فقلت له : ولم ؟ يا رسول الله ــ قال : انهم امة بعث الله اليهم نبيا فذبحوه وطبخوه واكلوا لحمه ، وبعثوا من المرق الى النساء فلم يتحسوه . فقال الله تعالى : لا اتخذت منكم نبيا ولا بعثت فيكم رسولا » .

ويضيف ياقوت (٢٩) : « ويروى عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ انه قال : ما تحت اديم السماء ولا على الارض خلق شر من البربر . ولئن اتصدق بعلاقة سوطي في سبيل الله احب الي من ان اعتق رقبة بربري » .

وتدور عجلة التاريخ دورتها ، وتمر القرون ، وتنقلب الاوضاع ، وتحتل الجيوش الفرنسية المغرب ، وينظر الفاتحون الجدد الى اهل البلاد من وراء عدسة تكيف جديدة . ويؤلف **هنري**

---

(٢٦) انظر كتابه Les Arabes d'hier a demain Chap. I.
Lo rupture de l'homme traditionnel, P. 13-30, ed. du seil Paris 1960.
انظر دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة .

(٢٧) ابن عذارى ، البيان ، ط كولان وليفي ــ بروفنسال ليدن (هولندا) ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٣٦ .

(٢٨) معجم البلدان ، بيروت ١٣٧٤/١٩٥٥ ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢٩) معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٦٩ .

فورنال Henry Fournel مؤلفه الضخم في تاريخ المغرب ، ويشرح اهدافـه هكذا في مقدمته (٢٠) :

« اثناء السنوات ١٨٤٣ – ١٨٤٦ التي كرستها للمهمة التي كلفني بها السيد وزير الحرب قصد الكشف عن الثروات المعدنية التي قد تحتوى عليها ارض الجزائر .. فانه قد جلبت انتباهي الفروق العديدة التي تفرق بين الجنسين البربري والعربي .. وتساءلت عندئذ كيف ، ازاء جنسين توجد بينهما هذه الفروق ، نستطيع ان نتمادى اكثر في التصرف نحوهما تصرفا واحدا من دون ان نفكر في البحث ، اليس من واجبنا ان **نبدي شيئا من التفضيل يكون ، في صالح الجميع**، الغالبين منهم والمغلوبين ، قاعدة لسياسة يبدو انها تعوزنا تماما » .

وهكذا يبدو التكيف بالظروف السياسية واضحا . ويظهر هذا التكيف في عنوان كتاب فورنال « البربر » ، وفي عناوين الكتب التي تلته ، وكان اساسه التفضيل العنصري . لكن في هذه المرة عكست الآية ، وكان تفضيل البربر على العرب ، واول كل تاريخ المغرب على هذا الاساس، اساس اغتصاب العرب لأرض كانت ، عن طريق رومة ، تابعة للغرب وملتحمة بحضارته . وادى هذا الاغتصاب ، الذي غير مجرى التاريخ الطبيعي ردحا طويلا من الزمن الى **دول بلاد البربر في** حندس **تلك** « القرون المظلمة » التي حاول **جوتي** E. F. Gautier في كتاب **هذا** عنوانه ان يشرحها للفاتحين القادمين بحضارة ودين يعيدان الامور الى نصابها الطبيعي ، بعد الفساد الطويل الذي تسبب فيه العرب .

وهذا التكيف بالوضع ، الذي يؤدي المؤرخ الى التزوير بصفة تكاد تكون غير شعورية تعسر مغالبتها ، خطير جدا . فينبغي ان ننتبه اليه بصفة خاصة ، وان نحذره ونحذر منه ، وان نتعظ بالاخطاء التي وقع فيها من سبقنا عندما وقعوا في حباله . قلنا انه خطير جدا وذلك لأنه يؤدي بدوره عن طريق كتابة التاريخ وتدريسه الى تكييف الاجيال الصاعدة ، وتقع هكذا في دور تسلسل يعسر الانفلات من ربقته ومما ينجر عنه من وخيم العواقب . فهذا **موريس كروبيلي** Maurice Crubellier يكتب في هذا الصدد ، ضاربا المثل بمعركة بلاط الشهداء التي استشهد فيها والي الاندلس **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي** عندما اصطدم بجيوش **شارل مارتيل** Charles Martel (رمضان ١١٤/ اكتوبر ٧٣٢) قرب مدينة بواتي Poitiers بفرنسة : « ان الصيغة التي تقدم بها معركة بواتي قد اثرت زمنا طويلا في الصورة التي ارتسمت في قلوب الشباب الفرنسي عن الاسلام والمسلمين(٢١) . وهذه الصورة لم تكن طبعا تخدم التآخي والتفاهم . وهكذا يصبح التاريخ عن طريق القديم والتأويل المغرض للحوادث – وهو تزوير كثيرا ما يكون غير شعوري ناشئا عن التكيف بملابسات البيئة والعصر ، او عن الميل الاعتقادي والمذهبي – مدرسة تبث سم العداوة والبغضاء في نفوس الصبيان الطاهرة اللينة ، وتجعل منهم في النهاية تلك

---

(٢٠) H. Fournel, **Les Berbers**, Paris 1875-1881, Vol. I, p. 1.

(٢١) Maurice Crubellier, **Enseignement de l'histoire et formotion humaine**, dans **l'histoire et L'Historien**, col. **Recherches et Debate du centre catholique des Intellectuals Francais**, Fayard, Paris 1964, p. 66-7.

الامم الضارية التي يدفع بها سكر المجد او الحقد في حروب لا تنتهي ولا تعود بالخير على جنسنا . وكل من فكر في هذا لا يستطيع عدم مشاطرة **بول فاليري** Paul Valery **رايه المتشائم في** التاريخ الذي يعبر عنه هكذا :

« ان التاريخ اخطر انتاج انتجته الكيمياء الذهنية .. فهو يهيج الاحلام ، ويثمل الشعوب ، ويولد لهم ذكريات موهومة ، ويزيد ردود فعلهم حدة ، **ويغذي جراحهم القديمة** ، ويعكر عليهم صفو راحتهم ، ويقودهم الى الهذيان بالمجد او بالاضطهاد ، ويجعل الامم تشعر بالمرارة والعجب ، ويصيرها لا تحتمل زهوا بنفسها (٣٢) .

ما العمل اذن ؟ هل يجب ان نكسر كوب التاريخ الذي « **يثمل الشعوب** » ؟ **اننا لن** نستطيع ذلك حتى لو عقدنا العزم عليه . اننا لا نستطيع سلب جنسنا الذاكرة . فالطريق الوحيدة المفتوحة امامنا اذن هي طريق تطهير هذه الذاكرة ، واثارتها وصقلها . لقد رأينا ان هذه الطريق عسيرة ، كثيرة الانحراف ، والزيغ والشراك . لكن هذا كله يجب الا يسلمنا الى الفشل والخذلان والاستسلام . وذلك لاننا مهما كانت الخيبات ، نشعر اننا في النهاية نتقدم . ان الحقيقة التاريخية في جوهر ذاتها لا تدرك . لكننا نقترب منها . ان باب الغد ، **الذي نرجوه بفضل** ما حصل وسيحصل لنا من يقظة متزايدة مفتوح امامنا .

التاريخ والغد :

قلنا ان باب الغد مفتوح امامنا . لكن ماسيكون عليه هذا الغد ؟ كيف ستكون ملامحه ؟ لقد رأينا ـ وذلك ما جعل بول فاليري يدين التاريخ ـ اننا كثيرا ما زرعنا الرياح عن طريق تزوير الماضي ، وسوء فهمه وتأويله ، فحصدنا العواصف ، وما زلنا نحصدها . ذلك معناه ان تصورنا للامس يؤثر في صورة الغد . وذلك معناه ايضا اننا اذا ما تحكمنا في الماضي ، سوف يعيننا ذلك لا محالة على التحكم في المستقبل ، وعلى اعطائه صورة اقرب مما نأمل ونرتضي . ان الغد ثمرة يقطفها الخلف ، ويبذر بذرتها السلف ، ويتعهدها برعايته ومبض الحاضر . اننا الى اليوم لم نحسن علم زراعة غدنا ، فقطفنا الشوك اكثر مما قطفنا الورود . لكن علمنا في نمو ، وهذا هو الاهم .

وريثما يزيد علمنا نموا ونجاعة ، لعله يحسن ان نحدد نقطة وضعنا اليوم ، وان نلقي هذا السؤال : هل يمكننا التاريخ ، في هذه المرحلة التي بلغها علمنا ، من ان نرسم خطا بيانيا يكشف لنا عن الاتجاه الذي تتجه نحوه سفينتنا ، وعما سيكون عليه غدنا ؟ انه من البديهي ان التاريخ ليس ضربا من الكهانة او التنجيم ، وانه ليس من دور المؤرخ ان يتنبأ مسبقا بدقائق ما سيقع من الحوادث في مستقبل قريب او بعيد . لكن المؤرخين وفلاسفة التاريخ حاولوا منذ القدم ان يستنيروا بالماضي لثقب حجب المستقبل ، وانتهوا الى نظريات متفائلة واخرى متشائمة وحيث انه من المستحيل ان نفصل القول في كل هذه النظريات ، فاننا اخترنا ان نستعرض بسرعة آراء مؤرخ تجريبي ، **ارنولد توينبي** Arnold Toynbee وكاهن مسيحي ، **تيار دي شاردان** Teilhard de Chardin وفيلسوف صوفي مسلم ، **محمد اقبال** .

---

(٣٢) P. Valery, **Regards sur le monde actuel**, p. 63.

يحتل **ارنولد توينبي** ، الذى ولد ببريطانياسنة ١٨٨٩ ، مكانة سامية فى التفكير المعاصر ، اذ قد احدثت آراؤه فى التاريخ عامة ، وفى الحضارةالغربية خاصة ، ضجة كبرى قبيل الحرب العالمية الثانية ، واصبح اليوم من المستحيل ان يتحدثمتحدث عن تأويلات التاريخ المختلفة من دون ان يذكر اسمه ويحيل على مؤلفاته . ان كتابارنولد توينبي فى « دراسة التاريخ » (٢٢) A Study of History اذا ما لجانا الى التعريف بهفى عبارة وجيزة لا تخلو من ادخال الضيم على المعرف به لايجازها ، قلنا انه كتاب فى فلسفةالتاريخ ، اى انه يحاول ، من خلال فحص الحوادث ــ لا ان يصف الماضي ــ بل ان يستنتجمنه عبرة وفلسفة ، وجملة من القوانين التي تسيّر الكون ، وتدفع التيار البشرى ، وترسم الخط البياني لما سيكون عليه الغد . هذا الاتجاه ليس جديدا فى ذاته . انما ارنولد توينبي **يذهبابعد فى طريق قد سلكت من قبل** ، ويعتمد فى ذلك منهجا بريطانيا صميما ، هو المنهج التجريبي الذىينطلق من طرق المشاهدة كي يصل الى نتائج تفرضها التجربة فرضا ، وتنتهي بنا الى تصورعام لغاية التاريخ ومآل الحضارات .

ولقد حاولعلماء كثيرون انيفحصوا الماضيالبشري ، كي يستخلصوا منه فلسفة او قوانين تزيح الستار قليلا او كثيرا عن سر الغد . ويرجعتأويل هؤلاء المفكرين الى نمطين اثنين لا بد من ضبطهما لايضاح ما يلي :

النمط الأول هو الذى يمكن ان نسميه : بالنمط الخطي المسترسل التصاعدى ابدا. ومعنى هذا هو انهم يؤولون التاريخ كخط مستقيممتصاعد دائما نحو اكتمال مسترسل لا ينتهي . وهذه النظرية نتيجتها ــ وقاعدتها ايضا ــ الايمانالمطلق بالرقي . فهي تأويل متفائل .

النمط الثاني هو الذى يمكن ان نسميه : بالنمطي الدورى . ومعنى ذلك هو انهم يؤولون التاريخ كحلقة ، بل قل كجملة حلقات متناهيةزمنا ومكانا ، منفصلة بعضها عن بعض ، تمثل كل حلقة منها حضارة ، من يوم نشوئها عند ابتداءالحلقة الى يوم وفاتها الحتمية عند انغلاقالحلقة. فكل حضارة اذن حلقة لها بداية ونهاية ، حلقةمتناهية تمر باطوار اربعة : التكوين ، فالنمو ، فالجمود ، فالانحلال والاضمحلال . فهي فى عذاتشبه كل الكائنات الحية : فهي تولد وتموت .

ولقد اول التاريخ التأويل الاول جماعة مناهمهم **هيجل** (١٧٧٠ ــ ١٨٣١ Hegel) **واوجوست كونت** (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧ Auguste Comte) **وكارل ماركس** (١٨١٨ ــ ١٨٨٣ Karl Marx) وذهب الى التأويل الثانيقوم آخرون اهمهم **سبنجلر** (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦ Spengler) صاحب « افول الغرب » ، وفىايامنا هذه الاستاذ **تيجارت** Teggart من جامعة كاليفورنيا ، فى مؤلفيه « تطور التاريخ » The Proecessus of History الفه سنة ١٩١٨ ، و « نظرية التاريخ » The Theory of History الفه سنة ١٩٢٥ . وذهب هذا المذهب ايضا **سوروكين** Sorokin فى كتابه فى « الحركيةالاجتماعية والثقافية » Social and Cultural Dynamics الذى نشر بين سنة ١٩٣٧وسنة ١٩٤١ .

خلاصة القول ان النقاش فى شان التاريخوالغد ــ الذى هو ليس بالجديد فى الحقيقة اذ نجد اثره عند القدماء ايضا ــ قد استرعى اكثراهتمام المفكرين ابتداء من اوائل القرن التاسع

---

(٢٢) صدر هذا الكتاب فى عشر مجلدات ، واعيد طبعهمرارا ، واختصره سنة ١٩٤٧ سماروال sommerwell وظهر سنة ١٩٥١ له اختصار اخر فى اللغة الفرنسيةتحت عنوان (التاريخ) اخرجه بباريس الناشر جليمار Gallimard

عشر ، واستفحل واحتدم قبل الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة ، وزاد احتداما في السنوات التي تلتها . والسبب في ذلك هو القلق الذي اخذ يساور مفكري الغرب عندما شعروا فجأة ان حضارتهم ليست في مأمن من ان يصيبها ما اصاب الحضارات السابقة ، وان الغد ليس حتما مضمونا .

في هذا الجو فكر ارنولد توينبي واراد ان يكون منهجه تجريبيا بحتا ، يذهب رأسا من وصف الواقع من دون رأي مسبق فيه . فاخذ يستعرض لوحة كامل التاريخ ، لوحة ارادها مستوعبة لكامل الحضارات الماضية ـ : حضارات آسيا ، وافريقيا ، وامريكا واوروبا . وكانت نتيجة استعراضه هذا للتاريخ ، وتفكيره فيه عملا بمنهجه التجريبي ، ان الحضارات لا يمكن ان تفهم الا في نطاق النمط الدوري ، اي انها ككل كائن حي ـ وهي في نظره اكمل الكائنات الحية حياة ـ تمر بكامل مراحل الحياة بدون استثناء الموت والانقراض ، وهكذا يلتقي **ارنولد توينبي** بمفكرين آخرين ، نخص بالذكر منهم **عبد الرحمن بن خلدون** ، الذي كان المؤلف من المعجبين به(٢٤).

ولقد كان لآراء ارنولد توينبي ، لما اكتسبته من جدية ، صدى بعيد مريع في ربوع الغرب . لان الغرب اخذ يدرك ان غده ليس مضمونا ، بل ان كل القرائن تدل على انه دخل منعرج الهرم . ولقد عيب هذا الرأي على المؤلف لما فيه من تشاؤم بمستقبل الحضارة التي ينتمي اليها فاجاب بما نصه : ـ

« لقد اضطرب عدد كبير من ابناء عصري عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى ، فادركوا ان الموت ينالنا نحن ايضا . ان هذه التجربة القاسية ، اظنها فيما يخصني ، قد وجهت موقفي في شأن مستقبل حضارتنا الغربية . غير اني شعرت ايضا ، من الناحية العملية ، انه من الحسن بالنسبة للمجتمعات ، او قل بالنسبة لاعضاء تلك المجتمعات ، ان يدركوا ان الموت ينالهم .

« ففيما يخص حياتنا الفردية ، فاننا لاحيلة لنا . فنحن نقبل ، برباطة جأش تقل وتزيد ، ان يحل اجلنا بعد ردح من الزمن . غير انني لااعتقد ـ وانا في هذا الصدد اخالف مخالفة تامة **شبنجلر** Spengler ـ ان المجتمعات من هذه الناحية ـ وهي ناحية هامة جدا ـ شبيهة بالافراد البشرية . ان الكائن البشري كالحيوان اوالنبات ، كتب عليه الموت بعد اجل اقصى معلوم . فاني لا ارى لماذا يكون كذلك المجتمع ، قد كتب عليه هو ايضا الموت . اني أؤمن ايمانا راسخا بالاختيار ، وبان المستقبل مفتوح . اني الاحظ طبعا ان جل المجتمعات البشرية ، لما ارتكبت من اخطاء وحماقات ، قد اندثرت كلها بعد عصور متفاوتة الطول . غير اني لا اعتقد ان مجتمعا واحدا من هذه المجتمعات قد كتب عليه هذا المآل . هذا هو الفارق الجوهري بين نظريتي ونظرية **شبنجلر** . فانا اذن اقف موقفا من الحضارة الغربية ، غير اني لا اقف منها موقفا متشائما (٢٥) .

هكذا اجاب ارنولد توينبي . غير ان جوابه هذا ، القائم على فكرة الجبر والاختيار لم يكن

---

(٢٤) لقد خص ارنولد توينبي في كتابه في « دراسة التاريخ » عبد الرحمن ابن خلدون بصفحات ملؤها الاعجاب . انظر A Study of History, 6th ed. 1955, III, 321, 8, 473-5.

(٢٥) **L'Histoire et ses interprétations.** Entretiens au tour de Arnold Toynbee, sous la direction de R. Aron, Cerisy-la-Salle 10-19 1958, ed. Mouton et co. Paris — La Haye 1961, p. 19-20.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقنعا تماما . وذلك ان كامل كتابه انما هو دليل طويل الذيل على الجبر . فكتابه سلسلة من الادلة على ان كامل حضارات العالم السابقة ، مهما بلغت من القوة والشمول وطول الحياة ، كان مآلها حتما ونهائيا الموت ، وانها لم تستطع ان تختار لنفسها البقاء وتضمن الغد . فاذا ما كان الأمر كذلك فيما مضى ، فلماذا هو سيختلف يا ترى ، ويتغير !! ارنولد توينبي يجيب : « ان المستقبل مفتوح » ، وان تاريخ الماضي لا ينبئنا بصفة قطعية ثابتة بما سيكون عليه الغد . غير ان النمط الدوري الذي يهيمن على كامل حضارات الماضي يجعلنا نتصور مآل حضارة اليوم ، اي بصفة اخص حضارة الغرب التي تحتل مركز النقاش . ان مثل آرنولد توينبي في ايمانه بامكانية خلود الحضارة التي ينتمي اليها والفوز بضمان الغد . **مع اقامته الدليل على ان كل الحضارات التي** سبقت لم تستطع ان تضمن لنفسها ذلك ، هو اذن كمثل الفقيه الذي يقيم الدليل على الجبر ، ثم يؤمن لاسباب نفسية بالاختيار . ولقد لخص هو نفسه موقفه في هذه العبارة :

« اني حقا اقمت الدليل على ان الحضارات زائلة لا محالة ، بصفة اكثر اقناعا من اقامة الدليل على استحالة التنبؤ بالمستقبل . غير ان هذا لا يمنع من ان الانسان يمكنه دائما ان ينفلت من الجبر ، ومن انه يمكنه دائما ان يوجه تاريخه في الطريق التي يشتهيها . لكن — في الواقع — ليس من اليسير على الكائن البشرى ان يكون بشرا حقا ، ولا على الحضارات البشرية ان تسلم من الموت » (٣٦) .

وهكذا تصبح مشكلة التاريخ والغد مشكلة ما ورائية . وهكذا تبقى المسألة مطروحة والقلق قائما . قد زالت كل الحضارات ، كحلقات كلما استكملت الدورة انتهت . فماذا سيكون غد الحضارة التي تهيمن على عالمنا اليوم ؟ هل ستخضع لحكم الحضارات التي سبقت أم هل ستشذ عنها لاول مرة في تاريخ البشرية ؟ ارنولد توينبي يجيب : « ان الانسان يستطيع ان ينفلت من الجبر » .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن هذا معناه اننا اذا اردنا ان نتحدث عن التاريخ والغد بصفة تجعلنا نتجاوز الخيبات المتمثلة في مقابر الحضارات المتتالية ، يجب ان نخرج بالمشكل من اطاره الذي وضعه فيه ارنولد توينبي ومن حددوه ، وهو اطار الحضارات المنفصلة المتتالية يخلف بعضها بعضا على مر الزمان ، الى اطار اوسع ، وهو اطار غد الانسان عامة . **ذلك ان مشكل التاريخ والغد لا ينحصر** في مستقبل هذه الحضارة او تلك ، وان وضع السؤال على هذا المستوى هو الذي اثار حماس مفكري الغرب وقسمهم الى متفائلين ومتشائمين بمستقبل حضارتهم . فاذا ما اردنا اذن ان نتقدم في البحث وجب ان نغلق قوسي التساؤل بقلق عن مستقبل حضارة الغرب ، اى ان نكسر حدود بقايا القبلية ، كي نفضي الى سؤال اهم وهو : هل في التاريخ ما يزيح لنا الستار عن غد الانسان ؟

هذا ما فعله تيار دي شاردان (٢٧) **(١٨٨١ — ١٩٥٥)** Teilhard de Chardin كان الرجل يسوعيا ، وكان في نفس الوقت عالم احياء وانثروبولوجي ، **اثارت اكتشافاته**

---

(٣٦) Op. Cit., p. 22.

(٣٧) انظر من بين مؤلفاته :

Le phénomène humain, éd. du senil, Paris 1955,

L'apparition de l'homme, ed. du senil, Paris 1956 ; **Le Milieh devin,** ed. du Senil, Paris 1957. On pent églement consulter, Cl. Tresmontant, **Introduction a la pensee de Teilhard de Chardin.**

وآراؤه صدى بعيدا ، قبل ان يصبح اليوم محل احتراز ونقد من طرف كثير من العلماء .. لاحظ تيار دى شاردان كغيره أن الحضارات الى فناء وزوال . لكن ان بادت وزالت الحضارات ، فان الانسان باق ، وهو في تقدم **مطرد . وذلك ما يستخلص من علمي الاحاثة** والاناسة . لكن هذه النتيجة ، التي لا يختلف فيها اثنان اليوم ، قد اولت تأويلات مختلفة حسب **العائلات الفكرية المتباينة** التي ينتمي اليها المفكرون . كانت الارض في نظر القدماء مركز **العالم ، والافلاك حولها** مرتبة في نظام . فاتت العلوم الحديثة **فبددت هذا الوهم وحطمت هذا الامتياز** . واذا **بكرتنا الارضية لا** تزيد عن ذرة مبعثرة في محيط لا ساحل له من عديد العوالم . وتشبث الانسان بعد ذلك بفكرة اخرى وجد فيها عوضا عن مركزية الارض ، وهي مركزية البشرية anthropocentrisme . لكن هذا ايضا وهم جديد في نظر عدد كبير من علماء الحياة الذين تجد تعبيرا واضحا عن آرائهم في مؤلف **جان روستان** Jean Rostand **«عبر احيائي»** Penseés d'un Biologiste فهؤلاء لا يعتبرون الجنس البشري الا عرضا سيزول بدوره كما زالت من قبله بلا شك انواع اخرى من الحياة تولدت عن الصدف في زاوية من زوايا الكون العديدة . وتطورت في احضان **الآمال والآلام، ثم انقرضت انقراضا لا رجعة فيه**. ولعل هذه العملية ستتجدد تحدوها دائما نفس الاوهام ، وتفضي في النهاية الى العبث والبطالة« اذ هي قد اهلت حتما من الاساس الى الخيبة في الختام والى ظلمات لا ساحل لها » . وقد اول بعضهم هكذا ظاهرة الحياة تأويلا متشائما حالك الافق ، كله ولادة واجهاض ، حسب ذلك النمط الدوري الذي وصفناه والذي يهيمن على كثير من المفكرين في تأويلهم لتعاقب الحضارات . فهؤلاء لم يزيدوا في تفكيرهم **هذا على ان نقلوا النمط** الدوري المتشائم من سلم الارض الى سلم كوني .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان تيار دى شاردان لم يسلك هذه السبل المتولدة عن الاكتشافات **الدئبة الباهرة في ميدان** علوم الفضاء والحياة والتي هي افسح سبل التفكير المعاصر تشاؤما ، اذ تنقل العبث والقلق الى مدار كوني . ان الانسان في نظريته لم ينشأ عبثا من تفاعل « الصدفة والاضطرار » ، ولن **يزول باطلا في محيط** لا ساحل له **من الظلمات** تطفو على سطحه الحياة وتغور . ان الملاحظة الدقيقة اليقظة في اعماق الماضي السحيق جعلته يتبين « خطوط انفلات » des lignes de fuite **نحو الغد ، خطوطا يبدو ان اتجاهها قد ضبط** مسبقا ابتداء من نقطة الانطلاق ، ويكفي اذن ان نطيلها في اتجاه غايتها كي نحدد نقطة البلوغ . اننا اذن ، انطلاقا من ملاحظة الماضي ، نستطيع ان ندرك الغد . هذا الماضي يفيدنا ان الحياة ، **من اول ظهورها في ابسط تركيب الوذقة الاولى،** لم تزل تدفع دفعا نحو تعقد متزايد ، وتخصص **ادق الوظائف ، وهيكلية اشد احكاما واكثر** تشعبا . تبدو لنا **هكذا القوى الحيوية** كخط موجه نحو الانسان الذي يمثل القمة الحالية للحياة على وجه الارض . وهذه القمة لم تزل تزداد ارتفاعا منذ ظهور الانسان الاول البدائي ولا شك ان ارتفاعها لم يكتمل بعد ولم يبلغ غايته. لكنه في امكاننا ان نتصور من الان تلك الغاية ، **اى نقطة البلوغ . تلك النقطة التي تجذب التيار الحيوي نحوها** ، يسميها **تيار دى شاردان نقطة « اوميجا »** * **معطيا اياها** اسم آخر حروف الهجاء عند اليونان ، رامزا بذلك الى انها نقطة الغاية والنهاية التي تكسب الحياة معناها وتبررها . وهكذا يكشف لنا التاريخ اذا ما

---

* اوميجا Omega وهو حرف Ω في اليونانية

وضمناه في احداثياته ، ان العبرة ليست في تعاقب الحضارات موتا وحياة ، انما هي في ارتقاء الحياة ارتقاء مسترسلا مطردا نحو ما يسميه تيار دي شاردان نقطة « اوميجا » اي في اعتقاده نحو المسيح او الله . فالحياة اذن سهم موجه يرتقي بنا نحو الله ، اي نحو عالم الروح . وهذا عين ما يقوله ابن خلدون الذي هو ايضا ـ كما رأينا سابقا ـ وضع تفكيره في التاريخ في نطاق احداثية كونية قاطعها ومقطوعها النشوء والارتقاء ، ومحركها « الانسلاخ من البشرية الى الملكية » (٢٨) « الله يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، ثم اليه ترجعون » (٢٩) .

ان هذا التصور لنقطة الغد ، اعتمادا على اطالة خطوط التاريخ ، يرتكز على افتراض وجود قصد او مشروع ، اي على وجود خالق ، فهو اذن ، ان ارضى المعتقدين ، لا يرضي من لا يعتقد . ولعل احسن معبر عن هذا الصنف الاخير من المفكرين هو جاك منود Jacques Monod المدير لمعهد باستور Pasteur بباريس الآن ، والذي احرز سنة ١٩٦٥ جائزة نوبل في الفيروولوجيا ** والطب . فهو طبعا لا يذهب مذهب تيار دي شاردان بل يزدري ذلك المنهج ويكتب : ان فلسفة تيار دي شاردان الاحيائية ليست جديرة بان تستوقفنا لولا الصدى المدهش الذي اثارته حتى في الاوساط العلمية ، ذلك الصدى الذي يعرب عن القلق ، وعن الحاجة الى تجديد العهد (٤٠) » . وحيث لم يكن جاك مونود في حاجة الى تجديد العهد اراد ان يضع تفكيره على بساط موضوعي بحت ، البساط الوحيد الذي يليق بالعلوم . واداه هذا التفكير في آخر اكتشافات الاحيائية الى انه ليس هنالك من شيء ينذر بانفجار الحياة في سلب المادة . فالحياة اذن لم تنشأ عن قصد او مشروع مسبق . فلم يبق اذن الا انها وليدة محض الصدفة . هذه النتيجة الاولى التي يفضي اليها جاك مونود هي وليدة المنهجية التي اختارها ، وهي الموضوعية العلمية التي يعرفها كما يلي : « هي الرفض المنسق لاعتبار امكانية حصول اي معرفة حقيقية عن طريق تأويل الظواهر تأويلا يصاغ في عبارات علل غائية (٤١) » .

غير ان جاك مونود يلاحظ « ان الموضوعية تجبرنا ايضا ان نعترف بان الكائنات الحية لها صبغة « تطورية مقننة » téléonomique وان نسلم بانها في هيكليتها وانجازاتها تحقق مشروعا وتقصد نحوه . فهناك اذن ـ على الاقل بصفة ظاهرية ـ تناقض منهجي عميق . فمشكل الاحيائية المركزي هو هذا التناقض ذاته الذي ينبغي : اما ان نحله ، في حالة انه لا يزيد على انه ظاهري فحسب ، واما ان نقيم الدليل على انه يستعصي جذريا على كل حل اذا ما كان الامر في الحقيقة كذلك » (٤٢) .

---

(٢٨) المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٨ . انظر ايضا ما سبق ص ٧ ـ ٨ من هذا البحث .

(٢٩) الروم رقم ٣٠ ، الاية رقم ١١ ، وقد ورد الرجوع الى الله في اكثر من آية . انظر محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

** الفيروولوجيا او علم الفيروسات .

(٤٠) Jacques Monod, **Le Hasard et la nécessité**, éd. du senil, Paris 1970, p. 44.

(٤١) Jacques Monod, **Le hasard et la nécessité**, p. 32.

(٤٢) نفس المصدر ص ٣٢ .

ان جاك مونود لا يعتبر طبعا المشكل غير قابل للحل . فهو يحاول في كتابه اعتمادا على آخر **معطيات الكيمياء ، والاحيائية ، وغيرهما** ان يبين كيف تخضع الكائنات الحية ، من ناحية الى الثابتية invariance **التي تحفظ لها خصائصها** ، اي خصائص جنسها ، وتضمن لها توارثها ، ومن ناحية اخرى الى التطور المقنن téléonomie الحاصل عن طريق ما يحدث ــ صدفة في نظريته ــ من تغير في مورثاتها ، او جيناتها ، تغير ينطبع فيها بدوره بصفة قارة فيصبح ثابتية . وهكذا يفك لغز الثابتية والانتخاب الطبيعي المتواصل الذي هو محور الاحيائية ، ويشرح شرحا علميا موضوعيا . **ويلاحظ جاك مونود ان من بين كل** العمليات الممكنة ــ وهي لا تحصى عدا ــ يقع التغير الحاصل في المورثات دائما في اتجاه يضمن الانتخاب الطبيعي ، او تطور الحياة الى اشكال ارقى فارقى . « **قال فمن ربكما يا موسى قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى** » (٤٣) .

لكن جاك مونود يرفض وجود هداية او هاد (٤٤) . **فهو يبين ان الثابتية تخضع لقانون يجد** العلم سره مكتوبا في المورثات ، وان الانتخاب الطبيعي له ايضا قانونه الذي يحول دون **التقهقر مثلا ، لكنه يرفض وجود مقنن مفارق** ، عملا بالفرض الأولي الذي فرضه وهو فرض الموضوعية التي عليها اقيم العلم الحديث . وهكذا يفضي بنا في النهاية الى فلسفة مقامه على وحدة الوجود ، **هي ايضا احيائية كفلسفة بيار دي شاردان ، غير انها « نفاتية »** (٥) ، **اذ ترفض** رفضا باتا التعليل الغائي وتعوضه بالصدفة .

ولقد اثارت آراء جاك مونود هذه ردود فعل كثيرة نذكر منها **على الخصوص ما ورد في** مؤلفين : الاول عنوانه « الصدفة والحياة » (٤٦) Le hasard et la vie وصاحبه مارك اوريزون Marc Oraison كاهن اختصاصي في الطب النفساني ، والثاني صدر **تحت عنوان « مذهبية الصدفة والاضطرار »** (٤٧) : L'idéologie du hasard et de la nécessité وهو بقلم السيدة **مادلين بارتيليمي ــ مادول** Madeleine Barthelemy — Madaule المتخصصة في الفلسفة . اما **مارك اوريزون** فانه يقبل الى حد ما نظرية الصدفة فيما يخص ظهور الحياة ، **باعتبار ان هذه النظرية لا تزيد** على انها تعبر في لغة خاصة على ان ظهور الحياة ليس حادثا شروري الوقوع بذاته ، وانما هو جائز ومحتمل فقط ، اى انه في الامكان أن لم

---

(٤٣) طه رقم ٢٠ ، الآية ٤٩ ــ ٥٠ .

(٤٤) انظر مؤلفه المشار اليه ص ٣٧ ــ ٤٦ ، ١٨٢ ــ ١٩٥ .

(٥) وردت كلمة نفاة ، ج ناف ، للتدليل عمن ينفي وجود الله . قال ابو العلاء المعري

ليت لي خالقا حكيما

ولست من معشر نفاة

انظر اللزوميات ط . صادر ، بيروت ١٩٦١ ، ج ١ ص ٢٢٩ . ونحن نستعمل هنا عبارة « نفاتية » كمقابل للكلمة athéisme

(٤٦) éd. du senil, Paris 1971.

(٤٧) éd. du senil, Paris 1972.

يكن . **واما فيما يخص الاضطرار ، الذى يضمن** للكائنات الحية ثابتية الجنس والارتقاء فى نفس الوقت عن طريق التطور المقنن ، فانه يلاحظ بحق ان من قال ارتقاء أو « انتخابا » ، قال حتما **تحجيرا »** (٤٨) ، **تحجير حدوث ما يخالف** الانتخاب . « فالحياة اذن ، فى شكلها هذا الذى تظهر عليه وتلتئم ، تحجر بصورة من الصور حدوث شيء آخر (٤٩) « فيمين اذن الا نرى فى **كل هذا قصدا** intentionnolité une بل « رسالة » message و « معنى » sens .

وتلاحظ السيدة مادلين بارتيليمي ــ مادول بدورها فى مؤلفها الذى هو اعمق تحليل فلسفي لنظريات جاك مونود أن تفكير هذا العالم لا يخلو من تناقض اذ هو يعترف من ناحية باخلاص : « **انه من المستحيل ان تتخيل تجربة فى وسعها ان** تقيم الدليل على عدم وجود مشروع ، او هدف مقصود ، فى اى ناحية من نواحي الطبيعة (٥٠) ومن ناحية اخرى يقطع بعدم وجود هذا المشروع ، وبان الحياة تخضع لمجرد الصدفة وهكذا يستدرجنا نحو فلسفة مركزة على وحدة نفاتية. **وتعتبر المؤلفة بجدارة انه ليس من اللائق ان** نستدرج هكذا ، بدون بينة كافية ، من نفاتية **منهجية ــ كثيرا ما** ينطلق منها العلماء كقاعدة فى ابحاثهم ــ الى نفاتية كائنية ontologique **او ما** ورائية عقائدية . وتأخذ على جاك مونود اشياء اخرى منها انه يستخف بغير حق بتيار دى شاردان فى حال انه يدين له باقتباسات كثيرة منها بعض المصطلحات .

ان التفكير فى تاريخ الانسان ومداه اتسع كمارأينا الى تفكير فى نشوء الحياة وغايتها حتى من طرف من ينكر المشروع والغاية . ذلك ان التاريخ صنفان : فهو عندما يكون غير شعوري ، تاريخ طبيعي للاجرام السماوية ، والفضاء والجماد عامة ، والنبات والحيوان . ذلك لان لكل شيء **تاريخا ، اذ كل شيء يتغير ويتحول على مر الزمان ، ويرتقي الى هيكليات اكثر فاكثر تشعبا واحكاما . ان قافلة الزمان ، اى حركة التاريخ** ، تسير بكل شيء فى طريق التطور ، وعندما تصبح هذه الحركة شعورية ، عندها تصبح تاريخا بالمعنى المصطلح عليه عند المؤرخين . فالتاريخ اذن هو وعي التطور والاضطلاع به ، والانسان **هو الكائن الذى بفضله ينقلب التطور الشامل لكل** الطبيعة تاريخا بالمعنى الاصطلاحي .

ففي هذا الاطار وضع **محمد اقبال** (١٨٧٣ ــ ١٩٣٨) تفكيره فى التاريخ . ففكر فيه كفيلسوف (٥١) ، وفكر فيه كصوفي فى شعره . فهو **كجلال الدين الرومي** (٦٠٤ ــ ٦٧٢/١٢٠٧ ــ ١٢٧٣) الصوفي الشاعر ، وكابن خلدون ، المفكر الاجتماعي ، يعتقد ان الحياة لا تقهقر ولا تكرار

---

(٤٨) Marc Oraison, **Le hasard et la vie**, p. 142.

(٤٩) op. cit., p. 142-3.

(٥٠) Jacques Monod, **Le hasard et la nécessité**, 0. 33.

(٥١) انظر تجديد التفكير الديني فى الاسلام ، ترجمة عن الانجليزية ، عباس محمود، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٥٥ ــ ١٢٤ .

فيها . انما هي نمو ، وانما هي رقي مطرد متصاعد ابدا من المادة الى اكمل الكائنات التي يقع عليها حسنا : الانسان . فهذا الانسان يستغعده ، ويناجي الله هكذا :

حوار بين الله والانسان (٥٢)

الله

اني صنعت هذا الكون من ماء وطين
وصنعت ايران ، وبلاد التتر وزنجبار
من الارض صنعت حرف الفولاذ ،
وصنعت السيف والنبل والبندقية
وصنعت الفاس لشجرة المروج
وصنعت القفص لفرد الطيور .

الانسان

صنعتَ الليل ، وصنعتُ القنديل
صنعتَ الطين ، وصنعتُ الكوب
خلقتَ الصحارى والاودية والجبال
وانشأتُ الرياض والحدائق والورود
فانا الذي اخرجت من الحجر البلور
ومن السم الترياق

●●●

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا تبدو لنا من خلال هذا القصيد الصوفي الغنائي وظيفة الانسان في الكون وظيفة سامية . فهو يضطلع عن وعي بدوره الخلاق اذ تحولت فيه حركة التطور الى حركة شعورية اي انه اصبح في تفاعله مع حركة التاريخ او الخلق فاعلا لا منفعلا . وهذا الانسان ليس قمة ، انما هو رمية نحو مرمى ، نحو هيكلية اكمل ، نحو انسان الغد الذي يدعوه **محمد اقبال** في لهجته الصوفية الغنائية هكذا :

اقبل ، انت ، يا فارس القدر
اقبل ، يا نور ظلام عالم التحول !
فالبشرية حقل بُر ، وانت حصادها .
انت هدف قافلة الحياة (٥٣)

فالتاريخ اذن امامنا اكثر مما هو خلفنا .

---

(٥٢) هذا القصيد يوجد في ديوان محمد اقبال في اللغة الفارسية وعنوانه « بيام ـ ى ـ مشرق » اي « رسالة الشرق » . ترجم هذا الديوان لاول مرة باكمله الى لغة اوروبية ـ وهي اللغة الفرنسية ـ بعناية ايفا مايروفيتش Eva Meyerovitch ومحمد اشنا ، تحت عنوان Message de l'Orient, Paris 1956 وقد عربنا هذا القصيد من الفرنسية ، وهو يوجد بالطبعة المذكورة ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٥٣) نفس المصدر ص ١٥

واذا ما اردنا الآن ان نتكهن بما سيكون عليه‌غد حضارة اليوم ، اى الحضارة الغربية التى **تكتسح اكثر فاكثر عالم ما تحت القمر وما فوقه ،وجب ان نضع السؤال فى احداثيات ما سبق .** يقول ارنولد توينبي ، الذى اقام الدليل اكثر من كل من سبق على ان كل الحضارات عرضة **للزوال : « ان المستقبل مفتوح » نعم ،هو مفتوح.لكن على اي غد ! ان كل الحضارات السابقة** ارتكبت « اخطاء وحماقات » انتهت بزوالها . **فالأمر اذن يرجع الى قدرة حضارة اليوم على** تجنب الاخطاء والحماقات . فالحضارة هي‌الصورة التى يستكمل فيها الانسان يوما بعد يوم انسانيته . فاذا ما « فسد الانسان فى قدرته‌على اخلاقه ودينه » (و) فسدت انسانيته ، وصار مسخا على الحقيقة » حسب عبارة ابن‌خلدون (*) ، فذلك يؤدى حتما الى زوال **الحضارة المعنية ، لانحرافها من جادة التطورالمقنن** « téléonomic » الذى يوجه الحياة . فما **دامت اذن حضارة اليوم تسير و « وخطوط‌الانفلات »** نحو نقطة اومقا التى يتحدث عنها تيار دى شاردان ، اى ما دامت تسير فى سبيل‌الانتخاب الطبيعي ، حسب لغة جاك مونود ،فانها ستبقى لادائها لوظيفة الحياة . واذا ما فشلت‌فى ذلك فانها ستنقرض كما انقرضت قبلها حضارات عديدة.لكن ان انقرضت هذه الحضارةوخلت ، كما خلت قبلها حضارات وامم ، فان **الحضارة باقية ،** وستجد البشرية عندها كماوجدت قديما ، فى خزانات امم اخرى لم تفقد انسانيتها ، سواعد جديدة تذهب بمشعل الحياةاشواطا اخرى الى الامام حتى يبلغ التطور غايته ويتم الله نوره .

ARCHIVE

مستقبل التاريخ

يبقى لنا الان ان نتساءل سؤالا اخيرا : ماذاسيكون مستقبل التاريخ ؟ **لقد راينا انه كتب الى حد الآن باقلام مختلفة واول تأويلات عديدة** .وقيل فيه وعليه كثيرا . هل يجب اذن ان نياس ــ والحال تلك‌من الوصول الى‌حقيقة مشتركة،ان لم تكن مطلقة ، وان نشاطر شبنجلر فى رايه الذى يعبر عنه هكذا : « الحقائق انما هي حقائق‌بالنسبة لفريق من البشر فقط . فان فلسفتي الشخصية مثلا لا تعكس الا الروح الغربية فى‌اختلافها عن الروح الكلاسكية ، او الهندية ، او غيرها (**) .

ان هذا لصحيح . لكن اذا ما ظل الامر كذلك‌وجب ان نياس من مستقبل التاريخ وان نغسل ايدينا منه ، وان نوصد ابواب مدرسته التى‌لا تلقى فيها الا شبه حقائق مزعومة ونسبية ، ودروسا خطيرة فى الشعوبية . واذا ما اردنا ان‌نترك التشاؤم ــ **الذى لا طائل وراءه ــ جانبا ،** وجب ان نخرج من سجن التكيف بالبيئة الذى‌يجعل من الحقائق « حقائق بالنسبة لفريق من البشر فقط».ومعنى ذلك هو ان مؤرخ المستقبل **يجب ان يسمى جهده وان يضع تفكيره ، لا فى** نطاق قومي شعوبي بل فى احداثيات عالمية . ان‌هذا ليس طبعا بالهين لكنه اصبح تقنيا ممكنا .

(*) المقدمة ص ٦٧٤ .

(**) Oswald Spengler, The Decline of West, to. by C.F. Atkinson, London 1954, p. 46.

ان الناظمات الآلية اخذت اليوم تغزو كامل قطاعات الحياة ، حتى مطابخ البيوتات الفردية. وسوف يزيد بسرعة نطاق انتشارها في مستقبل اقرب مما قد نظنه ونتكهنه . وليس من شك في ان انتشار الناظمات الآلية ، ومرونتها المتزايدة ودقة التحكم فيها ، ستفتح امام التاريخ آفاقا يعسر تصورها من قبل . وستتغير طبعا منهجية التاريخ تغيرا تاما ، اذ لا بد لكتابته بصفة عصرية من الاستعانة بخبرات عديدة ، لتزويد الناظمات بالمعلومات اولا ، وحسن استنطاقها ثانيا . ولعل تفاوت المؤرخين حذقا في المستقبل سيقاس بتفاوت قدرتهم على ابتكار الاسئلة الراشقة ، وعلى مهارة استنطاقهم للناظمات .. ومهما يكن من امر فان هذه الناظمات سوف تمكننا من الشمول ، والخروج من حدود الاقليميات الضيقة ، ولعودتنا الى اعتبار التاريخ ليس بتاريخ امة دون امة ، او حضارة دون حضارة ، وانما هو تاريخ الانسان عامة . واذا خلقت فينا هذه العقلية تكون قد خطونا خطوة شاسعة نحو الموضوعية ، وابتعدنا عن تلك الحقائق الجزئية او النسبية التي تحدث عنها سينقلار ، والتي كثيرا ما زيفت (٥٦) وجه التاريخ سابقا . فلعل الناظمات وشبكة التنقل التي تزيد سرعة وشمولا ، والتحاكك المتزايد بين الاجناس وتلاقح الافكار وعبور الاراء ، يمكن في المستقبل من كتابة تاريخ الانسان في كامل اوضاعه واصقاعه دون تحيز وتمييز وتعصب . **انه لا بد ان يأتي يوم طال الزمان ام قصر تصبح فيه قولة مونتسكيو (١٦٨٥ ـ ١٧٥٥)** Montesquie هذه : « اني انسان اولا وفرنسي بالصدفة » ، شعار كل مؤرخ . لعل هذا المستقبل بعيد ، ولعل دونه عقبات كأداء ، لكن النجوم على بعدها تهدي السائرين وتجنبهم الضلال . ومهما يكن الامر فان التاريخ لن يتقدم الا اذا ما اصبح علما حقيقيا من علوم الانسان ، وخرج من القبلية التي ما زالت تهيمن عليه حتى اليوم ، **بصفة تزيد وتقل غلوا ، وتختلف سفورا** وتقنعا ، وتشرب بالوان المركبات غرورا ونقصا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن هل يصبح التاريخ يوما علما حقيقيا ؟ ان من يشك في ذلك كثيرون ومن بينهم **بول فاين** Paul Veyne **الذي يقطع بدون تردد « ان التاريخ لن يكون ابدا تاريخا علميا (٥٧) . ان هذا القول الفصل ـ الذي ينم عن وثوق بالغ بالنفس ويظهر في لهجة كامل الكتاب ، وكثيرا ما يحرج المطالع ـ ناشىء في نظرنا**

---

(٥٦) انظر ، فيما يخص تزوير التاريخ المقالات التالية الواردة في مجلة « الاصالة » التي تصدر بالجزائر العاصمة ، في عدديها ١٤ و ١٥ سنة ١٣٩٣/١٩٧٣ : سعد الله ، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر ، ص ٧ ـ ٢٧ ، عبد الحميد مزيان ، النظريات التاريخية بين التفسير والتحريف ، ص ٢٧ ـ ٣٥ ، محمد ابراهيم الميلي ، نماذج من تشويه المؤرخين الاجانب لتاريخ الجزائر ، ص ٥٧ ـ ٦٥ ، المهدي البو عبدلي ، موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور ، ص ١٢٥ ـ ١٢٩ ، عبد الرحمن الجيلالي ، من بواعث الاستشراق واهداف المستشرقين ، ١٥٥ ـ ١٦١ ، الطاهر قيقة ، تاريخنا يحتاج الى اعادة نظر ، ص ١٧٣ ـ ١٧٧ ، اسماعيل العربي ، مساهمة المؤرخين الفرنسيين وهل تصلح اساسا لتنمية تاريخنا القومي ، ص ١٨٧ ـ ١٩٩ . وفي القسم الفرنسي من هذه المجلة :

Yvonne Turin, L'histoire et sa nationalité, p. 13-22, Charles Robert Ageron, Simple note en faveur de la décolonisation de l'histoire algerienne . . . p. 23-26.

(٥٧) Paul Veyne, comment on écrit l'histoire, éd. du senil, Paris 1971, p. 205 et. suir.

عن مركب وخلط . فاما المركب فهو ذلك الذي تتالم منه كل العلوم الانسانية عامة امام العلوم المدعوة بالصحيحة والتي من الاصح ان نسميها بعلوم الطبيعة – لما حققته هذه العلوم من **انجازات غيرت وجه حياتنا المادية وتحدت** اعتقاداتنا الروحية . وهذا المركب هو الذي يجعل كثيرا ممن يشتغلون بعلوم الانسان لا يكادون يفكرون في علومهم الا وقارنوها – بصفة شعورية او غير شعورية – بعلوم الطبيعة ومناهجها . وهذا طبعا يفضي الى الخلط ، اذ يجعل دائما **العلوم الانسانية موضوعة ، بوجه من الوجوه** ، على كفة ميزان هو غير ميزانها ، وهذا عين ما نلمسه في صفحات عديدة من كتاب بول فاين ، مما يؤدي الى استطرادات كثيرة تضل عن الموضوع اكثر مما تهدي اليه .

كل يعلم منذ قرون ان التاريخ ، كغيره من علوم الانسان ، ليس بعلم ناموسي **nomologique** وان غايته ليست في تجريد نواميس من نوع اذا ادخلت حامضا على قاعدة اصبحت ملحا ، وانما **هي الفهم** . الم يقل لنا ابن خلدون انه « **لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر** (٥٨) » . وهذا معناه طبعا ان التاريخ لا يفضي بنا الى نواميس تاريخية ، ولا يقصد الى ذلك . واما النواميس التي كد في **استخلاصها** بعض المؤرخين المعاصرين فانها ليست ناموسية في شيء . وذلك لسبب **بسيط** ، وهو ان النواميس العلمية مقامة كلها على تكرار الظاهرة كلما توفرت شروطها . وهذا لا يتوفر الا في عالم تكرار الظواهر ، وهو عالم الطبيعة . والتاريخ ، كما بينا ، وكل ما واكبه من **نشاطات الانسان لا تكرار** فيه ، اذ هو حركة خلق مستمرة . لذا فانه من المستحيل ان نتصور تجربة تاريخية من نوع تجارب الكيمياء والفيزياء التي يقام بها في المخابر . كل هذا مفروغ منه منذ زمان ، وليس في حاجة الى زيادة تدليل .

لكن ، ان كان التاريخ ليس من العلـــوم الناموسية ، فليس معنى ذلك حتما انه ليس بعلم فهو علم بهدفه ، اذ هو ككل العلوم يسعى وراء **الحقيقة ، وهو علم بمنهجه الذي لم يفتأ على مر** العصور يتطور ويزداد احكاما . فخلافا لما يزعمه بول فاين فاننا نرى التاريخ يصير يوما بعد يوم علميا اكثر فاكثر ، وليس هناك من موجب كي تهدأ هذه الحركة او تكف ، بل كل شيء ينذر انها ستزداد سرعة . انا نرى التاريخ اليوم يستنجد **باحدث اكتشافات الكيمياء او الفيزياء وسوف** يستخدم غدا بدون شك الاجهـــزة والعقول الالكترونية كي يسيطر اكثر فاكثر على الواقع . ولعله يوفق يوما في تسجيل ذاكرة جنس اق ناظمة آلية واحدة .

هل سيمكن ذلك المؤرخ يوما من استيعاب كل المعطيات حتى يتمكن من تأويل اثبت للواقع وفهم ادق ؟ الامر يختلف طبعا باختلاف العصور والميادين . لكن يمكن ان نقول ان الاستيعاب المطلق للمعطيات يبدو لنا في كل الحالات عسيرا ، وفي بعضها مستحيلا غير ان هذا ليس له في الحقيقة من الاهمية ما قد نتخيله اولا ، اذ يمكن ان نحصر الحقيقة التاريخية ونضيق عليها الخناق بوسائل شتى حتى نظفر بها بدون حاجة الى الاستيعاب . ثم اننا لسنا في حاجة الى ان نعلم كل

---

(٥٨) المقدمة ص ١٠١٩ .

حسين مؤنس

التاريخ والمؤرخون

ماهية التاريخ ولماذا ندرسه ـ تطوره في الغرب في خلال العصور الحديثة ـ اهم نظرياته ومراحل تطوره وبناء علم التاريخ الحديث واهم اعلامه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخلاف حول اهمية التاريخ ومكانته بين العلوم :

يحتل التاريخ بين فروع المعرفة الانسانية مكانا صدرا ، وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التي تصدر في الشرق والغرب على السواء . والى ما قبل الحرب العالمية الاولى كانت المؤلفات في التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخي وآثار وسياسة ومذكرات تكوّن خُمْس المكتبة العالمية . وفي ايامنا هذه ، ورغم اتساع ميادين المعارف وغلبة الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والهندسية على الاهتمام بما عداها لا زالت مؤلفات التاريخ تحتل جانبا ضخما مما ينشر كل عام ، وخاصة اذا اضفنا اليها ذلك النوع الجديد من الكتب

● الدكتور حسين مؤنس استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة الكويت مؤرخ واديب وقصاص له مؤلفات كثيرة وخاصة بالمغرب الاسلامي . آخر مؤلفاته « الاسلام والحضارة » .

الذى يؤلفه نفر من اذكياء اهل الصحافة والادب عن حوادث التاريخ الجارى current history ورجاله ، ويكفي ان نشير الى العدد الضخم من المؤلفات التي صدرت خلال السنوات الاخيرة عن قضايا فلسطين وفيتنام والامن الاوروبي والاستعمار الجديد والشيوعية والاشتراكية وتحرر العالم الثالث وما الى هذه من موضوعات التاريخ المعاصر ورجاله من امثال **لينين وستالين وماو ـ تسي ـ تونج وهو ـ شي ـ منه وونستون تشرشل وشارل دى جول وجمال عبد الناصر وارنستو (تشيه) جيفارا وجون كينيدى وغيرهم** ، وكل هذه كتب صحفية الطابع فى التاريخ المعاصر تنشر وتباع بعشرات الالوف بل مئاتها ، مما يدل على ان التاريخ لا زال من اكثر فروع المعرفة الانسانية قربا الى قلوب الناس .

ومع ذلك فلا زالت حقيقة « التاريخ » ومكانته بين العلوم وطبيعته وفائدته موضع شك ونقاش طويل بين المؤرخين والفلاسفة والمفكرين عامة . وقد عرض **شمس الدين السخاوى** (٨٣١ ـ ١٤٢٧/٩٠٢ ـ ١٤٩٧) فى كتابه المشهور « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ » بعض جوانب مشكلة علم التاريخ عند المسلمين ، واعطانا صورا من المآخذ التي كان علماء عصره يوجهونها الى اهل التاريخ وحاول الدفاع عنهم ، وهو لم يوفق لا فى العرض ولا فى الدفاع ، فقد كان اقصى ما قاله فى مدح التاريخ ان جعله احد العلوم المساعدة لعلم الحديث ، ولكنه على اى حال اعطانا فكرة واضحة من مشكلة علم التاريخ عند العرب والاختلاف بينهم فى تقديره والحكم عليه .

وتتلخص آراء الناقدين لعلم التاريخ من المسلمين فى انه علم لا ينفع ، اذ هو يشغل الانسان باخبار الماضين واساطير الاولين عما ينفع الانسان فى اخراه من علوم الدين ، ثم انه يعرض صاحبه للكذب عن علم او غير علم ، فهو لا يدرى ان كانت الاخبار التي يسوقها صحيحة ام غير صحيحة ، ورأى بعض نقاد التاريخ من المسلمين انه غِيْبَة ، لان المؤرخ يتناول الغائبين بالذم والنقد ويكشف من عيوبهم ، والاسلام ينهى عن الغيبة ، ثم ان بعض المؤرخين يقعون فى اعراض الناس ويسيئون اليهم ، ولهذا تحامى الكثيرون من اهل الخلق والتصاون الكلام فى التاريخ حفاظا على خلقهم .

ولكننا نعذر الماضين من اهل الفكر عندنا فيما وجهوه للتاريخ من نقد ، لانه لا زال بين اهل عصرنا من كبار المفكرين ـ والفلاسفة خاصة ـ من ينكرون وجود التاريخ اصلا ، ويقولون ان التاريخ يعنى بما مضى وانقضى من الاحداث ، وما دامت قد مضت فهي غير ذات وجود حقيقي ، وهي لا تبعث الى الحياة الا فى ذهن المؤرخ . فالمؤرخون وحدهم ـ فى راى هؤلاء ـ هم الذين يشعرون بوجود التاريخ لانه صنعتهم ومدار حياتهم ، اما من عداهم فلا وجود للتاريخ فى حسابهم ، وهم لا يحسون بالحاجة الى معرفته ، ويحلو لكثير من اهل العلم ان يرددوا قول **هنرى فورد** « التاريخ لغو History is bunk » .

ولكن التاريخ كما سنرى ليس لغوا ، فهو لا يقتصر على اخبار الماضين واساطير الاولين ، بل هو يدرس التجربة الانسانية او جوانب منها ، ويسعى الى فهم الانسان وطبيعة الحياة على وجه الارض ، واذا نحن اعتبرنا الحياة طريقا يقطعه الانسان ، فلا شك فى ان معرفتنا بما قطعناه من الطريق تعيننا على قطع ما بقي منه . وسنأتي فيما بعد بفقرة طويلة وافية عن فائدة التاريخ وضرورة دراسته ومعرفته .

مثل من اختلاف الناس حول طبيعه التاريخ ووظيفته : راي ابن خلدون ونظرية هيجل :

ولا زال تعريف **ابن خلدون** للتاريخ فى فاتحة مقدمته يعتبر من ادق ما قيل فى هذا العلم ، وهو تعريف اعجب به واشار اليه نفر من كبار المؤرخين فى الغرب من امثال كولنجوود وتوينبي رغم انه لم يترجم الى الانجليزية ترجمة دقيقة الا على يد فرانتس روزنتال فى السنوات الاخيرة . وترجمته دقيقة ولكنها خالية من الروح ، وافضل منها واكثر حيوية الترجمة الفرنسية التي صنعها فنسان مونتاى ، وسنشير اليها فيما بعد .

قال ابن خلدون بعد مدخل بلاغي : « امابعد ، فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال ، اذ هو فى ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول ، والسوابق من القرون الاول ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ، وتؤدي الينا شان الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال . وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لهذا اصيل فى الحكمة عريق » .

وهذه عبارة تدل على فهم ذكي لطبيعة التاريخ ووظيفته فهو « فى باطنه نظر وتحقيق » اى تفكير فى طبائع البشر وتكوين مجتمعاتهم ، وبحث من اسباب الحوادث وتحليل لنتائجها ، فهو على هذا — كما يقول ابن خلدون — « اصيل فى الحكمة عريق وجدير بان يعد فى علومها خليق » والحكمة فى المفهوم العربي هى اعلا مراتب العلم ، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالكتب السماوية فى القرآن الكريم ثماني مرات ، وعبارة « الكتاب » والحكمة عبارة قرآنية لا تزال تتردد فى الاسماع والقلوب .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن يستوقف النظر ان ابن خلدون ينظم التاريخ فى سلك الفنون لا العلوم ، والفن بمعنى « الضرب من الشيء » كما جاء فى « لسان العرب » اقل منزلة واهمية من العلم الذى هو معرفة اكيدة . نعم ان ابن خلدون عاد فعقد فصلا عن فائدة التاريخ سماه « فى فضل **علم التاريخ** وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من اسبابها » ولكنه يبدا هذا الفصل ذاته بقوله : « اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب » فكانه غير مقتنع تماما بأن التاريخ علم مستكمل لاشراط العلوم .

وهذا الفصل الذى نشير اليه يدور حول وظيفة التاريخ او فوائده ، وهو يعطينا فكرة عن راى ابن خلدون فى قيمة التاريخ وفضائله فى نظر ذلك المفكر الكبير ، قال : « اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم فى اخلاقهم ، والانبياء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى احوال الدين والدنيا ، فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط » .

وخلاصة هذا الكلام هي ان التاريخ ينفع فى العظة والعبرة ، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لنتعلم ، وندرس سير الانبياء لنتأسى بهم ، وندرس تجارب الامم ونرى ما وقعت فيه من الاخطاء لننجو بانفسنا عن المزلات ومواطن الضرر ، وهذه فى راينا هي اعظم فوائد التاريخ فى نظر دارسيه من العرب . ولهذا نجد ابن خلدون يسمي تاريخه الكبير « كتاب العبر » .

ولا ندرى كيف غاب عن ابن خلدون ان احدا لا يعتبر بما يقرأ من التاريخ . ولقد كان الملوك فى الماضي من اكثر الناس مطالعة للتاريخ . ومع ذلك فما اتعظ احد منهم بما قرأ ، فنجدهم جميعا يقعون فى نفس المغالط التي يقرأون عنها فى الكتب ، وهم يرون انها ادت بالملوك السابقين الى التلف ومع ذلك يسيرون فى نفس الطريق ، وكل الظلمة فى تاريخنا كانوا من المشغوفين بالتاريخ فاين فائدتهم من ذلك ، والسخاوى نفسه يحدثنا عن شغف نفر من سلاطين المماليك وامرائهم بالتاريخ ومع ذلك فقد كان اولئك المماليك من اجهل الناس بالسياسة والحكم واقلهم معرفة بتجارب الامم واكثرهم اسرافا فى العدوان على اموال الناس وابشارهم ، فاين استفادتهم مما قراوه !

والحق ان الكثيرين يقراون التاريخ ليتعلموا منه وليوعظوا به ولكنهم لا يتعلمون ولا يوعظون ، لان الانسان قد يعجب بما يقرأ ويجد فيه متعة ولكنه لا يتعظ به ، لان الموعظة لا دخل لها فى التجارب الانسانية . فمهما حذرت ابنك من الاندفاع وراء النساء فان تحذيرك لن ينفعه ، لانه لا بد ان يجرب بنفسه .

واسأل نفسك : اننا معاشر العرب من اكثر الامم تاليفا فى التاريخ وقراءة له حتى ان مناكبنا لتنوء لثقل ما نحمل من اعباء التاريخ فقيم نفعنا ذلك ! وها نحن منذ الدهر الابد نقع فى نفس الاغلاط ببلاهة تدعو الى العجب .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم اننا نرى فى كلام ابن خلدون عن فائدة التاريخ ابهاما لا نرتضيه ، فما المراد مثلا بقوله ان التاريخ « عزيز المذهب شريف الغاية » ؟ لقد اختلط امر معنى « عزيز » و « شريف » على **فنسان مونتاى** مترجم المقدمة الى الفرنسية فى سلسلة الروائع الانسانية التى تنشرها منظمة اليونسكو ، وترجمهما بلفظ واحد هو noble وهو لفظ فرنسي مبهم المعنى ايضا ، مثله فى ذلك مثل مقابله فى العربية : « نبيل » .

ونحن لا نلوم ابن خلدون فى لجوئه الى هذا التعريف غير الدقيق لطبيعة التاريخ ووظيفته ، فبعد **وفاة ابن خلدون** باربعة قرون وربع القرن (توفي فى ١٧ مارس ١٤٠٦) القى **جيورج فلهلم فريدرش هيجل** محاضراته المشهورة فى فلسفة التاريخ فى شتاء سنتي ١٨٣٠ ـ ١٨٣١ وقال فيها ان تاريخ البشر كله يمكن ان يوصف بانه عملية طويلة استطاعت البشرية خلالها ان تحرز تقدما روحيا واخلاقيا ، وهذا التقدم هو ما استطاع العقل البشرى ان يحرزه فى طريق معرفته لنفسه ، وقال ان التاريخ يسير وفقا لخطة Plan ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة . ولقد عجز الكثيرون من المؤرخين المبرزين عن الكشف عن اى خطة واكتفوا برواية الاحداث ، ووجد آخرون مفتاح التاريخ فى قوانين مختلفة ذهبوا الى ان الطبيعة تعمل بموجبها . اما تفكير هيجل فيقوم على الايمان بان التاريخ هو تحقق الغاية التي ارادها الله من وراء الخلق ، وان الانسان وصل فى بداية القرن التاسع عشر الى درجة من التقدم تمكنه من الكشف عن هذه الغاية وهي تحقيق حرية البشر تحقيقا تدريجيا . والحرية التي يعنيها هيجل هي تحرر الانسان من عقال الجهل والخوف والظلم .

وفى راى هيجل ان الخطوة الاولى فى هذا الطريق كانت الانتقال من حالة التوحش الطبيعية الى مستوى النظام والقانون . خلال هذه المرحلة كان لا بد من انشاء الدول ، وكان على اولئك الذين انشاوا هذه الدول ان يستعملوا القوة والعنف ، ولا سبيل غير القوة والعنف لالزام الناس بطاعة القانون قبل ان يصلوا الى درجة كافية من التقدم العقلي تجعلهم يلزمون النظام

والقانون من تلقاء انفسهم . وهذه العملية لا يمكن ان تتم بالنسبة لكل البشر فى نفس الوقت ، فهناك مرحلة يصل فيها بعض البشر الى هذا الادراك لقيمة القانون واحترامه فيصلوا بذلك الى الحرية فى حين لا يستطيع بعضهم ادراكها فيظلوا عبيدا ، وذهب هيجل الى ان الانسانية وصلت الى مستوى من الفهم يجعلها توقن بأن البشر جميعا احرار نظريا وان واجبنا ان ننشىء النظم التي تجعل هذه الحرية حقيقة .

وقد وقفنا عند هيجل هذه الوقفة القصيرة فى كلامنا عن ماهيـة التاريخ لكي نضرب للقارىء مثالا من الاختلاف الواسـع المدى الذى يمكن ان يقع بين فلاسفة التاريخ حـول طبيعة التاريـخ ووظيفته ، فان ابن خلدون كما نعلم وضع نظرية دورة العمران ، وقال ان مسار التاريخ دائـرة مغلقة سيئة ، لا يزال الانسان يدور فيهـا حتى يطوى الله الارض وما عليها . اما هيجل فيرى ان هذا المسـار نمط مسـتقيم يبدأ عند البـداوة والتوحش ولا بد ان ينتهي يـوما ما الى تحـرر البشر جميعا وعيشهم فى سلام فى ظل القانون .

وقد نبعت فلسفة كل من ابن خلدون وهيجل من تجربته الخاصة والطريق الذى سارت فيـه تجربة الامـة التي انتسـب لها ، فقد عاش ابن خلدون فى عصر شقي مضطرب ، وتلفت الى ورائه فراى ان تاريخ امم العروبة يتلخص فى سلسلة من التجارب الحزينة الفاشلة ، فسـاء ظنه بالدنيا والناس ، وصور تاريـخ البشر فى هذه الصـورة اليائسة ، اما هيجل فقد كتب فى عصر وصـل الغرب الاوروبي فيه الى استقرار نسبي ورخاء وغنى وسيادة ، فامتلأت نفسه بالتفاؤل وقال ان الانسانية تسير من حسن الى احسـن ، وانها ستصل فى يوم ما الى هدفها الاسمى الذى ذكرناه .

وقد كان هيجل يحسب انه قال آخر كلمة فى فهم التاريخ وانه وضع يده على الخطة او الخط الذى رسمه الله سبحانه لمسيرة البشر على وجه الارض ، ونسب اليه نفر من خصومه عبارة ساذجة تنطوى على غرور كثير وهي قـوله : « عندى ينتهي التاريخ » والحق ان الرجل لم يقل شيئا من ذلك كما اثبته تلميذه ومجدد فلسفته فلهلم دلتاى Wilhelm Dilthey وانما زعمه خصومه من الماركسيين ، ومن المعروف ان كارل ماركس واتباعـه اجتهدوا فى هـدم آراء هيجل ، وقـد ابغضوه لايمانه الشـديد بالمسـيحية ولمناصرته للدول والنظم الراسمالية التي سادت الغرب فى ايامه .

ما هـو التاريخ

بعد هذه المقابلة فى الراى فى علم التاريخ بين اثنين من اكابر فلاسفة التاريخ ، وهي مقابلة اردنا من ورائها ان تستلفت النظر الى صـعوبة ادراك حقيقة التاريخ وفائدته نعود فنسـأل : ما هـو التاريخ ؟

والجواب : هو دراسة الحوادث او هو الحوادث نفسها .

والحوادث جمع حادث ، والحادث هو – من وجهة نظر المؤرخ – كل ما يطرأ من تغير على حياة البشر ، وكل ما يطرأ من تغـير على الارض او فى الكون متصلا بحياة البشر .

والحادث قد يكون مفاجئا كوقوع زلزال يهدم المدن وقد يكون عنيفا مثل قيام حرب وقد يكون بطيئا غير محسوس كعمليات التطور البطيئة التى لا يفطن الانسان الى حدوثها الا على المدى الطويل . ومثال ذلك تطور المراة العربية وخروجها من عزلة البيت الى الحياة العامة ومساهمتها فى كل ميادين

النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي ايضا ،فهذه عملية طويلة بدات من اواخر القرن الماضي ولا زالت مستمرة الى اليوم . وهي في مجموعها حادث تاريخي خطير بعيد المدى . وقد يقع الحادث دون ان يفطن اليه احد ثم تتجلى خطورته فيما بعد مثل ميلاد طفل يصبح في يوم من الايام قائدا كبيرا او مفكرا عظيما او سياسيا ماهرا ، اي يصبح من صناع التاريخ .

وسواء اكانت الحوادث صغيرة او كبيرة ،محسوسة او غير محسوسة ، قصيرة الامد او طويلة ، فان الجامع بينها هو ان الحال قبلها يختلف عنه بعد وقوعها ، فالعالم قبل نابليون يختلف عن العالم بعده ، والدنيا قبل الحرب العالمية الثانية تختلف عنها بعدها ، والفكر الانساني قبل جورج برنارد شو يختلف عنه بعده ، وهكذا ، فالعبرة في الحوادث التي هي مادة التاريخ هي ان تعني تغيرا في الاحوال . سواء اكان هذا التغير كبيرا او صغيرا ، محليا او عالميا ، وحوادث التاريخ اذن هي تغيرات . والحادث الآن هو التغير . واذا نحن اردنا ان نتبين اهمية حادث ما فنحن نقارن الاحوال قبله وبعده . وعلى هذا الاساس فنحن نعتبر ظهور من نسميهم بعظماء الرجال او صناع التاريخ حوادث . فيوليوس قيصر حادث ، وخالد بن الوليد حادث ، والشيخ محمد عبده حادث ، وهكذا ، وواضح اننا اذا اعتبرنا كلا من اولئك الرجال حادثا فنحن ناخذه في مجموعه وننظر الى حجم التغير الذى احدثه في مسيرة البشر .

ولكننا اذا فكرنا مليا وجدنا ان التغير في حقيقة الامر مستمر وهو لا يتوقف على ظهور اشخاص باعيانهم ، ولا ينتج عن تجمع ظروف تؤدي الى قيام دول او نشوء حروب أو وقوع تطورات وما الى ذلك ، بل ان التغير في احوال الارض والناس مستمر منذ ان انشا الله الخلق الى ان يطويه ، واذا نحن اخذنا حقبة من الزمن من تاريخ امة لاحظنا ان مجرد مرور الزمن يحدث تغيرا الى الاحسن او الى الاسوا ، ولكنه تغير على اي حال . وهذا التغير يحدث نتيجة لسير الزمن نفسه . فما دامت الشمس سائرة في فلكها ، والارض في مدارها فلا وقوف للتغير . ونحن نحس في انفسنا ذلك ، فنحن نتغير مع مرور الليالي والايام ونتنقل من الطفولة الى الشيخوخة دون ان تكون لنا يد في ذلك . ولقد قالت **سيمون دي بوفوار** تلميذة **جان بول سارتر** : ان اقوى عامل في حياتنا هو ذلك الشيء الذي لا يحس ولا يرى ولا يدرك له وزن : الزمن . انني احس الآن بوطاته على كتفي » والحق ان الزمن نفسه هو الحادث الاكبر ، واذا استطعنا ان نتصور ان الزمن يمكن ان يتوقف لراينا ان الحوادث هي الاخرى يمكن ان تتوقف . والحق ان الشاعر الذي قال :

الليالي من الزمان حبالى　　　　مثقلات يلدن كل عجيب

لم يفطن الى عمق الحقيقة التي توصل اليها في هذا البيت .

فاذا كان التاريخ في حقيقته هو الحوادث ،وكانت الحوادث هي التغيرات ، والتغيرات وليدة الزمان او سير الزمان انتهينا الى ان التاريخ هو الزمان . ويكون ميدان اهتمام المؤرخ على هذا هو دراسة كل تغير طرا على الكون والارض وكان له تاثير على حياة البشر . ثم دراسة كل تغير طرا على حياة البشر انفسهم ، مهما كان هذا التغير صغيرا او غير ظاهر الاهمية . فالحقيقة انه لا توجد حوادث صغيرة واخرى كبيرة ،لان الحوادث الكبيرة انما هي تجمع حوادث صغيرة بعضها الى بعض في نطاق مكاني وزماني ضيق . وكما ان السيل الجارف ينشا من تجمع ذرات صغيرة من البخار فان وقوع حرب عالمية مدمرة يكون في الغالب نتيجة تجمع قوى بشرية وتراكمها في دولة

من الدول او اكثر . فيؤدى هذا التجمع الى الاحتكاك ثم الانفجار ، وكذلك الحال بالنسبة لمن نسميهم عظماء الرجال ، فهم فى ذاتهم لا قيمة لهم الا بالرجال الذين ساروا وراءهم وايدوهم ، وما قيمة نابليون بدون جنوده وما قيمة المتنبي بدون قرائه !

لقد شبهوا سير التاريخ بسير الماء فى مجرى طويل يتسع حينا ويضيق حينا ويستقيم حينا ويتعرج حينا وينبسط مرة ثم ينحدر فى صورة شلالات مرة اخرى، وقد تعترضه الجنادل والصخور ، والماء ــ الذى هو التاريخ ــ يسير بحسب حالة المجرى ، فاذا اتسع المجرى انساح الماء وبطأت حركته، واذا استقام انساب الماء رقيقا حتى لا تحس بانسيابه ، واذا تعرج تلوى معه الماء وتراخى سيره او اندفع بحسب المنعرجات ، ونفس هذا الماء الهادىء يتحول الى شلال رهيب فينصب انصبابا يحطم اقسى الصخور اذا انحدر المجرى انحدارا عنيفا ، واذا احسن التحكم فيه اطلق قوى كهربائية ضخمة من عقالها ، وهذا هو سير التاريخ او سير الزمان بعصور هدوئه وعصور فورانه ، ومصدر القوة والخير والرى والكهرباء هو ذلك الماء الهادىء الصامت الذى تحفن منه فى كفيك وتنظر فلا ترى شيئا ، وهذا هو الزمان الذى شكت منه سيمون دى بوفوار وتعجبت من انه صنع بها ما صنع ومع ذلك فهو لا يرى ولا يحس ولا يدرك له وزن . واذا كان نهر الماء يتكون من شيئين : الماء والمجرى فان نهر التاريخ يتكون من عنصرين : البشر والزمان ، ويضاف اليهما عنصر ثالث وهو المكان .

وفى بداية التاريخ اى فى عصور توحش الانسان الاولى ، كان الانسان يعيش تحت رحمة الزمان والمكان . فلما نما ذهنه واتسعت تجاربه بدا يتامل ما حوله واخذ يحاول التحكم فى الزمان والمكان ، ولكي يحمي نفسه من عبث الزمان وتحكم المكان تعلم كيف يتخذ اسلحة واكسية ، وسكن المغارات ثم تعلم كيف يبني الكوخ . وعندما اهتدى الى فضل النار وعرف كيف يوقدها خطا خطوة فسيحة الى الامام ، ثم تعلم كيف يدخر غذاءه ثم كيف ينتجه عن طريق الزراعة وهكذا مضى فى طريق التحكم فى ظروفه الزمانية والمكانية عن طريق التفكير والتجربة ، وعندما فطن الى فكرة الكتابة دخل عصور التاريخ ، لان الكتابة مكنت له من ان يختزن معلوماته وثمرات تجاربه عن طريق التدوين لينتفع بها فيما بعد .

وهذا الطريق الذى سار فيه الانسان منذ عصور البداوة والتوحش الى عصور الكتابة وما تلا ذلك من عصور هو الذى يسمى بالتاريخ السياسي والحضارى . فاما السياسي فهو جانب الصراع الذى خاضه ويخوضه الانسان لتامين نفسه ومجتمعه من العدوان الخارجي ثم تنظيم هذا المجتمع على نحو يوفر له اكبر جانب من الامان والرخاء ، واما الحضارى فهو صراعه للارتقاء بنفسه وبمستواه المعاشي من الناحيتين المادية والمعنوية . ومن الواضح ان الجانبين السياسي والحضارى متلازمان ولا يمكن دراسة واحد منهما دون دراسة الآخر ، ولا يمكن الفصل بين التاريخ السياسي والحضارى ، وانما يمكن الاهتمام فى بعض المؤلفات بجانب السياسة اكثر من الاهتمام بجانب الحضارة او العكس .

ولماذا ندرس التاريخ ؟

وهذا الكلام يوهم بان ميدان التاريخ هو الماضي وحده او حكاية ما انقضى وفات وطواه الزمان فى سيره الأبد من الاحداث ، وليس هذا بصحيح ، لاننا اذا قلنا ان التاريخ هو نهر الحياة فان هذا النهر متصل السير قبلنا وفى زماننا وبعد زماننا ، واذا كنا عندما نكتب التاريخ فمعنى ذلك اننا نسجل التجربة الانسانية . وهذه التجربة لا زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ على هذا يشمل الماضى والحاضر والمستقبل معا، ونحن عندما ندرس الماضي فاننا فى نفس الوقت ندرس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحاضر والمستقبل ، لاننا اذا دققنا النظر تبينا الا شيء في الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن ، وفي علم الطبيعة يقولون ان المادة لا تفنى ، اما في علم التاريخ فنحن نقول الا شيء يزول زوالا تاما ، وانما هي الاشياء نفسها تأخذ مع الايام صورا شتى ، فلو انك نظرت الى صورة نفسك وانت طفل رضيع وقارنتها بصورتك في يومك لهالك الفرق ولحسبت انكما انسانان مختلفان، والحقيقة ان هذا الطفل هو انت في صورة اخرى والفرق الذي تراه هو فعل الزمان ، ومن هنا فان الذين ينظرون الى كتاب في تاريخ مصر القديمة مثلا ويحسبون انه تاريخ مضى وانقضى يخطئون ، لان شعب مصر القديمة لا زال حيا في كيان شعب مصر الراهن ، وحضارتها لا زالت قائمة في الكثير من مظاهر حضارتنا الراهنة ، ونحن العرب أولى من غيرنا بالاحساس بحيوية الماضي ، فان اسماء عمر بن الخطاب ، وعلي بن ابي طالب ، وهارون الرشيد ، وابي بحر عمرو بن عثمان الجاحظ ، اسماء معاصرة تتردد في اذهاننا وكلامنا كل يوم ، لاننا نعيش تاريخنا الماضي فعلا . بل ان بعضنا يذهب به الحماس الى درجة انه يؤمن بانه من الممكن ان نعود الى هذا الماضي فنعيشه كما كان . حقا لقد دخلت الانسانية كلها طورا من التقدم جديدا من كل ناحية من اوائل القرن التاسع عشر ، وظهرت نتيجة لذلك صور للمجتمع البشري تختلف كل الاختلاف عن صوره الماضية ، ولكن ليس معنى ذلك ان الماضي قبل ذلك اختفى بحذافيره ، بل لا زال حيا في كل ناحية من نواحي حياتنا الراهنة ، واذا كنا نحن احفاد من عاشوا قبل القرن التاسع عشر نحمل في كياننا الكثير من خصائصهم المميزة ، بل لا زلنا نتكلم لغتهم ونؤمن بنفس العقائد التي آمنوا بها ، فان كل معالم حياتنا هي ايضا حفيدة معالم حضارتهم ، وان اختلفت المظاهر لان الماضي لا يموت ، او قل انه ليس هناك شيء ماض تماما .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم اين هو الفاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ؟ انك لا تكاد تفكر في لحظة « حاضرة » حتى تجد انها قد أصبحت ماضيا في طرفة عين ، وهذه السطور التي تقرأها الآن ماضية بالنسبة لي ، لأنني كتبتها من زمن ، ولكنها « حاضر » بالنسبة لك لانك تقرأها اول مرة وهي « مستقبل » لمن سيقرأها في قابل الايام ، والمسألة هنا مسألة نسبية تختلف من انسان لانسان ، بل يختلف الحكم عليها بحسب اختلاف حالة الانسان نفسه من زمان لزمان ، وقد قالت بهذا مدرسة كاملة من مدارس المؤرخين المعاصرين وهي مدرسة النسبيين . وسنقف عندها فيما بعد وقفة طويلة بعض الشيء .

وعلى هذا فالمؤرخ ليس ذلك الرجل العتيق الطويل اللحية الغارق في غبار الماضي ولا هو ذلك الشيخ الذي حنت ظهره السنون التي قضاها زاحفا بين الاسفار العتيقة والاضابير المتراكمة في كهوف المكتبات ، وانما هو على العكس من ذلك تماما ، انه دارس حياة البشر كلها قديمها وحديثها ومستقبلها ، وهو يدرس الماضي ونظره متجه الى المستقبل ، بينما تقف اقدامه ثابتة على ارض الحاضر ، وهو يعتبر تاريخ الانسانية كلها تجربة واحدة بدأها آدم وسار فيها اولاده ، وهو يرقبها ويحللها ويستخرج حقائقها لعله يخرج بشيء من الحكمة ينفع الانسانية في تجاربها الكثيرة . واذن فالمؤرخ ليس مسجل أحداث الماضي فحسب ، بل هو رفيق الانسانية في حاضرها وهو من قادة الانسانية في سيرها الطويل نحو الغد .

ومع هذا الجهد الذي يبذله المؤرخ لينير لاخوانه البشر الطريق ـ مثله في ذلك مثل غيره من اهل العلوم النافعة ـ فقد تعرض المؤرخون دائما للنقد بل للسخرية . وفي ايامنا هذه يلاحظ

بصورة عامة انصراف الكثيرين من اذكياء الشبان عن دراسة التاريخ على اعتبار انها دراسة عقيمة لا يتحقق من ورائها نفع واضح، الا اذا كان الغرض من دراسته الاشتغال فيما بعد بتدريسه في المدارس او التخصص فيه في الجامعات . ومن هنا فانه يلاحظ تضخم اقسام التاريخ في جامعات البلاد الفقيرة لان ذلك طريق سهل نوعا للحصول على درجة جامعية تفتح امام صاحبها ابواب التدريس ، وهو عمل مطلوب دائم ومأمون رغم قلة مكاسبه . اما في البلاد الميسورة الحال او الغنية فان الطلاب ذوى الحس التاريخي يتجهون الى دراسة علوم متصلة به ، ولكنها تفتح سبلا اوسع للصعود الاجتماعي كالعلوم السياسية والاجتماع .

ونحن الذين ندرس التاريخ نجد انفسنا في احيان كثيرة مضطرين الى الدفاع عن العلم الذى تخصصنا فيه وتبرير اشتغالنا به ، لان الكثيرين من الناس لا يزالون مثل **دوق كامبرلاند** الذى مر بالمؤرخ المشهور **ادوارد جبون** وهو غارق في العمل في كتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها فقال له ساخرا : ما اراك الا منصرفا ما تزال الى الحرفة القديمة : تنبش ثم تنبش ثم تنبش » (١) .

وقد تصدى **شمس الدين السخاوى** (٨٣١ – ٩٠٢/١٤٢٧ – ١٤٩٧) للرد على خصوم التاريخ في كتابه المعروف « التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ولكنه هو نفسه لم يعرف كيف ينصفهم، لان السخاوى لم يكن مؤرخا او صاحب ملكة تعينه على ادراك حقيقة التاريخ ، انما كان السخاوى حافظا اثقل رأسه بحفظ عشرات المجلدات ، فغلبت على ذهنه الملكة الواعية على الملكة المفكرة ، وتلك ظاهرة نلاحظها عند الكثيرين من الحفاظ الذين حولوا اذهانهم الى مكاتب متنقلة وتعطلت عندهم ملكة التفكير والتامل ، ومن هنا فان مفهومه للتاريخ ضيق جدا بل يخلو تماما من الحس الانساني والحضارى ، فالتاريخ عنده « في الاصطلاح التعريف بالوقت الذى تضبط به الاحوال من مولد الرواة والائمة ووفاة ، وصحة وعقل ، وبدن ورحلة ، وحج وحفظ ، وضبط وتدقيق وتجريح ، وما اشبه هذا مما مرجعه الفحص عن احوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ، ويلتحق به ما يتفق في الحوادث والوقائع الجليلة ، من ظهور مُلِمّة ، وتجديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة . وربما يُتوسّع فيه لبدء الخلق وقصص الانبياء ، وغير ذلك من أمور الامم الماضية ، واحوال القيامة ومقدماتها كما سيأتي ، او دونها كبناء جامع اومدرسة او قنطرة او رصيف او نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد ، او خفيّ سماوى كجراد وكسوف وخسوف ، او ارضي كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون ومُوتان وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام . والحاصل انه فن يُبْحث فيه عن وقائع الزمان من حيثيّة التعيين والتوقيت ، بل عما كان في العالم » .

وهذا في راينا اضعف ما يمكن ان يقال في التعريف بالتاريخ ، فهو سقيم سطحي من كل ناحية ، بل ان اسلوبه ردىء غير متماسك .

وفي كلام السخاوى عن « فائدة التاريخ » نجده يحدد افق هذا العلم الى درجة انه يجعله علما فرعيا مساعدا لعلم الحديث وجعل مزيته الكبرى تحقيق سنوات ميلاد الرواة ووفاتهم حتى

---

(١) So I Suppose you are at the old trade again : Scribble, Scribble, Scribble.

نتاكد من امكانية لقاء بعضهم ببعض وروايةبعضهم عن بعض . ومدار كلامه في هذا الشأن قول **سفيان الثوري** : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ .

ثم ذكر السخاوي بعد ذلك فوائد شتى تدل على انه هو نفسه كان بعيدا عن ادراك حقيقة التاريخ والالمام بفضائله . فهو يرى فيه اولا مقياسا للتحقق من صحة رواية الناس للاحاديث بعضهم عن بعض . ثم يرى فيه ثانيا موضعا للعبرة : « وكذا ما يذكر فيه من اخبار الملوك وسياساتهم ، واسباب مبادىء الدول واقبالها ،ثم سبب انقراضها ، وتدبير اصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الاحوال التي يتكرر مثلها واشباهها في العالم ، غزير النفع كثير الفائدة ، بحيث يكون مَنْ عَرَفه كمن عاش الدهر كله ، وجرب الامور باسرها ، وباشر تلك الاحوال بنفسه، فيغزرُ عقله ويصير مجربا غير غرولا غمر ، كما سيأتي في نظم بعضهم .... وانه ايضا جم الفوائد كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية ، لما جبلت عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الاخبار الى التشبه والاقتداء بارباها . ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر الذي حرص عليه خلاصة البشر ، واخبر الله تعالى عن امام الحنفاء الخليل عليه الصلاة والسلام انه قال : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين (الشعراء ٨٤) وامتن على غير واحد من رسله عليهم الصلاة والسلام بقوله« وتركنا عليه في الآخرين » (الصافات ٧٨) وعلى خيرته من خلقه عليه افضل الصلاة والسلام بقوله : « ورفعنا لك ذكرك » (الشرح ٤) و « انه لذكر لك ولقومك » (الزخرف ٤٤) .

ولكننا نحمد للسخاوي انه جمع في « الإعلان والتوبيخ » طائفة من احسن ما قال العرب في التاريخ . وكلامهم في مجموعه لا يخرج عما ذكرناه من فضائل التاريخ عند كتاب المسلمين وهي انه يساعد على تحقيق تواريخ ميلاد الرواة ووفاتهم ، فيعين هذا على التثبت من صحة رواة الحديث او عدم صحتهم ، ويقدم لنا مادة نافعة في تفسير القرآن الكريم ، ثم هو الى جانب ذلك حافل بالعبر والمواعظ ، اي ان للتاريخ في الجملة فائدتين رئيسيتين : الاولى دينية والاخرى تعليمية . وهناك على اي حال اجماع بين قدامى المؤرخين ومحدثيهم عن القيمة التعليمية للتاريخ .

ذم التاريخ واهله

ونحمد للسخاوي أيضا انه اتانا باطراف مما قال خصوم دراسة التاريخ من كتاب المسلمين ، وقد اشرنا الى ما ذهب اليه بعض اهل الغرب من عقم الدراسة التاريخية وقلة جدواها ، ونضيف هنا ان سجل تاريخنا الفكري لم يخل ممن راوا في دراسة التاريخ هذا الرأي وقالوا فيها (ان غاية فائدتها انما هو القصص والاخبار ، ونهاية معرفتها الاحاديث والاسمار . ومنهم من نسب بعضهم الى القصور ، حيث لم يتعرض للجرح وضده ، مع كونه اعظم فوائده ، ولا على اخبار الائمة والزهاد والعلماء الذين بذكرهم تتنزل الرحمة ، ولا على شرح مذاهب الناس مع عموم الحاجة اليه ؛ بل اقتصر على الحروب والفتوحات ونحوها ، مع ان مَنْ اتصف يعلم انه ليس من العلم فتح البلد الفلاني في سنة كذا ، ولا ان عدد الجيش كان كذا) .

« ومنهم من نسب المتعرض منهم للتجريح في الازمان المتاخرة الى ارتكاب المحرم لانه غيبة ، وان الاخبار المرخص له من اجلها قد دونت ومابقي له فائدة ، وممن صرح بهذا **ابو عمرو بن المرابط** ، وقال ان فائدته انقطعت من رأس الاربعمائة ، ودندن هو وغيره ممن لم يتدبر مقاله بعيب المحدثين بذلك ، وصرح بعضهم بأن ما يقع في كلام جماعة من المتاخرين القائلين بالتاريخ وما

اشبهه كالذهبي لم شيخنا من ذكر المعائب ـ ولو كان المعاب من اهل الرواية ـ غيبة محضة . ونحوه تعقب **التقي ابن دقيق العيد بن السمعاني**(٢) فى ذكره بعض الشعراء وقدح فيه بقوله : اذا لم يضطر الى القدح فيه للرواية لم يجز » .

« ومنهم من نسب بعضهم (اى بعض المؤرخين) الى التقصير والتعصب . حيث لم يستوعب القول فيمن هو منحرف عنهم ، بل يحذف كثيرا من ثناء الناس عليهم ، ويستوفي الكلام فيمن عداهم غير مقتصر عليهم » .

« ومنهم من الحامل له على الذم مجرد الجهل ، فاما الاول ، فلا شك فى تحريم الاقتصار عليه حسبما قررناه ، واما الثاني فقد رواه ابن الاثير بما حاصله انه ظنّ من اقتصر على القشر دون اللب ، واختصر فلم ينظر ما فيها من الجواهر لما عنده من التعصب . ومن رزقه الله تعالى طبعا سليما وهداه صراطا مستقيما علم ان فوائده كثيرة ومنافعه الدنيوية والاخروية ـ يعني كما قدمنا ـ جمة غزيرة » .

« واما الثالث فليس الاقتصار على ما ذكر نقص ، فالمؤرخون مقاصدهم مختلفة ، فمنهم من اقتصر على ذكر الابتداء ، او على الملوك والخلفاء ، واهل الاثر يؤثرون ذكر العلماء والزهاد ويحبون احاديث الصلحاء ، وارباب الادب يميلون الى اهل العربية والشعراء » .

« ومعلوم ان الكل مطلوب والجميع محبوب وبه مرغوب ، وكل من التزم شيئا فالغالب عدم خروجه عن موضوعه وان لم يمكنه الاستيفاء لمجموعه ، والسعيد من جمعه فى ديوان واودعه من غير كبير خلل ولا نقصان والكمال لله » .

« واما الرابع فقد اجبناهم بان الملحوظ فى تسويغ ذلك كونه نصيحة ولا انحصار لها فى الرواية (٣) . فقد ذكروا من الاماكن التي يجوز فيها ذكر المرء بما يكره ولا يعد ذلك غيبة ، بل هو نصيحة واجبة ان تكون للمذكور ولاية لا يقوم بها على وجهها ، اما بان لا يكون صالحا لها ، واما بان يكون فاسقا او مغفلا او نحو ذلك ، فيذكر ليزال بغيره ممن يصلح ، أو يكون مبتدعا من المتصوفة وغيرهم ، او فاسقا ويرى (٤) من يتردد اليه للعلم او للارشاد ويخاف عليه عود الضرر من قبله ، فيعلمه ببيان حاله . ويلتحق بذلك المتساهل فى الفتوى او التصنيف او الاحكام او الشهادات او النقل او الوعظ حيث يذكر الاكاذيب وما (لا) اصل له على رؤوس العوام ، او المتساهل

---

(٢) فى الاصل الذى نشره د . الصالح العلي ورد لفظ ابن بدون الف مما يفهم منه ان تقي الدين بن دقيق العيد انكر على ابن السمعاني وهو غير صحيح . والصحيح كما اعتقد ان تقي الدين بن دقيق العيد انكر على ابن السمعاني قدحه لبعض الشعراء ويرى ان هذا القدح لا يجوز ، لان القدح لا يجوز الا اذا كان نقدا لرواية من رواة الحديث فى الوثوق فيهم .

(٣) يريد ان يقول انه بين ان المهم فى اباحة نقد الناس وتجريحهم ان يكون ذلك على سبيل النصيحة والتحذير والتنبيه ، لا ان يكون مجرد ذم وتجريح ، ومواطن النصيحة فيما يتعلق برواية الاحاديث كثيرة لا تحصر .

(٤) الفاعل هنا هو المؤرخ .

* ساقطة من الاصل والسياق لا يستقيم بدونها .

في ذكر العلماء او في الرشى او الارتشاء ، اماابتعاطيه له او باقراره عليه مع قدرته على منعه ، او اكل اموال الناس بالحيلة والافتراء ، اوالغاصب لكتب العلم من اربابها او من المساجد بحيث تصير ملكا ، فضلا عن الاوقاف التي لاحقيقة للمسوغ فيها ، او غير ذلك من المحرمات . فكل ذلك جائز او واجبٌ ذكره ليُحذَر ضرره . وبهذا ظهر ان الجرح لم ينقطع ، وانه والحالة هذه من النصيحة الواجبة المثابُ فاعلها ، وقد قال من لم يشك في ورعه **الامام احمد لابي تراب النخشي** حين عزله علي (٥) الجرح بقوله « لا تغتب الناس ويحك » : هذه نصيحة وليست غيبة » (٦) .

ولا ينبغي ان تطول دهشتنا من طول وقوف السخاوى عند موضوع الغيبة ، لان نقد رجال الحديث الى رواته وهو المسمى بالجرح والتعديل كان يقوم على اصدار احكام على الرواة ، فهذا صدوق وهذا عدل او من اهل الضبط والتحري ، وذاك كذاب او مدلس او فاسق او ضعيف او متروك . وكانوا قليلا ما يمتدحون احدا ، الكثير من كلامهم نقد وتجريح واتهام لاسباب شخصية في الغالب . وقلّ من سلم من لسانهم ، ولهذا ذهب اهل التصادق منهم الى تحريم مثل هذا التجريح للناس وقالوا انه غيبة ، واباحه بعضهم كما رايناها على انها نصيحة . والامر في ذلك مقتصر على اهل الحديث ، ورواة الاخبار المتعلقة بالسيرة والصحابة ، ومن هنا فهو لا ينطبق على المؤرخين عامة ، ولا يمكن بداهة ان يرمى المؤرخ بالغيبة لانه نقد هارون الرشيد او المامون او ابن طولون او نابليون فذلك موضوع آخر يختلف تماما عما كان يدور في اذهان السخاوى وامثاله من الشيوخ .

وقد كتب في علم التاريخ وفوائده كثيرون من المسلمين ، ومعظم كلامهم يجيء في فواتح كتبهم على سبيل التمهيد او على سبيل تبرير اشتغالهم بالتاليف في هذا العلم او اعتذارهم عن انفاق الوقت فيه ، اذ كان التاريخ في حسابهم من « الفنون » اى العلوم الفرعية او الثانوية المحدودة النفع ، ومن ثم فلا محل لانفاق الوقت فيها فيما خلا ما يمكن ان ينفع المحدث او مفسر القرآن من تفاصيل تاريخية . ولكن كل كلامهم في تعريف التاريخ او مفهومه او فوائده او تقسيمه لا يخرج عما اورده السخاوى ، وهو كلام ، كما راينا ، بعيد عن ادراك حقيقة هذا العلم او موضوعه او مقاصده كما نراها اليوم ، ولكنه كلام يتفق مع عقلية العصور التي كتبت فيها ومفهوم العلم كله في نظر اهلها ، ونستثني من ذلك ابن خلدون ، فقد كان بالفعل مفكرا سابقا لاوانه ، وعالما من طراز نادر في تلك العصور .

ضرورة الدراسة التاريخية واهميتها وفوائدها

من اواخر القرن الثامن عشر كثر في الغرب التاليف في علم التاريخ وموضوعه ومناهجه وتفسيراته ومذاهبه . وظهرت من ذلك الحين نظريات وآراء كثيرة جدا في هذه الموضوعات . وسنعرض لاهم هذه النظريات والآراء في فقرة خاصة من هذا البحث . ولكنني اورد هنا ترجمة

---

(٥) الاصل : عن ، والسياق يقضي ابدالها بعلى .

(٦) شمس الدين السخاوى ، « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ » نشره ضمن ترجمته العظيمة القيمة لكتاب تاريخ التاريخ عند المسلمين . وقد اتى د . صالح العلي في ترجمته بكل النصوص التي رجع اليها المؤلف وهو فرانس روزنتال . ص ٦٢) .

لفقرة من اهم فقرات دراسة جامعة مختصرة ضمنها المؤرخ الانجليزى **آرثر ماروِيك** Arthur Marvic فى كتابه المسمى « طبيعة التاريخ The Nature of History (٧) وهو من الكتب الدراسية الجامعية المعتمدة Text-Books الواسعة الانتشار فى جامعات أوروبا وامريكا وهو يمتاز بالايجاز والشمول والوضوح . والفقرة تتناول ضرورة الدراسة التاريخية واهميتها . قال بعد تمهيد صغير (ص ١٤ وما يليها) : « واذن فالتبرير الاساسي للدراسة التاريخية هو انها ضرورية . فهي تسد حاجة غريزة انسانية اساسية تفى بحاجة اصيلة من حاجات البشر الذين يعيشون فى المجتمع » .

« وضرورة التاريخ لها وجهان ، فالتاريخ يقوم للانسان والجماعة البشرية بوظيفة فعلية functional بمعنى انه يسد حاجة المجتمع الى معرفة نفسه ورغبته فى ان يفهم علاقته بالماضي وعلاقته بالمجتمعات الاخرى وثقافاتها ، وهو ـ اى التاريخ ـ شاعرى او عاطفي Poetic بمعنى أن كل فرد تقريبا يضم فى كيانه تطلعا مركبا فى طبعه وشعورا بالعجب من امر الماضي ، وهذا التطلع هو وعي عبّر عنه **جورج ماكولي تريفيليان** George Macauly Trevelian يقوله : « انه وعي الى حقيقة كانها عجيبة وهي انه فى وقت ماضي قبلنا على ظهر الارض رجال ونساء ، ناس حقيقيون مثلنا اليوم ، تشغل اذهانهم افكارهم الخاصة بهم وتحركهم عواطفهم الخاصة بهم ، وان هؤلاء الناس قد مضوا جميعا الى سبيلهم ، واختفى جيل منهم فى اثر جيل وانتهوا تماما كما سنختفي نحن ايضا فى القريب كما لو كنا اشباحا فى ظلام الغسق » . ففي اعماق الخيال الانساني ترقد رغبة غريزية فى تحطيم حواجز الزمن والموت ومد حدود الوعي الانساني بهذه الطريقة الى ما وراء عمر الانسان الواحد (٨) . وهذه الغريزة شبيهة بهذا الشعور الذى يملأ نفس الانسان فى ايام الخريف عندما يحس برائحة دخان الخشب تملأ الهواء من حوله ، وعندما يجتاح الذهن شوق غريب مضطرب ، وهذه الغريزة شبيهة ايضا بالاحاسيس التي يثيرها فى النفس رنين اجراس الكنائس فى صباح يوم احد ساكن (٩) .

« وسواء اكان المؤرخ يهتم اكثر بالناحية الشاعرية او العملية من التاريخ فانه يخدم حاجة انسانية ، واذا هو قال ـ كما لا يزال الكثيرون من المؤرخين يقولون ـ انهم انما يدرسون الماضي لذاته فهو اما ان يكون مؤرخا جيدا يؤمن من زمن طويل بالحاجة الواضحة لدراسة التاريخ ايمانا كاملا ، وسلّم بها كما هي ، او يكون مؤرخا سيئا من طراز خاص . وحال المؤرخ فى هذا شبيهة

---

(٧) طبعاته الزهيدة الثمن كثيرة اهمها طبعة دار ماكميلان ودار بنجوين ، ونحن نتابع هنا طبعة ماكميلان سنة ١٩٧٠ .

(٨) May Mackisack, History as Eudcuation (1956), p. 10.

(٩) G. J. Renier, History, its purpose and method (1950) p. 29.

والتشبيهان يشيران الى تطلع الانسان الى تعرف ما حوله واحساسه وهو فى وحدته بان هناك اناسا كثيرين يعيشون بعيدا عنه دون ان يراهم ، وهم الذين يوقدون النار فيتبعث منها الدخان الذى يصل اليه ، وهم الذين يدقون اجراس الكنائس فتترامى اليه اصواتها وهو قابع فى بيته . هذه الاحاسيس تشبه احاسيس الانسان نحو الاجيال الماضية التي ذهبت وخلفت آثارها . وهذه الآثار تثير فى نفسه التطلع الى معرفة اخبارها وما فعلت .

بحال الفنان ، ففي احيان كثيرة تتجلى لنا الحقيقة التي تقول بانه على قدر ما يقل شعور المؤرخ باهميته في المجتمع تزداد قدرته على القيام بواجبه كمؤرخ ، وهو شبيه بالفنان في انه يكون فنانا حقا عندما يترك جانبا الاهتمام الظاهر بالغايات التي يتوخاها من وراء عمله . فان المجتمع يحتاج الى التاريخ لا الى المؤرخ ، والمؤرخ الذى يحس اكثر مما يجب بحاجة المجتمع اليه قد يكتب (نتيجة لهذا) تاريخا سيئا ، لانه على الرغم من ان التاريخ له ذلك العنصر الاجتماعي القوى الخاص به الذى يعتبر تبريرا لوجوده فانه يشترك مع غيره من العلوم الانسانية في انه جزء من الهجوم العام الذى يقوم به الانسان على المجهول الذى لم يكشف النقاب عنه بعد . والمؤرخ شريك في صراع الانسان ليفهم بيئته من النواحي الطبيعية والزمنية والاجتماعية . فالتاريخ اذن ــ بالاضافة الى المبررات الاساسية لدراسته والخاصة بهذه الدراسة ــ له نصيب في المبرر العام لكل نشاط ذهني يرمي الى توسيع آفاق العلم الانساني (وليس من الضروري ان يكون هذا الدافع الى دراسة التاريخ اقوى من الدوافع التي يمكن ذكرها فيما يتصل بميادين اخرى من الجهد الانساني) .

« وما ذكرناه هنا ان هو الا تبرير بدائي جدا لدراسة التاريخ ، وهو ليس التبرير الذى يقدم دائما او في غالب الحالات ، ولكن قبل ان نحاول ان ندلل على ان كل التفسيرات الاخرى هي في صميمها تفسيرات فرعية او مصاحبة للتبرير الاساسي قد يكون من المفيد ان نذكر هنا تحديدا او تحديدين ، فان لفظ التاريخ يستعمل عادة في ثلاثة مستويات من المعاني : الاول : ان التاريخ يمكن ان يعرفنا (**بماضي البشر كله كما حدث**) . ولا شك ان الحياة تكون ابسط اذا نحن استطعنا ان ندع هذا التعبير جانبا ونأخذ بدلا منه لفظ « **الماضي** » الذى يحمل في طياته اكثر من معنى . ولكن اللغة ملك للجميع ، وهي احيانا تفهم فهما خاطئا او يستعملها الناس استعمالا سيئا ، ولكن لا يمكن ان يكون استعمالها وتفسيرها تحت رحمة جماعة الاكاديميين المتحذلقين (١٠) . وحتى اولئك العلماء الذين اعلنوا على الملا انهم كفوا من استعمال لفظ التاريخ في هذا المعنى سيجدون انفسهم في مرحلة ما من مراحل عملهم يخونون انفسهم ، لانه من العسير جدا ان يتجنب الانسان استعمال عبارات ثقيلة الوزن مثل قولنا : ليس التاريخ من عمل شخصيات الابطال او « لقد حان الوقت لأن نتخذ من التاريخ ذخرا » .

« والاستعمال الثاني والاكثر فائدة هو ان التاريخ يعني ايضا محاولة الانسان وصف الماضي وتفسيره ، وهو ــ كما قال الاستاذ **باراكلاف** Barraclough ــ « المحاولة التي تبذل للكشف عن الاشياء المهمة في الماضي على اساس من شواهد جزئية ماضية » . وهذا هو التاريخ الذى نعنيه عندما نتحدث عن التاريخ كضرورة اجتماعية او عن التاريخ كصناعة (١١) وهذا هو اقرب المعاني الى المفهوم الاصلي للفظ التاريخ عند الاغريق وهو « الاستعلام او الاستفهام . وواضح ان بعض محاولات الكشف او الاستعلام اكثر توفيقا من غيرها ، وقد اعطت بعض عصور التاريخ اهمية لمسائل نضعها نحن الآن في نطاق الخرافات والاساطير او نجعلها موضع مناقشة . اننا نستطيع

---

(١٠) يريد ان المؤرخ لا يستطيع في كثير من الاحيان مقاومة التحذلق والادعاء بانه يعالج بعلم التاريخ قضايا خطيرة مثل اهمية الابطال في صناعة التاريخ او ان الاوان قد آن ليتبين الناس ان التاريخ كنز من كنوز المعارف .

(١١) بالانجليزية history being an industry وسنتحدث عن هذه النقطة فيما بعد .

ان نستمتع او نستفيد من مؤلفات تاريخية ظهرت على طول تاريخ النشاط الادبي الانساني مثل مؤلفات **توكيديد** Thucydides (١٢) **او سوما تشين** Ssuma Chien (١٣) أو **بيد** Adam Bede (١٤) او **ماكيافيلي** Machiavelli (١٥)، ولكننا ينبغي ان نلاحظ ان الدراسة المنهجية للتاريخ، اى دراسة التاريخ كعلم discipline **(وهذا هو الاستعمال الثالث للتاريخ)** ظاهرة حديثة تقررت في جامعات غرب اوروبا وشمال امريكا في القرن التاسع عشر فقط متاخرة بذلك تاخرا كبيرا عن دراسات الفلسفة واللغات القديمة والرياضيات والعلوم الطبيعية (١٦). وفي كتابنا هذا سنهتم بصورة خاصة بتطور الدراسات التاريخية الحديثة، ولكننا سنتعرض لموضوع هام وعسير ومثير للجدل في نفس الوقت هو موضوع النزاع بين من يعتبرون التاريخ علما اكاديميا ـ يميل الى التعالم والتفيهق في احيان كثيرة ـ. والقائلين بان التاريخ انما هو وجه اساسي من وجوه التجربة الانسانية ».

« وما دمنا قد عرضنا بالمعاني الثلاثة التي يستعمل التاريخ فيها فان الوجوه الثلاثة التي يستعمل فيها لفظ « التاريخ » لا تبدو غير ذات معنى كما قد يظن ولو انه ربما بدا محيرا في بعض الاحيان .. » .

---

(١٢) يمكن كتابة اسمه ايضا توسيديد بحسب النطق الفرنسي لحرف C اليوناني واللاتيني . هو اكبر المؤرخين اليونان وقد عاش في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد وهو مشهور بالتاريخ الذى كتبه للحروب البلوبونيزية التي شبت بين الدويلات الاغريقية على ايامه، وقد بدات سنة ٤٣١ ق . م . وكانت السن قد تقدمت به اذ ذاك فتنبه الى اهميتها وتوقع ان تكون طويلة الذى وشرع في كتابتها . ويرجع اهمية كتاب توكيديد الى انه يصف الحرب التي شنتها اثينا وحلفائها ضد اسبرطة التي كانت تسود بلاد الاغريق الى ذلك الحين بفضل تفوقها العسكري وتمكنها من انقاذ بلاد اليونان من اجتياح الفرس اياها والتعصب اثينا وديموقراطيتها بفضل رجال من امثال بيركليس وديموستين . والكتاب حافل بالملاحظات ذات العمق والصدق ولهذا يعد توكيديد تاليا لهيرودوت في انشاء علم التاريخ عند الغربيين .

(١٣) صو ما ـ شيان Ssu-Ma Chien ولد فيما بين ١٤٥ و ١٣٥ ق . م . وتوفي ٩٠ ق . م . اكبر المؤرخين الصينيين القدماء وهو مشهور بكتابه المسمى شيه ـ تشي Shih-Chi اى سجلات المؤرخ وقد اتمه بعضهم بعد وفاته في سنة ١٠٠ ق . م . وقد عاش في بلاط الامبراطور «دو» من اسرة هان Han وكتابه يغطي ٢٠٠٠ سنة من تاريخ الصين من بدايته الى حياة المؤلف وقد جرؤ صو ـ ما في اواخر ايامه على الدفاع من قائد مغضوب عليه فعاقبه الامبراطور بخصاله . وكانت عادة الناس ان من جرى عليه هذا العقاب الشنيع ينتحر بعده، ولكن صو ما فضل الحياة على الموت حتى يفرغ من تاريخه . وهو يهتم اهتماما خاصا بتراجم الرجال وما اثر عنهم من الاعمال والاقوال الحكيمة .

(١٤) ادم بيد Adam Bede ليس من المؤكد ان اسمه ادم، ولقبه يكتب احيانا Baeda او Beda وهو راهب انجليزى عاش فيما بين سنتي ٦٧٢ (او ٦٧٣) و ٧٣٥ وكتب باللاتينية كتابا في التاريخ الكنسي للشعب الانجليزى Historia Ecclesiastica Gents Anglorum وهو من اقدم المؤلفات في تاريخ انجلترا ولهذا يلقب بيد بابي التاريخ الانجليزى، وهو من اوائل العلماء في التاريخ الانجليزى كله وله فضل كبير في نشر المذهب الكاثوليكي في الجزر البريطانية .

(١٥) هو نيقولو مكيافيلي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) مفكر وفيلسوف سياسي ايطالي من اهل فلورنسا، وهو مشهور بكتابه المسمى « الامير » الذى يرشد الامراء فيه الى اسرار السياسة، والسياسة عنده انتهازية لا ضمير لها ولا اخلاق فيها، وقد وصف مكيافيلي بانه خبيث وصولي مع انه في الحقيقة كان رجلا سليم الطوية، ودليل ذلك انه فشل في ميدان السياسة ولم يصل الى شيء يذكر .

(١٦) الحكم هنا ينصب فقط على الغرب اما بالنسبة للعرب فان التاريخ كعلم كان مقررا ومعترفا به وكان يدرس ويدرس منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لضرورته لتفسير القران والحديث ومعرفة رجال السند .

« وعندما نتحدث عن فلسفة التاريخ تطفرامامنا صعوبات اخرى متصلة بالتحديد أو التعريف . وهذا الاصطلاح « فلسفة التاريخ » يمكن ان تكون له ثلاثة معان رئيسية .

فاما المعنى الاول فهو ان فلسفة التاريخ تعني بالنظريات العالية المستوى الخاصة بالتيارات التحتية او القوى الاساسية للتاريخ باعتباره حقيقة موضوعية (هي الماضي) .

« وهناك معنى ادنى من ذلك لفلسفة التاريخ وهي انها تصف لنا النظرة العامة الاساسية والمفهومات الاساسية ايضا التي ياتي بها مؤرخ اوتاتي بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التي يعالجونها متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث أو مفهوم التقدم وما الى ذلك » .

« واخيرا من الممكن ان يستعمل مصطلح فلسفة التاريخ مرادفا على وجه التقريب للمنهج التاريخي historical methodology اى العملية الفعلية التي يسلك المؤرخ في شعابها » .

وحيث اننا لا نستطيع من الناحية العملية ان نقول : « ان هذه الكلمة سيكون لها هذا المعنى ولا معنى غيره » فانه من المهم دائما ان نتاكد من المعنى الذى نريده ونميزه عن غيره . ومن سوء الحظ ان كثيرا من المصطلحات التي تستعمل في علم اصول التاريخ او مراجعه المسمى باسم historiography او في الصور المختلفة لفلسفة التاريخ مصطلحات مبهمة يحمل الواحد منها اكثر من معنى . ومن الامثلة البينة لذلك هذا المصطلح الهجين historicism (بالعربية : الفكر التاريخي) وقد نشا هذا المصطلح في المانيا Historismus اشتقاقا من اللفظ الايطالي storicicmo وسنحاول فيما بعد ان نقدم مصطلحات بديلة له ولكن خير ما نفعله به الآن هو ان نتجنب استعماله » .

« ويذهب نفر قليل من المؤرخين الى ان الدراسة التاريخية ينبغي ان تطلب لذاتها ، ولما تبعثه في النفس من متعة ، وليس في ذلك غرابة فقد قال الرياضيون وعلماء الكيمياء الحيوية والمثالون ذلك عن ميادين نشاطهم ، ويمكن من ناحية ان تعتبر مسالة المتعة في الدراسة التاريخية تابعة للنقطة الاساسية المتعلقة بشوق الانسان الغريزى الى التاريخ ، وهو شوق يحس به في اقوى صورة طالب التاريخ الملتزم به (سواء كان محترفا او غير محترف) ومن ناحية اخرى يمكن ربط هذه المتعة بالمبدا القائل بان الشيء الذى يعطي المتعة للفرد يمكن ان يكون مفيدا من الناحية الاجتماعية اى مفيدا للجماعة . وقد لجا عدد قليل جدا من المؤرخين عندما ارهقهم التساؤل عن فائدة التاريخ الى انكار وجود اى فائدة في دراسته . ولكننا اذا تمسكنا بالراى القائل بان التاريخ يدرس لذاته كما ان المعرفة تطلب لذاتها فاننا في هذه الحالة نكون قد قلنا كل شيء او لم نقل شيئا على الاطلاق . فان المعرفة اذا لم تنقل من انسان الى انسان فان دراسة التاريخ لا تكون لها فائدة البتة (١٧) اما اذا نقل العلم من انسان الى انسان فان ذلك يحقق هدفا انسانيا واجتماعيا . وعلينا ان نقارن ونقابل بين الخدمة التي يؤديها التاريخ وما تؤديه الفروع الاخرى من النشاط الفكرى . وعندما يقوم اهل التاريخ بتلك المقارنة فانهم يهتمون بابراز الناحية التعليمية من التاريخ كوسيلة لتمرين الذهن او كدليل عملي على تشابه مشاكل المجتمع الانساني ومعضلات

(١٧) اى اننا اذا كنا ندرس العلم لذاته ونطلب المعرفة ارضاء لنفوسنا فحسب دون ان نعنى بنقل ما نتعلم الى الناس فان دراسة التاريخ تظل قصرا على اصحابها ولايناتى منها اي نفع للاخرين .

السياسة . والمشكلة فيما يتعلق بالقول بأن الاشتغال بالتاريخ فيه تمرين للذهن هو انه يتوقف كثيرا على درجة الحزم او التركيز التي يلتزمها القائم بالدراسة التاريخية ، ثم انه يصعب تطبيقه على اولئك الذين لم تسبق لهم الا معرفة عابرة بمؤلف او مؤلفين من المؤلفات الكبرى فى التاريخ» .

« ان من يقوم بدراسة تاريخية مركزة مكثفة سيجد دون شك ان ذهنه قد تحسن بذلك . وفيما يتعلق بالحالة الخاصة للتاريخ فمن المعروف الشائع ان دراسته احسن صور التعليم الحر . وقد تعرضت هذه العبارة للمبالغات من جانب من يتناولون التاريخ على سبيل الهواية . والمشتغلين بالادب التافه ، وذلك لا مبرر له ولا معنى على الاطلاق ، اما اذا اريد من وراء دراسة التاريخ ان نفهم الانسان من شتى نواحيه المختلفة فان دراسة التاريخ تصبح عنصرا مصاحبا او مكملا لراى الذين يبررون دراسة التاريخ فانها وسيلة ضرورية لتذكر تجارب الناس والجماعات الماضية على نحو يعين الفرد والجماعة على توجيه جهوده وجهودها توجيها سليما وسط تيارات الحياة الانسانية المتضاربة . ولقد اتخذ الناس اساليب شتى فى تصوير هذه الحقيقة ؛ فقيل ان التاريخ رحلة فى الزمان تزيد فى معارف الانسان وتوسيع افقه كما هو الحال فى الرحلات الاخرى ، وكان من القائلين بهذا **و . هـ . وولش** W. H. Walsh الذى قال مرة ان من وظائف التاريخ الكبرى هو انه يعرف الناس بزمانهم عن طريق رؤيته مقارنا بزمان آخر . وقال المؤرخان الفرنسيان **لانجلوا وزينوبوس** Seignobos, Langlois « ان التاريخ يعرفنا بالاختلاف فى صور المجتمعات ويشفينا من مرض الخوف من التغيير » .

« اما القول بان التاريخ دليل عملي للجماعات للسير فى مجاهل التجربة الانسانية فهو استمرار واكمال لنظرية القائلين بان التاريخ مدرسة للبشر ، وانه اذا كان البشر يشعرون بالرغبة فى معرفة ماضيهم للاسترشاد به فان قادتهم ومديري امورهم احوج الى ذلك . وقد ادى هذا الراى بكثير من المؤرخين الى قول اشياء بالغة السخف فى تعظيم فائدة التاريخ وكما أن هناك من ينكرون انكارا تاما فائدة التاريخ ، فان فائدته ووظيفته الاجتماعية وجدت فى السنوات الاخيرة من يبالغ فيها ، ولكن المؤرخ المحدث المعتدل فى تفكيره الذى يزن ما يقول وزنا جيدا يكتفي بترديد ما قاله الاستاذ **ستراير** Strayer من ان « دراسة التاريخ تعين الانسان على مواجهة المواقف الجديدة لا لانها تقدم له اساسا للتنبؤ بما سيكون ، ولكن لان الفهم الكامل للسلوك الانساني فى الماضي يتيح الفرصة للعثور على عناصر مشتركة بين مشاكل الحاضر والمستقبل مما يجعل حلها حلا ذكيا امرا ممكنا . وليس معنى هذا ان دراسة التاريخ الحديث وحده هى التى تعود على الانسان بالفائدة بالنسبة للحاضر والمستقبل ، لان التاريخ كله مادة واحدة . ودراسة قديمه لا تقل فائدة عن دراسة حديثه ، فكلها جوانب من التجربة الانسانية المتعددة الصور . فمع ان التاريخ لم يكن يدرس فى جامعات العصور الوسطى الا انه كان دائما معتبرا موضوعا اساسيا فى تعليم الامراء ورجال الدين ، ولهؤلاء ــ ولهذا الغرض ــ الف الاسقف **بوسويه** Bossuet تاريخه للعالم الذى سماه : Discours sur l'histoire universell سنة ١٦٧٩ » .

وقد قال الاستاذ **ستيورات هيوز** ان التاريخ كان يعد نفسه دائما « علما شاملا وعلما وسيطا » ، وقد كان التاريخ فى الماضي يربط الشعر بالفلسفة ، وهو اليوم يربط الادب بعلم الاجتماع . وربما يكون المؤرخون قد اغضبوا غيرهم احيانا بالمبالغة فى الدور التحليلي الذى يقوم به علمهم . ولكن سواء استطاع التاريخ ان يقوم بدوره كوسيط ام لم يستطع ، فان التاريخ لا يستطيع ان يتخلص من دوره كعلم وسيط ، ومادام لكل شيء تاريخه فان التاريخ كعلم يشمل كل

شيء ، حتى الكاتب الصغير الذى يدرس مبادىء التامين يجد نفسه يدرس الى حد ما تاريخ التامين . والتاريخ يكوّن جزءا من عمل الناقد الادبي وجزءا من عمل دارس العلوم الذى يدرس تطور علمه . واذن فالتاريخ يصبح ميدان التقاء كثير من العلوم وهذا هو ما يجعل التاريخ دراسة فاتنة ، ومع ذلك فان كل ما نفعله الآن هو ان نجيد صياغة مبررات دراسة التاريخ : ان الانسان ينبغي ان يعرف ماضيه ولهذا فعليه ان يقف على ما يضمه الماضي من غنى وتنوع لا حد لهما سواء في الفن والعلم والتنظيم الاجتماعي والسياسة . هذا الغنى وذلك التنوع هما في الحقيقة مادة التاريخ » (١٨) الى هنا ينتهي كلام **آرثر مارفيك** .

التاريخ حوار بين الماضي والحاضر

يقول كثير من العلماء ان كل عصر ينبغي ان يكتب التاريخ من وجهة نظره لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له يختلف عن تقدير العصر الاخر ، وكل عصر كذلك يحاول ان يرى الماضي من خلال اهتماماته والافكار السائدة فيه ، و من هنا قال كثيرون من المؤرخين ان التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وهذا في ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة في الدراسة التاريخية، فان التاريخ بطبعه ـ كدراسة للانسان واعماله تتاثر صورته التي يراها المؤرخ تاثرا واضحا بالاحوال المادية والمعنوية في الوسط الذى كتبت فيه ، وليس في هذا عيب او ماخذ على التاريخ ، فكل العلوم الاجتماعية تخضع لهذا التاثر ، وصورة المتنبي كما يرسمها مؤرخ ادب في القرن الثامن عشر مثلا تختلف عن صورته كما يرسمها مؤرخ ادب اليوم ، وكذلك الحال مع الدولة الاموية مثلا فان تصوير الجاحظ لها يختلف تماما عن تصويرنا نحن لها . بل ان نظريات العلوم الرياضية والدقيقة والطبيعية كثيرا ما تكون وليدة الظروف التي احاطت بمن ابتكروها ولفتت انظارهم اليها ، فلولا ان **توماس مالتوس** Thomas Malthus قد عاش في عصر انفجار سكاني لما تنبه الى ظاهرة زيادة السكان ولما ابتكر نظريته المشهورة في العلاقة ـ او بتعبير ادق ـ انعدام العلاقة بين زيادة الموارد وزيادة السكان ، ولولا نظرية مالتوس هذه لما توصل تشارلس داروين الى ضبط نظريته عن « صراع البقاء » ، واعتقد ان احدا لا يناقش في ان سنوات الحروب تكون في الغالب سنوات اسراع في الاختراع والابتكار ، لان ظروف الخطر ورغبة الجماعات في النصر والتخلص من الاخطار تشحذ القرائح الى ابعد حد . وليس هناك عالم رياضي او طبيعي الا

---

(١٨) انظر : Robert V. Daniels, Studying History. How and Why, 1966.

Richard Pares, The Historian's Business (1961) p. 5.

Robert K. Merton, Social Theory and Social Structure (1957) p. 16.

C. L. N. Brooke, The Dullness of the Past. 1957.

May Mackisack, History as Education (1956) p. 10.

G. J. Renier, History, its purpose and method (1950) p. 29.

Geoffrey Barraclough, History in a Changing World (1955) p. 29-30.

Marra Komarovsky, Common Frontiers of the Social Sciences (1957) p. 264.

H. Stewart Hughes. The Historian and the Social Scientist in American Historical Review, LXVI (1960) p. 46.

وهو متأثر الى حد بعيد فى آرائه بالظروف المحيطة به . والعالم الذى ينكر اما مخطىء او مخادع لنفسه ، واذن فلماذا يتوجه اللوم الى التاريخ وحده ويقال انه يتأثر دائما بعصر المؤرخ وظروفه ومزاجه ؟

ومن الواضح ان اهتمامات المؤرخين فى عصر ما تختلف عن اهتماماتهم فى عصر آخر ، ومن ادلة ذلك ان الاهتمام بالسيرة النبوية وشرحها وتفصيلها عندنا نشط جدا فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، لان توالي الاخطار على المجموعة الاسلامية دفع المؤرخين المسلمين الى الارتداد الى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسون فيها الحل او المخرج او لمجرد تقوية الروح المعنوية ، **فظهرت كتب مثل الاكتفاء فى مغازى رسول الله ، والثلاثة الخلفاء لابي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الاندلسي ، وتاريخ الخميس للديار بكرى ، ودلائل النبوة للبيهقي ، ودلائل النبوة لابي نعيم ، و « الروض الأنف » فى شرح سيرة ابن هشام لابى زيد عبد الرحمن السهيلي ، و « شرح السيرة » لابي ذر الخشني و « شرح المواهب اللدنية » للزرقاني و « الدرر فى اختصار المغازى » والسير لابن عبد البر و « الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى » للقاضي عياض بن موسى السبتي و « عيون الاثر » لابن** سيد الناس و « كنوز الحقائق » للمناوى ، **وكلها كتب فى سيرة الرسول ، وليس من المصادفة ظهورها كلها فى هذه الفترة التي توالت فيها الاخطار على المجموعة الاسلامية .**

ومن الملاحظ ان اهتمام الناس فى الغرب بدراسة التاريخ واجتهاد الكثيرين من العلماء فى تحويل هذه الدراسة الى علم مستقل مستكمل لاشراط العلوم نبع الى حد ما من قيام القوميات والدول الكبرى فى اوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والاجيال التي قامت بانشاء هذه الدول والامبراطوريات شعرت بالحاجة الى معرفة الماضي ربما لتستنير به ، اذ لا شك فى ان معرفتك بما قطعت من الطريق تعينك على معرفة الباقي ، ومن هنا اخذ **نيبوهر ورافكه وبوركهارت** وغيرهم اهميتهم كمؤرخين واهتمت الدول بتيسير عملهم ففتحت لهم دور المحفوظات لكي يستخرجوا ما يستطيعون من حقائق الماضي ، وهذا يؤكد لنا الحقيقة التي لا زال الكثيرون يجادلون فيها ، وهي ان الماضي لا يدرس للماضي بل للحاضر والمستقبل ، وان كتابة التاريخ انما هي صورة من الحوار الذى لن يتوقف بين عصرنا والعصور التي سبقته . ومن المؤكد على اى حال ان المؤرخ مهما بلغ تجرده لا يستطيع التخلص من روح عصره . وفى بعض الاحيان تشعر ان المؤرخ يبحث عن حاضره فى الماضي الذى يدرسه ، فاجتهاد رانكه فى دراسة تاريخ الرومان راجع الى ايمانه العميق بالدولة البروسية التي كان يخدمها ورغبته فى التماس الادلة على صواب رايه المحافظ بقوة الدولة فى صفحات تاريخ روماق ازهى عصورها عندما كانت الدولة الرومانية تهيمن على كل شيء .

وبديهي ان اى مؤرخ ذكي يتحرى دائما ان يكتب ما يكتب من التاريخ على صورة تنفع معاصريه او تكون ذات قيمة ونفع لهم على الاقل ، ومن هنا كانت كتابة سير عظماء الرجال موضوعا مطلوبا دائما ، لأن النفس الانسانية تميل دائما الى معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال ، ولهذا فكتب التراجم دائما كتب ذات معنى للحاضر . والهدف الرئيسي من الحوار التاريخي او من النظر الى التاريخ كحوار بين عصرنا والعصور الماضية هو ان نرى اين اخطأوا لكي لا نقع فيما وقعوا فيه . وفى العصور الوسطى ، حينما كانت عيون الناس متجهة نحو الحياة الاخرى وحدها دون امل فى صلاح الحاضر كان افق أصحاب المدونات التاريخية ضيقا جدا ، فلم يكن يهمهم من الماضي الا ملوكه وامراؤه وكبار علماء الدين والصلحاء فيه . ومن عدا هؤلاء فلا وجود لهم فى

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

حسابهم ، ولا يمكن ان يكون لهم في التاريخ دور ولا ذكر . ومن هنا يجوز لنا ان نقول ان الماضي كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضي كما رآه الجيل السابق علينا ، وكما سيراه الجيل الذي سيأتي بعدنا ، ومن هنا يصدق القول بان للامة الواحدة اكثر من تاريخ ، ولا بد ـ لهذا ـ لكل عصر ان يكتب التاريخ من وجهة نظره ، وكما انتا نتعجب من السخافات التي ملأ بها ابن اياس « بدائع زهوره » فان الاجيال القادمة دون شك ستتعجب من نظرتنا لماضينا بل اغلب الظن ان عجبها سيكون اشد من نظرتنا الى حاضرنا .

ويرى كثيرون من المؤرخين ان ذلك يقوي حجة القائلين بان التاريخ لغو ، فما دامت صورة نفس الشيء تتغير بحسب العصور فلا يمكن ان يكون التاريخ علما ، لأن العلم يقوم على ثبات الحقائق ولو لفترة طويلة من الزمن ، فقد ظلت نظريات علم الطبيعة ثابتة قرونا متطاولة ولم يدخل التغيير عليها الا بعد ان اتسعت آفاق العلم الانساني الى حد استلزم اعادة النظر في كل حقائق العلوم ، ثم ان عالم اليوم يملك من الادوات ووسائل القياس والحساب والتحليل ما يمكن من الحصول على رؤيا جديدة تزعزع الثقة في قواعد الماضي الثابتة . ومن العجيب ان هذا التزعزع في حقائق التاريخ وتغير صورته بحسب الاجيال والاشخاص يعجب الكثيرين من المؤرخين القائلين بان دراسة التاريخ لا فائدة فيها وانما هي تمارس للمتعة الشخصية ليس غير .

ويوجه الكثيرون الى التاريخ كعلم نقدا شديدا بسبب ارتباطه الدقيق بالمجتمع الذي يكتب فيه . ولكن هؤلاء النقاد ينسون ان ذلك ينطبق ايضا على كل اوجه النشاط الفكري الذي يقوم به الانسان ، وان الظروف التي تحيط بالمشتغل بالعلوم الانسانية جميعا هي التي توحي اليه بما قد يبتكر من آراء ونظريات ، ومثال ذلك ما ذكرناه من ان توماس مالتوس Thomas Malthus طليعة علماء الديموجرافيا (علم السكان) لم يقم باجراء دراساته البالغة الدقة في شئون السكان الا بسبب ما كان يلاحظ حوله من زيادة مضطردة في اعداد السكان من حوله ، وكان المفهوم الذي انتهى اليه مالتوس وهو مفهوم الصراع للبقاء struggle for survival هو الذي عجل بتبلور آراء داروين ونظرياته عن النشوء والارتقاء والتطور على اساس من نظريته القائلة بان البقاء للأصلح survival of the fittest وعلى هذا فان قوانين **مالتوس وداروين** ومن في طبقتهم من اهل العلم ناتجة عن التأثر بالبيئة والظروف التي كانوا يعيشون فيها . ومن هنا فان نقد علم التاريخ لان حقائقه كما يعرضها المؤرخون تكون دائما متأثرة بالظروف التي يعيشون فيها نقد لا محل له . ولا يمكن القول قط بان اهل العلوم والباحثين في العلوم الاجتماعية عندنا اليوم متحررون تماما فيما يصدرون من الاحكام على الافكار المسبقة والآراء الشائعة في عصورهم ، وهذا لم يمنع من القول بان المؤرخين ربما كانوا اكثر تأثرا بهذه الظروف والآراء من غيرهم من اهل العلوم .

وقد لاحظ **آرثر مارفيك** في كتابه المشار اليه (سابقا) ان مؤرخي القرن التاسع عشر في الغرب الاوروبي وامريكا كانوا يوجهون اهتمامهم بصورة خاصة نحو اعمال الحكومات وعظماء الرجال وتطور الوعي القومي ونحو الحريات السياسية في حين ان مؤرخي القرن العشرين يوجهون عناية اكبر نحو الاقتصاديات والديمقراطية الاجتماعية ، وهم يصرفون جهدهم الى التاريخ الاقتصادي مهتمين بالجماهير دون الافراد . وابدى نفس المؤرخ ملاحظة اخرى لها اهميتها : وهي ان المؤرخين في غرب اوروبا كانوا يهتمون بصورة تقليدية بحضارات بلادهم وحدها ، وكانوا اذا التفتوا الى تاريخ اقليم آخر او حضارته لم يروا من هذا التاريخ وتلك الحضارة الا ما كان صدى او رد فعل للحضارة الغربية فيه . اما الآن فقد ظهرت قوميات اخرى كثيرة جديدة واخذ اهلها

في العمل على استلفات الانظار نحو تواريخ بلادهم وحضاراتها . ومن هنا فقد ادت دراسات التاريخ الافريقي وتاريخ امريكا اللاتينية ، واهم من ذلك تاريخ الصين وشرق آسيا الى تغير الصورة العامة لتاريخ البشر والاتجاه الغالب في ايامنا هذه « التي تهدم فيها عالم الاستعمار وامبراطورياته » يقصد الى دراسة تلك الحضارات غير الغربية من ناحية تطورها المحلي الخاص بها لا من ناحية علاقاتها بالغرب وصراعها معه فحسب كما كان الحال قبلا . وهذا وسع آفاق الدراسات التاريخية ، وسيؤدي حتما الى تغيير الصورة التقليدية التي تعودناها فيما يعرف بالتواريخ العالمية الكثيرة المتداولة اليوم . وكلها اوروبية اومكتوبة من وجهة نظر غربية ، فالاهتمام فيها منصب نحو الغرب وحضارته وحدها ، فهي في الواقع تواريخ للغرب الاوروبي لا تواريخ عالمية . والتواريخ العالمية الجديرة بهذا الاسم لم تكتب بعد ، وعلينا نحن اهل العالم الثالث الذين لم يحسب لهم حساب فيما يتداول الناس من تواريخ عالمية ان نعيد كتابة تاريخ البشر وحضارتهم ، بادئين بدراسة تاريخنا نحن ، لكي يتسنى لنا وضعها في مكانها الصحيح في سلسلة التاريخ العالمي .

واذا نحن اعتبرنا التاريخ حوارا بين اجيالنا والاجيال السابقة فينبغي ان تتسع مائدة الحوار حتى يكون فيها لكل قوم من اهل الارض مقعد وصوت . هنا فقط يمكن ان يقال اننا نستطيع كتابة تاريخ عالمي . اما ان يكون التاريخ العالمي قصة الصراع بين دول اوروبا على سيادة العالم فهذا زيف مقصود او غير مقصود .

الاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ في عصرنا الراهن

ويتحدث علماء التاريخ في الغرب عن طفرة الدراسات التاريخية في الغرب ويرجعون بهذه الطفرة الى النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما فتحت دور المحفوظات الاوروبية ابوابها لاهل العلم فاخذوا يستخرجون كنوزها وينشرونها على الناس ، فكانت هذه الثروة الضخمة حافزا للكثيرين على الاتجاه نحو دراسة التاريخ على اساسها . ومن ثم حدث ما يسمى عادة بالانفجار الواسع المدى في الدراسات التاريخية .

وسنرى في الفقرة التالية كيف ظهرت مجموعات الوثائق الكبرى ووضعت مقاييس دراستها ، دراسة علمية دقيقة على يد اقطاب العلم التاريخي من امثال ليوبولد فون رانكه ، ولكننا سنمر هنا مسرعين باهم تيارات الدراسات التاريخية في عصرنا وقبله بقليل .

ساد في الغرب الاوروبي خلال القرن التاسع عشر تياران رئيسيان : **الاول** تيار الواقعية الموضوعية objective empiricism الذى يقول اصحابه بانه من الممكن ان تكتب الحقائق التاريخية بالضبط كما كانت في الماضي ، **وتيار** القائلين بتوالد احداث التاريخ بعضها من بعض The genetic view of history واصحابه الذين كانوا يستعملون ذلك المصطلح البغيض « الهيستوريسيزم historicism اى الفكرة التاريخية ـ يرون ان التاريخ عملية توالد مستمرة ويؤمنون باضطراد التوالد من عصر الى عصر . وكلا التيارين ثمرة من ثمرات تلك الثقة البالغة في النفس التي ملأت نفوس اهل العلم في الغرب في القرن التاسع عشر ، حتى ليشعر من يقرأ لهم انهم كانوا يحسبون انهم جمعوا العلم كله من اطرافه جميعا . ويدخل في هذا النطاق ايضا فريق التقريريين المقننين او الايجابيين من المؤرخين positivist historians اولئك الذين حسبوا انهم يستطيعون ان يوجزوا التاريخ كله في سلسلة من القوانين العامة . ويمكننا ان ندخل في زمرة

اولئك التقريريين المقننين ابن خلدون الذى اوجز تاريخ العالم فى قانونه المشهور من « دورة العمران » ، وعلى الرغم من انه عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى الا اننا نستطيع ان نضعه على راس هذه المدرسة الهامة من علماء التاريخ .

اما مؤرخو القرن العشرين الذين يكتبون متاثرين بنظريات **فرويد واينشتاين وكارل ماركس** فقد صرفوا النظر الى حد كبير عن الموضوعية التاريخية وابتكروا ما يعرف عادة بالنسبية التاريخية historical relativism . وفى ايامنا هذه يتجه نفر من اكابر المؤرخين الى صرف النظر عن النظريات والتيارات جملة والعكوف على دراسة الحروب والانقلابات الاجتماعية كلا على حدة صارفين النظر تماما عن نظرية « الاستمرار فى التاريخ » التي كانت اساسا متينا لكتابة التاريخ ازمانا متطاولة . وسنشرح النسبية التاريخية بشيء من التفصيل فيما بعد .

وكما انصرف المؤرخون عن البحث عن قوانين وضوابط تحكم سير التاريخ ، فكذلك انصرفوا عن قواعد كثيرة كانت تعد الى حين قريب من الاسس التي لا يملك اى مؤرخ ان يتخلى عنها ، مثل قولهم : كلما قرب المؤرخ من العصر الذى يتحدث عنه ، كان كلامه اصدق ، فقد تبين ان مسالة القرب او البعد عن الحوادث هذه لا تعني شيئا كثيرا بالنسبة لصدق الفهم وكثيرا ما تجد مؤرخا يكتب عن عصره نفسه ومن حوادث مرت امام عينيه فلم يدرك من حقيقتها شيئا وجاءت روايته هي الغباء بعينه . وفى نفس الوقت نجد مؤرخا يكتب عن نفس الحوادث ، بعده بعدة قرون ، فيرى بالفهم ودقة الحس العلمي ما لم يره هذا المعاصر ، وخذ مثلا كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسي » الذى حاول فيه **عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني** وصف استعادة صلاح الدين لبيت المقدس ، واسال نفسك بعد قراءته ان كان هذا الرجل الذى توفي سنة ١٢٠١/٥٩٧ اى بعد استعادة القدس باربع عشرة سنة فقط قد راى او فهم شيئا . ولا بد لهذا من ان نتخلى بعض الشيء عن قاعدة القرب من الحوادث هذه ، لان العبرة فى التاريخ بالفهم والادراك والاحساس ، ومن دلائل ذلك انك تقرا كتاب ادوارد جيون عن الدولة الرومانية فلا يخالجك شك فى ان هذا الرجل عاش فى عصور الرومان بقلبه وذهنه فعلا وهو يكتب هذا التاريخ . وفى بعض الفقرات التي كتبها عن عصر الانطونيين تشعر وانت تقرا انك تسمع جلبة الجيش الروماني الخارج للفتوح وقعقعة العجلات على صخور الطرق الرومانية وصهيل الخيل وجلجلة السلاح .

وفى ايامنا هذه يسلم المؤرخون جميعا بان المؤرخ مهما فعل فهو لا يرى الماضي الا من خلال عصره ، اي انه لا يستطيع التخلي عن مفهومات مجتمعه والآراء السائدة فيه ، وفى هذا خير كثير للتاريخ والمؤرخين ، فان المؤرخ بصفته خادما للجماعة الانسانية ينبغي ان يكتب تاريخه فى صورة ذات معنى واهمية ، لابناء عصره وهذا المعنى وتلك الاهمية يعبر عنهما المؤرخون بما يسمى بارتباط التاريخ بالحاضر the relevence of history to the present فاذا لم يكن الحادث التاريخي الماضي ذا اثر فى الحاضر relevant to the present فلا قيمة حقيقية له ، وهو اشبه باناء قديم محطوم فى البيت ، كانت له اهمية فى حينه ايام كان نافعا ، لم تقادم به العهد وتحطم ، فلم يعد اكثر من ذكرى ماضية ، ومن الصالح التخلص منه ، لان هذه الذكرى نفسها غير ذات قيمة . وهنا يقول آرثر مارفيك :« وما دامت للتاريخ تلك الاهمية بالنسبة للمجتمع فان احسن تاريخ يمكن كتابته ، ينبغي ان يكون اقرب ما يستطاع الى الحقيقة . والمؤرخ الواعي

للعجز المفروض عليه بسبب وضعه مكانا وزمانا(بالنسبة للاحداث التي يؤرخ لها) ينبغي عليه ان يجتهد فى تلافي التشويه والتحوير اللذين ينتجان من اختلاف الزمان والمكان » (١٩) .

وقد كان لجهود اصحاب نظرية النسبية التاريخية (٢٠) اثر طيب فى تخفيف ثقل المدرسة الالمانية التي قادها رانكه والتي ظنت انها تستطيع ـ اعتمادا على الوثائق ان تكتب التاريخ بالضبط كما حدث منذ مئات السنين او آلافها . وكان من رأى اصحاب هذه المدرسة ان المؤرخ نفسه لا يقول شيئا وانما هي الوثائق التي تقول كل شيء ، وعلى هذا فلا فرق بين مؤرخ ومؤرخ الا فيما يتعلق بدرجة القدرة على استخدام مناهج البحث . وهذا غير صحيح فان موهبة المؤرخ لا يمكن اغفالها ، والمؤرخ ليس كما قال كونيارز ريد Conyers Read رجل يقضي عمره لاهثا بين مكتبة ومخزن الوثائق ودهاليز المخطوطات المثقلة بالغبار . ليس هذا هو المؤرخ الوحيد الجدير بالاعتبار ، لأن المؤرخ الجيد ليس عبد الوثائق والمخطوطات وانما هو ناقد حصيف يختار منها ويكتب كلاما حيا يخاطب عقول الناس فى كل عصر . وكم من مؤرخ كتب من عشرات السنين نحس ونحن نقرأه انه اقرب الى نفوسنا من مؤرخ معاصر تموت الحوادث بين يديه قبل ان يكتبها ، ومؤلفاته ان هي الا اكفان لما يكتب .

فاذا صدق هذا استطعنا ان نقول ان التاريخ على الحقيقة انما هو اعادة كتابة واعادة تفسير مستمران ، وهذه العملية المستمرة تلقي ضوءا على الطريق الذى تسير فيه . فنحن عندما نرى كيف كان اجدادنا اسرى اوهام عصورهم استطعنا ان نتجنب اوهام عصرنا ، وفى هذه الحالة تكون دراسة التاريخ قد نفعتنا وارتفعت بمستوى ادراكنا ولو الى حد ضئيل . ومن هنا تجيء فائدة قراءة ما كتب الماضون من صفحات التاريخ ، فان المؤرخ الذى لا يفعل ذلك لا يقل بعدا عن المنهج الصحيح من ذلك المؤرخ الذى يقدر قيمة الكتب بدرجة صفرة ورقها ، ويؤمن بكل ما طبع على ورق اصفر لمجرد انه اصفر .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

اذن فالتاريخ كما قلنا ينبغي ان يكون حوارا بين الماضي والحاضر ، ولا بد ان يكون كذلك حوارا بين المؤرخ وقارئه ، والكلمة الاخيرة فى تاريخ اى عصر او اى حادث لم تقل بعد ولا يمكن ان تقال ابدا ، وهذا يضع يدنا على مكمن الخطأ الاكبر فى اعمال رانكه ومدرسته ، اولئك الذين بلغ بهم الغرور بوثائقهم التي اعتمدوا عليها حدا جعلهم يتصورون انهم وصلوا الى كبد الحقيقة فى كل ما كتبوه .

تطور الدراسات التاريخية :

كل تاريخ لتطور علم التاريخ تقرأه فى كتاب غربي لا بد ان يكون بالضرورة ناقصا ، اذ ان هذه الكتب تسقط من الحساب ـ كليا او الى حد كبير ـ الدور الضخم الذى قام به المؤرخون المسلمون فى تطوير هذا العلم ، وما نقول هذا مجاملة منا للسابقين من مؤرخينا بل نقوله لأنه حق ، واذا كان من الممكن الجدل فى قيمة ما وصل اليه علماء العرب فى الطبيعة والكيمياء بالنسبة لحالة هذين العلمين اليوم فانه لا جدال فى ان المؤرخين العرب والمسلمين قد وصلوا فى هذا العلم الى شأو يضارع احسن ما وصل اليه الغربيون الى اواخر القرن التاسع عشر على الاقل . بل اذا

(١٩) Arthur Marwick, The Nature of History p. 21.

(٢٠) هم المعروفون باسم relativists وقد اشرنا اليهم .

كانت مدرسة الوثائقيين واهل التوثيق الكامل في الغرب وهي مدرسة **ليوبولد فون رانكه وياكوب بوركهارت** هي ذروة ما وصل اليه العلم التاريخي في القرن التاسع عشر فان مؤرخينا المسلمين بداوا بالذات من هذه النقطة : بداوا على طريقة المحدثين المدققين الذين لا يروون خبرا الا اعتمادا على سند متين موصول من رواة ذوى صدق وامانة ، وساروا بعد ذلك على مناهج علمية جديرة بكل تقدير . ولهم ، نتيجة لهذا ، فضل كبير جدا في تطوير هذا العلم ، ولكن مؤرخي الغرب ساروا على مبدا ان العلم كله غربي . وفي ميدان التاريخ يبداون عند **هيرودوت وتوكيديد** وينتهون عند **توينبي وهويتسنجا** Huitsinga ومن اليهما من معاصرينا .

ومن العسير لهذا ان توسع في هذه المجالة مكانا مناسبا لما قمنا به في تاريخ هذا العلم . ولهذا فسندعه جانبا لكي نخصص له دراسة قائمة بذاتها ، ونكتفي هنا بان نروى للدارس العربي تاريخ هذا العلم كما يروونه في كتب الغرب .

وقد كان من المناسب لهذا البحث ان نروي في ايجاز تاريخ تطور علم التاريخ من بداياته الاولى عند هيرودوت الى اليوم ، ولكننا راينا اننا اذا قصصنا هذا التاريخ بحسب المفهوم الغربي جاءت القصة ناقصة ، لانها ، كما ذكرنا ، لا تحسب حساب الدور الكبير الذى قام به العرب والمسلمون في تطوير ذلك العلم والسير به الى الامام ، ثم ان هناك ـ خارج النطاقين الاوروبي والعربي ـ مؤرخين ومدارس تاريخية لها اهميتها عند الصينيين والهنود خاصة ، فاذا كان ولا بد من ايجاز تاريخ علم التاريخ فلا بد ان يتضمن ذلك الموجز حديثا عن نصيب تلك الامم في تطوير علم التاريخ بدلا من الاقتصار على متابعة اهل الغرب فيما يقولونه والاكتفاء به ، ومن آفات الفكر الغربي انه لا ينظر الا الى نفسه ولا يكاد يحسب لغيره حسابا ، وفي اعماق كل مفكر غربي ان الحضارة الجديرة بالاهتمام هي الحضارة الغربية وحدها ، وان الفكر هو الفكر الاوروبي ولا غير ، فاذا ظهر خارج النطاق الاوروبي افذاذ من امثال ابن خلدون وطاغور مثلا نعده نوادر بل طرائف تقرا ، ويهتم بها لغرابتها او لطرافتها ، لا لانها تكون جزءا اصيلا من الخط الرئيسي .

ولهذا وحتى يمكن تعديل التاريخ التقليدى لعلم التاريخ على نحو يجعله انسانيا عاما لا اوروبيا فحسب ، فاننا سنكتفي هنا بان نعرض تطور هذا العلم خلال العصر الحديث من اواخر القرن الثامن عشر الى اليوم ، وهي فترة حاسمة في تاريخ تطور التاريخ ومفهومه ومناهجه .

تطور علم التاريخ خلال العصر الحديث :

الى منتصف القرن السابع عشر كان التاريخ في الغرب فرعا ثانويا قليل الاهمية من العلم يهتم به بصورة خاصة الرهبان وحواشي الملوك ، فاما الرهبان فقد كان همهم موجها الى شئون الدين وتواريخ البابوات واخبار القديسين وما يقال من اجرائهم المعجزات او الكرامات ، وربما اشاروا في اثناء ذلك الى بعض ما يهم غير رجال الدين من الحوادث . ومراكز المخطوطات في مكتبات الغرب مثقلة بهذه التواريخ التي كتبها الرهبان في صمت صوامعهم على ضوء الشموع على سبيل التسلية احيانا وقطعا للوقت وهروبا من الملل وتقربا الى الله في اكثر الاحيان .

ومعظم هذه المدونات مكتوب باللاتينية ، والقليل منها بلغة اهل البلد من فرنسية او المانية او انجليزية وما اليها ، ولكنها كلها تشترك فيما يسودها من ثقل وتشابه وايمان بالخوارق والمعجزات وقلة ما يجده المؤرخ فيها من مادة تاريخية نافعة .

واما ما كتبه حواشي الملوك من سِيَر سادتهم وما قاموا به من اعمال فاكثر قيمة من الناحية العلمية وان كان يغلب عليها الملق والمبالغة والاكاذيب ، ولكنها على اى حال تضم مادة تاريخية يمكن استخلاص حقائق نافعة متهابعد جهد قليل او كبير .

والخلاصة هنا انه لم يكن فى الغرب الى ذلك الحين شيء يمكن تسميته علم التاريخ ، انما كانت هناك المدونات Cronica التي ذكرناها وبينا قلة قيمتها كأصول تاريخية ، وفيما عدا مؤرخي العصور القديمة ما بين اغريق ورومان من امثال **هيرودوت وتوكيديد وبوليبيوس وتيتوس ليفيوس ومارسيلوس اميانوس** لم يكن هناك الا اصحاب مدونات اشهرهم رجال مثل **اجينهارت** Eginhardt مؤرخ شرلمان **وفرواسار** Froissart **ودى جوانفيل** De Joinville اللذين ارّخا لبعض الحملات الصليبية .

ولهذا فعندما نشر **فولتير** مؤلفه الاول فى التاريخ عن حياة واعمال **شارل الثاني عشر** ملك اسكنديناوه وحروبه مع الروس Historie de Charles XII سنة ١٧٣١ راى الناس فيه لونا جديدا من التاريخ لم يعرفوه الى ذلك الحين ، فعلاوة على تحقيق فولتير لاعمال هذا الملك الاسكنديناوى الشاب واجتياحه للقوات الروسية كأنه شهاب ثاقب ، معتمدا فى ذلك على دراسة نستطيع ان نصفها بانها وثائقية نجد ان فولتير عرف كيف يتأنى فى الحكم ويحسن المقارنة بين ذلك الملك الشاب المغامر ومنافسه العنيد **بطرس الاكبر** قيصر الروس . فقد راى فولتير ان شارل الثاني عشر ، رغم انتصاراته العسكرية ، شاب متهور مخرب فى حين ان بطرس الاكبر رغم قسوته وعنفه رجل مصلح استطاع ان ينشيء امبراطورية شاسعة متحضرة وابد فولتير بعد ذلك ملكته التاريخية فى كتابه البديع « خطابات فلسفية » Lettres Philosophiques الذى يدخل فى نطاق المؤلفات الفلسفية ولكنه حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريف الزمان . وبعد ذلك بست سنوات نشر فولتير كتابه المشهور عن عصر لويس الرابع عشر Le Siècle de Louis XIV الذى ابدى فيه براعة فائقة فى تحليل الاحداث والاشخاص ، واعطى للمرة الاولى فى تاريخ الفكر الغربي الحديث صورة بديعة لعصر اشتهر بما زانه من مظاهر الحضارة . وقد اغراه نجاح كتابه هذا بالتفكير فى كتابة تاريخ عالمي ، ولكنه لم يستطع السير فى عمل ضخم كهذا ، واقتصر على تحرير خلاصة صغيرة اسماها « مقال عن الاخلاق والعادات » Essai sur les moeurs وهو كتاب طريف يجد المؤرخ لذة فى قراءته نظرا لما فيه من محاولة التعمق فى فهم الجماعة البشرية وتركيبها ، وبعض صفحات هذا الكتاب تذكرك احيانا بصفحات مما كتب **المسعودى** فى مروج الذهب ، واحيانا اخرى بما اورده **ابو حيان التوحيدى** فى « الامتاع والمؤانسة » .

ولهذا كله يميل الكثيرون من المؤرخين الى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي فى الغرب . ولكن فولتير لم يكن على الحقيقة مؤرخا ، وانما كان من هواة التاريخ ، وقد كتب التاريخ على انه لون من الادب او الفلسفة ، وهو يمثل القمة التي وصل اليها لون من الوان الفكر الغربي نشأ فى عصر النهضة وجمع اصحابه فى مؤلفاتهم اطرافا من الفلسفة واخرى من التاريخ واضافوا الى ذلك فيضا من التاملات والآراء الصائبة او غير الصائبة .

ولا باس هنا من الاشارة الى بعض كتاب عصر النهضة هؤلاء ممن صدرت عنهم مؤلفات اصبحت فيما بعد من ذخائر المكتبة التاريخية ، واولاهم بالتنبيه هنا **نيكولو ميكافيللى** Nicolo Machiavelli (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) صاحب كتاب « الامير » المشهور ، وهو كتاب فلسفة وسياسة فى ظاهره ، ولكنه قائم فى صميمه على فهم سليم للتاريخ وخاصة لتاريخ

ايطاليا في عصره وهنــاك ايضــا **فرانشيسكو جيشياrديني** Francesco Guicciardini (١٤٨٣/ ١٥٤٠) الذى كتب تاريخا لايطاليا لا يخلو من تعمق ونظر تاريخي ، **وليوناردو بروني** Leonardo Bruni (١٣٧٠ ــ ١٤٤٤) صاحب كتاب تاريخ فلورنسا Storia Fiorentini الذى يعد من احسن المؤلفات التاريخية التي خلفها عصر النهضة . وقريبا منه ذلك الكتاب الذى الفه السير **والتر رالي** Walter Raleigh وسماه تاريخ العالم History of the World ونشره سنة ١٦١٤ فلم يلق كبير نجاح رغم انه لا يخلو من قيمة علمية .

وفى نفس الوقت كان نفر من الرهبان في الاديرة يحاولون الخروج من سآمة المدونات التاريخية والبحث عن طرق جديدة لدراسة التاريخ وفهمه . وقد التفت بعضهم الى اهمية مجموعات الوثائق المكدسة فى الاديرة وامكانية استخدامها كمادة تاريخية اذا هي درست الدراسة العلمية الكافية ، واهم هؤلاء الرهبان هم البندكتيون فى دير **سان مور** Saint Maur فى فرنسا ، ويشبههم فى ذلك نفر من رهبان الجيزويت فى بلجيكا على راسهم الراهب المؤرخ المشهور **يوحنا بولاند** Jean Bolland (١٥٩٦ ــ ١٦٦٥) الذى اصبح علما على مدرسة جديدة فى دراسة وثائق الاديرة واستخراج المادة التاريخية منها ، ولا زالت جمعية البولنديين Les Bollandistes الى يومنا هذا من اكبر الجمعيات التاريخية واكبرها مكانا من احترام الناس . وقد ادت دراسات اولئك الرهبان الى الكشف عن حقائق ازالت من النفوس كثيرا من الاوهام ، ومن ذلك ما كشف عنه الراهب فالا Valla (١٤٠٧ ــ ١٤٥٧) من ان الوثيقة المشهورة المسماة هبة **قسطنطين** Donatio Constantini التي كانت تعتبر مقدسة لان البابوات كانوا يقولون ان **الامبراطور قسطنطين** الكبير وهب فيها اراضي ايطاليا للكرسي البابوى على اعتبار انها ارث **الرسول بطرس** اخذه عن السيد المسيح مباشرة . فقد اثبت هذا الراهب ان هذه الوثيقة زائفة وان رجال الكنيسة زيفوها ووضعوا عليها خاتم قسطنطين وان **السيد المسيح** لم يمنح الحوارى بطرس شيئا فى ايطاليا او غيرها . وقد احدث هذا الكشف زلزالا عنيفا في اوساط العلم والسياسة والدين فى اوروبا ، وهوجم الراهب فالا هجوما عنيفا .

وكان هذا النجاح الذى لقيه فالا مغريا للكثيرين من الرهبان على الانكباب على مجموعات الوثائق التي تحت ايديهم فاقبلوا يدرسونها ويمحصونها ، فبدات اصول علم الوثائق تظهر وهو العلم الذى عرف فيما بعد باسم الباليوجرافية Paleography ووظيفته دراسة الكتابات والمخطوطات ، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم الايبجرافية Epigraphy ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الاحجار وغيرها وتفسيرها واستخراج المادة التاريخية منها ثم لم يلبث ان ظهر علم الآثار او الاركيولوجيا Archeology ووظيفته دراسة كل ما خلفته العصور الماضية من ابنية واشياء مصنوعة او ادوات او قطع او نقوش او بقايا عمران .

وهكذا وشيئا فشيئا من اوائل القرن الثامن عشر اخذ العلم التاريخي يستقر على قواعد واصول فنية علمية خرجت به ــ شيئا فشيئا ايضا ــ من مجال الادب والفلسفة والتاملات واساطير القديسين ومدائح الملوك الى ارض العلم الصلبة ، وولد علم التاريخ فى الغرب ، ونضع خطا عريضا تحت عبارة « **فى الغرب** » لان التاريخ عندنا ــ معاشر العرب ــ ولد من اول الامر علما دقيقا قائما على النقد والتحقيق ، فان شجرة التاريخ عند العرب نبتت فى تربة علم الحديث ، وعلم الحديث علم يقوم على الدقة والتحرى والضبط بالنسبة للحديث المروى وعلى نقد الرجال ــ وهو علم الجرح والتعديل ــ فيما يتصل برجال السند وهم قواعد الرواية وعمدها.

وقد ارتبط ميلاد هذا العلم التاريخي في الغرب باسماء لا زلنا نقرأ مؤلفات اصحابها باجلال عميق : هناك **دوشسن** Duchesne الذى كتب تاريخا ضخما للكنيسة الكاثوليكية تحرى فيه الدقة والصدق وتسلح بشجاعة نادرة كشف بها من مساوىء الكثير من البابوات وزيف بعض كبار الرهبان ، **وبالوز** Baluze **ومابيون** Mabillon **ومونفوكون** Montfaucon الذين اقبلوا على دراسة مجموعات الوثائق المحفوظة في الاديرة والبلديات وخزائن الدولة واجتهدوا في جمع ما لدى الافراد من وثائق لايداعها في المكتبات الوطنية وجعلها في متناول الناس .

ادوارد جيبون ودوره في تطور علم التاريخ في الغرب ــ معاصرو جيبون .

ووسط ذلك الحماس للتاريخ والاهتمام بجعله علما محترما ظهر **ادوارد جيبون** Edward Gibbon (١٧٣٧ ــ ١٧٩٤) الذى يعتبر من اعاظم المؤرخين واساتذة هذا العلم على مر العصور رغم ان كتابه الاشهر : تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها The History of the Decline and Fall of the Roman Empire حافل بوجوه النقص ، ولكنه عمل علمي رائع كتبه صاحبه عن ايمان عميق باهمية ما يعمل ، وانفق في كتابته معظم سنوات عمره تقريبا كما فعل مؤرخنا العظيم ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ومهما تقادم به العهد فسيظل دائما من درر المكتبة التاريخية في كل عصر ولغة ومكان ، ولقد قال المؤرخ الانجليزى الاشهر **ج . ب . بيوري** J. B. Bury : انك لن تكون مؤرخا حتى تقرأ جيبون ، وهي قالة حق ، لأن جيبون عاد بالفعل بنفسه الى ايام الدولة الرومانية وقرأ كل ما تيسر له من كتابات اهلها وكتب تاريخا لها لا يمل الانسان من قراءته . واذكر انني في سنوات الدراسة الاولى في جامعة القاهرة كنت احفظ عن ظهر قلب تقريبا اربعة فصول من كتاب جيبون هذا ، نشروها في طبعة ميسرة للطلاب هي الفصول الخاصة بعصر الانطونيين The Age of the Antonines

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واجمل ما في **جيبون** انه كان رجلا ميسور الحال طول حياته ، وكان في صبوته مبتلى بالامراض مثقلا بالمتاعب بسبب اهمال امه اياه ، ولكنه كان انسانا غني النفس ذكي القلب ، فهذا الصبي الذى لم تمكنه صحته من الدراسة المنتظمة الابعد ان ادرك سن الرشد وتخطى الخامسة عشرة لم يلبث ان قرر بعد تفكير طويل ان يتخلى عن العقيدة الانجليكانية ويعتنق الكاثوليكية . وهو امر افزع اباه ، لأن معناه حرمان ابنه ما عاش من الوصول الى اى وظيفة محترمة في الدولة او مكانة مرموقة في المجتمع . ولكن ادوارد جيبون سار في طريقه غير هياب ، وعندما ابعده ابوه الى جنيف ، حتى يعود الى عقله ويترك الكاثوليكية ، اقبل على دراسة الفرنسية وبرع فيها واخذ يؤلف بها ، واتصل بفولتير واصحابه ، واصبح شخصية لها مكانتها واقبل على قراءة الآداب اللاتينية في تهم بالغ . وعندما اشتركت انجلترا في حرب السنين السبع دخل الجيش ووصل الى درجة كابتن ، ثم ذهب الى باريس سنة ١٧٦٣ وتعرف على الموسوعي الاشهر **ديدرو** Denis Diderot وصاحبه دالامبير Jean D'Alembert ثم ذهب الى ايطاليا ، وفي منتصف اكتوبر ١٧٦٤ وبينما كان يتنقل بين آثار روما خطرت بباله فكرة كتابة تاريخ شامل للدولة الرومانية . ومن ذلك الحين الى آخر حياته اصبح هذا التاريخ شغله الشاغل ، وقد ظهر مجلده الاول في ١٦ فبراير ١٧٧٦ ومجلده الاخير في ٨ مايو ١٧٨٨ ، وتوفي جيبون نفسه بعد ذلك بست سنوات في ١٦ يونيو ١٧٩٦ وقد ترهل جسده وحطت عليه الامراض وتكاثرت عليه الآلام بموت خيرة اصحابه واصدقائه .

لا يتميز كتاب جيبون بفلسفة خاصة للتاريخ . بل ان الدقة والضبط والاستفادة الكاملة من المراجع تنقصه في احيان كثيرة ، ولكنه كان اول غربي كتب في العصر الحديث دراسة تاريخية لدولة كبرى ، قص فيها تاريخها كاملا . وحاول ان يستقصي اسباب ضعفها وانهيارها ، وكان اقبال الناس على هذا الكتاب وتقديرهم اياه كافيا لرفع قدر التاريخ الى مستوى اهم فروع العلم واجدرها بالعناية . ومن حسن الحظ انه كان رجلا بليغا فخم العبارة عظيم الهمة وان كان هو نفسه رجلا صغير الحجم دميم الشكل ، وقد نجح الى حد كبير في ان يضع قارئه في العصر الذى يتحدث عنه حتى انك لتسمع ، وانت تقرأ وصف خروج جيش قيصر من روما للحرب ، قعقعة العجلات وصلصلة السيوف وصهيل الخيل ، ولم يحاول ان يفلسف الاحداث او ان يجهد نفسه في البحث فيما وراءها .

والاجماع منعقد على ان تاريخه للقرون الثلاثة الاولى من تاريخ روما عمل رائع ، ولكن النقد كثير لما كتبه عن تاريخ الدولة البيزنطية اى عن الالف سنة الاخيرة من تاريخ الدولة الرومانية، وقد سخط عليه الكثيرون لتحرر فكره وقلة ايمانه بالمسيحية ، ولهذا كرهه وحمل عليه الدكتور صموئيل جونسون وصاحبه بوزويل ، ولكن هذا بالذات اعطى ذلك الرجل الفرصة ليفهم الديانات الاخرى ، ولهذا فاد وارد جيبون من الاوروبيين القلائل الذين قدروا الاسلام وراوا بعض جوانب عظمة الرسول الكريم وهنا نجد جيبون اوسع ذهنا واكثر تحررا من فولتير الذى لم يستطع ، رغم تحرره المعروف ، التخلص من اسار التعصب الكاثوليكي ، بل لقد حاول جيبون ان يفهم الزردشتيه والمانوية وما اليهما من العقائد غير السماوية ، وهذا فضل يذكر له . لم يكن جيبون صاحب مدرسة في التاريخ ـ مثل رانكه مثلا ـ ولكنه ارتفع بالتاريخ كله الى مستوى لم يعرفه الغرب قبل ذلك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد عاش جيبون في صميم عصر التنور The Enlightenment وعاصر **فولتير ومونتسكيو** Montesquieu **وجان جاك روسو** وغيرهم من اعلام ذلك العصر . ويحس الانسان وهو يقراه انه اكثر الجميع استنارة ، لا نستثني من ذلك جان جاك روسو . وهو دون شك اقرب الى الروح الانساني ، وادق فهما للتاريخ من معاصره الفرنسي الاسقف **جاك بنين بوسويه** Jacques Benigne Bossuet (١٦٢٧ ـ ١٧٩٤) الذى يحتل مكانا كبيرا بين المؤرخين بكتابه المسمى مقال عن التاريخ العالمي Discours sur l'histoire universelle الذى جعل الكنيسة الكاثوليكية فيه محور التاريخ الانساني كله وفسر التاريخ كله تفسيرا دينيا صرفا بل مسيحيا كاثوليكيا فحسب .

في ذلك العصر ارتفع مقام المؤلفات التاريخية واقبل عليها الناس حتى ان **ديفيد هيوم** David Hume الفيلسوف صرف جزءا كبيرا من وقته في التاليف التاريخي ، والف تاريخا لانجلترا في ستة مجلدات ، كسب من المجلد الاول وحده الفي جنيه وكانت مبلغا ضخما بحساب تلك الايام .

ولا يمكننا ان نترك عصر التنوير ومؤرخيه دون وقفة صغيرة عند **آدم سميث** (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) الذى يعتبر مؤسسا لعلم الاقتصاد بكتابه المشهور عن «ثروة الامم Wealth of Nations وهو كتاب تاريخ في صميمه وفي طريقته ، وفضيلة آدم سميث انه لفت الانظار الى اهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ ، وهي كما نعرف من اهم العوامل واولاها بالاهتمام . ويكفي ان تذكر ان جيبون في بحثه الطويل عن اسباب سقوط روما لم ينتبه الى العامل

الاقتصادي . انما تنبه اليه المؤرخون بعد ان كشف آدم سميث عن اهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات ، وقد افاض كارل ماركس بعد ذلك في هذه الناحية ، ولكن آدم سميث يعتبر صاحب الفضل الاول في استلفات انظار الناس الى اهمية العامل الاقتصادي .

واذا كان مؤرخو القرن الثامن عشر وعلى رأسهم ادوارد جيبون قد لفتوا انظار الناس الى اهمية دراسة التاريخ دراسة علمية وقيمتها الكبرى ، كدراسة انسانية اصيلة ، فانهم رغم ذلك لم يصلوا الى تثبيت اقدام التاريخ كعلم له اصول ومناهج مقررا في البحث . فعلى الرغم من ان جيبون وهب حياته كلها لدراسة التاريخ الا انه ظل يعتقد انه ضربٌ من الادب وقال عنه انه « اذيع ضروب الأدب » : The most popular of all forms of literature وهي عبارة انكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر انكارا شديدا ، والحق ان الذي يقرأ جيبون وفولتير على انهما اديبان ، يقدرهما باكثر مما يفعل من يقرأهما على انهما مؤرخان . ومن عباراته المبدعة التي كتبها في مقدمته لكتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية قوله : « ان كل صفحة من صفحات التاريخ ملطخة بدماء البشر وعنف الصراع بين الناس وغرور النصر واليأس من التوفيق وذكريات المظالم الماضية والخوف من الاخطار المقبلة ، وهذه كلها امور تثير العقل ولكنها تسكت صوت عاطفة الاشفاق » وهذه مقالة اديب وشاعر وليست قطعا عبارة مؤرخ محترف ، لان المؤرخ المارس يعرف ان هذه كلها اشياء طبيعية داخلة في تكوين بنية الحياة على الارض . فكما ان عالم الحيوان لا يستنكر افتراس الذئب للارنب لان الذئب بطبيعته يعيش على الافتراس ، فان المؤرخ لا يستنكر الحروب او المظالم او المآسي التي ينزلها الناس بالناس لأن هذه هي طبيعة الحياة .

ويؤخذ على مؤرخي القرن الثامن عشر كذلك قلة تنبههم الى تطور الانسان ومجتمعه . فانسان عصرهم في نظرهم هو نفس انسان العصور القديمة دون ادنى تطور في عواطفه او سلوكه . ومن هنا فانهم جميعا يجمعون على سوء الظن بالناس وتصرفاتهم والسخرية من البشر واعمالهم ، وهم بهذا اقرب الى الاخلاقيين منهم الى العلماء او المؤرخين المحترفين . ولهذا فانهم لم يستطيعوا ان يصلوا بالتاريخ الى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات .

ليوبولد فون رانكه ومدرسته :

ولكن وضع التاريخ هذا والنظرة اليه كان لا بد ان ينالهما تغيير حاسم خلال القرن التاسع عشر الذي تميز بتزاحم الاحداث الضخمة التي احدثت في الذهن الاوروبي ما يشبه الزلازل العنيفة العميقة المدى ، وقد احدث هذا الزلزال ثورة حقيقية في كل ميادين العلوم تقريبا ، وكان لا بد ان يكون للتاريخ نصيب من هذه الثورة ، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات او الاداب الى نطاق العلوم ذات الاصول والمناهج .

وتمثلت هذه الثورة في ميدان التاريخ في الحركة الشاملة البعيدة المدى التي قامت بها مدرسة برلين وطليعتها نيبوهر Niebuehr وقائدها **ليوبولد فون رانكه** .

ولكن الفضل في هذا التطور الشامل في علم التاريخ لا يرجع كله الى الالمان ، بل سبقهم اليه مفكرون اوروبيون آخرون اشهرهم **جامباتيستا فيكو** Giambathista Vico (١٦٦٨ — ١٧٧٤) وهو مفكر ايطالي من نابولي تشوب تفكيره فوضى جعلت البعض يتهمونه بالجهل ، ولكن الرجل كان ذا فكر لماح مكن له من ان ينظر في التاريخ نظرة هي اعمق مما فعله الكثيرون من مشاهير رجال

عصر التنوير ، فقد نظر الى التاريخ نظرة عامة وآخذة في مجموع عصوره وقسمها الى ثلاث حقب ، الاولى « **الهية** » اى العصر الذى كان الناس يردون كل الحوادث الى صنع آلهة ، والثانية « **بطولية** » كان التاريخ فيها سردا لاعمال وعظماء الرجال ، والثالثة « **انسانية** » وهي التى انتبه المؤرخون فيها الى ان التاريخ الحقيقي هو الذى تصنعه الجماهير والشعوب . وعلى الرغم من بساطة هذا التقسيم وسذاجته ، فان فيكو يعتبر في الغرب اول من نظر الى التاريخ العالمي نظرة عامة فلسفية . لقد عاش بعد ابن خلدون بثلاثة قرون (عاش ابن خلدون فيما بين سنة ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) ، وكان ينبغي ان يعتبر تاليا له في سلسلة فلاسفة التاريخ ، ولكن اهل الغرب نادرا ما يفكرون تفكيرا عالميا حقيقيا ، وهم نادرا ما يوسعون لغير غربي مكانا في تاريخ الفكر العالمي .

ولقد كان لكتاب **فيكو** اثر بعيد في اوساط المؤرخين الى نهاية الحرب العالمية الاولى على الاقل ، وربما كان اثره مباشرا عند رجل مثل **يوهان جوتفريد هيردر** Johann Gottfried Herder (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) الذى يعتبر بحق مؤسس المدرسة الالمانية في علم التاريخ . كان هيردر في اساسه اديبا وناقدا اديبا ، وتكوينه الاول لاهوتي كلاسيكي ، وهو يحتل مكانا ضخما في تاريخ الأدب الالماني ، فهو صديق **جيته** معظم ايام عمره ، وهو من مؤسسي حركة الاقتحام والاندفاع Strum und Drang ذات الاثر البعيد في تاريخ الفكر الجرماني ، ولكنه صرف الى التاريخ جانبا من عنايته والف فيه كتبا تعتبر معالم على طريق علم التاريخ الحديث وخاصة كتابه « آراء في فلسفة تاريخ البشر : Ideen Zur Philosophie der Egeschichte der Menschheit ورسالته المسماة « وكذلك فلسفة لتاريخ بناء الانسانية » Auch eine philosophie der geschichte zur bildung der Menschheit غير ان آراء هيردر في التاريخ متناثرة في اعماله الكثيرة في الادب وعلم اللغة والدراسات القديمة ، فقد كان الرجل موسوعيا بحق سواء في ثقافته الخاصة او ميادين دراساته وتواليفه .

وتقوم فلسفة التاريخ عند هيردر على القول بأننا لا بد ان ندرس الماضي لنفهم مشاكل اليوم والغد ، وقد شابه ابن خلدون في تشبيه الجماعات الانسانية بالمخلوقات الحية وقال ، بأن لها هي الاخرى اعمارا من الطفولة والصبوة الى الشيخوخة ، وابدى ذكاء بعيدا في فهم التاريخ الاوروبي المعاصر له ، وقد قال ان المؤرخ ينبغي ان « يحس » العصر الذى يؤرخ فيه احساسا مباشرا ، وابتكر لذلك فعلا في اللغة الالمانية هو einfuehlen وقال ان هذا الاحساس المباشر هو الحاسة التاريخية ، ولهذا فان لفظ الحس او الاحساس das gefuehle له عند هيردر معنى خاصا ، وهو ممن قالوا بأن المؤرخ الحق هو الذى يستطيع ان يكون فكرة او صورة عامة Gestalt من العصر او الشخص او الظاهرة التي يكتب عنها . وقد حاول ان يثبت في كتابه المسمى « آراء من فلسفة تاريخ الانسانية » ان التاريخ يخضع لقوانين كتلك التي تخضع لها الاشياء والطبيعة ، وقد قال بأن التاريخ يسير في خط تقدمي واحد ، وتحدث عما سماه التوازن الداخلي للجماعات ، وان كل جماعة حية سليمة ينبغي ان تحافظ على هذا التوازن ، وان الاضطرابات والفوضى وعهود الظلم والتاخر تنتج من فقدان هذا التوازن ، وكان يؤمن بأن الانسانية ستصل يوما ما عن طريق العقل والتجربة الى حالة من التوازن تستقر معها اسس العدالة والنظام .

وكان هيردر بعمله هذا فاتحا لعصر جديد زاهر في تاريخ العلم التاريخي انتهى باعتباره علما قائما بذاته له اصوله وقواعده وكراسيه واقسامه في الجامعات ، والفضل الأكبر في ذلك يرجع الى **ليوبولد فون رانكه** Leopold Von Ranke (١٧٩٥ ـ ١٨٨٦) الذى عمّر فوق التسعين

سنة ، عاملا نشيطا في ميدان التاريخ ، وهو من اوائل من قصروا جهدهم كله على التاريخ ووصفوا في الغرب بأنهم مؤرخون . ولد رانكه في ٢١ديسمبر ١٧٩٥ في بلدة فيهي Wiehe في مقاطعة تورنجن في مملكة سكسونيا وتخصص اولا في الدراسات القديمة واللاهوت ، ثم دخل في خدمة ملوك بروسيا وانتقل الى برلين حيث عين استاذامساعدا للدراسات القديمة في جامعتها سنة ١٨٢٥ ثم اصبح استاذا وظل في هذه الوظيفة الى وفاته في ٢٣ مايو ١٨٨٦ في برلين .

كان رانكه عميق الايمان بالمسيحية على المذهب اللوثري (البروتستانتي) وكان مثاليا على مذهب فيخته ، وتأثر باتجاه هيردر نحو الاعتراف بالجانب الانساني اى البشرى في التاريخ وقال بفكرة التطور العضوى للجماعات وكذلك باهمية العامل الفردى Das Individualistische في توجيه الاحداث ، ولكنه انكر استخدام التاريخ للعظة والعبرة ، وهو مذهب مؤرخي العرب ومعظم مؤرخي القرن الثامن عشر في اوروبا ، وقال ان التاريخ ينبغي ان يدرس لذاته لا كوسيلة للتعليم والتهذيب .

واهم ما تميز به رانكه ودعا اليه قوله بانه ينبغي قبل كل شيء ان نعرف الاحداث والاحوال الماضية كما كانت بالضبط ، ودفعه هذا الى الاهتمام بالوثائق ومخلفات الماضي اهتماما بالغا . فلكي نعرف عصرا ينبغي ان نراه في الاصول التي كتبت خلاله لا تلك التي كتبت عنه ، واى شيء هو اصدق من الوثائق الرسمية ومكاتبات الدول والافراد وسجلات الحكومات والكنائس والمذكرات الشخصية ؟ وقد بلغ من حماس رانكه وتلاميذه لهذه الاصول ان انتشروا في الارض ينقبون في كهوف المخطوطات ورفوف الاديرة باحثين عن الوثائق في حماس جعل الدول والامارات والكنائس وغرف التجارة وبيوت الاشراف تهذيب تلك الاضابير وتنظيمها فنشأ علم الوثائق واخذت قواعده تستقر ، وقامت دور المحفوظات ومجموعات السجلات في اوروبا كلها ، واقبل طلاب التاريخ يدرسونها وكأنهم — كما قيل يومئذ — فرسان تقضي الليل في قص صفحات الكتب » وكان كتابه الاول المسمى تواريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية Geschichten der Romanischen und Germanischen Volker طرازا جديدا من التأليف التاريخي يقوم على الاعتماد على الاصول . وقد بسط فيه رانكه آراءه التي ذكرناها . ولكنه وقع فيما وقع فيه ابن خلدون عندما عجز في تاريخه من ان يطبق نظرياته التي بسطها في « المقدمة » فقد كان — مثلا — ناقدا حصيفا لاصوله التي اعتمد عليها ولكنه كان شخصيا غير موضوعي في الكثير من احكامه ، وانكر على هيجل تأملاته وتصوراته غير التاريخية ثم ملأ هو كتبه بالتأملات والنظريات الخاصة ، ومن اكبر وجوه النقص في تفكيره انه في حماسه للنظام البروسي لم ير الحد الفاصل بين سعي بروسيا نحو الوصول الى القوة واستخدام هذه القوة للعدوان بعد ذلك . وقد رأى في « الدولة » مفهوما اخلاقيا شبيها بالكنيسة ، ووقع بذلك في الانحراف الذى وقع فيه الكثيرون من مفكرى الالمان الذين تحمسوا للنظام البروسي واعتماده على القوة والنظام حماسا يعتبر تمهيدا لقيام دولة الحديد والنار على يد **بسمارك** .

وكان اهتمام رانكه بالوثائق الرسمية ومكاتبات الدول سببا في اهتمامه الشديد بالتاريخ السياسي والعسكرى فلم ينتبه كثيرا الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية . وقد وجه معظم اهتمامه الى قيام النظم السياسية الاوروبية وما كان يقوم بينها من صراع . ولكن غاب عن ذهنه تماما ان يفطن الى اهمية قيام الدولة السلافية الكبرى وهي روسيا وتوسعها البطيء

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

الذى سيجعل منها فى المستقبل اكبر قوة فى اوروبا . وكان ايمانه شديدا بنظام المجتمع الالمانى الذى عاش فيه والنظام البروسي الذى حكم ذلك المجتمع ، فكان شديد الاعجاب بالطبقة الوسطى الالمانية ـ وهو منها ـ وكذلك بالطبقة الارستقراطية الالمانية التي انتسب اليها فيما بعد . وهذا كله حال بينه وبين ان يقدر نظم المجتمعات الاخرى خارج اوروبا ويفهم حضاراتها ، واذا كان قد اجاد فهم تاريخ بروسيا فى الكتب التسعة التي كتبها عنه Neun Bucher preussischer Geschichte (١٨٤٧ ـ ١٨٤٨) وتاريخ انجلترا فى كتابه عنه Englische Geschichte (١٨٥٩ ـ ١٨٦٨) وكذلك تاريخ فرنسا فى كتابه Fransoesische Geschichte (١٨٥٢ ـ ١٨٦١) فانه لم يوفق فيما كتبه عن موضوعات تاريخية غير اوروبية . ومثال ذلك مقاله عن محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشره فى المجلة التاريخية التي سنشير اليها ، وهو دليل واضح على قلة علمه فى ذلك المجال وقصوره عن ادراك حقيقة الاسلام ورسوله . وكذلك فهمه قليلا بالحركة الصناعية فى اوروبا كلها وما كان لها من نتائج ، ولم يكتب شيئا ذا قيمة عن الولايات المتحدة .

ولكن الذى اعطى رانكه مكانه الكبير فى تاريخ علم التاريخ هو اهتمامه بالوثائق والمنهج الدقيق الذى وضعه لتنظيمها ودراستها ، وكانت الوثائق تسمى بالدبلومات ولهذا فان مدرسة رانكه تسمى بالمدرسة الدبلومية ومن الخطأ تسميتها بالمدرسة الدبلوماسية . فلا علاقة لعمله بالدبلوماسية بمفهومها الشائع اليوم . ومما يذكر له بالخير اسفاره المتعددة الى بلاد اوروبا لفحص مجموعات الوثائق وتقارير السفراء والمكاتبات الرسمية . واليه يرجع الفضل فى انشاء اللجنة التاريخية فى اكاديمية بافاريا للعلوم Historische Kommission bei der Bayrischen Akademie der Wissenschaften فقامت هذه اللجنة بنشر الوثائق العامة ووثائق الدولة والمدونات والخطابات . وعلى مثال هذه اللجنة انشئت فى نواحي اوروبا كلها هيئات قامت بهذا العمل فى كل ناحية ، فتهيأت السبل بذلك امام المؤرخين ليقيموا دراساتهم على الاصول . وانشأ كذلك المجلة التاريخية السياسية Historische-Politische Zeitschrift فكانت من طلائع الدوريات التاريخية التي قامت ولا زالت تقوم بالدور الذى نعرفه فى ميدان الابحاث التاريخية .

والنظرية الاساسية التي جاء بها هي قوله بأننا ينبغي ان نصور الماضي كما كان بالضبط wie es eigentlich gewesen وهي غاية عسيرة كل العسر ، لم يوفق اليها هو نفسه فى الكثير من كتبه ، ثم اننا لا نعرف كيف كان الماضي بالفعل حتى نحكم اذا كان المؤرخ قد وفق الى تصويره تصويرا دقيقا ام لم يوفق ، ولكن مذهبه هذا دفع بالمؤرخين الى الانصراف عن التصورات المثالية او التخيلية للماضي والبحث عن الحقيقة كيفما كانت على قدر ما تساعفهم ملكاتهم .

وكان رانكه كذلك مولعا بتنسيق المادة التي يحصل عليها والبحث عن التوازن فى تصويره للحوادث او المجتمعات ، ولهذا فانه لم يوفق الى فهم الثورة الفرنسية مثلا لانه لم يجد فى حوادثها ذلك التوازن الذى كان يلتمسه دائما . وقد كان مغاليا ولا شك فى تقدير مهمة المؤرخ عندما قال فى مقدمته لكتابه عن تاريخ الامم اللاتينية والجرمانية : « ولقد وُضِعَت على عاتق التاريخ مهمة الحكم على الماضي وافهام الحقائق لأهل الحاضر بما يعود بالخير على أهل الاجيال القادمة . وكتابي هذا لا يسمو الى تحقيق هذه المطالب الرفيعة وكل ما يسعى اليه هو ان يعرض ما حدث فعلا بالضبط كما كان بالفعل » . ولقد كان لهذا المبدأ اثر سيء فى اعمال الكثيرين من المؤرخين الذين تابعوا رانكه ، فجعلوا من انفسهم قضاة للماضي وحكماء على اهله ، ومضوا يصدرون احكاما تضمنت خطلا كثيرا ، وجعلت الكثير من هذه الكتب اشبه بالهراء ، لان مهمة المؤرخ الاساسية ليست الحكم على الماضي وانما فهمه ، وعند الفهم الصحيح للماضي تنتهي مهمة المؤرخ كمؤرخ ، فاذا تعدى مهمته ونصّب نفسه قاضيا تعرض للخطأ .

على اى حال يعتبر رانكه بشخصيته وحماسه ونشاطه ودابه على العمل فاتح عصر جديد فى تاريخ التاريخ ، فقد نقل التاريخ من ميادين الادب والفلسفة والتاملات الى ميدان خاص به ، فتقرر بصورة نهائية مكانه كعلم له شخصيته وحدوده ومناهجه واهدافه وفائدته . واقبلت الجامعات تخصص له الكراسي ، عامة اولا ، ثم مخصصة بعد ذلك ، فانشىء فى الجامعة الواحدة اكثر من كرسي للتاريخ ، وانشئت دور المحفوظات ، ورتبت فيها الوثائق ، ووضعت تحت تصرف الباحثين ، وظهرت وظيفة خاصة جديدة هي وظيفة قيّم المحفوظات Archioist بل انشئت كما سنرى معاهد خاصة لعلم الوثائق. وقد بلغ من تقدير الناس لعمل رانكه ان قال اللورد آكتون استاذ التاريخ الانجليزى المعروف : ان رانكه هو كولمبوس العلم التاريخي .

ولا يمكن ان نغفل ذكر **نيبوهر** Barthold Georg Niebuhr فى هذا المجال . كان هذا الرجل دانماركي الاصل ولكنه دخل فى خدمة الحكومة البروسية من سنة ١٨١٠ حيث عين محاضرا فى التاريخ فى جامعة برلين ، وفى تلك الجامعة القى سلسلة محاضرات عظيمة القيمة فى تاريخ روما نشرت فى مجلدين سنة (١٨١١ - ١٨١٢) وقد اثبت فى هذين المجلدين واعتمادا على الوثائق والسجلات زيف مؤرخ كان له مقام كبير فى دراسات تاريخ الدولة الرومانية وهو **تيتوس ليفيوس** Titus Livius وقد اتبع نيبوهر فى دراسته منهجا غاية فى الدقة والاحكام تمكن به من استخلاص الحقيقة من كل ما وقع تحت يده من وثائق ونقوش وسجلات وخطابات . وقد تأثر رانكه نفسه بمنهج نيبوهر فى الاستفادة الكاملة من المذكرات واليوميات والمراسلات الدبلوماسية وروايات شهود العيان وما اليها من المراجع الاصيلة المباشرة .

وعقب ذلك مباشرة قام المؤرخ الفرنسي **فرانسوا جيزو** Guizot (١٧٨٧ - ١٨٧٤) الذى اصبح وزيرا فيما بعد باصدار اوائل مجلدات مجموعة وثائق تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى المعروفة باسم Monumenta Historiae Germaniae التى بلغت مجلداتها فيما بعد بضع مئات ضمت مجموعة هائلة من الوثائق والمذكرات والمكاتبات ونصوص المعاهدات وما اليها . ثم قام المؤرخ الفرنسي **اوجستان تييرى** Augustin Thierry (١٧٩٥ - ١٨٥٦) باصدار كتابه المعروف « تاريخ الغزو النورماندى لانجلترا » (١٨٢٥) معتمدا على الوثائق الاولى فحسب ومثقلا بالهوامش واشارات المراجع . وفى سنة ١٨٢١ انشئت فى فرنسا مدرسة الوثائق المعروفة باسم Ecole des Chartes التي لا تزال الى اليوم من اعظم معاهد اوروبا لدراسة علم الوثائق والمخطوطات وما الى ذلك . وكل هذه نتائج مباشرة للحركة التي ادخلها رانكه ونيبوهر على دراسات علم التاريخ .

ولم يقتصر عمل رانكه ونيبوهر ومدرستهما على تقرير اصول البحث التاريخي ومناهجه ووضع الاسس العلمية للنقد التاريخي واكمال تكوين التاريخ كعلم سوي قائم بنفسه مستقل الشخصية . بل انهم عملوا كما قال **ايمرى نيف** فى كتابه من « شاعرية التاريخ » : على توكيد مغزى الاحداث واستمرارها وادراك حركة التطور التاريخي وفهمها » (٢١) .

وقد اتهم رانكه ، من بعض معاصريه ومؤرخي الجيل التالي عليه ، بانه جرد التاريخ من شاعريته وجعله سجلا جافا للحقائق المدعمة بهوامش ضخمة من الاشارات الى الاصول ، والمراجع ، واخذ عليه ايضا ايمانه القومي المتعصب بالدولة البروسية واسلوبها المحافظ فى

---

(٢١) Emerhy Neff, The Poetry of History (1947) p. 137.

الحكم ، ومن هنا كان رانكه معاديا لكل حركات التحرر التي قامت في اوروبا في عصره ، ومن الواضح ان محافظته حالت بينه وبين فهمها . ومن هنا كانت الحملة عليه شديدة من جانب مؤرخين مثل **دورنج** Duuering **ولورنتس** Lorentz **ولامبرخت** Lamprecht **ويوهان جوستاف درويسن** Johann Gustav Droysen (١٨٠٨ ـ ١٨٨٤) الذى وصف موضوعية رانكه بانها سلبية .

ولكن اكبر ناقدى رانكه كان **يعقوب بوركارت** Jacob Burckhardt (١٨١٨ ـ ١٨٩٧) وهو من أصل سويسرى ، ولكنه تتلمذ لرانكه وتخرج عليه في برلين وقد نفر من جمود رانكه وقضائه على الجانب الشاعرى من التاريخ . وبلغ من استنكاره لمذهب رانكه هذا ان رفض ان يتولى كرسي التاريخ بعده في جامعة برلين ، ثم قام بتاليف ثلاثة من احسن ما كتب في التاريخ على المذهب الجديد وهي : عصر قسطنطين الكبير Die Zeit Konstantin des Grossen (١٨٥٣) وحضارة عصر النهضة في ايطاليا Die Kultur der Renaissance in Italien (١٨٦٠) وتاريخ النهضة في ايطاليا Die Geschichte der Renaissance in Italien (١٨٦٨ ـ ١٨٧٣) ثم اتبعها بكتابه المشهور : تاملات في التاريخ العالمي Weltgeschichtliche Betrachtungen وكلها كتب تجمع بين المنهج التاريخي الدقيق الى جانب الاحساس الانساني والجمالي . وجدير بالذكر ان آدم ميتز الذى كتب كتاب نهضة الاسلام Die Renaissance des Islams الذى اشتهر عندنا بترجمته العربية التى عملها د . **محمد عبد الهادى ابو ريده** ونشرها باسم « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع » هذا الرجل كان تلميذا لبوركارت وهو سويسرى مثله ، وقد كتب كتابه على مثال كتاب استاذه من تاريخ عصر النهضة في ايطاليا .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد اشرنا الى بعض ممثلي هذه الحركة الجديدة في فرنسا من امثال جيزو وفييرى ولكن اكبر اولئك الممثلين وابعدهم اثرا كان **جول ميشيليه** Jules Michelet (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤) الذى جمع الى ضبط المدرسة الجديدة ودقتها وقدرتها على الاستفادة من المراجع روحا شاعرية رومانتيكية ، وحماسا قوميا يساير حركة الثورة الشعبية التي استمرت في فرنسا طوال القرن التاسع عشر . لقد اشتهر ميشيلية بتاريخه المطول لفرنسا الذى يقع في سبعة عشر مجلدا (١٨٣٣ ـ ١٨٦٧) الذى يعتبر دون شك من أعظم الاعمال العلمية في تاريخ التاريخ ، ولكن جهود ميشيليه في اصلاح مناهج علم التاريخ في المدارس الثانوية لا تقل اهمية عن ذلك . لقد تولى مشيليه التدريس في مدرسة المعلمين العليا في باريس L'Ecole Normale وفي السوربون وفي الكوليج دى فرانس Le Collège de France ولكن ذلك لم يصرفه عن تاليف كتب مختصرة في التاريخ لينتفع بها المدرسون في المدارس مثل مختصر للتاريخ الحديث Précis de l'Histoire Modern (١٨٢٧) ومقدمة للتاريخ العالمي Introduction à l' Histoire Universelle (١٨٣١) وكلها مؤلفات كان لها ابعد اثر في وضع الأسس للكتاب المدرسي في مادة التاريخ .

هيجل والمثالية التاريخية :

ولا بد من الاشارة هنا الى العلاقة بين آراء هيجل في التاريخ وما حققه رانكه ومعاصروه . لقد سبق ان اشرنا الى بعض نظريات جيورج فلهلم **فريدريش هيجل** (١٧٧٠ ـ ١٨٣٠) ولكننا حريون الآن بان نلقي نظرة على مجمل آرائه قبل ان ننتقل الى دراسة آراء مدرسة الماديين اى

اصحاب التفسير المادي للتاريخ ، وهم الذين زعزعوا الثقة في قيمة فلسفة التاريخ عند هيجل. وواضح ان هيجل سابق على رانكه بجيل كامل فقد ولد هيجل سنة ١٧٧٠ وولد رانكه بعد ذلك بخمس وعشرين سنة (١٧٩٥) وعندما توفي هيجل سنة ١٨٣١ كان رانكه في مطالع نشاطه الواسع المادي ، ولكنه نشأ على اى حال في جو مشبع بالهيجلية التي ظلت تسيطر بقوة على الفكر الاوروبي حتى تمكن الماديون من زحزحتها من مكان الصدارة في عالم الفكر الاوروبي .

يعتبر هيجل في جملة المثاليين الذين يقولون ان الفكر او الفكرة اساس كل ما هو موجود . ويستعمل هيجل هنا مصطلحا خاصا هو der Geist الذى يمكن ترجمته ايضا بعبارة الروح او ما يسمى في الانجليزية Spirit وفي الفرنسية Esprit ولكن هيجل كان يعني به العقل او الفكر ، ولكنه ليس العقل او الفكر الانسانيين العاديين وانما هو العقل الاعلى الذى يوجه الكون ، وهذه الفكرة تنبعث من ايمان هيجل الوثيق بالمسيحية وقد بسط فكرته تلك في كتابه عن روح المسيحية Das Christlicha Geist وهو يرى في المسيحية او روح المسيحية اجتماع العنصرين الالهي والانساني ، اى الروح والبدن ، اى الكنيسة والدولة ، والعبادة والحياة ، والتقى والفضيلة ، وهذه الثنائية المسيحية كان هيجل يراها في الكون كله . وقد كان المفكرون الماديون يقولون ان الفكر يحكم الدنيا L'Opinion gouverne le Monde فكانوا بهذا يعطون العقل الانساني اكثر مما يستحق او يستطيع ، وكانوا بذلك واحديين او monists في تفكيرهم . اما هيجل فكان ثنائيا يؤمن بان هناك عنصرين متميزين يختلف كل منهما عن الآخر وهما الروحي والمادي وهما يجتمعان في روح او فكر واحد Geist يعتبر القوة العليا التي تحرك كل شيء ، وهذا هو العقل المطلق ، ويعتمد هيجل في التدليل على ذلك بنوع خاص من الجدل او الحوار يسمى عادة باسم Dialektik وعن طريق هذا الجدل وصل الى القول بان العقل او الفكر الانساني يسعى دائما نحو التقدم ليصل الى العقل او العلم المطلق الذى يعتبره مثالا يحتذيه ، ومن هنا يوصف هيجل بانه مثالي ، بل يعتبر في طليعة المثاليين الالمان وهم خصوم الماديين the materialists الذين سنتحدث عنهم في الفقرة التالية . وقد شرحنا فيما مضى كيف طبق هيجل هذا المبدأ في فلسفته للتاريخ وهي تتلخص في سعي الجماعات الانسانية للانتقال من حالة الهمجية والوحشية الى مستوى الدولة ذات النظام والقانون . وقد وفق هيجل في ميدان فلسفة التاريخ توفيقا جعل الناس يضعونه دائما في عداد المؤرخين . وبالفعل كان هيجل مؤرخا واسع الفهم والادراك التاريخي. وبفضل هذا الادراك وصل بفلسفة التاريخ على مذهب المثاليين الذين يؤمنون بالفكر او العقل المطلق الذى يسير الاحداث في الكون ويعتبرونه مثالا او مثلا اعلى ، وان التاريخ على هذا الاعتبار ان هو الا عملية طويلة مقدرة بقدر Vorsehungsprozesse يأخذ فيها كل حادث او ظرف مكانه ومبرراته على ضوء مسار التاريخ في مجموعه . وقد اهتم هيجل اهتماما خاصا بالتطور الانساني للدولة وهنا يتفق هيجل مع رانكه الذى قال ان الدول افكار الله Gottesgealanken ويريد بذلك انها تقوم بتقدير الله سبحانه (٢٢) .

---

(٢٢) Fritz Stern, The Varieties of History (1956) p. 61-62.
Arthur Marvick, The Nature of History, p. 37.
وقد اخذنا آراءنا عن فلسفة التاريخ عند هيجل من كتابه المشهور عن فلسفة التاريخ واحسن ترجمة انجليزية له هي التي عملها J. Sibree ونشرها سنة ١٩٥٦ .

التفسير المادي للتاريخ :

ولكن مثالية هيجل لا تعين الانسان على تفسير الحركة الدائمة للتاريخ . انها ترضي الفيلسوف او العقل الفلسفي الذي يفتنه منطق هيجل الدقيق ، وطريقته في الجدل ، التي تكشف من ذكاء خارق ، ودقة ذهن لا تجارى ، ولكننا عندما ننتهي من استيعاب مذهبه ونفهم ان الفكر او الفكرة او العقل المطلق او المثال هو اساس كل موجود او روحه بتعبير ادق ، وان المادة نفسها ليست الا صورة من صور وجود العقل المطلق او الفكر نجد انفسنا قد خرجنا من ميدان التاريخ تماما ، واننا عاجزون عن الاستفادة من هذا التفلسف الرفيع في فهم اى حادث كبير من حوادث التاريخ . ان الفيلسوف يجد متعة كبرى عندما يجد هيجل يقول : ان التاريخ انما هو تفتح ذلك العقل الكوني (المطلق) وانبساطه في الزمان . ولكن المؤرخ لا يدرى ماذا يفعل بهذه العبارة .

ولقد قال هيجل ان فلسفة التاريخ هي التاريخ منظورا اليه بذكاء . وبالفعل يرى القارىء لكتاب هيجل في فلسفة التاريخ انه نظر اليه بذكاء ، فالقى نظرات بالغة الصدق على حضارات العصور القديمة ، ولكنه عجز تماما عن ادراك العوامل التي ادت الى سقوط روما مثلا . وهذا هو الذي جعل رانكه ومدرسته يجهدون انفسهم في جمع الوثائق والمخلفات والمخطوطات ودراستها بعناية ، باحثين عن العوامل التي حركت تاريخ البشر شأنهم في ذلك شأن المحقق الجنائي الذي يفحص كل صغيرة وكبيرة يعثر عليها في مسرح الجريمة بحثا عن ادلة توصله الى الحقيقة ، ثم يعد ملفا كاملا للقضية ، ويضعه بين يدي القاضي . هذا الملف يصف بغاية الدقة كيف وقعت الجريمة ، ولكنه في الغالب لا يصل الى مرتكبها الحقيقي ، ويوقع القاضي بذلك في حيرة كبرى ، والقاضي هنا هو القارىء الذي يهلك في قراءة مؤلفات المؤرخين الذين اتفقوا على مذهب رانكه ، متأثرين بمثالية هيجل ، واثقلوا كتبهم بهوامش واشارات الى المراجع تزيد حجما على النص نفسه ، ولا يصل في نهاية الامر الى حقيقة الواقعة التاريخية التي يقرأ عنها .

ولكن نفرا آخر من المؤرخين اتجهوا من اول الامر اتجاها ماديا في دراسة التاريخ ، اذ انهم اعتبروا الانسان حيوانا كغيره يسعى لرزقه وحماية نفسه . وجعلوا دابهم البحث عن العوامل الداخلية التي تدفع الانسان او الجماعات البشرية الى الحركة ، وكلها في نظرهم عوامل مادية . اى انهم نظروا الى التاريخ وكأنه فرع من فروع التاريخ الطبيعي فكانت مؤلفاتهم اكثر واقعية واقرب الى حقيقة الواقع ، وهؤلاء هم الماديون الذين تركوا جانبا العامل الروحي او الديني او الفكري ونظروا الى المادي وحده ، فعرفوا باسم الواحديين Monists او اصحاب المذهب الواحد ، بخلاف المثاليين او الثنائيين الذين فسروا حركة التاريخ على انها بحث عن التوازن بين توجيه العقل المطلق الرفيع ونزعات البشر .

ولن نستطيع دراسة جميع اولئك الماديين ومذاهبهم . فذلك مطلب يطول . ثم ان الكثيرين منهم تمادوا في هذا الاتجاه الى درجة التبلل والسخف ، ولهذا فاننا سنكتفي بالظاهرين منهم ، الذين يحددون معالم الطريق الذي وصل في نهايته الى كارل ماركس وفريدريش انجلز .

نبدأ عند **سان سيمون** Saint Simon الذي يعتبر من المع رجال الفكر الثوري في فرنسا بل اوروبا كلها . عاش سان سيمون فيما بين سنتي ١٧٦٠ و ١٨٢٥ فهو من الممهدين للثورة الفرنسية وصانعي فلسفتها ، وهو يحسب في العادة بين علماء الاجتماع او الاقتصاديين . وهو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نفسه كان يقول ان ميدانه هو الفيزياء الاجتماعية la phisique sociale وكان يحسب انه يستطيع بتحليل المجتمع تحليلا فيزيائيا ان يجعل من التاريخ علما يقينيا كغيره من العلوم الطبيعية. ولكي يصل الى ذلك عكف على دراسة تاريخ اوروبا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية . واهتدى الى ان هذا التاريخ يتلخص في صراع متصل بين العاملين (من زراع وصناع) ويسميهم بالطبقة الثالثة tiers-etat والطبقتين الممتازتين اللتين تستفيدان من جهود العاملين ، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الاقطاع) وطبقة كبار رجال الدين او الاكليروس . وقد ابدى سان سيمون ذكاء بعيدا في دراسته تلك . وشرح لنا كيف ان الملوك ايدوا الطبقة الثالثة في صراعهم مع امراء الاقطاع خلال العصور الوسطى . ومن مظاهر هذا التايد تلك الحقوق التي منحوها لسكان المدن من تجار وصناع الذين كانوا يكرهون امراء الاقطاع الذين كانوا يستغلونهم ، وكانت نتيجة ذلك ظهور المدن الصناعية الغنية les bourgs وسكانها وهم البورجوازيين les bourgeois الذين تزعموا الطبقة الثالثة في نضالها مع امراء الاقطاع . ثم قادوها بعد ذلك في صراعها مع الملوك (الثورة الفرنسية وما تلاها) .

وبذلك يكون سان سيمون اول من تنبه الى ان صراع المصالح الاجتماعية ، او مصالح الطبقات الاجتماعية هو السبب الرئيسي في الحركة التاريخية ، واول من تنبه الى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير في حركة التاريخ .

وفي هذا الطريق سار احد نبهاء تلاميذ سان سيمون وهو **اوجستان تييرى** Augustin Jacques Nicolas Thierry (١٧٩٥ – ١٨٥٦) الذي يعد من المؤرخين الرومانتيكيين بسبب بلاغته وقدرته على صب روحه في قالب درامي يذكرنا بادوارد جيبون . وكان الى جانب اهتمامه بالتاريخ والاجتماع قصاصا . ويعتبر كتابه عن « الغزو النورماني لبريطانيا » من احسن ما كتب في الموضوع معتمدا على المراجع الاولى ، وقد كلفه هذا الكتاب بصره ، فما زال يضعف حتى عمي تماما سنة ١٨٣٠ ولكنه ظل نشيطا في عالم البحث التاريخي حتى توفي سنة ١٨٥٦ .

وقد عاش تييرى بعد احداث الثورة الفرنسية وتحمس لمبادئها تحمسا شديدا واستهواه نظام الكومون la comune parisienne اى الحكومة المحلية الاشتراكية التي قامت في العاصمة الفرنسية في اثناء الثورة ، وهي اول تجربة في تنظيم الحكم على اساس اشتراكي متطرف ، فاخذ يدرس تاريخ جمهور الناس او ما يسمى بالطبقة الثالثة tiers-état والف في ذلك كتابا من اربعة مجلدات سماه « مجموعة وثائق غير منشورة من تاريخ الطبقة الثالثة (١٨٥٠ – ١٨٧٠) Recueil des monuments inédits de l'histoire du Tiers-état فسر فيه التاريخ على انه صراع بين الطبقات ومصالحها ، وقال فيه ان الطبقة العاملة هي اساس الانتاج ومصدر الثورة ، وانها كانت دائما في كفاح مع الطبقات القوية المستبدة للوصول الى حقوقها ، وهاجم الفكرة القائلة بان التاريخ من صنع الابطال وعظماء الرجال وتساءل : « اتريدون ان تعلموا على وجه الصحة من الذي انشا مؤسسة ما ، او من الذي وضع خطة مشروع عظيم ؟ اذن فابحثوا عن الذين احتاجوا اليه بالفعل ، اولئك هم اصحاب فكرته الاولى وارادة العمل من اجله ، وهم اصحاب الفضل الاكبر في تحقيقه » . وعلى هذا الاساس لا يكون وليام الفاتح بطل الغزو النورماني لانجلترا وانما الابطال الحقيقيون هم الزراع النورمان الفقراء في شمال غربي فرنسا ، الذين دفعتهم حاجتهم الى الارض الى الاندفاع نحو انجلترا باحثين عن مجال حيوى فسيح . وهنا فقط تصدى وليام لقيادتهم .

وشبيه بهذا ما نقرأه عند معاصر تييري وهو **فرانسوا مينييه** François Auguste-Marie Mignet (١٧٩٦ ـ ١٨٨٤) الذى كان مؤرخا، وامين محفوظات ، وصحفيا ثوريا مناضلا . كان زميلا وصديقا **لأدلف تيير** Adolphe Thiers الذى اصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية الفرنسية. كتب مينييه كثيرا جدا ولكن تاريخه للثورة الفرنسية الذى صدر فى مجلدين سنة ١٨٢٤ يفسرها على انها صراع طبقات . صراع بين العاملين المنتجين والطبقتين المستفيدتين من ثمرات جهود العاملين ، فهو يقول مثلا من دستور سنة ١٧٩١ الذى اصدرته حكومة الثورة الفرنسية : كان هذا الدستور من صنع الطبقة الوسطى la bourgoisie التي كانت اقوى الطبقات فى ذلك الحين . اذ ان القوة السائدة ـ كما هو معروف ـ تسيطر على المؤسسات والنظم . وكان يوم ١٠ اغسطس انتفاضة جماهير الناس ضد هذه الطبقة الوسطى وضد الملكية الدستورية . كما كان يوم ١٤ يوليو انتفاضة الطبقة الوسطى ضد الطبقات المتميزة وضد الحكم الملكي المطلق » .

وهذه العبارة تهمنا هنا بصفة خاصة لأنها ترينا ان كارل ماركس لم يكن اول من تنبه الى الدور الحاسم لحرب الطبقات وصراعها على السلطان فى توجيه التاريخ .

فمن المعروف ان الثورة الفرنسية التي قامت فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ قادها رجال الطبقة الوسطى ، الذين كانوا قد اثروا وتمولوا فى عهود الملكية ، وعندما تكدست ثرواتهم شعروا بقوتهم وتطلعوا للسلطان ، فنادوا بالثورة على الملكية واستخدموا جماهير الناس فى ذلك . فلما انتصرت الثورة تربع رجال هذه الطبقة الوسطى اى البورجوازيون فى دست الحكم واصدروا دستور ١٧٩١ الذى يؤمن اموالهم وامتيازات طبقتهم . وانزلوا بجمهور الناس مظالم شتى .

وكان هذا هو الذى دفع بجماهير الناس فى باريس بالثورة على البورجوازية المتحكمة وانشاء الحكومة الاشتراكية المتطرفة la comune فى ١٠ اغسطس ١٧٩٢ والغاء دستور ١٧٩١ ومواصلة الثورة الى نهايتها .

كارل ماركس والتفسير المادى للتاريخ :

لم يكن كارل ماركس اذن اول من تنبه الى ان التاريخ لا يسيره العقل المطلق وحده ولا يصنعه عظماء الرجال بعبقرياتهم ، وانما تصنعه عملية تطور اجتماعي داخلي فى كيان كل امة ، وصراع طبقات للوصول الى الحكم والسلطان ، وان العامل الرئيسي الذى يقرر المصير فى النهاية هو الانتاج ، هو الثروة ، وان من يملك وسائل الانتاج يستمتع بثمراته ويفرض سلطانه . والذى فعله ماركس انه نص على العامل الاقتصادى الاجتماعي فى تحريك التاريخ نصا شديدا وصاغ منه نظرية متكاملة الاطراف .

وكارل هاينريخ ماركس Karl Heinrich Marx (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) الماني من اصل يهودى ، وقد تنصر والده على المذهب البروتستنتي ، ونشأ اولاده كلهم على هذا المذهب ، ولكن كارل ماركس يبدو لنا من اول الامر عريق الالحاد . درس الفلسفة والتاريخ فى جامعتي بون وبرلين ، وتأثر تأثرا عميقا بآراء فلهلم فريدريخ هيجل ، وبعد حصوله على الدكتوراة من جامعة ينا كان يستطيع اتخاذ السلك الجامعي ، ولكنه خلق مقاتلا فاتخذ الصحافة عملا ، واصبح رئيس تحرير جريدة الراين Rheinische Zeitung فى كولونيا ، ولكنه لم يكن صحفي اخبار ، بل كان صحفي رأى ، وصحافة الرأى قلما تؤتي صاحبها مالا ،

ولهذا ظل كارل ماركس حياته كلها فقيرا . بل مرت به فترات من الفقر المدقع ، وكان يعتمد دائما على المعاونات المالية التي ظل يقدمها له عمره كله صديقه وزميله **فريدريخ انجلز** Friederich Engels وهو قسيمه في معظم افكاره ومؤلفاته وكفاحه .

وقد ظهرت آراء ماركس في التفسير المادي للتاريخ في رسالة صغيرة نشرها سنة ١٨٤٧ في بروكسل بعنوان بؤس الفلسفة Misère de la philosophie ردا على رسالة بعنوان فلسفة البؤس Philosophie de la misère كتبها فيلسوف مثالي تقليدي هو **ب • ج • برودون** P. J Pnoudon الذي كان يعتبر كبير فلاسفة ذلك العصر . وفي سنة ١٨٤٨ نشر ماركس في بروكسل ايضا بالاشتراك مع صاحبه انجلز البيان الشيوعي Manifest des Kommunistischen Partei وهو دعوة صريحة للعمال في العالم كله الى الثورة وانتزاع السلطة وانشاء الدولة الاشتراكية او الشيوعية ، وتجلى بوضوح ان ماركس لم يكن فيلسوفا من اصحاب الرأي والقلم فحسب بل داعية لانقلاب سياسي اجتماعي كبير ، ودليل ذلك انه انشأ في سنة ١٨٦٨ اثناء وجوده في لندن الجمعية الدولية للعمال : International Workingmen's Association التي تعرف عادة باسم « الدولية الاولى The First International » تمييزا لها عن جمعيتي العمال الدولية الثانية والثالثة اللتين قامتا على يد لينين واتباعه فيما بعد .

وكان كارل ماركس يشرح في كتبه طريقة اخراج افكاره الى حيز التنفيذ ، اي طريقة احداث الثورة الاشتراكية او الشيوعية ، ولهذا تعتبر كل كتبه اسسا للعمل عند اتباعه ، واهمها بالنسبة لموضوعنا هنا : صراع الطبقات في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠ (نشر فيما بين سنتي ١٨٥٠ و ١٨٥٩ Klassenkaempfe in Frankreich 1848 bis 1850 و « في نقد الاقتصاد السياسي » Zur Kritik der politischen Oekonomie (١٨٥٩) ثم كتاب راس المال Das Kapital الشهير الذي ظهر جزؤه الاول سنة ١٨٦٧ ونشر الجزءان الثاني والثالث بعد موته في سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٤ وفي هذا الكتاب يقدم ماركس نظرية كاملة عن طبيعة راس المال والنظام الراسمالي ويظهر كيف انه نظام هدام يخرب نفسه بنفسه ، وسنتحدث عن هذه الآراء في الفقرة التالية .

ويجهل كثير من الناس ان **ماركس** الذي اشتهر بالدفاع عن الحرية وحرية المستضعفين بصورة خاصة كان يؤيد الامبراطورية البريطانية ويدعو الى تقويتها وتثبيت اقدامها في المستعمرات ، ويذهب انصاره الى انه كان يقول بذلك لانه كان يكره روسيا القيصرية ويرى انها الد اعداء الحرية في اوروبا ، وانه كان يرى في مساندة الامبريالية الانجليزية اضعافا لروسيا القيصرية ، وهذا غير صحيح ، والصحيح الذي يجهله الكثيرون انه كان رغم تظاهره بالالحاد يهوديا في الصميم ، وكانت انجلترا اذ ذاك موئل اليهود وسندهم الاكبر الى جانب هولندا . وذلك قبل ان ينتقل مركز الثقل اليهودي بصورة نهائية الى الولايات المتحدة . بل كان **كارل ماركس صهيونيا** وله كتاب لا يذكر الا في النادر اسمه « **الدولة اليهودية** Der Judische staat » وهو الاصل الذي استلهمه **تيودور هرتسل** عندما الف كتابه الذي يحمل نفس الاسم .

وينبغي الحذر عند الكلام على آراء ماركس ، لان الكثير مما ينسب اليه ليس له ، وانما وضعه الشيوعيون فيما بعد ونسبوه اليه . وجدير بالذكر ان امر ماركس لم يشتهر في عصره بل غطى عليه في فرنسا في ميدان التاريخ وفلسفته **برودون** الذي اشرنا اليه ، وفي المانيا **فردينان لاسال** Ferdinand Lavalle ولم يكن لاسال خصما لماركس بل شارحا لآرائه . ولم تشتهر آراء

ماركس ومؤلفاته الا على يد الثوريين الروس وخاصة لينين ، الذى وجد فى كتابات ماركس مصدرا لالهامه ، واساسا فكريا للثورة الروسية الشاملة التي كان يدعو لها . وسنحاول ان نعرض هنا اهم آراء ماركس فيما يتعلق بموضوعنا وهو التاريخ وفلسفته .

يرى ماركس ان التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية اى انها تفرض نفسها لانها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه . واذا ادرك الانسان هذه القوانين استطاع ان يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية : وهذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة ، وانما هي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج ، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين ، فان الثروة تنتج عن العمل ، والعمل يقوم به من يعملون بايديهم او بعلمهم ومواهبهم ، فلا بد ان تعود ثمرته حتما على اولئك العاملين انفسهم . فاذا استولى عليها منهم غير العاملين من اصحاب السلطة او الطبقات غير المنتجة كالاشراف ورجال الدين والوسطاء التجاريين والمضاربين ، اختل توازن المجتمع واصبح من الضرورى اعادة التوازن اليه اما عن طريق ثورة هادئة تتم شيئا فشيئا بفضل ادراك اصحاب السلطان لطبيعة الاشياء (كما فى انجلترا) او ثورة عنيفة تحطم نظام المجتمع القائم وتقيم محله نظاما جديدا . واذا لم تنجح الثورة الاولى فى الوصول الى النظام السليم الذى يشترك اعضاؤه جميعا فى الانتاج ويستمتعون معا بثمرات الانتاج . فلا ينال انسان الا بحسب عمله ولا يصيب الا حاجته دون زيادة ، فلا مفر من ثورة جديدة كما حدث فى الثورة الفرنسية الاولى ، التي جنى ثمراتها البورجوازيون من مياسير اهل الحرف والصناعات والمتاجر وهم فى راى ماركس ليسوا المنتجين الاصليين بل مجرد وسطاء ، فقامت بعد ذلك الثورات المتوالية على النظام البورجوازى : ثورة الكومون سنة ١٧٩٢ ثم ثورة ١٨٤٨ التي اسقطت الملكية الثانية : ملكية لويس فيليب وماتلاها من احداث .

وقد تولت شرح تلك النظرية الحتمية **روزا لوكسمبورج** (١٨٧٠ ـ ١٩١٩) Rosa Luxemburg وهي امراة بولندية يهودية ذات نزوع ثورى مخرب ونشاط عجيب وذهن وقاد . واليها يرجع جانب كبير من الفضل فى دفع الثورة الشيوعية الى الامام ، وهي لم تاخذ المذهب الشيوعي عن ماركس وانما عن كبار تلاميذه من الروس من امثال **ج . ف بليخانوف** G. V. Plekhanov **وباقل اكسلرود** Pavel Axelrod **وفيرا تسازوليخ** Vera Zasulich **وهم من اكابر شيوخ لينين** . وكثير من الآراء التي تنسب الى ماركس يرجع الى روزا لوكسمبورج وخاصة فى كتابها المسمى « تراكم راس المال Die Akkumulation des Kapitals » .

وقد قال بعض الماركسيين الحتميين بانه اذا كان هذا التغيير حتميا اى لا مفر منه فلماذا يتعين على العمال القيام بالثورة وتعريض انفسهم للاسراع به ، ويرد الماركسيون المحاربون Militant Marxists على ذلك بالقول بان التضحيات التي يقدمها العمال عند القيام بثورتهم اقل بكثير من خسائرهم اذا تركت العملية تتم من تلقاء نفسها ببطء . وهنا نقطة من نقط الخلاف بين الماركسيين .

ويقول ماركس ان الاحوال او الاوضاع الاقتصادية لاى جماعة هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها . فاذا اردنا ان نفهم نظام اى مجتمع ونظامه السياسي ، او حتى طبيعة عقيدته الدينية وانتاجه الفني والفكرى ، فلننظر اولا الى نظامه الاقتصادى . واساس النظام الاقتصادى هو الانتاج ونوعه واساليبه وطريقة استعمال او توزيع ثمراته . والانتاج نفسه ، سواء

اكان يدويا بدائيا او آليا متطورا لا يظل دائما على مستوى واحد واسلوب واحد . فهو يتطور دائما ، او على الاقل متطور باستمرار ، ادواته وصورته وطريقة توزيعه . وهذا التطور للانتاج اى للوضع الاقتصادى مستمر وحتمي مهما كان بطيئا ، وتطوره هذا هو الذى ينتج عنه تطور المجتمع الذى يقوم عليه . وكل نظمه institutions وقوانينه وما يقوم على ذلك كله من افكار وعقائد وآداب وفنون ، وكل ما يسميه الماركسيون المظهر الخارجي العلوى للمجتمع Super structure .

ويقول ماركس فى شرح نظريته تلك : « ان الناس فى اثناء قيامهم بانتاجهم لمعيشتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية لهم ، ولا مفر لهم من اقامتها ، لأنها مرتبطة اشد الارتباط بانتاجهم نفسه . وعلاقات الانتاج هذه تطابق درجة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية .

ومجموع علاقات الانتاج هذه يشكل صورة البناء الاقتصادى للمجتمع ، اى انه الاساس الواقعى الذى يقوم عليه الظاهر الخارجي العلوى Super structure الذى ذكرناه ، وهذا الظاهر الخارجي العلوى يشمل القوانين والنظام السياسي واشكالا معينة من الوعي الاجتماعي التي تسود فى اى مجتمع من المجتمعات . ومعنى ذلك ان الانتاج المادى لجماعة ما هو الذى يحدد صورة نظامها الاجتماعي والسياسي والفكرى بصورة عامة ، فليس وعي الناس هو الذى يحدد صورة حياتهم ومستواها الاجتماعي ، بل العكس هو الصحيح .. صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعي هما اللذان يحددان درجة وعيهم .

وعندما تبلغ الطبقة المنتجة فى الجماعة درجة من القوة فى تطورها يزداد وعي افرادها باحوالهم وحقوقهم ، ويحفزهم هذا الوعي الى الدخول فى نزاع مع الطبقة الحاكمة ، اذا كانت هذه الطبقة الحاكمة تستولي على معظم ثمرات الانتاج بمقتضى التشريعات او التقاليد التي وضعتها ، لتضمن استمرار احتكارها لهذه الثمرات ، وفى العادة تكون هذه الطبقة مالكة لأحسن الاراضي والعقارات ومنابع الثروة ومحصنة لهذه الملكية بتشريعات تمكنها من احكام قبضتها على الاراضي ومنابع الثروة والعقارات ، وحصرها فى ايدى افرادها . ولا بد فى هذه الحالة من وقوع الصراع بين قوى الانتاج وتنظيمات الملكية السائدة ، لان هذه التنظيمات انما هي فى الحقيقة قيود تكبل الطبقة المنتجة وتعرقل تطورها وتحول بينها وبين الاستفادة من ثمرات جهدها .

وهنا يبدأ عهد ثورات اجتماعية وسياسية ، لان تغير الاساس الاقتصادى يزعزع كل البناء العلوى الهائل (السوبر ستراكتشر بكل نظمه وقوانينه واخلاقياته) على درجات مختلفة من العنف والسرعة .

وعند دراسة هذه التغيرات او الانقلابات او الثورات ينبغي دائما التمييز بين اساس الموضوع ومظهره . فاما الاساس هنا فهو التغير المادى للاوضاع الاقتصادية للانتاج ، وهذا التغير المادى حقيقي يمكن تقديره بدقة علمية ، واما المظهر فهي الاشكال القانونية والاوضاع السياسية والدينية والفكرية والفلسفية ، وهذه الاشكال الظاهرية هي التي تسمى فى مجموعها بايديولوجية النظام القائم ، وهي ، كما رأيت ، نتيجة لا سببا ، وطبقة علوية خارجية Super structure وليست اساسا ، ولكننا تعودنا على ان نعتبرها الاساس ، ونعطيها اكبر جانب من الاهمية ، والسبب فى ذلك ان المفكرين والفلاسفة اهتموا بتركيز الضوء عليها لانهم هم انفسهم فى جملتها ، فهيجل مثلا وغيره من المثاليين قالوا ان الفكر هو الذى يوجه التاريخ ، لانهم هم انفسهم كانوا جزءا من النظام القائم ، وكانوا قادة الفكر فيه ، وتفكيرهم كله تأييد له ولأوضاعه ، ومن العسير

عليهم ان يتصوروا انهم فى جملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة . ورجال القانون يتصورون ان قوانينهم هي اساس سلامة المجتمع واستقراره ويفوتهم ان هذه القوانين نفسها لم توضع الا لصيانة شكل معين للمجتمع ، حتى عيوب ذلك المجتمع ونقائصه تحميها هذه القوانين ، وكل من يحاول اصلاح هذه العيوب يعتبر معتديا على نظام المجتمع . ولا بد ، حسب رايهم ، ان يقع تحت طائلة القانون . ومن هنا فمن الممكن جدا ان تكون مجموعة الافكار المتداولة بين المفكرين واهل القانون والنظام مليئة بالاخطاء ولكنهم يدافعون عنها فى أصرار ، ودفاعهم هذا لا يمكن ان نقبله على انه حقيقة لانك لا تستطيع ان تحكم على انسان بحسب ما يقوله من نفسه .

وعندما تتغير اوضاع الانتاج تغيرا بعيد المدى ، يظهر بوضوح التناقض بين الحقيقة والمظهر ، بين الأساس والبناء القائم فوقه . ومن المعروف ان هذا التناقض لا يظهر بصورة حاسمة الا اذا تحركت الطبقات المنتجة لتطالب بتغيير الاوضاع ، وهنا تظهر المشاكل الاجتماعية ، وهذه المشاكل الاجتماعية الكبيرة لا تظهر الا عندما تكون الظروف المادية كلها قد وجدت ، أو آخذة فى التكون .

ويذهب كارل ماركس الى ان اوضاع الانتاج وعلاقاته هي التي تحدد جميع العلاقات الاخرى التي تقوم بين الناس فى مجتمع ما . وخاصة اوضاع الملكية ، ملكية الارض والعقار والمال والمنقولات ، فاذا كان المنتج يحصل على اكبر جانب من ثمرة انتاجه لم تكن هناك وسيلة لتكدس الاموال فى يد البعض ، ولكن ذلك يحدث عندما تستولي طبقة الاقوياء والوسطاء على ثمرات الانتاج . وتكدس الاموال يظهر حتما فى صورة ملكيات كبيرة او صغيرة ، ففي مجتمع الصيادين ، حيث يتقاسم الصيادون لحم الفريسة التي صادوها معا ، فانه لا يبقى لرئيس القبيلة فائض من نصيبه يمكن تحويله مع الزمن الى ملكية ، اما فى المجتمعات الزراعية فان السلطة الحاكمة تعطي قطعا كبيرة او صغيرة من الارض لانصارها ، وهذه الملكية لا قيمة لها الا اذا وجد الفلاح او الزارع الذى يستطيع زراعة الارض واخراج ثمراتها . وما دام الفلاح فى حاجة الى ارض يزرعها فهو مضطر الى التفاهم مع مالك الارض على أن يسمح له بزراعتها ، وهو فى الغالب يتفاوض فرديا فيضطر الى قبول شروط المالك . وهي فى العادة لا تعطي الزارع الا الكفاف ، والباقي يتوزع بين صاحب الارض والوسطاء بينه وبين الفلاح الفرد الصغير . وشيئا فشيئا يقل نصيب الفلاح من ثمرة انتاجه ، ويزداد تبعا لذلك نصيب الآخرين ، فتزداد مساحات الملكيات ولمرانها ، وتسن القوانين ، وتوضع النظم لحماية هذه الملكيات ، ولقد صدق **جيزو** عندما قال : ان اوضاع الملكية فى اى مجتمع تشرح لنا طريقة تكوينه .

ويطبق الماركسيون هذا القول على الصناعة فيقولون ان الصانع الذى يوفق فى صناعته ، ويتمكن من جمع راس مال يمكنه من توسيع نطاق صناعته ، يفرض شروطه على العامل المفرد الذى يدخل فى خدمته . وكما ان مالك الارض الزراعية يجتهد دائما فى ان يحصل من المزارع الصغير على اكبر قدر من ثمرة عمله ، فكذلك صاحب المصنع . فنصيب العامل دائما اقل فى حين ان راس مال صاحب المصنع فى زيادة دائما ، وفى وقت ما ينعدم التوازن بين المنتج والمتمتع بثمرة الانتاج . ولا سبيل فى هذه الحالة امام العمال ، ليعيدوا هذا التوازن الى حد معقول ، الا بان يتفاهموا جماعيا مع صاحب راس المال ، وما دام عملهم هو اساس ثروته فهو مضطر الى التفاهم معهم ، وهذا هو اساس البيان او «المانيفستو الشيوعي» الذى نشره ماركس وانجلز سنة ١٨٤٨ وبداه بقوله : يا عمال العالم اتحدوا .

ومعنى هذا ان ماركس واتباعه يقولون ان الظروف المادية للمجتمعات هي التي تحرك التاريخ ، فالثورات والانقلابات السياسية سواء اكانت عنيفة سريعة ، او هادئة بسيطة ، ترجع في نهاية الامر الى اوضاع العمل والانتاج والملكية ، وسلامة هذه الاوضاع او عدم سلامتها هي التي تعين قوة النظام القائم عليها او ضعفه . وقوته تحول دون العدوان الخارجي عليه ، وضعفه يشجع الاخرين على العدوان عليه . اى ان الاوضاع المادية للمجتمعات هي في النهاية من اكبر اسباب الحروب . بعبارة مختصرة : الاوضاع المادية ، واحوال الملكية ، وصراع الطبقات ، بعضها مع بعض ، هي العوامل التي تدفع حركة التاريخ كله ، وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادى للتاريخ .

ولا يقول ماركس بان الافكار لا دور لها اطلاقا في توجيه التاريخ ، بل هو يعترف بقوتها وفاعليتها ، ولكنه ينكر انها عوامل مستقلة بنفسها . وانما هي ناتجة عن الاوضاع المادية ، وهي في رايه وسيطة بين التغير الاقتصادى والمظهر الخارجي للحوادث . وفي هذه الحدود يقول ماركس ان الافكار يمكن ان تكون ذات قوة كبيرة . ولا يقول ماركس بان الانسان لا تحركه الا الدوافع المادية الانانية ، فهو يعترف بوجود عواطف الايثار ، والحماس الديني ، والوطنية وغيرها من الخصال المثالية ، ولكنه يردها بدورها الى الاوضاع الاقتصادية واثرها المباشر او غير المباشر على العقل الانساني .

وهو يقول ان التطور التكنولوجي يؤدى بطبيعته الى انشاء مصانع اكبر فاكبر ، وان ذلك سيستلزم بالضرورة رؤوس اموال اضخم مع الزمن ، وكلما زاد حجم المنشاة الصناعية تضاءل حجم العامل بالنسبة لراس المال الضخم واصحابه ، وهذا يؤدى الى استبداد راس المال بالعمال ، ومن هنا تبدأ مشاكل الصراع بين العمال واصحاب رؤوس الاموال ، وهو صراع يحول بين الجماعة والاستقرار المنشود ، ويعرض مصالح العمال للخطر ، ولا حل في هذه الحالة الا ان تضع الجماعة يدها على مصادر الانتاج وادارتها جماعيا ليعود خيرها كله على الجميع .

وقد لاحظ معظم نقاد التاريخ والاقتصاد ان هناك نقطة ضعف كبيرة في تلك النظرية وهي غموض مفهوم « التغير الاقتصادى The economic change التي جعلها ماركس اساسا لكل فلسفته التاريخية الاجتماعية ، وجدير بالذكر انه لم يقدم في اى كتاب من كتبه عرضا واضحا متكاملا لتفسيره المادى للتاريخ ، انما جاء هذا العرض مفرقا ومتناثرا في مؤلفاته الكثيرة . وقد اجتهد انجلز وماركس معا في لم اطراف هذه النظرية في رسالة كتباها في الرد على ناقد لورأيهما يسمى **اويجن دورنج** Herr Eugen Dührings revolution in science ولكن حتى هنا لا نجد ذلك العرض المتكامل الذى يتحدث عنه الماركسيون في حماسهم للتفسير المادى للتاريخ .

والحق اننا لا نستطيع الفصل بين الانتاج والفكر في مجتمع معا ، ولا يمكن ان نقول ان صورة الانتاج هي التي تعطي الصورة الظاهرة لنظام المجتمع وفكره وذوقه ، او ما يسميه الماركسيون بالظاهر الخارجي super structure لان الانتاج نفسه يخضع في جانب كبير منه لهذا الظاهر الخارجي . واكثر من نصف الانتاج في اى مجتمع معاصر يوجه لارضاء مطالب نفسية واجتماعية وذوقية وفنية للمجتمع . فان الانتاج لا يقتصر على الزراعة وصناعة الضروريات ؛ بل يشمل ايضا الاقمشة الغالية الفاخرة ، والسيارات الفارهة ، والاثاث النفيس ، والعطور الغالية ، وادوات التجميل ، وملابس السيدات ، والخمور والسجائر ، وغير ذلك مما يدخل ضمن الكماليات ، ولكنه يصنع خاصة لارضاء مزاج وذوق اهل الطبقة الظاهرة الخارجية اى السوبر ـ ستراكشر ، وهنا يتجلى لنا كيف ان هذا الظاهر الخارجي للمجتمع هو نفسه يعتبر من اسس الانتاج .

ولكن ، لا شك ان تطور الانتاج عامل حاسم في تطور الجماعات وسير تاريخها ، وحتى لو سلمنا انه في اساسه يعتمد على القدرة البدنية والتقدم التكنولوجي ، فلا بد ان نسلم بانه مستمر ولا يمكن ايقافه . صحيح انه في كثير من الاحيان تقف النظم والقوانين والمصلحة المتشابكة لأهل نظام معين سائد في وجه هذا التطور ، ولكن مع تقدم العلم والتكنولوجيا يصبح الانتاج المادي قوة لا تقهر ، وهنا نضع يدنا على الجانب الصحيح من النظرية الماركسية ، وفي ايامنا هذه نلاحظ ان تطور الانتاج ومستواه وكميته وتنوعه هو العامل الحاسم في سير مجتمعنا الحاضر .

ان التفسير الاقتصادي للتاريخ لا ينطبق بصورة ملموسة الا على عصرنا هذا الذي تقدمت فيه العلوم والتكنولوجيا الى درجة جعلت الاقتصاد (واساسه الانتاج) الشغل الشاغل للمجتمع كله ، ولكن لا يمكن القول مثلا بأن ذلك العامل كان العامل الحاسم في توجيه التاريخ في العصور الوسطى ، لأن رجال الدين والمفكرين والملوك كانوا هم الذين يحركون التاريخ في تلك العصور ، ثم أن الذين خرجوا بالغرب من ركود العصور الوسطى ، وفتحوا له آفاق النهضة والاكتشافات والتقدم الفكري والعلمي . كانوا المفكرين واصحاب الآراء والنظريات ، لا العمال او الزراع . وهنا يبدو لنا جانب ضعيف من جوانب التفسير المادي للتاريخ . ولكننا ينبغي ان نسلم بأن تمسك الماركسيين بأهمية الانتاج افاد الطبقات العاملة ، ورفع مستواها ، وفتح لها أبواب المشاركة في الحكم ، وهذه خطوة الى الامام لا شك فيها . وهي الجانب الايجابي الذي لا ينازع فيه في آراء الماركسيين .

ولا بد مع ذلك ان نلاحظ انه لا علاقة بهذه الآراء الماركسية التي تسمى في مجموعها احيانا بالمادية التاريخية Historical materialism لا علاقة لها بما يسمى في الفلسفة بالمادية الفلسفية Phiosophical materialism .

ويتجه الماركسيون في اثبات صحة نظرياتهم تلك الى استخدام طراز خاص من الجدل يسمى بالجدلية المادية Material dialectic وهو جدل يعتمد في طريقته على الاسلوب المنطقي المحكم الذي وضعه هيجل والمثاليون ، ولكنهم يستخدمونه لتحقيق اهدافهم الخاصة ، ويقول هذا الجدل الماركسي ان كل التقدم التاريخي يتم عن طريق صراعات شاملة بين اسس قديمة للتنظيم الاجتماعي . وهم يرون ان الصراع ينبغي ان يكون شاملا وعنيفا ، وان الاصلاحات الجزئية للنظم العتيقة تعوق عملية التحول التاريخي واحيانا تجهضها . وكذلك يرون ان التطور التدريجي لا يمكن ان يؤدي الى نتيجة حاسمة ، وان الاصلاحات لا تكون لها فائدة الا اذا اقحمت في بدن النظام القديم على نحو يسرع بموته . وحيث ان الماركسيين لا يوافقون على الاصلاحات التدريجية التي لا تقضي على النظام القديم بل تكتفي بتحويره او تعديله فان الطريق الوحيد للتغيير الشامل عندهم هي الثورة وهم يقولون ان الآلام والتضحيات التي تسببها الثورات هي الثمن الذي لا بد من ادائه في مقابل الوصول الى اى تقدم . ومن الغريب ان يصر الماركسيون على ذلك مع علمهم بأن بلادا كثيرة تم فيها التغيير الشامل ، والانتقال من القديم الى الجديد عن طريق عملية اصلاح تدريجية طويلة المدى ، واكبر مثال لذلك انجلترا واليابان .

ومن تفاصيل النظرية الماركسية التي لازالت موضع الجدل بين مفكرى الماركسية انفسهم هو قولهم بانه لا توجد مصالح مشتركة بين الطبقات المتصارعة ، ويرى ماركس ان كل مذهب من مذاهب التنظيم الاجتماعي تمثله طبقة معينة ، فالنظام الاقطاعي يمثله الاشراف ، والنظام الراسمالي يمثله المقاولون او اصحاب الاعمال entropreneurs والنظام الاشتراكي يمثله العمال ، ولا توجد مصلحة مشتركة بين هذه الطبقات ، ومن ثم فهي لا تستطيع ان تتعايش ، والصراع بينها ينبغي ان يكون حاسم النتيجة ، فلا يتوقف حتى تموت الطبقة القديمة تماما ، وهم

يرون ان هـذا الصراع لا يمكن ان يأخذ صـورة ديموقراطية اى لا يمكن ان يعتمد على الانتخابات او الاستفتاءات ، لان هذه القواعـد الديموقراطية تنص على ضرورة احترام آراء الخصوم، والخصوم فى راى الدياالكتيكيين الماركسيين لا احترام لهم ، بل ينبغي الا يكون لهم وجـود . وهم يرون ان انتصار النظام الجديد على القديم ينبغي ان يتبعه القضاء على الخصوم بكل انواع العنف ، وفرض ما يسمى بالحكم المطلق للطبقة العاملة او دكتاتورية البروليتاريا dictatorship of the Proletariat ويستمر هذا طـوال فتـرة الانتقـال من النظام الراسمالي الى الشيوعي .

وواضح ان هذا المنطق مليء بالمتناقضات ، لان فرض دكتاتورية طبقة من الطبقات على غيرها ، والقضاء على الخصـوم بالعنف لا يتفقان مع ماينادى به الماركسيون من عدالة فى الحقوق ، ثم انه ثبت بالفعل ان الراسمالية يمكن ان تتعايش مع الشيوعية كما هـو الحال فى الوفاق الحالي بين السوفيات والامريكيين ، وفى يوغوسلافيا اليوم صبغة من الشيوعية تسمح بالتعايش مع الراسمالية وهذه بعض صور ما يسمى بالماركسـية الجديدة Neo-marxism التـي ينتهجها الـروس بعـد **ستالين** ، وينكرها **ماو ــ تسـي ــ تونج** واتباعه ممن يرون انهم يسيرون على خط **ماركس ــ انجلز** بكل امانة .

وواضح من العرض السريع الذى قمنا به ان الماركسـية سواء كمذهب فى تفسير التاريخ ، او فى تغيير قواعد علم الاقتصاد مليئة بالمتناقضـات ووجـوه الضـعف ، ولكنها على اى حال حققت بصفتها فلسـفة اجتماعيـة نجاحا لم تحققه اى فلسفة اخرى مماثلة ، ولقيت من كثير من الناس وشعوب الارض اقبالا فاق كل تصور ، واصبحت نظام الحكم والعمل الوحيد فيها ، ويرجع ذلك لانها اظهرت الى الوجـود الاهمية الكاملة للعمل والعمال ، حتى فى البلاد غير الشيوعية قفز العمال الى الصدارة وشـاركوا فى الحكـم وانتقلـوا من اجراء الى اصحاب راى وقوة واثر سياسي فعال يتمثل فى احـزاب قـوية يسـارية او تميـل الى اليسار ، ونقابات ذات قوة سياسـية حقيقية . ومن الواضح انه لولا الالحاد ، والاصرار على انكار الاديان ومحاربتها ، لكان للماركسـية نجاح اكبر ، ولكن ذلك الالحاد جزء لا يتجزأ من الاراء الماركسية نفسها . فهي ترى فى الدين اساسا من اسـس النظام القديم الذى يجب القضاء عليه . ومع ذلك فقد ادت مبادىء الماركسـية الى تغير حاسم فى الاوضاع الاجتماعية والفكـرية للطبقة العاملة ، فتطلعت آمال نبهاء العمال الى ان يستزيدوا من العلم ويدخلوا ضمن التكنولوجيين ، وهذا بدوره رفع المستوى الفكرى للعمال فى الدنيا كلها ، وادى ذلك بطبيعة الحال الى ارتفاع المستوى الاجتماعي للامة كلها .

وجدير بالملاحظة ان معظم الفضل فى النجاح الذى حققته الماركسية يرجع الى اعتناق الثوار الروس اياها ، وخاصـــة **فلاديمير اوليانوف المعروف باسم لينين** ، فهذا الرجـل هـو الذى تمكن من ان يحول آراء ماركس الى ثورة دموية وحولت امبراطورية من اضخم دول الارض الى دولة شيوعية ومركزا لنشر الشيوعية فى العالم ، ولولا لينين لما كان لماركس هذا الاثر كله فى التاريخ .

التاريخ الشامل واهم شيوخ مؤرخي عصرنا

انتقل علم التاريخ اذن خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى اوروبا من فرع ثانوى من فروع المعرفة يمارسه بعض الناس على انه هواية او وسيلة للتقرب من الله برواية اخبار الصالحين او للتزلف الى الملوك بكتابة تراجمهم الى علم مقرر الاصول والمناهج ، تخصص له الكراسي والاقسام فى الجامعات ، ويقوم بالعمل فى ميدانه مؤرخون اجلاء ، ويدرسه طلاب كثيرون على انه عماد من

عند المعرفة الانسانية ، ونشأت من ذلك العلم التاريخي علوم اخرى مساندة له أو مساعدة كالآثار ، وعلم النقوش او الديبجرافية، والخطوط والكتابات القديمة او الباليوجرافية ، وعلم الوثائق والمحفوظات ، وما الى ذلك مما انشئت له المعاهد والمراكز والمجلات فى كل بلد من البلاد. بل كان علم التاريخ سببا فى اكبر حركة سياسية واجتماعية بعد الثورة الفرنسية وهي الثورة الماركسية ، وما كان لها من اصداء بعيدة فى كل ناحية من نواحي الحياة فى عالمنا المعاصر .

وعلى اثر ذلك اخذ نفر من اساتذة المادة يتساءلون عما اذا كان لا بد أن يوجد لعلم التاريخ منهجية methodology خاصة به الى جانب ما لابد للمؤرخ من التمسك به من مناهج الدقة والاستيفاء والبحث والتحليل التي تشترك فيها العلوم جميعا . هنا لا بد من الوقوف قليلا عند كتاب من احسن ما كتب فى ذلك الموضوع فى نهاية القرن الماضي (سنة ١٨٩٨) وهو الذى كتبه المؤرخان الفرنسيان **لانجلو وزينبوس** عن علم التاريخ ومنهجه :

C. V. Langlois et Charles Seignobos : **Introduction à l'étude de l'histoire**

فى هذا الكتاب وفق العالمان الفرنسيان اكثر من غيرهما الى رسم ما يمكن أن يسمى بدستور المؤرخ ، وقالا ان التاريخ ربما كان احوج فروع العلم الى الالتزام التام بالامانة ودقة المنهج ، لان التاريخ كما يبدو ميدان سهل للبحث والتاليف ولكنه فى الحقيقة من اصعبها . لان البحث التاريخي ينبغي ان يكون اصيلا وصادقا وقائما على حقائق ، وفى كثير من الاحيان يصعب ذلك لاسباب نفسية او عاطفية او عقائدية وربما شخصية ، ولهذا فلا بد من ان يتكون المؤرخ تكوينا منهجيا دقيقا حتى يخرج شيئا له قيمة . وقالا ان الجانب الاكبر ممن يتناولون التاليف فى التاريخ لا يعرفون لماذا يتخذون التاريخ عملا ، وربما كان السبب فى ذلك انهم كانوا اقوياء فى مادة التاريخ فى المدرسة الثانوية او يحسبون ان التاريخ ميدان سهل نسبيا . وربما كان دافع الانسان الى العمل فى التاريخ نزعة عاطفية رومانتيكية كما كان الحال مع اوجستان تيرى .

وقال لانجلوا وزينوبوس ان التغير الحاسم فى تاريخ العلم التاريخي تم حوالي سنة ١٨٥٠ عندما استقل التاريخ بنفسه ولم يعد فرعا من الادب ، وهما يريان ان المؤرخ لا ينبغي ان ينفق الوقت فى بحث المسائل الصغيرة لمجرد تكديس المعلومات وقالا : « انه ليس من هدف التاليف فى التاريخ جلب المتعة الى القارىء او استخراج قواعد عملية للسلوك او اثارة المشاعر ، وانما الهدف الحقيقي هو المعرفة الخالصة البسيطة (la connaissance pure et simple) للموضوع الذى يدرس .

وفى نهاية القرن التاسع حفلت اوروبا بنفر من اعاظم المؤرخين الذين افادوا من صراع سابقيهم فى وضع التاريخ فى مكانه بين العلوم ووضعوا مناهجه ، ومن اكابر هؤلاء **تيودور مومسن** Theodor Mommsen (١٨١٧ ـ ١٩٠٣) الذى وضع اساسا متينا للدراسات الرومانية بفضل معرفته الوثيقة باللغات القديمة ، وتمكنه من منهج العمل التاريخي ، وتضلعه فى قراءة النصوص القديمة واستخدام ادوات التاريخ جميعا ، وهو من المؤرخين القلائل الذين حصلوا على جائزة نوبل .

وفى انجلترا كثر المؤرخون الذين ساروا على نهج **رانكه** ومدرسته من امثال **وليام ستابز** William Stubbs صاحب الكتاب المشهور عن تاريخ الدستور الانجليزى و **ج.ب.بيورى** J. B. Bury الذى الف واجاد فى كل عصر من عصور التاريخ ، وله كلمة ماثورة فى فضائل علم التاريخ القاها عندما خلف **اللورد اكتون** فى استاذية علم التاريخ فى كيمبردج ، قال : « واذا

كان علم التاريخ يصبح عاما بعد عام واكثر فاكثر قوة عظيمة تعمل على نزع غشاوات الخطأ ، وتعين على تكوين الرأى العام ، وعلى السير الى الامام بقضية الحرية الفكرية والسياسية ، فان ذلك العلم سيعمل جاهدا على تكوين طلابه على تحويمكتهم من القيام بذلك الواجب لا للانتفاع به في سدّ مطالب الاسبوع التالي او العام القادم اوحتى القرن الذى سيجيء ، ولكن لكي يذكروا دائما ان التاريخ ، وان كان يقدم مادة للتاريخ الادبي او التامل الفلسفي ، الا انه علم قائم بذاته لا اكثر ولا اقل ، وينبغي الحذر من تطويع ذلك المثل الاعلى لحاجات اللحظة ، ولا يجوز كذلك تحديد مجال ذلك العلم وآفاقه » .

وقد تغيرت نظرة بيورى مرارا فيما بعد ،وذلك يصدق على الكثيرين من كبار **المؤرخين** ولكنهم جميعا متفقون على ان مواصلة العمل العلمي في ذلك المجال للكشف عن الحقائق وعرضها عرضا امينا سيؤدى حتما الى اعطائنا صورة امينة للماضي . وفى اثناء ذلك حرص **المؤرخون** على ان يفيدوا من كل المذاهب والنظريات التي جدت في ميادين العلم الاخرى من آراء نيوتون في الطبيعة الى نظرية اينشتاين في النسبية ، **لان هذا كله يوسع افق المؤرخ ويزيد فهمه لما يقرأ** ، ورجل مثل بيورى هذا كان واسع العلم والافق يتكلم بثقة في كل موضوع من موضوعات العلوم ، ولهذا فهو يعتبر بحق من اعمدة الفكر الانجليزى في عصره ، وقد كان يكتب الى جانب ذلك في اسلوب ادبي رفيع مما جعل له مكانا محترما في عالم الادب . ومثل ذلك يقال ، وبدرجات متفاوتة ، من **فريمان** Edward A. Freeman **وجرين** G. R. Green وسيلى Seelay في انجلترا **وجيبوتي** في ايطاليا **وجورج بانكروفت** George Bancraft (١٨٠٠ — ١٨٩١) مؤسس مدرسة **المؤرخين** الامريكيين ، وتاريخه للولايات المتحدة كان ولا يزال مدرسة يتخرج فيها **المؤرخون** هناك .

ويضارع بيورى في المكانة وفي الجمع بين صفات المؤرخ والفيلسوف والاديب **جورج ماكولي تريفليان** George Macauly Trevelian (١٨٧٦ — ١٩٦٢) الذى يعتبر كتابه عن التاريخ الاجتماعي لانجلترا نموذجا يحتذى في هذا المجال العسير من علم التاريخ ، وله مقال بديع عن طبيعة علم التاريخ وحدوده جعل لها عنوانا طريفا هو « Clio, a Muse (كليو الهة التاريخ ، الهة فن) » خلاصتها ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما دقيقا ، او واضح المنفعة كما هو الحال في العلوم الطبيعية ، ولكنه علم في حدود معينة هي الدقة والاستقصاء في جمع المادة ، والدقة كذلك في الموازنة بين الادلة وقال : « وحتى عندما يعالج المؤرخ موضوعا واضح الوقائع نسبيا كالثورة الفرنسية ، فانه من المستحيل ان يتعرف الانسان على حقيقة الحالة النفسية لخمسة وعشرين مليون انسان (هم سكان فرنسا اذ ذاك) يختلف كل منهم عن الآخر ، اختفوا جميعا في ظلام ليل التاريخ فيما عدا بضعة مئات او آلاف هم الذين نعرف كيف كانوا يحسون وماذا فعلوا . وعلى هذا فلا احد يستطيع ان يقدم عرضا كاملا شاملا للثورة الفرنسية . ولكن قراءة الدراسات التاريخية الناقصة خير من لا شيء على اى حال ، والمؤرخ الذى يستطيع ان يزن كل الادلة التي في متناول يده وزنا دقيقا ومعقولا يستطيع ان يستلفت اهتمام العقول بكلامه ويثير احدى العواطف الانسانية ويفتح الباب امام قوى التخيل والتصور .

وذهب تريفليان الى ان **توماس كارلايل** Thomas Carlyle وفق الى ذلك بكتابه عن الثورة الفرنسية ، فعرف كيف يصف ببيانه المبدع ، وقدرته على فهم طبيعة البشر ، مشاعر الجماهير الفرنسية ، وتمكن كذلك من ان يعطينا صورا حية لكثير من شخوص الثورة . وقد وفق كارلايل إلى ذلك باكثر مما استطاع اى مؤرخ محترف . جمع من الادلة اضعاف ما جمع كارلايل

ولكنه عاجز عن فهم طبيعة البشر . ولتريفليان كلمة بالغة الصراحة وان كانت ثقيلة على نفس المؤرخ ، وذلك حين يقول : « وفى الجزء الاهم من عملية التاريخ نجد ان التاريخ ليس استنتاجا علميا ، وانما هو حدس قائم على التخيل ، ومبني على اساس اقرب التعميمات الى الامكان » .

In the most important part of its business, history is not a scientific deduction, but an imaginative guess at the most likely generalisations.

وفى نفس الوقت الذى اتجه فيه الانجليز الى الاقتصاد فى تقدير التاريخ وحدوده ومكانته بين العلوم نجد ان الالمان والفرنسيين ساروا فى طريق العمل التاريخي المحكم الدقيق ، محاولين ان يثبتوا اهمية التاريخ عن طريق اخراج اعمال تبهر العقول بدقتها وذكاء اصحابها ، وقدرتهم على الاستخراج والاستنتاج ، وتصوير الماضي كما كان على صورة تحقق ما كان يرجوه **ليوبولد فون رانكه** الى حد بعيد . ففى الجانب الالماني نجد كثيرين سنقف لحظة عند واحد منهم فقط هو **فريدريش ماينكه** Friederich Meinecke (١٨٦٢ ــ ١٩٥٤) وهو من عظماء رواد التاريخ على مذهب رانكه وبوركهارت ، وقد وجه اهتمامه الى دراسة الافكار وتطورها ، وقد شغل ماينكه اعلا مراكز الاستاذية فى جامعات المانيا ، وظل اكثر من اربعين سنة (١٨٩٣ ــ ١٩٣٥) رئيسا لتحرير المجلة الالمانية التاريخية Historische Zeitschrift وهو مشهور بكتب ثلاثة تعتبر نماذج تحتذى فى دراسة الفكر السياسي وتطوره اولها : المواطنة العالمية والدولة القومية Weltbürgertum und Nationalstaat (١٩٠٨) وفيه يؤيد فكرة الدولة القائمة على الاساس القومي والعدالة وخدمة الحضارة . و « فكرة صالح الدولة » Idee der Staatsraison (١٩٢٤) وفيه يكشف النقاب عن الصراع والتناقض بين الاخلاق وسياسة القوة ويهاجم الماكيافيلية فى عنف معتمدا على حقائق التاريخ . وكتابه الثالث الكبير « قيام الحركة التاريخية Entstehung des historismus (١٩٣٦) يتتبع فيه قيام علم التاريخ الحديث ويؤيد فيه نظرية اعتماد التاريخ على افراد هم الذين يصنعون التاريخ متابعا فى ذلك رانكه وجيله .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن الفرنسيين نقف عند اثنين لا بد من ذكرهما فى حديثنا هذا عن بناة علم التاريخ الحديث ، الاول هو **ايرنست رينان** Ernest Rénan (١٨١٣ ــ ١٨٩٢) وهو علامة متبحر فى اللغات والفلسفات والتاريخ ، ومؤلفاته تجمع بين وفرة المادة وعمق الفهم وحرية فى الحكم لا تجدها الا عند القلائل ، وقارىء رينان يحس باستمرار انه يستمع الى مؤرخ حكيم يتحدث ، فكتابه المسمى مستقبل العلم l'avenir de la science الذى لم ينشر الا سنة ١٨٩٠ يتحدث عن اهمية دراسة تاريخ الاديان . على اعتبار انها علم انساني له اهمية علوم الطبيعة مثلا ، وفيه نلحظ قلة تدين رينان وضعف ثقته فى الكنيسة المسيحية ومحاولته اثبات ان المفكر الحصيف الجيد التكوين اقرب الى استكشاف حقائق الحياة والنفس البشرية من رجل الدين المحترف . وفى سنة ١٨٥٢ نشر كتابا مشهورا عندنا هو « **ابن رشد والرشدية** Avenoés et l'Auerroisme وهو دفاع مجيد عن ذلك الفيلسوف الاندلسي الجليل الذى كان مركز الدراسات الفلسفية فى جامعات اوروبا الى اواخر القرن السابع عشر وحركة الرشدية التي اثارتها فلسفته . والرشدية عند رينان ليست دراسة لآراء ابن رشد وانما هى مجموع الآراء والافكار التي دارت حول موضوع علاقة العقل بالدين . ويتجلى تفكير رينان التاريخي الفلسفي بصورة اوضح فى كتابه الاشهر « مقالات فى الاخلاق والنقد Essais de morale et de critique » (١٨٥٩) وهو مجموعة

مقالات نشرها رينان في جريدة المحاورات Journal des Débts ومجلة العالمين Revue de Deux Mondes و « العالمان » هنا هما عالم الفكر والدين . وفي هذه المقالات نجد ان رينان يرينا كيف ندرس الاديان دراسة تاريخية انسانية (٢٣) . وقد كان لرينان اثر كبير في تاريخنا الفكري الحديث ، فقد ترسم خطاه طه حسين في الكثير من كتب أيام كفاحه الاول الطويل في سبيل تحرير الفكر العربي .

والثاني **هو فوستل د. كولانج** Huma Dénis Fustel de Coulanges (١٨٣٠ ـ ١٨٨٩) الذى يعتبر مؤسس المنهج العلمي في دراسة التاريخ في فرنسا ، وهو استاذ بحق في علم التاريخ ومنهجه ، وقد وضع للمؤرخين الفرنسيين منهاجا صارما يقوم على الموضوعية البحتة والتركيز على المصادر الاساسية ودراستها في لغاتها ، واستخلاص كل ما تحويه من مادة تاريخية ، وقلة الاهتمام بالمصادر الثانوية . ثم الاكتفاء بذكر الحقائق التي تؤيدها الادلة دون غيرها . وله كتب كثيرة قائمة على هذه الاسس منها كتاب « المدينة العتيقة La Cité Antique (١٨٦٤) وقد درس فيه المدن التي كانت في نفس الوقت دولاً في العصر القديم la cité-état مثل اثينا واسبرطة وروما ، واثر الدين والتطور السياسي والاجتماعي في تاريخها . ثم ركز همه على دراسة نظم العصور الوسطى وخاصة في فرنسا ، ووضع اسس دراسة الوثائق والمخطوطات . ولا زالت كتبه قطعا من العمل التاريخي الدقيق مثل « الغزوة الجرمانية ونهاية الامبراطورية L'Invasion Germanique et la fin de l'Empire و « الملكية الفرنجية La Monarchie Franque (١٨٨٨) والولاء والملكية الزراعية في العصر الميروفنجي L'allue et le domaine rural pendant l'epoque merovingienne (١٨٨٩) وكل مؤرخي العصور الوسطى في فرنسا من امثال مارك بلوك Marc Block (٢٤) من تلاميذ ذلك الرجل .

ونختم هذا الكلام عن بعض اكابر اساتذة علم التاريخ المحدثين الذين وضعوا اصوله ، وقرروا مناهجه بكلمة عن المؤرخ البلجيكي **هنري بيرين** Henri Pirenne (١٨٦٢ ـ ١٩٣٥) ويهمنا بيرين من ناحيتين : الاولى انه عني عناية كبيرة بالناحية الاقتصادية ـ لا كعامل محرك للتاريخ كما فعل ماركس ، بل كجزء من الاطار العام للحقائق التاريخية ، فهو يدرس نظم الضرائب والاسعار والتجارة وطرقها وموادها والعملة وما الى ذلك ، والثانية انه احسن من طبّق ما يسمى **بالتاريخ الكلي** ، وهو مفهوم للتاريخ يختلف عن **التاريخ التقليدى**، وهو ان تؤرخ للناحية السياسية لعصر معين ، او تدرس تاريخ واقعة معينة اوحياة رجل بعينه ، اما التاريخ الكلي فهو ان تدرس العصر الذى تريد من كل نواحيه: سياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية وتعطي عنه صورة كاملة ، وهذا يقتضي جهدا شاقا في جمع المادة اللازمة لعمل الصورة التاريخية المطلوبة .

كنموذج لدراسة الناحية الاقتصادية للتاريخ نأخذ كتاب « تاريخ المدن في العصور الوسطى Les Villes Medièvales وهو دراسة غاية في العمق للحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ، لأن المدن ظهرت خلال القرن العاشر كمراكز اقتصادية ، صناعية وتجارية . ويشبه هذا الكتاب كتاب آخر يعد من اجمل واعمق ما الف بيرين في تاريخ العصور الوسطى وهو **محمد وشارلمان** Mohammad et Charlemagne (١٩٣٧) وهو دراسة كاملة لاثر سيادة الاسلام

---

(٢٣) F. Millepieres, La Vie d'Ernost Rénan, Sage d'Occident (1961)

(٢٤) J. Herrick, The Historical Thought of Fustel de Coulanges

على البحر الابيض المتوسط خلال القرن التاسع الميلادى على احوال اوروبا الاقتصادية والاجتماعية . ويقول بيرين ان سيادة المسلمين هذه اغلقت ابواب اتصال اوروبا بالعالم الخارجي فتم تحول المجتمع الاوروبي الى مجتمع زراعي مقفل ، ثم ان الخطر الاسلامي على غرب اوروبا (من الاندلس) كان السبب في ظهور الدولة الكارولنجية نتيجة لانتصار شارل مارتل او مارته كما يقول العرب على المسلمين في موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢/١١٤ ، ومن كلماته المأثورة : لولا محمد لما كان من الممكن ان يظهر شارلمان .

واكبر اعمال **هنري بيرين** هو تاريخه لبلجيكا Histoire de Belgique في سبعة مجلدات ، وهو ايضا نموذج من التاريخ الكلي الذي يعطي صورة شاملة للعصر او الموضوع الذي يدرس . وحيث ان بلجيكا لم تولد الا سنة ١٨٣٠ فان ما سبق الميلاد الرسمي لبلجيكا انما هو تاريخ اوروبا والاراضي المنخفضة بشكل خاص .

ومن اجلاء اساتذة مدرسة التاريخ الكلي جورج ليفيفر George Lefebore (١٨٧٤ ـ ١٩٥٩) الذي سار على المنهج الدقيق الذي يلتزم الاصول بكل دقة ، وله كلمة مأثورة هي : لا وثائق ، لا تاريخ .

واجلاء شيوخ هذا الفن فيما بين ١٨٥٠ والحرب العالمية الاولى كثيرون غير هؤلاء ، ولكننا نكتفي بمن ذكرنا ممن كان لهم الفضل الاكبر في جعل التاريخ علما مستقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقة ، واثبتوا للناس انه من اهم نواحي الدراسات الانسانية ، وابعدها اثرا في تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة .

فلاسفة التاريخ في عصرنا ، كروتشي وكولنجوود وتوينبي وشبنجلر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولنلتفت الآن لنلقي نظرة على آخر موضوعات هذه الدراسة وهي الالمام باهم مذاهب فلسفة التاريخ خلال القرن العشرين .

وصل التاريخ على ايدى من ذكرنا وغيرهم كثيرين الى مرتبة العلوم ذات الوظيفة والشخصية المستقلتين ، واستقر الراى على ان التاريخ علم بالمنهج ، اى ان موضوعه الأساسي ـ وهو الانسان ـ لا يسمح بأن تكون له قواعد وقوانين لهادفة قوانين العلوم ، ولكننا ندرسه بمناهج البحث العلمي من استقصاء للمادة ودراستها وتحليلها تحليلا دقيقا ثم استخلاص الحقائق ، وقال بعضهم ان التاريخ لا يسير على قوانين ولكنه يسير على منطق ، فلكل حادث اسبابه وتطوراته ونتائجه المنطقية ، وفي احدى دراساته قال **ج . ب بيورى** عبارته التي لقيت قبولا كبيرا : التاريخ علم ، لا اكثر ولا اقل . ولكن بيورى نفسه تبين في دراسته الاخيرة ان عبارة History is a science, no more, no less تحتاج الى تعديل . لاننا في الحقيقة لا نستطيع الوصول الى صورة الماضي كما كانت بالضبط ، وانما نراها متأثرين بعصرنا ومفهوماته ، وعلى هذا فالصورة او الحقيقة التاريخية نسبية دائما ، ومن هنا حلت عبارة « التاريخ النسبي Relative History محل التاريخ العلمي Scientific History وهذا يعود بنا الى الفكرة التي تحدثنا عنها اوائل هذا البحث من ان التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وقال **ج . ب . بلاك** J. B. Black في مقاله عن فن التاريخ The Art of History » ان رؤية التاريخ بصورة مباشرة غير ممكنة ، وهو لا يرى ـ الا بصورة غير مباشرة اى كما يتجلى في مرآة عصرنا . وفي محاضرة القاها هنرى بيرين في قاعة الجمعية

الجغرافية في القاهرة سنة ١٩٣٣ سمعناه يقول انا نرى حوادث التاريخ كما نرى ملعقة وضعناها في كوب ماء فانغمرت الى ثلاثة ارباعها ، فالغارق في الماء لا يرى الا منكسرا بحسب انكسار شعاع الضوء عند مروره في الماء. وشيئا فشيئا اصبحت النسبية التاريخية Historical Relativism هي النظرية السائدة ، وكان هذا حلا موفقا لان صورة الماضي « كما كان بالضبط » التي سعى وراءها رانكه ومدرسته كانت امرا في الحقيقة مستحيلا . وقال **تشارلس بيرد** Charles A. Beard عميد المؤرخين الامريكيين ان التاريخ العلمي انما هو حلم نبيل تبدو الحقائق فيه وكانها الحسناء النائمة في الغابة la belle au bois dormant تنتظر المؤرخ المنقذ الذي يقترب منها ونظاراته على عينيه ويضع على جبينها قبلة الحياة فتدب فيها الروح كما تقول الاسطورة . وقبل الحرب العالمية بقليل قال **كارل هاينريخ بيكر** Carl Heinrich Becker الذي كان ايضا من كبار المستشرقين — ان كل انسان مؤرخ نفسه ، اي ان كلا منا يروي التاريخ على طريقته ، واكد ذلك **كونيارز ريد** Conyers Read عندما قرر ان نسبية التاريخ The relativity of History اصبحت القاعدة السائرة .

ولم ير **بندتو كروتشي** Benedetto Croce (١٨٦٦ — ١٩٥٢) ان يسير على هذا المذهب الذي راى فيه تواضعا لا يتفق مع اهمية التاريخ في نظره . كان كروتشي مؤرخا وفيلسوفا ، وكان له نصيب في سياسة ايطاليا اذ تولى وزارة التربية سنة ١٩٢١ — ١٩٢٢ اي قبل استيلاء موسوليني والفاشيين على الحكم ، وبعد ذلك اصبح خصما مناوئا للحكم الفاشي . ولكن مناوأته لم تصل الى حد التحدي الذي ربما كان قد ادى الى العصف به ، فظل دائما محترما من جانب السلطات ، وان كان الفاشيون نهبوا داره في نابولي سنة ١٩٢٦ بعد اعلانه احتجاج اهل الفكر على استبداد الفاشيين . وفي سنة ١٩٤٣ وبعد ان تزعزع النظام الفاشي الف الحزب الحر واصبح وزيرا بغير وزارة في وزارة **بييترو بادوليو** Pietro Badoglio التي اعقبت سقوط موسوليني ، وشغل نفس المنصب في وزارة **ايفانوي بونومي** Ivanoe Bonome (١٩٤٤) واصبح عضوا في الجمعية التشريعية سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ وفي نفس السنة اسس المعهد الايطالي للدراسات التاريخية Instituto Italiano di studi storici وتوفي في داره في نابولي في ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ .

وقد كتب كروتشي كتبا تاريخية كثيرة من الطراز العلمي التقليدي ، ولكن مقالاته وآراءه كلها نجدها في مجلة « النقد » la Critica التي انشأها سنة ١٩١٣ ، وظل مديرها ورئيس تحريرها احدى واربعين سنة . وعندما تخلى عنها انشأ كراسات النقد Cuaderni della critica ونشر منها عشرين عددا ، وهو مشهور بكتابه الكبير فلسفة الروح Filosofia delle spiritu الذي قسمه الى اربعة مجلدات : الاول في علم الجمال stetica والثاني في المنطق Logica والثالث فلسفة السلوك Filosofia della condutts والرابع في نظرية التاريخ وتاريخه Teoria a storia della storiografia وهذا الجزء الاخير هو الذي يهمنا وهو الذي يجعل له مكانا بين فلاسفة التاريخ .

وكان كروتشي يرى في نفسه فيلسوفا من مستوى هيجل ، وكان الكثيرون من انصاره ينظرون اليه على هذا الاعتبار ، ولكننا عندما نقرا الجزء الخاص بالتاريخ من « فلسفة الروح » نجد انه يعوزه الوضوح وتلك الدقة الذهنية التي تميز تفكير هيجل . وفي كثير من الاحيان نفقد خيط الافكار . وانا شخصيا لم استخرج من آرائه الا ما وجدته في طبعات انجليزية لبعض جوانب فلسفته في التاريخ وكلها مقتبسة من كتاب وضعه هو نفسه ونشر فيه مختارات من كتاباته في الفلسفة والشعر والتاريخ .

والذى يريده كروتشي بالروح هو روح العصر اى لبابه وشخصيته والجو السائد فيه والافكار المسيطرة عليه والنظم والتقاليد التي تحكمه ، وهو يقول انك لا تستطيع ان تؤرخ لعصر الا اذا المت بروحه على هذا النحو الشامل ، ويقول كذلك انك لا تستطيع ان تؤرخ لرجل الا اذا المت بظروف عصره كلها وتمكنت من الاحاطة بظروفه الشخصية ايضا ، حتى اوصافه الجسمانية لا بد من معرفتها فهي في كثير من الاحيان ذات اثر بعيد في توجيه فكره وحياته ، ومعنى ذلك كله ان التاريخ في الحقيقة عملية معايشة ، معايشة العصر الذى تكتب عنه ومعايشة الرجل الذى تترجم له وادراك روح الموضوع اياكان ادراكا تاما .

وهذا الروح الذى يتحدث عنه كروتشي هو الذى يعبر عنه كبار المؤرخين في عصرنا ممن يؤرخون على مذهب «التاريخ الشامل total history التي سنتحدث عنها بجو العصر او المناخ التاريخي historical climate وهو آخر المذاهب التاريخة المعتمدة في عصرنا .

وترجع فلسفة كروتشي في بعض نواحيها الى آراء جيامبا تيستا فيكو التي اوجزناها ، وترتكز في بعض نواحيها الاخرى الى تجربته الشخصيه ونشاطه الواسع في النقد الادبي والتاريخ ، ولهذا نجده يستمد آراءه من الواقع التاريخي الذى لمسه اثناء معاناته لكتابة التاريخ ومحاولاته تفسير الاحداث . وهو يرى ان فلسفة التاريخ ينبغي أن تنبع من التاريخ نفسه اى لا بد ان تقوم على أساس الوقائع الثابتة ، فهي على هذا تفسير للوقائع لا فلسفة لها ، وكلا الوقائع وتفسيرها ينبغي ان يقوما على فهم كامل لروح الموضوع . ومع هذا التمسك بالواقع التاريخي والتشدد في القول بانه ينبغي ان يكون اساسا لأى فلسفة تاريخية ــ مما يجعل الانسان يتصور ان كروتشي يرى أن فلسفة التاريخ ما هي في الواقع الا تفسير له ــ على الرغم من ذلك نجد كروتشي يميل الى الجانب المثالي او التاملي في فلسفته للاحداث ، مما يوحي بأن هناك اضطرابا في تفكيره الفلسفي التاريخي ، وهذا صحيح الى حد بعيد .

ومن اطرف آراء كروتشي قوله بان هناك فرقا اساسيا بين المعرفة التاريخية والمعرفة العلمية . والأولى في نظره لون من الثقافة او الادراك الفكرى . وهو يقول ان الماضي في ذاته لا وجود له ، وهو يتبع في ذلك نفرا من العلماء الذين قالوا بذلك لينقضوا القول بان التاريخ علم ، فاذا لم يكن للماضي وجود فعلي فانه لا يوجد الا في ذهن المؤرخ . ومعنى ذلك ان الحوادث الماضية لا وجود لها بالفعل الا اذا فكر الانسان فيها ، في هذه اللحظة توجد وتصبح بالنسبة للمؤرخ المعني بها حوادث معاصرة ومن هنا يقول كروتشي ان التاريخ كله معاصر على هذا المعنى ، ولنضرب لذلك مثالا من تاريخنا فنقول ان ثورة الزنج التي قامت في عصر الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦ ــ ٢٧٩/٨٧٠ ــ ٨٩٢) وبعض سنوات خلافة المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩/٨٩٢ ــ ٩٠٢) كانت من اعظم الحركات الاجتماعية في تاريخ الدولة العباسية ، وكانت لها آثار سياسية واجتماعية بعيدة المدى . ولكنها انتهت وتلاشت آثارها بعد ذلك فيما دهم الدولة العباسية من تدهور واحداث جسام ، فهي على هذا حادث مضى تماما واندرج في صحائف التاريخ ولم يعد له وجود في الواقع ، فاذا فكر مؤرخ في دراسة ثورة الزنج وبحث عنها « وجدت » في ذهنه واصبحت حادثا واقعيا بالنسبة له لانه يشغل نفسه بها ويعيش فيها . وهذا الراى الذى يستوقف النظر لطرافته لا لعمقه يبدو وكانه استطراد مع القول بنسبية التاريخ . ويمكن تلخيصه على هذا الاساس بالقول بان التاريخ حي بالنسبة للمؤرخ او لأبناء العصر ، وميت بالنسبة لغيرهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان كروتشي يرى ان الفكر التاريخي اعلا واوثق من اى فكر آخر لأنه يعتمد على واقع وتجربة ومعاناة ، وان القول بنسبية التاريخ ليست مظهرا من مظاهر ضعف التفكير التاريخي ، بل تأكيد للقوة الذهنية والتخيلية . ويمكن القول بان كروتشي كان حصيفا ناقدا ومصيبا فيما كتب عن تاريخ ايطاليا ، اما كتاباته في فلسفة التاريخ فيشوبها الغموض والتناقض .

ولكن آراء كروتشي كانت ذات نفع لمعاصر له من كبار الفلاسفة والمؤرخين وهو **روبين جورج كولنجوود** Robin George Collingwood (١٨٨٩ – ١٩٤٣) وهو علامة انجليزي صافي الذهن بعيد النظر ، تخصص اول الامر في التاريخ وخلف لنا كتابا من احسن ما كتب في تاريخ انجلترا في العصور الرومانية Roman Britain (١٩٣٦) وهو جزء من تاريخ اكسفورد لانجلترا ، وشغل وظائف استاذية التاريخ في اكثر من جامعة انجليزية ، وجعل همه التقريب بين الفلسفة والتاريخ ، وقال ان الفلاسفة منذ ايام ديكارت شغلوا انفسهم بمشاكل العلم والمناهج ومعان اخرى لا يمكن تطبيقها عند دراسة الفكر او العمل ، وبعد ان رأى الدنيا تخوض غمار حربين عالميتين ايقن ان العلوم لم تساعد كثيرا في حل مشاكل البشر وان الفلسفة اذا مزجت بالتاريخ كان من الممكن ان تعين على ايجاد هذا الحل ، وقال ان دراسة الواقع التاريخي ربما اعطت الانسان نوعا من الحكمة الواقعية تمكنه من العثور على طريق قويم . وقد جمع آراءه في كتاب « فكرة التاريخ The Idea of History » الذى نشر بعد وفاته سنة ١٩٤٤ وهي رسالة مصوغة في اسلوب جميل حافلة بالآراء الصادقة ، ولكنها لا تتضمن نظاما فلسفيا متناسقا .

وقد كتب كولنجوود كتابا آخر عن فلسفة التاريخ ، وهو يحمل هذا العنوان بالفعل Philosophy of History وهو يعتبر في العادة اقل مستوى من « فكرة التاريخ » ولكنه على اى حال اوضح ، ويستطيع الانسان ان يخرج منه بشيء نافع . ويؤيد كولنجوود هنا القول بنسبية التاريخ (٢٥) ولكنه ينكر ان المؤرخ يتبع هواه في اختيار الطريق الذى يجمع به الشواهد او الادلة التاريخية على ما يريد قوله . ثم يتابع كروتشي في تفكيره ويقول انه ما دام التاريخ ابتداعا وخلقا للمؤرخ نفسه ، اى ما دام الماضي لا يبعث حيا الا اذا وجد المؤرخ الذى يهتم باعادته الى الحياة فان عودة الحياة الى الماضي لا تحدث الا اذا سأل المؤرخ سؤالا ، اى ان ثورة الزنج مثلا لا تكتسب اهمية الا اذا تساءل المؤرخ عن ماهيتها ومضى يبحث عن هذه الماهية . ونفى كولنجوود القول بان المؤرخ يتخير ما يريد بحثه من حوادث الماضي ، لأن هذه الحوادث نفسها غير موجودة ، انما هي توجد فقط عندما يريد المؤرخ ذلك . وكان الناس قبل كولنجوود يقولون ان الماضي او التاريخ كله لا وجود له الا في ذهن المؤرخ ، وعلى هذا فرأى كولنجوود هذا ليس الا صياغة جديدة لهذه الفكرة . ومن هنا نفهم كيف كان كولنجوود من المتحمسين لما قاله كروتشي من ان التاريخ كله معاصر وقال : ان التاريخ كله يروى احداثه ويشهدها عالم الحاضر لا كتاريخ بالضرورة بل كتاريخ للتاريخ . وربما اراد ان يقول بذلك ان كتاب التاريخ الراقد على رف في المكتبة لا يصبح تاريخا الا اذا تناولته وفتحته ومضيت تقرأ فيه . هنا تدب فيه الحياة وقبل ذلك كان كل ما فيه شيئا ميتا .

ومن هنا استنتج كولنجوود ان التاريخ ليس له تفسير واحد بل ان كلا منا يفهمه ويفسره على قدر ما يستطيع ذهنه ، وهذا التفسير لا يمكن ان يتحلل من شخصية المؤرخ وثقافته ، وهذا يفسر

---

(٢٥) سنتحدث عنها بتفصيل فيما بعد .

لنا كيف ان كل مؤرخ يرى في نفس الحوادث شيئا آخر ، وعلى هذا فانه لا يمكن القضاء على العنصر الشخصي The subjective element وان التاريخ الموضوعي الصرف pure objective history يكاد ان يكون لا وجود له .

وليس معنى ذلك ان كولنجوود يرى ان التاريخ كله خاضع للهوى والاحكام الفردية التعسفية . ولكنه يقول ان المسألة مسألة وجهة نظر ورأي صادر من انسان له شخصيته وتكوينه وخلقيته وقال : « فاذا كان لي مثلا رأي في يوليوس قيصر يختلف من رأي مومسن فهل معنى ذلك ان واحدا منا على خطأ ؟ الجواب لا ، لأن تفكيري التاريخي مبني على ماضيّ وتجربتي لا على ماضي مومسن وتجربته . انني ومومسن نتفق في اشياء كثيرة ، وفي احيان كثيرة نتفق في نواح من ماضينا ، ولكن حيث اننا انسانان مختلفان ، وكل منا يمثل ثقافة معينة وينحدر من اصلاب خاصة به فوراء كل منا ماض يختلف من ماضي الآخر ، وكل شيء في ماضي مومسن لا بد ان يعاني انحرافا عندما يدخل في ماضيّ » .

ويقول : « واخيرا وحيث ان الماضي نفسه لا شيء ، فان معرفة هذا الماضي ليست ــ ولا يمكن ان تكون ــ هدف المؤرخ ، انما هدفه ــ وهو هدف كل مخلوق يفكر ــ هو معرفة الحاضر ، الى هذه الغاية ينبغي ان ينتهي كل تفكير ، وحول هذه الغاية ينبغي ان يدور كل شيء . ولكن المؤرخ لا يشغله الا مظهر واحد من الحاضر ، وهو : كيف صار الى ما هو عليه . وعلى هذا الاعتبار يكون الماضي مظهرا للحاضر ووظيفة من وظائفه ، وعلى هذه الصورة ينبغي ان يظهر التاريخ في نظر المؤرخ الذي يفكر بذكاء في عمله او يحاول ان يصل الى فلسفة التاريخ » .

وقد كان الكثيرون ممن ينقدون التاريخ ومنهجه يقولون ان عمل المؤرخ يعتمد على « المقص وزجاجة الصمغ Scissors and paste » اي انه يقطع صفحات مما قال الاولون ويلصقها بعضها الى جانب بعض ويعمل منها تاريخا ، وهذا ينطبق ربما على الكثيرين من مؤرخي العصور الوسطى ، وقد انكر كولنجوود ذلك انكارا شديدا وقال ان المؤرخ الحق ليس عبدا لمراجعه وقال : « ان المقص والصمغ لم يكونا قط اساس المنهج التاريخي » فان المؤرخ الحق لا يتقيد بمراجعه الى الحد الذي يجعلها قيدا له ، بل ان للمؤرخ الحق ان يقوّم مراجعه نفسها اذا تبين له فيها الخطأ او الكذب .

وقد اورد كولنجوود هذه الآراء في تاريخ حياته An autobiography الذي نشره سنة ١٩٣٩ وهو من اجمل واذكى ما يقرؤه المؤرخ او المفكر بصفة عامة . ويصادف القارىء في هذا الكتاب الكثير من الآراء التي لا يقبلها ، ولكن المؤرخ يشعر وهو يقرؤها ان هذا المفكر الفذ يؤكد له اهمية عمله ويكشف له عن آفاق واسعة للعمل التاريخي . فقد كان كولنجوود مقتنعا تماما باهمية التاريخ ، وفي كتاباته يشعر الانسان بجلالة هذا العلم وقدره ، واذا كان الكثيرون قد نقدوه لقوله بان للمؤرخ ان يعتمد الى جانب مراجعه على ادراكه الشخصي وتصوره للاشياء حتى لو خالف تلك المراجع ، الا ان كل مؤرخ يحترم صنعته ويشعر بقدرها لا بد ان يشعر بتقدير واجلال لهذا الرجل الذي انصف التاريخ والمؤرخ معا ، واستطاع بذكائه وصدقه واخلاصه للحقيقة العلمية ان يضع التاريخ في وضع رفيع بين العلوم سواء اكانت نظرية ام عملية .

التاريخ العالمي ونظرياته

وهكذا نصل الى اشهر المؤرخين المعاصرين وابعدهم اثرا في الفكر الفلسفي التاريخي في ايامنا هذه وهو **ارنولد يوسف توينبي** Arnold J. Toynbee الذي ولد في نفس العام الذي ولد فيه

كولنجوود (١٨٨٩) واتجه بالدراسات التاريخية اتجاها اشمل واوسع مما قصد اليه كولنجوود واجتهد فى ان يتحقق مما اذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب ، ومعنى ذلك انه وجه اهتمامه الى ما يسمى احيانا **بما وراء التاريخ** Metahistory اى البحث عن القوى او العوامل او المناهج التي تسير التاريخ .

وعاد توينبي بالفكر التاريخي الى حيث تركه المفكر الفرنسي المعروف اوجوست كونت Auguste Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) الذى اجتهد فى ان يطبق على الانسانيات والتاريخ خاصة ـ نفس المناهج العلمية التي تطبق على العلوم الطبيعية ، وقد ركز كونت اهتمامه على علم الاجتماع ، وهو دون شك منشىء هذا العلم فى الغرب **قبل دوركهايم** Durckheim بزمان طويل . وهنا نجد كونت قريبا جدا فى منهجه وطريقة علاجه لما يدرسه من منهج ابن خلدون ، وربما كان من المفيد ان يعكف بعض المشتغلين بالفلسفة عندنا بعمل مقارنة بين مناهج الرجلين . على اى حال لا يعد كونت مؤرخا او مفلسفا للتاريخ ، لان ميدانه الحقيقي هو فلسفة العلوم ، ولكنه بالحاحه على البحث من قواعد وقوانين لسير التاريخ انشا ما يسمى **بالايجابية التاريخية** La positivité historique اى التزام الدقة العلمية فى كتابة التاريخ مع البحث عن المنطق الدقيق وراء كل حادث وتطور . وقد لقيت الايجابية التاريخية نجاحا كبيرا وجعلت اى مقدم على التاليف فى التاريخ يبذل غاية وسعه فى استقصاء مادته وتنقيتها وتحليلها باقصى ما يستطاع من الدقة اى بادق ما يستطاع من المنطق ، وكان يرى ان دراسة التاريخ تقدم لنا المادة التامة لفهم المجتمع . والى هذا الرجل يرجع الفضل فى انشاء كرسي التاريخ فى الكوليج دى فرانس سنة ١٨٣١ . وقد وضع الرجل منهجه فى كتابين يعتبران من اسس الفكر الحديث وهما « دروس فى الفلسفة الايجابية (١٨٢٠ ـ ١٨٤٢) ومنهج السياسة الايجابية Système de politique positiviste (١٨٥١ ـ ١٨٥٢) وهو لا يزال يكرر فى كتابيه هذين على رأيه فى ان المجتمع الانساني قابل للدراسة على الاساس العلمي .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد رأينا كيف عمل كروتشي وكولنجوود من بعده فى تحرير التاريخ من العلم الطبيعي والمؤرخين من محاولة تطبيق مناهج العلم الطبيعي على مجرى حياة البشر ، ومن فضائل كولنجوود انه نصح المؤرخين بان يكفوا من السعي وراء البحث من قوانين عامة للتاريخ ، وقال ان الاجدى هو الاجتهاد فى فهم الحوادث كما فهمها أهل عصرها ، وعرضها فى اطار الزمن الذى دارت فيه لا فى اطار عصرنا . ففي العصور الوسطى مثلا كان الملوك اذا صعدوا الى العرش كان أول همهم القيام باعمال عسكرية ضد جيرانهم لا بقصد العدوان وانما اعلاما للجيران بان الملك الجديد قوي جسور لا يصطلي بناره « كما يقولون » فيهابوه ويحترموا حدوده ، فاذا لم يفعل ذلك ظنوه ضعيفا فقاموا بالعدوان على بلاده ليعجموا عوده ، وعلى هذا فلا ينبغي ان ننظر الى كل حروب الملوك والامراء فى العصور الوسطى على انها اعمال عدوانية ، بل هي روح العصر كانت تقتضي ذلك . هكذا ينبغي ان نفهم التاريخ فى ضوء عصره وظروفه وافكاره الشائعة حتى نطمئن الى ان فهمنا للحوادث صحيح .

ولكن فكرة البحث عن قواعد وقوانين تسيِّر التاريخ العام ما زالت مع ذلك تراود ذهن المؤرخ الطموح الذى لا زال يامل فى الوصول الى سر التاريخ . ومن هذا الطراز لدينا فى العصر الحديث عدد ليس بالقليل ، ولكنهم لم يعودوا يصدرون آراء فلسفية قائمة على التامل ، ولكنهم لجاوا الى ما عرف عند الالمان باسم التحليل التاريخي او مورفولوجية التاريخ Geschichsmorphologie او تحليل الحضارات Kulturmorfologie والمراد بذلك ان ياخذ المؤرخ مجموعة من الحضارات يعتبرها نماذج ثم يحلل عناصرها ومكوناتها ويحاول ان يجد عناصر

متشابهة بينها تساعده على ان يرى ان كان هناك بالفعل ـ او لم يكن ـ نظام واحد يمكن ان يطبق عليها جميعا .

وهذا المفهوم للتاريخ العالمي يختلف عن مفهومه التقليدى الذى يقوم على رواية تاريخ البشر عصرا عصرا او امة امة كما نجد مثلا في تاريخ كيمبريدج باقسامه الثلاثة : القديم والوسيط والحديث ، ويختلف كذلك عن مفهومه الفلسفي الذى يبحث عن القوى العامة التي تحرك مسار التاريخ كما رأينا هيجل ينظر الى التاريخ او العملية التاريخية كما كان يسميها Geschichtsprozesse على انها عملية صعود منطقي الى مستويات عقلية او فكرية جدلية Dialektische Stufen تنتهي آخر الامر الى تحقيق ما تقصد اليه القوة العليا المدبرة لشئون الكون Weltgeist من توحيد العالم في كل واحد Weltganz يعيش في حرية وامان ، وكان يحسب ان الانسانية قد اقتربت من هذا الهدف الاعلى بظهور الدول الاوربية المنتظمة القائمة على القانون Rechtsstaaten وكان يرى في الدين والعلم والفن مظاهر مرتبطة بما يتحقق من الاقتراب من ذلك الهدف الاخير الذى قصد اليه العقل الكوني الاعلى ـ اى الخالق سبحانه في راى هيجل ـ وقد رأينا كيف هدم ماركس هذا البناء الفلسفي بقوله الا وجود لهذا العقل او الروح الاعلى ، وان المحرك الحقيقي للتاريخ هو الاقتصاد والانتاج ، اى انه هبط بالفلسفة التاريخية من السماء الى الارض ، وقال ان ما ذكره هيجل من دين وعلم وفن ، وظن انها لباب التاريخ واساسه ان هي الا قشرة ظاهرية لبنية التاريخ ، وقد سماها بالبناء العلوى Neberbau او Super structure كما يترجمها الانجليز يقوم اساسا على انتاج الطبقات العاملة ويعتمد على عمل الكادحين الذين هم في رايه بناة التاريخ وصناع الحضارة .

ARCHIVE

هذا التصور الجديد للتاريخ العالمي يرجع الى آراء فيكو في قيام الدول وسقوطها ومحاولة البحث عن اسباب القيام والسقوط وقد رأينا ان فيكو يحاول ان يرد القيام والسقوط الى عوامل بيولوجية اى انه فعل ما فعله ابن خلدون من تشبيه الدول والحضارات بالنباتات والحيوانات وقوله بان لها اعمارا لا بد ان تمر فيها .

ونحن نذكر ان ابن خلدون اشار في تحليله الى ان الامم في صعودها تتطلع نفوس اهلها الى عظائم الامور وتستسهل الصعاب ، وفي ايام هبوطها تسقط همم اهلها وتصعب عليهم الصغائر ، وهذه لمحة عبقرية سماها متفلسف تاريخي الماني هو **فونت** Wundt باسم نفسية الشعوب Völkerpsychologie وتحدث عنها **كارل لامبرخت** Karl Lamparecht في تاريخه للحضارات على اساس ثقافي .

وكان **لامبرخت** من اوائل من فكروا في البحث عن سر التاريخ عن طريق تحليل عدد من الحضارات والبحث عن العوامل التي سببت قيامها وهبوطها واستخراج المعاني من ذلك التحليل او ما يسمى بدلالات التحليل الحضارى Kulturmorphologische Geschichtsdeutungen

وقد يكون لامبرخت قد استوحى في ذلك آراء مؤرخ روسي يعتبر من اوائل دعاة الحركة الصقلية اى السلافية ، وهو **نيكولاى دانيليفسكي** Nikolai Davielewski (١٨١٢ ـ ١٨٨٥) وفي محاولته لتحديد الشخصية السلافية قام دانيليفسكي ببناء نظرية كاملة تقوم على اساس من مورفولوجية التاريخ . فاختار عشر حضارات راى فيها انها حضارات مبتدعة او بانية للحضارات ثم قسمها على اساس لغوى ، فجمع الحضارات الايطالية والفرنسية والاسبانية مثلا في وحدة

حضارية واحدة ، وكان هدفه من ذلك ان يبين آخر الامر ان هناك وحدة حضارية صقلبية او سلافية تتزعمها روسيا ، ولكنه كشف عن جهل عميق بما هو خارج عن النطاق الاوروبي فقرر ان هناك اجناسا ذات اثر سلبي او مخرب للحضارات .

وقد تناول هذه الفكرة وسار بها الى مدى ابعد مؤرخ الماني اصيل هو **اوزفالد شبنجلر** Oswald Spengler (١٨٨٠ - ١٩٢٣) فقد كانت نظرته اوسع وافقه اشمل فادرك من التوفيق ما ادرك لامبرخت ودانيليفسكي وقد بسط آراءه في كتابه المشهور : افول نجم الغرب Untergang des Abendlandes الذي ظهر جزؤه الاول سنة ١٩١٨ ، واثار ضجة كبرى ، اذ الكره المؤرخون المحترفون لانه هدم الكثير من آرائهم ودعاهم الى اعادة النظر فيما يتناولون من علم التاريخ . اما جمهور الناس فقد اعجبوا بكتاب شبنجلر وتهافتوا عليه لما راوا فيه من جدة وشمول ، ثم ظهر جزؤه الثاني سنة ١٩٢٢ مع نسخة معدلة من جزئه الاول .

راى شبنجلر تشابها بين قيام الحضارات ونموها ووصولها الى القوة ثم انحدارها عملية بيولوجية شبيهة بما يجرى على الكائنات الحية من تطور طبيعي عضوى naturhafte prozesse بالضبط كما قال ابن خلدون . واذا كان نظر ابن خلدون لم يتخط نطاق الحضارة الاسلامية ودولها الا فيما ندر ، فاننا لا نستطيع بسبب ذلك ان ننكر عليه فضله في انه اول من قال بهذا الراى وان كان هذا الراى في ذاته غير صحيح .

درس شبنجلر سبع حضارات وحاول ان يستكشف اسباب صعودها وسقوطها ، وكل واحدة من الحضارات التي اختارها تتميز بسيادة طراز معين من الناس ما بين رجال دين او عسكريين او فلاسفة . وحاول ان يرى كيف سارت الاموروفى كل منها ، فتبين - بحسب ما ادى اليه نظره - انها جميعا مرت بعصور النشاة والنمو والنضج ثم انحدار ، كانها كلها مرت باعمار محددة ، وكان شبنجلر بارعا في عرضه ولكن سيطرت عليه فكرة التشابه بين الدول والكائنات الحية ، وهي فكرة غير سليمة ؛ لان الدول او المجتمعات لا تشبه الكائنات الحية ، فان الكائن الحي يبدا في الموت بعد ان يصل جسمه الى درجة معينة من النمو في حين ان الشعوب او الجماعات يتجدد شبابها مع ميلاد كل جيل ، ونحن نقول مثلا ان الكائن الحي يشيخ وان الامة تشيخ ، فاما شيخوخة الكائن الحي فمفهومة واما شيخوخة الامة فكيف تكون :هل يولد اطفالها جميعا في فترة ما شيوخا ؟ الحق ان شيخوخة الامة مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن شيخوخة الكائن الحي ، وهي في الحقيقة ليست شيخوخة وانما هي ضعف وفساد وظواهر اجتماعية وسياسية تختلف كل الاختلاف عن الشيخوخة العضوية .

ونتابع شبنجلر في تحليله للحضارات التي اختارها فنقول انه ذهب الى ان الحضارات اجهزة عضوية Kulturen Sind Organismen وان كل حضارة تمر في مراحل عمر تشبه مراحل اعمار البشر المشهورة هي : Jede Kultur Läuft die Alterstufe des eingenen Menschen ولكل حضارة منها روح او لباب ، وشبنجلر لا يستعمل هنا لفظ Geist الذى استعمله هيجل ولا Spiritu الذى استعمله كروتشي ولكنه استعمل لفظ Seele وهي الروح التي في الكائن الحي . وهو يقول ان الفترة الاولى من حياة اى حضارة تشبه العصور الوسطى الاوروبية . وهي في نظره على هذا مرحلة طفولة او صبوة ، ثم تدخل في مرحلة الوعي لنفسها والتنبه الى قواها، ثم تبدا بعد ذلك مرحلة الضعف والهبوط ، واننا نستطيع ان نستشف روح كل حضارة في معاملات

الناس في نطاق اى حضارة ما في كيانها من قوة ، وما تمر فيه من مراحل العمر ، وطابعها الخاص كذلك ، وعبارته بنصها :

In den Handlungen der Menschen wird dabei Kraft, Alter und Eigenart jeder Kulturseele sichtbar

وقد اتينا بها لانها كانت موضع نقد شديد ، لانه ذهب في تشبيه دورة الحضارة بدورة حياة الكائن الحي الى مدى مسرف في البعد ، فان التطابق بين حياة الامم وحياة الافراد كما قلنا غير موجود الا في الظاهر فقط . وقد عدل شبنجلر من بعض آرائه تلك فيما بعد ، ولكن صلب نظريته ظل قائما . واليوم لا يأخذ احد بنظرية شبنجلر التي تتلخص في قول احد تلاميذه :

Spenglers Deutung der Weltgeschichte als Naturhaftes Prozesses des Wachstums and Verfalls.

(تصوير شبلنجر التاريخ العالمي في صورة عملية نمو وتفكك طبيعية) ، واضاف – مقتبسا من كلام اشبنجلر : ان ملاحظة سير الدورة Zyklus الحتمية وتتبع اطوارها يمكننا من الحكم على مستقبل اى حضارة وذلك بدراسة ما قطعته من اطوار دورة حياتها فنعرف ما بقي لها من العمر . وقال « ان الصورة الروحية لكل من هذه الاطوار ومدتها وسرعتها ولبابها واتاجها تمكننا من الوقوف على ما بقي لأى حضارة راهنة من سنوات القوة . وقال ان حضارة الغرب قد خلفت وراءها مرحلة الخلق الحضارى ودخلت في مرحلة التأمل والاستمتاع المادى (التى يعتبرها شبنلجر مرحلة النضج الكامل لأى حضارة فلم يبق للغرب الا مرحلة الانحدار او الافول Verfall) وقال ان اعادة الشباب الى حضارة الغرب وتجديدها مستحيل استحالة اعادة الشباب الى حيوان او انسان ادركته الشيخوخة » .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد كان غضب المؤرخين في الغرب على اشبنجلر شديدا وقاسيا بسبب هذه النبوءة السوداء ، وهاجموا كتابه ومنهجه وعلقوا اهمية كبرى على بعض الاخطاء التاريخية التى وقع فيها في دراسته الواسعة المدى فتعرض بسبب ذلك لمتاعب كثيرة ، وزادت متاعبه عندما قام النظام الهتلرى في المانيا ولم يرض الاشتراكيون الوطنيون (النازيون) عن آرائه وتوفى في ميونيخ في ٨ مايو ١٩٣٨ اسيفا وحيدا . (٢٦)

وكانت تجربة شبنجلر حافزا للكثيرين للقول بانه خير للمؤرخ ان يقتصر على عمله العلمى ، وهو دراسة ما يتولى من موضوعات التاريخ على المنهج التاريخى الصحيح ويترك جانبا موضوع البحث عن قواعد وقوانين عامة ، وهذا هو الذى رفع مقام كولنجوود الى المستوى الذى ذكرناه ، وتبين ان عكوف المؤرخ على عمله على هذه الصورة يمكنه من الخروج في الموضوع الذى يبحثه بنتائج ربما كانت اهم بالنسبة للفكر الفلسفى من المحاولات المتعثرة لتقنين مسار التاريخ .

---

(٢٦) انظر R. G. Collingwood, Oswald Spenglor and the Theory of Historical Cycles (Antiquity. بحث نشر في مجلة) 1927.

P. A. Sorokin, Social Philosophies of An Age of Crisis (1950)

M. Schröter, Metaphysik des Untergangs (1949).

عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر . القاهرة ١٩٤٧ .

وكان ارنولد توينبي في جملة هؤلاء الذين عكفوا على دراستهم التاريخية في جد بالغ . كان موضوع دراسته وتخصصه هو تاريخ الاغريق وأدبهم وعندما قامت الحرب العالمية الاولى كان يقرأ على تلاميذه في جامعة اوكسفورد درسا في الحرب البلوبونيزية ويشرح لهم كلام **توكيديد** عنها ، وهنا خطر بباله ان الحرب التي يصفها ذلك المؤرخ الاغريقي بين كتلتي بلاد اليونان اللتين تزعمتهما اثينا واسبرطة شبيهة الى حد كبير بالحرب العالمية التي اندلعت ووقفت فيها بريطانيا وحلفاؤها ضد المانيا وحليفاتها . وان التاريخ ربما كان يعيد نفسه حقا كما قال **توكيديد** ، وان **شبنجلر** لم ينفق وقته في بحثه وراء نظام للمسيرة التاريخية . **وتوينبي** من اولئك الذين لم يدخلوا ميدان التاريخ عن طريق الاحتراف بل لانه كان يحس ان تيار التاريخ يتدفق في شرايينه كما تجرى الشاعرية في كيان من خلقه الله ليكون شاعرا . وبعد اربع سنوات قضاها مدرسا في اوكسفورد (١٩١٢–١٩١٥) انتقل الى لندن استاذا للتاريخ البيزنطي ، واللغة اليونانية المعاصرة (١٩١٩ – ١٩٢٤) وهنا بدأ اتصاله بالدولة العثمانية والمسألة الشرقية عموما ، وهنا أيضا درس عليه المؤرخ المصري **محمد شفيق غربال** وارتبط معه بصداقة كان لها اثر بعيد على تفكير توينبي وشفيق غربال معا . ومن سنة ١٩٢٥ الى سنة اعتزاله (١٩٥٥) كان توينبي أستاذا للتاريخ الدولي في لندن وكذلك مديرا للدراسات في المعهد الملكي للشئون الدولية . Royal Institute for International Affairs وفي سنة ١٩٢٢ بدأ في كتابة دراسته الواسعة للتاريخ التي دلل فيها – ضمن اشياء كثيرة – على حقيقة استمرار التاريخ، وان الماضي والحاضر يربطهما بالفعل رباط حقيقي لا شك فيه . ولقد استوقف نظر توينبي وهو يتتبع اخبار الحرب العالمية ان البلغاريين كانوا يلبسون قلانس من فراء الثعالب ، وكذلك كان جنود اجزرسيس ملك الفرس في حربهم مع الاغريق ، فكأن لا شيء في الحضارة يموت موتا نهائيا .

يقول كتاب توينبي على دراسة عامة شاملة لتاريخ البشر على اعتبار ان هذا التاريخ يتكون من سلسلة من التجارب السياسية وصل كل منها الى قمته في صورة حضارة قائمة بذاتها . فالتاريخ الاسلامي بمجموعه – في نظره – تجربة واحدة خلاصتها هي الحضارة الاسلامية. فاختار توينبي من هذه الحضارات احدى وعشرين ومضى يدرس كلا منها دراسة عميقة شاملة على حدة ، فتجمعت له بذلك ثروة من العلم التاريخي ربما لم تتوفر لمؤرخ آخر قبله ، وهذه الثروة هي التي تبهر قارىء كتابه وتجعله يتغاضى عن بعض الاخطاء في التفاصيل .

وتبين توينبي ان تاريخ كل امة من الامم التي اختارها موضوعا لدراسته انما هو استجابة لتحدى الظروف التي وجدت فيها . ويرى توينبي ان اى مخلوق حى يجد نفسه بمجرد خلقه امام عوامل تعمل على فنائه والقضاء عليه ، فما من حيوان الا وله اعداؤه علاوة على ظروف المناخ والغذاء وهى ليست دائما مؤاتية . ومن هنا فان الحياة في ذاتها تحد للكائن الحى ومواجهته لظروفه ومحاولته التغلب عليها والاستمرار في عالم الاحياء هى استجابة لذلك التحدى . من هنا تنبه توينبي الى حقيقة التحدى والاستجابة Challenge and Response التي تعتبر مفتاح نظرته العامة للتاريخ .

وعند دراسة توينبي للحضارات التي اختارها تبين ان المجموعات البشرية تقودها دائما جماعات من القادة او اصحاب الراى وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة في استجابتها للتحدى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم . فاذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التى تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التى تواجهها والسير الى الامام كانت هذه الجماعة موفقة ، وسار تاريخ الجماعة الى الامام ، لان الاستجابة كانت ابتكارية او ابتداعية Creative Response ولا تزال الامة فى صعود وتقدم مادام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية . فاذا عجزوا عن ذلك أخذ سير الجماعة كلها يتلكا ويتراخى وربما توقف . وبينما كان اشبنجلر ـ مثل ابن خلدون ـ يرى ان الاستجابة الابتداعية تصل الى ذروتها ثم تتوقف، اى ان موت الحضارات لا مفر منه يرى توينبي انه من الممكن ان تستمر الحضارة فى الاستجابة الابتداعية ولا تموت بذلك . ويضع توينبي فى دراسته العوامل الفكرية والروحية فى المقدمة خلافا لما كان يفعله ماركس من تقديم النواحي والعوامل المادية على غيرها .

وقد اخذ توينبي عن المفكر الامريكي **ف.ج.تيجارت** F. J. Tegart فكرة انتفع بها فيما بعد فى دراسته . وهي انه لكي نفهم تاريخ حضارة ما علينا اولا ان نقرا عنها فى توسع حتى نهتدى الى روحها ولبابها . وهذا هو مفتاح فهمها ، فاذا كان فى يدنا هذا المفتاح عدنا نقرأ تاريخ هذه الامة وتجربتها السياسية والحضارية فنجد انفسنا قادرين على ادراك حقائق هذا التاريخ ومعرفة مواضع قوته وضعفه ، وافاد توينبي كذلك من دراسة علم النفس على مذهب **يونج** Jurg احد تلاميذ فرويد ، ويونج ممن افاد من درس موضوع نفسية الجماعات وهي تختلف كما هو معروف من نفسية الافراد .

وجد توينبي أن كل الحضارات التي يدرسها مرت باطوار متشابهة فى النمو واستمرار التقدم وزيادة القوة ، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعب الداخلية والخارجية يليها تصدع العناصر التي قامت عليها قوة هذه الحضارة وربما انتهى الامر بتفككها او تصدعها ، ويعقب ذلك تحولها الى دولة عالمية Universal State اى ان عناصر قوتها تتفرق فى الشعوب التي كانت تتكون منها كما حدث مثلا بالنسبة لدولة الرومان ، فقد قامت على العنصر اللاتيني الروماني الذى كان يكوِّن الاقلية القائدة التي قادت الرومان فى تاريخهم الاول بما لديها من قوة الخلق والابتداع، وتمكنت من انشاء الامبراطورية وسيادتها ، ثم مرت فى حقبة الاضطراب الداخلي وحروب **ماريوس وسلا** وصراع الاخوين **جراكوس** فى سبيل الاصلاح الداخلي ، ثم حروب قيصر واوكتافيوس وقيام الامبراطورية ، وهنا تصل الدولة الرومانية الى قمة قوتها وتأخذ وحدتها فى التصدع ثم التفكك ، وتنتقل حضارتها وعناصر قوتها الى الشعوب التي كانت تحكمها ، اى انها تحولت الى دولة عالمية . ومن السهل على المؤرخ العربي ان يتتبع سير هذه العملية فى تاريخنا العربي الاسلامي نفسه .

ويقول توينبي ان النموذج العادى للتفكك الاجتماعي فى حضارة من الحضارات يأخذ صورة انشقاق فى صفوف الجماعة وظهور الطبقة العاملة الى الميدان وتحديها للقوة الحاكمة . ويقترن ذلك بعجز هذه الطبقة عن الثبات لذلك التحدى بسبب التصدع فى بنيانها وعجزها عن الاستجابة ابداعيا للتحدى ، وشيئا فشيئا تفقد القيادة سيادتها وتميل الامور الى الفوضى ، وقد يتم ذلك على مراحل تحاول القوة الحاكمة فى كل منها استعادة سلطانها لم تفقده ، وفى آخر الامر ـ

وكحل وسط للمشكلة ـ تترك جانبا من السلطان للطبقات او الجماعات الاخرى فى الدولة اى انها تتحول تحت ضغط الظروف الى دولة عالمية او عامة كما ذكرنا ، وهنا نجد الطبقة العاملة او البروليتاريا التي احدثت هذا التغيير الشامل تجعل من مبادئها التي نادت بها اثناء تحديها للسلطة الحاكمة عقائد ثابتة وتنشيء ما يمكن ان يسمى بهيئة او قوة عقائدية عامة Universal Church وهذه العقائد العامة هي التي تبقى بعد تفكك الدولة وزوالها وتصبح نواة لبناء دولة او قوة جديدة .

وقد كتب توينبي المجلدات الست الاولى من تاريخه قبل الحرب العالمية الثانية فى ظروف سادت اوروبا فيها موجات من التفكك والضعف واليأس ، ولكن الحرب العالمية الثانية جددت الى حد ما نشاط الحضارة الغربية ، فلما عاد يستتم كتابه بعد نصر الحلفاء كتب المجلدات الاربعة الباقية بروح من التفاؤل تختلف عن روح الاجزاء الاولى وقال : « اذا كانت هناك مركبة تسير الى الامام فى طريق رسمه لها قائدها فلا بد انها تسير محمولة على عجلات تدور وتدور فى حركة منتظمة راقية . فاذا تصورنا ان حضارة البشر هي هذه المركبة وان عجلاتها تضعف وتتهشم اثناء السير الطويل لتحل محلها عجلات اخرى تبينا ان هذا التعاقب فى تغيير العجلات واستمرار سير الحضارة يدل على ان اتصال هذا المسير مقدر فى ذاته ولا بد ان يكون هناك نتيجة لهذا تقدير الهي اعلى يتسيّر هذه العملية ويجعل من فشل حضارة من الحضارات منصر قوة وبناء لحضارة تليها .

ARCHIVE

ومعنى ذلك ان توينبي لا يرى ضيرا او شرا فى اضمحلال الحضارات لان تجاربها لا تذهب سدى بل تنتقل الى غيرها ، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة او عنصرا من عناصر قوتها . ومن هنا فهو يقول ان التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماما ، وانما الذى يحصل فى الغالب ان الحضارة بعد ان تتم دورتها على يد امة من الامم تذبل وتجمد او تتحجر Petrifies ثم تتفكك وتنتقل عناصرها الى امة او امم جديدة لتقوم حضارة او حضارات جديدة . وقد كان توينبي يكتب هذا التاريخ فى نفس الوقت الذى كان يشرف فيه على تحرير دورية سنوية كان يصدرها المعهد الملكي للشئون الدولية تسمى « عرض للشئون الدولية Survey of International Affairs اى انه كان يتابع سير التاريخ الحاضر فى نفس الوقت الذى كان يقلب فيه دفاتر الماضي ، مما اعطى دراسته للماضي نفسه طابعا من الحاضر بث فيه حيوية وقوة وواقعية . وتوينبي نفسه قال انه ما كان يمكنه ان يقوم بأى من العملين على شكل ناجح او لم يكن يقوم بالآخر فى نفس الوقت. لان تتبع سير التاريخ الحاضر وفهمه لا يتمان الا اذا اخذ الانسان فى اعتباره سير الحوادث فى الماضي ايضا . واى مؤرخ ناجح لا بد ان يكون متتبعا لاحداث عصره فى نفس الوقت الذى يدرس فيه ما مضى من الاحداث لان مادة التاريخ واحدة ، وهي الانسان ، ولبابه واحد وهو الحضارة . **فلا بد لمن يدرس حمورابي او اخناتون ان يكون متتبعا لرجال عصره مثل غاندى ولينين واتاتورك وفرانكلين وبلانو روزفلت .**

وتلك هي الميزة الكبرى لنظرة توينبي للتاريخ . فهو يدرسه على انه كل واحد او تجربة واحدة تمت على مراحل او دورات ، واذا كان كل من سبقوه من مفلسفي التاريخ فى الغرب قد

ركزوا على تاريخ الغرب بادئين بالمصريين القدماء فالاغريق فالرومان ومنتهين بالثورة الفرنسية والقرن التاسع عشر ، فجاءت دراستهم ناقصة لانها قامت على فهم ناقص للتجربة الانسانية العامة . فان توينبي ادخل فى اعتباره تجارب امم الشرق جميعا وانفق جهدا ضخما فى فهمها وتقديرها ، بل ادخل فى اعتباره التجارب الحضارية للهنود الحمر قبل الكشف الكولومبي . ومن هنا كانت دراسته انسانية عامة وان سيطر عليها شعوره المسيحي البروتستانتي ، واذا كان بعض النقاد قد قالوا عنه انه يتكلم احيانا كواعظ مسيحي فان من الحق ان يقال انه فى معظم تاريخه يصدر عن احساس انساني عام قائم على الايمان بوحدة الانسانية وتجربتها الحضارية .

وتوينبي لا يعد نفسه فيلسوفا او مفلسفا للتاريخ ويكتفي بالقول بانه مؤرخ ، اما كبار مؤرخي العصر من امثال **يوهان هويتسنجا** Johan Huizinga فينكرون عليه هذه الصفة ، ويكتفون بالقول بانه شاعر ويصفون انه ادخل على التاريخ عنصرا شاعريا انسانيا ولكنه لم يكتب تاريخا حقيقيا منهجيا كما يرون . وارنولد توينبي لا يغضب من هذا الموقف ويقول ان هدفه من كتابه « دراسة التاريخ » كان تعريف الامم بعضها ببعض واطلاع كل منها على التجربة السياسية والحضارية للاخريات ، وهذه المعرفة من شأنها ان تقلل من كراهة الامم بعضها لبعض ، وتخفف من خوفها وتفتح بابا من ابواب التفاهم الانساني ، وهذا فيما نعتقد يكفيه .

ونلاحظ ان معظم نقاد توينبي ومنكري فضله هم من اليهود او ممن يميلون الى الاخذ بدعاياتهم . ولقد اجتهد اليهود خلال نصف القرن الاخير فى تضخيم قدر ما يسمى بدولتهم فى جزء من فلسطين لكي يجعلوا من ذلك سندا لدعواهم المريضة فى القول بانهم اساتذة الانسانية . فجاء توينبي وقاس الابعاد السياسية والحضارية لتلك الدولة ووضعها فى وضعها الصحيح . وفى كلامه من العقيدة اليهودية بيّن زيف الدعوى التي روجها اليهود التي تقول ان مفكريهم هم اصل الاديان السماوية وان النصرانية والاسلام تحريفات لها . فكشف توينبي زيف ذلك كله ، واثبت دون تحامل او قصد معين ان هذه كلها مزاعم من صنعة اللاهوتيين والسياسيين اليهود فى العصر الحديث ، واعطى المسيحية حقها ، وتكلم عن الاسلام عن فهم او محاولة صادقة للفهم على الاقل . فكان هذا كافيا لاثارة حملة اولئك عليه : وهي حملة سياسية فى حقيقتها ولا قيمة علمية لها .

فى كتاب « **دراسة التاريخ** » نرى كيف تمكن توينبي من المصالحة بين علمي الاجتماع والتاريخ على احسن صورة ممكنة ، فهو فى الواقع مؤرخ وعالم اجتماع . وهو اذ يتحدث مثلا عن حضارة مصر القديمة يجتهد فى ان يعطيك صورا للمجتمع المصرى القديم ، لان الحضارة لا تتجلى فى مبتكرات اهل العبقرية بقدر ما تتجلى فى مستوى معيشة الجانب الاعظم من الشعب ، ومن هنا فان توينبي لا يتحمس حماسا شديدا لعصر النهضة الاوروبية لمجرد انه اطلع رجالا من امثال **ميكلا نجلو** لأن الفلاح الايطالي كان يعيش التعس ايامه خلال ذلك العصر المضطرب . ومن هنا نستطيع القول بانه حتى الذين يريدون ان يقولوا ان ارنولد توينبي ليس مؤرخا لا بد ان يسلموا بانه فتح فى التاريخ فتحا انسانيا لم يوفق اليه مؤرخ قبله .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الى هنا نقف بهذا البحث ، لقد قطعنا فيه مرحلة اثنين وعشرين قرنا من جهد علماء الغرب فى اثبات قدر علم التاريخ والوصول به الى ما هو عليه اليوم . ولم يكن لنا مفر فى اثناء هذا العرض من الاستطراد عن أعلام لهم قدرهم فى هذا المجال من امثال **ف.و.ميتلاند** F. W. Maitland (١٨٥٠ – ١٩٦٠) صاحب الفضل الاكبر فى نشاط نشر الوثائق الاولى فى انجلترا وهو مشهور بنشره لمذكرات **براكتون** . Bracton's Not Book (١٨٩٥) وكان براكتون محاميا فى القرن الثالث عشر ومذكراته حافلة بالكلام عن الصور الاجتماعية والمعاملات فى عصره ، وهذه المذكرات تشبه فى قيمتها العلمية وثيقة « يوميات كاتب الشونة » التي نشرها عزت عبد الكريم والقى بذلك ضوءا باهرا على حياة الناس فى الشام فى العصر العثماني . **وبول فينوجرادوف** Paul Vinogradoff (١٨٢٤ – ١٩٢٥) ذلك المهاجر الروسي الذى انشأ فى مانشستر بانجلترا مدرسة من اصلب مدارس العلم التاريخي ، **والمؤرخ الامريكي ماكلوين** C. H. Nacllwain استاذ التاريخ فى هارفارد ورئيس الجمعية التاريخية الامريكية American Historical Association وهو صاحب فضل كبير فى تعريف الامريكيين بالقيمة الكبرى للوثائق التاريخية ايا كانت ، **و ل.ب.نامير** L. B. Namier (١٨٨٨ – ١٩٦٠) الذى تعتبر مؤلفاته الى جانب مؤلفات ميتلاند نماذج للتاريخ العلمي المستكمل الشروط .

وهؤلاء الاساتذة جميعا يسيرون فى التاريخ على مذهب التاريخ الشامل Total History اى الدراسة الشاملة للفترة او الظاهرة التي ندرسها . فاذا كنت مثلا تدرس موضوع الضرائب فى عصر الدولة الايوبية مثلا ، فلا بد لك من ان تدرس الدولة الايوبية دراسة كاملة من كل نواحيها ، وتلم بتاريخها السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي . وتدرس الى جانب ذلك احوال العالم الاسلامي كله فى ذلك العصر . وذلك لكي تستطيع ان تتكلم فى موضوعك عن ثقة وتمكن . ولا مفر من هذه « الكلية » totalité لمن يريد ان يقوم بدراسة تاريخية جديرة بالتقدير . ولم يتبع هذا المنهج اتباعا صادقا ووصل فيه الى مداه كما فعل أبناء المدرسة الفرنسية العريقة التي عرفت بمدرسة الانال L, Ecole des Annales التي ذكرناها . ففي هذه المدرسة الاصيلة التي تكونت حول الجماعة التي انشأت دورية الانال .. اى الحوليات ظهر رعيل فحل من المؤرخين الفرنسيين الذين بلغوا الذروة فى كمال البحث واصالته حتى قال واحد منهم وهو Ariès اريه ان كل ما تنفق فيه الوقت من دراسة الحوادث السياسية والعسكرية ووقائعها ربما لا يكون فى الحقيقة الا الواجهة الظاهرة للتاريخ ..

la faca de apparente de l'histoire وان التاريخ الحقيقي يقع وراء ذلك فى حياة الناس العاديين ومستوى معيشتهم وافكارهم وآمالهم ومخاوفهم . وهم لهذا يحذرون من التاريخ السطحي histoire superficielle الذى ينزلق اليه الكثيرون فيجرون وراء تتبع الحوادث ذات الدوى الكبير ومع ذلك فربما لم يكن لها فى الوعي الانساني أثر .. على المؤرخ اذن ان يبحث عن الاصيل والدائم عن اللباب دون القشر .

ـ ومن امثلة الدراسات الشاملة على مذهب مدرسة الحوليات ذلك الكتاب المبدع الذى كتبه **فرديناند برودل** Ferdinand Braudel الاستاذ المعاصر فى السوربون عن عالم البحر الابيض فى

ايام فيليب الثانى La Mediterranée et le Monde Mediterranéen a l'epoque de Philippe II (1949) وهو كتاب شامل يدرس البحر الابيض فى عصر الصراع الضخم بين الاتراك العثمانيين والاسبان والبلاد الاوروبية على سيادة البحر الابيض . وقد درست على هذا الرجل وربطتني به صداقة كبيرة ايام كنت ادرس تاريخ اسبانيا فى السوربون ، وكنت فى جملة طلاب قاعة بحثه Seminaire فى المدرسة العليا العملية فى جامعة باريس . ورأيت استهلاكه نفسه فى تكوين تلاميذه وتدريبهم على التاريخ على مذهب البحث الشامل . ولكي يصل الرجل الى بحثه هذا درس جغرافية البحر الابيض دراسة مستفيضة واستخرج ما سماه بشخصية البحر الابيض التاريخية la personalité historique de la Mediterranée ويتجلى هذا فى الجزء الثاني من كتابه الذى يدرس فيه وحدة النظم الاقتصادية والنظم السياسية التي سادت فى معظم الدول التي قامت على حوض هذا البحر . وبعد هذا كله يدرس برودل فى الجزء الثالث حوادث الصراع على سيادة هذا البحر خلال القرن الخامس عشر الميلادى وهو يسمي هذا الجزء تاريخ الاحداث histoire événementielle وعلى نفس الطريقة سار Charles Labrousse **شارل لابروس** فى كتابه المبدع عن الثورة الفرنسية الذى حلل فيه النظام القديم اى النظام الملكي l'ancien régime تحليلا اجتماعيا اقتصاديا فكريا ونفسيا بالغ العمق والشمول يجعل من كتابه هذا خير ما يعرّف الانسان بالثورة الفرنسية واسبابها والظروف التي قامت فيها .

ويضاهي برودل فى سعة الافق وشمول البحث والتاريخ على مذهب التاريخ الشامل **بيير رينوفان** Pierre Renouvin الذى تخصص فى دراسة العلاقات السياسية فى العصر الحديث. وهو من الذين يرون فى احداث التاريخ السياسي مجرد مظهر سطحي للواقع التاريخي الاهم وهو جماع الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تدفع بالجماعات الانسانية الى التعرف على هذا الوجه او ذاك . ويظهر رينوفان ذكاء بعيدا وسعة رالعمق الافق عندما يتكلم عن اثر الدولة والسياسة فى تشكيل الصورة العامة لنشاط الامة كلها واهميتها فى المجتمع الدولى ، ويظهر كذلك براعة فى تحليل ما يسميه بالسياسة الكبرى la grande politique اى التيارات الضخمة التي تسير سياسات الدول الكبرى ويتجلى ذلك كله بصورة واضحة فى كتابه من تاريخ العلاقات الدولية Histoire des relations internationales الذى ظهر سنة ١٩٥٣ وفيه تتجلى الميزة الكبرى لمدرسة الحوليات وهي القدرة على عرض المشكلة عرضا سليما شاملا وهو ما يسمى بالموضوع la thèse ثم دراستها دراسة نقدية شاملة وهو ما يسمى بنقد المشكلة antithèse ثم الخروج بعد ذلك بالخلاصة التحليلية المركزة التي تسمى جمع الاطراف او لم اطراف الموضوع la synthèse .

وبمناسبة الخلاصة التحليلية او لم اطراف الموضوع الذى بلغت به مدرسة الانال اى الحوليات ما بلغت من مكانة فى تاريخ العلم التاريخي تقف لحظة عند واحد من اكبر ممثلي هذه المدرسة وهو مارك بلوك Marc Bloch الذى اشتهر امره بكتابه البديع عن المجتمع الاقطاعي La Société Féodale الذى ظهر اول ما ظهر سنة ١٩٣٥ وعد فى ذلك الحين فتحا فى التاريخ للعصور الوسطى وتحليل مجتمعها الاقطاعي تحليلا اقتصاديا اجتماعيا والتوجرافيا بالغ العمق .

ولقد ادخل **بلوك** على كتابه تعديلات فى طبعات تالية ، ولكن النظرية الرئيسية فى الكتاب ظلت كما هي وملخصها ان التركيب الاجتماعي الاقتصادى ينبغي ان يكون الاساس لكل تحليل تاريخي la structure sociale et économique doit être le noyau de toute synthèse historique وقد بسط مارك بلوك رايه هذا فى دراسة مشهورة عن ازمة العلم التاريخي فى فرنسا La crise de la science historique en France وفى هذا البحث تطرق الى دراسة المجتمع الفرنسي كله قبيل الحرب العالمية الثانية والهزيمة التي انتهت اليها . قال : ان هزيمة فرنسا كانت قبل كل شيء هزيمة للذكاء والخلق الفرنسي : la defaite de la France a été, avant tout, une defaite de l'intelligence et du caractère وقد اتيت بهذه العبارة بنصها املا فى ان تدعو بعضنا الى التفكير فى ازمة العرب الحالية على هذا الاساس او فى هذا الاتجاه على الاقل .

•••

هؤلاء ما هم الا نماذج من عشرات المؤرخين العاملين اليوم فى جامعات الدنيا فى خدمة هذا العلم الانسانى الخالص الذى يدور حول الانسان وتجاربه على سطح هذا الكوكب وما ادرك من توفيق وما اصابه من نكسات وما صادف من مآس . هؤلاء الناس ـ المؤرخين اقصد ـ يحاولون جهدهم النفاذ الى الماضي الطويل المظلم والقاء الاضواء عليه لعل معرفتنا فى الماضي تمكننا من فهم الحاضر والنظر فى شيء من الفهم وحسن التقدير للمستقبل . وهم يبذلون فى ذلك جهدا شاقا فى الاطلاع والدراسة والتحليل والتفكير ولكن قل" ان يلتفت لجهودهم احد . ولا يعرف الشوق الا من يعانيه كما قال جيته . ومن سوء الحظ ان التاريخ ـ وعندنا خاصة ـ مركب سهل يتخذه كل صاحب قلم اعوزه موضوع يكتب فيه او تطلع الى الشهرة وحسن القالة بين الناس وشيئا من المال ، فما اسرع ما تمتد يده الى موضوع ضخم من موضوعات التاريخ الاسلامي لم ينشيء فيه كتابا ربك سبحانه وتعالى اعلم بمانيه . ورفوف المكتبات العربية مثقلة بالدراسات التاريخية ومعظم ما فيها تصورات وتاملات وفروض وتملق للقاريء الطيب القلب . ونادرا ما تقع عينك على كتاب فيه بضع صفحات ـ من مئات ـ تبرر قراءته فضلا عن تأليفه .

لقد رايت الجهد الشاق الذى بذله رجال الغرب فى نقل التاريخ من هواية الى علم ، ومن حكايات واساطير الى دراسات وحركات فكرية هي الغاية فى العمق والشمول . ونحن عندما نقرا كتابا مما الفوا انما نمسك بالثمرة ، ولكننا نادرا ما نفكر فيما وراءها من الجهد والتعب وسنوات العمر التي انقضت ليلة بعد ليلة بين وثائق لا تقرا ، ومخطوطات كأنها الطلاسم ، ومصطلحات لا تفهم ، الا بعد البحث الطويل ، والعناء الشاق فى تتبع الاصول اللغوية والقواعد العرفية ، وليس فى الدنيا عالم هو اقل كسبا من وراء ما يكتب من المؤرخ فيما عدا اولئك القلائل الذين المنا بذكرهم فى هذا العرض السريع . وهل يعرف الناس مثلا قدر الجهد الذى بذلته تلك الجماعة الصادقة من المؤرخين الذين انشأوا دورية الانال اى الحوليات Annales de l'histoire economique et sociale التي ظهر عددها الاول فى فبراير ١٩٢٩ ولا زالت تصدر الى اليوم ؟ هل يذكر الا

القليلون فضل **لوسيان فيفر** Lucien Fèvre **والبير ديمانجون** Albert Demangeon **وهنرى هاوزر** Henri Hauser **واندريه سيجفريد** André Siegfried **وهنرى بيرين** Henri Pirenne الذى ذكرناه وغيرهم كثيرين ممن قاموا على انشاء هذه المدرسة الجليلة .

ولكن لا باس فان العلم جهاد ومشــــــقةوصمت ، والتاريخ يستحق هذا الجهد كله ، فهو سجل الماضي وصورة الحاضر والمرشد الى الغد. انه يسير فى طريقه قائما بنصيبه المتواضع فى الكشف عن المجهول فى امانة وصدق وعلى اســـس علمية سليمة انشاها اهل العلم فى صبر وصمت وتضحية على طول احقاب متطاولة كما رايت .

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مراجع مختارة

الينا في كل فقرة من هذا البحث باهم المراجع التي اعتمدنا عليها في كتابتها . ونضيف هنا طائفة مختارة من امهات المؤلفات في مبحث علم التاريخ مقسمة الى فقرات :

تاريخ التاريخ

Carlo Antoni, From History to Sociology. The Transition in German Historical Thought. Detroit 1959.

H. Elmer Barsies, A History of Hisotical Writing (revised paper back ed. New York, 1962)

J. B. Black. The Art of History. London 1926.

E. Bayer, Worterbuch Zur Geschichte. Begriffe und Fachansdrücke 1960.

Brandi, K. Geschichte der Geschichtswissenschaft. 2 Aufl. 1952. Deutsche Geschichtsphilosophie von Xessing bis Jaspers.

، مختارات من كتابات : Schiller, Kent, Herder, Lessing.

Nagel, Schilling, Fichte, Humboldt, Goethe وجيته

Nietzche, Diltheyo, Burckhardt, Engels, Marx,

K. Rossman نشره Jaspers, Weber.

في فرانكفورت سنة ١٩٥٩

J. W. Thompson u. B. J. Holm, History of Historical Writing 1950.

T. B. Bottomore and M. Rubel, Karl Marx, Selected writings in sociology and social philosophy (paper back ed. London 1967).

J. B. Bury, Selected Essays. London 1930.

V. H. Galbraith, Historical Research in Medieval England, London 1959.

G. B. Cooch, History and Historians of the Nineteenth Century, London, 1952.

S. William Holperin, Some 20th Century Hisotrians (Chicago 1961).

دراسات عن هنري بيرين وتريفيليان وليفيفر وربنوفان وفيفر .

Page Smith, The Historian History. New York, 1966,

Fritz Stern, The Varieties of History, Cleveland, Ohio 1956.

مختارات من كتابات كبار المؤرخين من فولتير الى ايامنا هذه .

عن النظريات التاريخية

Philip Bagby, Culture and History, London 1958.

Marc Block, The Historian's Craft, Manchester 1954.

Norman Canter and R. Schneider, How to Study History, N.Y. 1967.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

R. G. Callingwood, An Autobiography. London 1939.

— The Idea of History, London 1946.

— The Philosophy of History, London 1930.

G. R. Elton, The Practice of History. London 1967.

H. P. R. Finberg, Approaches to History, London, 1962.

V. H. Galbraith, An Introduction to the study of history, London, 1961.

— The Historian at work. London 1962.

Louis Coltschalk, Unverstanding History. A Primer of Historical Method. N.Y. 1951.

C. V. Langlois et C. Seignobos, Introduction a l'elude de l'Histoire Paris 1898.

من اصول الكتب عن المنهج التاريخي . صدرت له طبعات كثيرة بعد ذلك « ترجمة الى الانجليزية » نشر في لندن مع مقدمة اضافية سنة ١٩٦٦

Gordon Leff, History and Social Theory, London 1969.

Hans Meyerhof (ed.) The Philosophy of History in our Times, N.Y. 1959.

مختارات من احسن ما كتب في فلسفة التاريخ في عصرنا .

L. B. Namier, Avenues of History, London 1952.

Emergy Neff, The Poetry of History, London 1947.

Richard Pases, The Historian's Business, Oxford 1961.

A. L. Rowse, The Use of History, London 1946.

David Thompson, The Aims of History, London 1969.

A. J. Toynbee, A New Opportunity for Historians, London 1956.

W. H. Waslh, Introduction to the Philosophy of History. 1967.

Alban Gregory Widgesy, Interpretations of History :
Confucius to Toynbee, London 1950.

Arthur Marwick, The Nature of History, London 1970.

C. G. Gustavson, A Preface to History N.Y. 1953.

Nans Rothfels u. Valdemar Besson, Geschichte

(وهو الجزء الخاص بعلم التاريخ من دائرة معارف فيشر المعروفة باسم Das Fischer Lexikan فرانكفورت ١٩٦١) .

* * *

محمد عواد حسين *

صناعة التاريخ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعريف بالتاريخ

في لغتنا العربية تاتي كلمة التاريخ والتاريخ والتوريخ بمعنى الاعلام بالوقت ، وتاريخ شيء من الاشياء قد يدل على وقته الذي ينتهي اليه ، مضافا اليه ما وقع خلال هذا الوقت من حوادث ووقائع ، ويقول السخاوي انه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت ، وموضوعه الانسان والزمان (١) .

وكلمة « تاريخ » في لغتنا هي المقابل لكلمة History في اللغة الانجليزية ، وكلمة Histoire في اللغة الفرنسية ، وكلاهما اشتقاق من الكلمة اليونانية Histor بمعنى التعلم او المشاهدة اي كل ما يتعلق بالانسان منذ بدا يترك آثاره على الأرض (٢) .

---

* دكتور محمد عواد حسين رئيس قسم التاريخ واستاذ التاريخ القديم في جامعة الكويت متخصص في التاريخ اليوناني والروماني ومصر البطلمية . آخر مؤلفاته : بريكليس والديمقراطية الاثينية .

(١) السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ـ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٣٤٩ هـ ص ١٧ .

(٢) Oman, Ch. On the Writing of History London 1939, P.2.

وقد استعمل ارسطو كلمة « هستوريا » بمعنى السرد المنظم لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء جاء ذلك السرد وفقا للتسلسل الزمني ام جاء غير كذلك ، ولا يزال هذا الاستعمال شائعا فيما نسميه « التاريخ الطبيعي » .

وقد تدل كلمة « تاريخ » على مطلق مجرى الحوادث الذى يصنعه الابطال أو تصنعه الشعوب (٢) .

ونحن لا نستخدم كلمة تاريخ الآن الا فى حالة السرد المرتب زمنيا ، وفى المعنى العام صارت كلمة تاريخ تعنى ماضي الانسان ، ولهذا وضع لها الالمان كلمة تحمل نفس المعنى ، وهي Geschichte المشتقة من الفعل الالماني Geschehen بمعنى يحدث ، ولكن الواقع ان كلمة تاريخ تعنى مجموعة الاحداث التي وقعت فى الماضي ، والتي تقع حاليا ، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفى ضوئه بما سوف يقع مستقبلا .

ويقول **ابن خلدون** فى مقدمته « فن التاريخ عزيز المذهب شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم فى اخلاقهم ، والانبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم الفائدة فى الاقتداء بذلك لمن يرومه فى احوال الدين والدنيا » .

ومفهوم هذه العبارات يقطع بان التاريخ يتناول الماضي والحاضر والمستقبل كما ذكرنا ، ولكن ابن خلدون يرى التاريخ فنا من الفنون ويبعده عن دائرة العلوم ، وذلك موضوع سوف نتناوله فيما بعد .

ARCHIVE

كيف بدا التاريخ :

ظهر التاريخ أول الامر بصورة بدائية حين اخذ الانسان القديم فى فجر الحضارة يقص على ابنائه قصص قومه ويروى لهم الاساطير والمعتقدات الدينية .. فالتاريخ اذا قرين للحضارة ، ولقد بدا الاحساس به فى ذهن البشرية منذ اقدم العصور حين كان الانسان يسجل الاحداث بالرسم والنقش على الحجر ، ومع تطور الحضارة وازدهارها اخذ التاريخ يشكل اساسا جوهريا فى تسجيل الاحداث ، واضحى بمثابة السجل الذى يحفظ لنا الوانا من الاحداث والافكار والاعمال .

وتجمعت المعلومات التاريخية بصورة تدريجية حين اراد الناس أن يركنوا اليها ويفيدوا منها فى حياتهم واعمالهم ، فلا تكاد تمر بالانسان لحظة دون ان تتمثل فى ذاكرته صور عديدة بعضها عفوى وبعضها ارادى ، ولا تكاد تمر به لحظة دون أن ترتد الى ذهنه ذكريات عن احداث الماضي التي عفا عليها الزمن ، ولكنه عرفها وسمع عنها .

وحين يشرع الواحد منا فى القيام بعمل ما فانه – وحتى دون ان يشعر – يهتدى بامور مشابهة لهذا العمل سبق ان قام بها غيره ، وهذا الاهتداء هو الذى ينير له طريقه ويهديه سبل النجاح ، لانه من غير شك سوف يتجنب ما خيب آمال من سبقوه الى القيام بهذا العمل المشابه .

وهكذا يبدا التاريخ فى ابسط صوره ، يبدا حين يستعيد المرء من بين ذكرياته المتناثرة ما يصلح لان يكون نموذجا لاعماله التي ينوى القيام بها .

---

(٢) عبد الحميد العبادى – علم التاريخ (ترجمة لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٨ .

والغريب ان هذه الصورة البدائية للتاريخ لم تنقص ، ولا تظن انها الى زوال ، لأن الانسان يتمسك بها كلما ازدادت مظاهر نشاطه وتعقدت.

واذا فالناس حين يجترون الماضي ويتمسكون بشواهده انما يؤرخون وهم لا يشعرون ... وهكذا يصبح التاريخ عملا حتميا لا بد منه لكل مجتمع بشرى، وبدونه ينعدم الاحساس باستمرار الوجود ، ويعجز اى مجتمع عن التعرف الى شخصيته، وليس هناك ما يقى الناس من النسيان غير التاريخ .... ولقد تتسع مهمة المؤرخ باتساع الامور التي تدفعه الى العمل ، ولكنها لا تخلو ابدا من الواقع النفعي .

واذا كان التاريخ بمعناه العام يهدف الى معرفة الماضي كما ذكرنا من قبل ، فذلك لان الانسان ميال بطبعه للوقوف على ماضيه ، فهو يحب ان يعرف كيف كان حال اجداده ، وكيف كانت اساليب حياتهم ثم كيف تطورت هذه الاساليب ، كما يجب ان يعرف اعمالهم ، والآثار التي خلفوها وراءهم ، وانجازاتهم .

واذا كانت حياة الانسان ـ منذ كان ـ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام فيها ، فان الانسان اذا يصبح ابنا للماضي بأسره وثمرة هذا الماضي برمته . وبالتالي فان العلاقة بين حياة الفرد في اى زمان من الازمنة ، وحياة القرون السابقة ، تكون علاقة وطيدة وثيقة ، ولا بد له من معرفة تامة بأحوال هذه القرون السابقة حتى يفهم نفسه وحاضره ويتمكن من التنبؤ بمستقبله ، ومعرفة الماضي تكسبنا خبرة السنين الطويلة التي عاشتها البشرية في حقبها المتتالية .

ولا شك ان التأمل في الماضي يأخذ الانسان بعيدا عن ذاته ، وحين يتم ذلك فانه يرى أشياء عديدة من العسير عليه أن يراها في نفسه بسهولة، وبالتالي يصبح أقدر على فهم نفسه واقدر على حسن التصرف في حاضره ومستقبله (٤) .

والماضي ـ ايا كان ـ يكون دائما عزيزا على اصحابه ، ومن لا يعرف له ماضيا مدروسا لا يعتبر انسانا متحضرا ، والشعب الذى يجهل ماضيه يكون شعبا مبتورا لا جذور له ، وهو بهذه المثابة يخرج من دائرة شعوب الارض المتحضرة ، ويصبح اشبه ما يكون بشيء معلق في الهواء تتقاذفه الرياح والأعاصير ثم تهوي به في مكان سحيق .

من اجل هذا كله يصبح التاريخ دراسة تستحق كل الجهد الذى ينفق فيها ، وهناك اربعة اسئلة يحسن ان نسألها لانفسنا ثم نحاول الاجابة عنها ، وسوف تجلو لنا هذه الاجابة كل ما يتصل بالتاريخ .

وهذه الاسئلة هي :

ما هو التاريخ ؟ وما هو موضوعه ؟ وما هو اسلوبه ؟ وما هو هدفه ؟

ويدور حول السؤال الأول جدل كبير ، لكن التاريخ آخر الامر لا يخرج عن كونه نوع من انواع البحث العلمي ، فهو أصلا يندرج تحت ما نسميه « العلوم » .

---

(٤) حسن عثمان ـ مصطلح التاريخ ص ١٢ ، ١٣ ـ الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٥) .

والعلوم الوان من التفكير تثير امامنا اسئلة معينة تحاول الاجابة عنها ، والعلم بصفة عامة لا يخرج عن كونه محاولة لتركيز الجهد حول شيء لا تعرفه في محاولة جادة لمعرفته والوقوف على حقيقته ، فالعلم اذا هو الكشف عن حقيقة الاشياء وهذا هو المعنى المقصود من قولنا ان التاريخ علم .

لكن ابن خلدون يقول في عبارته التي يعرف بها التاريخ انه **فن** (*) ، فما هي الحقيقة ؟ وهل يعتبر التاريخ علما ام فنا ؟

هناك من يقول ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما لانه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، ودراسة التاريخ لا توصلنا الى استخلاص قوانين يقينية ثابتة على نحو مايصل اليه الكيمائيون والفزيائيون مثلا . وذلك راى له وجاهته ؛ ولكن التاريخ مع ذلك يعتبر علما من حيث المنهج لأن نتائجه تخضع للتحقيق، والاتفاق بين المؤرخين أو عدم الاتفاق بينهم ، وذلك عن فهم وادراك .

والذى اريد ان اقطع به هو ان التاريخ يبحث عن اسباب تسلسل الظواهر ويحاول ربطها الى بعضها وتعليلها تعليلا يقبله العقل .

ولكن هذا لا يفضي الى وضع القوانين الثابتة ، لأن المؤرخ لا يجرد ، والتاريخ قصص وليس برهانا ، ... وهو يتناول احداثا مستقلة لا تقع الا مرة واحدة ، ومن هنا لا يستطيع المؤرخ ان يستخلص منها نواميس عامة شاملة .

وليس هناك شك في ان المؤرخ يستخدم احيانا تحقيقات الاختبارات العامة ونتائج الملاحظات الاجتماعية ليدرك مدى الحدث الواحد الفريد ، وكذلك نرى المؤرخ اليوم يبسط الاوضاع الاجتماعية والاوضاع الاقتصادية ليوضح آثارها في مجرى التاريخ ، وهذه وتلك من الاشياء المجردة .

ولقد نستطيع ان نعرف التاريخ بانه العلم الذى يوازن العلوم الاخرى ، ذلك بان حياة المجتمعات الانسانية هي في الحقيقة تاريخ هذه المجتمعات ، وبما أن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا يضع سننا عامة ثابتة لا تتغير ، فلن تكون لاى علم القدرة على الوصف الدقيق في كل تفاصيله ... لكن التفاصيل ذات قيمة كبرى ، ومعرفة هذه التفاصيل والعوارض الفريدة هي المجال الذى يخوضه التاريخ .

ومن هنا فان التاريخ لا يستطيع ان يصل ابدا الى غايته المنشودة وهي اعادة تمثيل الحياة البشرية كما كانت ، واعادة رسم مظاهر النشاط العقلي بكل تطوراته وتقدمه .

والانسان هو الوحدة التي يدور التاريخ من حولها ، وكل جهد يحاول به صاحبه ان يعزل فئة من الناس خارج تاريخ الانسان ، انما هو جهد فاشل .

وبهذا المفهوم فان التاريخ يتضخم الى درجة الشمول لكل انواع المعرفة ، حتى العلوم الطبيعية يستطيع التاريخ ان يخرجها عن الرسم التجريدى اللازمني ويعرضها عرضا مؤسسا على مجهود الانسان ، بوصفها نتيجة لهذا الجهد .

(*) انظر ص ١ من هذا البحث .

ووجود عنصر شخصية الفرد هو في الواقع السبب الرئيسي فيما يذهب اليه البعض من نفي صفة العلم عن التاريخ ، لأن الانسان الفرد ـ اى انسان ـ له ارادة حرة وله ميول واهواء واتجاهات خاصة ، وهذه كلها تدخل في التاريخ حين يصنع ، وربما حين يكتب ، وذلك قمين بهدم كل محاولة تبذل لاقامة التاريخ على اسس علمية ثابتة مجردة تماما .

ومن هنا ذهب البعض الى ان التاريخ فن كما ذكرت ، وينبغي ان يكون كذلك لأن العلم المجرد لا يمكن ان يعطينا من الماضي سوى عظامه النخرة ، ولا بد من الاستعانة بخيال **المؤرخ** لكي يكسو تلك العظام لحما ، ويحيلها الى شيء ينبض بالحياة ، ولا بد من براعة **المؤرخ** في العرض لكي يخرج القصص التاريخي في ثوب براق جذاب كما يقول **هرنسو** (٦) .

ومع ذلك فان صفة العلم تظل منطبقة على التاريخ ، اذ يكفي لذلك ان نعلم ان المؤرخ يمضي في دراسته ساعيا جهده الى توخي الحقيقة ، طارحا وراء ظهره كل هوى في نفسه ، وكل افتراض سابق ، قادرا آخر الامر على التصنيف والتبويب وحسن العرض (٧) .

والخلاصة من كل ما ذكرت هي ان التاريخ له منهج خاص ، غايته بلوغ المعرفة عن طريق تسلسل الحوادث الفريدة لا عن سبيل وضع القوانين المجردة ، فهو علم ، والتاريخ ايضا يحتاج الى خيال كاتبه وقدرته الادبية ، فهو فن وهو ادب ايضا .

ان التاريخ لا يمكن ان يكون ولا يستطيع ان يكون غير الاجابة عن منشأ الحالة الحاضرة التي نعيشها نحن ، والاسباب التي وصلت بحياتنا الى ما نراها عليه الآن .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولننتقل الى الاجابة عن بقية الاسئلة :

فموضوع التاريخ ـ كأى علم آخر من العلوم ـ هو الكشف عن نوع معين من الحقائق ، وهذا النوع هو جهود الانسان ومنجزاته في الماضي ، ونستطيع ان نقول في اجابة اخرى ، ان التاريخ هو العلم الذى يحاول الاجابة عن الاسئلة التي تتعلق بما بذلته الانسانية من جهود منذ كانت .

اما طريقه التاريخ او منهج البحث فيه فهو تفسير الوثائق ، والوثيقة هي الشيء الذى يرجع الى زمان ومكان معينين ، وتحمل معلومات ذات طابع خاص ، يفكر **المؤرخ** فيه ويعمل على تفسيره، ولسوف نتناول الوثائق التاريخية فيما بعد بمزيد من الدراسة والتفصيل .

اما **هدف التاريخ** فهو ـ في عبارة موجزة ـ **وقوف الانسان على حقيقة نفسه** ، ولست اعني بذلك مجرد معرفته بمميزاته الشخصية التي تفرق بينه وبين غيره من الناس ، وانما اعني أن يعرف الانسان طبيعته كانسان ، وما يستطيع ان يعمل وأن يقدم لبني جنسه ، وهذا غير ممكن الا اذا عرف الانسان ماذا فعل في الماضي وما هي الجهود التى بذلها فعلا . واذا فقيمة التاريخ ترجع الى انه يحيطنا علما باعمال الانسان في الماضي ومن ثم بحقيقة هذا الانسان .

---

(٦) انظر عبد الحميد العبادى ـ علم التاريخ (ترجمة لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٣ ، ٤ .

(٧) انظر عبد الحميد العبادى ـ علم التاريخ (ترجمة لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٦ ، ٧ .

كتابه التاريخ :

يتبين لنا مما سبق ان التاريخ علم ضروري للشعوب وللافراد على السواء ، فلا بد للفرد من ان يعرف نفسه بوقوفه على ماضيه ، ولا بد لكل شعب من ان يعرف تاريخه ليربط حاضره بماضيه ويصبح جديرا بالحياة ، ولا بد من ان يدرس التاريخ دراسة عميقة ، وان يدون كل دارس ما انتهى اليه لكي يقدم بعد ذلك للطلبة في المدارس والمعاهد وكافة المثقفين بل والمتخصصين على السواء .

ومن الزم اللزوميات ان تتم كتابة التاريخ على خير وجه ، فيكون الكاتب دقيقا غاية الدقة ، باذلا كل ما في الطاقة من جهد وصدق وامانة وعقل ، ومستعينا بكل ما لديه من احساس وفن وذوق ، وهذا كله يؤدي الى الوصول الى الحقيقة قدر المستطاع .

ونحن نقول عادة ان التاريخ ليس علم تجربة واختبار ، وانما هو علم نقد وتحقيق ، واذا كان الناس يقولون ان التاريخ كالجيولوجيا لان موضوع كليهما هو دراسة آثار الماضي ومخلفاته ، فان المؤرخ يختلف عن الجيولوجي من حيث اضطرار الاول الى دراسة العامل البشرى الذى يدور من حوله التاريخ ، بكل ما فيه من ارادة وانفعال وميول خاصة .

من هنا كان لا بد ان تتوافر فيمن يتصدى لكتابة التاريخ مجموعة من الصفات والمميزات ، وان تتاح له الظروف التي تجعله قادرا على الدراسة العميقة والتدوين الادبي السليم .

واول صفة ينبغي ان يتحلى بها كاتب التاريخ ليصبح مؤرخا ، هي صفة عامة لا بد منها في كل الباحثين في شتى العلوم ، تلك هي حب الدراسة والاصطبار عليها ، فقد يكون البحث وعرا شاقا ، وقد تكون المصاعب التي تعترض الباحث اثناء عمله ، مصاعب جمة وكثيرة ، كندرة المصادر وغموض الوقائع والحقائق او اختلاطها واضطرابها ... ولكن ذلك كله لا ينبغي ان يصد الباحث عن بذل الجهد والصبر على مواصلة الدراسة ولو اقتضت منه السنين تلو السنين ، ذلك ان الامر والتعجل سوف يؤديان دون شك الى طمس الحقيقة التاريخية .

ولا بد للمؤرخ من ان يكون امينا شجاعا ، فلا يكذب باصطناع الوقائع ، ولا يزيف في تفسيرها ، ولا ينافق لارضاء صاحب جاه اوسلطان ، او دفعا لبطشه وطغيانه ... فلا رقيب على المؤرخ الا ضميره ، ولا بد من ان يرضيه كل الرضا .

واذا كنا نقول ان التاريخ علم نقد وتحقيق ، فلا بد للمؤرخ من ان يكون ناقدا نافذ البصيرة قادرا على تحليل كل وثيقة تصادفه ، والواقع ان المؤرخ الذى تعوزه ملكة النقد يصبح غير جدير بصفته ، ويتحول الى مجرد قصصي يروى كل مايعرض له على انه حقيقة واقعة .

وعلى المؤرخ ان يكون مولعا بعمله من اجل هذا العمل لذاته ، لا سعيا وراء شهرة او فائدة مادية عاجلة ، عليه ان يتفرغ لما يدرس تفرغا تاما ، وان يقتصر عليه وحده ، والا توزعت جهوده وعجز عن اداء مهمته كما ينبغي ... ان التفرغ للعمل الواحد في الوقت الواحد كفيل بالانتهاء الى اطيب النتائج واسلمها ، بل هو كفيل بان يجعل صاحبه ممن يقدمون للانسانية اجل الخدمات ، وممن يسهمون بنصيب وافر في تقدم الحضارة وازدهارها .

ومن الصفات التي لا غنى عنها في كل من يريد ان يكون مؤرخا ، عدم التحيز او الميل مع الهوى ، فلا بد للمؤرخ ان يحرر نفسه تماما من عواطفه وميوله الشخصية ، وان يصدر أحكامه بصورة موضوعية خالصة على اساس مما بين يديه من ادلة ووثائق ، وبدون ذلك يصبح المؤرخ قاضيا مجحفا ، وتصبح الكتابة التي يجري بها قلمه غير علمية تأخذ القارىء بعيدا عن الحقيقة ، وتلك جريمة نكراء .

ولعل من اهم صفات المؤرخ ان يكون صاحب حس مرهف وعاطفة انسانية واضحة حتى يستطيع ان يدرك نوازع الآخرين ، ويتمكن من تفسير اعمالهم وتصرفاتهم ، والدوافع التي دفعتهم الى هذه الاعمال والتصرفات ، والواقع ان فاقد الحس والعاطفة يعجز عن فهم ما كان يجيش بصدور من اسهموا في تشكيل التاريخ .

تلك هي الصفات الرئيسية التي ينبغي ان تتوافر فيمن يريد ان يكون مؤرخا جديرا بهذه الصفة . . . فاذا اكتملت لدى المرء هذه الصفات فقد اصبح مؤرخا .

بدء النشاط التاريخي

وانماط الكتابة في التاريخ :

نقصد بالنشاط التاريخي هنا ، كتابة التاريخ ، ونريد ان نعرف كيف بدأت وكيف تطورت انماطها على مر العصور .

وفكرة التاريخ بوضعها الحالي جديدة من غير شك ، فالمحدثون يعتقدون ان التاريخ كفكرة يدور حول محاور اربعة هي :

١ ــ انه علم كسائر العلوم يجيب على اسئلة معينة .

٢ ــ انه يتصل بمجهود الانسان في الماضي .

٣ ــ ان طريقته هي تفسير الوثائق التاريخية .

٤ ــ انه يهدف الى تعريف الانسان بذاته .

وهذه الفكرة باركانها الاربعة لم تكن هي فكرة الناس عن التاريخ في كل العصور ، فقديما وبالنسبة للسومريين وقدماء المصريين ، كانت كتابة التاريخ تتمثل في النقوش الرسمية او شبه الرسمية التي يقصد بها احياء ذكرى ملك او امير ، او تمجيد اله ، او الانتصار في حرب من الحروب .

وفي حكومة الكنيسة في العصور الوسطى اصطلح الناس على أن كل شيء مرده لفعل القدر .

ومثل هذه الصور من الكتابة التاريخية لا تعطينا تاريخا حقيقيا ، وان كانت تعطينا صورا تتصل بالتاريخ في بعض النواحي ، هي في حقيقتها تعبير من بعض الوان الفكر لا نستطيع الآن ان نسميه تاريخا لانه يفتقد الطابع العلمي ، فهو لا يجيب على سؤال محدد لا يعرفه الكاتب اصلا وانما هو تسجيل لامور يعرف الكاتب أنها حقيقة ، ثم ان هذه الامور ليست في الغالب من عمل الانسان ــ فهي لا تتصل بمجهوده ــ وانما هي من عمل الآلهة والانسان فيها مجرد اداة ، وتبعا لذلك فانها لن تكون تاريخية بالنسبة لطريقتها لانها لا تعتمد على وثائق ، ولا هي تاريخية من حيث قيمتها لأنها لا تستهدف معرفة الانسان لذاته وانما تخدم معرفة الانسان بالآلهة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد كان الكاتب لا يكتب تاريخا،وانما يكتب عن الدين والآلهة ، وهي كتابة نستطيع نحن الآن ان نعتبرها وثائق تاريخية ونعتمد عليها في كتابةالتاريخ بالصورة الحديثة .

واذن فاسلافنا القدماء لم يكن لديهم الشيءالذي نسميه « فكرة التاريخ » ولعل السبب هو انهم لم يكونوا يملكون المادة التاريخية نفسها ، لم يكن هناك تاريخ ، وانما كانت هناك مادة تشبهه في بعض النواحي ، ولا تتفق مع مفهومنا عن التاريخ قائما على محاوره الاربعة التي ذكرناها .

ونحن نستطيع بعد ذلك ان نقرر أن التاريخ في وضعه الحاضر قد أصبح شيئا واقعا ، فكيف حدث ذلك ؟ وما هي مراحل التطور التي اوصلتنا الى ما يسمى بالتاريخ ؟

ان هذه المراحل قد نبعت اصلا من منطقة الشرق الأدنى القديم ، ومن ثم فينبغي أن نبدأ حديثنا من نفس المنطقة ، ففيها بدأ التاريخ ،تاريخ البشرية كلها في مرحلته الاولى ، واهم ما تميزت به هذه المرحلة هو الارتباط الشديد بالعقيدة ، ففي كل حدث ، وفي كل تفسير له او تأويل ، نلمس العقيدة الدينية واضحة جلية ،حتى ليكاد يختفي اي جهد للانسان ذاته ، لقد كانت الافعال كلها الهية ، والسبب في ذلك هو ان الناس تصوروا الآلهة كالآدميين من الحكام .

فهم يملون ارادتهم على الملوك على نحو مايفعل هؤلاء مع رعاياهم ، ونحن نتصور تبعا لذلك ان السلطات كانت موزعة توزيعا هرميا يبدأ من الارض ويتصاعد في حلقات تربط بينها وبين سلطة السماء ، سلطة الآلهة .

وكان الملك غالبا هو الاله ، هو الصورة المجسدة للاله على الارض .

وهكذا كان التاريخ في مرحلته الاولى تاريخا دينيا ، ومفهوم طبعا أن التاريخ الذي نقصده هنا ليس تاريخا بمفهومه العلمي ، وهذا التاريخ الديني لا يجعل جوهره افعال الانسان ، ولا يعرض لها أساسا ، ولكنه مع ذلك يتناول هذه الافعال في ثنايا الاساطير .

ولنتناول الفكرة الرئيسية في القصيدة البابلية عن الخلق : ترجع هذه القصيدة الى القرن السابع ق.م. ، وهي تقرر أنها ترجع الى صور اخرى لها موغلة في القدم ، وبدايتها تحدثنا من نشأة الخليقة ، لم تكن هناك اول الأمر ايةمخلوقات او موجودات على الاطلاق ولا حتى الآلهة ، ومن حالة العدم هذه نشأ عنصران ،احدهما يقال له Apsu اى الماء العذب ، والثاني يقال له Tiamat اى الماء الملح ، وتزاوج هذان العنصران ، فجاءا بمولود يقال له Mumma ، وهو يمثل المرحلة الاولى في نشأة الآلهة ، ثم اخذ عدد الآلهة يتزايد بالتناسل ، واشتد الصراع بين هذه الآلهة الى أن استطاع الاله ماردوك marduk تمزيق المعبودة تيامات الى شطرين شطر خلق منه السماوات ونجومها ، وشطر خلق منه الارض ، ومن دماء ماردوك خلق الانسان .

وهذا النوع من التفكير الديني ، الممتزج بالاساطير هو الذي سيطر على تفكير الشرق الأوسط كله طوال العصور القديمة وحتى ظهور اليونان تقريبا ، وفي هذه الفترة كتبت التوراة وفيها نلمس ابراز المقدرة الالهية في حياة اليهود ،ولم يكن هناك سبيل لاثبات هذه المقدرة افضل من عرض تاريخ هذا الشعب .

ولقد التزم كتاب التوراة في سرد الوقائع اسلوبا شرقيا ، واستعملوا التعبيرات الشرقية واستساغوا حدوث الخوارق والمداخلات الالهية المباشرة التي تغير اتجاه الاحداث تغييرا معجزا..

فى التوراة نجد طابع التعميم : وهذا تطورعما كنا نجده فى الاساطير القديمة فى مصر والعراق القديم حيث كانت الحكومة الدينية تحتفظ بطابع التخصص فى قصص شعوبها وحدها ، والقصد بالتعميم تناول البشر بصفة عامة ، ولعل السبب فى ذلك هو اعتقاد اليهود ان الههم يسيطر على البشر اجمعين ، فهم ينتظرون منه ان يحكم بين هؤلاء البشر وبين اليهود بالعدل والقسطاس ، ولا ينتظرون منه ان يرعى مصالحهم وحدهم دون غيرهم من البشر .

فنحن بصدد مقاييس عامة للناس كافة ، ولذلك نجد قصة الخلق عند اليهود تتضمن محاولة لتفسير اصل الانسان بعامة وتفسير اصل الشعوب . وجملة القول ان الفرق بين القصص البابلي والقصص العبرى هو ان الاخير قد اتجه الى سلالة البشر ، بينما كان الاول متجها الى سلالة الآلهة .

بداية التاريخ العلمي – الاغريق

ظهرت كتابة التاريخ بعد ذلك عند الاغريق فى أسلوب ملحمي اول الامر ، ويعتبر الشاعر **هوميروس** صاحب الملحمتين الخالدتين – الالياذة والاوديسا – ملهم امته فى هذا المجال .

لقد عني **هوميروس** (٨) اشد العناية بتمجيد البطولة والابطال وروح النضال التى ترتفع بصاحبها الى قمة الشخصية وتجعل منه بطلا مغوارا يأتى بالمعجزات ... وعنه اخذ المؤرخون من بعده هذا كله .

فلما جاء **هيرودوت** (٩) ، الذي لقب « بابى التاريخ » والذى يعتبر اول المؤرخين الاغريق على الاطلاق ، كتب كتبه التسعة واطلق عليها اسم « التواريخ » وقال فى مقدمتها « انه يدون تاريخه حتى لا يطمس الزمن اعمال الرجال » وحتى لاتبقى الانجازات الرائعة دون تمجيد او اعجاب ، سواء فى ذلك منجزات الاغريق او مآثر المتبربرين » .

وهذه العبارة وحدها تقوم دليلا لا يرقى اليه ادنى شك فى أن الاغريق قد ادركوا ان التاريخ علم ، وبالتالي فلا بد ان يتناول أعمال الانسان ويمجدها ، فالقصة الاغريقية تتناول الحادث التاريخي فتفصله تفصيلا دقيقا ، وتبرز من خلال ذلك شخصية بطلها ابرازا شديدا ، وقد ترجم لنا حياته كما فعل المؤرخ **بلوتارك** Plutarch وهو يكتب « المقارنات » .

بهذا يتجه التاريخ عند الاغريق اتجاها عقليا يرتبط بالانسان نفسه وتصرفاته ولا يخضع هذه التصرفات للارادة الالهية ، ولا اعنى بذلك أن مؤرخى الاغريق قد تجاهلوا الاساطير الدينية تماما ، انما اعتمدوا عليها كثيرا .

---

(٨) هوميروس هو شاعر الاغريق الاكبر ، وهو صاحب الملحمتين الكبيرتين ، الالياذه والاوديسا ، ويرجعان على الارجح الى القرن التاسع ق . م . ، وتدور الملحمة الاولى حول حرب طرواده وبطولة الاغريق فيها ، بينما تدور الثانية حول المغامرات التي لقيها الملك اوديسيوس لدى عودته بحرا من آسيا الصغرى الى مملكته بعد انتهاء حرب طرواده وقد افدنا كثيرا مما جاء فى الملحمتين من الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى بلاد الاغريق آنذاك .

(٩) هيرودوت هو ابو التاريخ كما كناه خطيب الرومان والسياسي الكبير شيشرون . ولد فى هاليكارناسوس بآسيا الصغرى حوالي عام ٤٨٤ ق . م . ، وفى سن مبكرة هاجر من مسقط راسه الى اثينا ، وقام برحلات عديدة زار فيها كثيرا من بلاد الشرق . وخلف لنا تسع كتب باسم التواريخ تحكى لنا قصة الحروب بين الفرس والاغريق .

وحسبنا دليلا على ذلك الاتجاه العلمي العقلي ان نقرأ ما كتبه المؤرخ الاغريقي الكبير **ثوكيديديس** في مقدمته عن «الحروب البلوبونيزية» حيث يقول « انه يكتب من اجل الفائدة التي يمكن ان تحصل عليها من معرفة حقائق الماضي ، ومن لم نضع مقاييس سليمة للاحداث المتشابهة التي يمكن ان تقع مستقبلا ترتيبا على الطبيعة المشتركة بين البشر » .

هذا هو النمط الجديد في كتابة التاريخ ، فعلى نقيض كتاب التوراة لم يجد مؤرخو الاغريق في سير الحوادث اتجاها جبريا تفرضه العناية الالهية ، ولا عبثا ورث الناس اثقاله جزاء ما اقترفه اجدادهم .

ونحن اذا تناولنا خصائص التاريخ الاربعة التي سبق حديثنا عنها ، وهي ان التاريخ علم لانه يجيب على اسئلة يضعها الكاتب لنفسه ، وانه يتناول اعمال الانسان ، وانه يخضع للعقل من حيث استناده الى تفسير الوثائق ، وانه يكشف عن ذات الانسان عن طريق سرد اعماله ... اذا تناولنا هذه الخصائص وحاولنا تطبيقها على ماكتبه المؤرخون الاغريق ، لرأينا أن الخواص كلها واضحة فيما كتب هيرودوت باستثناء الخاصية الثالثة . ولا شك في ان التاريخ بوصفه علما قد ابتكره الاغريق ، وان هيرودوت هو امام المؤرخين ، ولعل **شيشرون** قد ادرك هذه الحقيقة حين كناه « ابا التاريخ » .

اما **ثوكيديديس** فلعله تفوق على هيرودوت حيث حقق في كتاباته الخاصية الثالثة ، وهي الاستناد الى الوثائق في تفسير الاحداث . وهو الذي يقرر بصراحة ان البحث التاريخي يقوم على المصادر التاريخية .

ولما كان الاغريق قد اهملوا تاريخ البشرية ككل ، واهتموا بالحوادث وحدها ، فقد وصلوا باسلوب العرض والرواية والتفسير الى درجة رفيعة من الاتقان الفني ... وكان المؤرخون يحصلون على مادتهم من الذكريات الشخصية ومن المؤلفات الادبية ومن السجلات المحفوظة ومن شهود العيان ومن الاساطير ايضا ، فاذا جمعوا هذه المادة عمدوا الى تصفيتها وتنقيتها ومناقشتها ثم بسطوها في عرض جميل .

ولنستمع الى مؤرخ اغريقي آخر ـ **بوليبيوس** Polybius وهو يقول « على الكاتب ان يوجه اهتمامه الى الظروف التي سبقت الحادث او واكبته او جاءت بعده ، لان دلالة هذه جميعا تفوق ما يروى عن الحادث نفسه » ثم يستطرد قائلا « نحن اذا انتزعنا من التاريخ البحث عن الاسباب والاساليب والاهداف التي حركت الانسان ، واغفلنا دراسة النتائج التي توخاها من عمله ، والقدر الذي استطاع تحقيقه من هدفه الكلي ، فاننا لا نبقي من التاريخ سوى تمارين ادبية لا عبرة فيها ، ولقد يكون متعة للآذان وملهاة للاذهان لا نتيجة لها بالنسبة لمستقبل الايام » .

فالتاريخ عند بوليبيوس له هدف مادي ، وذلك يحتم على كاتبه توخي الدقة العلمية قدر الطاقة ، ويدفعه الى محاولة اصابة كبد الحقيقة ، وميزان الحقيقة هنا هو مدى تقبل العقل لها كشيء مجرد لا دخل للغيبيات فيه .

وفي هذا الصدد نرى بوليبيوس يسخر من الكتاب الذين جعلوا من هانيبال اداة مسخرة في يد اله يرشده الى اجتياز جبال الالب ويقول فيهم « انهم قد قلدوا شعراء التراجيديا في اكثر المآسي التي تمثل فوق مسارحنا ، فاضطروا مثلهم الى ادخال الآلهة في حل عقدة المأساة ، لانهم

اختاروا الاساطير موضوعا لما يكتبون ، وابتعدوا عن نطاق العقل والحقيقة ، وهكذا اضطروا الى الاستعانة بالابطال والآلهة ، لانهم انطلقوا فيما يكتبون من بدايات تدخل في نطاق المستحيلات ، وبالتالي لا يمكن ان تكون لها نهاية يقبلها العقل المجرد ، انهم في الواقع يعجزون عن ايجاد الخاتمة فيلجأون الى الآلهة لتضع هي الخاتمة ، والتاريخ غير ذلك ، انه يستند الى الحقائق والانسان هو الذي يصنعه .

التاريخ في العصر الهلينستي

كان التاريخ عند الاغريق كما رأينا يخضع للقيد الزمني والقيد المكاني ، فهو يعرض في الاصل لوحدة اجتماعية معينة في وقت معين ... وبعد القرن الخامس قبل الميلاد تغيرت نظرة المؤرخ للاحداث ، فلم يعد يخضعها للقيد الزمني ، واخذ التفكير الاغريقي يتجه الى ان التاريخ ينبغي ان يلتزم بوحدة جوهرية تربط بين مراحله الزمنية ، ومن ثم تغلبوا على الطابع الجزئي .

وتبين لهم ان هذه الوحدة الاجتماعية الجوهرية ، ترتبط بدورها مع عدة وحدات اخرى لا بد ان تظهر هي ايضا على المسرح التاريخي ، وهكذا مثلا كتب هيرودوت عن الفرس لا اهتماما بهم وانما لارتباطهم بالاغريق كاعداء لهم .

واذا كان الاغريق قد فطنوا ــ ربما قبل القرن الخامس ــ الى وجود عالم انساني يتألف من مجموعة من الوحدات الاجتماعية الجزئية ، فان الوحدة التي ينهض عليها هذا العالم كانت وحدة جغرافية ــ في نظرهم ــ وليست وحدة تاريخية ، ولهذا لم يدركوا وجود فكرة تاريخ عام ينتظم احداث العالم وتطورها .

ولما كان منهجهم في البحث التاريخي يستند ــ فيما يستند اليه ــ الى اقوال شهود العيان ، فقد اقتصر بحثهم على نطاق محدود من الاحداث بالقدر الذي تتسع له الذاكرة الانسانية .

فلما جاء **الاسكندر** وغزا شعوب المتبربرين (الذين لا يعرفون اللغة الاغريقية ولا ينهجون في اسلوب حياتهم النهج الاغريقي) ونشر حضارة الاغريق بينهم ، فاخذوا بأسبابها وتعلموا لغتها ، تحول العداء بين الاغريق والمتبربرين الى نوع من التعاون والتآخي ، ونظر الاغريق الى هذه الشعوب بوصفها ورثة لحضارتهم .

كذلك ادت غزوة الاسكندر الى خلق وحدة سياسية تشمل الجزء الاكبر من دنيا الانسان ، واصبح العالم وحدة جغرافية ووحدة تاريخية ، وارتبطت امبراطورية الاسكندر بتاريخ واحد ، هو تاريخ العالم الاغريقي الذي يؤلف وحدة تمتد من البحر الادرياتي غربا الى نهر السند شرقا ومن الدانوب شمالا الى الصحراء جنوبا .

هكذا ظهرت فكرة العالمية في عصر ما بعد الاسكندر وهو العصر الذي نسميه « العصر الهلينستي » وعاشت الفكرة في العصر الروماني واصبح من المستطاع كتابة تاريخ من نمط جديد ، يمتاز بالوحدة الواضحة ــ بصرف النظر عن مداها ــ ويقوم بكتابته مؤرخون يجمعون المادة العلمية ممن سبقوهم من المؤرخين .

ولقد كان بوليبيوس أول من فكر في كتابة تاريخ من هذا الطراز ، فهو يعرض لموضوع هام ، واعني به غزو روما للعالم ، ولكنه يبدأ قصته باحداث وقعت في ماض يرتد الى قرن ونصف قرن ، وبذلك نراه يؤرخ لخمسة اجيال لا لجيل واحد .

التاريخ عند الرومان

بانتاج المؤرخ الاغريقي بوليبيوس انتقل التفكير التاريخي من المفهوم الذى استنه المؤرخون بعد الاسكندر ، الى ايدى الرومان ، ثم شهد بعد ذلك تطورا اصيلا وهاما على يد شيخ مؤرخي الرومان « **تيتيوليفيوس** » .

فهذا المؤرخ هو مبتكر فكرة كتابة تاريخ روما منذ نشأتها الاولى ، معتمدا على من سبقوه من المؤرخين ، وعلى الجمع بين السجلات التي حفظت مراحل تاريخ روما المبكر وادماجها كلها فى مؤلف واحد .

ونحن نلمس فرقا واضحا بين المؤرخين الرومان والمؤرخين الاغريق ، فالرومان بطبيعتهم ماديون تغلب عليهم النزعة النفعية ، ولم يبرأ المؤرخون الرومان من هذه النزعة المادية النفعية ، والتي كانت سببا فى انشاء روما لدور السجلات الرسمية التي تخضع لاشراف هيئات دينية .

ومن هذه السجلات كتبت الحوليات ودونت الاحداث عاما بعد عام .

واعتقد الرومان أن تاريخهم وحده هو الخليق بالتدوين ، فهم ارقى الناس كافة ، وهم وحدهم الذين اختصوا بالفضائل السامية ، ولهذا جاء تاريخ ليفيوس تاريخا عاما يتناول الحقيقة التاريخية التي لا يرقى اليها شك ، وجاء تاريخا للعالم بأسره لأن روما أصبحت سيدة العالم بأسره .

وكان المؤرخون الرومانيون يدورون فى كل ما يكتبون حول محور رئيسي ، هو روما ذاتها ، واعتبر المؤرخ نفسه صاحب رسالة فى امته ، فهو يؤدي وظيفة وطنية حين يتحدث عن امجاد وطنه ويهدى اليها مواطنيه ... وهذه روح مادية نفعية ، كان لها ولا شك اثرها الضار على روح البحث الحيادى ، وعلى النقد الهادف الرشيد ، واللهفة على المعرفة المجردة .

وهكذا حصر المؤرخون الرومان كل اهتمامهم فى روما ذاتها التي غزت شعوب الارض واحدا بعد الآخر ، دون ان تعبأ حتى بمعرفة لغات هذه الشعوب فضلا عن آدابها وتقاليدها ، وبالتالي لم يهتموا بتدوين شيء عن هذه الشعوب الكادحة ، وركزوا اهتمامهم فى التحدث عن كبار القادة ورجال السياسة .

ومع ذلك فنحن نستطيع ان نقرر ان التاريخ عند الاغريق والرومان معا قد التزم بمحور واحد من المحاور الاربعة التي قلنا ان التاريخ الحقيقي يقوم عليها ، واعنى بها تناول التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تعرض لتاريخ الانسان ممثلا فى الشعب الروماني وما قام به من مجهود وما استهدفه من آمال وما اصابه من فشل او نجاح .

وكتاب التاريخ الاغريق والرومان يسلمون معا بوجود قوة الهية مقدسة ، لكنها لا تتدخل فى مجرى التاريخ بحيث توجهه توجيها جبريا ، انما هي ارادة عليا فيها تحبيذ ودعم لارادة الانسان الحرة ، وتلك هي الفلسفة الانسانية التي اعتنقها المؤرخون فى العصرين اليوناني والروماني .

التاريخ فى العصر المسيحي

تعرضت كتابة التاريخ لازمة خطيرة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، حين نشأت الفكرة التي

تنادى بان التاريخ علم كسائر العلوم ، أو هو ضرب من ضروب البحث العلمي ، وكانت تلك هي الازمة الاولى ، ثم تعرضت لأزمة ثانية في القرنين الرابع والخامس للميلاد حين خضعت فكرة التاريخ لتكييف جديد نتيجة للانقلاب الذى جاء في ركاب التفكير المسيحي .

لقد استحدثت المسيحية فكرتين رئيسيتين في كتابة التاريخ بعد النمطين الاغريقي والروماني : **الاولى** هي فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية ، **والثانية** هي الفكرة التي تقول بوجود قيم أبدية خالدة تكمن وراء عملية التغيير التاريخي .

اريد ان اقرر ان المسيحية بدلت الفكر البشري تبديلا بالغ العمق بحيث غير كل الأوضاع التي شاعت في العصر الروماني ومن بينها المنهج التاريخي ... كانت الثقافة اليونانية والرومانية آخذة في الافول، فحملت اليها المسيحية ثروة هائلة جديدة من القصص والاحداث والحكم والامثال المستقاة من التوراة .

ووجدت الشعوب نفسها امام هذه الثروة التي تمثل غذاء روحيا كانت في مسيس الحاجة اليه ، فاقتحمت عليها تلتهمها ، ثم ارادت أن تهضمها ، ولم يكن هناك سبيل الى ذلك الا اذا قدمت الحلول التي تفسر دقائقها وما يبدو فيها من متناقضات .

وقام بهذا العمل آباء الكنيسة من الاغريق والرومان ، وعلى رأسهم جميعا القديس اوغسطين (١٠) الذى فتح للتاريخ آفاقا فسيحة ، اذ سمح للفكر ان يرسل نظرة اجمالية الى مجموعة التواريخ الموجودة وايجاد تفسير لها ... فالمسيحية كما يرى ترشد معتنقها الى تصور تاريخي للكون يبدأ بالخلق كما جاء في التوراة وينتهي بالدينونة العامة اى يوم الحشر .

ومنذ وضع اوغسطين هذه البادىء لم ينس مؤرخ في الغرب أن التاريخ بمعناه الصحيح هو تاريخ البشرية كلها ، وان من يكتب تاريخ امة واحدة انما يصنع قطعة صغيرة من لوحة كبيرة .

والواقع اننا نلاحظ في اى تاريخ كتب على النمط المسيحي انه يتميز بصفة العموم ، فهو تاريخ عام شامل ، وانه قدري ، فالاله فيه قوة مسيطرة توجه الناس فيما يصنعون من احداث .

ولقد كان التاريخ اليوناني والروماني عاما للعالم ، لكن ليس بالمعنى المسيحي ، لانه ينبثق من مركز جاذبية خاص به ، له اسلوبه في تكييف الحوادث ، فاليونان او روما هما المركز الذى تدور من حوله الاحداث و لاتخرج عن فلكه ، اما التاريخ المسيحي العام فقد نبذ فكرة وجود مركز جاذبية من هذا النوع .

ثم ان التاريخ في العصر المسيحي لم يرد الاحداث لحكمة البشر ، ولكن لحكمة قدسية ، فالاله هو الذى يهيمن على نشاط البشر ويرسم الطريق للاحداث التي سبقت في علمه .

كذلك كان التاريخ في العصر المسيحي يهتم بحياة المسيح ، وكثيرا ما يجعلها محور الاحداث ، وقد قسمه المؤرخون الى حقب وفترات لكل فترة مميزاتها الخاصة وطابعها الخاص وفصل بينها وبين الفترة السابقة واللاحقة حادثة تعتبر ــ كما نقول ــ بداية عصر جديد .

---

(١٠) اوغسطين ولد سنة ٣٤٥ م وتوفى سنة ٤٣٠ م ، عاش في تاجستى في نوميديا ، كان أبوه وثنيا وامه مسيحية ، واعتنق الدين الجديد واصبح في عام ٣٨٦ م من أبرز رجاله وكتابه . وقد نذر حياته للتوفيق بين ما جاء في تعاليم الدين الجديد وما ألفه الناس من عقائد وثنية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والتاريخ بوصفه تاريخا للعالم اجمع من حيث المبدأ ، لا يقيم وزنا كبيرا لألوان الصراع الهائل الذي احتدم بين الفرس والاغريق أو بين روما وقرطاجه مثلا ، ولا يهتم بانتصار فريق وهزيمة آخر ، وانما يهتم بالنتائج التي تمخض عنها هذا الصراع ، هذه الفكرة هي التي غدت مألوفة تماما في نمط الكتابة في العصر المسيحي ، واكبر رمز يشير الى فكرة التاريخ العام هذه ، هي اختيار توقيت ينتظم الاحداث التاريخية جميعا ، وهذا التوقيت العام الواحد هو تاريخ ميلاد المسيح الذي استحدثه ايسيدور الاشبيلي في القرن السابع للميلاد ، فكل احداث الماضي والمستقبل تؤرخ بميلاد المسيح .

كذلك شاعت فكرة توجيه القدر للأحداث ، كما شاعت فكرة تناول اخبار الكنيسة .

هذه هي الافكار التي شاعت في الكتابات التاريخية تحت تأثير المسيحية ولم يكن لها وجود على الاطلاق عند اليونان والرومان .

كتابة التاريخ في العصور الوسطى

تعتبر كتابة التاريخ في العصور الوسطى ـ في جانب من جوانبها ـ رجوعا الى الاسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الاسكندر الاكبر وعلى ايام الرومان . فقد اعتمد مؤرخو هذه العصور على المصادر التقليدية يستنبطون منها الحقائق ، ولكنهم لم ينقدوا هذه المصادر ولم يحللوها التحليل العلمي الدقيق ... واذا كان بعض مؤرخي العصر قد قاموا بمحاولة للنقد ، فان هذه المحاولة كانت تستند الى التقدير الشخصي لكل منهم دون استناد الى منهج علمي ، لذلك كانوا يصدقون كل ما جاء في مصادرهم .

ومع ذلك نجد مؤرخ العصور الوسطى يختلف عن مؤرخ مثل ليفي الروماني من حيث كونه يعرض مادته مرتبطة بتاريخ العالم ككل ، وكانت القومية قد غدت حقيقة واقعة في العصور الوسطى ، وبدأ الصراع القومي يظهر ثم يشتد ، وبدأ الاعتزاز بالقومية يأخذ مكانه في الكتابة التاريخية .

واتجهت فكرة المؤرخين الى ان التاريخ يمضي بمشيئة الهية ، وان هذه المشيئة تنتظم الاحداث كلها ، والانسان عنصر فيها ، مهمته اقرار المشيئة الالهية .

اما المهمة الكبرى التي انيطت بمؤرخي العصور الوسطى فكانت الكشف عن الخطة الالهية وتفصيلها .

والذي حدث هو أن تيار الفكر التاريخي انتقل من دراسة اجتماعية الى دراسة مجردة محدودة تنبثق من سلطان الكنيسة ، لقد اعترفوا بالدور الذي تؤديه المقادير في الاحداث التاريخية ، لكنهم حددوه بصورة ينتفي معها وجود اى مجال لنشاط الانسان ، وكانت النتيجة هي عجز المؤرخين عن التنبؤ باحداث المستقبل ـ لانهم يجهلون ما يخفيه القدر ـ وانصرافهم الى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاقه نفسه ، لان بحثهم كله كان يهدف الى الكشف عن سياق الاحداث انطلاقا من عقيدة راسخة في ان القدر هو الذي وجه هذه الاحداث ، بعيدا عن ارادة الانسان .

ومن هنا اتسمت كتابة التاريخ في العصور الوسطى باهمال الدور البشري فيه ، وبالتالي لم يكن ثمة مجال لنقد او تحليل ... لقد كانت المصادر بين ايديهم لكنهم فرضوا على انفسهم قيدا شديدا وجعلوا همهم الاول هو دراسة خصائص الذات العليا المقدسة .

وبرغم كل شيء فنحن نستطيع ان نقرر ان كتابة التاريخ في العصور الوسطى كانت السبب في الاحتفاظ لنا بالتسلسل التاريخي خلال الاجيال دون انقطاع .

وعرفت العصور الوسطى التراجم التاريخية التي تتناول سير القديسين لتكريمهم وتخليدهم واظهار ما تحملوه من آلام في سبيل العقيدة، ولكن الحقائق كانت تتراجع كثيرا في هذه التراجم امام المبالغات المسرفة ، وبدأ كتاب التاريخ في العصور الوسطى يلجأون الى الأساليب العلمية في استقاء المعلومات ، ذلك ان هذه العصور بحروبها المتصلة لم تقطع اسباب الدوام والاتصال في حياة هيئات عديدة ، كالأسر الاقطاعية والكنسية ، وعاشت هذه الهيئات اياما بالغة العنف ، كانت الحقوق فيها تضيع وتنكر ، وكان البطش فيها يسود ويحكم ... ولهذا كان لا بد من الحرص على وثائق الملكية ، فامسكت دفاتر الحسابات التي تثبت الحقوق وتؤكدها ، وغدت هذه الدفاتر سجلات تاريخية هامة ومصادرا من اهم مصادر التاريخ ، كما اتجهت الاسر الاقطاعية الى تسجيل تاريخها ، فنشأ نوع من التاريخ الأسرى .

ونظرا لاتساع ثقافة رجال الدين آنذاك ، فقد اصبحوا مؤرخي العصر حتى القرن الخامس عشر حين انتقلت هذه الصفة الى رجال القانون ، فادخل هؤلاء في كتاباتهم اللمسة القانونية واستندوا الى الصكوك والوصايا والعقود . فكان ذلك بدوره سببا في ظهور المزيف منها، وكان بعض هذه ذا اثر عميق في مجرى الاحداث ، كالوصية التي زعموا انها صدرت عن الامبراطور قسطنطين لصالح البابا قبل رحيل الاول لبيزنطة ، اذ أوصى له بملكية روما .

التاريخ في عصر النهضة

كان على مؤرخي نهاية العصور الوسطى ان يوجهوا كتابة التاريخ توجيها جديدا فيخلصوها من الخضوع لنظريات اللاهوت والفلسفة التي سيطرت على مجرى الاحداث التاريخية ورسمت لها مسارها دون اى اعتبار للواقع المادى ولنشاط الانسان في رسم هذا المسار .

وحين جاء عصر النهضة الاوربية عاد الناس الى تقييم التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تستند الى اسلوب علمي ، والى كتابته استنادا الى اعمال الانسان ونشاطه في تحديد مساره تماما كما كان الحال في العصرين الاغريقي والروماني .

وكانت النتيجة الاولى لذلك هي البدء في تنظيف المادة التاريخية التي كتبت في العصور الوسطى مما علق بها من خرافات لا اساس لها ، كما كان من نتائجها ايضا البدء في كتابة النتائج على اسس نقدية تحليلية .

والواقع ان النظم في الدول الاوربية كانت قد تقدمت تقدما كبيرا في عصر النهضة ، واخذت العلاقات بين هذه الدول تتشابك وتتعقد ، كما اكتمل فن الدبلوماسية واتضحت اساليبه ، وبالتالي فقد اصبحت كل دولة بحاجة الى هيئة منظمة تتولى كتابة تاريخها .

والامر الذى نلاحظه بوضوح تام في كتابة التاريخ في عصر النهضة هو أن حكام الدول اخذوا يستعينون بالادباء لتدوين تاريخ دولهم ، فبرز الاسلوب الادبي ولا سيما في ايطاليا بوصفها الدولة التي سبقت دول أوربا جميعا الى عصر النهضة .

لقد بدأ التاريخ اذا يفقد طابعه الديني ، وسيطر المذهب العقلي على كتابه ، فاستبعدت الخوارق والمعجزات ، واصبح هدف المؤرخ هو التثقيف السياسي لا مجرد القاء المواعظ وحمل الناس على الأخذ بأسباب الدين .

ولم يعد هناك كذلك اهتمام بذكر بالكونيات، وانما تركزت كتابة التاريخ حول الدولة ذاتها بوصفها المحور الرئيسي الذي ينبغي ان تدور حوله الاحداث ، واصبح المؤرخ ذاته في الصف الاول من رجال الدولة .

وتبعا لذلك فان المؤرخين لم يحفلوا كثيرا بالجماهير ولم يهتموا بالشعب ، وانما تركز اهتمامهم على بلاط الملوك والامراء والحكام وعظماء الرجال .

وسرعان ما حذا الاسبان والفرنسيون حذو ايطاليا ، فاصبح لكل دولة مؤرخها الرسمي ، فكان **راسين** هو مؤرخ فرنسا الرسمي بأمر من ملكها لويس الرابع عشر ، وفيما بعد خلع هذا اللقب على **فولتير** .

واتبع امراء المانيا نفس القاعدة . فنجد امراء هانوفر يعينون الفيلسوف الشهير Leibmitz مؤرخا لامارتهم .

وفي انجلترا ظهر ماكولي ومن قبله كلارندون مؤرخان للاحزاب بعد تغلب البرلمان على العرش في القرنين ١٧ ، ١٨ ، فانصرفا بكل جهودهما لتوضيح المسائل الدستورية والقضائية مع الاشادة بعظماء الحزب .

ويعتبر **فولتير** ومعاصره هيوم امامي مدرسة جديدة في التفكير التاريخي ورائدي حركة جديدة في كتابة التاريخ ، هي حركة الاستنارة ، ونحن نقصد بكلمة الاستنارة تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر والتي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميادين الحياة الانسانية والتفكير ، وهي في واقعها ثورة على الدين الذي يقيد النشاط الانساني ، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه غايتها تحرير الانسان من كل قيد على فكره وتصرفاته .

لقد تقيد التدوين التاريخي في عصر الاستنارة بفكرة البحث التاريخي ، فكان ذلك مدخلا للتاريخ العلمي ، الذي استنفد اقراره جهودا صامتة جاءت بمثابة فاتحة لعهد جديد ، وكان السبب في هذا التطور تلك المناظرات التي انصبت على الأمور الدينية بين البروتستانت ومخالفيهم .

وظهرت في بلجيكا جماعة من اليسوعيين ارادت ترجمة حياة القديسين على حقيقتها ، فكان لا بد من تقويم اعوجاج الاساطير العديدة ، وبدأ افراد هذه الجماعة يشككون في صدق كل الوثائق القديمة استنادا الى ذلك التزييف الطاغي الذي لمسوه في سير القديسين .

ومن هنا ظهرت جماعات الباحثين الذين وجهوا كل اهتماماتهم الى نقد الوثائق ، واصبح هذا النقد فنا له اصول وقواعد .

وما لبثت هذه النزعة العلمية ان انتشرت فاذا الفرنسيون يميلون الى كتابة التواريخ العلمية واذا الاهتمام باللغات يزداد زيادة كبيرة ، واذا الوثائق تصبح الشغل الشاغل للباحثين في كل انحاء اوربا ، وبعد ظهور كتاب **ديكارت** Discours de la Methode ، اصبح منهجه قاعدة

للباحثين ، وعلى اساسه استبعدت كل شواهد التاريخ المؤسسة على العقيدة وحدها ، واصبح الشك هو الاساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول الى المعرفة .

ولم يعد المؤرخ يستسلم لخياله ، أو يقصر همه على دراسة الوثائق ونشرها ، وانما كان عليه ان يهتم بالأحداث والوثائق جميعا ، وان يناقش هذه وتلك ، ويعرض نتيجة عمله فى اسلوب ادبي.

هكذا كانت نهضة البحث التاريخي فى القرن الثامن عشر .

واذا كان العظماء قد استطاعوا فيما قبل اغراء كتاب التاريخ على العمل لفائدتهم ، الا ان الاوضاع تغيرت فى القرن التاسع عشر واصبح العصر عصر اتصال الكاتب بالجمهور اتصالا عفويا ، واصبح البحث موضوعيا يستهدف النتائج ولا يستلهم فائدة سياسية يجنيها فرد او حزب ، وغدا التاريخ عملا علميا محضا يحاول به صاحبه كشف ماضي الانسان على اسس علمية .

ومعنى ذلك ان الجهد المبذول فى الكتابة كان جهدا مجردا منزها ، بمعنى ان التاريخ الذى كان رواية لما يثير ، اصبح رواية للحياة اليومية للمجتمعات ، واذا كان تاريخ الافراد يكتفى بسرد الوقائع ، فان تاريخ المجتمعات يقتضينا اعمال الفكر ، وانتقاء الحدث النموذجي ، الامر الذى يتطلب التعرف التام على خصائص هذا المجتمع ، ومن هنا سلك التاريخ سبيله الى ان يصبح دراسة انسانية تتصل بالحياة البشرية عموما فى شتى نواحي انشطتها المختلفة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مشكلة البحث التاريخي ومنهجه

لا تختلف مشكلة البحث التاريخي عن غيرها من مشكلات البحث فى اى علم آخر ، فلا بد ان يدرك الباحث انه يبحث ليزيح الغموض الذى يكتنف موضوعا من الموضوعات ، او ان هناك شيئا يتطلب الايضاح .

والمشكلات التي يراها المؤرخون اساسية تتطلب البحث ، تختلف من جيل الى آخر ، اعني ان المؤرخ الذى يتصدى لاختيار الوقائع التي تبدو له اساسية بالنسبة لجيل من الاجيال ، لا يمكن ان يراها كذلك بالنسبة لجيل آخر لان الظروف والاوضاع تتغير ، ولان ميول الانسان تتغير كذلك .

ومن هنا نقول ان المسألة الرئيسية فى الدراسات التاريخية هي تحليل التغير عبر الزمن ، ونقول ايضا ان معطيات المؤرخين هي الحوادث المترابطة زمنيا ، ولهذا فان كل حادثة تاريخية ، مهما تكن مشابهة لغيرها ، تكون فريدة فى بابها من بعض الزوايا ، ولهذا ايضا نقول ان التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا مفر للمؤرخ من ان يدخل عنصر الزمن فى اعتباره عند البدء فى القيام بعملية التحليل .

واذا كان من المسلم به ان الهدف من كل بحث ، هو المعرفة وفهم العلائق ، فان البحث التاريخي يقتضينا الكشف عن اوجه ترابط الاحداث المتتابعة زمنيا – لا مجرد سردها – من حيث ان بعضها يكون عللا وبعضها الآخر يكون معلولات .

ولقد تحدثنا فيما سبق عن الصفات التي ينبغي ان تتوفر فيمن يتصدى لكتابة التاريخ

ونريد الآن ان نتحدث عن المنهج التاريخي ،اعني الطريق الذي ينبغي على المؤرخ ان يسلكه ليمضي في مهمته على أسس سليمة ، وليخرج لتاريخه صادقا قدر الطاقة ، مصطبغا بالصبغة العلمية ما وسعه ذلك .

ومنهج البحث التاريخي في تعريف مبسط هو المراحل او الخطوات التي يمضي فيها الباحث حتى يصل الى الحقيقة التاريخية عن طريق فحص وتحليل سجلات الماضي ومخلفاته ثم يدونها ليقدمها للناس ، والحقيقة التاريخية غير مطلقة ، فمن العسير جدا بلوغ الحقيقة المطلقة لأى شيء في الماضي ، بل وفي الحاضر ، وذلك لعوامل كثيرة تعترض سبيل من ينشدها ، ومن اهمها ضياع البراهين وانطماس الادلة ، وتدخل الاغراض والمصالح ، لذلك تقرر منذ البداية ان الحقيقة التي يصل اليها المؤرخ لا تعدو ان تكون حقيقة نسبية ، كلما زادت نسبة الصدق فيها اقتربت من الحقيقة المطلقة . وحين يبدأ الباحث في التاريخ عمله – ولا سيما في التاريخ القديم – فانه لن يجد بين يديه ما هو بحاجة اليه من مصادر مكتوبة، وبالتالي فانه يستخلص مادته من مخلفات الانسان وآثاره المادية ، كالنقوش والصناعات والآثار ، وهذه جميعا تحتفظ لنا بكثير من الحقائق التاريخية ، ويحتاج المؤرخ الى بذل كثير من الجهد لاستنباط هذه الحقائق من تلك الآثار والمخلفات الصامتة (١١) .

ويحاول المؤرخ باستخدام المنهج التاريخي والتدوين التاريخي ان يرسم صورة لماضي الانسان بالقدر المتاح له ، ونحن نسمي العمليتين معا في كثير من الاحيان « بالمنهج » لانهما دائما متلازمتان متواكبتان ، كلاهما جزء من عمل واحد .

ويخضع المنهج التاريخي لقواعد وتنظيمات، وهكذا كان منذ كتب المؤرخ الاغريقي **ثوكيديديس** كتابه عن « الحروب البلوبونزية » ، فلقد قال لقرائه بصراحة وامانة الكيفية التي جمع بها مادته ، كما روى الاختبارات التي طبقها ليفصل الحقيقة عن الخرافة والاسطورة ، ونحن نعرف انه الف خطبا انطق بها معاصريه من امثال بركليز ، فبذل غاية الجهد في استقصاء المصادر المتوفرة لديه كي يجعل هذه الخطب اقرب ما تكون الى الاصل ، وكان يأمل ان يصل الى حرفية الخطبة لكنه لم يستطع .

ومنذ ايام ثوكيديديس كتب العديدون في المنهج التاريخي باسهاب احيانا وفي ايجاز احيانا اخرى ، ومن امثلة ذلك **لوكيانوس** السفسطائي الاغريقي (ولد حوالى ١٢٥ م) وابن خلدون وفولتير . ولكن الدراسة الاكاديمية للمنهج التاريخي لم تبدأ الا بعد ان الف Ernest Bernleixm كتابه المشهور « تعلم المنهج التاريخي والفلسفة التاريخية عام ١٨٨٩ » ، وفيه وضع ارنست الخطوات التي يجب على المؤرخ ان يخطوها والعقبات التي تعترضه وكيف يذللها ، والمهالك التي قد يقع فيها وكيف يتحاشاها ، ولا يزال هذا المؤلف حتى اليوم اكمل ما صنف في بابه .

ومن بعد جاء العالمان الفرنسيان **شارل سنيوبوس** Ch. Signobos **وشارل لانجلوا** " Ch. Langloi " فاصدروا في عام ١٨٩٨ كتابهما المعنون « مقدمة في الابحاث التاريخية » فجاء مختصرا دقيقا ومفيدا .

---

(١١) Oman, Ch. : The Writing of History, p. 26.
وحسن عثمان – منهج البحث التاريخي – ص ٢٠ – ٢١ .

ونحن نستطيع ان نقول ان المنهج التاريخي يتألف من مجموعة العناصر الآتية :

١ ـ الثقافة الواسعة .

٢ ـ اختيار الموضوع .

٣ ـ جمع المادة .

٤ ـ نقد المادة .

٥ ـ ترتيب الحقائق .

٦ ـ انشاء الصيغة التاريخية .

ومن المقرر ان قيمة التاريخ الذى نقراه فى الكتب تعتمد اساسا على اتساع ثقافة الكاتب واتقانه لمنهج البحث التاريخي ، كما تعتمد على استعداده وملكاته الشخصية ومدى تمتعه بالصفات التي سبق ان تحدثنا عن وجوب توافرها فى المؤرخ .

ولا شك ان الثقافة الواسعة هي الركيزة الاولى التي لا بد منها لكتابة تاريخ علمي صحيح ، والمقبل على كتابة تاريخية ينبغي ان يعرف تماما انه بصدد مهمة شاقة تقتضي منه الدراسة العميقة والتحصيل الجاد المتنوع ، والتاريخ فى هذا كله لا يختلف عن غيره من سائر العلوم ، فالمعرفة بعامة متداخلة متشابكة وليس فى وسع احد ان يدرس علما بذاته مستقلا تماما عن العلوم الاخرى ، فما هي العلوم المساعدة التي تعين المؤرخ على اتقان عمله ؟

العلوم المساعدة :

يتصل التاريخ اتصالا وثيقا بكثير من صنوف المعارف الانسانية ، ومن يتصدى لكتابته لا بد له من تحصيل هذه المعارف اولا ، لانه حين يحصنها يستطيع ان يحسن ما يكتب من الدراسات التاريخية .

ونحن نسمي هذه المعارف عموما بالعلوم المساعدة او العلوم الموصلة ، وهي بطبيعة الحال تختلف بالنسبة للدارس باختلاف العصر او الموضوع الذى يريد ان يتناوله ، فدارس التاريخ القديم مثلا تختلف علومه المساعدة عن علوم دارس تاريخ العصور الوسطى ، وهذا تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الاسلامي او التاريخ الحديث .

الواقع ان اللغات تاتي فى مقدمتها جميعا ، لانه لا فكاك من ضرورة معرفة اللغة الاصلية الخاصة بموضوع البحث التاريخي ، ومهما كان لدينا من ترجمات ، فانها قد تفي باحتياجات من يستهدف الحصول على ثقافة عامة ، لكنها لا تكفي ابدا للمؤرخ الذى يستهدف الفهم الكامل العميق للناحية التي يريد ان يتناولها ، اعني ان الذى يريد ان يدرس ناحية من نواحي التاريخ المصرى القديم ، لا يستطيع ان يفعل ذلك الا اذا تعلم اللغة الهيروغليفية ، والذى يريد الكتابة فى موضوع من موضوعات التاريخ الاغريقي ، لا بد ان يعرف اللغة الاغريقية القديمة ، والذى يريد ان يكتب فى موضوع من موضوعات التاريخ الاوربي الوسيط ، لا بد له من معرفة اللغة اللاتينية .

وذلك هو السبيل الوحيد الذى يمكن الدارس من قراءة النصوص الاصلية بلغتها الاصلية ، وكلما تنوعت اللغات القديمة التي يعرفها الباحث ، اتسع امامه افق البحث ،

ولا يصدنه عن تعلم هذه اللغات صعوبتها ، والاقاولى به ان يتخلى تماما عن التصدى لهذه التخصصات القديمة .

وينبغي على الباحث ايضا ان يكون عارفاباكثر من لغة من اللغات الاوربية الحديثة الشائعة، لان اللغات الاوربية كلها غنية بتراثها التاريخي ،ولا يجوز للدارس ان يفوته الاطلاع على هذا التراث كي يفيد منه الافادة القصوى .

ونحن لا ننكر ان تعلم اللغات القديمة بالذات امر فيه كثير من العسر والصعوبة ، ولهذا اخذ الدارسون الشبان من خريجي الجامعات فى بلادنا العربية ، يبتعدون عن التخصصات التي تتطلب العلم بهذه اللغات ، وهذا امر مؤسف حقا ، كانت نتيجته ندرة المتخصصين عندنا فى فروع التاريخ القديم بعامة ، والذى ادعو اليه ان يتخلى الشباب الدارسون عن الخوف من دراسة اللغات القديمة شرقية كانت ام غربية ، وان يقدموا عليها فى شجاعة وثقة بالنفس ، ولسوف يجدون بعد بضعة اشهر انهم خطوا خطوات طيبة فى تعلم هذه اللغات ، ولسوف يدفعهم ذلك الى مواصلة الدرس فى اصرار وتصميم ، ان الدراسة الجادة على مدى عام واحد لاية لغة قديمة تكفي لوضع اساس طيب للاستمرار وتحصيل المزيد .

ويأتى بعد ذلك علم قراءة الخطوط Paleography ، فهو علم لازم لدراسة التاريخ القديم والوسيط ، بل ولدراسة الفترات المبكرة من التاريخ الحديث ، وتبدو لنا اهمية هذا العلم واضحة جلية حين نتصدى لدراسة تاريخ الشرق القديم وتاريخ اليونان والرومان وتاريخ العرب قبل الاسلام وتاريخ العصور الوسطى وتاريخ الشرق الادنى الحديث حتى القرن التاسع عشر .

ونحن نستطيع عن طريق هذا العلم ان نحدد تاريخ اية وثيقة غير مؤرخة تعرض لنا تحديدا مضبوطا بمجرد النظر الى الخط الذى كتبت به وخصائصه ، وليس ثمة شك فى ان معلوماتنا سوف تظل قاصرة عن قرون كاملة وطويلة من تاريخ البلاد التي خضعت للعثمانيين ، ما لم يوجد من يدرس خط القيرمة مثلا ، الذى دونت به وثائق النظم الادارية والمالية فى ظل الحكم العثماني لهذه البلاد ، ولا سيما مصر ، التي شاع بها استعمال هذا الخط ابتداء من القرن الحادى عشر الهجرى ، والتي تفيض دار محفوظاتها بالقلعة بآلاف من الوثائق المكتوبة بخط القيرمة ، وكذلك دمشق التي توجد بمكتبتها الظاهرية مجموعة كبيرة من الوثائق المدونة بنفس الخط وتتناول ـ فيما تتناول ـ تاريخ فخر الدين المعنى الثاني امير لبنان .

ومن العلوم المساعدة الهامة للمؤرخ علم « النوميات » أو علم النقود المسكوكة ، فالعملة القديمة تحمل عادة صورا للآلهة التي كان الناس يعبدونها ، كما تحمل صور الملوك والامراء واسمائهم ، وهذه كلها تمد الباحث بمادة تاريخية اصيلة عن العصور القديمة والعصور الوسطى على السواء ، كما تعيننا على دراسة الاساطير والديانات والفنون والنشاط التجارى فى الفترات التي ترجع اليها هذه المسكوكات .

اما الجغرافيا ، فانها من المواد المساعدة التي لا يستغنى عنها الباحث فى التاريخ ، ذلك ان الارتباط بين الجغرافيا والتاريخ ارتباط عضوى وثيق ، فالأرض كما يقال هي المسرح الذى مثلت فوقه الاحداث التاريخية .

وليس ثمة شك فى ان لجغرافية اى اقليم اثرا كبيرا على توجيه مسار تاريخه ومن ثم على مصائر اهل هذا الاقليم .

ان الناس في اية بيئة من البيئات يتفاعلون معها تفاعلا تلقائيا تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ، ومن ثم يتشكل تاريخهم تشكيلا يتفق والبيئة ، وبالتالي يتحدد مسار تاريخهم .

ومن ابرز الامثلة على اثر الطبيعة الجغرافية في تاريخ قوم من الاقوام ، مصر ، فالنيل هو مصدر حياتها وهو الذى شكل تاريخها ووجهه الوجهة التي سار فيها ، لقد تعلم منه سكانها هندسة الري ، وادركوا بفضله معنى الوحدة والتعاون وجعلهم من اقنى شعوب العالم القديم واسبقهم الى الاخذ بأسباب التقدم الحضارى .

وينبغي للمؤرخ ان يلم بعلم الاقتصاد الماما يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ ، فنحن نعرف ان السياسة الداخلية لدولة من الدول تعتمد اعتمادا كبيرا على مدى ثرائها الطبيعي ونشاطها التجارى ، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية في بلد ما تحدد عادة نوع الحكم فيها ومستوى الرخاء العام بها وعلاقة طوائفها ببعضها ، وفضلا عن ذلك فان الرخاء الاقتصادى يؤثر تأثيرا هائلا في علاقة الدول ببعضها ، لا في النواحي الاقتصادية وحسب ، وانما في النواحي السياسية ايضا .

ان كثيرا من الحروب والغزوات ، والحروب الاستعمارية ، كان الدافع اليها دافع اقتصادى بحت ، ومكانة الدول في عالمنا الحديث تتوقف قبل كل شيء ايضا على أوضاعها الاقتصادية .

والأدب من العلوم المساعدة التي يلزم المؤرخ ان يلم بها ، فادب القوم هو مرآة حياتهم وحضارتهم ، وهو التعبير الصادق من افكارهم وعواطفهم الانسانية ، وهو الذى يكشف دخائل الافراد ويصور لنا احلامهم وامانيهم ، والادب في مجالاته المختلفة يرسم لنا اوضاع الشعوب ونظمهم وشتى جوانب حياتهم .

ونحن اذا تناولنا الأدب المصرى القديم ـ برغم قلة ما وصلنا منه ـ او الادب الاغريقي او الادب الروماني ، نجده يفيض بالمعلومات التي ترسم لنا تاريخ هذه الشعوب رسما دقيقا واضحا .

وقد تكون مخلفات اديب واحد معينا هائلا للمؤرخ ، يستقي منه معلومات تاريخيه هامة لم تكن لتتاح له لولا هذه المخلفات ، فالياذة هوميروس و « العمل والايام » **لهيسيودوس** ومسرحيات **ايسخولوس وسوفوكليس ويوربيدس** عند الاغريق القدماء ، وآثار دانتي الادبية التي ترجع الى اواخر العصور الوسطى في ايطاليا ودراسة الادب العربي الحديث ، كلها تعتبر من المصادر التي لا غنى عنها لمن يريد التصدى للبحث في التاريخ السياسي والاقتصادى والاجتماعي لتلك الازمان ، البعيد منها والقريب على السواء .

ونرى كذلك ان الاحاطة بفنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة في عصر من العصور مسألة ضرورية بالنسبة للباحث في تاريخه ، وان آثار مصر القديمة او آثار العراق القديم او آثار الاغريق والرومان ، كلها تعطينا صورا واضحة لحضارات هذه البلاد وتمدنا بفيض من المعلومات عن تقاليد اصحابها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية .

بل ان هذه الآثار الفنية تعتبر المصدر الوحيد لتاريخ الشعوب التي عاشت قبل معرفة الكتابة ، فلم تترك لنا اية سجلات او مدونات ، وانما تركت فقط آثارها لنستنطقها ونستنبط منها تاريخها .

وفضلا عن ذلك كله ، يستطيع الباحث في التاريخ أن يزود نفسه بقسط من علوم المنطق والفلسفة والاجتماع والنفس والقانون ، فكلها تفيده في البناء التاريخي لموضوع دراسته ، وفي عقد المقارنات وتفسير الظواهر بحيث يخرج تاريخه متكاملا وبحثه وافيا .

وعلى المؤرخ في النهاية الا يعتمد على ما يتاح له من مراجع ومصادر فحسب ، انما عليه ان يعتمد ايضا على ما حصله هو شخصيا من خبرة بالحياة العملية بين اهله وعشيرته وقومه ووطنه ، فذلك زعيم ان يجعله اقدر على فهم تصرفات البشر في الماضي وتقدير الظروف التي احاطت بهم وادت الى توجيههم توجيها معينا .

وعلى المؤرخ ايضا الا يكتفي بالدرس والبحث داخل نطاق بلده وحده ، انما يتحتم عليه ان يسافر ويرتحل خارجه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فذلك سوف يفتح امامه آفاقا جديدة رحبة ويكسبه خبرة واسعة باقوام وبيئات متباينة ، ومن الواجب عليه ان يقوم بزيارة البلد الذي يكتب عنه ، وان يشاهد بنفسه الاماكن التي يتناولها في بحثه ، وذلك كفيل بأن يضفي على ابحاثه مزيدا من الدقة ومزيدا من نبض الحياة .

وبعد ، فذلك الذي تحدثنا عنه في الصفحات السابقة ، يعطينا موجزا عن الثقافة الواسعة التي يتعين على المؤرخ ان يزود نفسه بها ، ومفهوم بطبيعة الحال اننا لا نطلب من المؤرخ ان يتوسع ويتعمق في كل هذه العلوم المساعدة ، فذلك مستحيل ، انما نطلب منه فقط الالمام بها الماما طيبا ولا باس عليه اذا هو تعمق ناحية بذاتها من هذه الدراسات تكون لها صلة مباشرة وثيقة بموضوع بحثه التاريخي .

ARCHIVE

اختيار الموضوع :

ذلك هو العنصر الثاني من عناصر المنهج التاريخي ، وعملية اختيار موضوع تاريخي معين لدراسته والكتابة فيه تتصل اتصالا وثيقا بميول الباحث ومدى المامه بالعلوم المساعدة التي يتطلبها البحث في هذا الموضوع ، وهي في الواقع اول مشكلة تواجه من يتصدى للكتابة التاريخيه ، ومن واجبه ان يصرف فيها وقتا كافيا حتى يستقر على ما يريد ، ويضمن قدرته على المضي فيه .

ويختلف موضوع اختيار البحث باختلاف وضع الراغبين فيه ، فمثلا طالب الجامعة المبتدىء في التخصص لا يستوى مع طالب الدراسات العليا الذى انهى دراسته الجامعية الاولى ، وبدا يتطلع للحصول على الماجستير ثم الدكتوراه ، وكلاهما لا يستوى مع المتخصص الكبير الذى امضى حياته في كتابة التاريخ .

فطالب المرحلة الجامعية الاولى يدربه اساتذته على وسائل تحصيل المادة وجمعها ، وهذه الوسائل هي التي تصبح اسلحته في المستقبل للعمل العلمي الاصيل المبتكر ، ونحن لهذا السبب لا نطالبه بالكتابة التاريخية للوصول الى نتائج علمية جديدة لم تكن معروفة من قبل ، انما نحن نساعده في اختيار موضوعات من تلك التي سبقت دراستها بهدف تمرينه وتدريبه على الاقتباس ، واعادة الكتابة في الموضوع بترتيب جديد وتبويب جديد وعرض جديد ، معتمدا على المصادر والمراجع التي يرشده اليها استاذه ، فاذا جمع من هذه وتلك ما يراه متصلا بموضوعه ودونه في مذكراته ، كان عليه بعد ذلك ان يجمع ما حصل عليه من معلومات ، وان يميز بين ما يتعلق منها

بالنقاط الجزئية فى المراجع المختلفة ، ثم يعمد الى المقارنة بينها حتى ينتهى الى ما يريد ويعرضه بعد ذلك فى اسلوبه الخاص .

وغالبا ما يكون الموضوع الذى يختاره الطالب فى هذه المرحلة الاولى من كتابة البحوث ، موضوعا عاما شاملا ، ثم يتدرج بعد ذلك ـ تحت اشراف استاذه ايضا ـ الى اختيار الموضوعات المحددة التي تهتم بجانب واحد من جوانب الموضوع الشامل الذى كتب فيه أولا . . . وهنا يكون موضوع البحث أضيق واكثر تحديدا ، وبالتالي يصبح اكثر عمقا .

على هذا النحو ينبغى ان يكون التدرج فى اختيار موضوعات البحث بالنسبة لطلاب المرحلة الجامعية الاولى ، فلسوف يتعلم قبل كل شيء فائدة الالمام بالموضوع الواسع الشامل ، ثم يتعلم الانتقال الى الموضوع المحدد ، وهذا يدربه على الاهتمام بالجزئيات مع الاهتمام فى نفس الوقت بالنظرة العامة الى الموضوع الذى يدرسه .

ويستطيع الاستاذ الجامعي ان يوجه طلابه فى المرحلة الاولى الى كتب بعينها من كتب التاريخ الهامة الجيدة التي تتناول موضوعا بعينه من الموضوعات التاريخية ، ويطلب منهم ان يلخصوا هذه الكتب بحيث تصبح فى نصف حجمها ثم فى ربعه ثم فى صفحات محدودة ، وحبذا لو كان الكتاب المختار مكتوبا بلغة اجنبية ، وسوف يستفيد الطالب كثيرا من هذه العملية لانها تعلمه القدرة على الاستيعاب ثم التركيز ، الى جانب الحصول على معلومات تاريخية جديدة ، واجادة اللغة الاجنبية التي يقراها .

كذلك يستطيع الاستاذ ان يرشد الطالب الى دراسة بعض الوثائق الاصلية المنشورة ، أو بعض الوثائق المخطوطة ، لاستخراج المعلومات الواردة فيها عن موضوع معين ، وهذا تدريب لابد منه لاعداد المتخصص فى التاريخ .

فاذا اتم الطالب هذه المرحلة الجامعية ، وحصل على هذا القسط من التدريب على الكتابة التاريخية مستعينا بالمصادر والمراجع والوثائق ، وانتقل الى المرحلة التالية ، مرحلة التخصص الدقيق ، وعزم على المضي فى الكتابة لاعداد رسالة للماجستير والدكتوراه ، فان الوضع بالنسبة لاختيار الموضوع يتغير .

هنا يصبح الباحث مسئولا عن اختيار موضوع بنفسه ، وعلى استاذه المشرف ان يتحقق من ذلك ، لان العلاقة بينهما لم تعد كما كانت ، علاقة موجه ومشرف على طالب مبتديء ، انما أصبحت علاقة زمالة ومساواة فى تحمل المسئولية ، تقوم على النقد الحر الذى يتقبله الاستاذ من تلميذه ، كما تنهض على اساس من التقدير المتبادل .

ولقد يقال ان الطالب حديث التخرج قد لا يستطيع الاستقلال باختيار موضوع بحثه ، لانه لم يلم بعد الماما كافيا بالعصر الذى يريد الكتابة فيه ، لكن هذا لا يبرر ان يملى الاستاذ على تلميذه موضوع البحث املاء ، انما عليه ان يرشده ويوجهه فى صبر واناة ، وان يطلب اليه مزيدا من القراءة فى الموضوع وما حوله ، حتى يصبح قادرا على الاختيار الموفق بنفسه ، فتلك مسئوليته وحده .

والباحث فى مرحلة الماجستير ، يعتبر فى الواقع فى دراسة ابتدائية فى مجال التخصص ، ولهذا فنحن نتجاوز عن الزامه بالاتيان بجديد فى الحقل التاريخي ، ونكتفي بالجهد الذى يبذله مخلصا

فى تحصيل المادة التاريخية من اصولها ، ثم تصفيتها وترتيبها وعرضها عرضا سليما ، ولعله ينتهى بعد ذلك الى جمع شتات موضوع كان متناثرا فى كتب عديدة ، وهذا عمل مفيد كل الفائدة ... لقد ادى خدمة فى ميدان التاريخ وان تكن متواضعة .

وذلك بطبيعة الحال لا يمنع الباحث من القيام بنشر عدة وثائق كشفت ولم تنشر بعد ، على ان يكون النشر علميا بالمعنى الصحيح ، وفى هذه الحالة يكون قد اتى بشىء جديد فعلا .

وعلى الباحث فى هذه المرحلة ، ومنذ اللحظة الاولى ، ان يكون امينا مع نفسه حين يقرر الفرع الذى ينوى التخصص والكتابة فيه ، فيسألها : اهو على دراية كافية بالعلوم المساعدة الموصلة لهذا الفرع ، فمثلا اذا انتوى الكتابة فى التاريخ اليونانى ، عليه ان يتأكد من المامه الكافي باللغة اليونانية القديمة ، فاذا لم يكن مطمئنا الى ذلك ، فعليه ان يكون امينا مرة اخرى ويسأل نفسه ، اهو قادر على تعلم هذه اللغة بالقدر المطلوب ؟ فاذا تبين له انه غير قادر ، فليعدل عن المضي فى تلك الدراسة وليفكر فى تخصص آخر .

وفى وسع كل مبتدىء ان يصل الى موضوع يهمه للكتابة فيه ، وكل ما يحتاجه لذلك هو ان يسأل نفسه الأسئلة التالية التي تقع فى مجموعات اربع على النحو التالي :

المجموعة الاولى جغرافية ، وتبدأ الاسئلة باداة الاستفهام « اين » ، فاى مكان فى العالم الواسع يرغب الطالب دراسته ؟ اهو الشرق امهو الغرب ؟ ثم اين بالضبط من انحاء الشرق ؟ او اين بالضبط من انحاء الغرب ؟ ... وهكذا . والمجموعة الثانية تتعلق بالسير ، والأسئلة هنا تبدأ باداة الاستفهام « مَن ؟ » ، فمن من الناس يستأثر باهتمام الطالب ؟ اهم العرب ام هم الانجليز ام هم الفرنسيون ، ام هم الاغريق او الرومان ، ام اصحاب حضارات الشرق القديم ؟ .. الخ ، ام هي شخصية فرد بعينه : قائد ام ملك ام زعيم سياسي ؟ .. الخ .

والمجموعة الثانية زمنية : وتبدأ الاسئلة بكلمة « **متى** » : فاى حقبة من الحقب يفضل دراستها ... اهي العصور القديمة ام الوسطى ام الحديثة ؟

واخيرا المجموعة الرابعة ، وهي نوعية ، تبدأ الاسئلة فيها بكلمة « اى » فاى نوع من انواع النشاط البشرى يستأثر باهتمام الباحث ؟ اهو الاقتصاد ام السياسة ام الحروب ام الاوضاع الاجتماعية ؟ ... الخ .

وبعد ان ينتهي الطالب من عرض هذه الاسئلة على نفسه ، والاجابة على كل منها اجابة صريحة مقنعة ، فانه سوف يشعر باطمئنان كامل ، وسوف يصل الى نتيجة واضحة آخر الأمر ، ويقف على مجال اهتمامه الخاص فى الدراسات التاريخية ومن ثم يختار موضوع بحثه .

وهنا ينبغي ان نشير الى بعض المسائل الهامة ، اولها ان المبتدىء يكون عادة ــ ان لم يكن دائما ــ على قدر كبير من الطموح وربما الاندفاع والتسرع ... والسبب فى ذلك هو قلة ما لديه من خبرة ، فهو لا يستطيع ان يتصور القدر الهائل من الادلة التي قد تكون متوفرة فى الموضوع الذى اختاره ، فاذا مضى فى البحث فترة من الوقت الفى نفسه غارقا الى اذنيه فى بحر خضم من المصادر ، وشعر بعجزه من الخروج من هذه الامواج المتلاطمة ، ولقد ينتابه اليأس ويحس بمرارة شديدة قد ترده عن مواصلة الدرس . وعكس ذلك صحيح ، فربما اختار موضوعا

مصادره ومراجعه نادرة ومشتتة ، وبالتالي لايجد بين يديه المادة التي تعينه على المضي في بحثه .

وليس من الضروري بالنسبة للباحث المبتدىء ان يحدد عنوان موضوعه منذ بداية العمل ، وحسبه ان يحدد العصر او النواحي التي تصلح للبحث في نطاق محدد ... اما التحديد النهائي للعنوان فلا يتم غالبا الا بعد ان يقطع الباحث شوطا طويلا في القراءة والاطلاع ... ولعله من المفيد ان يحدد لنفسه المدة الزمنية التي يستطيع ان ينجز فيها عمله ، علما بانه محتاج الى بعض الوقت لتقصي احوال العصر الذي ينوي دراسة جزء منه .

ومن اهم الامور الا يختار طالب البحث موضوعا طويلا ، وحسبه ان يكتفي بدراسة مسالة محددة ، فذلك يساعده على انجاز بحثه في مدة مناسبة ، كما يساعده على الاتيان بشيء جديد .

فاذا تورط الباحث في موضوع كثير المصادر والمراجع ؟ وماذا اذا حدث العكس ؟ في الحالة الاولى يكون لا مفر من تضييق نطاق الموضوع الذى اختير ، وفي الحالة الثانية لا مفر من توسيع هذا النطاق .

فلنفترض ان الباحث اجاب عن مجموعات الاسئلة الاربعة سالفة الذكر على النحو التالي : افضل ان اكتب في تاريخ الشرق القديم ، وعن العراق بالذات من اقطار هذا الشرق ، وعن الفترة المبكرة من تاريخه ، واخيرا عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية حينذاك ، وبالتالي فسوف يكون عنوان الموضوع كالتالي « الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في العراق القديم في تاريخه المبكر » .

وربما اكتشف الطالب بعد فترة ان لديه قدرا هائلا من المصادر والمراجع يغرقه الى اذنيه كما ذكرنا ... هنا ينبغي عليه ان يضيق نطاق الموضوع فيجعله مثلا ، « الاوضاع الاجتماعية عند السومريين في العصر الحجرى الحديث » وهكذا يكون قد اختصر المكان واختصر الزمان واختصر مظهر النشاط البشرى الذى سوف يتناوله ، وهكذا يصل الى حدود معقولة يمكن التصرف فيها والانتهاء منها خلال مدة معقولة من الوقت .

وربما كان موضوع كهذا من انسب الموضوعات للمبتدئين ، لانه يضعهم بين مصادرهم ومراجعهم الخاصة المتوفرة في مكتباتهم او في مكتبات قريبة منهم .

اما حين يجد الباحث ان موضوعه ضيق النطاق بسبب اغراقه في التخصص بحيث لا يجد المصادر والمراجع اللازمة ، فعليه ان يوسع نطاق البحث بصورة تتيح له مزيدا من المصادر والمراجع .

ومع ذلك فان البحث التاريخي المتخصص ، اى الذى يتناول احداثا محدودة ، ويقوم على الوثائق المتخصصة ، هذا النوع من البحوث هو الاجدر بالاهتمام والدراسة ، وهو الذى يضفي على صاحبه لقب « الباحث المؤرخ » ، لاننا لا نريد ان نجد انفسنا آخر الأمر مجرد ناسخين ومقتبسين . ولقد قيل ان الفرق بين البحث التاريخي وسرقة ابحاث الاخرين ، هو ان البحث يقتضي نسخ اكثر من كتاب واحد او الاقتباس الجزئي من اكثر من كتاب ... لكن الفارق الحقيقي يكمن في ان البحث معناه التفتيش عن بعض المصادر الجديدة او التي لم تستخدم بعد ، فنستقي منها المعلومات المتصلة بموضوعنا ، وقد يكون البحث ايضا عبارة عن تحليل وتفسير جديد لمعلومات معروفة .

ومن اهم الامور التي ينبغي ان يراعيها طالب البحث المبتدىء ، هي ان يعرف ـ قبل ان يتورط ـ ما اذا كان الحقل الذى اختاره للدراسة قد درس من قبل دراسة كاملة وافية بحيث تصبح فرص الاتيان فيه بجديد معدومة او محدودة للغاية . . . وهنا عليه ان يلجأ الى مؤرخ خبير ليقف منه على جلية الامر .

وهناك كتب تقترح مشكلات تاريخية تحتاج للدراسة والبحث ، كذلك هناك المصادر المرتبة في مجلدات خاصة بها ، والتي تلخص الابحاث التي تمت في فترات معينة اعنى كتب الببليوجرافيا Bibliography وهناك ايضا المجلات العلمية المتخصصة التي تنشر دوريا ، وبها مقالات في النقد العلمي لما ظهر من كتب وبحوث .

بقي ان نذكر انه ينبغي الا يقل الزمن الذى يفصل الباحث من موضوعه عن خمسين عاما ، بهدف اعطاء الباحث فرصة البعد من الوقوع تحت اى تأثيرات شخصية ، بحيث يكتب كتابة المحايد المتحرر الذى لا يخشى وقوعا في مضرة او انسياقا وراء منفعة شخصية عاجلة او انحرافا وراء تيار عام ، وذلك زعيم ان يخرج بحثه اقرب ما يكون الى الحقيقة والصدق ، وفضلا من ذلك فان انقضاء فترة نصف قرن على وقوع الاحداث يكفل بلورتها والخروج بها من حالة الفوران والغليان التي تواكب وقوع الحدث وتستمر بعده فترة غير قصيرة .

ومعروف ان الدول لا تنشر وثائقها المتصلة بسياستها المختلفة الا بعد انقضاء خمسين عاما عليها ، وفيما قبل ذلك فانها تعتبر سرا لا يجدر نشره او الاطلاع عليه ، وان كانت بعض الدول تكتفي الآن بمرور ثلاثين سنة على هذه الوثائق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جمع المادة

ننتقل هنا الى العنصر الثالث من عناصر منهج البحث التاريخي ، ونعني بذلك جمع المادة التاريخية اللازمة للبحث من المراجع والمصادر وشتى الاصول . ولعل اول ما يقال في هذا الصدد هو ان المكتبة ودور المخطوطات العلمية ودور الارشيف التاريخي هي مختبر المؤرخ ، ومن ثم فلا بد ان يكون كل باحث على بينة ودراية تامة بطريقة استغلال المكتبات وهذه الدور .

وهناك كتب كثيرة وضعت بهذا الهدف ، يتعلم منها الباحث افضل السبل لاستخدام المكتبات والحصول منها على المادة التي تهمه بالنسبة لبحثه (١٢) ، وما من شك ان انفع اداة للباحث في المكتبة هي فهارسها المختلفة ، سواء كانت للموضوعات او لاسماء الكتب او لأسماء المؤلفين .

ومفروض ان كل باحث يكون على علم بمجموعة من اسماء الاعلام واسماء الاماكن التي تدخل في موضوع بحثه ، وعليه ان يرجع الى قواميس الاعلام والى دوائر المعارف يبحث فيها من هذه الاسماء وتلك ، ويحصل منها على مزيد من المعلومات عن كل اسم من هذه الاسماء ، كما يظفر بعدد من اسماء المراجع التي يذيل بها كل مقال يكتب منها في القواميس ودوائر المعارف .

---

(١٢) من اشهر هذه الكتب كتاب :

M. Hutchins, A.A. Johnson & M. S. Williams ; Guide to the use of Libraries, New York 1936.

كذلك يتحتم على الباحث ان يدرس المسألة الواحدة في عدة مراجع في وقت واحد ليرى كيف عالجها اصحاب هذه المراجع ، وذلك هو ما نسميه بالقراءة المقارنة التي تساعد على معرفة أوجه القوة واوجه الضعف في الافكار المختلفة عن الافكار المختلفة من الموضوع الواحد .

ومن المفيد جدا ان يحتفظ بفهرس موجز للكتب التي لا يمكن الاستغناء عنها بحيث تكون في متناوله دائما، واهم ما ينبغي الاحتفاظ به هو :

١ ـ قائمة باسماء بعض كتب المراجع .

٢ ـ فهرس مطبوع لاحدى المكتبات .

٣ ـ دائرة من دوائر المعارف ويحسن ان تكون من تلك المتخصصة في حقل الدراسة .

٤ ـ قاموس من قواميس الاعلام .

٥ ـ قاموس متخصص في حقل البحث الذي يتناوله الباحث (اقتصادي او ديني او اجتماعي ... الخ) .

٦ ـ دورية او اكثر من الدوريات المتصلة بالبحث .

٧ ـ مجموعة للوثائق المتعلقة بعصر البحث .

والمراجع العامة تفيد في اعطاء الباحث فكرة شاملة جامعة عن العصر الذي اختار منه موضوع بحثه ، وهي ايضا تمده بمراجع اخرى تعينه في عمله . ومن الواجب ان يبدأ الدارس بالافادة مما كتبه السابقون في الميدان ، والاطلاع على المراجع والمصادر التي استعانوا بها .

ولنفرض مثلا ان باحثا قد اختار الكتابة في موضوع « الديمقراطية الاثينية في القرن الخامس قبل الميلاد » فاول واجباته ان يطلع على المراجع العامة التي تتناول تاريخ الاغريق كله منذ بدايته الى ظهور الاسكندر الاكبر ، ثم يلجأ الى مراجع تتحدث عن تاريخ اثينا وحدها ، ثم يتناول بعد ذلك المراجع التي تتحدث عن النظم الدستورية الاغريقية ، ثم تلك التي تتناول النظم الديمقراطية وكيف تطورت حتى صارت الى ما صارت اليه في القرن الخامس قبل الميلاد .

تلك هي الخطوات الاولى في برنامج الدراسة والبحث ، ثم يأتي بعد ذلك دور التعمق في الاصول والوثائق .

وعملية الوقوف على كل المراجع والاصول ، او معرفة جلها ، عملية شاقة عسيرة ، ولا مفر لاستكمالها من اللجوء الى كتب المراجع ، او ما يسمونه بالانجليزية Bibliographies ، ولقد اصدر العلماء في الغرب العديد منها ، بعضها له طابع التعميم ، وبعضها الآخر له طابع التخصص ، وبعضها يكتفي بذكر اسم المرجع واسم مؤلفه ومكان نشره وعام صدوره وعدد صفحاته ، وبعضها الآخر يعطينا بالاضافة الى ذلك مذكرة موجزة عن كل مرجع او مصدر مطبوع (١٢) .

---

(١٢) من اهم هذه البيليوجرافات :

International Bibliography of Historical Sciences, edited by the International Committee of Historical Sciences, Washington 1926.

ومنذ عام ١٩٢٦ يصدر من هذه البيليوجرافية مجلد واحد كل عام يشترك فيه طائفة كبيرة من العلماء المتخصصين ، يتضمن ما نشر خلال العام في جميع نواحي التاريخ بل في طرق البحث التاريخي والعلوم المساعدة ودور الارشيف ، وهو يكتفي بذكر مكان الطبع وتاريخه وعدد الصفحات .

لكن كتب المراجع وحدها لا تكفي لأنها غالبا ما تغفل اسماء البحوث والمقالات المنشورة فى المجلات العلمية التي تصدر دوريا كل عام او كل نصف عام او كل ربع عام بمختلف اللغات .

ولهذا ينبغي ايضا ان تراجع فهارس هذه المجلات للوقوف على ما نشر بها من ابحاث او مقالات فى الموضوع الذى ندرسه .

فاذا انتهى الباحث من ذلك كله ، فعليه ان يفتش عن الوثائق الخاصة بموضوعه ليدرسها ويستنبط منها ما يستطيع من حقائق ، ونقصد بالوثائق هنا المعاهدات والمراسلات الرسمية وتعليمات الرؤساء واوامرهم لمن يعملون تحت اشرافهم ، وكذلك المجموعات القانونية ، وهذه جميعا يوجد منها قدر كبير لا يمكن الباحث ان يهمله والا خرج بحثه ناقصا مبتورا عديم القيمة .

ان البحث عن الوثائق من اهم العمليات الجذرية فى كتابة التاريخ ، ونستطيع ان نقرر ان الكشف عن قدر من الوثائق فى موضوع معين هو الفيصل فى امكانية دراسته والكتابة فيه او الكف عن هذه الدراسة التي لن نخرج منها بجديد ، وحسبنا ان نكرر فى هذا الصدد ما ذكره لانجلوا وسيبوبوس فى كتابهما الرائع عن اهمية الوثائق اذ قالا «حيث لا توجد الوثائق ينعدم التاريخ»(١٤)، وما قرره اسد رستم فى اول صفحة من صفحات كتابه « مصطلح التاريخ » (١٥) حين قال « اذا ضاعت الاصول ضاع معها التاريخ » .

وهذه العبارات تعبر تعبيرا دقيقا عن اهمية الوثائق فى كتابة التاريخ ، فمما لا يقبل الجدل ان التاريخ لا يخترع اختراعا او يخلق من العدم خلقا ، انما هو ينبني على الآثار التي خلفتها عقول اصحاب هذا التاريخ وايديهم . واذا تصورنا ان فترة من الفترات قد ضاعت اصولها وآثارها تماما لسبب او لآخر ، كالتدمير والحرق وغيرها ، فان تاريخ هذه الفترة يضيع تماما هو الآخر ، واى باحث يتصدى لكتابة اى تاريخ دون دراسة وثائق واصول هذا التاريخ لا يعدو ان يكون ناقلا عن غيره ، وبالتالي فان قيمة عمله تنعدم مهما انفق فى النقل من جهد ووقت .

واذا كانت الوثائق ضرورية بالنسبة للكاتب الذى يكتب عن عهد قريب منه نسبيا ، فانها اكثر ضرورة بل هي حتمية بالنسبة لمن يكتب عن العصور القديمة ، ذلك ان الاول قد يستطيع الافادة من روايات بعض شهود الاحداث ، فيقارن بينها ويصنفها ويستخلص منها الحقائق ، بينما لا يجد الثاني سوى الاصول وحدها .

ونجد هذه الوثائق محفوظة الآن فى المكتبات والمتاحف والمساجد والكنائس ، وقد توفر عدد كبير من العلماء ـ ولا سيما فى الغرب ـ على فهرستها وتنظيمها ، لكن هناك اكداسا من هذه الوثائق لا تزال فى حكم المجهولة تماما ـ القديم منها والحديث ـ لانها لم تحظ بمن ينظمها ويفهرسها ، وتلك عملية ضرورية لا بد ان يتفرغ لها بعض العلماء .

ونحن جميعا نعرف ان الهيئات العلمية والجامعات فى الغرب تخصص عددا من رجالها وترسلهم فى بعثات الى الخارج للتفتيش عن هذه الوثائق وتصويرها ونشرها .

---

(١٤) Ch. Langlois et Ch. Seignobos : Introduction aux Etudes Historiques, Paris 1898.

(١٥) اسد رستم : مصطلح التاريخ ـ بيروت ١٩٣٩ ، ص ١٠ .

وكثيرا ما يجد الباحث في الوثائق التي يعثرعليها امورا تستدعي الرجوع الى التخطيط العام الذى وضعه لبحثه كي يجري فيه التعديل الذىتوحيه هذه الامور .

وحين يعكف البـاحث على نقل شيء من الوثائق فعليه ان يعي تماما محتويات ما ينقله ، وعليـه كذلك ان يدون على الفـور اى تعليق اوملاحظة تعن له وهو يقرأ الوثيقة حتى لا ينسى ما خطر على باله ساعة القراءة .

ويتصل بالوثائق في هذا الصدد ، ما يتصل بموضوعنا من آثار مختلفة ، سواء اكانت رسوما او صورا او تماثيل او حفرا بارز او غائرا ، فهذه كلها تمدنا بمزيد من المعلومات التي نفتقدها في المصادر والمراجع المكتوبة .

نقد المادة التاريخية

قلنا فيما سبق أن مادة الموضـوع الذى يبحث انما تجمع من المصادر والاصول والمراجع ، وتمدنا المصادر والاصـول بالمعلومات بصـورة مباشرة احيانا وغير مباشرة احيانا اخرى ، وأقصد بالمعلومات المباشرة تلك التي تأتينا من طريق مشاهدة الاحداث اثناء وقوعها ، كما اقصـد بالمعلومات غير المباشرة تلك التي نستنبطها من دراسة مخلفات الانسان وآثاره ، وكذلك آثار الاحداث نفسها .

ان شاهد العيان الذى يكتب لنا ما رأى بعينه او ما شارك فيه بنفسه ، يمدنا بمعلومات مباشرة ، ولهذا نجد فيها كثيرا من التفاصيل الدقيقة ، وقد نجد فيها تصويرا لروح العصر ، ولكن ذلك لا يعني ان تأخذ كتاباته قضية مسلمه ، لانه لا يستطيع دائما ان يحيط بمختلف جوانب الحدث ، وهو قد لا يستطيع ايضـا ان يخلص نفسه من آفة التحيز والميل مع الهوى ، أو عوامل الخوف من اصحاب السلطان وعوامل الرغبة في المنفعة الذاتية .

ولهذا فنحن نستمد معلوماتنا عن الاحداث اساسا ــ عن طريق غير مباشر بدراسة الآثار والمخلفات ، وهذه هي نقطـة البدء عند المؤرخ ، وبعدها يمضي في طريق شائك وطويل ومعقد حتى يصل الى الحقيقة التاريخية .

واولى مراحل هذا الطريق هي دراسـة الاصـول وتعمقها وتحليلها ، وتلك هي العمليـة الصعبة التي تعبر عنها بعبارة « نقد الاصول » .

ودراسة الآثار المادية التي خلفها الانسان أو الحدث ، كالعمائر والتماثيل وغيرها ، تكون عادة أيسر من دراسة الآثار المدونة او المسجلة بالكتابة ، والسبب في ذلك واضح تماما ، وهو ان العلاقة بين الآثار واصحابها تكون دائما ماثلة امام المؤرخ . . . فهذا المعبد قد اقيم لاجراء الطقوس الدينية ، وهذا المنزل قد شيد للسكنى ، وتلك المقبرة قد اعدت للحياة الأخرى وهكذا .

اما الآثار المسجلة ، فامرها مختلف ، انها مجـرد اثر عقلي ونفسي لكاتبها ، او هي بعبارة اخرى تصـوير لاثر الاحداث التاريخيـة في ذهن هذا الكاتب متأثرة بنفسيته ومزاجه الشخصي ، وهنا مكمن الصعوبة ، فالانسان مخلوق معقد ، ولكل واحد منا مزاج خاص ولكل كاتب انطباع معين عن الحدث الواحد .

ولكي نصل نحن الى الحقيقة التاريخية من الاصل المكتوب ، لا بد ان نتعرف على مختلف العوامل التي دفعت الكاتب الى كتابته ، لا بد ان نتمثل شخصية الكاتب ، وان نضع انفسنا في بيئته وزمانه ، ووسط الظروف التي احاطت به .

هذه هي البداية في عملية نقد الاصل التاريخي ...

وفور وصول الاصل الى يد المؤرخ ينبغي عليه ان يتأكد اولا من كل ما جرى عليه من احداث : اهو بنفس حالته يوم دون ؟ الم تتآكل بعض اجزائه ، الم تفقد بعض فقراته ، الم تطمس بعض سطوره ؟ الم تضف اليه فقرات جديدة ؟ ... ذلك كله يعيننا على ترميم الاصل واعادته قبل البدء في نقده ، الى حالته الاولى ...

والنقد نوعان ، هما النقد الخارجي اوالظاهري ، وهدفه دراسة مدى الاصالة في المصادر ؛ والسبيل الى ذلك هو التثبت من صحة الاصل التاريخي ومعرفة نوع الورق المدون عليه الاصل ، واسلوب الخط الذي كتب به ، وكذلك معرفة المؤلف ، ومكان التدوين وزمانه .

ثم النقد الباطني او الداخلي ، ويهدف الى الوقوف على حقيقة شخصية المؤلف بدراسة حالته النفسية والعقلية اثناء قيامه بالكتابة ، ومحاولة الكشف عن اهدافه من الكتابة ، وهل كان واثقا من صدق ما كتب ؟ وهل كانت لديه الادلة والبراهين الكافية التي تجعله واثقا من هذا الصدق ؟

والاساس الذي ينبني عليه النقد بنوعيه هو الشك فيما ورد في الاصل التاريخي ، ثم الدراسة الواعية المتعمقة لكل ما نقرأ فيه لاستخلاص الحقائق ، وتلك مهمة بالغة العسر ، لان المرء بطبيعته يميل الى تصديق كل ما يصادف هوى في نفسه ، بينما يميل بنفس الدرجة الى تكذيب كل ما يصطدم برغباته وميوله ، ونحن لا نستطيع امام هذه الحقيقة ان نأخذ كل ما يصادفنا من مدونات على انه حقيقة خالصة ، لان الناس يختلفون في ميولهم ونزعاتهم واهوائهم وما يعتنقون من قيم .

والنتيجة التي لا شك فيها هي ان المؤرخ لن يستطيع ان يصل الى الحقيقة اذا لم يمارس عملية النقد في كل اصوله ، وقد يتطلب ذلك جهدا ووقتا طويلا ، ولكنه امر لا مندوحة عنه ، وليس ثمة ما يحمل المؤرخ على العجلة ، ولهذا قلنا فيما سبق انه ينبغي على المؤرخ اذا اراد ان ينتهي الى بحث علمي دقيق ان يختار موضوعا محددا .

واول خطوات النقد الخارجي هي التثبت من اصالة المصدر وصحته ، لان التزييف والانتحال شائعان ، ودوافعهما قائمة وكثيرة برغم ان عملية التزييف في المصادر والاصول قد غدت اليوم عسيرة .

وكثيرا ما زيفت الآثار المادية ـ ولا سيما الصغيرة ـ بهدف تحقيق كسب مادي ، واغلب القائمين بهذه العمليات ممن يعملون في خدمة رجال الآثار اثناء عمليات التنقيب ، وكذلك انتحلت اصول عديدة ، وظل الاعتقاد قائما بانها حقيقية الى درست دراسة علمية دقيقة فثبت انها منتحلة .

وفي كتاب مصطلح التاريخ للاستاذ **الدكتور اسد رستم** (١٦) مثال للمعاناة التي لاقاها حين

---

(١٦) انظر اسد رستم ـ مصطلح التاريخ ـ ص ١٧ ـ ٢٧ .

كلف بفحص احدى الوثائق المكتوبة ــ وكانت عبارة عن رسالة من عهد محمد علي ــ للوقوف على مدى صحتها ، وكيف اضطر الى فحص نوع الورق الذي دونت عليه الوثيقة وفحص نوع المداد ، ومقارنتها بمثيلاتها من الوثائق في اماكن مختلفة ، ودراسة عادات المراسلة والاسلوب واللغة وتاريخ ومكان الكتابة واتفاق ما جاء بها مع الظروف التاريخية ، وذلك كله يبين لنا مدى الصعوبة التي يجب على المؤرخ ان يواجهها ويتغلب عليها ليصل الى الحقيقة .

فاذا اطمأن الباحث الى ان الاصل الذي بين يديه صحيح غير مزيف او منتحل ، فتلك كما ذكرنا هي الخطوة الاولى فقط ، ثم تأتي بعد ذلك خطوات اخرى لنقد الاصل بعد ان تبين لنا صدقه ، لان صدق الاصل لا يعني بالضرورة اهمية المعلومات التي وردت به .

لدينا اصول كاملة مستوفاة ، بمعنى انها تحمل اسم المؤلف ، ومكان تدوينها وزمانه ، ولكن اصولا اخرى تصلنا غير مستوفاة على هذا النحو ، الامر الذي ينقص دون شك من قيمتها التاريخية . . .

ذلك لان الباحث لا يستطيع ان يقدر قيمة الاصل الذي بين يديه دون ان يعرف صاحبه ، وبالتالي فانه لن يعرف مدى علاقته بالاحداث التي دونها ، فهل يا ترى شهدها بعينيه ؟ ام انه سمعها لم دونها من روايات الشفاهة التي وصلته ؟ ومتى دونها ؟ أوقت وقوعها ام بعده ؟ وما هي المدة التي تفصل بين وقوع الحدث وتدوينه ؟ ثم اين تمت عملية التدوين ؟ أفي مكان الاحداث ام في مكان آخر غير مسرحها ؟

وكل اولئك امور بالغة الاهمية لا مفر من الوقوف عليها : فكيف ؟

ان صاحب المصدر هو الواسطة بيننا كمؤرخين وبين الحقيقة التاريخية التي نريد الوصول اليها ، فاذا كان رجلا متزنا واهلا للثقة ، كانت المعلومات التي نستقيها منه أقرب الى الصحة وادعى للاطمئنان بصفة عامة ، والعكس صحيح .

من هنا تتضح اهمية الوقوف على اسم صاحب الاصل ، لان القيمة العلمية للاصل ترتبط كل الارتباط بصاحبه ومدى فهمه للاحداث ، ومدى وقوفه على الظروف التي واكبتها ، والمعلومات التي يدونها امير او حاكم او زعيم سياسي او قائد عسكري تختلف اختلافا كبيرا من تلك التي يدونها عن الحدث نفسه واحد من عامة الشعب ، فالاخير يكتب متحررا من كل قيد او التزام ، بينما يكتب الاول وهم مقيدون باغلال مناصبهم راغبين في تبرير تصرفاتهم ومواقفهم اذا كانوا ضالعين في الاحداث .

فاذا عجزنا عن معرفة صاحب الاصل والوقوف على اكبر قدر من المعلومات عن شخصيته ، فليس معنى ذلك ان نهمل الاصل ونستبعده ، فلعله الوحيد في بابه ، وكم من معلومات استقيناها من مصادر لا نعرف اصحابها ، وكم من اصل لا يعرف صاحبه .

وليكن واضحا ان وجود اسم شخص على مصدر او اصل لا يعني بالضرورة انه صاحبه أو حتى صاحب بعضه ، ولذلك ينبغي ان نأخذ جانب الحذر ، ونمضي في البحث حتى نقف ــ قدر المستطاع ــ على كاتب الاصل الحقيقي بدراسة نوع الورق والخط والمداد واللغة والاسلوب والمصطلحات الواردة فيه ، ثم بدراسة المعلومات التي يحتويها دراسة متأنية واعية .

فاذا ضاع عبثا كل جهد بذله الباحث لمعرفة صاحب الاصل ، ووجد نفسه مضطرا الى الاخذ عنه ، فلا بد من ان يشير الى ذلك في بحثه، وحسبه اجتهاده الصادق في دراسة المعلومات الواردة في نطاق العصر .

وكثيرا ما تكون بعض الاصول والوثائق منقولة جزئيا او كليا من اصول ووثائق سابقة ، وذلك يستدعي بذل الجهد لتعقب هذه وتلك حتى نصل قدر المستطاع الى الأصل الأول .

كذلك قد يكون الأصل التاريخي من عمل اكثر من كاتب واحد ، نتيجة لما ادخل عليه من اضافات وتعليقات في كثير من المواضع ، فاذا طبع هذا الاصل بعد ذلك بما جد عليه من اضافات وتعليقات ، طبع كأنه من عمل كاتب واحد ، وهنا لا بد أيضا من الاجتهاد لكشف الحقيقة ، ولعلنا نعثر على الأصل المخطوط فنميز المتن عن الاضافات والتعليقات بسهولة تامة ، اما اذا لم نوفق في العثور عليه ولم نجد امامنا الا المطبوع ، فليس هناك بد من دراسة اللغة ، والأسلوب لنرى هل هذه وتلك واحدة ، ام هناك اختلاف ، كذلك علينا ان نتبين ان كان الأصل تسوده فكرة واحد وروح واحدة ام أن هناك فجوات وتناقضات في تسلسل الأفكار .

ويأتي بعد ذلك في عملية النقد الظاهري مشكلة الزمن الذي دون فيه الأصل ، ومدى قربه او بعده من الزمن الذي وقعت فيه الأحداث المدونة . وتلك مشكلة تختلف عن مشكلتي صدق الأصل ومعرفة صاحبه ، فقد يكون الأصل غير مزيف وغير منتحل ، وقد يكون صاحبه معروفا تماما ومن المشهود لهم بتحري الدقة وتوخي الحقيقة والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فان قيمة الأصل تتضاءل بسبب بعد زمن التدوين عن الأحداث التي يتناولها ، ففي هذه الحالة سوف يعتمد صاحب الأصل على الروايات التي تحكى له، وحتى لو كان من معاصري الأحداث ومشاهديها فان ذاكرته قد تخونه فلا تسعفه بدقائق ما وقع ، لان ذاكرة الانسان لا تعي كل شيء ، وهنا لن يستطيع الا ان يجمل ولا يفصل برغم رغبته الشديدة في قول الصدق واجتهاده في استرجاع الماضي .

ان صاحب الأصل يريحنا كل الراحة اذا هو دون على أصله تاريخ تدوينه ، ولكن ماذا لو لم يفعل ؟ فعلينا نحن كباحثين ان نحاول تحديد هذا التاريخ تحديدا يكون أقرب ما يكون الى الواقع ، فكيف ؟

في وسعنا بسهولة ان نضع حدين لبدء كتابة الأصل والانتهاء منها ، لأننا بعد دراسة محتوياته نستطيع ان نحدد التاريخ الذي لا يمكن ان تكون الأحداث قد وقعت قبله ، وكذلك التاريخ الذي لا يمكن ان تكون الأحداث قد وقعت بعده .

وهذا بطبيعة الحال لا يتأتى الا استنادا الى ثقافة واسعة والمام شامل ودقيق بالعصر الذي يتناوله الأصل ، ومن البديهي ان الأصل التاريخي لا يدون الا بعد وقوع آخر حدث ذكر فيه ، غير اننا لا نعرف دائما متى حدث هذا التدوين، أبُعَيد آخر حدث بزمن طويل أم بزمن قصير ؟ لكننا مع ذلك نستطيع ان نستعين بالصبر والاجتهاد لنحدد تاريخ التدوين تحديدا شبه مضبوط . فاذا كنا حيال اصل من الاصول ، ورأينا صاحبه يهتم اهتماما بالغا باثبات كل الأحداث، كبيرها والصغير، ولا يهمل ابدا واحدا منها مهما صغر شأنه ، ثم رأيناه ينتهي عند حدث بعينه نعرف نحن من دراساتنا واطلاعاتنا الواسعة تاريخه المضبوط ، ثم عرفنا ان حدثا مماثلا في الاهمية والقيمة قد وقع بعد ذلك بشهر واحد مثلا ، ولكن صاحب الأصل لم يذكره من قريب أو بعيد ولو بمجرد

التلميح ، فاننا نستطيع عندئذ ان نحدد الشهر الذى انتهى فيه صاحب الأصل من كتابته تحديدا مضبوطا ، وهكذا بالنسبة لتاريخ البدء في التدوين .

وبعد ، فان عملية النقد الخارجي للأصول التاريخية عملية شاقة عسيرة تستنفد وقتا طويلا وتتطلب قسطا كبيرا من المثابرة ، ولكنها عملية ضرورية لا يمكن اغفالها بحال من الاحوال ، وهي السبيل الوحيد للانتهاء الى بحث تاريخي علمي .

ولننتقل الآن الى النوع الثاني من انواع النقد ، واعني به النقد الباطني او النقد الداخلي .

النقد الباطني

واول ما يقال في هذا الصدد هو ان النقد الباطني عملية تستهدف الوصول الى الحقيقة التاريخية من خلال الوثائق والاصول ، ونحن نعرف ان الاصل التاريخي يصل الينا وقد مر بعدد من العمليات التى لا يوضحها لنا صاحبه ، فهو لا يقول لنا كيف لاحظ الوقائع ، ولا كيف جمع معلوماته ، ولا كيف دونها ، وتلك كلها امور تهمنا كل الاهمية ولا بد من الوقوف عليها .

والسبيل الى ذلك هو تحليل الوثيقة او النص التاريخي تحليلا دقيقا ، والتحليل هو أول عمليات النقد ، ولا يمكن أن يكون هناك نقد بدون تحليل .

ويمكن ان نقول ان عملية التحليل تمر بمرحلتين ، المرحلة الاولى نحاول فيها أن نتحقق من معنى الالفاظ وقصد الكاتب ، وذلك نسميه « النقد الباطني الايجابي » ، والمرحلة الثانية نحاول فيها ان نتبين مدى الصحة في المعلومات المدونة بالنص ، عن طريق تمحيصه واستبعاد الزائف منه ، وذلك نسميه « النقد الباطني السلبي » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النقد الباطني الايجابي

وقارىء النص التاريخي او الوثيقة الذى لا يهتم كثيرا بفهم محتوياته فهما عميقا يعرض نفسه للوقوع في خطأ فاحش ، وقد يصور بعض هذه المحتويات وفق مزاجه الخاص ، ومن ثم يبعد — دون ان يشعر — عن الواقع التاريخي ، والسبب في ذلك هو ان الباحث حين يقرأ النص قد يجد فيه بعض العبارات التى تتفق مع آراء مسبقة له في الموضوع ، وهنا يجد نفسه تلقائيا ميالا الى استخراج هذه العبارات والتركيز عليها تركيزا شديدا حتى ليصبح آخر الامر أمام نص جديد خيالي من وضعه هو ، وذلك امر بالغ الخطورة .

ولقد يقوم الباحث ببحثه وهو مشبع بفكرة « معينة » من موضوع ما ، أو من اتجاه ما في النواحي السياسية او الاقتصادية او العسكرية او الدينية ، وتسيطر عليه هذه الفكرة سيطرة كاملة فاذا هو يدرس ويكتب تحت تاثيرها فيخرج بحثه ترجمة لهواه الشخصي ، لا ترجمة لما جاء في النصوص والاصول ، لانه يرفض تلقائيا كل مايتعارض مع الفكرة التى تسلطت عليه ، والنتيجة ان الباحث قد يظن انه يضع تفسيرا جديدا للاصول بينما هو في الحقيقة يخضعها لفكرته الخاصة .

هذا كله يبعد الباحث من الحقيقة التاريخية المنشودة ، ولذلك ينبغي عليه ان يتحرر تماما من كل راى مسبق يكون قد كونه في الموضوع ، وان يبدأ في دراسة النصوص والاصول متحررا من كل هوى ، وان يحاول فهمها فهما عميقا يعتمد على ما فيها من عبارات ، دون أن يضيف شيئا من عنده أو

يحذف شيئا موجودا ، وهذا يصل بنا الى قاعدة عامة في منهج البحث التاريخي وهي أن دراسة الأصل ينبغي أن تبدأ بتحليل محتوياته للوصول الى المعنى الذى قصده صاحب الأصل نفسه .

ويحسن ان يجرى الباحث تحليله في صفحات من حجم الفلسكاب يجعل لكل منها هامشين احدهما يمين الصفحة والثاني يسارها وذلك بثني جانبيها ثنيا متوازيا على مسافة معقولة، والا يكتب شيئا في ظهر الصفحة ، وفي بحر الصفحة يكتب التحليل الذى يهتدى اليه وفي هامشيها يدون ما يعن له من ملاحظات .

ويشمل التحليل دئما النقاط الآتية :

١ ـ المعنى العام للوثيقة او الاصل .

٢ ـ مجمل محتويات الوثيقة او الأصل .

٣ ـ تفصيل هذه المحتويات .

٤ ـ وجهة نظر صاحب الأصل .

٥ ـ راى الباحث وتعليقاته .

وللوصول الى هذه النقاط تمر بمرحلتين : في الأولى نفسر ظاهر الاصل ونحدد معناه الحرفي، وفي الثانية نصل الى معناه الحقيقي وندرك هدف صاحبه .

ونلاحظ ان المرحلة الاولى عملية لغوية في جوهرها ، تتطلب من الباحث معرفة اللغة التى كتب بها النص ، وتستلزم الا نأخذ النص بمفرداته او بعباراته ، ونحدد معاني هذه وتلك بعيدا عن السياق العام ، وانما ينبغي ان يتم التفسير في نطاق هذا السياق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما المرحلة الثانية ، مرحلة الوصول الى هدف صاحب النص ، فالسبيل اليها هو قراءة ما بين السطور حين يضطر صاحب الاصل الى عدم الافصاح عما في ذهنه لسبب من الأسباب ، او حين يتضمن النص عبارات تتطلب قسطا من المعاناة لتفسيرها .

وحين ينتهي الباحث من ذلك كله ، تكون عملية البحث الباطني الايجابي قد تمت ، ويصبح الباحث على بينة من المعلومات التى أوردها صاحب الأصل ، ومن افكاره الخاصة عن الموضوعات والأحدث التى تناولها .

النقد الباطني السلبي

راينا النقد الباطني الايجابي لا يعطينا ـ كباحثين ـ المعلومات الضرورية عن الوقائع التاريخية في ذاتها ، انما فقط بمدى فهم صاحب الأصل وتصوره لتلك الأحداث ، حتى وان كان ممن شهدوا هذه الأحداث بانفسهم .

وفوق ذلك فلعل صاحب الأصل لم يدون كل ما عرفه أو اعتقده ، ولعله يكذب علينا لسبب او لآخر ، او ـ اذا نحن احسنا الظن ـ لعله اعتقد غير الواقع من قبيل الخطأ .

من اجل ذلك كله كثيرا ما نجد الأصول التاريخية التى تحدثنا عن موضوع واحد ، تختلف عن بعضها اختلافا كبيرا .

وهذا يفضي الى وجوب قيام الباحث بتمحيص ما لديه من أصول تاريخية كي يستبعد منها الزائف او الكاذب حتى يصل الى الحقيقة ، فما السبيل الى ذلك ، ان الشك في الأقوال المتعارضة والمتضاربة ، والتسليم مقدما بامكان وجود خطأ او كذب في الأصل ، هما السبيل الأول الى ما نريد .

والتمحيص الدقيق للأصول التاريخية هو النقد الباطني السلبي الذي يهدف الى تصفية المعلومات وغربلتها حتى نستخلص منها الصواب وحده ، وتلك في حد ذاتها عملية شاقة عسيرة ، لعلها اشق واعسر من عملية النقد الباطني الايجابي .

والنقد الباطني السلبي يؤدي بنا الى قاعدتين هامتين :

القاعدة الأولى هي ان التثبت اليقيني من اية حقيقة تاريخية لا يمكن ان يستند الى الرواية التي يرويها صاحب الأصل ، بوصفه شاهد عيان أو بوصفه معاصرا ، وانما لا بد ان تتوفر لدى الباحث كل الأدلة التي تسلمه الى اليقين .

والقاعدة الثانية هي ان الأصل لا يجوز ان ينقد كوحدة عامة ويكتفي بذلك ، وانما لا بد من ان ينقد كل جزئياته وتفاصيله واحداثه المفردة .

ولا يجوز ابدا ان يخدعنا طابع الصدق الذي قد يبدو في أصل من الأصول ، فنستند اليه ، ونثق في صدقه ، لأن طابع الصدق في بعض الأحيان قد يكون مظهرا خداعا من انسان اعتاد الكذب والتضليل والتلفيق ، فنغتر بالمظهر الذي يخفي وراءه اهدافا هي ابعد ما تكون من الصدق والحقيقة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان مهمة النقد الباطني السلبي هي تمحيص الظروف التي واكبت سلسلة العمليات العقلية التي مر بها الأصل حتى دونه صاحبه ووصل الى الباحث ، ولا شك ان معرفتنا بصاحب الأصل تكشف لنا عن بعض هذه الظروف ، لأن نشأة صاحب الأصل وبيئته وعاداته ومستواه ، كلها من الأمور التي تعيننا على الكشف عن دوافع الكذب او الخطأ او الخداع او الصدق او الصواب او المصارحة عند هذا الكاتب او ذاك من أصحاب الأصول التاريخية .

فواجبنا اذن ان نتثبت قدر المستطاع من صدق صاحب الأصل وعدالته ، وأن نتثبت من صدق المعلومات التي أوردها ومدى دقتها ، وهل اخطأ صاحب الأصل وخدع بشأنها ام لم يخطىء ولم يخدع (١٧) .

وهناك مسألة تتصل بموضوع النقد الداخلي السلبي اتصالا وثيقا ، وهي علاقة المرجع الثانوي بالأصل .

ان واجب المؤرخ هو الاعتماد أولا على الأصل أو الدليل الأولي ، ونعني بذلك ما قام عليه شاهد عيان ، لكنه قد يعجز ولا يجد هذا الأصل ، فماذا يفعل ؟ عليه ان يلجأ الى أفضل شاهد ثانوي

---

(١٧) Langlois et Seignobos ; op.cit. pp. 166-167.
حيث يجد القارىء مجموعتين من الأسئلة يرى المؤلفان انه لابد للباحث من ان يوجهها لنفسه وان يجيب عنها قدر طاقته ، وان يدرس في ضوئهما الأصل التاريخي كوحدة كما يدرس كل حادث على حدة .

يكون في متناول يده ، وفي مثل هذه الحالة فان المؤرخ يضطر الى اعمال فكره وتامله وهو يأخذ من هذا الدليل الثانوي ، واذا كان عليه ان يصدر في بعض الاحيان احكاما ، فواجبه ان يتأنى كثيرا ويتمهل كثيرا قبل اصدارها ، والا يصدرها الا اذا حصل على اكبر قدر ممكن من الادلة المقنعة ، لأن اصدار الاحكام دون تثبت واقتناع ينطوي على ظلم فادح للحقيقة .

وحسبنا ان نذكر في هذا الصدد قول الله تعالى : «يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

اثبات الحقائق وترتيبها

تلك هي المرحلة قبل الاخيرة في منهج البحث التاريخي ، وهي مرحلة واسعة تتصل بعمليات كثيرة ، نحاول ان نوجزها فيما يلي :

ذكرنا عند حديثنا عن النقد اننا نصل عن طريق الممارسة الى المعلومات والآراء التي نريدها لبحثنا ، وهذه المعلومات قد تكون مطابقة للواقع وقد لا تكون .

واذا كان عملية النقد وحدها لا تكفي لاثبات الحقائق وانما هي خطوة في السبيل اليها ، فما هي الخطوات الاخرى التي ينبغي ان نتخذها لنصل الى نتائج محددة وحقائق ثابتة نخرج بها من دائرة الشك الى دائرة اليقين ؟

اول ما يقال في هذا الصدد ان يقوم الباحث بتصنيف النتائج التي اوصلته اليها عملية النقد ، بمعنى ان يجمع كل المعلومات التي لديه عن حادث واحد الى بعضها ، ثم يقارن بينها ويصل الى رأي نهائي فيها .

ولكننا احيانا قد لا نجد غير رأي واحد في موضوع بعينه ، لأن هذا الموضوع لم يرد الا عن طريق راو واحد او مؤرخ واحد ، وفي هذه الحالة ينبغي ان ننظر بعين الشك والحذر الى تلك الرواية المفردة ، التي يحسن الا نعدها حقيقة نهائية ، وحسبنا ان نستعين بها مشيرين الى صاحبها لأنه هو وحده الذي يتحمل مسئوليتها .

اما اذا تعددت الروايات في حادث واحد ، وتعارضت بصددها الأصول والمصادر ، فانه يتحتم على الباحث ان يتبع بعض القواعد التي تعينه على الوصول الى الحقيقة التاريخية والخروج بها من بين هذه التناقضات ، ويمكن تلخيص هذه القواعد فيما يلي :

١ ـ لا يجوز للباحث ان يقوم بعملية توفيق بين الآراء المتعارضة ، وانما ينبغي السعي للكشف عن الصادق منها ، فاذا فشل في ذلك فيجب ان يعترف بفشله ولا بد من اثبات الآراء المتعارضة دون ترجيح واحد منها على الآخر .

٢ ـ اذا اتفقت الآراء في عدة اصول على رأي بعينه ، وشذ عن هذا الاتفاق رأي واحد مخالف ، فليس معنى ذلك ان الآراء المتفقة هي الأصوب ، وربما يكون العكس هو الصحيح ، والنقد وحده هو الذي يفصل في الأمر .

٣ ـ اذا اراد الباحث ان يرجح رأيا على آخر ، فعليه ان يلجأ الى عملية النقد ، فاذا عجز برغم ذلك ، فعليه ان يمتنع عن اصدار حكم قاطع ، وواجبه ان يستمر في البحث لعله يعثر على ادلة جديدة تنير له الطريق .

الافادة من المصادر والمراجع

تدوين الملاحظات

الواقع أن المهمة التي تشغل كاهل المؤرخ الباحث في بحثه هي نقل الملاحظات من المصادر والمراجع المختلفة ، ولهذا يحسن ان نعرف كيف ندون الملاحظات التي نستمدها من مصادرنا ومراجعنا ، ومتى ينبغي ان ندونها ومتى لا ندونها . . . اعني هل ندون الملاحظة حين يكون ذلك لازما، موجزة مختصرة ، أم ندونها وافية دون اختزال .

هنالك عدة اعتبارات عامة ينبغي ان نراعيها في هذا الصدد :

أولها : ان المادة التاريخية الواردة في مصدر من المصادر قد تكون من الطرافة بحيث تغري الباحث على نقلها نقلا كاملا برغم عدم ارتباطها ارتباطا وثيقا بموضوع دراسته ، وهذا يؤدي الى ضياع وقت ثمين يمكن أن نفيد منه في تدوين الملاحظات التي تتصل بالموضوع اتصالا مباشرا سواء أكانت طريفة أم غير طريفة . . . واذا فلا مفر من ان يضع الباحث لنفسه مقاييس دقيقة تبين له مدى ارتباط المادة المنقولة بالموضوع . اعني ان هذه المقاييس تعينه على اختيار ما يدون وما يدع من المصدر او المرجع .

ARCHIVE

ثانيها : انه ينبغي الا تدون ملحوظات كاملة وافية لمعلومات عادية او غير موثوق بها الا اذا أردنا ان ننقدها ونبين وجه الفساد فيها ، وكذلك ينبغي الا تدون ملاحظات عما **يسهل تذكره . . . مع** التحذير من ان المؤرخ – ولاسيما المبتدىء – كثيرا ما يحسن الظن في ذاكرته **فيعتقد ان ذاكرته تعي** الكثير ، ثم يهمل التدوين ، ولكنه لا يلبث بعد ذلك ان يكتشف انه قد نسي الكثير ، ويبدأ من جديد في انفاق ساعات طويلة ليتذكر شيئا ها ماجدو بالنسبة له .

ثالثها : اذا أراد الباحث ان يدون ملاحظات احد المصادر او المراجع بحرفيتها ، اي يقتبسها اقتباسا كما هي ، فلا بد ان يضع ما اقتبس بين قوسين ، ومثل هذه الملاحظات ينبغي أن تدون في البطاقات بلغتها ، ولا تترجم الا عند تحرير البحث تحريرا نهائيا ، اعني حين يتوفر الوقت الكافي للترجمة الدقيقة ، ثم يردف الترجمة بكلمة (sic) اللاتينية التي تعني « هكذا في الأصل » واذا اراد الباحث ان يسقط بعض الكلمات من الملحوظة المقتبسة ، فعليه أن يضع بضع نقاط محل كل كلمة ، واذا كانت المادة المراد نقلها طويلة تمتد لبضع صفحات ، فلا باس من استخدام التصوير بطريقة الميكروفلم .

وحين يدون المؤرخ ملحوظة موجزة (لمجرد التذكير) فانه يكتفي بالاشارة الى مصدرها دون نقلها حرفيا . . . وقد تكون هذه الملحوظة موجزة للغاية اذا كان المصدر او المرجع ملكا خاصا للباحث ، او اذا كان موجودا بمكتبة يستطيع ان يتردد عليها كثيرا وبسهولة ، وأحسن وسيلة لهذا التدوين الموجز تتم على البطاقات ، فيثبت الباحث اسم المؤلف واسم الكتاب والصفحات التي تعنيه ، وما تتضمنه هذه الصفحات ، وذلك كله فيما لا يزيد على سطرين أو ثلاثة . . . وذلك لأن الباحث مطمئن الى وجود المصدر او المرجع تحت يده حينما يريد .

اما اذا كان المصدر او المرجع صعب المنال لنفاد طبعته او عدم السماح باستعارته او لوجوده في مكتبة نائية ، فيحسن ان تؤخذ منه الملاحظات مفصلة وافية .

وبالتجربة والمران ، ومع الأيام يتعلم الباحث تلقائيا كيف يوفر على نفسه كثيرا من الجهد والوقت ، من ذلك مثلا أن يشير عند بدء تدوين الملحوظات او عند الانتهاء من تدوينها الى سبب قيامه بالتدوين . . . وذلك خشية أن يتعذر عليه بعد ذلك تتبع نقطة من نقط بحثه بدت له لأول وهلة انها واضحة تماما ، ثم اذا هذا الوضوح يزول بعد فترة من الزمن .

وكثيرا ما يحدث ـ حتى بالنسبة للمؤرخين المتمرسين ـ ان يواجه المرء شعورا بالخيبة حين يجد بين يديه ملاحظات بذل كثيرا من الجهد والوقت في تدوينها ، ظنا منه انها مفيدة لبحثه ، ثم يتكشف الأمر عن عدم جدواها ، فيسال الباحث نفسه ، فيم اذن اضعت كل هذا الوقت والجهد ؟؟؟ ولو انه منذ البداية اشار الى سبب التدوين لما داخله هذا الشعور المرير .

وهناك ملاحظات يدونها الباحث للاستفادة الشخصية ، وهذه لا يستقيها من مصادر وانما تاتيه عفوا ، فقد يحدث بعد عمل مجهد متصل ، وبعد ان ياوى الباحث الى فراشه ، او حتى وهو على مكتبه ، ان يقترح على نفسه بعض الاسئلة او الزيادات او الفروض أو مقارنة مصدر بآخر ، او يهبط عليه راي لامع قد يتلاشى مع طلوع الشمس ، هذه كلها ينبغي أن يدونها فورا على بطاقات ، وتكون منفصلة عن بعضها ، كي يضعها بعد ذلك في المكان المناسب بين الملحوظات التي استقاها من المصادر .

الملحوظات الخاصة بالمصادر

هناك نوعان من الملحوظات التي ندونها لتسجيل أسماء الكتب والمقالات التي تتصل بموضوع بحثنا . النوع الأول يتعلق بالكتب والمقالات التي سوف نرجع اليها مستقبلا ، اما الثاني فخاص بما فرغنا منه فعلا من الكتب والمقالات .

والاول ناخذه مستعينين بمختلف المصادر ، فنحن كلما قرانا مصدرا اشار الى عناوين مصادر اخرى ومقالات كثيرة استقى منها معلوماته ، اوناقش ما فيها من معلومات . . . وفي هذه الحالة نجد بين ايدينا المعلومات التي تمكننا كباحثين من تشخيص نقط البحث والتثبت منها ، ومن ثم فلا داعي لاخذ ملحوظة طويلة عن العنوان ، الذي ربما ثبت لنا بعد فحصه أن قيمته تافهه ضئيلة . . اما اذا نحن فحصنا المصدر او المرجع او المقال فحصا دقيقا وتبين لنا قيمته وفائدته ، فمن الافضل ان ندون ملحوظة مطولة تتضمن كل المعلومات التي نحتاج اليها في كتابة هامش واضح ، او في كتابة عرض تحليلي للمصدر .

وهذه الملحوظات سواء اكانت من النوع الأول او من النوع الثاني لها اهميتها الكبرى حين نكتب الفصل الخاص بالمصادر والمراجع وترتيبها .

ويجب ان نكتب الملاحظات الخاصة بالمصادر على بطاقات مساحتها ٥ × ٣ سم ، لأن هذه البطاقات سهلة التداول ، ولأن الملحوظة المصدرية ـ اعني التي تتضمن اسم المصدر ـ لن تزيد عما تتسع له بطاقة بهذه المساحة ، ثم بعد ذلك نرتب هذه البطاقات ترتيبا ابجديا في ملف خاص ، ثم نضعها في صندوق مقاسه ٣ × ٥ سم ايضا ، وكلما انتهينا من دراسة احد المصادر ، ننقل البطاقة من المجموعة الموضوعة في صندوق « مصادر للمراجعة » الى صندوق « مصادر روجعت فعلا » .

الملاحظات الخاصة بالمادة المنقولة من المصادر والمراجع

هذه لا تدون على بطاقات من النوع السابق، لأنها تكون صغيرة جدا وسميكة أيضا فضلا عن ثمنها الباهظ ، والأفضل ان نستخدم وريقات جيدة لا تشغل حيزا كبيرا ، ويمكن تداولها ونقلها من مكان الى آخر دون تعريضها للتلف . . . كذلك ينبغي ان تكون البطاقة هنا ذات اتساع معقول بحيث يمكن استخدامها في اية مكتبة يعكف فيها الباحث على بحثه .

وافضل نوع هو المعتدل السمك بمساحة لا تزيد على ٨×٥ سم فمثل هذه البطاقة تكون عادة كافية لتدوين الملاحظة اذا ما استخدم وجهاها .

ولا ينبغي ان نضع الملحوظة الواحدة في اكثر من بطاقة حتى لا نضطر الى استخدام المشابك والدبابيس المعدنية ، لأن هذه مزعجة حقا ، قد تمزق البطاقات وتسبب تشابكها في بعضها .

وينبغي ايضا ان تنظم البطاقات في صفوف ، وعليها السنة تكتب عليها العناوين .

والترتيب المفضل عادة هو الترتيب الزمني في المراحل المبكرة من البحث والاستقصاء ، ولا باس من التزام هذا الترتيب اذا كان البحث سيخرج آخر الأمر في شكل متسلسل زمنيا .

هذا ولا شك ان الترتيب الزمني يسهل على الباحث مشكلة ضبط المصادر ومقارنتها ببعضها ، خصوصا حين تكون نفس الملحوظة متصلة باكثر من مكان واحد في سياق البحث ، فمن اليسير عندئذ ان نضع الملحوظة تحت اول تاريخ يتصل بها ، ثم ضبط بعد ذلك في سياق البحث منسوبة دائما الى ذلك التاريخ .

ومما لاشك فيه ان مشكلة ضبط المصادر ومقارنتها تزداد صعوبة اذا رتبت المصادر حسب الموضوع ، لان الموضوعات دائما تتغير اثناء عملية البحث والاستقصاء ، مع ان الترتيب حسب الموضوعات يكون اجدى وافضل اذا قررنا ان يخرج بحثنا في شكل جدلي .

والترتيب حسب الموضوعات يكون عادة تابعا للاشخاص الذين يتناولهم البحث او الجماعات او المجموعات البشرية . . . الخ ، ثم ان الموضوعات بدورها قد تاتي الى حد ما مرتبطة ارتباطا زمنيا ، وهذا الامر يصدق بصفة خاصة حين تكون دراستنا متصلة بالتطور في مجتمع او في منطقة لفترة زمنية محددة .

والمسالة آخر الامر متروكة لاختيار صاحب البحث متعاونا مع المشرف عليه اذا كان طالب دراسة عليا .

على ان الملاحظ ان الترتيب الموضوعي يعين صاحب البحث على التغلب على الصعوبات الزمنية (التاريخية) وعلى التكرار وعدم التماسك الذي يفقد البحث وحدته الموضوعية ويجعله اقرب الى مجموعة من الدراسات المتراصة .

تقييم الكتابة التاريخية

يجد المؤرخ نفسه في اوقات الازمات القومية كتلك التي يمر بها العرب الآن ، او في فترات التكييف التي تعقب الحروب ، يجد نفسه مدفوعا الى ادخال العاطفة كعنصر اساسي في قصة تقدم بلاده وامجادها ، ولقد يتناسى الحقيقة جزئيا اذا ادعت الضرورة القومية الى ذلك . . . والهدف من

ARCHIVE

ذلك هو عادة تنشئة مواطنين مخلصين اذا كانت قصة تاريخ الوطن من القصص التي يستطيع المواطن ان يفخر بها ... وهذه نزعة يؤيدها ويشجعها الدكتاتوريون والسطحيون من رجال السياسة في البلاد الديموقراطية ، لأنهم ينظرون الى التاريخ لا بوصفه نوعا من انواع المعرفة لها منهجها الخاص ، بل على انه وسيلة لاذكاء الروح الوطنية واشعال الحماس القومي .

ولهذا ينبغي دائما ان تظل الوطنية ــ كمعيار لتقدير الكتابات التاريخية ــ موضع شك القارىء الناقد .

ولما كانت هناك طرق مختلفة لعرض الحقائق التاريخية ، فان الحقيقة لا تظل وحدها اساس حكمنا على الكتابة التاريخية ، وانما يشترك معها ــ كمعيار لهذا الحكم ــ عامل آخر هو ما تنطوي عليه هذه الكتابة من فلسفة تابعة من بصيرة الكاتب ، ذلك ان المؤرخ لا يستطيع ان يتجنب فلسفة ما في كتابته ، ومن الخير ان يتبنى تلك الفلسفة بصراحة تامة ... يجب عليه أن يفصح عن ذاته خلال تلك الفلسفة ، فيبين ما اذا كان رجلا مثاليا او ماديا ، محافظا او حرا ، شكاكا او مؤمنا ، الى غير ذلك من الاقيسة والمبادىء ، والواقع ان المؤرخ الذي ليست لديه مبادىء فلسفية او اخلاقية لا تكون لديه اسس يقيس بها التغيير او الاستمرار ، ومن لم يعجز عن الحكم على عمليات التطور او الظهور او السقوط او النمو او الانحلال ... وبدون مثل هذه الاحكام ينعدم جوهر التاريخ .

ونحن نلاحظ ان المؤرخين القدامى والمحدثين على السواء قد تبنوا لأنفسهم فلسفات معينة فقد كتب **توكيديدس وتاكيتوس وفولتير وجيبون وماكولي** من اجل هدف محدد، وبمقاييس محددة للاحكام ، ونحن لا نستطيع ان نقدر قيمة مقاييسهم الا اذا كانت لنا مقاييسنا الخاصة بنا ... ان المؤرخ منا يحتاج دون شك الى بعض القواعد الفلسفية والاخلاقية لا ليضع تاريخه وحسب ، وانما ايضا ليستطيع ان يحكم في فطنة وذكاء على كتابات غيره من المؤرخين .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومسالة اخرى في تقييم الكتابة التاريخية ، واعني بها الأسلوب الادبي ، فلا بد للمؤرخ من أن يخرج كتابته في أسلوب ادبي ممتاز ، ذلك لان بلادة الأسلوب وانعدام الطلاوة فيه ، قد تؤدي الى الوقوع في الخطأ وتشويه المضمون التاريخي المستهدف .

والمؤرخ الذي يكتب تاريخا لا يلذ للقارىء ، يعتبر مؤرخا رديئا باعثا على الملل ، وهو مسئول دون شك عن عمليات بعث الماضي في اطاره وجوه الذي اكتنفه ، واذا فشل في ذلك فانه يعتبر مؤرخا فاشلا مضجرا وباعثا على الملل بل وعلى كراهية التاريخ .

ومع ذلك فنحن نعترف بأن التزام الدقة التاريخية واتباع قوانين المنهج التاريخي قد يحدان كثيرا من سيولة القلم الموهوب ... ولكن نقاد الأساليب التي يتبعها المؤرخ الاكاديمي يدركون ذلك ، ولا ينتظرون منه أن يكتب كما يكتب الأدباء المحترفون ، وكل ما يطلبونه منه هو ان يكتب ببساطة في اسلوب سهل ممتنع متجنبا الشرود والايهام بالمعرفة .

ومشكلة الاسلوب آخر الأمر يمكن ان تحل ــ ولو جزئيا ــ بشيء من التعاون ، فبوسع المؤرخ بعد ان يفرغ من كتابة بحثه معتمدا على المادة التي استقاها من مصادرها ، بوسعه ان يدفع بهذا البحث الى زميل او صديق يتمتع باسلوب ادبي رفيع ليعيد له صياغة ما كتب ، ولا عيب في ذلك على الاطلاق ، شريطة الا يكون هذا الأديب ممن يؤثرون الأسلوب الجذاب على الحقيقة التاريخية .

الهوامش

للهوامش فائدة كبرى فى الكتابة التاريخية ،ولعلها اداة الحكم على اصالة هذه الكتابة وجدواها ، ولهذا يعتبر المؤرخ الذى يهملها اويتخلى منها تماما فى اى مؤلف يضعه ، كانما تخلى عن اهم وسيلة يستطيع بها غيره ان يفحص ما وصل اليه من نتائج ، والملحوظة الهامشية هي التي تهيء للقارىء فرصة الاستدلال على صدق المؤلف ، كما تهيء له فى نفس الوقت فرصة الحصول على مزيد من المعلومات التي قد تستهويه او تهمه اهمية مباشرة .

واهم سبب يدعو المؤرخ الى التهميش فى كتابته او حين عرضه لنص من النصوص ، هو الاشارة الى النصوص التي استمد منها هذه العبارة او تلك ، وهكذا تصبح الملحوظة الهامشية شاهدا على الكاتب ، ومن الخير ان تكون فى هذه الحالة موجزة ... فاذا كان هناك تضارب فى المصادر التي يستعين بها المؤرخ فانه يجد نفسه مضطرا الى الاطالة فى الملحوظة الهامشية ، حيث يشير فيها الى مختلف الاراء ، ويحاول ان يحسم مادة الخلاف براى من عنده .

واحيانا تكون الملحوظة الهامشية متضمنة لاقتباسات حرفية توضع بين اقواس ، وتلك طريقة مفيدة جدا للقارىء المهتم الذى يستطيع حينئذ ان يقارن بين ما جاء فى عدة مصادر دون الرجوع الى هذه المصادر ذاتها .

على اننا نحذر فى هذا الصدد من التعسف والتحذلق عند تدوين الملحوظات الهامشية ، كتلك التي يريد المؤلف من ورائها ان يبين للناس وفرة مصادره ، وسعة اطلاعه باللغات الأجنبية ، او تلك التي يحشرها حشرا نتيجة لمعلومات جديدة صادفته بعد ان فرغ من كتابة بحثه ولم يعد قادرا على ادماجها فى المتن ادماجا سلسا .

وينبغى ايضا ان ننبه الى وجوب اتباع الاختصارات العالمية التي يستخدمها الكتاب فى كل انحاء الأرض مع ملاحظة ان يدون اسم المصدر او المرجع بالأحرف المائلة ، والا قيمد من تحته خطا ، وبالنسبة لأسماء المجلات العلمية ينبغى اتباع الاختصارات الدولية ايضا . وهذه الاختصارات مدونة فى معظم المراجع . وتكتب الهوامش فى اسفل الصفحات او فى نهاية الفصل او فى نهاية الكتاب ، والطريقة السليمة هي ان يكتب اولا اسم المؤلف (اللقب اولا ثم الاسم الأول (او الحرف الأول منه) ثم بعد ذلك اسم الكتاب بحروف مائلة ، ثم رقم المجلد اذا كان الكتاب متعدد المجلدات ، ثم رقم الصفحة او الصفحات .

وحين يكون الكتاب نادر الوجود ، فيحسن ذكر مكان وجوده ورقمه ، وكذلك اذا كان المصدر الذى اعتمد عليه الباحث وثيقة مخطوطة ، فينبغى ذكر الأرشيف او المكتبة التي توجد بها هذه الوثيقة ورقم المجلد ورقم الملف ورقم الورقة او الصفحة وتاريخ الوثيقة ومكان تدوينها وعمن صدرت والى من ارسلت ، وبيان ما اذا كانت ورقة رسمية او غير رسمية او مسودة .

وحين نورد فى الهامش نصا مقتبسا فينبغى كما ذكرنا ان نضعه بين قوسين ، ولا بد ايضا ان نورده بلغته الأصلية دون ترجمة ، لان هذه قد تغير المعنى .

واحيانا يرى الباحث ان يكون الهامش مكان مناقشة او نقد نص من النصوص ، او نقد راى عدة مؤلفين في موضوع ما ، او التوفيق بين عدة آراء متناقضة في حادث معا . . . ولا بأس من ذلك كله على ان يورد الباحث في المتن ذاته الراى الذي يرجحه هو مع الأدلة التي استند اليها في هذا الترجيح ، ثم يقتصر في الهامش على عرض الآراء المتناقضة وادلتها ، ويناقشها بعد ذلك .

على اننا نقول انه ليس هناك راى قاطع او اصطلاح عام فيما يجب ان يكون مكانه الهامش وما يجب ان يكون مكانه المتن ، والمسالة في النهاية متروكة لتقدير الباحث نفسه .

الملاحق

بعد ذلك تأتي ملاحق البحث ، وهي التي يقدم فيها الباحث بعض الأصول التي اعتمد عليها او مختارات منها ، وهي عادة مراسلات سياسية من سفراء لحكوماتهم وبالعكس ، أو معاهدات مختلفة الطابع ، او وصف لشاهد عيان من حادث معين .

ومن الخير نشر هذه الاصول بلغاتها الاصلية مع شرح الفاظها الغريبة وتصحيح ما قد يكون بها من اخطاء مع التعليق اللازم .

وفي النهاية يثبت الباحث اسماء الاصول والمراجع التي اعتمد عليها ، وقد يعقد لها فصلا كاملا يناقش فيه كل مرجع ومصدر مناقشة معقولة ، ويحسن ان تكون هذه وتلك مرتبة ترتيبا ابجديا حسب اسم اصحابها ، ومن الواجب ايضا تصنيفها وفق القاعدة المتبعة ، فأولا المصادر بانواعها ثم المراجع ثم الدوريات ، وينتهي الحديث عن كل مصدر ومرجع ببيان عن مكانه ورقمه وتاريخه وعدد مجلداته . . . ولا يخفى ان هذا الجزء من البحث يعتبر جوهريا واساسيا ، فهو دليل على الجهد الذي بذله الباحث ، كما انه يعين الباحثين من بعده .

مشكلة التعليل

يحاول المؤرخ دائما معرفة الاسباب والدوافع التي ادت الى الحقائق التاريخية ، اعني انه يحاول ان يرد كل معلول الى علته ، وهذه العملية بالذات هي التي تضفي على الدراسات التاريخية كثيرا من المتعة ، وبسط الحقيقة مجردة لا يمكن ان يكفي القارىء ويقنعه ، وانما الذي يقنعه ان يجد سبب هذه الحقيقة مبسوطا امامه في وضوح ، فيعرف مثلا لماذا ازدهرت امة من الامم ولماذا انحلت وتدهورت ، ولماذا تفوقت حضارة من الحضارات ثم لماذا هبطت وسقطت ، ولماذا كسب احد القادة معركة من المعارك ثم لماذا خسر معركة اخرى وهكذا .

وقد ذكرنا ان بعض المؤرخين يحاولون ارجاع سبب كل حدث من الاحداث التاريخية الى الارادة الالهية ، الارادة العلوية التي تسيطر على كل شيء وتوجه كل شيء نحو هدف محدد لا يدركه البشر ، وذلك تسليم بالالهيات يخرج عن دائرة البحث العلمي المرتجى من المؤرخين كما اوضحنا من قبل .

وثمة فريق آخر يحاول ان يرد الاحداث الى علل عقلية او كما يقول الفلاسفة الى اصل

ميتافيزيقي ، ويمثل هذا الاتجاه الفيلسوف الالماني **هيجل** (١٨) وتلامذته الذين كان **مومسن**(١٩) **وميشليه** (٢٠) من ابرزهم ، وخلاصة رايهم في التعليل ان كل حادث تاريخي هو في نفس الوقت حادث عقلي ، يقع وفقا لمنطق عام ثابت ، وان لكل حادث مبرراته ودوره في تقدم المجتمع البشرى ... فمثلا النظم باشكالها حادث عقلي وجد لفائدة المجتمع وتلبية حاجاته ، ولو لم تكن هناك تلك النظم ، لما نمت المجتمعات ولا تطورت .

ولكننا لا نستطيع ان نخرج من هذا المذهب في التعليل بقاعدة ثابتة ، لان حوادث التاريخ لم تقع دائما بطريقة عقلية منطقية ، ولم تكن دائما محققة لفائدة المجتمع البشرى .

وتطبيقا لهذا المذهب ، نشر **ميشليه** – في فرنسا – النظرية الهيجيلية المعروفة بنظرية « الصور » ، والتي عرفت في المانيا باسم « الرسالة التاريخية » للافراد والمجتمعات ، وخلاصتها ان المجتمع في تقدم مطرد بفضل ادوار متتابعة يقوم بها الافراد والجماعات ، لكن هذه النظرية لا تطابق الواقع تماما ، فالمجتمع البشرى في تغير وتطور وتحول مستمر بصورة عامة ، لكن ذلك لا يؤدى دائما الى التقدم ، فاحيانا بل كثيرا تاتي فترات انحلال وهبوط بعد فترات التقدم والازدهار ، وبالتالي فنحن لا نستطيع تطبيقا لهذه النظرية الهيجيلية – ان نخرج باسباب ثابتة تؤدى حتما الى نتائج معينة .

وفريق آخر من المؤرخين حاول ان يعرف اسباب الاحداث التاريخية عن طريق مقارنة مجموعات من الحقائق ، بهدف الوقوف على نوع الحوادث التي تقع في وقت واحد ، في اماكن متباينة ، فيدرس الباحث مثلا جانبا من تاريخ النظم او تاريخ العقائد ، ثم يقارن بين اوجه تطورها في عدة مجتمعات لكي يحدد اتجاه تطورها العام بقصد معرفة السبب المشترك الذى ادى الى ذلك التطور ... وكانت نتيجة هذا المذهب ان ظهرت انواع من الدراسات التاريخية المقارنة كدراسة فقه اللغة المقارن ، والقانون المقارن والنظم المقارنة ... الخ ، وهذه الطريقة بدورها لا تؤدى دائما الى معرفة الاسباب الحقيقية للحوادث لانها قد تنطبق على حالات مفردة ، او قد تتشابه ظاهريا ، خصوصا وان الحالات لا يمكن ان تتشابه تشابها مطلقا ، ولا بد من تفاوت واختلاف ولو قليل ... كذلك قد لا يستطيع الباحث ان يحيط بكل الظروف التي اكتنفت الاحداث موضع المقارنة .

---

(١٨) George Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠ – ١٨٣١) فيلسوف الماني ، ولد في شتوتجارت ، وكان من انصار حرية الفكر ، درس المسيحية الاولى وذهب الى ان المسيح ابن لمريم ويوسف النجار ... اشتغل بالتدريس في كثير من جامعات المانيا ومن اهم مؤلفاته « اصول القانون وفلسفة الدين وعلم المنطق وفلسفة التاريخ » ورايه ان التاريخ هو تاريخ الفكر الانساني ، وقد قسمه الى مراحل ثلاثة : الشرقية والكلاسيكية والجرمانية ، ولكل مرحلة رسالة تؤديها .

(١٩) Theodor Momsen (١٨١٧ – ١٩٠٣) مؤرخ الماني ، ولد في شلزويج ، درس في المانيا وايطاليا ، ومارس التعليم في ليبزج ثم رحل من المانيا لانه كان من مؤيدى الملكية ، عاش فترة في سويسرا ثم عاد الى برلين ، ومن اهم آثاره – تاريخ روما والقانون الدستورى الروماني – امتاز بدقة كبيرة في البحث والاستنتاج وفي تتبع آثار الفكر الانساني على الحياة السياسية والاجتماعية ، حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٠٢ .

(٢٠) جول ميشليه Jules Michlet (١٧٩٨ – ١٨٧٤) مؤرخ فرنسي ، كان استاذا للتاريخ في الكوليج دى فرانس ، الف تاريخ الثورة الفرنسية ، ولم يكن محايدا في كتابته ، وقد كانت اراؤه الحرة المتطرفة سببا في تعطيل محاضراته بعض الوقت .

وقد يستطيع الباحث ان يصل الى ما يمكن اعتباره قوانين تجريبية تقع بمقتضاها حوادث متتابعة ؛ بيد ان هذه القوانين لا تفسر دائما سبب وقوع هذه الحوادث تفسيرا مقنعا صحيحا ... ذلك اننا نعرف ان الاحداث التاريخية هي آخر الأمر احداث انسانية ، ومن ثم فانه في حقائق التاريخ ــ بعكس حقائق العلوم الطبيعية ــ قد تتضافر عدة اسباب للوصول الى نتيجة ما ... لكن نفس هذه الأسباب قد لا تؤدي الى نفس النتيجة في ظروف أخرى ... كذلك فان سببا ما قد يؤدي الى نتيجة ما في مكان ما ثم يؤدي هو بعينه الى نتيجة اخرى في مكان آخر ، والسبب في ذلك كله هو تدخل العامل البشري .

ولقد يضع الباحث فروضا يراها متمشية مع الحقائق التي تعرض له في سياق التاريخ ، ثم يحاول ان يعالج هذه الفروض واحدا بعد الآخر حتى يصل الى النتيجة التي ترضيه وتقنع قارئه، لكن ينبغي هنا ان يبتعد بنفسه عن الالتزام بنظرية محددة ، ويقوم بعملية التعليل على اساسها ، كما يفعل احيانا بعض المتحمسين لفكرة سياسية بعينها او لمذهب اقتصادي أو ديني معين ، وبالتالي فانه يصل الى علل لا تعبر عن الاسباب الفعلية للحقائق وانما تعبر عن لون تفكيره هو .

ومهما يكن من امر فان اسباب بعض الاحداث التاريخية تكون واضحة لنا في بعض الاحيان وضوحا كاملا أو جزئيا ، اذ نجدها على هذا النحو او ذاك في المصادر التي بين أيدينا ، لكن يتبقى ان ندرك أن الوصول الى الاسباب ليس دائما يسيرا سهلا ، بل انه احيانا يكون عسيرا قريبا من المستحيل بسبب اختلاط الروايات واضطراب الاصول .

اننا آخر الامر نجتهد ، وحسبنا هذا ، ولا يتوقع احد من المؤرخ ان يدرك اسرار الوجود كافة ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاستدلال والتاريخ

التاريخ دراسة تقوم اولا وقبل كل شيء على الاستدلال ، فما معنى هذه العبارة ؟

الواقع ان التاريخ كغيره من الدراسات العلمية لا يستطيع اصحابه ادعاء صدق ما يكتبون الا اذا استطاعوا تبرير ذلك ...

ولا يمكن ان يعتبر المرء مؤرخا الا اذا ادرك تماما ما يمكن أن تتمخض عنه المادة التاريخية المطروحة امامه من براهين وادلة تفسر الاحداث التاريخية ... فلو فرضنا أن انسانا استطاع ان يحصل على هذا الادراك نفسه عن طريق الذاكرة مثلا ... فان هذا الادراك او هذه المعرفة ليست من قبيل المعرفة التاريخية ، لانها لم تأت عن طريق الاستدلال من مادة تاريخية اعتمد عليها... وهذا الطريق هو وحده الطريق العلمي ، فلو قلت مثلا انني رايت فلانا منذ اسبوع على ما اذكر ، فتلك عبارة غير تاريخية ؛ ولكن لو اضفت اليها قولي « وذاكرتي في هذا لا تخونني ولا تخدعني لانني تسلمت منه هذه الرسالة التي كتبها امامي » كان ذلك بمثابة دليل استندت اليه لاثبات صدق عبارتي الاولى التي قلتها عن الماضي ... وهنا تصبح العبارة تاريخية لانها تعتمد على الاستدلال ، ولأنها كتبت أو قيلت تبعا لاسلوب او لمنهج البحث العلمي . فالاستدلال اذن هو الاساس في صياغة التاريخ والاعتماد عليه هو الذي يعطي الباحث صفة المؤرخ .

فما هي انواع الاستدلال ؟

الواقع ان الصلة التي تربط بين المعرفة وبين الاسس التي تستند اليها ، تختلف باختلاف فروع هذه المعرفة ... والمناطقة الاغريق هم اول من صنف لنا انواع الاستدلال ، وعلى رأسهم الفيلسوف ارسطو ... لكن التقدم الذى احرزوه فى هذا الميدان كان منحصرا فى العلوم الرياضية ، فلما بدات العلوم الطبيعية الجديدة ـ التي تقوم على الملاحظة والتجربة ـ تتبلور منذ اواخر العصور الوسطى ، نشأ تدريجيا منطق جديد للاستدلال ، يقوم على تحليل الطريقة المتبعة فى دراسة تلك العلوم الطبيعية الجديدة .

وهناك على كل حال نوعان من الاستدلال ـ الاستدلال الاستنباطي ، والاستدلال الاستقرائي . اما الاول فهو المتبع فى علوم الرياضة البحتة ، وهو نوع من الجبرية المنطقية التى تلزم الشخص الذى يضع بعض الافتراضات العلمية ان ينتهي منها الى افتراضات اخرى ما دام قد التزم بالاولى ... والذى يضع هذه الافتراحات يتمتع بحرية الاختيار بين اتجاهين : اولهما انه لا يلتزم بمقدمة معينة او افتراض علمي معين بدايه ، وثانيهما انه اذا التزم بمقدمة معينة فهو لايزال حرا فى عدم الاسترسال فى التفكير . اما الذي لا يستطيع ان يفعله فهو ان ياتي بمقدمة الاستدلال ثم يسترسل فى التفكير حتى ينتهي الى نتيجة لا تتفق مع ما يجب ان ينتهي اليه القياس من نتيجة علمية .

اما الاستدلال الاستقرائي فليس فيه هذا الاجبار او تلك الجبرية المنطقية ، لان جوهر عملية الاستقراء هو اننا نجمع الظواهر التي شاهدناها الى بعضها ، ثم ننتهي منها الى نتيجة معينة ، وبالتالي نستطيع ان نطبق هذه النتيجة فى آفاق غير محدودة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اى اننا هنا وكما يقول المناطقة ننتقل من المعروف الى غير المعروف او من الجزئيات الى الكليات .

هذا هو التفكير الاستقرائي ، وجوهره اننا لا نستطرد فيه بحكم الضرورة المنطقية ، ونحن حين نمارسه نكون احرارا من وجهة النظر المنطقية .

والخطوة الاولى فى النوعين ، الاستنباطي والاستقرائي ، متى كنا بصدد موضوع نريد التدليل على صحته وصدقه ، هي ما اصطلح على تسميته « بالمقدمات » ، والذى يحدث فى الحالين هو ان المقدمات تثبت صحة النتائج .

لكن هناك نقطة خلاف جوهرية ، هي اننا نجد المقدمات فى علوم المنطق والرياضة البحتة تفرض النتيجة فرضا بحيث تبدو شيئا لا محيص عنه ، بينما نجده فى العلوم الطبيعية التي تقوم على الملاحظة والتجربة ، تبرر هذه النتيجة فقط دون ان تفرضها فرضا ، اى انها تخول الانسان حق الاعتقاد فى صدقها متى اراد ذلك دون ان تكون ضرورية من الوجهة المنطقية . . . كل ما فى الأمر انها نتيجة مستساغة يمكن الاخذ بها .

وهنا فى هذا المجال حديث ينبغي ان يقال عما يسميه المؤرخون « الشهادة » .

فالتاريخ كبقية الدراسات العلمية ، دراسة مستقلة ، بمعنى ان المؤرخ ملزم ان يفكر فى الحل الصحيح لكل مشكلة تعترضه عن طريق ابحاثه العلمية استنادا الى منهج البحث الذى يلتزم به ، ولا يجوز له ان يسمح لأى انسان آخر ان يحمل عنه عبء هذا التفكير مهما كان هذا الانسان ... مؤرخا شهيرا حاذقا او شاهد عيان او ثقة من الثقات ولو فعل ذلك لانتفت عنه صفة المؤرخ ، وقيام الغير بهذا التفكير ، ثم قبول المؤرخ المضطلع بالبحث له ، معناه قبول شهادة الغير ...

وليس معنى ذلك ان تهمل شهادات الغير اطلاقا ، انما الذى نريد تاكيده هو ان قبول هذه الشهادة مشروط بان تكون مدعمة بأسس تستند اليها وتقوم عليها ، اعني ان الشهادة لا تقبل من كائن ايا كان الا اذا استندت الى دليل .

التحرير او العرض

تلك هي المرحلة الاخيرة من المنهج التاريخي، واول ما يقال فيها انه ينبغي على المؤرخ الذى يهمه رد الفعل لدى قرائه ان يتجنب افتراض معرفة واسعة لدى هؤلاء القراء ، وهذه مسألة هامة على وجه التخصيص بالنسبة للمبتدئين فى التحرير ، ذلك انهم يتصورون عادة ان قارئهم هو فى الغالب استاذ على قدر كبير من المعرفة بموضوعهم ... وهنا ينبغي على الاستاذ المشرف ان يذكر تلميذه دائما بالقارىء العادى .

وينبغي على المؤرخ الا يذكر اسم علم دون ان يقدمه فى اطار معقول من التعريف دون محاولة الاستعلاء على القارىء ، اعني دون محاولة التحذلق .

كذلك لا يجوز للمؤرخ المبتدىء ان يعمد الى الاقتباس الطويل او الاقتباس الذى تكرر كثيرا ، ومن الخير اذا لم يكن هنالك بد من الاستشهاد بنص طويل ، ان يفرد له ملحقا فى آخر البحث ، حيث يستطيع صاحب البحث ان يقدم للنص ببضعة اسطر توضح قيمته .

ولا بد ان يذكر المؤرخ المبتدىء ايضا ان الاساليب البيانية المصطنعة لا تساعده على تحسين اسلوبه ، وبحسبه ان يحاول جعل اسلوبه حيا .

وقبل ان يبدأ الطالب المؤرخ فى كتابته ،يجب عليه ان يخطط المقالة او الفصل ، ليعرف بدايته ونهايته ، وما سوف يقول بين البداية والنهاية ... بعد القيام بهذا التخطيط يبدأ الباحث فى الكتابة مستعينا بما لديه من ملحوظات دونها فى بطاقاته ، ومن كتب ومجلات علمية مما ينبغي ان يكون دائما تحت يده .

وبهذا الاسلوب العلمي ينتهي من المسودة الاولى لبحثه ، والتي قد تبدو وكأنها ملحوظات موضوعة ومصفوفة كقوالب الطابوق ، لا حياة فيها ، ولقد يكتشف الكاتب ان فكرته من اساسها كانت خاطئة ، وان النتائج (التي وصل اليها) لا تنبع من حوادثه ... وهنا ينبغي عليه أن يبدأ الكتابة من جديد .

وبعد ذلك يعيد الباحث قراءة مسودته الاولى ليضيف اليها ما قد افلت اثناء التسويد من المعلومات .. وفى هذه المرحلة ـ مرحلة القراءة الثانية ـ يحسن البدء فى تنظيم الهوامش .

وتأتي الخطوة التالية وهي كتابة المسودة الثانية ، وفيها تكون المادة قد استكملت ، والحواشي قد دونت ، ولكن تعوزها سلاسة الاسلوب وحسن الانتقال من نقطة الى اخرى والتنظيم بوجه عام ... وربما يبدو فيها بعض التكرار ، ومن ثم يبدأ الباحث في قراءة هذه المسودة لتنقيتها من تلك المثالب والعيوب ، فيصقل الفقرات ويسلسل الأفكار ، وينتقل من مكان الى مكان ما يقتضي الأمر نقله من عبارات وجمل ، ويحذف ما يراه زائداً من مجازات ومرادفات ، ولا بأس بعد ذلك كله من اعادة النظر في عنوان البحث .

ويأتي بعد ذلك دور المسودة الثالثة التي لا بد أن تكون على أحسن حال يمكن أن يصل اليه المؤلف الباحث ... وهذه هي التي تقدم للمطبعة .

ولا يغيب عن البال أن كثيراً من الابحاث يخرج سيئاً بسبب عدم التروي ... أعني بسبب السرعة الكبيرة في كتابة المسودات .... وفي قلة هذه المسودات نفسها ... وهذه مساوىء يقع فيها المبتدئون بصفة خاصة ، لانهم يتوقون بشوق منقطع النظير الى رؤية أول بحث مطبوع لهم ، ولا ينبغي أن ننسى أبداً أن الاشياء الصغيرة هي التي تصنع الكمال ، وان الكمال نفسه ليس بالشيء الصغير .

بعد هذا الايجاز الشديد الذي التزمناه في الحديث عن التحرير ، أعني عن انشاء الصيغة التاريخية ، يحسن أن نتناول بعض نقاط بشيء من التفصيل :

فحقائق التاريخ متنوعة ومعقدة ولا يمكن أن نعرضها عرضاً مركزاً كالحقائق الكيمائية أو الفيزائية ، وانما نحن في حاجة الى أسلوب وشكل نعبر به عن هذه الحقائق وظواهرها المختلفة .

والقاعدة الاولى في هذا الصدد أن تكون الصيغة التاريخية مختصرة ، وفي نفس الوقت دقيقة ... ولكن الاختصار قد يتعارض أحياناً مع الدقة ، أعني أن الاختصار حين نلتزمه كقاعدة في الكتابة التاريخية قد يسبب عدم فهم المراد ... فهل نلجأ في هذه الحالة الى التطويل ؟ ان التطويل قد يسبب الانتقاص من قيمة الحقائق التاريخية اذ يفرض على القارىء ما هو في غنى عنه ، وما هو غير ضروري .

ولهذا فان الطريقة المثلى هي اتباع طريق وسط بين الايجاز والتطويل ، فنضغط الحقائق اولا ، ثم نحذف كل ما نجده غير ضروري لايضاحها .

ثم ماذا يفعل الباحث المؤرخ لانشاء الصيغة التاريخية التي نعبر بها عن الحقائق الخاصة والحوادث المفردة ؟

في **الحالة الاولى** ـ أعني حالة الصياغة المتعلقة بالحقائق العامة ـ يستعين المؤرخ بما وصل اليه أثناء العمل في بحثه من تعرف على طبيعة هذه الحقائق ومدى انتشارها ، ثم يجمع كل الظواهر المتصلة بها ويركزها وينظمها في بنائه التاريخي .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

اما فى **الحالة الثانية** ـ اعنى حالة الحقائق الخاصة بعظيم من العظماء ، أو حالة حادثة مفردة ـ فان المؤرخ مسئول حين يحدث الناس عن هذا العظيم أن يبين لهم الظروف التي اكتنفت حياته واثرت فيها ، وكونت له عاداته ، ودفعته الى اعمال وتصرفات بعينها أثرت فى مجرى تاريخ مجتمعه الخاص أو فى المجتمع البشرى كله ، وبتحديد التفاصيل المتعلقة بذلك كله ، وبآراء هذا العظيم ومعلوماته وذوقه وخلقه ، يستطيع الباحث ان ينشىء الصيغة التاريخية المطلوبة .

اما الحادث المفرد فلا بد من تبين طبيعته ومداه وما خلفه من آثار ، ونعنى بطبيعة الحادث المظاهر الخاصة التي تميزه عن الحوادث الاخرى .

وينبغي على الباحث ان يعطى الناحية التاريخية التي يعرضها ، التلوين المناسب الذى يجسمها للقارىء ويجعلها نابضة بالحياة ، وهذا امر لا يمكن ان نضع له قواعد معينة ، وانما هو متروك لذوق الباحث وتقديره .

والصيغة الوصفية التاريخية ليست الهدف النهائي للباحث ، لانها لا تمدنا الا بالصفات الخاصة بكل مجموعة صغيرة من الحقائق ... وعليه بعد ذلك أن يحدد العلاقات المتبادلة بين الحقائق ، وان يربط ويقارن بين تلك المجموعات الصغيرة ، وان يحدد مميزاتها ومدى انتشارها واستمرارها واهميتها .

وكلما مضى الباحث فى هذا العمل تكونت لديه مجموعات اوسع واعم ، وهنا يستطيع ان يسقط الصفات التفصيلية المتغيرة ، ويستبقى الصفات العامة المشتركة .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونتيجة ذلك كله هى تركيز الحقائق العديدة ووضعها فى صيغة عامة سواء أكانت هذه الحقائق متعلقة بالدين ام بالسياسة ام باللغة ام بالفن ام بالاقتصاد ام بالاجتماع ... وهكذا يرتب الباحث ما لديه من حقائق ، وتصبح معدة للعرض التاريخي بطريقة توضح مضمونها المشترك .

وحين يأخذ الباحث فى عرض ما انتهى اليه من دراساته ، يلاحظ احيانا ان ما قدمته له الاصول التاريخية لا يكفي لايفاء موضوع بحثه كل حقه ، اعنى ان الحقائق التي استمدها من مصادرها ومراجعها قصرت دون تغطية موضوع البحث تغطية شاملة ... فان الحقائق تكثر احيانا بالنسبة لفترة معينة وموضوع معين ، بينما تندر بالنسبة لفترة اخرى فى نفس الموضوع ، او لعلها تنعدم تماما ... وتكون النتيجة ان الباحث يجد امامه فجوات فى السرد المطرد لا يستطيع ان يملأها مستندا الى المصادر والمراجع ، فماذا يفعل ... ؟ هنا لا مفر من محاولة سد هذه الفجوات بالاجتهاد ، اعنى عن طريق العقل والقياس ، وكان علماء المسلمين من ابرز وافضل من لجأ الى الاجتهاد فى احكام الشريعة ، ولكن الاجتهاد لا يستخدم اعتباطا ، وانما هناك قواعد ينبغي ان يراعيها الباحث حتى يكون تعرضه للوقوع فى الخطأ اقل ما يمكن ، ويمكن تلخيص هذه القواعد فى النقاط الآتية :

١ ـ لا يجوز للمجتهد ان يسرف فى تحليل الاصول التي بين يديه بحيث يحملها اكثر من محتواها الحقيقي ، الامر الذى قد يؤدى الى اضافات ليست حقيقية .

٢ ـ لا يجوز الخلط بين الحقائق التيتوصل اليها الباحث من وثائقه وتلك التي توصل اليها بالاجتهاد ، بل لا بد من الاشارة الصريحةالى كل ما توصل اليه صاحب البحث باجتهاده وقياساته .

٣ ـ لا يجوز ان يحاول الباحث القيامبعملية قياس الا اذا كان متفرغا لها تماما مركزا ذهنهفيها كل التركيز ، متبعا اصول المناطقة فى الاجتهاد .

٤ ـ النتائج التي يتوصل اليها الباحث عنطريق الاجتهاد ، ويعتقد هو انها موضع شك ، لا بد من ان يقرر ذلك صراحة لقرائه ، وليس لهان يضعها فى موضع النتائج الثابتة الاكيدة .

والاجتهاد كما هو معروف نوعان : سلبيوايجابي ، فاما السلبي فهو ما يعبر عنه المناطقة بعبارتهم المشهورة « السكوت حجة » والمقصودهو ان سكوت المصادر عن ذكر واقعة او خبر يؤخذ دليلا على انه لم يحدث ... والا لما سكتتعنه المصادر ... لكن هذا الحكم قد يكون جائرا ، فكم من اصول تاريخية تعرضت للتلف والضياعوكم من احداث افلتت من التدوين لشيوعها وذيوعها بحيثيرى الكاتبانه لا داعيلذكرها ... وكم من احداث اخرى لم تدون لان السلطات ارادت لها ذلك ، فلم تسجلفى الاوراقالرسمية .

وهكذا لا نستطيعان ناخذ بعبارة « السكوتحجة » . اما الاجتهاد الايجابي فهو الذى يهدف الى استنتاج حقيقة او مجموعة حقائق بمجردالتثبت من وقوع حادثة بعينها ... بمعنى ان يبدا الباحث بحادث ما اتفقتالاصول علىوقوعه،ثم يحاول استنتاج حوادث اخرى لم تذكرها هذه الاصول التي بين يديه ، مستعينا على ذلكبالمقارنة بين حوادث الحاضر وحوادث الماضي ... فما دام هذا الحدث المعين قد وقع ، فهو يستنتجوقوع حادث آخر لترتب هذا على ذلك ، او لكونهما معا نتيجة لسبب واحد .

وهذا النوع من الاجتهاد ينطبق علىالحقائقالتاريخية كافة ، فهو يسرى على العادات والتقاليد وعلى عمليات التطور والتغير فىالمجتمعات ، وعلى الحوادث الفردية ، وعلى الشئون السياسية والدينية والاقتصاديةوالادبية .

وعلى اية حال ، فالاجتهاد كله ـ السلبيمنه والايجابي ـ لا يؤدى دائما الى نتائج ثابتة قاطعة ، وانما الى نتائج تقريبية . تلك حقيقةينبغي الا تنسى .

• • •

خاتمة

وبعد فتلك هي اسس كتابة التاريخ العلمي،وذلك هو المنهج السليم الذى ينبغي ان يتبعه كل من يريد ان يكتب بحثا فى التاريخ تكون له اهميتهوقيمته ، اما الكتابات التقليدية التي تكتفي بسرد الاحداث وحسب ، فهذه لا تدخل فى نطاقالتاريخ ، وانما هي كما قلنا مجرد قصص قد يتسلى بها الانسان .

ولا بد لكل من يتصدى لكتابة التاريخ أو تدريسه ان يلم بهذا المنهج وقواعده الماما تاما دقيقا ، ومدرس التاريخ انما يقوم بمهمة جليلة لأنه بتدريسه يضع عنصرا جوهريا من عناصر الثقافة التي تنشدها كل امة من الأمم لبنيها .

ويحسن أن يكون مدرس التاريخ متخصصا في الفرع الذى يقوم بتدريسه ، فلا يدرس التاريخ القديم الا من تخصص فيه ، وكانت دراسته العليا مقصورة عليه ، وكذلك الحال في بقية فروع التاريخ ، وهذا يصدق بصفة خاصة على مدرس المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية وعلى المدرس الجامعي بطبيعة الحال .

وليعلم مدرس التاريخ انه يقوم بتعليم طلابه وطالباته دروسا لها قيمتها الكبرى في بنائهم العقلى ، وانه ايضا ينمي فيهم ملكة التنظيم في العمل ، ويدربهم على النقد والتحليل ومناقشته الاراء مناقشة منطقية سليمة ، فضلا عما يقوم به من اذكاء الروح القومية في نفوسهم ، وتعويدهم الصبر والدأب على البحث والدرس .

ان التاريخ هو الحياة بذاتها ، هو الانسان منذ وجد على ظهر هذه الارض وباشر فوقها نشاطه ، ولهذا فان كتابته هي السجل البشرى الكامل ، ونحن لا نستطيع ان نعيش حياتنا مقطوعين من هذا السجل الحافل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

المصادر والمراجع

حسين محمد احمد : الوثائق التاريخية . القاهرة ١٩٥٤ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ولي الدين : المقدمة . القاهرة . ١٩٣٠ .

الدوري ، عبد العزيز : بحث في نشأة علم التاريخ عندالعرب . بيروت ١٩٦٠ .

رستم ، اسد : مصطلح التاريخ . بيروت ١٩٣٩ .

زريق ، قسطنطين : نحن والتاريخ . بيروت ١٩٥٩ .

ابو زيد : حكمت : التاريخ تعليمه وتعلمه حتى نهايةالقرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٦١ .

السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن شمس الدين : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٣٤٩ هـ .

شلبي ، احمد : كيف تكتب بحثا او رسالة . القاهرة ١٩٥٥ .

صفوت ، محمد مصطفى : التاريخ ، اهميته وطرق تدريسه . مستخرج من مجلة العلوم . القاهرة ١٩٤٢ .

لانجلو ، ش . وسينيوبوس ، ش . : المدخل الى الدراسات التاريخية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ضمن كتاب « النقد التاريخي » الذي يتضمن كذلك ترجمة « نقد النص » لبول ماس وترجمة نصوص فلسفية في التاريخ لكانت وديكارت وبول فاليري القاهرة ١٩٦٢ .

لوبون جوستاف : فلسفة التاريخ ، ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ١٩٥٤ .

هرنشو ، ف . ج . : علم التاريخ ، ترجمة وتعليق واضافة بقلم عبد الحميد العبادي . القاهرة ١٩٣٨ .

وولش ، و . هـ . : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة احمد حمدى محمود . القاهرة ١٩٦٢ .

Carr, E. H. : What is History. London, 1961.

Clark, G. K. : Guide for Research Student Working on Historical Subjects. Cambridge, 1958.

Collingwood, R. G. : The Idea of History. Oxford, 1946.

Fling, F. M. : The Writing of History, An Introduction to Historical Method. New Haven, Yale University Press, 1926.

Freeman, E. A. ; The Methods of Historical Study. London, 1886.

Garrghan, G. J. : A Guide to Historical Method. Fordham University Press 1951.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

Grousset, R. : L'Homme et son Historie. Paris, 1954.

International Bibliography of Historical Sciences, Washington, 1926 ....

Langlois, Ch. V. and Seignobos, Ch. : Introduction Aux Etudes Historiques. Paris, 1898.

Oman, Sir Ch. : On the Writing of History. London, 1939.

Pleckhanov, G. V. : The Role of the Individual in History, (Eng. trans.) London, 1941.
The Materialist

Conception of History, (Eng. trans.) London, 1950.

Renier, G. J. : History, Its Purpose and Method. London, 1950.

Rowse, A. L. : The Use of History. London, 1946.

Taylor, H. : History as a Science. London, 1933.

Woods, F. A. : A Statistical Study in History and Psychology. New York, 1906.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

★ ★ ★

شاكر مصطفى *

التاريخ هل هو علم ؟

« لان السماويين لا يقدرون على كل شيء
« اذ لا بد ان يسبقهم الفانون الى الهاوية
« هكذا يتغير حال هؤلاء ..
طويل هو الزمان . لكن الواقع يتحقق »

... ...

« ولهذا كانت قمم الزمان
« متراصة هنا وهناك
« واحب الاحباب يسكن بعضهم قرب بعض
« منهكين فوق جبال منفصلة

هولدرين
من قصيدتيه (قيموزينة ـ ذكرى) و (باطموس)

قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة ، اشتهر في الاوساط الثقافية كتاب أعطاه صاحبه **الكسيس كاريل** عنوان : الانسان ذلك المجهول . كان الكتاب محاولة للاحاطة في نظرة شاملة بانورامية بما نعرف وما لا نعرف في العلم والحياة والانسان ، كان جرد حساب سريع ، وكانت خلاصة الحساب هي العنوان .

---

* الدكتور شاكر مصطفى استاذ التاريخ الاسلامي والعصور الوسطى في جامعة الكويت . مؤرخ واديب له عدة مؤلفات آخرها دولة بني العباس كتاب ضخم في مجلدين .

والآن ، وبعد أكثر من ثلث قرن ، يبدو أن العنوان ما يزال صحيحا . هذا الحيوان العجيب الذى استقام على ساقين ، وحول مركز ثقله من وسطه الى ما تحت قدميه ، ولضخمت الفقرة العليا من عموده الفقرى حتى اضحت علبة عظيمة واسعة ، ودماغا متعبا افرز مع الزمن ما يسمى بالحضارة الانسانية . . هذا الحيوان هو فى الواقع النقطة العمياء فى مجموعة المعارف التى يزهو بها هو نفسه . لقد يكون عرف من الطبيعة الجامدة اشياء . انتصر عليها فى عدد من الميادين، فيزيائيا، كيمائيا ، رياضيا ، بيولوجيا ، اخترق الفضاء الى كوكب آخر . . هذه الكتلة من الاخلاط البيو – كيماوية التى يكون الماء ثلثي تكوينها ، والتي لا يزيد وزنها عما بين ٧٠ – ٨٠ كغم فى المتوسط ، ولا طولها عما بين ١٦٠ – ١٨٠ سم . . ملكت قدرة عجيبة للقفز فوق الارض وعبر الفضاء بقوى خارقة . . على انها على المستوى نفسه لعقدت داخليا بقدر ما جهلت ذاتها ، اضحك الجهل . . وهكذا لقد تعرف من الطبيعة الكثير لكن ما ان تصل الى الانسان وعلاقاته الانسانية ، اذن فهى الأدغال المشتبكة، وهى التيه الاكبر . . من الدهاليز المعتمة ، والأنفاق العجيبة ، والمشاعر الخفية ، والعواطف والارادات والافعال والانهيارات والبنى المستسرة حيث لا ضوء وحيث الف مفاجأة . . فان القى الضوء متهاشيا فى الايدى فكما القى **شعب بوان فى ثياب المتنبى** ذات يوم . . « . . دنانيرا تفر من البنان » .

واذا كان التاريخ احدى الكوى التى طالما حاول الانسان ان يطل من خلالها على ذاته، اعماق ذاته، فان عفو يتعده «المعرفة» من المعارف الانسانية، بديهية وجودها تصطدم اليوم مع تعقد الحياة والفكر – بالف عقبة . الف ريبة تحوم اليوم كالضباب من حولها ، وبدل ان يتحول التاريخ « علما » بحل – مع العلوم الاخرى – مشكلة « اللغز » الاوديبي الذى هو الانسان ، اصبح هو نفسه مشكلة . . . . قصة الحضار الانسانية رغم كثرة الاضواء التى القيت عليها لم تعمل اكثر من زيادة الادراك لتعقد الحياة الانسانية وتشابك عناصرها الخفية وترامي ابعادها . .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

دعونا نسرع اولا فنحدد المقصود من كلمة « التاريخ » فقد اصبح مالوفا شائعا التفريق بين التاريخ كمسيرة للانسانية History وبين علم التاريخ ، Historiography كفاعلية فكرية انسانية . ولعلنا نستطيع أن نستعير هنا كلمة سانتيانا التي يقول فيها : « . . بين المعاني الكثيرة التي تعنيها كلمة التاريخ يجب الا تخلط بين معنيين هما : **اولا** : سياق الحوادث كما تقع فعلا ، وثانيا مشهد هذه الاحداث الذى يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه . والتاريخ فى المعنى الاول دفق هائل وفى الثاني تاليف محدود . . (١) . . ولا تعنينا فى بحثنا هذا المسيرة الانسانية . « هذا الدفق الهائل » من الاحداث والاعمال والافكار الذى ينساب فى استمرار واطراد بدون فترات ولا عصور ولا فصول او اقسام ، وينساب فى حركة مستمرة لا يحيط بدقائق احوالها وقوانينها عقل بشرى ، ولا يستطيع التكهن بمسارها اومصيرها ، انما يقع الآن على **الطرف الآخر** من اهتمامنا الذى يتركز خاصة حول **المعنى الثاني** ، حول « التاريخ » (٢) كفعالية فكرية تتناول ذلك

---

(١) انظر جورج سانتيانا – مولد الفكر (بالانجليزية – طبع جامعة كولومبيا سنة ١٩٦٨) مترجم للعربية – طبع بيروت ص ١١٩ .

(٢) لعلنا نشير بالمناسبة الى ان كلمة تاريخ فى اللغة العربية تاخذ معاني اربعة بل خمسة فقد استعملت فى التراث العربي الاسلامي بمعنى : امجاد القوم وخلاصة شمائلهم فيقال : فلان تاريخ قومه . واستعملت بمعنى تراجم الرجال (بيوجرافيا) ومن ذلك تاريخ البخارى وتاريخ الحنابلة لابن ابي يعلى ، واستعملت بمعنى رواية اخبار الماضي كعناوين : تاريخ الطبرى وابن الاثير والذهبي وغيرهم . وتستعمل اليوم ايضا بمعنى : مسيرة البشر فيقال : جرى ذلك فى التاريخ او فى تاريخ العرب ، كما تستعمل بمعنى كتابة التاريخ ودراسته .

الدفق الهائل نفسه بالتنظيم والدرس والتقسيم والتحليل واستخلاص النتائج .. انما نقصد نحن الى هذا الجهد العقلي والعملية الانشائية والتكوينات الثقافية المتزايدة السعة التي تمتلىء بها كتب الاطفال الصغار امتلاء اسمار الكبار ، وتثقل رفوف المكتبات كما تثقل جماجم العلماء البيضاء ، وقد تسكر او تعربد او تهذى على السنة اصحاب العقائد، هذيانها في منابر المؤتمرات وبين ايدى اللاعبين بمقدرات الناس ومصائرهم على السواء .. وايا كانت – من خلال مختلف الآراء – تفسيرات التاريخ وفلسفاته واهدافه الاخيرة فان ثمة سؤالا مزدوجا يفرض نفسه عند مطلع كل بحث ويقطع الطريق على كل باحث : ترى ما قيمة هذه « المعرفة » الفكرية « كحقيقة موضوعية » من جهة ؟ وما قيمتها « كفاعلية » تخدم الانسان او تستأثر على الاقل بجانب من جهده الفكرى . من جهة اخرى ؟ ونستطيع ان نضع السؤال المزدوج في صيغة ثانية اكثر تبسيطا ان قلنا : انه ينتهى الى السؤالين التقليديين هل التاريخ علم ؟ وما هى فائدة هذا العلم ؟ .. وبين هذا وذاك ما مكانه بين العلوم الانسانية الاخرى ؟(*)

هل التاريخ علم ؟

سؤال ليس بالجديد . منذ انتصرت « تفاحة » **نيوتون** ، وشكوكية **ديكارت**، وتجريبية **بيكون** ، وهذا السؤال يلاحق ، كالعواء المزمع، ابراج المؤرخين . يشد ثيابهم ويمزق الكتب .. وبينما لجأ بعضهم مرغمين ، الى قبة « العلم » الكبرى يحتمون بها ويعلنون حرمة « الوثائق » وعلمية التاريخ على اساس من الآثار ، وموضوعية ما تكشف عنه البقايا الانسانية .. بقي آخرون يجهدون انفسهم لايجاد « الصيغة » التي يدخلون بها « علم » التاريخ الى حرم العلوم ويكرسونه واحدا منها عن طريق التزمت وشدة التدقيق والتنقير واصطناع الاستقراء والاستنتاج والتحليل ...

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم

ان التشبه بالكرام فلاح

المشكلة اذن قائمة منذ عهد بعيد ؛ تاريخها يكشف انها قد اضحت ، على التداول والجذب والدفع ، جزءا من مشكلة « المعرفة » الكانتية التي تبحث : ضمن اى الشروط تكون « المعرفة » التاريخية ممكنة وصحيحة ؟ انها هي نفسها مشكلة « الحقيقة » في التاريخ . والى اى مدى يمكن ان ندفع « علميتها » و« موضوعيتها » وهي لذلك انما تمس مباشرة طبيعة الفكر التاريخي . حتى تداخلت القضية التاريخية والقضية الفلسفية وفتح الباب بين الاولى والاخرى وحتى اضحى التساؤل : ما التاريخ ؟ يلقينا فجاة في قلب الفلسفة مرغمين ، وفي قلب المشكلة الفلسفية للانسان . واذا كانت فلسفة التاريخ تطلق في الواقع على مجموعة مزدوجة من المشكلات الفلسفية فلها جانبان : تأملي (يتصل بغايات التاريخ ومعانيه) وتحليلي (يتصل بنوع وقيمة المعرفة فيه) (٢) واذا كان الكثير من الباحثين يرفضون الجانب التأملي او يعتبرونه من ميدان الميتافيزيك فكلهم في الواقع يقبلون البحث في الجانب الآخر التحليلي . وبالرغم من اننا لا نرفض الرفض المطلق الجانب الاول ، الا اننا سوف نقتصر على بحث مشكلة المعرفة التاريخية من

(*) نتناول في هذا البحث السؤال الاول فقط على ان نتشرف عدد قادم بقيته الباقية في الجواب على السؤالين الآخرين بعنوان التاريخ بين العلوم .

(٢) Marrou : De la Connaissance Historique p. 32.

جانبها الثاني : التحليلي . وبديهي انا لسنا بأول من يفتح ابوابها ، فقد اتعب الكثيرون جباههم في تحليلها ورسم حدودها المتموجة الرواغة . وتساءلوا عن « امكان » وجود علم تاريخي يجمع الناس على قبول انتاجه ونتائجه وحدوده. وبأي مقياس تكون موضوعية هذا العلم ؟ وهكذا فان اعدادا من الكتب قد تطوعت لبحث هذه المشكلة منذ القرن الثامن عشر على الاقل . ومن ذلك كتاب **فيكو** : « علم جديد » ، ومحاولة **كانت** :« فكرة التاريخ العالمي » ، و « محاضرات **هيجل** في فلسفة التاريخ » ، وكتاب **هردر** : « افكار » ،وابحاث **انجلز** حول « المادية التاريخية » ، وكتابات زميله **ماركس** حول « تفسير التاريخ »وكتابات **ويلهلم دلتاي** Dilthey منذ سنة ١٨٧٥ حول دراسة التاريخ .. ومعظم هذه الكتابات كان لها المفعول الانفجاري الثوري في الفكر كله ، وبخاصة منها ذلك الخط الممتد من هيجل الى ماركس وانجلز .

وقد اضيف اليها منذ مطلع هذا القرن عدد من الكتب الاخرى حمل في عنوانه المشكلة التي اصبحت تدعى بالفلسفة النقدية للتاريخ . ومن هذه الكتب على سبيل المثال :

- **مشكلة المعرفة التاريخية من تاليف** Mandelbaum **(نيويورك سنة ١٩٣٨)**
- **نظرية وتاريخ التاريخ** الذي **وضعه** كروتشه B. Croce (سنة ١٩٢١)
- **مقدمة لفلسفة التاريخ** ــ بحث في **الموضوعية التاريخية** لريمون آرون **(١٩٣٨ باريس)**
- **ابعاد الضمير التاريخي** لآرون نفسه **(باريس سنة ١٩٥٦)**
- **وظيفة القوانين العامة في التاريخ من كتابات** Hempel **(مجلة الفلسفة لندن ــ ١٩٤٢) (وقد اعيد طبعه سنة ١٩٤٩** في كتاب : قراءات في التحليل الفلسفي) Rea. in Phil. Analy.
- **فقر المذهب التاريخي** Poverty of Historicism **من تاليف** K. R. Ropper **(سنة ١٩٤٥) وهو مترجم للعربية بقلم** عبد الحميد صبرة **(الاسكندرية ١٩٥٩)**
- **فكرة التاريخ :** Idea of His. **من كتابات** Collingwood **نشر سنة ١٩٤٦ .**
- **طبيعة التفسير التاريخي** The Nat. of His. Explanation **من تاليف** P. Gardner **سنة ١٩٥٢**
- **القوانين والتفسير في التاريخ** Laws and Exp. in His. **من وضع** Dray **(سنة ١٩٥٢)**
- The Whig Interpretation of History **من كتابة** H. Butterfield **طبع سنة ١٩٣١ ثم طبع ثانية سنة ١٩٧١**
- **مدخل لفلسفة التاريخ من وضع و . هـ . وولش** W. H. Walsh **وقد ترجم للعربية (ترجمه احمد حمدي محمود ــ ونشر في القاهرة سنة ١٩٦٢)**
- **من المعرفة التاريخية وقد كتبه الباحث الفرنسي** H. I. Marrou **سنة ١٩٥٢ وترجم الى العربية من قبل جمال بدران (القاهرة سنة ١٩٧١) .**

- كيف نفهم التاريخ : مدخل الى تطبيق المنهج التاريخي من وضع L. Gottschalk (نيويورك سنة ١٩٥٠) وقد ترجم الى العربية من قبل عائدة سليمان عارف « طبع بيروت ١٩٦٦ » .
- قيمة التاريخ . وضع جوزيف هورس (بالفرنسية) وقد ترجمه الى العربية نسيب الخازن (بيروت ١٩٦٤) .
- تطور النظرة الواحدية الى التاريخ وضعه G. Plekhanov وترجمه الى العربية محمد مستجير مصطفى (القاهرة سنة ١٩٦٩)

هذا بالاضافة الى عشرات الابحاث التي نشرت في المؤتمرات والمجلات من مثل :

- ابحاث B. De Voto, A. Nevins بعنوان : ماالمشكلة في التاريخ ؟ في مجلة SaturdayR. of Lit. سنة ١٩٣٩ ومجلة Harpers Mag. سنة ١٩٢٩ .
- بحث E. W. Strong بعنوان الواقعة والفهم في التاريخ Fact and Underst. in His. في مجلة الفلسفة العدد ٤٤ سنة ١٩٤٧ .
- بحث مؤتمر الدراسات الفلسفية المسيحية سنة ١٩٥٣ حول مشكلة التاريخ .
- بحث Pasmore بعنوان الموضوعية في التاريخ (مجلة الفلسفة نيسان سنة ١٩٥٨) .
- بحث K. Blake : هل يمكن ان يكون التاريخ موضوعيا ؟ في مجلة Mind (كانون الثاني سنة ١٩٥٥) .
- وبحث الاستاذ Dray بعنوان Historical Underst. as rethinking (دورية جامعة تورنتو ـ كانون الثاني سنة ١٩٥٨) Toronto Quarterly

والقائمة بعد طويلة طويلة . وهي اوسع من ان يحيط بها الحصر والتعداد .

وليس الالحاح في بحث المشكلة ناجما عن انها ، في الاعماق والجذور الخفية ، جزء من تفكيرنا في مشكلة معنى الوجود او سبب الوجود ومحاولة بالمواربة وعن طريق جمع الاحداث والتجارب وتنامي الخبرات المتطورة للوصول الى « منطق » معين يكشف او يضع الهدف المنطقي للوجود الانساني .. ولكن ذلك الالحاح انما يشتد الآن بقسوة نتيجة مستوى آخر من العوامل الجديدة الملحة التي يمكن ان نسميها « بثورة التاريخ » .

بلى ! هذه الثورة التي حققتها المعارف الانسانية في ربع القرن الاخير ، والتي جاءت للانسان من المعرفة خلال السنوات العشر الاخيرة فقط باكثر واوسع مما عرفه خلال تاريخه الاطول كله منذ ثمانية او عشرة آلاف سنة ، سواء في الكم او في النوع او في التعقيد والتشابك ، هذه الثورة مست بدورها التاريخ بالمعنيين . اكثر بكثير جدا من استيعاب المؤرخين ، هذا الذي ينهال عليهم من المعلومات . واكثر بكثير جدا من قدرتهم على اللحاق به هذا الذي ترمي اليهم به المطابع من الكتب والابعاد والآفاق .. المؤرخون يلهثون اليوم دهشة وعجزا وفرقا .. ينوءون او تختنق انفاسهم ، كما اختنق الجاحظ ذات يوم ، تحت اكداس الكتب التي وقعت عليه ! ...

وثورة التاريخ اليوم ، رغم انها تجرى فى الصمت الاخرس ، تسهم فى الانقلاب الجذرى للفكر الانسانى . انها فاعلة منفعلة ، بهذا الانقلاب فى وقت معا . ابعادها تتناول مادة التاريخ تناولها لمناهجه ومساره فى العمق والشمول .. انه يركض ويركض حتى كانه اخذ يعيش فى المستقبل او يعيش عصر نمو « بالونى » مات فيه الزمن .

فاما فى **المادة** فالتضخم الهائل الرهيب فى الكمية وعن طريقين فى وقت معا :

ـ طريق زيادة فروع التاريخ واحتوائها بجانب كل ما كانت تحتوى من قبل ، على تواريخ العلوم والفكر وتواريخ التطورات الاجتماعية ، وتواريخ الحياة الاقتصادية ، وتواريخ الفنون والتواريخ المقارنة .. وغيرها . واحمال المعلومات التى تاتي بها الى سوق التاريخ .

ـ وطريق زيادة الشعوب المشاركة فى كتابة التاريخ والاضافة اليه . كان التاريخ من قبل ملكا للشعوب الحضارية القديمة . حول البحر المتوسط ، ثم ملكا للشعوب الغربية . اكثر من نصف او ثلثي سكان هذا الكوكب كانوا يعيشون على هامش التاريخ . لا يهتمون به ولا يهتم بهم ، فهم فى العتمة والظلال . يكتب عنهم الاخرون ما يريدون ومن وجهات نظرهم وهم فى غياب مطلق عما يسطرون .

وفجاة ومنذ عقد وبعض العقد من السنين دخلت ـ وما تزال تدخل ـ تلك الشعوب الغالبة الى حلبة التاريخ . تدخله لا مشاركة فى صنعه فقط ـ كما قد شاركت فيه دوما من قبل ـ ولكن مشاركة ايضا فى كتابته وتصحيح احداثه وتقييم تلك الاحداث وآثارها واضافة الكثير جدا من الجديد عليه ومن الخطير ايضا . تواريخ شعوب افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية والكشوف عن الحضارات المغمورة والمنسية (حضارة خمير ، وانكورفات فى كمبوديا ، وحضارات وادى السند والازتيك والانكا .. الخ) .. تصب الآن ، ولاصيب الروافد الامازونية على تيار المادة التاريخية ، وتقوم من اعماقه ومسيرته وسعته فى الزمان والمكان .. المعطيات الاولى فى التاريخ تبدلت التبدل الجذرى ، الثورة الفرنسية التى كانت تحتل اوسع الصفحات مثلا فى الكتب التاريخية عادت الى حجمها الطبيعى التافه . فضائح تجارة الرقيق الغربية فتحت ملفاتها الواسعة . النهب الاستعمارى الغربي انكشف كالجرائم النتنة فى تواريخ العشرات من الشعوب . ابعاد حضارات خمير والازتيك والانكا ، وقصص الفتح الاسباني والبرتغالي والانكليزى والهولندى لامريكا وجنوب شرقي آسيا اخذت مكانها من ثقافة الناس . تزييف القيم واحتكار الابداع بدأ يتهاوى كالقشور الفارغة امام العيون الجديدة المتفتحة للنور بكل مكان . انه عصر جديد من التاريخ وليست يد واحدة على اى حال ومن جهة واحدة فقط هى التى تسطر سطوره ... السمة الافقية فى المادة التاريخية اضحت من الامتداد بحيث شملت اليوم كافة نواحي الحياة الانسانية من جهة ، وكافة شعوب الارض من جهة اخرى ... وهات عقولا انسانية ـ الكترونية تستوعب كل اولئك .

اما فى **المنهج** فقد دخل على اساليب التاريخ بدورها مجموعتان مساعدتان :

ـ جاءت من جهة معطيات العلوم والبحوث الجديدة لتفتح فى التاريخ كوى ومسارب ما كان له من قبل ان يطرقها . علم النفس اضاف اليه اشياء ، والبحوث الجنسية (الفرويدية خاصة)

اضافت اليه اشياء اخرى . وبينما اعطته علوم الاقتصاد ابعادا جديدة ، اضافت اليه علـــوم الاجتماع ابعادا اخرى ، وجاءت الاحصاءات ، بل جاءت الرياضيات اليه بامور وامـــور ، وجاءت الانثروبولوجيا في الوقت نفسه بمثلها وباكثـرمنهـا .

– وجاءت من جهة اخرى طرق الاحصـــاءالرياضية وتطبيقاتها ، ودخلت العقول الالكترونية لخزن وفرز ومقارنة المعلومات وادوات التحليل الطيفي والكيماوي في الوثائق والآثار . وادوات التنقيب الجيوفيزيائي في الاراضي التاريخية .(وهي ادوات كهربائيـــة ، وكهرومغناطيســـية) وتصوير اعماق التربة . وكان استخدام هذداو تلك من مبتكرات العلوم ، مدهش النتائج في كثير من الاحيان .

وافاد التاريخ في الحالين مـ معطيات العلو. الاخرى ، ومن المبتكرات التكنية للعلم الحديث ، فاذا مناهجه تتنوع من جهة وتتعقد من جهـــةاخرى ، واذا هو على الطريق نحو اساليب جديدة يأمل ان يستطيع معها احتضـــان تلك المتحولات المتشابكة العديدة ، التي لا بد من حساب اثرها في توجيه التاريخ وصنعه . ديناميكية التطـورالمتحول باستمرار لم تعد تخيف المؤرخين كثيرا وتقطع انفاسهم لهاثا ويأسا .

واما في **الاتجاه والشمول** : فقد اخذ التاريخ طريقه ضربا في العمق الشاقولي في اتجاهين ايضا، وايضا :

– صار يهتم بالشعوب لا الافراد . بالكتل الجماهيرية والقواعد الشعبية الواسعة لا القمم والملوك . كان في القديم ملكي القاعدة يدور حول العروش ، ويمسح اعتابها ثم اضحى في القرنين الاخيرين بورجوازي المنطلق ، وقد تحول الان فصار بالضرورة شعبيا . اهتماماته ضربت الجذور في الجموع الواسعة التي تصنع في الصمت التاريخ الحقيقي . دخل عليه اخيرا ما سماه **(لين وايت)** بحق « ما تحت التاريخ » اي اخبار الطبقات الدنيا المسحوقة التي كانت وما تزال تشكل تسعة اعشار البشر .

– وصار التاريخ من جهة ثانية يهتم بالعوامل والتيارات التحتية والخفية . الماركسية والفرويدية والدوركهايمية دفعته دفعا الى الغوص وراء الجذور الاقتصادية للاحداث ، واخذ النوازع الجنســـية واللاشعورية بعين الاعتبار ، وادخال هزات المجتمع وعقائده ، وقوى تقاليده ونفسيات جموعه في الميـــزان .. صـار « الحادث » التاريخي مركبا لا كيماويا فيزيائيا رياضيا فقط ولكن بيولوجيا – سوسيولوجيا وغريزيا ايضا .. بالاضافة الى انه لم يعد ذلك « الحادث » الســكوني الثابت . اضحى في ديناميكية تحولية متصلة الحلقات ما تعاقب الجديدان .

على ان ثورة التاريخ الجذرية ، واتساعه عمقا وامتدادا ومنهجا ، لم تمنحه ما يمكن ان نسميه بالاطمئنان العلمي ان لم ترد بالعكس في « الريبية » القديمة التي تحيط به . ازمة « الحقيقة » فيه ازدادت حدة والحاحا بشكل طردي مع ازدياد الثورة الانقلابية . وظل الباحثون في علمية التاريخ وموضـــوعيته عند مواقع التســـاؤل الأولى يتساءلون : ترى الى اي مدى اقترب التاريخ بها من حرم « العلم » او ابتعد عنه ؟ .. ولقد سئل الفيلسوف البريطاني **جود** Joad في برنامج اذاعي سنة ١٩٤٠ : هل التاريخ علم ؟ فكان جوابه ان ذلك يتعلق بماذا نعني من كلمة « علم » . وقد نستطيع التحديد اكثر من هذا ان قلنا انه يتعلق بالمفهوم الخاص الــذي نحمله في اذهاننـــا عن « العلم » .

ولعلنا نحتاج قبل الجواب على هذا السؤال الى ان نعرف ايضا : ما هو التاريخ ؟ وما هو التاريخ لا كأحداث تعبر الزمن ولكن كممارسة فكرية وجهد تكويني ؟ نحتاج ان نحلل هويته كمعرفة بين المعارف الانسانية . ان تحديد هذه الهوية قد يكشف الكثير من نقاط اللقاء والافتراق لا بين « علم » التاريخ وعلوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ولكن بينه وبين كل ما ينتهي بكلمة « لوجيا » . اننا اذا اتفقنا على ماهية التاريخ سهل علينا ان نتفق على حدود علميته .

وفي هذا الصدد تبدى لنا ضرورة الوقوف بالتحليل عند ثلاث نقاط :

موضوع التاريخ ؟ مسلماته الاولى التي يستند اليها ؟ وعملية التاريخ ؟ او بكلمات اخرى : ماذا يحاول المؤرخ ان يبحث ؟ ما هي المعطيات المبادىء التي يقيمها اساسا لعمله ؟ واخيرا كيف يعمل ، وما ميكانيكية العملية الفكرية التي يقوم بها ؟ مجموع التحاليل لهذه النقاط هو الذي يحدد ، من زوايا ثلاث ، حجم هذا العلم وماهيته وعمله وطبيعته التكوينية .

اولا : يقولون بكل سهولة فيما يتعلق بموضوع التاريخ انه « معرفة الماضي الانساني » (٤) مادته اذن هي ما جرى في الزمن السالف . واذا شئنا ان نكون اكثر دقة استعرضنا تعاريف بعض كبار العلماء في هذا الميدان :

ـ الفرنسي **جوستاف مونو** يقول : ان غاية التاريخ المثلى انما هي « اعادة تمثيل الحياة البشرية السابقة كما هي ، واعادة رسم مظاهر النشاط الفكري بتطوراته وتقدمه وتتابع مراحله وتناسبها .. » (٥) .

ـ الامريكي **هنري** جونسون يقول في الكلمة الاولى من كتابه تدريس التاريخ : « التاريخ بمعناه الواسع هو كل شيء حدث في الماضي . انه الماضي نفسه مهما يكن هذا الماضي .. » (٦) .

ـ الفرنسي الاخر **هـ . مارو** يقول : « التاريخ هو المعرفة بالماضي الانساني ، المعرفة بالانسان او بالناس من امس ، من قديم الزمان ، عن طريق انسان اليوم ، انسان الغد الذي هو المؤرخ » (٧) .

ـ الانكليزي **وولش يقول** : « من المتفق عليه ان الماضي الانساني هو الهدف الاول لدراسة المؤرخ .. » (٨) .

ـ الالماني **رانكه** اعلن انه في التاريخ لا يقصد الا ان يصور ما حدث بالضبط في الماضي .. فاشتهرت كلمته في القرن الماضي حتى اضحت شعار علم التاريخ ..

---

(٤) (الترجمة العربية ـ ص ٢٦ وقد اهملنا وسوف نهمل فيما بعد هذه الترجمة لانها سيئة جدا) .

(٥) G. Mounod — La méthode dans les sciences p. 367.

(٦) هنري جونسون ـ تدريس التاريخ (الترجمة العربية) ص ١ .

(٧) مارو Marrou حول المعرفة التاريخية (النص الفرنسي) ص ٣٢ و ٣٧ .

(٨) وولش ـ المدخل الى فلسفة التاريخ (الترجمة العربية ـ لاحمد حمدي محمود ـ القاهرة سنة ١٩٦٢) ص ٢٦ .

ــ حتى الانكليزى **كولنفوود** حاول ان يجددق الفكرة نفسهاحين نظر الى التاريخ « كاستحضار للتجربة الماضية » .

وليست هذه النظرة بالحديثة فما من مؤرخ فى التاريخ الاسلامي الا وعبر عنها بشكل او بآخر فكان التاريخ عندهم « مرآن الزمان » (**سبط بن الجوزى**) و « وقائع الدهور » (**ابن وصيف شاه**) و « خبر من غبر » (**الذهبي**) (**وابن اياس**) و « اخبار من ذهب » (**الحنبلي**) و « اخبار الزمان » (**المسعودى**) و « تجارب الامم » (**مسكويه**) الخ ..

ولن نقف بالطبع عند هذه التعاريف فان خطوات كثيرة من التحليل والتحديد والايضاح يجب ان تتم وراءها : .. ولعلنا تكون اكثر دقة ان لم نواجهها بتعريف مضاد شامل ــ واين منا التعريف الشامل ؟ ــ ولكن نطوقها بالتحديد عن طريق « النفي » والابعاد والايضاح .. « انه لمن السذاجة ان نتخيل تعريفا متقنا نظريا ومطروحا كذلك بشكل مسبق . يستطيع الاحاطة بالجوهر والماهية فى التاريخ » (٩) .

وهكذا فاذا كانت المسلمة الاساسية والتي لا خلاف عليها هي ان « الماضي » هو موضوع التاريخ . فان تحديدات عديدة تدخل على هذه المسلمة الاولى مقصرة من ذيولها الفضفاضة الواسعة: بعض هذه الحدود يتصل بالمدى الزماني لهذا الماضي ، وبعض يتصل بنوع المعرفة الممكنة له . وهذه وتلك على السواء تقتطع من ابعاد التاريخ فى الزمان او تلغي من فعاليته الناجمة فى ميدان الفكر ما يجعل مداه الحيوى محدودا من جهة، وتاسر الاداة الفكرية من جهة اخرى قصورا كبيرا .. انها تضعه فى اطاره الحقيقى .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ ــ فاما فى **الزمان** فالتحديد الاول اورده الكثيرون من الباحثين والمؤرخين ، فقد اضحى الآن بديهيا أن التاريخ لا يعنى بكل الماضي ولا بأى ماض : انما ميدانه الماضي الانساني فقط . علوم كثيرة غير التاريخ ميدانها دراسة الماضي وليس الحاضر : الجيولوجيا ، الباليئنولوجيا ، التاريخ الطبيعي ، الانثروبولوجيا ، الاثنولوجيا كلها بدورها تدرس الماضي القديم وليست من التاريخ فى شيء .. ماضي الكائنات الانسانية وحده يهم التاريخ . ونستطيع القول فى صيغة اخرى انه لا تاريخ فيما وراء الانساني أى لا تاريخ قبل الانسان زمناً ، ذلك ما قبل التاريخ ، ولا تاريخ لغير الانسان موضوعاً ، ذلكم التاريخ الطبيعي للنبات والحيوان والجماد .ولا تاريخ فيما وراء اهتمامات الانسان ، ذلكم هى الجيولوجيا والباليونتوجيا .. الخ . « الانسان هو الوحيد بين الكائنات الحية الذى يعي الزمن » كما يقول **دلتاى** ولهذا فهو الوحيد ذو التاريخ بينها. وهو يصنع التاريخ، والتاريخ بدوره يصنعه فى جدلية حيالية لا تنتهى.

والواقع انه ليس من تاريخ مضطر ان يبدا صفحاته بالحديث من اصل الكون والوجود . او يعد نقصا فيه ان يغفل طفرات انواع النبات والحيوان منذ ظهرت الحياة على هذا

(٩) مارو ــ المصدر السابق ص ٢٢ .

الكوكب » (١٠) . مدى التاريخ الحقيقى اقصر من ذلك بكثير جدا فى الزمان واضيق فى الموضوع . فماضي الارض فى صخورها وطبقاتها وتكوينها السحيق فى القدم لا يرد ابدا ضمن نطاق الاهتمام التاريخي : ذلك ميدان الجيولوجيا . وماضي الكائنات الحية من نبات وحيوان وتطور الانواع يدخل نطاقا آخر هو التاريخ الطبيعي . بل ان نيتشه قد لاحظ منذ سنة ١٨٧٤ « ان حياة الحيوان ليست تاريخية . انها لا تعرف الامس ولا اليوم » هي يوم واحد مكرور ابدا . وليست فيه خيالات من الاحوال الماضية .

عناية المؤرخ محصورة اذن فى الانسان . فى تجارب وافعال البشر فقط ولئن سجل بعض المؤرخين فى القديم والحديث بعض الاحداث الطبيعية كالزلازل والقحط والخسوف والفيضانات فانما يأتي على ذكرها لما تؤثر فى حياة الانسان ، لا لذاتها او لمكانها الخاص من التاريخ .

ولا يهتم التاريخ من جهة اخرى بماضي الانسان كله ، لا يهتم بالانسان كنوع ، تاريخه البيولوجي السابق للانسان الحالى تطارده علوم اخرى : احدها يعكف على الحفريات (الباليونتولوجيا) والاخر على التاريخ الطبيعي للانسان (الانثروبولجيا) كما ان ماضيه العرقي يدخل فى اطار علم ثالث (الاثنولوجيا) يدرس العروق والاجناس فى تكوينها وفروقها وتاريخ ذلك التكوين والتصالب العرقي .. فهذا تحديدان للتاريخ فى الماضي الزمني .

ومن ناحية ثالثة فان التاريخ انما يبدأ مع بدء الانسان نفسه فى كتابة هذا التاريخ . منذ اخذ يسجل ، بشكل او بآخر ، اى شيء عن ماضيه ، ابتكر معرفة جديدة ، تشترك فى بناء الفكر الانساني وحضارة الانسان . من المصطلحات الشائعة اصطلاح « ما قبل التاريخ » تلك المنطقة الزمنية الممتدة ما بين ظهور الانسان الحالي والمجتمعات الانسانية وما بين بدء الكتابة هي ميدان خاص من المعرفة ، عنوانه نفسه يضعه خارج نطاق التاريخ . انا نتقراه باللمس والحفر والمخلفات ، وفى الرسوم والعظام وبقايا الادوات الحجرية ، ونقسمه عصورا وحقبا ، ولكنه ليس من التاريخ . التاريخ انما بدأ مع الكتابة ، فهذا تحديد ثالث .

على ان الانسان من ناحية رابعة ، حين كتب وارخ لم يكن واضح « الوعي التاريخي » ادراك كل من « الزمن » و « الحقيقة » كانا ابعد ما يكون عن قلمه الحديدى او الخشبي ، الف باء المعرفة التاريخية هي ان تسجل حقيقة او واقع التجربة الانسانية التي مرت فى الزمان . ولكن التسجيلات الاولى (سواء منها ملحمة جلجامش الاكادية ـ البابلية او تخيلات المصريين القدماء ، او تصورات رج فيدا الهندية ، او افكار الكنعانيين ـ الفينيقيين التي نقلها العبريون ، كما تدل نصوص رأس شمرا او غيرها ..) كانت من الضبابية والايغال فى التخيل بحيث كانت اوسع واجرأ الاساطير .. الفكر التاريخي انما ولد فى الواقع من ضلع الفكر الاسطورى . طبعت الاسطورة الخطوات الاولى

---

(١٠) بعض مؤرخينا الاسلاميين القدامى بدأوا تواريخهم العامة بذكر التكوين والوجود وخلق السماوات والارض والانسان كالطبرى واليعقوبى والمسعودى وابن الاثير وابن كثير الذى (سمى تاريخه البداية والنهاية محاولا ان يتناول اول الخلق ثم آخره قبل القيامة) كما ان بعض الفلاسفة المحدثين مثل (ويلز) وغيره فى مختصراتهم التي قدموها لتاريخ الانسانية حاولوا ان يجعلوا كتاباتهم تبدأ بخلق الكون وتطوره الطبيعي ثم الانساني . ولكن مؤرخينا القدماء كانوا يصدرون عن رغبة دينية فى البدء بتاريخ آدم وحواء (كالطبرى وابن كثير) او نظرة فلسفية ترافقها (مثل اليعقوبي) او موسوعية (كالمسعودى) كما ان المحاولات الحديثة نابعة من موقف فلسفي فكرى لا علاقة له بالتاريخ وانما يتصل بالرغبة فى القاء الضوء على الطبيعة البشرية ، من خلال تكوينها الاول .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلها للتاريخ فمطالع التاريخ موصولة باواخر عصور الاسطورة التي حاولت ـ وكانت وظيفتها الفكرية ـ الاجتماعية في الواقع ـ ترقيع النقص والنسيان في الماضي الانساني من جهة وان تقدم من جهة اخرى « المحاولات الاولى لتبين الترتيب الزمني (للخلق) وللاشياء والاحداث اى لايجاد علم كوني وعلم انساب للالهة والناس .. ولكن هذا العلم الكوني وعلم النسب لا يدلان على تمييز تاريخي بالمعنى الصحيح ، لان الماضي والحاضر والمستقبل فيها مرتبطة معا وهي تكون جميعا وحدة لا تمايز بين اجزائها ، وكلا لا انفصام بين مفرداته .. وليس للزمن الاسطوري مبنى محدد ، وانما هو زمن ازلي ، لان الاسطورة ترى ان الماضي لم ينته بل ما يزال مستمرا (ابدا) .. » (١١) .

وهكذا تنقطع الافكار التاريخية الاولى عن التاريخ لتدخل باب الميثولوجيا ، او باب علم الاديان ، او باب المورفولوجيا الاجتماعية لكنها على اى حال لا تدخل باب التاريخ الذى يتصل اساسا بظهور ما يمكن ان نسميه « بالوعي التاريخي » اى الوعي المزدوج للزمن وللحقيقة .. ومتاخرا جدا وصل الانسان الى هذا الوعي . وان كان قد عاد في العصر الحديث فرمم ، بالاستناد الى الآثار والنقوش والبقايا ، بعض ذلك الماضي الذى غلفته الاسطورة ، ومدّ معارفه التاريخية بعض الامتداد الى الوراء ، الا ان ذلك انما كان في بعض المناطق فقط ولدى بعض الشعوب .

وبقيت الكتابات حول مطالع العهود التاريخية الاولى متداخلة ، في كثير من الاحيان مع ميادين الوهم والاسطورة هنا وهناك .. وهذا في الزمن التاريخي هو التحديد الرابع .

ب ـ واما في **امكان المعرفة الماضي** : فثمة ايضا حدود اخرى ليست اقل شانا . ان الدعوى بان التاريخ يكشف ماضي الانسان ـ حتى منذ الفترة المحددة القريبة الى اليوم ـ ليست دعوى عريضة فقط ولكنها ايضا دعوى نظرية .. التاريخ الذى يحيط بالماضي الانساني كله ، بكل نواحيه وتفاصيله ، هو تاريخ نظري ، لم يكتب قط ونكاد نؤمن انه في الاحوال الحاضرة للفكر وللقوى العلمية على الاقل ـ لن يكتب قط .

فالمعرفة في التاريخ ليست اولا معرفة مباشرة .. واى مؤرخ يجرؤ على القول ان معرفته بالماضي هي معرفة مباشرة (الذين سجلوا ما شهدوه من الاحداث كانوا دوما « شهودا » لا مؤرخين . والمعرفة التاريخية هي دوما وبصورة اساسية : معرفة بالواسطة او هي تصور وجود من خلال معطيات لغوية والرية ، واذا نحن تجاوزنا الحاضر المشهود ـ قبل ان يتحول الى ماض ـ فانا لا نستطيع ابدا الحديث عن « معرفة » مباشرة للماضي ضمن الشروط التجريبية والمنطقية . انما هنالك فقط بالضرورة تصور ، من خلال شهادة الغير ، ومن خلال الوثيقة والاثر لما كان .. وينطبق التصور على الحقيقة بمقدار ما تنطبق اى شهادة على الواقع وما تعطي الوثيقة او الاثر من امكان الاستنتاج الصحيح . العالم بالنسبة للعلماء ظاهرة طبيعية صرفة ، مشهد مبسوط للملاحظة العقلية ، اما احداث التاريخ فانها سطور او آثار ينظر المؤرخ من خلالها الى شيء آخر نسميه الماضي ، السطور والآثار هي المنظار السحرى الذى يصبح المؤرخ بدونه اعمى يخبط في الظلام .

---

(١١) ارنست كاسيرر ـ المدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية (الترجمة العربية ـ احسان عباس ـ بيروت ١٩٦١) ص ٢٩٥ .

والمعرفة التاريخية ليست ثانيا بالصحيحة. ان الماضي كان بالضرورة حركيا تطوريا. ومعرفتنا عنه هي بالضرورة سكونية تراكمية . هو حياة اخذت حدودها الكاملة في التنامي والتطور والهمود وهي ، معلومات كمية وصور مقطعة .. مجرد جثث . وشتان بين حي وميت !

ثم ان كل معرفة انما هي تاريخ . مجرد ظهورها كحادث يدخلها في نطاقه . وقصة تكاملها عملية تراكمية تساكها ، بالرغم منها وبالرغم منه ، في عداد سطوره ويجعلها مؤثرة متاثرة به . الذين يدرسون الاسمنت المسلح يدرسون بالضرورة تاريخ تطوراته . والذين يتفننون بطابع البريد او « بمودة » الشعر او زراعة الارضين ، انما يعملون ــ بالضرورة ايضا وايضا ــ من خلال تاريخ طويل . المجهولون الذين ابتكروا دحرجة الاثقال على « المجلة » ليسوا باقل تحويلا للتاريخ من الذين وصلوا القمر . والذى كتب « البيان الشيوعي » ليس باقل اثرا في حياة الناس ممن ابتكر شكل الهرم في البناء . كل لونية صغيرة من المعارف تضيف جديدا وهاما الى الحقيقة التاريخية ولا يقوم غيرها مقامها . ونقص اى جانب من هذه اللونيات ، نقص في الصورة الكلية ليس بالامكان تلفيقه وترقيع ثغراته . فمن ذا الذى يستطيع ان يؤكد واثقا من اننا المنا على الاقل ــ ان لم يكن ادركنا او عرفنا ــ بالعوامل الصغرى والكبرى في التاريخ ؟ باللونيات الظاهرة والخفية في نسيج احداثه ؟ بالنسب الحقيقية للاحداث بعضها الى بعض فيه ؟ ومن ذا الذى يستطيع ان يجزم ان قانون النسبية اقل او اكثر قيمة في التاريخ من ابتكار الحرف ؟ او ان ارسطو اكثر شانا فيه من صانع اول حربة ؟

ونسأل السؤال الاهم ثالثا واخيرا : هل معرفتنا بالماضي الانساني كاملة او شبه كاملة على الاقل ؟ واذا لم تكن فما الذى بقي في ايدى التاريخ والمؤرخين بالفعل من الماضي لاعادة بنائه ؟ الواقع ان الماضي الذى يسقط في هاوية الابد باستمرار والى غير رجعة لا يترك لنا في معظم الاحيان الا اضال الملامح والآثار في الايدى : اسطرا حول مااسترعى الانتباه صدفة او عن عمد ، آثرا سلم بالصدفة عن عوادى الزمن ، ثم ... لا شيء غير ذلك ! « ان قدرا فقط مما لوحظ في الماضي قد تذكره اولئك الذين لاحظوه وان جزءا فقط مما تذكر سجل ، وان جزءا فقط مما قد سجل حفظه التاريخ ، وان جزءا من ذلك الذى وصل يمكن تصديقه . وان جزءا من ذلك الذى يمكن تصديقه هو الذى حفظ وان جزءا من ذلك الذى حفظ يمكن ان يوسعه المؤرخ او يقصه ... ان تاريخ الماضي باكمله (وهو ما يسمى بالتاريخ الواقع) لا يعرفه المؤرخ الا بواسطة السجل المحفوظ اى التاريخ المسجل . ومعظم التاريخ المحفوظ هو الجزء الباقي من الجزء المسجل عن الجزء المتذكر من الجزء الملاحظ من ذلك الكل .. وحتى حين يكون الماضي ماخوذا مباشرة من المخطوطات الاثرية او الانثروبولوجية فهذه هي فقط الاجزاء التي اختارها العالم من بين الاجزاء المكتشفة مما ساعد الحظ على بقائه من مجموع الماضي كله .. » .

« وبالنسبة لما قد يدرسه المؤرخ من امر متعلق بموضوع خارجي فان التاريخ الذى انقضى ليس هو الذى حدث (التاريخ الواقع) وانما هو السجلات الباقية لما حدث (التاريخ المسجل) ، والتاريخ لا يمكن ان يروى الا من التاريخ المسجل المكتوب ، وهذا هو فقط الجزء الذى شرحه المؤرخون من الجزء المفهوم الذى امكن تصديقه من الجزء الذى اكتشف من التاريخ المسجل .. وليس هناك ما يضمن ان ما تبقى هو اهم جزء واكبره واقيمه وافضله واخلده » (١٢) .

---

(١٢) انظر لو تشالك ــ كيف نفهم التاريخ (الترجمة العربية ــ عائدة سليمان عارف ، بيروت ١٩٦٦) ص ٦٠ ــ ٦١ .

ومن زاوية اخرى من النظر نجد ان المعلومات التاريخية نفسها ليست متوفرة كلها وعلى الدوام وعلى مستوى واحد من الكثرة ، ومن الوضوح ، لا جغرافيا ولا زمنا ولا موضوعا . انها تتناقص طردا مع ابتعادنا عن منطقة جغرافية معينة ، ومع ايغالنا سربا متزايدا في الماضي ، ومع انتقالنا من موضوع السياسة والملوك الى الاهتمامات الاخرى . فالمعلومات التاريخية عن اوروبا وحوض المتوسط ، في القديم ، هي اكثر بكثير من معلوماتنا عن الهند او الصين ، وهذه وتلك على اي حال اكثر بكثير جدا من معارفنا عن افريقيا ، او اواسط آسيا التركية .. ثم ان ما نعرف عن القرن التاسع عشر هو بكل تأكيد اوسع بكثير جدا مما نعرف عن القرن الثالث او الثاني الميلادي ، ولا يقاس غزارة بما نعرف عن القرن التاسع قبل الميلاد .. ثم ان احداث السياسة خاصة ، والحروب واخبار الملوك والطبقات العليا ، كانت دوما هي الطاغية وهي المستاثرة باقلام المؤرخين ، بينما حشرت في العتمة او النسيان المطلق اخبار الفن ، وجذور الاديان ، وفاعليات الاقتصاد ، وملامح الطبقات المسحوقة او تطور اللغات او تنامي الهندسة او ابتكار النار .. فما لنا فيها سوى الرجم بالغيب والظن .

ولقد يأخذ عمل المؤرخين في تلمس الماضي ، احيانا ، شكل الاحكام التي تطلقها مجموعة العميان على الفيل الذي يجهلون : يتلمس احدهم اذنه فهو مروحة ، والثاني قدمه فهو عمود ، والثالث ذنبه فهو بعير ، والرابع خرطومه فهو انبوب ، والرابع بطنه فهو برميل .. والفيل هو الفيل وقد افلت من كل الاحكام التي يطلقون !

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

وقد حسب بعض الباحثين ان بامكانه الهرب من هذا النقص الحتمي والمتمادي في معرفة الماضي بجعل « الفكر » هدفا للتاريخ . هم فرع من المدرسة المثالية اولئك الباحثون من امثال دلثاي . وكولنجوود Dilthey, Collingwood ... التاريخ مثلا لدى كولنجوود هو تاريخ التفكير . يبدأ المؤرخ بالامر الطبيعي الصرف الذي هو الفعل او الحدث التاريخي ولكن الهدف هو النفاذ الى ما وراءه ، اي الى الافكار الكامنة خلف هذا الطبيعي » او الحدث » . هو الانتقال من « خارج » الواقعة التاريخية الى « داخلها » يقول : « بالنسبة للتاريخ فان الموضوع الذي يكتشف ليس الواقعة الصرفة بل الفكر المعبر عنه فيها . واكتشاف هذا الفكر يعني فهم الواقعة .. » (١٢) .. على ان هرب المؤرخ من « نقص » الوقائع باللجوء الى دنيا الافكار لا ينفي الواقع الاساسي ، وهو ان الماضي هو : احداث وافعال اولا ، وان ما وصلنا منها هو اقل من القليل ، وليس ثمة ما يؤكد ان هذا الذي وصل يمثل « كل » الافكار ولا « احسن الافكار » ولا « الافكار » « الغالبة » او « الرائدة » .

وهكذا فان ما نعرفه من حقائق التاريخ جزئي ومحدود على تفاوت الجزئية والمحدودية فيه، وقد يكون بامكاننا ان نعرف اشياء (اخرى) عن الماضي الانساني لكنا لا نستطيع بالتأكيد معرفة كل شيء فيه ، بوسائل المعرفة التي نملك الآن على الاقل . وثمة استحالة نظرية اكيدة لكتابة ما يمكن ان نسميه (التاريخ الكلي) اي تاريخ الانسان كله ، بكل تفاصيله وبكل نواحيه ، وبجميع

(١٢) انظر وولش ـ من فلسفة التاريخ (الترجمة العربية ـ احمد حمدي محمود ـ القاهرة ١٩٦٢) ص ٦٨ وانظر Collingwood, Idea of History p. 214.

دخائله او بما نسميه (ما وراء التاريخ) وبجميع طبقات البشر فيه (او ما تسميه ما تحت التاريخ) . ان المؤرخين هم على اى حال اشد تواضعا من ان يطمحوا الى مثل هذا المطلب المرعب . انهم يرفضون ان يحملوه على كواهلهم كما يحمل اطلس الكرة الارضية ، ويقنعون بتعميق وبتوسيع النزر القليل من المعرفة المتاحة .

ويتبدى عمل المؤرخ في وصف الماضي وكانه عملية ترميم مسكينة ، وفي الفكر فقط ، لاناء اثري رائع الهندسة كثير التهاويل والصور ، ممتلىء الجوانب بالحياة من كل لون وفج . . ولكن لم يبق منه سوى بعض الفتات الهامد !

واذا ما انتقلنا الآن من « موضوع » المؤرخ ومن اداة عمله التي هي اخبار الماضي الى عمله نفسه وجدنا انه يستند من جهة الى اسس فكرية ، بعضها من قبيل المسلمات المسبقة ، وبعض من قبيل المعطيات الاولية . كما يتبع في عمله من جهة اخرى ميكانيكية ومناهج فكرية معينة ، وهذه وتلك تحتاج بدورها الى وقفة تحليل .

ثانيا : فاما المسلمات المسبقة والمعطيات الاولية في التاريخ فعديدة . المؤرخون يؤمنون بها كبديهيات في خلفياتهم الفكرية ، دون ان يابهوا كثيرا بتفحصها او بالتعبير عنها في صيغة او اخرى . ونَدَرَ ان ناقشها حتى الباحثون في فلسفة التاريخ .

من المسلمات :

ــ **وحدة الطبيعة البشرية** : البشر يكونون في طبيعة تكوينهم « نوعا » متشابها واحدا . وان قومياتهم واجناسهم لا ترسم بينهم من الفروق الا القليل . والاختلاف العرقي ، الثقافي ، البيئي (الجغرافي) والاجتماعي (وهي اختلافات تعيدها بعض النظريات الى الجذور الاقتصادية ، وبعضها الى العرق ، وبعضها الى الفكر) واختلاف المواقف النفسية والمادية تبقى دوما قابلة للادراك والكشف والفهم والتحليل ، وتطويق الاثر من قبل البشر اللاحقين . انها صدى لوحدة « الطبيعة » وخضوعها لقوانين واحدة هذه الفكرة في وحدة البشر .

ــ **تعقد الطبيعة البشرية** : فهذه الطبيعة المتشابهة بين البشر ليست بسيطة التكوين . تعقدها الداخلي لا يوازيه الا تعقد التفاعلات التي تكون بينها وبين العوامل الاخرى المؤثرة فيها ، من ارض وجو وبشر آخرين ، وهي بدورها عوامل معقدة كل التعقيد ، ومن هذا وذاك كله ، من محصلة التجاذب والتصادم بين هذه القوى المتشابكة يكون التاريخ .

ــ ثبات السنن الطبيعية وتطور الظواهر الحية في وقت معا . جدلية الاصرار على ان في التكوين سننا لا بد بالغة غاياتها ، وان الكائنات الحية وبخاصة منها الانسان في تطور متماد لا يقف ، وان ذلك الثبات وهذا التطور مترابطان معا ، متزاوجان في تسق ومسيرة جدلية يسير في هديها واطارها معظم المؤرخين وان كانوا يتفاوتون في تحديد ذلك السير ، وفي وعي تلك الجدلية .

ــ ان اخبار الانسان اى تجاربه الماضية وافعاله وذكرياته جديرة بان تروى وتفهم وتدرس . على هذه المسلمة يقوم التاريخ . ان رفضناها رفضنا الاساس والقاعدة الواسعة التي يقوم عليها هذا النوع من المعرفة الانسانية . . عبثا تتضخم المجلدات على الرفوف وتتكاثر ان لم يكن لها من معنى انساني محدد يدور الفكر من حوله في تحويم لا ينتهي ابدا .

ـ ان التاريخ ليس مجرد احداث طافيـة على سطح الزمن كما تطفو قطع الاخشاب المنفصل بعضها عن بعض على وجه النهر . ولكنه يستند كالعلوم الاخرى تماما ـ الى فرضية مسبقة هي ان ثمة قوانين تسير هذا النظام من الاحداث على الشكل الذي يجرى فيه لو كانت هذه الاحداث حرة من الترابط والالتصاق والتشابك الخلقي المحتوم بعضها مع بعض؛ لو كانت مطلقة السير والاصطدام والفرق والركض لاخذ التاريخ وجهاً آخر . لعله الوجه الشيطاني ، وجـه التفكك المدمر لكل شيء . ولو آمنا بانفراط عقد الاحداث بلا ترابط لها ، بـلا اتصالها العميق فان ذلك يتناقض مع مسيرة الكون في الامور الاخرى كلها التي نجد الترابط فيها صارما واضحا نهائيـاً وحتميا . واذا كانت القوانين المبسطة او المعقدة تسيِّر هذا النظام الكوني كله ، وكانت صحيحة الوجود بالنسبة لكل شيء في الكون والحيـاة ، فمن غير المنطقي ان لا نفترض ان الانسان بدوره خاضع لهذه القوانين نفسها ، او لقوانين مشابهة في افعاله .. اذن فهناك سنن تجرى في اطاراتها الاحداث ، ولو انا نجهل تلك السنن . ولولا ذلك لم يكن للتاريخ معنى او قيمة فكرية . ونستطيع ان نمشي بالتحديد خطوة اخرى ونقول : انه مادامت الامور والاحداث في الماضي قد جرت في هذا المنحى دون المناحي الاخرى ، وعلى هذا الاتجاه دون الاتجاهات الاخرى الممكنة ، فلا بد اذن من سبب خاص لذلك ، ولا بد من علل معينة جعلتها تسلك هذا التطور دون التطورات الباقية . لا بد من منطق سيِّرها فيه لا في غيره . التاريخ انما هو حصيلة « الممكنات » التي تحققت ضمن ظروف وحدود معينة ، ما كان يمكن ان يحدث غيرها . ولعل غاية ما يحلم به المؤرخون ليس اكثـر من كشف المنطق الذى يحكم ما « يحدث » ...

ARCHIVE

ومن المعطيات الاولى :

ـ **ان التاريخ فعل اولاً ثم كلمة** . « الحادث » يطفو من الاعماق الى سطح الحياة ، ثم تسجيل له قبل ان يغوص في هوة العدم الى الابد . في البدء كان « الفعل » حسب منطق التاريخ لا كما جاء في سفر التكوين « في البدء كان الكلمة » .. وهذا الفعل تلقائي يظهر من نفسـه على شكل من الاشكال، ولا يكون الا مرة واحدة لا غير ، ثم لا يكون ابداً . ويبقى على المؤرخ ان يعرفه اولا ، ثم ان ينسج كل الشباك الخلفية التي سبقته واعقبته ، وان يرسم كافة الدوائر التي انداحت على السـطح بسبب ظهوره وغيابه . والفعل التاريخي ليس من صنع العقل . اولئك الذين يتصورون ان العقل الانساني يصنع التاريخ مخطئون ، لان هذا العقل نفسه ما هو الا من بعض صنع التاريخ . ولأن الواقعة التاريخية فعل فهي ليست معطاة لنا كما تعطي التجربة الفيزيائية نتائجها ، ولكنهـا قيد التكوين دوما بالنسبة للمؤرخ ، المواد الاولى التي يبني منها عمله وعلمه هي دوما مواد أولية تنتظر مكانها في البناء . اما البناء التاريخي نفسه ففعل آخر مختلف ، ويحتاج الى مخطط وفلسفة ومنطق انشائي وجهد طويل قبل ان يكمل .

ـ **ان التاريخ علم « متزمن »** هو الوحيد بين العلوم (١٤) الذى يقوم الزمن في قاعدته . التاريخ ليس شيئا سوى اضافة الزمن الى الحدث لئلا يصبح اقصوصة او اسـطورة . الحدث خـلال الزمن هو الاسم البديل الممكن لكلمة تاريـخ . دون زمن ، ثمة كيمياء وبيولوجيا وسوسيولوجيا وما شئت من عائلة « اللوجيا » ولكن ليس ثمـة تاريخ . انه يسـير في فلـك ذي ثلاثـة حدود :

---

(١٤) باستثناء علم الموسيقى الذى يقوم بدوره على وحدات زمنية محدودة ومقاسة اليا .

الانسان والمكان والزمان . تلك هي ثلاثية التاريخ الرئيسية التي تدخل على موضوعه المتحولات الواسعة المدى . كافة العلوم لا يدخل الزمن في حسابها ، ولا يلعب بقوانينها الا عند حساب المتحولات . كلها تسير في الابعاد المكانية الثلاثة الا التاريخ فانه لا يعيش ولا يوجد دون البعد الرابع : الزمن . كلها تسير في اطار مقولتين : الواقع والمنطق اما التاريخ فيضيف اليهما ، مرغما المقولة الثالثة : الزمن التي تلعب بالمقولتين الاخريين . على ان الزمن التاريخي سلبي . وهو الزمن الذي انقضى ، وليس الايجابي الآني الذي تعيش فيه باقي العلوم وتتطور . وعلى هذا الاساس فان كافة العلوم تتطور وتنمو في قممها الا التاريخ فانه يتطور وينمو في اواخره . وكل العلوم تطورها يأخذ شكل القفزات والتطور الكيفي الا التاريخ فانه ينمو بشكل متماد رتيب يومي ، ويؤدي تراكم التطورات الكمية فيه الى التطور الكيفي ، والى القفزات التاريخية .

« لو جردنا التاريخ من عنصر الزمن الحي لوجدنا أن مادته نفسها ، أعني التاريخ الخالص المؤلف من الوقائع فحسب ومن وقائع لا جدال فيها ، غير ذات معنى . الوقائع ليس لها في نفسها معنى .. » (١٥) انما يأتيها المعنى من الزمن الانساني الذي يتصل بها فيعطيها مكانها من ماضي الانسان .

والزمن التاريخي اشبه بتيار الشعور عند برجسون . هو دفق مستمر حي ، ديمومة متصلة الحركة ، الانسان وحده بين الكائنات هو الذي يعي الزمان والديمومة ، فلا الطبيعة تشعر بالزمان ولا الكائنات الحية الاخرى بالقادرة على تمييز آنات الزمان الثلاثة بين ماض وحاضر ومستقبل . **الديمومة** هي المقولة الاولى في الزمن التاريخي اما الثانية فهي **التغير المستمر** . واذا كان كل كائن حي في تجدد دائم فالانسان هو الوحيد في الكائنات ، الذي يشعر بذلك التغير ويسجله ويعطي الحياة البشرية بذلك وحدتها مابين الامس والغد . اما **المقولة الثالثة** في الزمن التاريخي فهي **التنوع** ، تنوع الافعال وردود الافعال . **الحياة الانسانية لا تتغير فقط** ولكن تخصب باستمرار . تزداد غنى وتنوعا وتعقدا وتركيبا بالتأثير والتأثير المرتد ، وتنامي المعرفة ، وتشعب الفكر والعمل . مجموع هذه المقولات الثلاث المميزة للزمن التاريخي هي ما يمكن ان نسميه بحس الماضي او الحس التاريخي ، فالانسان كائن تاريخي بقدر ما هو كائن عاقل او ناطق أو كاتب او مفكر .. ولهذا فان حاضره مشحون بالماضي بقدر ما هو مشحون بامكانات المستقبل . الماضي موجود فيه بالفعل بشكل فكر وانظمة وتراث وتقاليد ، والمستقبل موجود بالقوة بشكل امكانات تستعد للتحقق .

والتاريخ ، لأنه صورة الانسان ليس مرتبطا بالزمن فحسب ولكن بمقولاته الثلاث ايضا من ديمومة وتغير وتنوع . وسير الانسان في الزمن يضيف اليه باستمرار جديدا في المسيرة . ان تاريخ البط او الحمير او النخل او البقول لا يضيف اليها اى شيء . الوحيد بين الكائنات الذي يضيف اليه التاريخ « جديدا » هو الانسان . ومن هذا الجديد المستمر يتكون « التراث » الانساني الذي لا تملك جماهير الابل او السمك او جموع شجر التفاح وجذور البصل شيئا من مثله ... ارأيت هل للطير من تراث أم لاطنان القمح ؟

---

(١٥) Valéry, P. : Variétés (Vol. IV) P. 134-135.

ــ ان التاريخ على المستوى نفسه ، علم « متمكن » او مكاني ، ارتباطه بالمكان لا يقل عن ارتباطه بالزمان . ان احداثه انما تتم بالضرورة في مسرح هو « الارض » وفي مكان محدد منها ، وتتحكم معطيات ذلك المكان (الطبيعية والاقتصادية والبشرية والسياسية) في حدة واهمية وتوتر الحدث وتعطيه ابعاده التي تتناسب معها . الجغرافيا هي احدى حقائق التاريخ واحدى مقولاته واحدى العوامل الكبرى المؤثرة فيه . تحكمت في ظهور المدنيات في مواقع محددة كما منعتها الظهور في مواقع اخرى . وتحكمت في اتصالها وصدامها وتفاعلها في اقاليم اختارتها الجغرافيا ولم يخترها التاريخ ولا الانسان ... للدرجة التي كان فيها بعض من اعظم النظريات في تفسير التاريخ ذا اساس جغرافي .. اليست نظرية التحدي لتوينبي كذلك ؟ اليست النظرية المادية التاريخية ذات جذور اقتصادية في الانتاج وفي المجتمع ؟ بدون المكان الجغرافي يقف التاريخ في الفراغ . وليس من حدث يجري في فراغ .

ــ ان التاريخ حركة مستمرة وتغير دائم في احجام والوان وآثار وتاثيرات الاحداث وفي اعمارها وعمقها وهذه الحركة ليست بذات وتيرة بسيطة ، او مسار وحيد معروف ، ولكنها ذات الف رأس والف ذيل والف مسار . والتاريخ في التعبير عن تلك الحركة انما يعتمد على اللفظ اللغوى . اللفظ ، بجانب كونه سكونيا ، ذو ابعاد محدودة في المدى التعبيري امتدادا وعمقا واتصالا .. ثمة هوة واسعة وتفاوت كبير اذن بين الواقع والصورة . ولقد تنكشف الهوة ان نحن مشينا بعض الخطى وراء الحركة التاريخية وابعادها المتشابكة ومنطقها المعقد في العمل .

ARCHIVE

حركة التاريخ لا تسير اتفاقا في الكون ، ولكن لها دون شك فلكها المحدد . وليس هذا الفلك على شكل خط مستقيم ممدود بين الازل والابد ، ولا شكل دائري مغلق ، ولقد يكون على شكل لولبي ، ولكن فيه الاف المسارات معا ، وفيه الاف الخطوط المتشابكة المتدفقة تدفق النهر والسيل . وفيه الكثير جدا من التشعب والتراجع والاضطراب والتحول ، ومن البطء والسرعة في وتيرة السير . لا يحضن كل اولئك الا الزمن ، والا الارض كمكان (حتى الآن على الاقل) . وكما تمشي الافلاك في فضاء لا نهائي كذلك يمشي التاريخ في فضاء من الامكان لا اوسع ولا ابعد .. ويمشي لمستقر له او لا مستقر له ... (١٦) .. المسيرة التي يمكن ان تسميها بالمصير .

وفي هذه المسيرة المتعددة الخطوط والاتجاهات والاعماق تتفاعل الوان العوامل في صياغة الاحداث ، فللصدفة مكانها ودورها ، ولجدلية التناقضات مكانها الآخر ، وللعناصر المادية آثارها ، كما للمثالية والميتافيزيك . وللتحدي دوره كما للهزات النفسية أو للخبز او للاسطورة ادوارها الفاعلة . ثمة تيه واسع من العناصر المتفاعلة التي تلعب كلها معا ، في رحاب القوانين الدقيقة التي تحكم حريتها الحركية لتنتج لا « اخطر محصول انتجته كيمياء العقل » فقط ، كما قال **فاليرى** (١٧) ولكن بكل تاكيد اعقد مادة انتجتها تلك الكيمياء وهي : احداث التاريخ .

وفي منتهى نفاذ الفكر واشراقه الشفاف على الماضي بكل عناصره وتعقده باخذ التاريخ في نظرية الالعاب هذه ، التي نعرض لها عابرين ، شكل نسيج هائل التعقيد من العوامل التي تلعب

---

(١٦) في الآية القرآنية الكريمة : « والشمس تجري لمستقر لها » . وفي قراءة ثانية « ... لا مستقر لها » .

(١٧) انظر : Valéry, P. : Regards sur le mond actuel (Ed. stock, 1931, P. 63).

— وليس ثمة كلمة اخرى يمكن ان تكون احسن وصفا لحركتها الحرة المقيدة من كلمة لعب — بعضها مع بعض ضمن قوانين بالغة الصرامة ولكنها في الوقت نفسه بالغة الحرية لعب الكروموزومات في نواة الخلية الحية (او الالكترونات حول نواة الذرة) وبهذا الشكل يصبح الكون والحياة مشحونين بعدد لا ينتهي من الاحداث الممكنة التي يتجدد امكانها في كل لحظة والتي قد تقع كل لحظة ولكنها لا تتحول لسبب او لاخر الى واقع اى الى حادث تاريخي الا في بعضها فقط . والحدث التاريخي الذى يظهر نتيجة لذلك اللعب ليس اكثر من « امكان » واحد من ملايين الامكانات التي كانت قابلة للوقوع واجهض امكانها فلم تقع .. كما انها في الوقت نفسه نتيجة تفاعل عدد من العوامل الحية الخبيئة التي لا يكاد يظهر منها للباحثين — مهما دفعوا البحث والتدقيق قدما وسربا — الا بمقدار ماتظهر الجمدبات الطافية فوق سطح الماء من كتلتها الكبرى الغاطسة تحت السطح الازرق .

واذا كان التاريخ لا يسجل من « الاحداث » الانسانية التي تقع بالفعل الا النزر اليسير ، فانه في الوقت نفسه انما يسجله من الخارج وبالتصوير الوصفي اللغوى ... وذلك النزر وهذا الوصف هما اقصى ما يملك المؤرخ من عدة علمه .. وهما وحدهما معطياته الاولى ، ونقطة انطلاقه دون كل الخلفيات السابقة .

ثالثا : ميكانيكية العملية التاريخية :

وعملية التاريخ هي في الاصل ممارسة فكرية عفوية لحد كبير ، ولم يتخل عنها البشر منذ عرفوها اول مرة . ولعلها كانت موجودة فيهم بشكل شفهي قبل ان تقيدها انواع التسجيل الكتابي من جيل الى جيل ، انها عملية مستمرة لم تهدأ منذ وجدت اول مرة ، وليس الذين يقومون بها هم المؤرخون فقط ولكن ثمة جمهورا واسعا جدا من « الهواة » يعمل عليها (اصحاب المذكرات . الباحثون الاجتماعيون والسياسيون ، الادباء ... الخ) بل ان الناس جميعا يؤرخون — ولو باحاديث في الهواء — ولا يدرون تماما انهم يؤرخون ... مثل جوردان في ملهاة **موليير** (البورجوازى المتمدن) الذى كان يقول النثر طول عمره ولا يدرى ! .. الخطوة البدائية في التاريخ مرض واسع الانتشار هو نوع من الادب او حديث السَّمَر . ما اكثر المتطوعين فيه ! .. ولكن هذا التاريخ العفوى ، رغم انه يشكل جانبا من مادة التاريخ ، ليس هو التاريخ الذى نقصد والذى يقوم على عملية فكرية هدفها لمة الماضي ، ومعرفته واعادة تكوينه وتحليله على اساس منهجي .

وميكانيكية هذه العملية يمكن ان نلاحظ فيها عدة ملامح :

ا — « .. اى محاولة للنظر الى التاريخ كشيء يماثل في بساطته للادراك الحسي يجب ان تكون خاطئة .. » (١٨) .

ان بسطها على اساس تسلسلي يكشف في صلبها اربع مراحل متعاقبة من التاريخ باخذ مخططها الهيكلي الشكل المبسط التالي :

الحدث التاريخي ← شهادة (على شكل رواية او وثيقة او اثر) ← تصور وجود سابق (على شكل استعادة فكرية متصورة للماضي) ← معرفة لاحقة (تنظيم فكرى

---

(١٨) وولش — مدخل لفلسفة التاريخ (الترجمة العربية) ص ٤٢ .

متخيل للماضي في اطار المعقولية) ⟵ تاريخ مكتوب (من خلال قدرة المؤرخ الذاتية على التعبير) . . . فكانما يصنع التاريخ لم يصنع اربع مرات على الاقل ما بين حده الاول الذى هو « الحدث » او الواقعة التاريخية وما بين شكله الاخير الذى هو التاريخ . وما من احد بالطبع يستطيع ان يؤكد ان « الحقيقة » التاريخية قد حافظت على صفائها وذاتها عبر هذه المراحل .

ب ـ فاذا ما نظرنا الى العملية من زاوية « النوعية » وجدنا انها في جوهرها انما هي نقلة في طبيعة المعرفة التاريخية ذاتها من مرحلة الادراكات البسيطة الى مستوى « الفقه » الواعي للواقعة والاستيعاب العلمي ، من الوصف التاريخي البسيط والاشارات الى التحليل والاستنتاج والتركيب ، من المشاهدة العادية السلبية الى حدود المعقولية والمنطق التنظيمي . وهنا ايضا لسنا ندرى بالضبط نصيب الواقع ونصيب الاضافة الفكرية الى الحادث التاريخي اثناء هذه النقلة !

جـ ـ ثم ان المؤرخ من حيث فلك العملية التاريخية لا ينطلق من الحدث التاريخي وانما ينطلق من الحاضر ، نعني مما يعرف الحاضر عن الحدث . وبمنظار الحاضر وعدته يسير ليعود في النهاية الى الحاضر ايضا . خط حركته يسير من الحاضر الى الحاضر ، كل بحث تاريخي فانما هو رحلة الى الماضي تنتهي بنقطة الانطلاق نفسها . وينطلق المؤرخ بعده من نص تاريخي او وثيقة او اثر ليعود من مغارة الماضي السحرية الملأى الغرائب والمجهول بكشف جديد يضيفه الى المعرفة المتوفرة في الحاضر . وهكذا يبدو عمل التاريخ نوعاً من اعمال الريادة والاكتشاف المستمر لقارات زمنية جديدة فيها كل ما في اعمال الارتياد من معنى الرعب وتلمس الطريق والمفاجاة والضلال . . والوقوع احيانا على كنز او في كمين لصيد الوحش !

http://Archivebeta.Sakhrit.com

د ـ والعملية التاريخية ، الى هذا او ذاك من حيث اتجاه الفكر ، عملية استحضار تراجعية ، فيها الكثير من الكشف : **فريدريك شليجل** يطلق على المؤرخ العظيم اسم « النبيء الاسترجاعي » لان عمله نبوءة الماضي . نحن نتمثل التاريخ في رحلة تصورية ذهنية تجرى بعكس الزمن . العلوم كلها ـ عدا ما يتصل منها بماضي الارض وجذور الانسان ـ متجهة دوما من الحاضر الى الغد . تفتش عن القانون والتنبؤ لان الغد تنبؤ ، اما التاريخ فهو متجه بالعكس من الحاضر الى الامس يفتش عن النور والكشف لان الامس يحتاج الى النور والكشف . ومن الكليات المضللة ما قد يقال من انه « لا جديد تحت الشمس » فمنذ زمن طويل عرفنا ان في كل لحظة جديدا يولد وقديما يموت ، في ملحمة تجديد لا نهائية الفعالية والحدود .

« وان ما يحدث في الزمن ز + ١ مختلف عما حدث في الزمن ز . الحدث لا يتكرر لان الزمن لا يرجع القهقرى . . والزمان (التاريخي) سلسلة من الاحداث » كما يقول **ميهل** (١٩) . واذا كان ليس ثمة بيئة طبيعية حول المؤرخ كالتي كانت في امس الغابر وليس ثمة من انسان من ذلك الماضي لانه في الوقت الذى صنع فيه التاريخ صنعه التاريخ بدوره وغير من طبيعته ، وليس ثمة من زمن طبيعي مع تطور الحياة في دورانها الرهيب الحديث ومع تعدد الازمان بين زمن فلكي ميكانيكي وفيزيولوجي وتاريخي ونفسي . . اذا كان كل اولئك فان عملية الاستحضار التراجعية التي نسميها التاريخ معرضة للكثير من المجازفة والتيه . . انها بشكل

(١٩) Mehl, Roger : Cahiers internationaux de sociologie (Paris 1947) Vol. III, pp. 138-139.

من اشكال التشبيه عملية تنقيب اثرى تاخذ شكل الحلزون المخروطي في الاتجاه نحو الماضي المطمور بالانقاض . وميدان الحفر ووسائله في هذا المجال ليست مادية ولكنها فكرية . وتجرى عمليات السبر والحفر والكشف وجميع الفتات والبقايا والملامح لاعادة تكوين الحقائق الضائعة التي يريد مجموعها أن يقول : هذا هو الانسان في بقعة كذا زمن كذا ، طبقة كذا . . وقد تكون العملية حتى هذا الحد المادى صحيحة ممكنة ولكن اركانها تضطرب متى وصلت ميادين الفكر والتطورات الاجتماعية وحدود الفن والاقتصاد والاعادة . وتصبح عملية التنقيب ، في كثير من الاحيان ـ وبسبب ندرة الوثائق مجرد مغامرة تأملية ـ او شطحة من التصور الذاتي ـ ولكن في الفراغ !!

وليست عملية الاستحضار المذكورة هذه مع ذلك عملية بسيطة ، ليست حركة ذهنية في اتجاه واحد وتتحقق مرة واحدة ولكنها اشبه بعملية « المكوك » في النول لا يتم النسيج الا بحركتها الجدلية الدائبة التي لا تقف بين حدى القماش : الحاضر والماضي . وقد اشار **(مارو)** الى ديناميكية الفكر هذه (التي تجرى ايضا في غير مجال التاريخ) بقوله : « . . ان المؤرخ يبدأ بان يطرح سؤالا ثم يكون ملفا من الوثائق المختصة به يؤدى التحليل المبدئي الى اعطاء كل منها درجة ما يمكن ان تحويه من امور قابلة للتصديق . انها مع ذلك صورة اولية جدا : فالتقدم بالمعرفة (التاريخية) يتحقق بهذه الحركة الجدلية الدائرية ، او بالاحرى الحلزونية التي يمر فيها عقل المؤرخ بالتتابع والتبادل من موضوع بحثه الى الوثيقة التي تشكل الاداة فيها ثم بالعكس . . والسؤال الذى اثار الحركة لا يظل هو نفسه لانه لا يكف عن التغير ازاء معطيات الوثيقة . . » (٢٠) . ويتعلق تغير السؤال في الاتجاه الصحيح ، ومدى صحة الاجوبة المستخلصة عليه بقدرات المؤرخ الفكرية والثقافية ، وبكفاية الوثائق تحت يده . . وكثيرا ما يضطرب احد هذه الحدود ، او تندر الوثائق فتكون الحقائق التاريخية المستخلصة بنت وجهة نظر شوهاء ، اشبه بالصورة في مرآة سيئة الزجاج او طولانية التقعر .

هـ ـ ولا يعني هذا ان التامل الشخصي ليس من عملية التاريخ . انه يقوم في اساسها . ان ميدانها الرحب ليس الطبيعة كما في العلوم الباقية ولكن في الفكر وما وراء الجبين . لكن التامل لا يجرى في غيبيات الميتافيزيك او نزوات الخيال . ان عمله لدى المؤرخ يقتصر على ادراك المعلومات من جهة ، والخروج بها نفسها من دائرة الوعي الى دائرة التحليل والبناء والتعبير . هو تامل يخرج من الواقع ليعود اليه . متى فقد الارتباط به استطاع ان يكون كل شيء الا ان يكون تاريخا . ويدخل في نجاح هذه العملية ، وفي فشلها في وقت معا ، اختيار المؤرخ للمعلومات والوثائق والآثار الاولى ، وتقييمها وتفضيل بعضها على بعض من جهة كما يدخل في ذلك بشكل طردى موهبة المؤرخ الفكرية واستعداده العقلي من جهة وثقافته الشخصية ومدى ابعادها من جهة اخرى . وهذا ما دعا باحثا مثل **مارو** Marrou لأن يضع هذه العلاقة بين التاريخ (ت) والماضي (م) والحاضر (ح) بشكل رياضي مبسط : $ت = \frac{م}{ح}$

ويقول : « . . انني اريد بكل بساطة عن طريق هذه الصورة ان اوضح واقعة هي انه كما ان كبر العلاقة في الرياضيات هي شيء آخر مختلف عن كل حد من الحدود فيها فكذلك

(٢٠) Marrou : De la Con. His. p. 122.

الامر في التاريخ . انه العلاقة والاتصال اللذان يقومان بمبادرة من المؤرخ بين مستويين للانسانية : الماضي المرئي بواسطة الناس القدماء ، والحاضر الذي يبذل فيه الجهد لاستعادة ذلك الماضي ، وذلك لمصلحة الانسان ، والبشر الآتي .. » (٢١) .

و ـ والتاريخ اخيرا من حيث الاداة عملية وصف عقلي لا سرد وقائع ولا اعادة حياة . هو نقلة في الفكر من كلام سكوني الى كلام سكوني (والاثر الاخرس نوع من الكلام والشهادة البكماء) للتعبير عن حدود حياتية حركية . وما يقال عن « اعادة الماضي » و « ذكر ما حدث بكل دقة » و « تمثيل الحياة البشرية كما كانت » وما اليهامن تعاريف العلماء للتاريخ ليس اكثر من مطامح النمل في بناء قبة فلك ... ان التاريخ انما يعتمد في الواقع في كمال الصورة وصحتها على قدرة الكلمات وعلى مدى ايحائها بالصور . والكلمات ليست بالنسبة الى الواقع الحي اكثر من وسائط سكونية محدودة المدى والامكان ، ان الماضي كحياة يتجاوز طوق كل مؤرخ . وقصارى ما يستطيعه انما هو الوصف التصوري في حدود ما قد يكون وصل بالصدفة الى علمه ويده ...

اما اليقين فـلا يقـين وانمـا   اقصى اجتهادى ان اظن واحدسـا

على حد قول المعري القديم .. وينتهي التاريخ باعادة تكوين الماضي بشكل منطقي ولكن في اطار ادبي . واذا كان بعض المؤرخين ينتهي بالاجابة على « كيف ؟ » وكان لدى الكثيرين الطموح للاجابة على الـ « لماذا ؟ » فليس بمؤرخ ذلك الذي يكتفي برصف جداول السنين والوقائع . وقوائم الاسماء والوفيات (تلك الهياكل العظمية للاحداث التاريخية ما من مؤرخ يعتبرها اليوم تاريخا لان « الادب التاريخي » هو لحم التاريخ ودمه وان كانت ثمة مسافة من البعد ؛و هوة سحيقة غير قابلة للاجتياز ـ حتى الآن على الاقل ـ ما بين هذا الشكل الادبي وبين الماضي الحي .. يضاف الى هذا ان التاريخ يخضع اثناء النقلة من لفظ الى لفظ لما تخضع له الاستخدامات اللغوية والتقنية والمنطقية من تحول عند اعادة البناء ومن غموض يعرضان الصورة الاصلية لالوان الابهام والتغير ...

http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان التحليل السابق كله منصبا على نوع التفكير التاريخي وطبيعته المخالفة لطبيعة المعارف الاخرى ، وكان رغم طوله ، ورغم طابعه النقدي التحليلي ضروريا لنستطيع الاجابة على السؤال الاساسي الذي طرحناه في مطلع البحث : هل التاريخ علم ؟ وهل من الممكن وجود علم تاريخي ؟ واين ينتهي حدود هذا الامكان ؟ لقد حمل التحليل السابق في الواقع نصف الجواب ، اما النصف الثاني فنبحث عنه في المقارنة بين العلم والتاريخ .

رابعا : بين العلم والتاريخ :

يقول المؤرخ **بيورى** ، وهو آخر سلسلة المؤرخين « العلميين » الذين انتجهم القرن التاسع عشر ، قرن التاريخ : « التاريخ علم لا اكثر ولا اقل » وقد كرر هذا التاكيد قبل بيورى وبعده جميع اولئك المؤرخين الذين اصروا امام انتصارات العلوم الطبيعية وفوزها بتسليم الجميع وبقيادة الرفاه الانساني ، على الصاق التاريخ بالعلم الطبيعي ووضع عنوان « العلم » على بابه بالمسامير . كانوا يريدون من خلال التاكيد المتكرر على عملية التاريخ نفي تلك الريب التي تلاحقهم حول قيمة

(٢١) Marrou : De la Con. His. p. 37.

« التاريخ » العلمية .. لم يكن السؤال ـ المشكلة موجودا قبل القرن الماضي . اربعون قرنا ظل التاريخ قبل ذلك ، اما سجلا لاعمال الملوك أو فنا من فنون الادب يروى القصص للتسلية او للاعتبار الخلقي او ملحقا بالمعارف الدينية اقصى همه البرهان على قدرة الخالق الباري» .

وحين اعلن **رانكه الالماني** سنة ١٨٢٤ كلمته التي اشتهرت فيما بعد من ان التاريخ هو « تصوير ما حدث بالضبط » .. لم اعلن **ميشليه** الفرنسي انه « يبين بوضوح وبساطة كيف انبثقت الاشياء » .. اعتبر المؤرخون انهم ظفروا اخيرا بمنتهى الموضوعية التي يطلبها العلم . وان رانكه انما اعلن ميلاد « التاريخ العلمي » ولم يبق عليهم الا تحديد الطريق الذى يصلون به الى « ما حدث بالضبط » اذن فهي العملية التامة والموضوعية الكاملة .. لم يتنبه احد منهم الى ان كلمة « ما حدث بالضبط » هي المشكلة ، ومع انهم ما يزالون الى اليوم يبدأون تعريف التاريخ بعبارة « التاريخ علم .. » الا انهم منذ زمن طويل قد كفوا ، في الواقع ، عن طموحهم الرانكاوى (نسبة الى رانكه) واصبحوا اكثر تواضعا بكثير مما كان . **المؤرخ هنرى ت . باكل** H. T. Buckle قرب الهدف قليلا حين قال في مقدمة كتابه تاريخ الحضارة في انكلترا ، بعد ان انتقد اخفاق المؤرخين وعجزهم عن السمو فوق الحقائق الجزئية وعن استنباط القواعد العامة ، انه يأمل « ان يحقق لتاريخ الانسان شيئا يساوى اويقابل .. (ما حققه) الباحثون الآخرون في مختلف فروع العلم الطبيعي » (٢١) م .

ثم لما قفزت نظرية التطور ، مع داروين ، الى مركز الاهتمام الفكرى ، جاء كارل لامبرخت الالماني في اواخر القرن الماضي يقترح ان يحل محل كلمة رانكه شعار آخر هو ان عمل المؤرخ ان يعرف « كيف تطورت الامور بالضبط » . وظهر اثر ذلك اصطلاح « التاريخ التطورى » في محاولة للحلول محل التاريخ العلمي .

وظن **فوستيل دى كولانج** انه عثر على مفتاح الفن العلمي في التاريخ حين اكتشف ان في التاريخ وثائق ونصوصا اثرية وسجلات وثائقية يمكن ان تكون منطلق البحث التاريخي وهكذا كان يردد دوما على تلاميذه سؤاله الشهير : « هل لديكم نص ؟ » معتبرا انه « لا تاريخ بدون نصوص » لانه ـ كما قال ـ « علم لا يتخيل بل يرى . وهو نظير كل علم . ينظر الى الاحداث ويحللها ويقارن بينها ويحقق الروابط القائمة بينها . والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه . بدراسة النصوص بامعان ودقة . والطريقة واحدة في كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة .. » (٢٢) . وبلغ هذا الاتجاه الوثائقي اوجه على يد لانجلوا Langlois **وسينيوبوس** Seignobos اللذين اعتبرا أن « التاريخ انما يصنع من النصوص » واصرا في كتابهما الذى اشتهر في أواخر القرن الماضي (المدخل الى الدراسات التاريخية) بأن « التاريخ هو علم دراسة الوثائق واستعمالها » (٢٣) . ومنتهى طموح المؤرخ ان يتناول الوثيقة . « فيبحث في كيفية صياغتها وفي مصدرها لاعادتها الى اصلها وهذا ينطبق على الخط واللغة والشكل والمصادر وهذه كلها اعمال « النقد الخارجي » اما النقد الداخلي فيدور على التعليل والقياس التشبيهي المبنيين على اساس نفساني يصور لنا نفسية

(مكرر ٢١) انظر باكل Buckle, H. T.

— His of Civ. in England (Oxf. Univ.Press, London, New York 1903-1904) Vol. I, p. 3-4.

(٢٢) انظر جوزيف هورس ـ قيمة التاريخ ص ٥٦ الذى نقلنا عنه النص .

(٢٣) انظر Langlois et seignolos : Intr,. aux Et. His. p. 1 et 275

كاتب الوثيقة وما عنى من قوله . وهل هو مقتنع بما كتب وهل هو محق في اعتقاده .. » (٢٤) وينهي المؤلفان كتابهما بتأكيدات قاطعة تقول : « ... ان الشكل العلمي للعرض التاريخي تكون وثبت منذ خمسين سنة وهو يتفق مع الفكرة العامة التي تضع للتاريخ هدفا واحدا هو المعرفة لا المتعة ولا وصف العلاجات ولا اثارة العواطف .. » .

وتقول : « .. وسيأتي يوم تتجلى فيه جميع الوثائق القديمة وترتب بفضل تنظيم العمل وتثبت الحوادث التي لم يعف اثرها . عندئذ يتكون التاريخ ولكنه لن يكون مع ذلك راسخا اساسيا موطد الاركان اذ ان ذلك يستلزم توحيد الابحاث التركيبية الافرادية على يد خبراء يقيمون منها عملا انشائيا شاملا . فاذا خلصت من هذا العمل بنتائج واضحة وحجج دامغة تفسر تطور المجتمعات الانسانية وتبين مراحل تاريخها كان ذلك فلسفة التاريخ قائمة على قواعد علمية .. » (٢٥) .

واذا سجل كتاب **لانجلوا وسينيوبوس** اوج الخط العلمي التاريخي في المدرسة الفرنسية فقد ظهر كتاب من مثله يسجل اوج « العلمية » التاريخية لدى الالمان حين اصدر **ارنست برنهايم** كتابه : « تعلم المنهج التاريخي والفلسفة التاريخية » (٢٦) . ولحقت بالكتابين من بعدهما كتب مماثلة في انكلترا وامريكا منها كتب **جونسون ونيفينز** Nevins وغيرها .

على انه لم يكد ينتهي العقدان الاولان من هذا القرن الحالي حتى اهتزت هذه الثقة المطلقة وبدات الفلسفة النقدية حين بدأ يتكشف للباحثين مدى السذاجة الكبيرة وبساطة الفكر في هذه الدوغماتية العلمية التي كانت تلهب حموس الباحثين في القرن الماضي . عدد من مفكري المانيا خاصة وفرنسا وانكلترا فيما بين الحربين لقواعدا النسيج الرقيق الذي نسجه اولئك المفكرون السابقون وكشفوا تهافته السلاح . ابحاث سيمل Siemmel **ولهلم دلتاي** Dilthey ، **فيفر** Febvre **كولنجوود** Collingwood ، **آرون** Aron ، **ريتشي** Ricci **وكروتشه** Croce خلقت في موقف التاريخ « العلمي » نوعا من الازمة وفضحت الثغرات هنا وهناك فيه ، لا في محاولة لهدم علميته في الغالب ، لكن لتحديد مداها وحدودها على الاقل . اضحى التاكيد على علمية التاريخ ، على اساس الشعارات المعلنة في القرن الماضي كقطعة النقود البالية ، يهزؤها التداول بقدر ما تحاول الايدي في الوقت نفسه ان تتخلص منها . ان العلوم الاجتماعية والتاريخ واحد منها ، لا يبدو الى الآن انها وجدت « جاليلها » او « نيوتنها » الذي يكشف لها المفتاح الذي كشفه غاليلو ونيوتن للعلوم الطبيعية . واذا صادفت بعض المناهج العلمية بعض النجاح في بعض العلوم الانسانية كعلم النفس مثلا او بعض العلوم الاجتماعية النظرية كالاقتصاد ، فان الفشل كان الطابع العام لتلك المحاولة التي حاول بها العلماء غزو العلوم الاجتماعية والتاريخ في اولها ، بآلات ووسائل العلوم الطبيعية . وكان الفشل من القسوة والتكرار بحيث عادوا مضطرين ، الى التساؤل عما اذا كان من الصحيح قياس الانسان بمقاييس الطبيعة نفسها او اصطناع وسائل العلم الطبيعي

---

(٢٤) اخذ النص عن جوزيف هورس ـ قيمة التاريخ ص ٦٠ .

(٢٥) انظر Langlois et seignobos :
— Introduction eux. etudes historiques pp. 263 et 277

(٢٦) ظهرت الطبعة الاولى من كتاب Ernest Bernheim في ليبزيغ سنة ١٨٨٩ .

فى ميدان العلوم الانسانية . على ان المشكلة المركزية فى الحوار وهي « علمية التاريخ » بقيت معلقة بين جميع اطراف الحوار . والجدل من حولها بقي قائما لا ينقطع ما بين مؤيد ورافض وباحث عن طريق جديد .

ليس بالامكان اليوم رفض علمية التاريخ عن طريق اتهامه بالغيبية وبملاحقة آفاق الميتافيزيك الزئبقية . منذ زمن طويل ودع التاريخ هذا الطموح « الفرالي » . وكما استبعد العلماء الاسباب العلّية الاولى ، او النهائية للوجود والاحداث ، ليتوقفوا عند الطبيعة ذاتها والمحسوس المقاس من احداثها ويقيموا « العلم » الخالص كذلك فعل التاريخ . كان هذا العبء الضبابي اول ما القاه عن كتفيه من الاثقال والمهام . اضحى كشف اسباب الوجود والعلل الأولى ، وميتافيزيك الحياة ، من خلال احداث التاريخ واستخلاص قاعدة حياتية يمكن فرضها ، فوقيا او غيبيا على المجتمعات والافراد ، خارج نطاق التاريخ . كان ذلك على الاقل لأن المقدمات المنطقية والاساسية لمثل هذه الشطحات غير كاملة فيه . انه لا يملك منها الا العرَض المتحول . اما الجوهر والثابت فلا . اقصى الازل وابعد الابد اصبحا اليوم وراء حدود الطموح التاريخي باتفاق المؤرخين ، يقول دلتاي : انها لخرافة تلك التي ترى فى عمل المؤرخ سرا شبيها بسر الابحاث السيميائية التي كانت ترمي الى معرفة سر الكون فى محاولة تحويل المعادن الى ذهب خالص . كيف للمؤرخ ان يستخرج من المادة الصماء والحوادث الصامتة ذهب التجريد والسببية ويصل الى سر الحياة الانسانية ! » (٢٧) .

ان آفاقا اخرى من الجدل العلمي بين الباحثين الى اليوم حول علمية المعرفة التاريخية . ولعل بالامكان ان نلملم ذلك الحوار الواسع المتد على مدى قرن ونصف القرن وان نضيق آفاقه ونضعه ضمن اطاره ان نحن حللنا عمل المؤرخ نفسه اولا فهذا العمل فى واقعه يتألف من عملية او مرحلتين اثنتين ، تختلف احداهما عن الاخرى اختلافا كبيرا فى الطبيعة والهدف . ولعل القفز الفكرى بينهما هو الذى يوقع الكثيرين فى الالتباس ويجعل من « الحوارية » حول علمية التاريخ حوار الطرشان :

المرحلة الاولى من عمل المؤرخ : تتناول تنظيم الوقائع وكشف تفاصيلها وتثبيت الحقائق المتصلة بها وبظروفها . وهو عمل « وصفي » ولكنه فى الوقت نفسه عمل علمي دقيق ، ومن هذا العمل بالذات تتكلم سلسلة المؤرخين العلميين الممتدة ما بين رانكه الى سينيوبوس . ولكن المؤرخ اذا اكتفى بهذه المرحلة فانه لا يعدو ان يكون آلة تسجيل كرونولوجي . وفى احسن الاحوال مصورا فوتوغرافيا سكونيا للمادة الهامدة . ولا قيمة للتاريخ الذى يعطيه مثل هذا العمل الا من حيث كونه مادة اولية للمرحلة التالية .

المرحلة الثانية : وعملها تحليل الوقائع وتعليلها وبيان ترابطها السببي . وهذا العمل فكرى تجريدى ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس بعلمي تماما ، لانه وان اشبه العلم فى البحث عن السببية ، الا انه يعتمد على الاجتهاد الشخصي والاحكام الذاتية والتخمين ، لأن الاحاطة بالاسباب تفوق الطوق .

---

(٢٧) Dilthey : Introduction à l'etude des sciences humaines (trad sauzin, Paris 1942) P. 119.

والمرحلة الاولى رغم علميتها المتمثلة في دقة الارتباط بالواقع ليست بعمل علمي كامل لان اساس العلم كشف السببية والاقامة التسلسل الزمني لا يكفي لمعرفة السببية ، أما الثانية فان السببية التي تنكشف فيها لا تعدو ان تكون « فرضيات » وقفزات في المجهول لا تخضع لاى برهان حاسم سوى المنطق والامكان .. ونستطيع القول ان الوظيفة العلمية الحقيقية في التاريخ تبدأ حيث تنتهي الوظيفة الوصفية ، وهذا يعني انها تبدأ حيث تنتهي التسلسلات الزمنية والوصف في المرحلة الاولى ويأتي التفسير والتعليل في الثانية .

وهكذا تبقى مشكلة « العلمية » أو « الموضوعية » في التاريخ اذن متصلة بامرين هما اليوم اساس « علمية » العلوم كلها :

الاول : ضرورة التطابق الكامل ما بين « حدود » التاريخ وصفاً وتسلسلاً ، وبين حدود الحقيقة أو الواقع ، بحيث تمر المعرفة التاريخية في غربال المنهج العلمي ، وتكون نتيجة مباشرة له ، وبحيث تطرد « الذاتية » بعواطفها واهوائها خارج السطور .

الثاني : امكان وضع القانون التاريخي ، اي وضع علاقات الاحداث ضمن صيغة رياضية كلية تفسر الواقع التاريخي وتعلله سببياً وتسمح ـ بالنتيجة ـ بالتنبؤ وبان نصبح ـ على حد قول ديكارت ـ « أسياداً ومالكين للطبيعة ... » والمستقبل !

ان علمية التاريخ انما تتوس في الواقع مابين هذين القطبين . واذا نحن استخدمنا الاصطلاحات المدرسية ، وقلنا ان العلم هو المنهج وهو السير من الجزئي الى الكلي ، ومن الفردي الى العام ، ومن الشخصي الى الموضوعي ، ومن المحسوس الى المجرد ، والاتجاه بكشف العلاقة السببية الكلية ضمن مبدأ الحتمية .. الخ . فالسؤال يتحول عند ذلك الى ان نعرف اين تقع عملية التاريخ المزدوجة الحد في هذا المنهج المتعارف عليه للمعرفة العلمية ؟ .

قبل ان ننطلق في تلمس الجواب نقف عند رأى يجعل نقص « العيار » العلمي في التاريخ من ذنوب المؤرخين . يجعل ضعف الموضوعية نتيجة لذاتية المؤرخ الباحث . المؤرخ « **هالكين** » حاول ان يلخص مشكلة التاريخ العلمية في تلك العلاقة الذاتية القائمة بين « الحدث » وبين « المؤرخ » قائلا : « التاريخ للاسف غير منفصل عن المؤرخ » (٢٨) . وتابعه في ذلك الكثيرون ومنهم مثلا « **مارو** » Marrou الذي قال « لو انا القينا من الفلسفة النقدية للتاريخ مبالغاتها الجدلية وصيغها المتناقضة فانها تؤول في النهاية الى توضيح الدور الفعال الذي يقوم به المؤرخ في فكره وشخصيته في تكوين المعرفة التاريخية » (٢٩) . والواقع ان المشكلة انما هي في « طبيعة الموضوع التاريخي » وفي « نوعية المعرفة التاريخية » وليست في المؤرخ الذي يحتال لغزوها في مستقرها العميق ويصطنع اقصى ما تطيق هي نفسها من وسائل الاستكشاف ، لبيان الحقيقة فيها ولاصطياد العلاقة الثابتة الكلية .. بالقدر الذي تسمح هي نفسها ايضا بالكشف عنه :

نحن مضطرون ميدئيا ان نقرر ، دون ظل من اسف او غضب او مرارة ، ان « نوعية » او « طبيعة » المعرفة التاريخية ليست مطابقة لنوعية وطبيعة المعرفة في العلوم لان « الحدث » التاريخي في

---

(٢٨) Marrou : De la connaissance His. p. 51.

(٢٩) Halkin, L. : Initiation à la critique historique (2 éd. Paris 1953) p. 860.

الاصل ــ وهو موضوع تلك المعرفة ــ ليس مشابها للحادث الفيزيائي او الكيميائي المبسط ولا البيولوجي ايضا ، انه من التعقيد الخفي بحيث تصبح الحادثة الفيزيائية بعلاقتها الرياضية لعبة اطفال امام تشابك القوانين في اى حادث تاريخي صغير . ما من شك في ان المؤرخ يلعب دوره الفعال العميق في اعطاء التاريخ طابعه الذاتي ، وما من شك في ان التاريخ غير منفصل (حتى الآن على الاقل) عنه ولكن المشكلة لا تبدأ عنده وانما تبدأ على الطرف الآخر من المعرفة : طرف « الموضوع » الذي يسهل على كل فكر ان يدرك انه ــ لاتصاله بالطبيعة والانسان والحياة ــ فانه اعقد بكثير واوسع بكثير ، وفي كل الاتجاهات من ان تلم به او تحيط به الوسائل العادية المتداولة حتى اليوم للمعرفة العلمية . يقول **سانتيانا** وهو من هذه المدرسة نفسها التي تنحى باللائمة على المؤرخين : « المؤرخ المثالي يتناول قطعة واسعة من القماش وهو مستعد لرسم كل شيء عليها ولكنه وهو يرسم ينتحل كل شيء ويغيره الى مقومات لوحته . وتنقل عينه البشعة المليئة بالاقامي كل ما تنظر اليه ، ليس لانه يختار او يؤلف فذلك كسب للعقل ، ولكن لانه يعزو الى لوحته التدريجية سحرا خلاقا وكانه قد كشف العصب الحقيقي للاحداث . غير ان العصب الحقيقي او بالاحرى الديناميكية الكاملة للاحداث ليست هي على نطاق انساني ، انها ليست رائعة ولا يمكن ادراكها بالتخمين ، او بالتكهن المثير ، او بالعبارات الاخلاقية . انها الحياة الخاملة المعقدة في الطبيعة، تلك العقدة الكبرى لكل الاصول والمشتقات »(٢٠) . المشكلة الحقيقية اذن هي في تعقد الموضوع في جذوره وعوامله وفي بساطة (او احيانا سذاجة) الوسائل المصطنعة للوصول الى الرؤية الواضحة فيه .

واذا كانت الصفحات السابقة تحليلا او نوعا من التحليل لطبيعة ونوعية المعرفة التاريخية البالغة التعقيد . فيبقى أن نتمم الصورة اذن بتحليل المنهج الذي يصطنعه المؤرخون في البحث التاريخي مقارنا بما اتفق العلماء على تسميته بالمنهج العلمي .

ا ــ الموضوعية العلمية في مرحلة جمع الوثائق :

لقد يكون من السهل بعض السهولة او كلها السير بالمرحلة الاولى من عمل المؤرخ ، مرحلة الجمع الوثائقي على اسس دقيقة التزمت للدرجة التي يمكن معها ان توصف بالعلمية . ولقد يكون من السهل ايضا اعادة بناء بعض وقائع الماضي : بترتيبها الزمني وتفاصيل الاحداث فيها بالاستناد الى ما بقي منها بشكل شهادات وآثار . . الطريق في هذا السبيل ممهد . وعلى هذا النحو من الفهم للتاريخ بنى لانغلوا وسينيوبوس ، بين البناة الآخرين ، مفهومهم لعملية التاريخ ورسموا لها المنهج على الشكل التالي :

ــ بحث عن « الوثائق » لان « التاريخ يصنع من الوثائق اى الآثار التي خلفتها افكار السلف وافعالهم » .

ــ ثم تأتي العمليات التحليلية للوثائق اى :

= النقد الخارجي لها : نقد التصحيح ونقد المصدر والترتيب النقدى للمراجع .

---

(٢٠) انظر جورج سانتيانا ــ مولد الفكر ص ١٢٠ .

= والنقد الداخلي (الباطني) لها : نقد التفسير ، والنقد لامانتها ودقتها ، وتحديد الوقائع الجزئية فيها .

ـ ثم تاتي العمليات التركيبية اى : تجميع الوقائع والبرهان البنائي فيها وتشييد الصيغ العامة منها .. ثم العرض التاريخي الاخير (٢١) .

وتنامي « منهج البحث التاريخي » بعد ذلك وتوطد حتى اضحى من المعارف التقليدية الكلاسيكية التي تدرس لطلاب الجامعات المبتدئين بالتاريخ ... يعلمونهم (٢٢) :

ـ كيفية جمع الاصول والمراجع (وثائق ، مذكرات ، آثار ، نصوص تاريخية .. الخ) .

ـ ثم نقد الاصول : نقد صحتها خوف الزيف والانتحال . ونقد شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه وتحرى نصوص الاصول وتحديد العلاقة بينها .

ـ ثم النقد الداخلي (الباطني لها) نقدا ايجابيا بالتحليل . وتحديد معاني الالفاظ وغرض الكاتب وطرق كشف المعاني الخفية ونقدا سلبيا للتثبت من صدق المؤلف وعدالته وعدم وقوعه في الخطا او في الانخداع .. او في الكذب .

ـ ثم اثبات الحقائق التاريخية التي تتضح بعد ذلك ومقارنتها بالروايات الاخرى .

ـ ثم تنظيم تلك الحقائق قبل تركيبها على اساس الاجتهاد والتعليل والايضاح في صيغة تاريخية محددة .

ان مزالق الذاتية واللاموضوعية محدودة في هذه المرحلة الاولى التي تعتمد الاستقراء والتحليل والاستنتاج في مادة هامدة . ولو ان التاريخ كان مجرد تنظيم الوثائق والنصوص والآثار وربط بعضها ببعض لأضحى التاريخ منذ زمن طويل مقبول العلمية والموضوعية دون كبير جهد او جدل .. لولا ما يثور من الريب حول صدق النصوص والشهادات الاولى ومدى الموضوعية فيها . هنا نقطة الريبة الاساسية في العملية . المشكلة ليست في منطق التاريخ ولكن في موضوعه ومادته . فاذا عرفنا الصدق التاريخي بانه المطابقة للحقائق Adaequatio res et intellectus فان هذا ليس حلا مقنعا للمشكلة لانه قضية دور لا حل . نعم ان التاريخ يجب أن يبدأ بالحقائق وهذه الحقائق ستكون غاية لا بداية فحسب ذلك هو الف باء المعرفة التاريخية ولا ينكر احد هذه الحقيقة . ولكن ما الحقيقة التاريخية ؟ كل صدق حقائقي يتضمن صدقا نظريا .. الحقيقة المادية والحقيقة التاريخية كلتاهما تعتبر جزءا من الواقع التجريبي والى كلتيهما ننسب صدقا موضوعيا ولكنا حين نريد ان نعين طبيعة الصدق نسير في طريقين مختلفين . اما الحقيقة المادية فنعينها بالمشاهدة والتجربة . وهذه العملية من الاخراج الى حيز الموضوعية تبلغ غايتها اذا نحن نجحنا في وصف الظواهر المعطاة في لغة رياضية اى في لغة الاعداد . فكل

---

(٢١) انظر لانجلوا وسينيوبوس ـ المدخل الى الدراسات التاريخية (ترجمة عبد الرحمن بدوى في النقد التاريخي) ص ٢٣ ـ ٢٥٤ .

(٢٢) انظر من نماذج هذه الكتب في المنهج التاريخي كتاب : حسن عثمان ـ منهج البحث التاريخي (الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٥) .

ظاهرة لا يستطاع وصـــفها او ردها الى عملية قياسية لا تكون جزءا من عالمنا المادى .. الحقائق المادية مرتبطة دائما بقوانين عليـة الى ظواهـــر اخرى يمكن مشاهدتها وقياسها مباشرة . واذا كان عالم الطبيعيات فى شك من النتائج فى احدى التجارب فانه يستطيع ان يعيدها ويصححها اذ انه يجد مواده جاهزة لديه فى كل حين .. الا ان حال المؤرخ مختلفة عن ذلك لان حقائقه تنتمي الى الماضي وقد ذهب الماضي الى غير رجعة . ونحن لا نستطيع ان نعيد بناء ذلك الماضي ولا ان نوقظ فيه حياة جديدة بمعنى مادى موضوعي . وكل ما نستطيعه هو ان « نستذكره » ان نمنحه وجودا مثاليا (فكريا) جديـــدا فالبناء المثـــالي ـــ من جديد ـــ لا المشاهدة التجريبية هو الخطوة الأولى فى المعرفة التاريخيـــة .. المؤرخ لا يســـتطيع ان يواجه الاحداث نفسها .. ليس لديه الا سبيل غير مباشر يؤدى الى مادته . عليه ان يرجع الى مصادره . الا ان هذه المصادر ليست امورا مادية بالمعنى المألوف لهذه الكلمـــة .. نعم ان المـــؤرخ كالعالم الطبيعي يعيش فى عـــالم مـــادى ولكن ما يجده عند بدئه البحث ليس عالما من الاشـــياء المادية وانما يجد عالما رمزيا ـــ او عالم رموز ـــ وعليه ان يقرأ هذه الرموز . وكل حقيقة تاريخيةـــ مهما بدت بسيطة ـــ فلا يمكن ان تعيّن او تفهم الا بتحليل أولي للرموز . فالمواد الاولى المباشرة فى المعرفة التاريخيـــة وثائق وآثـــار لا اشـــياء وحوادث .. ولا نقع على المعلومات التاريخية .. الا بواســـطة وتدخـــل من هـــذه المعلومات الرمزية .. » (٢٣) .

« على التاريـــخ ان يبدأ بتلك الآثار لانه لا يســـتطيع دونهـــا ان يخطو خطـوة واحدة .. وعلى المؤرخ ان يتعلم كيف يقرأ ويفسر وثائقه وعادياته (الاثرية) باعتبار انها رسائل حية من الماضي . رسائل تخاطبنا بلغتها الخاصـــة لاباعتبار انها بقايا ميتة منه .. ولا يكون المحتوى الرمزى فى هذه الرسائل ملحوظا على التو . وعلى العالم اللغوى والفيلولوجي والمؤرخ ان يجعلوها تنطق وان يجعلونا نفهم لغتها . واذا عجز المؤرخ من ان يفك معنى اللغـــة الرمزية فى آثاره بقى التاريخ كتابا مغلقا مختوما .. (٢٤) » .

ويجب ان نسد الى هذا ثغـــرة اخـــرى فى موضوعية الوثائق والآثار هي مدى صدقها وصدق اصحابها الأول ومدى تمثيلها الحقيقى للواقع . ان اقصى ما يســـتطيع جامع الوثائق ومستنطق الآثار ان يقوله فى موضـــوعية نتائجـــه انهـــا هي « الحقيقة التاريخية » لا الحقيقة المطلقة . وهي الحقيقة لكن فى حدود ما تسمح به وما تعطيه وماتصدق فيه الوثائق والآثار . انها اذن الموضوعية النسبية والعلمية « المشروطة » .

ب ـ الموضـــوعية العلمية فى مرحلـــة التركيب والتعليل التاريخي :

هذا على الاقل فى العملية الاولى من التاريخ عملية الجمع للمادة . على ان مشكلة « العلمية والموضوعية » تأخذ ابعادا اخطر واقسى فى المرحلة الثانية من عمل المؤرخ : مرحلة التركيب والتعليل وكشف السببية فيما بين الوقائع . المنطق الذاتي وحده هو الحكم ، فى هذه المرحلة الثانية . اعمال المؤرخ السابقة ليست اكثر من وسيلة لجمع المادة الاولى وجعلها على مستوى من التصفية والتنقية والموضوعية يسمح بصحة التحليل والاستنتاج . لا بد من صحة المقدمات لتصح النتائج . والتاريخ

(٢٣) انظر كاسيرر ـ مدخل الى فلسفة الحضـــارة الانسانية (الترجمة العربية) ص : ٢٩٦ ـ ٢٩٨ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

الحقيقي انما يبدأ عند محاولة استخلاص هذه النتائج ، يبدأ مع مرحلة التركيب والتعليل . وهنا تتدخل عناصر كثيرة من الذاتية والحكم الحدسي والشخصي لتلقي ظلا من الريبة على موضوعية المؤرخ الذى لا يستطيع الانفصال - ولو حرص - على موضوعه . واذا شئنا كشف حدود تلك الريبة فلعلنا نستطيع ذلك بتتبع العملية التركيبية التاريخية خطوة خطوة :

الفرضية وامتحان الفرضية فى التاريخ :

العالم - فيما يقولون - يبدأ بحثه العلمي بفرضية Hypothése يضعها موضع البحث والتجربة والاستقراء والاستنتاج والتحليل .. الخ حتى اذا صمدت لكل أولئك تحولت الى نظرية علمية Théorie او مبدأ Principe او قانون او صيغة رياضية ثابتة الحدود . هذه القفزة فى المجهول لاكتشاف المجهول بالاستناد الى المعلوم تقوم هي نفسها فى اساس العمل التاريخي التركيبي ايضا . ان دور الفرضية فى التاريخ ليس بمختلف من حيث المبدأ عن دورها فى العلم ، ولكن الخطوات التالية هي المختلفة لان « مادة » التاريخ هي التي تتأبى على الوسائل العلمية « البدالية » للعلوم ..

أ - ففي العلم يتحدثون بصورة اساسية عن المشاهدة و « التجربة » وهما مستبعدتان كطريقة فى البحث التاريخي لا لشيء ، الا لانهما مستحيلتان (٢٥) .. فميدان العلم هو ما يمكن ان يحدث فى المستقبل واما التاريخ فله ما حدث وانتهى . الوقائع التى عرفها الماضي من المستحيل توفير كافة الشروط اللازمة لاعادة حدولها كرة اخرى . حتى ولو توفرت الشروط فان « ما يحدث فى الزمن ز + ١ ليس ابدا هو ما كان حدث فى الزمن ز » لا لأن الزمن اختلف فقط ، ولكن لأن الانسان فى الزمن الثاني اختلف ، ولانه تعلم من التجربة فى الزمن ز وتأثر بها ايضا .. ان الحادث التاريخي كعود الكبريت او بعض مصابيح التصوير لا يتقد الا مرة واحدة .. تجدد وتفرد الحادث التاريخي (وهو ما يستمى احيانا بجزئيته) هما بعض ميزاته الكبرى وبعض مصائبه ايضا .

والواقعية التاريخية لا تقع ابدا تحت المشاهدة الدقيقة الشاملة والكاملة للمراقب العلمي . ليست معطاة لنا كما فى الواقعية الطبيعية - خارج الذات ولكنها تتنامى وتتكامل فى الواقع داخل الفكر ، واذا كان الاساس فى الحادث الطبيعي هو « الكم » وامكان القياس فليس فى التاريخ من كمية . ووقائعه تتأبى على اى قياس .. والتاريخ بالضرورة انما يصاغ على اساس النصوص لا اساس التجارب . يضاف الى هذا وذاك اننا نستطيع فى الغالب عزل عنصر عن آخر فى العلوم ومعاملة تركيب كيماوى او حتى بيولوجي على حدة لدراسة تفاعله وردود فعله وليس ذلك ممكنا فى التاريخ لأن نسيج الاحداث متماسك بعضه مع بعض ، متحول دوما من لحظة الى لحظة ، كالنول الابدى الضخم . وانتزاع الحدث التاريخي لعزله ودراسته عمل نظرى اولا غير قابل للتحقيق بالاضافة الى انه عند تحقيقه يكون ، عمليا ، قد الغى تاريخية الحدث وحوله الى مجرد قشور .

ويتفرع عن هذا الغاء طريقة من طرق العلم فى التاريخ ، هى الكشف بالمقارنة ، ان المؤرخ لا يستطيع تفسير حادث تاريخي بآخر ، ولا تحليل واقعة او موقف بالرجوع الى وقائع ومواقف من

---

(٢٥) يجب ان نستثني هنا ما يسجله المؤرخ من مشاهدته الشخصية لبعض الاحداث التي يعيشها . وهي حالة خاصة جدا . وليس ثمة ما يضمن ابدا ان هذه « المشاهدة » تتم ضمن الشروط العلمية الكاملة . بالاضافة الى انها ، فى عرف المؤرخين الآخرين لا تعدو ان تكون مجرد شهادة تستحيل على معاودة المشاهدة .

النوع نفسه . القياس المنطقي عملية شبه معطلة في التاريخ الماثل بين يديه . لقد يستطيع ان يشير الى التشابه . ولقد يجرؤ فيبحث عن بعض التماثل ولكنه محكوم حتما بان يقف فلا يصل الى التطابق الذى يصل اليه ــ لو شاء ــ كل عالم طبيعي . لو فعل اذن الفى عامل الزمن في الحادث التاريخي وتجاوز على خصوصيته وعلى فرديته التي تجعله حادثاً من التاريخ .

التجربة المستحيلة : اى عدم التكرر . التفرد . غياب الكم والقياس . عدم امكان العزل . عدم امكان المقارنة . . هي اذن التحديات التي تواجه المؤرخ لانها ــ وهي ممكنة دوما في ميدان العلم الطبيعي ــ تشكل ميزات الحدث التاريخي . . ومشكلاته ايضا في وقت معاً .

ب ــ وفي العلم ينتقل الباحث من الجزئي الى الكلي . ومن الفردى الى العام ومن المحسوس الى المجرد والصيغة الرياضية . ان عمل المؤرخ يكاد يكون بالضبط عكس الطريق . ان الجزئيات في صورة الماضي هي الاساس ، والفردى له قيمة العام والمحسوس هو الدائرة التي لا مجال لتجاوزها حتى لقد سمى « دارديل » التاريخ علم المحسوس (٣٦) كل حالات التاريخ « حالات خاصة » لا يمكن ان تتحول عامة ، وهم : العلم هو العام . كل وقائعه فردية في اطار زمانها ومكانها واسبابها ، ولا علم الا بالكلي . وقد فشلت حتى الآن على الاقل جميع الجهود في ادخال الفعالية التاريخية ضمن اطار اى قانون تجريدى اورياضي لان تجريدها يلغي على الفور طابعها التاريخي ويخرجها من نطاق التاريخ الى نطاق الدراسات الاجتماعية التي تنظر في الحاضر والمستقبل . لا كليات ولا تجريد في التاريخ .

ARCHIVE

الذاتية في التاريخ :

والعلم يرفض « الذاتي » . الاحكام الشخصية في العلم هي اشبه بمحرمات الدين . كهان التقاليد العلمية ما ان يلاحظوا ظل الذاتية في عمل علمي حتى تثور ثائرتهم بالطبول والعصي ، ويطردوا هذه المادة الحرام المسكرة خارج الابواب ويكسروا معها الدنان . والتاريخ كله لحسن حظه او لسوئه ــ يقوم على « الذاتي » . الذاتية قائمة في جذور التاريخ لانه في تكوينه ليس الا علم « الانسان » .

« واذا تذكرنا هذا الطابع للمعرفة التاريخية سهل علينا ان نميز الموضوعية التاريخية عن الموضوعية التي ينتحيها العلم الطبيعي . لقد وصف ماكس بلانك وهو عالم طبيعي عظيم كل عملية الفكر العلمي بانها جهد مستمر لنزع كل العناصر « الانثروبولوجية » واقصائها . . . اى علينا ان ننسى الانسان لندرس الطبيعة ولنستكشف القوانين الطبيعية ونصوغها وما يزال العنصر الانثروبوفورمي في تطور الفكر العلمي يضطر الى التراجع للمؤخرة تدريجيا الى ان يختفي في النهاية من المبنى الكامل المثالي للطبيعيات . اما التاريخ فيمضي في اتجاه مختلف . انه لا يستطيع ان يعيش ويتنفس الا في العالم الانساني . فهو ، كالفن واللغة ، انثروبوفورمي في اساسه . فاذا طمست معالمه الانسانية حطمت فيه شخصيته وطبيعته الخاصتين به . الا ان الانثروبوفورمية في الفكر التاريخي ليست قصورا او عقبة في طريق صدقه الموضوعي . لان التاريخ ليس معرفة الحقائق والاحداث الخارجة وانما هو صورة من المعرفة الذاتية واذا اردت ان اعرف نفسي لم استطع ان احاول الابتعاد عنها اى ان اتجاوز مدى ظلي بل علي ان اختار السبيل المضاد . ففي

---

(٣٦) هو عنوان كتاب داردیل : L'historie science du concret.

التاريخ يعود الانسان دوما الى نفسه (٣٧) ... » بعكس العلم الطبيعي الذى هو خروج مستمر من الذات ..) .

وقد اشار كاسيرر صاحب هذه الفقرةالسابقة الى ملاحظة دقيقة هامة تقوم في جذور الذاتية في التاريخ هي « ان الذات التاريخيةليست ذاتا فردية . هي انثروبوفورمية . لكنها لا تتمركز حول « الانا » . واذا اخترنا تعبيرا فيهصورة التناقض قلنا ان التاريخ يجهد وراء انثروبوفورمية موضوعية » . وحين يعرفناالتاريخ ان الوجود الانساني متعدد الاشكال (بوليفورمي) يحررنا من اهواء اللحظة المفردةالخاصة ونزواتها . فغاية المعرفة التاريخية اذن هي هذا الاثراء والتوسيع للذات ، للأنا العارفةالمحسة ، لا طمسها وازالتها .. » (٣٨) .

ونستطيع ان ننسى موقتا من جهة هذاالتصعيد الذى يحول به**كاسيرر** الذاتية التاريخية الى « انثروبوفورمية » كما نستطيع ، من جهةاخرى، ان ننسى بالمقابل الى حين ، ذلك « التحامل السخيف على المعرفة الذاتية الذىيجعلها دون مستوى المعرفة الموضوعية .. باعتبار ان كلمة ذاتي ايضا الحكم المبنى على الاعتباراتالشخصية على التصور الشخصي .. ومن هنا فهو غير صحيح او على الاقل متحيز (٣٩) .. نستطيع ان ننسى هذا الحكم وذلك ، لنقرر ان ذاتية المعرفة التاريخية ليست نقصا فيها ولعلهابالعكس من ميزاتها . وهي تأتي من منبعين :

اولا : ذاتية المصدر : فالشهادة الشخصيةالتي يحويها المصدر او النص التاريخي هي حقل من مشاعر لا متناهيةالتعقيد تتداخل فيها مجموعةمتشابكة غائمة او واضحة من العلل والمعلولات والاهواء . والوثيقة (وهي بدورها شهادة) اوالاثر قد يشكلان احيانا ركيزة موضوعية من الدرجة الاولى ولكن من ذا الذى يستطيع ان يقطع انهما التعبير الوحيد ، او الكاشف الاحسن عن الماضي الذى تخلفا عنه ؟ ان صدفة بقائهما لاتعني انهما الحقيقة الموضوعية التي لا حقيقة تناقضها في عصرها نفسه ، ولا تعني انهما لاتمثلان اذواق او مصالح او ثقافة او علاقة الاشخاص المحدودين الذين تتعلق بهم الوثيقة اوالاثر في ذلك المجتمع القديم .. ولا تعنى اخيرا ان ما يستخلص منهما هو الحقيقة الموضوعية الاكيدةوالنهائية .. واللاذاتية ايضا . كل شهادة انما هي انتقاء واع او غير واع للحقيقة . وهي انتقائيةبالضرورة لانه لم يثبت حتى الآن ان مشاهدا تاريخيا واحدا استطاع ان ينقل الحقيقة الكاملة. ولم يتبين حتى الآن تطابق كامل واحد لشهادتين. ذاتية النص التاريخي كمصدر اشبه بالظلالملازم لا فكاك منها . فان كانت في نظر العلميين « لعنة » فانها « اللعنة » الأبدية التي لا بد من قبولها على علاتها والى الأبد ...

ثانيا : ذاتية المؤرخ نفسه فاذا كان حقيقيا ان التاريخ غير منفصل عن المؤرخ « فانه من الصحيح ايضا « انا لا نستطيع الا عن طريق تمييز شكلي ان نعزل الموضوع وهو الماضي في جانب ، وصائغه ، وهو المؤرخ في جانبآخر (٤٠) . ذلك ان احدهما لا يتحقق وجوده الا

(٣٧) انظر كاسيرر ـ مقال في الحضارة الانسانية(الترجمة العربية) ص ٢٢٢ .

(٣٨) المصدر السابق ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٣٩) انظر لو تشالك ـ كيف نفهم التاريخ ص ٥٧(الترجمة العربية) .

(٤٠) Marrou : De la connaissance His. P. 37.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالآخر . وبالرغم ان الماضي قد وجد ولو لم يكتب احد عنه او يسجله فانه لا وجود له كمعرفة الا من خلال المؤرخ الذى يصوغه . ولا عمل للمؤرخ ، ان لم يكن ثمة ماض محدد يفتح له ، مثل مغارة علي بابا ، مغاليقه . ليس ثمة وجود منفصل مستقل للماضي الا من خلال وفي اطار النص التاريخي او الاثر ، وهما بدورهما من عمل المؤرخ نفسه .

وقد حاولت مدرسة « الوثائق » ان تطرد « الذاتية » خارج الابواب من طريق التقيد بالنصوص والوثائق فقط لكنها سرعان ما فشلت لانه من المضحك والسقيم حقا اعتبار التاريخ مجرد فعالية فكرية سجينة في وعاء الوثيقة اودهليز النص كالخفافيش ومن حقنا ان نسخر مع كولنجوود من هذا « التاريخ المعمول بالمقص واناء الغراء » ومن « هذه المعرفة التاريخية المصنوعة من قبل والتي ليس فيها سوى الابتلاع ثم القيء .. (٤١) .

واذا كان عمل التاريخ اوسع بكثير من حدود الوثيقة والنص بشموله كل الماضي بما فيه ، فهما واعادة تكوين ، فان هذه الشمولية نفسها تفرض على المؤرخ موقف الانتقاء الذاتي للاحداث خلال ذلك الماضي . انها تفرض عليه وضع سلم للاهمية النسبية بينها . واختيار « الحادث » المعبر . الناس كل الناس متفقون ان معركة الزاب جرت سنة ١٣٢ هـ ، فانتهت بها الدولة الاموية ولكن هل كانت هذه المعركة هي السبب في سقوط تلك الدولة ووثوب العباسيين على الخلافة خمسة قرون بعد ذلك . والناس كل الناس متفقون ان الرشيد توفي سنة ١٩٣ هـ ولكن هل كان هو المتوفي الوحيد تلك السنة ؟ وهل كانت الوفيات هي الاحداث الوحيدة فيها .. لقد وقع سواء في سقوط الامويين او في سنة ١٩٣ هـ من الامور الاخرى ما يحتاج تسجيله الدقيق « الى ما لا نهاية له من الكلمات والكتب والمكتبات » ولا بد اذن من الاختيار « لمعنى الاتفاق ليس فقط على وجود الواقعة (التاريخية) بل ايضا على اهميتها . » ولما كنا لا نقدر على الاحتفاظ بكل شيء ولا بد من التخلص من خضم الوقائع اللامتناهي بواسطة حكم على اهميتها النسبية فيما بعد ، فان تقرير الاهمية (هو من عمل المؤرخ) ويدخل العمل التاريخي من جديد فيما يحاول اجتنابه واستبعاده ولا مفر من ذلك . والاهمية هنا ذاتية خالصة .. (٤٢) .

وهكذا فان ذاتية النص التاريخي او الاثر كمصادر للتاريخ تقابلها ذاتية اخرى يقوم بها المؤرخ بدوره من خلال انتقائيته المقصودة او غير المقصودة ، ومن خلال مصالحه ومعتقداته وقيمه ومعارفه .. وعملية التاريخ معلقة بين هاتين الذاتيتين على الاقل . واذا كانت الموضوعية تعني الخروج الذاتي من الموضوع والحياد المطلق تجاهه والنظر اليه من خارج فان هذا النوع من الموضوعية غير ممكن التطبيق في التاريخ لان اساس النظر اليه انما هو من داخل ، ومن خلال الذات . ويتدخل ها هنا بعد ذلك المنظور الوجودى للمؤرخ ، تتدخل تقديراته الفكرية ، لتزيد في شأن حادث او ناحية دون اخرى وتبرز قيمة نص دون آخر . كما تتدخل سعة ثقافته وعمقها لتكشف هذا الامر او تعقد هذا التحليل او تلك المقارنة او تتنبه الى عامل دون ثان . ثم تاتي ميوله الفكرية والسياسية فللماركسي تفسيره وللديني جوه ، وللملكي راى لا يتفق مع

(٤١) Collingwood, Idea of History, pp. 246, 257.

(٤٢) Valéry P. — Variétés (Vol. IV) P. 128-129.

الجمهوري ، ويستخرج الليبرالي من الافكار والدلائل ما لا يستخرج الاشتراكي .. وليس في العلم موقف ماركسي او شيعي او لاهوتي او برجوازي .. فان بريء المؤرخ من كل اولئك وكان القمة في الموهبة وسعة الثقافة واللاميول .. افليس هو ابن عصره ! ونأتي ها هنا نظرية **كروتشه** لتكشف ان « كل تاريخ انما هو تاريخ الحاضر (٤٣) او على الاقل كما قال Ch. Beard « ان تاريخا مكتوبا لا معدى له من ان يعكس فكرمؤلفه في اطار زمانه ومحيطه الثقافي (٤٤) وهكذا فان « حياة حقائق الماضي ومعناها لا تستنبط من المراسيم والنقوش او غيرها من مخلفات الماضي وان مصدرها جميعا هو شخصيته نفسه .. (٤٥) ولنكشف امام هذا الحياد المستحيل سذاجة الفكرة التي دفعت اللورد **آكتون** الى ان يسجل بين تعليماته الى المساهمين في سفر (تاريخ كمبردج الحديث Cambridge Modern History هذه التوصية « ان تكتب كما لو انك كنت قائما على خط الطول ٣٠ غربا » .. اى في وسط المحيط الاطلسي ، في عزلة اجتماعية كاملة من كل شيء (٤٦) ... مثل هذه العزلة النظرية موقف لا يمكن للمؤرخ تحقيقه لأنه حتى في وسط المحيط انما يكتب من خلال الشهادة الذاتية للآخرين من جهة ومن خلال ذاته من جهة اخرى . الحياد ، الانفصال عن موضوع المعرفة ، المراقبة « للحدث » من عل كما لو كنا نطل من قبة الفلك قد يكون بامكان الفيزيائي او رجل البيولوجيا او الاقتصاد الاحصائي تحقيقه .. اما المؤرخ فان انفصاله نفسه يعني الغاء موضوعه .

« وعبثا ـ **كما يقول فاليري** ـ ينمو المجهود ، وتتنوع المناهج ، ويتسع ميدان الدراسة او يضيق ، وتدرس الامور بنظرة عالية جدا او ينفذ المرء الى نسيج العصر الدقيق ، ويستقصي الوثائق المحفوظة عند الاشخاص ، والاوراق البالية عند الاسر ، والشئون الخاصة وصحف العصر والقرارات المحلية .. فهذه التوسعات المتعددة لا تتلاقى ابدا ولا تنتهي عند فكرة واحدة تفضي اليها بل ينتهي كل منها الى طبيعة مؤلفيها واخلاقهم ولا ينتج عنها ابدا سوى نتيجة بينة واحدة هي استحالة فصل المشاهد عن المشاهد والتاريخ عن المؤرخ .. » (٤٧) . جميل جدا ان نضع مبدأ « الحياد » المطلق هدفا للمؤرخ ولقد تكون الموضوعية صحيحة من حيث المبدأ ، ضرورية جدا من حيث استهداف الحقيقة ولكنها تتعثر فورا عند اول خطوات التطبيق العملي . وفرق كبير بين ما هو كائن وما تتمنى ان يكون . ان النقلة بين الحدين هي التي تورط العديد من المنظرين لمناهج التاريخ في الخطأ .

ولعلنا نستطيع ان نضع لمحبي الصيغ الرياضية ، صيغة تربط ما بين الذاتية والموضوعية في التاريخ في العلاقة المبسطة التالية :

$$ح = \frac{ت}{ش + م}$$

حيث ح ـ الحقيقة التاريخية ، و ت ـ التاريخ المكتوب ، و ش هي الشهادة او الاثر و م هو

---

(٤٣) Croce, contribution (trad. fran. Paris 1949) p. 100.

(٤٤) انظر جونسون ـ تدريس التاريخ ص ٣٢ .

(٤٥) Gentile, G., Philosophy and History p. 104.

(٤٦) انظر لو تشالك ـ كيف نفهم التاريخ ص ٢١١ نقلا عن : محاضرات في التاريخ الحديث .
Lectures on Modern History, (London, 1906) p. 318.

(٤٧) Valéry P., Variétés (Vol. IV) p. 128.

المعادل الشخصي للمؤرخ . وكما ان الشهادة قدتتعدد لدى المؤرخ (بشكل نصوص عديدة وآثار متنوعة ، متفاوتة القيمة من الناحية الموضوعية)كذلك فان المعادل الشخصي متعدد العناصر : فيه العديد من العواطف (ع) المتفاوتة الحدة (ونرمزللحدة بالاس او القوة) وفيه العديد من المواهب (م) التي تتفاوت في القوة وفيه الثقافة (ق)المتفاوتة ايضـا والتي تتضـمن تمثيل المعاصرة (ولهذا تختلف في الاس او القوة) مما يجعل المقام في العلاقة الماضية على الصيغة التالية :

$$\text{ح} = \frac{\text{ت}}{\text{س ش}^2 + \text{س ع}^2 + \text{س م}^2 + \text{س ق}^2}$$

حيث ترمز س الى عدد الشهادات او العواطف . . الخ وحيث يمكن للاس التربيعي ان يتقدم احيانا وان يصبح من الدرجة الثالثة او السادسة . . . او ان يلغى . . .

ونتيجة لهذا كله فان المناهـج العلمية اذاكانت تسير بالمتعدد الى التوحد ، وبالمحسوس الى التجريد ، فان التاريـخ بالعكس يسـير ،بالضرورة الى التعدد والى المزيد من التفاصيل المادية والمعنوية ودقائق المحسوس من الاحداث،وهكذا اذن تتعدد التواريخ بتعدد المؤرخين وبتعدد مناحي الفكـر الذاتي . وهذا ما يضـيف بعداجديدا الى الابعاد التي تفصل ما بين « العلمية » الرسمية ، وعلمية التاريخ .

سارت مشرقة وسرت مغـربا شـتان بين مشرق ومغـرب !

ARCHIVE

ليس من احد المؤرخين او في غيرهم يعتبر التاريخ مجرد نسخ حرفي لاقوال الآخرين ، كما ليس من احد يقبل ان يكون التاريخ مجرد سنوات ولادة ووفاة وحروب متفق على موعدها واسمائها . هموم المؤرخين مرتبطة دوما بالتعدد ، موصولة دوما بالمزيد من الجزئي والفردي ، هاربة ابدا من التجريد لانه يقطع فورا ما بينهـا وبين منبعها الحي في الواقع ، وذلك شرط اساسي في الادراك التاريخي .

السببية في التاريخ :

المنهجية في العلـوم تقضـي بعد ادراك « الحدث » بادخاله في حدود المعقولية . بجعله منطقي الحدوث ، قابلا للادراك والفهم والتوازن الفكري ولتطبيق حيل العقـل عليه . ذلك هو الاساس في ما سمومنذ اكثر من قرنين «السيطرة على الطبيعة » عن طريق فهم قوانينها . ولعلنا ننكر الواقع ان قلنا ان المؤرخين لا يبذلون اقصى ما لديهم من قوى الفكر لاخضـاع التاريـخ الى المعقولية . والتقاط منطقـه الناظم للاحداث . الغزو في هذا الميدان مستمر ، لم يهدا منذ ظهر التحدي العلمي . . ولكن اين وصل ؟ واين يمكن ان يصل ؟

ان المعقولية في التاريخ هي بالضرورة اكثر تواضـعا من معقـولية الحدث الطبيعـي . لان الحقيقة هنـا غير الحقيقـة هنـاك في النوعية . الحقيقة العقلية في التاريخ ليست تتصل بالتأكيد الرياضـي العقلي ولا بالحتميـة التجريبيـة من فيزيائية وكيماوية . . حيث تجرى المعقولية في حدود المنطق الارسطي ، واللاتناقض والسـببية المباشرة ومبدأ العلاقة الحتمية . اما في التاريخ فليست المعقولية على الاطلاق اكثر من الاحتمال العقلي للحدث ، وان لا يكون ثمة من سبب كاف

لرفضه او انكاره (٤٨) . فكانها هي ما يسميه **البراجماتيون** : « الكفاية العملية A practical satisfactoriness هذا المبدا الاساسي من نظرية التاريخ قد اتضح تماما منذ **ليبنتز** الذى اشار اليه حتى **ريمون آرون** الذى كتب : « ان كيفية الاحكام التاريخية هي الامكان » (٤٩) . . والاحتمال الذى لا علاقة له لا بالاستنتاج الرياضي ولا بالتجربة المادية .

ويمكننا ان ننقل القضية الى مستوى آخر نرى فيها قضية السببية في التاريخ : فهي الوجه الآخر التقليدى لعملية « تعقيل » التاريخ وربطه المنطقي سببا بحدث ، وواقعة باخرى . وعملية التاريخ العملية ليست في الواقع شيئا آخر سوى تفسير المجهول بالمعلوم وتعليل الحدث بما يوازيه من الاسباب وبما يمكن ان يكون منطقيا دافعا من دوافعه وعنصرا من مكوناته . هي كشف النسيج الذى يكون ماضي الانسان في دوافعه وروابطه .

واذا كان جمع المادة التاريخية هو الخطوة الأولى في العمل التاريخى فان التعليل المنطقى هو الخطوة الحاسمة والاخيرة في كتابة التاريخ » (٥٠) . سرد الاحداث واحدة بعد اخرى مهما بلغ من الدقة والموضوعية ليس اكثر من تقويم كرونولوجي ولا يعتبر ، في نظر المؤرخين ، اكثر من نصف العملية التاريخية التي لا تكتمل الا بادخال المعقولية والروابط المنطقية بين حدودها . والسببية في التاريخ هي اليوم مظلته العلمية . هي الركن الاساسي ان لم نقل الوحيد الذى يقيم عليها موضوعيته ودعواه للحاق بالعلوم . ندر في المؤرخين الآن من يفتش عن الغائية الاولى ، او يبحث عن الاخلاق والعبرة او يلاحق الامتاع الادبي . ان التاريخ محصور الهم الآن في « فقه الماضي » في فهمه ودراسة الاسباب والنتائج والروابط في الاحداث بعضها مع بعض . ان عمله هو التحليل المستمر افقيا وعموديا .

لقد وضعت في المتاحف منذ زمن طويل تلك المغالطة القديمة التي كان يعبر عنها بالعبارة اللاتينية Post Hoc, ergo propter hoc اى جاء هذا الامر بعقب ذاك اذن جاء بسببه . ان توالي الوحدات الزمنية (من ايام وسنين) ليس يعطي الاحداث التاريخية اكثر من التوالي الكرونولوجي . انه اشبه بالترتيب الابجدى ـ على حد قول فاليرى ـ فاما العلية والسببية الحقيقية ما بين سابق ولاحق فيجب ان نفتش عنها في مستويات اخرى تذهب عمقا وجذورا وحجما الى ابعاد قد لا تخطر للوهلة الاولى في بال .

ومسلمة السببية في التاريخ تستند الى مسلمة سابقة عامة ، تقرر ان مسيرة الحياة (والبشرية جزء منها) تخضع لنظام شامل يربط بين الاجزاء ويقود النوع الانساني (كما يقود غيره) وان بامكان العقل البشرى ان يصيب بعض التوفيق في محاولة الكشف عن علل الحوادث وترابطها .

واذا كانت كلمة « سبب » (وهي الكلمة التي تقف الى جانبها كنتيجة لها كلمة الحتمية) كثيرة الاستعمال بصيغة المفرد في العلوم الطبيعية فيبدو اننا لا نستطيع ، في التاريخ ، ان نستعملها الا بصيغة الجمع . ليس ثمة من « سبب » مفرد لاى واقعة تاريخية مهما صغرت . ثمة دوما اسباب وعلل وعوامل ودوافع وبنى وتراكيب والكثير منها يعمل على طريقة كرات « البلياردو » من

---

(٤٨) انظر مارو ـ من المعرفة التاريخية ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٤٩) انظر : Aron, R. — Introduction à la Phil. de l'His. p. 196

(٥٠) انظر Carr. E. H. : What is history p. 86.

طريق التأثير المثلث او المربع عبر عدد من التأثيرات السابقة .. « ومنذ أمد قصير ، اعلنت مجموعة من المؤرخين الامريكيين في مجموعة رسمية من المقترحات للحكومة .. ان مصطلح « سبب » حسبما يستعمله المؤرخون يجب ان يعتبر مجازالغويا ملائما لوصف الدوافع والتأثيرات والقوى وتداخلات سابقة اخرى لا تزال غير مفهومة تماما . ويمكن تعريفه كأي حادثة سابقة تجري فيما هو مفترض ان يكون مركبا نتائجيا متشابكا . ويترتب على هذا التعريف ان اي سبب لا يعمل مطلقا الا كجزء من مركب او سلسلة » (٥١) .

ويدهي ان الاسباب في التاريخ تتفاوت حجما وتوترا وحدة وعدداً . والعوامل المحركة الكبرى ليست دوما محركة ولا كبرى وبعضهاانما يستمد قوته من الظروف التي احاطت به ، ولو جاء في ظروف اخرى لكانت فاعليته الى الخمود وربما الى الانعدام . وهكذا فليس من الضروري ان تكون العوامل المحركة في التاريخ دوما عوامل ضخمة او متعلقة بعدد كبير من الناس او بمشاعر ايمانية شاملة او مواقف مصيرية ولعل العكس احيانا هو الصحيح . ان زلة لسان او كبوة فرس او عضة قرد او تأخر قائد في النوم اومرض عالم لها ـ عند التقائها ببعض الظروف والعوامل ـ ما للعوامل الكبرى من الاثر في انعطاف التاريخ ليس من الضروري ان تفتش عن صراع الطبقات ، او ظهور البطل او انبثاق الافكار الايمانية لتجد « محركات » واسباب بعض وقائع التاريخ التي تدور .. لمجرد لحظة جنون ، ثم تأتي مركبة الاسباب الاخرى على الاثر .. اليس هذا ما يسمونه بالاصطلاح التقليدي بالاسباب المباشرة وغير المباشرة ؟

وهكذا فالسببية في التاريخ هي في الواقع محاولة الكشف لا عن « السبب ولكن عن تلك المجموعة المركبة من الاسباب والعوامل الكامنة في كل حدث . وقد دخل مفهوم السببية في السرد التاريخي بشكل اصبحت كتابة التاريخ بدونه مجرد فهرسة او تخطيط زمني للسنين » (٥٢) . ارتبطت في الواقع ، علمية التاريخ الى حد كبير بهذه المحاولة الفكرية لتلمس الاسباب . ومع ان المؤرخين قد حققوا ـ فيما يبدو ـ جانبا من النجاح في هذا الميدان فانه من الواجب ان نعترف ان مشكلة السبب التاريخي ما زالت في جوهرها دون حل . واهم مشاكلها ليس الغموض فحسب وتركيز بعض المؤرخين على اسباب دون اخرى ولكن ايضا تحديد الفترة الزمنية التي يجب ان نفتش فيها عن الاسباب والبنى المتشابكة للاحداث اللاحقة ثم معرفة العوامل الثابتة والمتحولة في كل حدث : عددا ونوعا واثرا (٥٣) .. مع الاخذ بعين الاعتبار ان بحث العلل الاولى هو مشكلة غيبية تخرجنا من ميدان التاريخ الى رحاب الميتافيزيك . واذا كانت عملية التاريخ مرتبطة بخطين من الاعمال : كيف حدث ؟ (الوصف) ولماذا حدث ؟ (التعليل) فقد يكون الجواب على (كيف ؟) حتى بالشكل الدقيق المنطقي اسهل بكثير من الجواب على الـ (لماذا ؟) التعليلية . واذا كانت (كيف ؟) قد تجر الى السؤال عن اي الطرق وباي الوسائل وضمن اي الظروف من اجتماعية او طبيعية او دينية او نفسية ، تم ذلك الحادث المركب الذي تحقق في وقت ما وفي

(٥١) انظر غو تشالك ـ كيف نفهم التاريخ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ (الترجمة العربية) .

(٥٢) المصدر نفسه ص ٢٥٦ .

(٥٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

مكان ما من التاريخ فان مشكلة الـ (لماذا ؟) ترتبط بعملية غوص بعيدة الاغوار عن العوامل السيكولوجية والاقتصادية والجغرافية والمناخية والفكرية والاجتماعية التي اثرت في تكوينه واخراجه على الشكل الذي خرج فيه. وقد اقترح **غوتشالك** الاقلال من استعمال كلمة سبب واسباب لدى المؤرخين والاتجاه الى كلمات اكثر دقة .. بل اكثر دقة لأن كلمة الاسباب قد توحي بالسببية المباشرة بينما يتصل بتكوين الحدث التاريخي دوافع واهداف ومناسبات وسوابق ووسائل قريبة وبعيدة لا تكاد تحصى معرفة .

ونصل اخيرا في مجال بحث السببية التاريخية الى مشكلة هامة تقطع الطريق على الاسباب المعقولة هي مشكلة الاحتمال والصدفة . المؤرخون يلاحظون احيانا ان ثمة امورا وحوادث في التاريخ تتأبى على « المعقولية » . وتسير في ماوراء السببية التي نفهم ونصطنع .. فكأن المعقولية ليست وحدها التي تحكم قوانين التاريخ ومسيرته ... بلى ! ثمة في حدود ما نعرف من احداثه وعوامله عنصر من العبث absurd واللامعقول ليس له اى معنى ولا اى تفسير او غاية ، ولكنه مع ذلك واقع تاريخي قائم . يقول المؤرخ فيشر : « لقد حرمت من لذة فكرية هي انني لا افطن الى ما فطن اليه من هم اكثر مني علما وحكمة ، اذ يرون في التاريخ حكمة مرسومة محبوكة وايقاعا منظوما وقدرا محتوما للوقائع ، سابق التقدير .. انني لا ارى الا مفاجأة تتلوها مفاجأة كموجة تلاحق موجة » .

ولا تعني اللامعقولية في بعض التاريخ المضاد للعقل او مناف له . انها لا تعني اكثر من أن مظاهر الوجود الانساني كما تتجلى في التاريخ تحتاج الى نظرية اشمل من النظام العقلي التقليدي لاستيعاب حدوده ، كل الحدود . وابرز ما يتجلى العبث واللامعقولية في هذا العنصر الذي نسميه في الاصطلاح الدارج « بالصدفة » او الاحتمالات . والصدف في التاريخ ـ كما في حياة الافراد العادية ـ ليس اكثر منها . المؤرخ **فاندرياس** وضع كتابا حول قضية الاحتمال والصدفة في التاريخ (٥٤) . ودرس فيه ، بين ما درس ، حملة نابليون على مصر وكشف بشكل واضح غرابة بعض المواقف ودور الصدفة في ذهاب **نابليون** وعودته في البحر ، وفي كارثة ابي قير البحرية (٥٥) .. ويمكن ان نأتي بألف مثل من كل تاريخ على « الصدفة » التي حولت مجاري التاريخ . ان نجاة صلاح الدين مثلا ثلاث مرات من خناجر الاسماعيلية التي لم تكن تخيب مرة واحدة مع غيره .. صدفة لو انها نجحت فماذا كان يتحول في التاريخ ؟ وهروب المتحالفين السلاجقة امام انطاكية سنة ١٠٩٧ دون حرب صدفة لو لم تقع فماذا كان يبقى من الحروب الصليبية ؟ ولو ان معاوية كان اقصر عمرا فمات في خلافة علي فاين كان يتجه التاريخ الاسلامي ؟ ويتحدثون بالنكتة التاريخية التي اطلقها **باسكال** حين قال : لو كان انف **كليوبطره** اقصر لتغير وجه العالم . ولكنها قد لا تكون مع ذلك مجرد نكتة او مبالغة . فان التاريخ مليء بالمفاجآت والصدف التي تغير سير الامور دوما ، ومن ذا الذي كان يستطيع ان يقدر مثلا في صيف سنة ١٩٢٠ ان عضة قرد مدلل في خريف تلك السنة لملك اليونان سوف تؤدي الى سلسلة من الحوادث المفجعة يموت فيها ربع مليون انسان . او من ذا الذي لا يرى الصدفة في نجاة عبدالرحمن الداخل من القتل والسهام تلاحقه وهو سابح في

---

(٥٤) Vendryes : De la Probabilité en histoire, 2 Vols. Paris 1958.

(٥٥) انظر المصدر السابق ج ١ ص ٣٦٤ وما بعد .

الماء ليكون منه ومن اولاده قسمة العالم الاسلامي . وقيام دولة الاندلس ؟ . . ان من الصعب جدا ان نقدر ماذا كان عليه تاريخ الشرق الاسلامي لولا صدفة انتصار الكمين الذى اقامه قطز للمغول فى عين جالوت ، وماذا كان عليه تاريخ فرنسا واوروبا لولا خوف اصحاب الفاتح على متاعيهم فى معركة بلاط الشهداء وتراجعهم لحمايته . . وبالمقابل فانا نعرف الى حد ما ماذا فعلت صدفة الحصول على القنبلة الذرية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية لا بعدها ، وصدفة وجود الجمل مع العرب ايام الفتوح ، ووجود القوس البعيدة المرمى فى ايدى السلاجقة . كما نعرف ماذا فعلت صدفة ابتكار ايقاد النار ، واستخدام العجلة من ثورة كوبرنيكية فى تاريخ الانسانية ؟ وماذا تفعل اليوم صدفة ابتكار الترانزستور سنة ١٩٤٨ لا سنة ١٩٧٢ . وابتكار نظرية النسبية فى مطلع هذا القرن لا وسط القرن الماضي . وصدفة مقتل ولي عهد النمسا سنة ١٩١٤ لا سنة ١٩١٥ او ١٩١٠ . وصدفة تأخر (غروشي) فى الوصول الى ميدان واترلو فى الوقت المناسب وهزيمة نابليون التي غيرت وجه التاريخ الاوروبي بعدذلك . . وصدفة اصابة الاسكندر المقدوني بالملاريا وموته المفاجىء وهو فى اروع الشباب وتمزق الامبراطورية من بعده . . الواقع اننا نحن مضطرون لان نعترف بأن فى مسيرة التاريخ (وبالتالي فيما يمكن ان تكون عليه قوانين التاريخ) جانبا واضحا متروكا للفعل الحر ، جانبا لا تحدد زمانه ومكانه وابعاده الاسباب التي تقع تحت معقوليتنا . وان افعال الانسان فى الماضي وان كانت تخضع الى حتمية معقدة الحدود ، فانها فى الوقت نفسه كانت تحوى عناصر من « حرية » التصرف ، تفاجئنا فى كثير من الاحيان اذا ما نحن استعنا على كشفها بهذا الحرف الصغير « لو » وبدانا التساؤل : « لو ان . . » . وبالرغم من انه ليس من التاريخ ان نبحث فى هذه « اللوات » التي تحمل معنى القلق (٥٦) ـ كما يقول فاليرى ـ والتى تضعنا فيما وراء التاريخ الا اننا لا نستطيع ان نمنع انفسنا ونحن فى اطار السببية الحتمية فيه ، من ان نضع مبدا الاحتمال فى موضعه من سلم العوامل والاسباب ، ومن ان نقرر ان ثمة امكانيات معقولة كثيرة فى عدد كبير جدا من الاحداث لم تحدث رغم معقوليتها . واحدة فقط حدثت بفعل الصدفة . احتمال واحد جرى وماتت الاحتمالات الباقية فكيف تقوم العلاقة السببية الحتمية ما بين الواقع وبين الاحتمال العبثي الرواغ ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان **فيفر** يكتب فى هذا الصدد : « ليس ثمة ضرورات حتمية ثمة دوما امكانيات فقط . والانسان باعتباره سيد امكانياته هو الحكم الذى يحدد استخدامها . . (٥٧) » .

وقد حلل الباحث الفرنسي **شولقين** (٥٨) مشكلة الصدفة فى التاريخ . ذكر الآراء فيها . قال : « ان العلم ومعظم الفلاسفة يرفضونها » . « ليس ثمة من صدفة . هناك ما يعادلها وهو جهلنا لاسباب الاحداث » ـ كما يقول دافيدهيوم ـ ولكن التاريخ هو الوحيد الذى يقبل بشكل واسع وجود الصدفة . ومن يرفض الصدفة ـ على حد قول ـ **ادوار ميير** Meyer

---

(٥٦) انظر فاليرى ـ خطبة فى التاريخ (ترجمة عبد الرحمن بدوى ـ فى « النقد التاريخي ») ص ٣٠٢ .

(٥٧) Febvre L. A Geographical introduction to History (London 1925) p. 236.

(٥٨) Choulguine, Alexandre : L'Histoire et la vie
Ch. IV, le hasard pp. 69-82 et Ch. IX le probleme des lois et du hasard pp. 187-207

او دور الارادة الانسانية فى التاريخ او يقلل من اهميتها يلغي منه كل خصبه ، كل ما يمثل النقطة الاساسية فى الدراسات التاريخية .. » ويذكر شولفين : بجانب الصدفة التي هي تعبير لفظي عن جهل الاسباب صدفا من نوع آخر : صدفة تقاطع وتالع مستقل بعضها عن بعض . والصدفة البسيطة العمياء كلعب الحظ دون اى قانون ودون اى سبب فى وقت واحد ... » كل ذلك يقع فى التاريخ .. وكثيرا ما تحرك الصدف القوانين الكبرى فيه ... ان وجود الصدفة غير قابل للانكار . حتى فى العلوم الطبيعية وفى علاقات المادة اليس من مكان لقانون الاحتمالات ؟ اليسوا يتحدثون عن الشذوذ عن القانون ؟

بلى قد لا تكون « الصدفة » نوعا من فوضى العلاقة . قد لا تكون ـ وهو الارجح ـ نوعا من الهوى العشوائى الاعمى لقوى غيبية عابثة ... ولقد تكون بالعكس هى الاسم المبهم الذى نطلقه على مجموعة تلك البنى التكوينية والاسباب والعوامل الدقيقة المعقدة الخفية التي نجهل والتي تجعل حدثا من الاحداث يقع كنتيجة منطقية لها بينما لا تقع فى الوقت ذاته او بدلا منه احداث اخرى من مثله ليست اقل منطقية ولا معقولية ولا قابلية للحدوث منه .. وهذا يعني أن « العبثية » قد تكون ظاهرية فقط ، وقد تكون اللامعقولية نسبية وعارضة تمتد بمقدار ما يدوم جهلنا لتلك العوامل والبنى المتشبكة والمتفاعلة وراء الحدث ، والتي لم تطلها حتى اليوم المقاييس والمناهج والمعارف المتوفرة فى ايدينا ... ولكنا حتى كشف تلك العوامل سنظل ، فى السببية التاريخية ، مضطرين لافساح مجال كبير جانبي .. لفاجات الصدف . وهو ما لا تقبل به العلوم ولا ترتضيه مبادىء السببية العلمية المترمتة . انه يقع خارج نطاقها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القانون فى التاريخ :

ونصل اخيرا الى مشكلة « القانون » فى التاريخ والناموس الشامل . ان نهاية المسيرة فى المنهج العلمي هو الوقوع على القانون ، على الصيغة الرياضية التي تحكم علاقات الاحداث وتسمح بالتحكم فيها وتكرارها . العلماء الطبيعيون منذ كشفوا بعض هذه القوانين ، شطح بهم الامل الى ان يتصوروا ان الطبيعة اضحت « لعبة » العالم .. رغم انهم لا يفقهون « سر » اللعبة . هوس الصيغ الرياضية بلغ قمته مثلا فى قوانين النسبية البالغة التجريد والتعقيد . على ان هذه القوانين نفسها ليست ـ فيما يبدو ـ اكثر من لعب اطفال امام تعقيد « قوانين » التاريخ التي نفترض وجودها عقليا من خلال آثارها ... ولسنا اكثر من فراش يحوم دون هدى كثير من حولها .

واذا كان « التفسير فى التاريخ هو الكشف ، الادراك ، التحليل لالف رباط يوحد بطريقة قد تكون غير قابلة للتعبير الرياضي أو اللغوى ، الوجوه الكثيرة للواقع الانساني (٥٩) » فان البحث يجب ان يتركز حول هذا « القانون » المفترض الذى يمكن ان يجمع فى حدوده الف رباط تعمل معا على تركيب « الواقع » الهاوى باستمرار فى هوة العدم والماضي ..

ان السؤال هنا يصبح ذا شقين : هل القانون فى التاريخ ممكن ؟ واذا كان ممكنا فما شروطه والحدود ؟

---

(٥٩) Marrou : De la connaissance his. p. 184

لعل الصيحة التي صاحها «ادوار شيني E. P. Cheyney في خطابه امام الاتحاد التاريخي في امريكا في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٣ والتي قال : « يجب ان تكون هناك قوانين للتاريخ » ، واحدة من آخر الصيحات التي اطلقها جيل العلميين من مؤرخي القرن الماضي ، مصرين فيها على دفع التاريخ الى حظيرة العلوم الطبيعية ولو بهدم شيء من « اسوار » العلوم او اقتطاع شيء من ابعاد التاريخ في الطول والعرض والثوابات .. لقد قوبل خطابه بالترحاب الشديد يومذاك ، وبالاعجاب والموافقة على القوانين التاريخية التي قدمها للناس .. فما هي تلك القوانين ؟ « ذكر شيني بكثير من التواضع ولكن بكثير من الشجاعة صيغ قوانين ستة سماها مجرد حدس او تخمين. القانونان الاول والثاني وهما قانونا الاستمرار والتعبير .. (ويتعلقان) بحقيقتين اساسيتين من حقائق مفهوم التطور . اما القوانين الاخرى فهي قانون التكافل ومعناه ان الامة تنهض او تضمحل كوحدة . وقانون الديمقراطية ومعناه ان ضبط حياة الجماعة يتجه نحو الديمقراطية وقانون حرية الاختيار ومعناه ان الضغط يولد الانفجار والكارثة . وقانون التقدم الخلقي ومعناه ان المؤثرات الخلقية تميل لأن تكون اقوى من المؤثرات المادية » (٦٠) .

والمستعرض لهذه « القوانين » سرعان مايلاحظ انها لا مجال للمقارنة بينها وبين القوانين العلمية ، حتى ولا تلك القوانين التي تترك الصيغ الرياضية الدقيقة لتكتفي بالنسب والارتباطات العامة . واذا كانت « القوانين الطبيعية » على اربعة ضروب : فمنها القوانين الكونية العامة ، ومنها القوانين الجزئية المتعلقة بزاوية من زوايا الطبيعة . ثم هناك القوانين المطلقة وهناك القوانين النسبية الاحتمالية .. فأي نوع من القوانين هي هذه « التعميمات » التاريخية التي تدفع بالجهد الارادي الى دنيا القوانين ؟ لقد زرع تاريخ « فلسفة التاريخ » زروعا بقوانين اعداد واشتات من مثل هذه التعميمات التي لا تكاد أحيانا تحقق ولا تفسر ملاحظة ولا تسمح بأي تنبؤ .. ولو من قبيل التنجيم ! منذ ابن خلدون مثلا الذي وضع ما يزيد على عشرة قوانين من هذا النوع قال فيها قبل خمسة قرون : بجدلية التاريخ وديناميكيته وقيام الدول ثم تماسكها بالعصبية . وان الاجتماع الانساني يتطور من البداوة الى الحضر في سنة طبيعية دائمة وان الدول كالبشر تولد وتنمو وتكبر ثم تضمحل وتموت . وان الحضارات تتعاقب عليها ثلاثة اطوار : بداوة ثم حضر ثم اضمحلال اقتصادي وخلقي . وان الاقليم والعوامل الجغرافية تؤثر في التاريخ وان العمران مرتبط بالاقتصاد واختلاف الاجيال انما باختلاف نحلتهم في المعاش وان . وان .. جاء بعد ابن خلدون كثيرون حاولوا وضع هذا النوع من القوانين ... منهم هيجل ومنهم ماركس ومنهم اللورد آكتون ومنهم .. ومنهم .. فهل هذه هي القوانين التي يبحث عنها التاريخ لتكون جواز مروره الى ارض « العلم » ؟

الواقع ان محاولة شيني « القانونية » والاعجاب الشديد بها لم يكونا نتيجة القناعة بالوصول اخيرا الى قوانين التاريخ ولكنهما كانا يعبران عن الحرقة البالغة لدى انصار التاريخ « العلمي » لأنهم ، في الحقيقة ، لم يستطيعوا الوصول الى اكثر من « التعميمات » التي لا تصل حتى الى درجة الكليات المقبولة .. انهم كانوا يتعلقون بأي طيف « للعلمية » قبل ان تغرق نظريتهم في موجة النقد العلمي والرفض .

---

(٦٠) جونسون ـ تدريس التاريخ (الترجمة العربية) ص ٣٥ .

والآن وقد اضحى العلماء والباحثون اكثر فاكثر اطلاعاً على دخائل الكائن البشرى وعلى ابعاد تاريخه وعلى عمق الآثار وتعقد المركبات التي يحملها ضمن اهابه من ذلك التاريخ ، فانهم قد امسوا اكثر تواضعا في طلب العلمية الموضوعية للتاريخ ، واكثر سعة فكرية في فهمها .. كما باتوا ايضا ، وفي الوقت نفسه ، اكثر يأسا من الوصول .. الى « الناموس » الاكبر الذى يحكم التاريخ .

ان امكان « القانون » ، او عدم امكانه ، يجب ان يفتش عنه في المقولات الاساسية التي تحكم المسيرة في التاريخ . ان سلسلة المقولات التي يستند اليها العالم الطبيعي للوصول الى القانون وتحقيق صيغته الرياضية وقوته في التنبؤ يمكن ان تختصر في الحدود التالية وكلها حدود سكونية:

المادة (الثابتة) ← العلية (كعلاقة) ← الكلية او القانون (كحتمية مجردة من الزمان والمكان) . اما سلسلة المقولات في التاريخ فمختلفة تمام الاختلاف وكلها حدود حركية :

الانسان (الدائم التحول بيولوجيا ونفسيا ومعرفة واجتماعيا ومعيشة) ← الزمان والمكان (المتبدلان) ← العلية (كعلاقة) ← الصيرورة (كحصيلة للتحولات) .

ان الحد الوحيد المشترك بين السلسلتين هو وجود العلاقة السببية ولا يمارى فيها احد من الباحثين . ولكن التشابه ينتهي عندها بعدئذ فالانسان ليس مادة فحسب ولكنه مادة حية وواعية وهو يتغير دون انقطاع لا من عصر لآخر ولكن من مكان لآخر ومن تكوين عرقي الى تكوين آخر ويتغير باستمرار بيولوجيا كما يتغير نفسيا ويتغير في المعرفة ونتائجها وفي البنى الاجتماعية والتكوينات الاقتصادية ، وتختلف آثار الزمان فيه وتأثيرات المكان في رواسب وردود فعل وارتكاسات ومواصفات لا تنتهي حدة ومدداولونا واستمرارا . ولعل فقر العلاقة الرياضية ، في العلوم الطبيعية ، وبساطة حدودها تبدى هنا عند المقارنة . . . فان العلم الطبيعي – بالمقابل – انما يتعامل مع مادة جامدة ثابتة الكم والحجم والوزن والصفات ، خارجة عن حدود الزمان والمكان ! . واذا شئنا ان نضيف بعض الايضاح قلنا :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أ – ان المعرفتين العلمية والتاريخية تنتميان في الواقع الى موضوعين مختلفين :

الطبيعة والانسان . وتتناول الاولى العلاقة الثابتة ، الكمية ، القابلة للتجلى بشكل قانون رياضي . بينما تتناول الثانية العلاقة المتحولة دوما اى تحليل التغير وضبط حدوده في الصيرورة .. ان **تحول** الانسان **وزمانية** التاريخ **ومكانيته هي** التي تمنع من الوصول الى قوانين انسانية **ثابتة لا زمانية ولا مكانية** .

ب – وليس في التاريخ ، الى هذا ، اطراد طويل الامد يصلح لتعميم القانون بالمعنى الرياضي الحتمي . تفرد الحادث التاريخي ، جدته المستمرة ، جزئيته كلها ترشحه لرفض القانون . بالشكل الذى يأخذه في علوم الطبيعة على الاقل . انها تلحق الوصول الى قانون ذى شكل آخر مختلف تمام الاختلاف ... لعل من المؤسف ان العلماء لم يصلوا بعد الى تطوير المقولات الاولية التي يمكن ان تحتوى كافة حدوده . لم يصلوا الى ان يضعوا فيه بديهية كبديهية اقليدس او مبدأ من نوع مبادىء ديكارت في المنهج . او مقولة في المنطق التاريخي من نوع مقولات ارسطو في المنطق .. علماء الطبيعة طوروا مع العصور وسائل وطرائق البحث ، واتفقوا على مبادىء وفرضيات اقاموا على اساسها العلوم الطبيعية ، ولعل تعقيد العلوم الاجتماعية الانسانية هو الذى منع من تطوير الوسائل المماثلة فيها ... ولعل من ضيق الفكر ان نحدد مفهوم العلم في اطار العلوم الطبيعية

ذات القوانين الرياضية ، وهي ليست اكثر من زمرة محدودة من المعارف الانسانية . ومن الظلم للتاريخ (والعلوم الاجتماعية الانسانية معه) ان نقسره على الخضوع لوسائل المعرفة المبسطة والحدود الرياضية السكونية التي نصطنعها للمادة الهامدة في تلك العلوم ... ليس هذا من نوع التحيز للفلسفة المثالية ضد الفلسفة الوضعية التي ترى ان « العلوم » وحدها هي مستودع المعرفة الانسانية الوحيد ... ولكنه نتيجة الضرورة في اقامة التوازن في الفكر الانساني ما بين مختلف الكشوف والمعارف التي وصل اليها حتى الآن ... وخاصة في عالم هذا « الانسان المجهول » والمعقد في وقت معا .

جـ ـ ثم ان « التاريخ الانساني في سيره يتأثر تأثرا قويا بنمو المعرفة الانسانية ... ولا يمكن لنا بالطرق العقلية او العلمية ان نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية .. واذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الانساني » (٦١) . ضمن قانون حتمي . وهذه الملاحظة الهامة التي لخص فيها بوبر بنفسه كل فكره حول « عقم المذهب التاريخي » يمكن لنا ان نعممها فنقول ان التاريخ يتأثر ايضا بتطور المجتمعات ، وتغير طرق المعيشة وتطور البنى النفسية للانسان بل وبتأثيرات التاريخ المكتسبة فيه .. فلا يمكن التنبؤ فيه بالمستقبل بشكل يقيني ولا شبه يقيني ما دامت المعطيات الاولى لتلك المتحولات المؤثرة فيها كقبض الريح ، تفر من بين الاصابع حتى الآن في اللجة الواسعة للحياة .. منذ مائة سنة اي في سنة ١٨٧٤ كانت شوارع اعظم المدن الاوروبية الراقية مملوءة بحيوانات البر ، وكانت السماء ملكا للطير وحده . وكانت الاجسام الصلبة العتمة صلبة وعتمة . وكان الساعات كلها سواسية امام الكون ، وكان المكان يتمتع بالتجانس واللانهائية . وقوانين نيوتن وغاليلو وديكارت هي اليقين العلمي الذي لا يقين بعده .. من ذا الذي كان بامكانه ان يتنبأ ، لو كتب التاريخ تلك السنة او من ذا الذي كان بامكانه ان يضع القانون الذي يعرف ولو على الظن والحدس او حتى الحلم البعيد (غير الروائي) ان الآلة سوف تطرد الانسان والحيوان من العمل ، وان الجو سيصبح للطائرات والصواريخ والاقمار والمركبات النازلة على القمر ، وان كل ما كان يطمئن اليه العلماء كحقائق ابدية من مفاهيم وقوانين في الزمان والمكان والطبيعة سوف تنسفه من جذوره مفاهيم اخرى تغير وجه التاريخ ؟

د ـ وفي التاريخ احتمالات وصدف تشكل ـ ضمن حدود المعرفة الانسانية الحالية ـ نوعا من اللامنطق ، ضمن منطقية السير الكوني له . انها تمد لسانها لكل قانون . واذا كان حساب الاحتمالات ممكنا في النطاق الرياضي والطبيعي فمثل هذا الحساب يتأبى ، حتى الآن ولعله سيظل طويلا على التأبي ـ على كل قانون .. على الاقل لكثرة ما يتصل به من حدود روائغة او مجهولة . ان كلمة « لو ان .. » كاشف كبير في التاريخ له مفعول السحر الفكري . انه على الاقل يكشف ان منطق « الحتمية » غير مطرد ابدا في التاريخ . يكشف ان سبل الاختيار لم تكن كلها مغلقة في الحدث التاريخي وان السبيل الذي سلكه ذلك الحدث لم يكن السبيل الوحيد . ان هذا وحده يكفي لايقاف اي « قانون » حتمي .. مشلولا وخارج التاريخ . من ذا الذي مثلا كان يستطيع ، حتى لو ملك جميع المعارف اللازمة لوضع القانون التاريخي ، ان يضع الصيغة التي تتنبأ بانهيار اليابان امام القنبلة الذرية سنة ١٩٤٥ لو ان عبقرية **اوبنهايمر** صانع هذه القنبلة تأخرت في

---

(٦١) انظر بوبر ـ عقم المذهب التاريخي (الترجمة العربية) ص ٥ ـ ٦ .

كشفها سنة او سنوات ؟ ومن ذا الذى كان يعرف ماذا سيكون عليه تاريخ اوروبا الحديث لو ان خنجر سليمان الحلبي اصاب نابليون فى مصر بدلا من كليبر ؟ ولو ان ام المعتصم التركية كانت ارمنية او فرنجية فماذا كانت عليه علاقة الترك بالخلافة العباسية ؟ ولو لم تفشل خناجر الاسماعيلية ثلاث مرات فى اصابة مقتل من صلاح الدين وهي التي لم تكن تفشل مرة فى مثل ذلك . فاين كانت حطين من التاريخ ؟

واذا كان لاثر « الافراد الابطال » فى التاريخ نظرية واسعة ، ومؤيدون كثيرون ليس **كارليل** باولهم ولا بآخرهم ، فان الاحتمالات المؤثرة فى التاريخ اضيق من ذلك بكثير .. لقد تكون لا حياة فرد ولكن مجرد تصرف صغير غير مسؤول من حيوان او مجرد صدفة ... وعندها : فاى قانون يمكن ان يحكم كل اولئك ؟

هـ ـ ان التاريخ لا يصل الى المعقولية (وبالتالي الى القانون) الا حين يصبح قادرا على الياتها بشكل يقيني ونهائي ، اى على كشف كافة الروابط التي تربط كل حدث من المصير الانساني بسابقيه وبنتائجه . والتاريخ ، فى حدود المتوفر من الوثائق والآثار والاخبار اليوم لا يشكل نسيجا كاملا للماضي الانساني كله . ان النقص فيه لا يشكل شروخا فقط فى ذلك النسيج ولكن لا يكاد يكون اكثر من مزق ورقع من الرداء الذى يلف الارض طيات بعد طيات . الكثير من مادة التاريخ ضاع الضياع الابدى ولو كان الامر يتعلق بالمادة الهامدة لكان من السهل ان يدل الجزء على الكل اما والامر متعلق بالمادة الحية الواعية التي هي الانسان فانه بكل تأكيد يصبح مختلفا جدا . واذا كان التتابع الزمني فى المادة يمكن ان يكشف عن العلية وحدود القانون . فانه حتى وضع السلاسل الزمنية الدقيقة للاحداث لا يشكل فى التاريخ اى كشف للنواميس المحركة . وما يحاوله بعض المؤرخين من وضع نظريات يبدو ان الوقائع تؤيدها ليس اكثر من محاولات مسكينة « ولو دققنا النظر فى هذه الوقائع لتبين لنا انها اختيرت فى ضوء النظريات عينها التي نريد اختبارها بها .. (٦٢) » .
ولا تكون النظرية التاريخية صحيحة ان وجدنا الوقائع التي تدعمها فقط ، ولكن ان عجزنا عن العثور على الوقائع التي تدحضها .. وهذا العجز لم يحدث بعد بالنسبة لاى نظرية .. ونحن فى كثير من الاحيان نستطيع ان نبرهن ان النظريات المستخرجة من حالات « التعاقب التاريخي » ليست اكثر من تعميمات تجريبية Empirique ومن الخطأ ان تخلط ما بينها وبين القانون بمعنى الناموس العام الحتمى الشامل ، بل ان «هيوم» الذى تحدى المدرسة التجريبية منذ قرنين يطل ها هنا براسه من جديد ، من خلال متشككي القرن العشرين الذين قد يرون معه ان التحليل السببي التاريخي ، فى نهاية الامر لم يكشف اكثر من ان امرا يحدث فى اعقاب آخر .. دون اى يقين فى السببية والقانون .

و ـ واخيرا فثمة ثلاث صعوبات كبرى تقف بين التاريخ وبين الوصول الى القانون ، وهي تقف فى الواقع ، عامة بين كل بحث اجتماعي وبين تقنينه فى صيغة رياضية او رمزية مجردة :

الاولى : صعوبة التعبير بالكمي عن الكيفي . ليس ثمة من وحدة قياس كمى او رقمى تقيس الظواهر والعلاقات التاريخية . لا وزن ، لا قياس ، لا كيلا للحجم . الابعاد والارقام تنتمي الى عالم

---

(٦٢) انظر بوبر ـ عقم المذهب التاريخي ص ١٣٩ .

آخر من المعرفة لا يمر بالتاريخ الا لماما . لقد نستطيع ان نحصي بعض اعداد الجيوش او السكان او عدد المدارس او الكتب ولكن كيف نعبر رقما او ابعادا عن معركة عين جالوت او مصرع كنيدي او نكبة البرامكة ؟ وهي وقائع ذات توتر نفسي وامتداد زمني واتصال بما لا ينتهي من الاسباب والعوامل المكونة والنتائج ؟

الثانية : صعوبة المزج في العمل التاريخي بين الدراسة الساكنة (ستاتيك) والحركية (ديناميك) في وقت معا . صعوبة بحث الواقعة التاريخية بحالتيها من عناصر الاستمرار وعوامل التغير في صيغة جدلية واحدة . ان بحث «الحدث» التاريخي سواء كان واقعة فردية او ظاهرة حضارية عملية تشريحية لحد كبير . واذا حددت الظروف المختلفة مكانه وزمانه وابعاده الا انه كظاهرة تاريخية انسانية يعبر التاريخ في العمق ويتحرك خلاله ويؤثر فيه ويتأثر باستمرار . بجانب دراسته في ذاته اذن هناك دراسة اخرى له في حالة التحرك والتفاعل والتطور المتمادي ، ونحن نقوم بالعملين معا دون أن ندرى احيانا . ولا يدق القانون المفترض ان يجمع بين جدلية الساكن والمتحرك ، بين الثابت المستمر والطارىء المحول في صيغة واحدة . ولقد يكون ذلك سهلا في العلوم الطبيعية المعروفة الحدود والتي نستطيع بسهولة في قوانينها ان نجعل بعض حدودها صفرا او ان نرسم لها الخط البياني المتحول . . اما في التاريخ فكيف تلغى الواقعة ؟ وكيف تصور الخطوط الذاهبة في كل الاتجاهات ؟

الثالثة : صعوبة التمييز بين الروابط السببية في وقائع التاريخ ، والعلاقات الوظيفية والبنائية . الترابط بين ظاهرتين في التاريخ توجدان معا وتتغيران التغير النسبي طردا او عكسا بحيث تصبح الواحدة شرطا للاخرى ليس يعني ان الاولى سبب الثانية ولا ان الثانية نتيجة للاولى . مثل هذا النوع من العلاقة قد يكون نتيجة الترابط الوظيفي ، او البنائي في تكوين الوقائع التاريخية وليست كذلك العلاقة السببية او العلية . ثمة مثلا ، علاقة العلة والمعلول بين الفقر وظهور الاوبئة والطواعين في بعض حقب التاريخ ، او بين التكاثر الديمغرافي والهجرات الفاتحة . اما علاقة انتشار الورق في العصر العباسي الثاني مع نمو الفكر وامتزاج الثقافات فعلاقة وظيفية . ومن مثل ذلك : العلاقة البنائية بين الهجرة الريفية الى المدن مع كثرة الزنج في جنوب العراق في اواسط القرن الثالث للهجرة . ان التغير التكنولوجي في الاولى وتبدل البناء الاجتماعي في الثانية قد اديا بين ما اديا اليه من امور كثيرة ، الى الخصب الفكري والى ثورة الزنج المدمرة . . دون علاقة العلة بالمعلول . لنسم ذلك بالاصطلاح الدارج المعروف : الاسباب المباشرة وغير المباشرة ان شئنا ، ولكن المواجهة المباشرة لها ولطبيعتها لا تسمح ببناء القوانين .

وهكذا لم يظهر حتى الآن اى قانون في التاريخ . لان « مشكلة السببية في الاصل ما زالت غير محلولة في جوهرها » (٦٣) . ما ظهر ليس اكثر من تعميمات ، اوسع ما تتناوله في المدى مجموعة تكثر او تقل من القرون . وفي المكان منطقة تتسع او تضيق من الارض . وفي الوان الحضارة والحياة لون واحد لا يزيد . . ومن ذلك نظرية بيوري حول التقدم ونظرية رينان في التغيير الديني، ونظرية ويبر Weber و Sombart حول اصل الراسمالية ونظرية ماركس في صراع

---

(٦٣) انظر غو تشالك ــ كيف نفهم التاريخ (الترجمة العربية) ص ٢٥٧ .

الطبقات ، وتوينبي حول دور التحدى والاستجابة في خلق الحضارات وتعميم اللورد آكتون بأن كل سلطة تفسد والسلطة المطلقة تفسد فسادا مطلقا. والاقوال الأخرى الشائعة من ان الظلم يولد الثورة وان الثورة اول ما تأكل اولادها ....

هذه التعميمات وامثالها وان كانت تتراوح ما بين درجة النظرية التي تحاول تفسير التاريخ كله وبين درجة الافكار التي تعكس بعض تجارب التاريخ ودروسه الا انها في كل الاحوال اشبه بمرحلة الحكمة من الفلسفة قد تحمل النظرة التجريبية الصائبة ولكنها لا تصل مستوى النظرية الفلسفية التي تحل مشكلة الكون ولا درجة القانون الذى ينتظم علاقات الوجود .. ولعل من الاصح أن نقول مع شولغين « انه بسبب وجود الارادة الانسانية (وغيرها ايضا) في الحدث التاريخي هذه الارادة التي قد تتعارض نظريا مع وجود قواعد ثابتة ، أو مع خلق قواعد جديدة فانه لا يمكن من حيث المبدا ان تكون القوانين في حياة الناس قوانين مطلقة ثابتة ... » بل ان « قوانين » التاريخ او ما ندعوه بالقوانين هي امور موجودة ولكنها تنتمي الى طبقة قوانين الاحتمالات ولا يمكن لها ان تكون نظرية ــ كالقوانين الرياضية او الفلكية او الميكانيكية ــ ولا يمكن لها خاصة ان تكون مطلقة ... (٦٤) » .

وقليلة جدا هي تلك الفرضيات العظيمة في التاريخ (كنظرية صراع الطبقات ، ونظرية التحدى .. وغيرها) التي تعدل في القيمة والشمول تلك النظريات الكبرى في علوم الطبيعة (ابتكار الجبر على يد **الخوارزمي** . تطبيق الرياضيات في الفلك على يد **جاليليو** . نظرية حركة البخار ، النظرية الكهرطيسية للضوء ، النسبية) . ومع ان هذه الفرضيات المشابهة للقوانين تسهل عمل المؤرخ بجمعها آلاف الدقائق والوقائع المتناثرة وباشاءتها الدائمة زوايا مغلقة عتمة من الحقائق ، الا انها تتحجر وتفقد دفقها الخلاق احيانا على يد انصارها انفسهم . تصبح مع التعصب آلة « دوغمائية » جامدة للدرجة التي تعمى معها من وجهات نظر اخرى لا تقل عنها واقعية وصحة ، وتتوهم وجود « بنى » اجتماعية وتاريخية وعوامل ونتائج ما ان لها من وجود ، وذلك لمجرد ان النظرية فقط تفترض وجودها ، وان المنظور الفكرى لا يتم وينطبق الا بذلك الافتراض . ولعل هذا ما دفع الكثير من المؤرخين الى التحرر من الارتباط بأى نظرية او قانون والاكتفاء من صياغة « النواميس » او متابعتها بالشرح والتفسير الجزئي طبقا لمعطيات كل واقعة على حدة (٦٥) . بل ان الكثيرين اليوم يدعون الى الغاء فلسفة التاريخ ويتجنبون الوصول الى نتائج عامة تستخلص من التجارب التاريخية ويرفضون الاعتراف بوجود قوانين موضوعية تحكم التطور الاجتماعي من امثال **مورتون وايت** استاذ الفلسفة في هارفارد ، وممثل البراغماتية الحديثة الذى

---

(٦٤) Choulguine : L'histoire et la vie p. 188.

(٦٥) انظر ما كتبه في هذا الصدد Dray في الفصل الثالث من كتابه : Laws and explanation in history ص ٥٨ ــ ٧٩ . وما كتبه مارو في كتابه من المعرفة التاريخية (بالفرنسية) ص ١٩١ ــ ٢٠٢ .

يقول فى كتابه : (اسس المعرفة التاريخية)« ان فلسفة التاريخ التي تزعم انها تدرس التطور الاجتماعى وقوانين نشوء الحضارات وتطورهاومستقبلها ، انما هي فلسفة « تقديرية » . ورجل العلم المعاصر الذى يحاول ان يضع فلسفةللتاريخ انما يوجه اكثر اهتمامه الى تحليل الفكر التاريخي واللغة التاريخية .

هل يعني هذا كله ان « القانون » غير موجودفى التاريخ ؟ بعيدا عن الوصول الى مثل هذه النتيجة العدمية التي تجعل الوجود كله مجردزوبعة من الصدف العمياء فى الفراغ اللانهائي ، فانا بالعكس تؤمن ان الوجود جميعا ـ بما فيهالوجود الانساني ـ يخضع لأدق واعقد واخفى القوانين . لا اسهل من البرهان المنطقي علىوجود « قوانين » تحكم التاريخ ولكن كشف هذه القوانين هو المشكلة . هو المستحيل حتى الآنبوسائل ورموز وطرق المعرفة التي نتداول ونصطنع . ولعل التعميمات الكبرى انما هيبعض الدلائل والمؤشرات على ما وراءها من ناموس يمشي بقدر ويقف بقدر . واذا كنا لا نستطيعان نغفل عامل « الجديد » و « الصدفة » والقفزة النوعية التطورية فى التاريخ لنقول مع اوغوستكونت فى يقينه الدوجماتي « من يعرف الماضي جيدا يعرف المستقبل » فلعلنا نستطيع ان نقولباطمئنان مع (كانت) : « لو امكننا ان يكون لنا بصر نافذ عميق فى الطابع العقلى للانسان كماتدل عليه الاعمال الداخلية والخارجية . اى بان نعرف كل دوافعه حتى اصغر دافع فيها .ونعرف كل الظروف الخارجية التي تستطيع ان تؤثر فيها .. لو امكننا ذلك لاستطعنا ان نحسبسلوك الانسان فى المستقبل بمثل اليقين الذى نحسب به خسوف القمر او كسوف الشمس .ومع ذلك سنظل نؤمن بان الانسان حر .. » (٦٦) . بمعنى ان ثمة دوما هامشا من المنطقة الحرةمتروكا لفعالية الحياة الانسانية المتجددة بين العبودية لعوامل الماضى ومقتضياته وبين مايحققه الانسان من فعل خلاق فى المستقبل . وهذا الهامش هو الذى سيظل العنصر الابق المتمرد علىاى قانون وتنبؤ .

ARCHIVE

ويسالونك بعد عن التاريخ هل هو علم ؟قل : قد رايت ...

انه ليس بعلم ان شئنا ان نفهم من الكلمةالمعنى الكلاسيكي لها : معنى العلوم الطبيعية وما تصطنع من وسائل منطقية ومن معالجة وضعيةللمادة تكشف بها علاقاتها حتى تتحول تلك العلاقات الى قوانين رياضية . التاريخ ليس منهذا ابدا انه من ميدان آخر بعيد .

ويسالونك اذن فهل هو ثقافة ؟ بلى ! علىالا نفهم من الكلمة انها عكس العلم او ادنى درجة منه . ولا انها المعرفة التطوعية او الاضافية غيرذات اليقين . ولا انها نوع من الترف الفكرى الذى يزين بعض الجماجم .. انه ثقافة بمعنىاعطاء الانسان ابعاده كانسان .

ويسالونك اذن فهل هو دراسة اجتماعية ؟لقد تكون الدراسة الاجتماعية بعضا منه . لانه

---

(٦٦) نقلا عن كاسيرر ـ مقال فى الحضارة (الترجمةالعربية) ص ٢٢٧ .

اوسع منها فى المدى الافقى بتنوع نواحيه وابعد منها فى المدى الزمني بما يضم من العصور الغابرة .

ان التاريخ علم انساني (فى مقابل العلم الطبيعي) . انه معرفة مختلفة فى الطبيعة والميدان والموضوع عن العلوم الطبيعية . وعدم علميتها حسب مناهج هذه العلوم لا يعني عدم علميتها المطلقة . ولا ينقص من قيمتها كمعرفة انسانية . ولكنه يعني ان العلماء لم يصلوا بعد الى المقولات والوسائل والمناهج التي تتناسب فى التعقيد مع مادة التاريخ والتي تستطيع ان تضم بين حدودها الشاملة آفاقه اللامتناهية .

اساس المشكلة يقوم فى ما يمكن ان نستعير من اقوال اورتيغا اى كاسيه J. Ortega y Gasset: « الطبيعة شيء . بل شيء عظيم مؤلف من عدة اشياء صغيرة ومهما تكن الفروق بين الاشياء فان لها مظهرا واحدا مشتركا هو انها .. ذات وجود اى ذات مبنى وتركيب محدد . اى لها طبيعة ثابتة .. (ولكن) عجائب العلم الطبيعي ستظل دوما تقف (مبهورة) امام حقيقة الحياة الانسانية الغريبة .. فلم يقف هذا السر وحده امامها مغلقا ؟ لعل التفسير هو ان الانسان ليس شيئا . وانه من (الزيف) ان نتحدث عن « طبيعة » انسانية . ان الانسان لا « طبيعة » له .. الحياة الانسانية ليست شيئا . وليس لها طبيعة واذن فعلينا ان نوطن النفوس على ان نتصورها من خلال المصطلحات والمقولات والافكار التي تختلف جذريا عما يبصرنا بظواهر المادة .. ليس للانسان « طبيعة » انما له تاريخ .. » (٦٧) . ولعلنا نستطيع ان نستبدل بكلمة تاريخ القول : « ان له طبيعة زمنية متطورة دون انقطاع . وهنا يكتشف » ان العقدة الاساسية فى فلسفة العلوم الاجتماعية (عامة وفى التاريخ خاصة) هي هذه : هل بالمستطاع دراسة الانسان بالوسائل نفسها التى تطبق على الكائنات الدنيا والطبيعة الصماء ؟ » (٦٨) . فالتاريخ ، كعلم انساني اذن ، له (او يجب ان تكون له) علميته الخاصة اى طرائقه ومنطقه فى فهم الموضوعية الزمنية التطورية ، وفى الوصول اليها ، عبر متحولاته الثلاث : الزمان والمكان والانسان . على ان عدم وصول التاريخ الى القوانين التاريخية حتى الآن :

١ ـ لا يعني انه ليس باستطاعته الوصول اليها ، بقفزة نوعية فى الفكر التاريخي تشبه قفزة نيوتن ورعيله المعروف فى العلم الطبيعي ، متى توفرت المعطيات الأولى والمقولات التى لا بد منها لمثل تلك القفزة .

٢ ـ لم يمنع التاريخ كمعرفة انسانية من الدرجة الاولى ، من التقدم والتوسع . العمل التاريخي اليوم ناشط جدا فى نطاق توفير المادة الاولية وجمعها وتنسيقها ، وهو نصف العلم .

---

(٦٧) اورتيغا اى كاسيه ـ التاريخ كنظام . نقلا عن كاسيرر ـ مقال فى الحضارة الانسانية (الترجمة العربية) ص ٢٩٢ .

(٦٨) جون كيميني ـ الفيلسوف والعلم (الترجمة العربية ـ امين الشريف ـ بيروت ١٩٦٥) ص ٢٥٢ .

٣ ـ لم يلغ قيمة التعميمات والتفاسير التاريخية التى اخذت احيانا شكل القواعد العامة والنظريات الكبرى والتي كانت نتيجة مقارنات عرضانية وطولانية عبر مجرى التاريخ . انها مرتسمات القياس التاريخي، من خلال الحضارات المتعددة (التاريخ الساكن) . ومن خلال مسيرة التاريخ (التاريخ المتحرك) . فالديالكتيك الهيغلي ، رغم ميتافيزيكية صاحبه ، اخصب التاريخ اوسع الخصب ، بقدر ما زادت المادية التاريخية مع فيورباخ وماركس ، من عمقه ، وما قدمت فيه الآراء منذ ابن خلدون حتى توينبي من زاد انساني .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

عبد الرحمن بدوي

أحدث النظريات في فلسفة التاريخ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حين نتحدث من فلسفة التاريخ نقصد تاريخ الانسان ، لأنه الكائن الواعي الوحيد بين الموجودات ، ولا فلسفة حيث لا وعي ، ولهذا فلامحل للحديث عن « فلسفة » التاريخ بالنسبة الى غير الانسان .

والانسان بدوره تاريخي ، لأنه انما يعمل في الزمان ، ولا تاريخ الا بالزمان . ومن هنا ارتبطت كل نظرية في التاريخ بنظرية في الزمان :

١ ــ هل للزمان بداية ونهاية ؟

من أجابوا بالايجاب انقسموا الى فريقين :

أ ــ فريق حسبوا هذه المدة وفقا لأحداث ومقاصد معينة ، وهو فريق أصحاب النظرات الدينية في الزمان وفي التاريخ ، الذين ربطوا الزمان بالخلق الأول وبمصير الانسان في الدنيا

وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب . ومن ابرز ممثليه **فيلون** (حوالى ٢٥ ق.م ــ ٥٠ بعد الميلاد) بالنسبة الى اليهودية ، والقديس **اوغسطين** (٣٥٤ ــ ٤٣٠) بالنسبة الى المسيحية وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) بالنسبة الى الاسلام .

ب ــ وفريق ربطوا تلك المدة باحداث فلكية كونية ، بمعزل عن كل المعانى الدينية ، كما هو الشان لدى علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية وعلماء الحياة ، ومن حذا حذوهم من المؤرخين المتاثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، مثل رينان (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢) Renan **وارنست هكل** Ernst Haeckel (١٨٣٤ ــ ١٩١٩) .

٢ ــ هل للتاريخ مسار واحد ، او التاريخ دوائر ؟

فمن قالوا بالاولى تصوروه معرضا للروح المطلقة وهى تفض مضمونها على مر الزمان اللامتناهى ، وابرز ممثلى هذا الاتجاه **هيجل** (١٧٧٠ ــ ١٨٣١) . ومن قالوا بالثانية تصوروه دوائر اما مقفلة هى الحضارات المختلفة ، أو دوائر يفضى بعضها الى بعض ولها عودات Ricorso : وبالفكرة الاولى قال **اشبنجلر** (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦) ، وبالثانية قال **فيكو** Vico (١٦٦٨ ــ ١٧٤٤) .

• • •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفى داخل هذه الاطارات العامة اثيرت مشاكل فلسفة التاريخ :

١ ــ واولها مشكلة النسبية فى التاريخ وخاصة ما يتعلق منها بالقيم . فاقضت الى نظريات **دلتاى** فى نقد العقل التاريخى (١٨٣٣ ــ ١٩١١) وبدلتاى تبدا فلسفة التاريخ المعاصرة ، **ونظريات اشبنجلر** فى نسبية القيم الى الحضارة المنبثقة فيها ، وآراء **ماكس فيبر** Weber (١٨٦٤ ــ ١٩٢٠) فى الربط بين التاريخ والاجتماع ، وما ذهبت اليه المادية التاريخية عند **كارل ماركس** (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) **وفريدرش انجلز** (١٨٢٠ ــ ١٨٩٥) من الربط بين **الاقتصاد** المادى والتاريخ ، وما قال به **كارل مانهيم** من اجتماعية المعرفة ، وآراء بندتو كروشه (١٨٦٦ ــ ١٩٥٢) فى التاريخية المطلقة .

٢ ــ وثانيها مشكلة العلية فى التاريخ ، وتندرج تحتها الاشكالات والخواطر التى حفلت بها دراسات **توينبى** (ولد سنة ١٨٨٩) **وكارل بوبر** Karl Popper .

٣ ــ وثالثها مشكلة التقدم والتخلف فى مجرى التاريخ : هل هناك خط للتقدم يستمر قدما ؟ او ثم تقدم وتخلف دون قاعدة ولا قانون ؟ وما من فيلسوف فى التاريخ الا وتعرض لهذه المشكلة اما إلماما واما تفصيلا .

٤ ــ ورابعها امكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ . وفى هذا ذهب البعض الى التفاؤل ، والبعض الآخر الى التشاؤم ، والبعض الثالث زعم انه بمعزل عن كليهما ، وانه تنبأ تنبؤات موضوعية غير تقويمية . ومن الذين برزوا فى هذا المجال : **توكفيل** (١٨٠٥ ــ ١٨٥٩) **ويعقوب بوركهرت** (١٨١٨ ــ ١٨٩٧) **وفريدرش نيتشه** (١٨٤٤ ــ ١٩٠٠) واخيرا **كارل يسيرز** (١٨٨٣ ــ ١٩٦٩) .

وفيما يلي نعرض لآراء طائفة من فلاسفة التاريخ المعاصرين * .

١ ـ فلهلم دلتاي

ونبدأ بفلهلم دلتاي Wilhelm Dilthey لانه رائد التيارات المعاصرة في فلسفة التاريخ في المانيا .

هدف دلتاي الى ان يقوم بالنسبة الى التاريخ بما فعله كانت (١٧٢٢ ـ ١٨٠٤) الى العقل الانساني المجرد ، وذلك بان يقوم « بنقد للعقل التاريخي » هو بمثابة تكملة « لنقد العقل المحض » لكانت Kant .

وابتداء من هذه الحقيقة وهي « ضرورة فهم الانسان بوصفه موجودا تاريخيا في جوهره ، وان وجوده لا يتحقق الا في جماعة » (١) . وراح يدرس « علوم الروح » على اساس تاريخية الوجود الانساني ، بمعنى ان للانسان بعدا اساسيا هو التاريخ ، فينبغي دراسة العقل الانساني من زاوية التاريخ . فالطبيعة غريبة عن الانسان ، ويستطيع المرء ادراكها بواسطة الملاحظة الحسية ، أما العالم التاريخي الاجتماعي فهو عالم الانسان ، ولا يمكنه ادراكه الا من الداخل (٢) . ولهذا فان العلاقة بين الانسان والموضوع ، في العلوم الروحية ، علاقة مباشرة ، لان هذا الموضوع هو التجربة الانسانية الحية . ومن هنا فان الاساس في العلوم الروحية هو التجربة الحية Erlebnis ، ويقصد بها الاحوال والعمليات والنشاطات الباطنة كما نستشعر ، ونحياها ونعيها .

ARCHIVE

ويعرف دلتاي العلوم الروحية Die Geisteswissenshafaten بانها « مجموع الدراسات التي موضوعها هو حقيقة التاريخ والمجتمع »(٢) ، وتسمى بالفرنسية « العلوم الاخلاقية » Sciences morales .

وعلى الرغم من ان العلوم الروحية قد تتناول بعض الأشياء والعمليات الفيزيائية فانها انما تتناولها من حيث هي آثار او ذات علاقة بتحقيق الاغراض الانسانية ، او تفيد في التعبير عن الافكار والمشاعر الانسانية » . واذن لا تهتم الدراسات الانسانية (= العلوم الروحية) بالظواهر الفيزيائية الا من حيث صلتها بالوعي الانساني ، وخصوصا من حيث هي تعبيرات من خلالها يمكن فهم هذا الوعي .

وهذه العلوم الروحية متنوعة جدا : اذ تشمل علوما فنية مثل النحو والخطابة ، وعلوما معيارية مثل الأخلاق والنظريات السياسية والنقد الادبي ، وعلوما تعميمية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد ، وعلوما تاريخية بالمعنى الضيق مثل التراجم والتراجم الذاتية والتواريخ .

---

* نظرا الى اننا الفنا كتابا عن اشبنجلر (ط ١ سنة ١٩٤١) فلن نذكره هنا مكتفين بالاحالة الى كتابنا .

(١) Der Junge Dilthey, p. 124. Leipzig & Berlin, Teubner, 1933.

(٢) راجع لدلتاي : « مجموع مؤلفاته » جـ ١ ص ٣٦ ـ ٣٧ Gesammelte Schriften .

(٢) دلتاي : « مجموع مؤلفاته » جـ ١ ص ٤ .

والدراسات (٤) الانسانية تجمع بين ثلاثة اصناف متمايزة من التقريرات . فصنف منها يقرر حقائق موجودة في الادراك الحسي : وهذا يؤلف العنصر التاريخي في المعرفة . وصنف يوضح العلاقات المطردة بين اجزاء من هذه الحقيقة ، يميزها بالتجريد : وهذا يؤلف العنصر النظري . والصنف الثالث يعبر عن الاحكام التقويمية والقواعد المفروضة : ويتضمن العنصر العملي في الدراسات الانسانية . وعلى هذا فان العلوم الروحية (= الدراسات الانسانية) تتالف من اقوال تعبر عن وقائع ونظريات واحكام تقويمية وقواعد .

وملكة المعرفة في الدراسات الانسانية هي الانسان كله والاعمال العظيمة التي تمت فيها لم تنشا من العمليات العقلية وحدها ، بل عن قوة الحياة الشخصية .

تاريخية الانسان :

والانسان الفرد تاريخي في جوهره ، لانه يعيش في الزمان، ويتجدد باحوال وظروف معينة، ووجوده عملية زمنية تتحدد بالميلاد والموت ، وتتالف من سلسلة متصلة الحلقات تتالف من ماض وحاضر ومستقبل ، وتجرى هذه العملية في اطار علاقاته مع الآخرين ، وعلاقاته مع الطبيعة . ولما كان الفرد كذلك ، فان العلاقات بين الافراد هي ايضا علاقات تاريخية . وحياة الانسان حياة تاريخية ، وعالم الانسان اذن هو عالم التاريخ .

واتساقا مع هذه التاريخية ، يرفض دلتاي المبادىء المطلقة والقيم المطلقة ، وينكر النظرة التي « ترى مهمة التاريخ في التقدم من قيم والتزامات ومعايير وخبرات نسبية الى قيم والتزامات ومعايير مطلقة ... صحيح ان التاريخ يعرف اقوالا معناها وجود قيمة او معيار او خير مطلق وهذه الاقوال تظهر في كل مكان في التاريخ ، مرة على ان ذلك صادر عن ارادة الهية ، ومرة اخرى بالاستناد الى نظرة عقلية في الكمال ، او الى نظام نمائي للعالم ، او الى معيار ــ مقبول قبولا كليا ــ لسلوكنا القائم على اساس عال على الوجود . بيدان التجربة التاريخية تعرف العملية فقط ، عملية اصدار هذه الاقوال : ولكنها لا تعرف شيئا عن صحتها المطلقة (المزعومة) . ولما كانت تتابع عملية تشكيل مثل هذه القيم المطلقة والخبرات او المعايير ، فانها تلاحظ بالنسبة الى كثير منها كيف انتجتها الحياة ، وكيف ان التقدير المطلق اصبح هو نفسه ممكنا بفضل تحديد افق العصر . ومن هناك تنظر الى جماع الحياة في ملاء تحقيقاته التاريخية . وتلاحظ الكفاح السجال بين هذه الاقوال المطلقة بين بعضها وبعض . والسؤال عما اذا كان يمكن ان يوضح ببينة منطقية ، ان اندراج التجربة تحت امثال هذه المبادىء المطلقة ــ وهي من غير شك حقيقة تاريخية ، يجب ان يرد الى عامل في الانسان كلي وغير محدود زمانيا ــ هذا السؤال يفضي الى الاعماق النهائية للفلسفة المتعالية ، التي تقوم وراء الدائرة التجريبية للتاريخ ، مما لا تستطيع حتى الفلسفة نفسها ان تنتزع منه جوابا اكيدا » (٥) .

---

(٤) راجع دلتاي : « مجموع مؤلفاته » جـ ١ ص ٢٦ ــ ٢٧ ، الفصل السادس من « المدخل الى العلوم الروحية » . وسنستعمل احيانا كلمة « الدراسات الانسانية » ــ بوصفها الاستعمال الاكثر شيوعا اليوم . بدلا من كلمة « العلوم الروحية » التي استعملها دلتاي ويكثر استعمالها في اللغة الالمانية .

(٥) دلتاي : « بناء العالم التاريخي في العلوم الروحية » ، مجموع مؤلفاته ، جـ ٧ ص ١٧٢ .

ولهذا نرى دلتاى يرفض كل محاولة لتفسير التاريخية بواسطة اللجوء الى اى مبدأ غير مشروط ، سواء كان ذلك بمعنى عال او بمعنى محايث ، لان عالم الانسان هو من عمل الانسان ، اى من عمل الافراد فى علاقاتهم بعضهم مع بعض ، والتاريخية تنتسب الى العالم الانسانى وحده ، ومجرى التاريخ يرجع الى النشاط الانسانى ، فلا مجال اذن الى الاهابة بمبدأ فوق انسانى .

ومن نتائج هذه النسبية المنبثقة عن التاريخية ان قرر دلتاى ان الفلسفة مشروطة تاريخيا ، وان ماهية الفلسفة لا تتحدد بطريقة قبلية ، بل على اساس تحليل الطرق المختلفة التى تجلت عليها الفلسفة فى التاريخ ، مما سيظهر منه ان وحدة الفلسفة لا تقوم فى وحدة الموضوع او المنهج ، بل فى وحدة الموقف الذى يفسر مختلف الاشكال التاريخية للفلسفة . » وكل حل للمشاكل الفلسفية ينتسب — من الناحية التاريخية — الى زمان معين والى موقف معين فى ذلك الزمان : ان الانسان ، وهو من صنع الزمان ، طالما يعمل فى الزمان ، يجد أمان وجوده فى هذه الحقيقة وهى انه يرفع مخلوقاته من مجرى الزمان بوصفها اشياء دائمة : وهذا الوهم يهب عمله الابداعى مزيدا من السرور والقوة . وهنا يقوم التناقض المستمر بين العقول الخلاقة وبين الوعى التاريخى . انه طبيعى بالنسبة اليهم ان ينسوا الماضى ، وان يغضوا النظر من المستقبل الافضل الآتى : لكن الوعى التاريخى يعيش فى فهم كل العصور ، ويلاحظ فى كل ابداع الافراد ما يصاحبه من نسبية وزوال . وهذا التناقض هو الاضطراب الخفى الذى تحمله الفلسفة اليوم فى صمت . اذ فى فيلسوف اليوم يتجمع ابداعه مع الوعى التاريخى ، لان اليوم بالنسبة الى الغد يجعل فلسفته لا تؤلف غير شذرة من الواقع ، ولا بد لنشاطه المبدع من ان يعى انه حلقة فى النسق التاريخى الذى فيه يتسم بانه الى شىء نسبى . وهنالك يقدر على حل هذا التناقض ، وذلك بان يسلم نفسه بهدوء الى سلطان الوعى التاريخى ، ويستطيع ان يرى عمله اليومى من ناحية (او زاوية) النسق التاريخى الذى فيه ماهية الفلسفة تحقق تغيرها فى تنوع مظاهرها (٦) » .

٢ — جورج زمل

ونسبية المعرفة التاريخية

وممن تأثروا بدلتاي فى فكرة نسبية المعرفة التاريخية جورج زمل (١٨٥٨—١٩١٨) خصوصا فى كتابه « مشاكل فلسفة التاريخ * » وقصد فيه ان يبين ان التاريخ ليس مجرد ترجمة بسيطة للواقع المعاش مباشرة ، بل ان المعرفة التاريخية تخضع لامور قبلية . وقد قسمه الى ثلاثة اقسام : **الاول** خاص بالشروط الباطنة للبحث التاريخى ، **والثانى** يدرس قوانين التاريخ ، **والثالث** يفحص المعنى الفلسفى للتاريخ .

يتساءل زمل اولا عن ماهية المعرفة التاريخية ، فيقرر ان المعرفة التاريخية موضوعها هو الامتثالات والارادات والحساسات الخاصة ببعض الاشخاص ، اى ان مضموناتها الموضوعية هى نفوس . « وكل الاحداث الخارجية والسياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ،

(٦) دلتاى : « ما الفلسفة » ؟ ، مجموع مؤلفاته ، جـ ٥ ص ٣٦٤ .

والدينية ، والتشريعية والصناعية لا يمكن ان تكون شائعة ولا مفهومة لنا اذا لم تكن مستمدة من حركات النفس واذا لم تحرك النفس . واذا كان لا ينبغي ان يكون التاريخ لعبة عرائس ، فانه اذن تاريخ احداث نفسية ، وكل الاحداث الخارجية التي يصفها ليست الا الجسور بين الاندفاعات والافعال الارادية من ناحية ، وبين الافعال المنعكسة العاطفية التي تثيرها هذه الاحداث الخارجية . وهذه الملاحظة لا يفندها المحاولات التي اجريت لرد الحدث التاريخي ، في تعيناته الجزئية ، الى احوال فزيائية . وطبيعة الارض والجو لا اهمية لها بالنسبة الى مجرى التاريخ ، كما لا اهمية لارض وجو نجم الشعرى العبور ، اذا لم تؤثر هذه الطبيعة ـ مباشرة او بطريق غير مباشر ـ في التركيب النفساني للشعوب . ولهذا فان الطابع النفساني للبحث التاريخي يبدو انه يفرض عليه ان يكون مثله الاعلى هو أن يكون تطبيقا لعلم النفس ، بمعنى انه يرد الى علم النفس ، لو وجد علم نفس يحدد قوانين ، كما يرد علم الفلك الى الرياضيات » (٧).

ومع ذلك ينبغي الا نخلط بين وجهة نظر المؤرخ ووجهة نظر عالم النفس . ذلك لانه بينما عالم النفس يوجه اهتمامه الى عمليات المعرفة ، غاضا النظر عن مضموناتها ، فان ما يهم المؤرخ « ليس نمو المضمونات النفسانية بقدر ما هو النمو النفساني للمضمونات » (٨) ووجهة نظر التاريخ « وسيطة بين وجهة نظر التحليل المحض ، التحليل المنطقي لمضمونات الشعور ، ووجهة نظر علم النفس اعني التحليل الديناميكي للحركات النفسانية للمضمونات (٩) . ويزيد **زمل** في تحديد الفارق بين التاريخ وعلم النفس فيقول : « وكل واحد من هذين العلمين يضع وحدة الواقع والتغير النفسانيين ، تلك الوحدة التي لا نفعل غير ان نعيشها في مباشرتها ، لكننا لا نملك ادراكها في النور الساطع . ونحن نقسم هذه الوحدة ، لدراستها عقليا ، الى عملية ومضمون ، وتقسيم العمل العلمي يخلق ، من ناحية ، علم النفس ، من اجل بناء العملية ، والقوانين التي تحكمها ـ « على النحو الممكن لتعيينها » ، ومن ناحية اخرى يخلق علوم المنطق والادراك الموضوعي ، ابتغاء البحث عن المضمونات بغض النظر عن العملية التي بها تتحقق هذه المضمونات نفسانيا ، واخيرا يخلق التاريخ ، وموضوعاته لا تتحدد . . . . الا باهمية ومعنى حقيقيين ، أيا كانت طبيعتها وتصحب ، في النمو الذي تعانيه العملية النفسانية ، المضمونات التي اختارتها وفقا لهذا الطابع الاساسي » (١٠) .

ذلك ان نفس الاحداث النفسية : مثل الحب ، الكراهية ، الخ يمكن ان تكون لها هي نفسها نتائج خارجية شديدة التفاوت . ولنضرب على هذا مثلا ما حدث في الثورة الفرنسية بين حزب **هبرت** (١١) Hébert وبين **روبسبيير** : فبعدان عاونوا روبسبير على اغراضه ، انقلبوا عليه في

---

(٧) زمل : « مشاكل فلسفة التاريخ » ط ٢ ، الفصل الاول ، ص ١ .

(٨) زمل : الكتاب المذكور ، ص ٤ .

(٩) زمل : الكتاب المذكور ، ص ٤ .

(١٠) الكتاب نفسه ، ص ٥ .

(١١) جاك رينيه هبرت ، الذي كان وكيل النائب العام للكومين ، وكان من المحرضين على مذابح سبتمبر (التي قتل فيها السجناء السياسيون في سجون باريس وبخاصة في سجن « الدير » وسجن « القوة » ، وذلك في ايام ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٢) ، وكان ذا نفوذ هائل على كومين باريس حتى اعتقل وشنق هو وكثير من انصاره في سنة ١٧٩٤ .

اليوم الذى صارت له السلطة العليا ـ فهذه الوقائع التاريخية تؤلف سلسلة نفهم جيدا اذا فسرناها على ضوء هاتين القاعدتين النفسانيتين وهما : اذا ساعد المرء اغراض حزب كسب رضاه ، واذا سيطر على هذا الحزب اجتلب كراهيته وغيرته . وفى التاريخ السياسى المعاصر شواهد كثيرة عليه فى الصراعات بين الاحزاب المتآلفة قبل الوصول الى الحكم والمتعادية المتطاحنة بعد هذا الوصول . غير ان هاتين القاعدتين مع ذلك ليست لهما غير قيمة نسبية واحتمالية . اذ قد يحدث على العكس من ذلك ان يرى احد الحزبين المتحالفين قبل الحكم فى وصول احدهما الى السلطة فرصة لازدياد قوته هو ووسيلة للمشاركة فى السلطة . . لكن الذى يفسر ما حدث لانصار حيرت هو طبيعة الاشخاص الذين شاركوا فى هذا العمل . ومعنى هذا ان الاحداث النفسية الواحدة فى الظروف الواحدة قد تنتج نتائج متناقضة : اذا اختلفت طبائع الافراد . ومن هنا كان علينا ، ونحن نفسر وقائع التاريخ ، ان ندخل فى حسابنا عامل الفروق الفردية والخصائص الشخصية ، والا تقتصر على المعانى العامة مثل الحب والكراهية ، او الشدة ، او المكر او الذكاء ، الخ .

فزمل اذن يؤكد اهمية القواعد النفسية من ناحية ، كما يعترف من ناحية اخرى بطابعها الافتراضى الاحتمالى .

وهذا الطابع الافتراضى الاحتمالى يزداد اثره وضوحا حين تكون الاسباب التى يبدأ منها الحدث التاريخى اسبابا لا شعورية ، كما هى الحال فى اعمال الجماهير والدهماء . ويلاحظ **زمل** « ان التبرير باللاشعور ليس فى نظرنا غير تعبير عن كون الاسباب الحقيقية غير معروفة لنا ، ويعنى فقط ان معرفة الاسباب الشعورية ليست فى متناول ايدينا ، وكوننا نجعل من هذا الشىء السلبى الخالص امرا ايجابيا ، ونحيل الامر غير المشعور به الى امر لا شعورى ، سيكون شكلا معينا من الحياة العقلية ـ هذا النحو هو وسيلة للتعبير فقط عن الحاجة الى ملء فراغ العلة فى العقل الانسانى بواسطة دافع نفسانى (١٢) » .

وتحديد الدور النسبى فى التفسير التاريخى لكل من التبرير الشعورى والتبرير اللاشعورى ـ امر يتوقف على الشخص المؤرخ . والمشاهد هو اننا نفضل اللجوء الى التبرير الشعورى حين يبدو لنا ان اسباب الاحداث راجعة الى ارادة الافراد ، والى الرجال العظام خصوصا ، بينما نلجأ الى التبرير اللاشعورى حينما تبدو لنا الاسباب راجعة الى ميول الجماهير . وايثار المؤرخ لاحد التبريرين على الآخر يرجع الى رأيه الخاص فى ايهما الاهم فى احداث حوادث التاريخ : الافراد ، او الجماهير . وكذلك الحال فى مسألة ارجاع التأثير الى القوى الاجتماعية او النظم او العادات والتقاليد او التنظيم الاقتصادى او ارجاعه الى الافراد ـ هذا ايضا يتوقف على مزاج المؤرخ ونظرته فى الوجود والحياة .

وهنا يزداد الامر تعقيدا حين نريد تفسير تأثير الاشخاص . اذ علينا ان نحدد الطابع العام للشخصية من تصرفاتها الجزئية ، ونحدد التصرفات الجزئية استنادا الى الطابع العام للشخصية ـ وفى هذا دور فاسد ، لكن لا سبيل الى التخلص منه . كما كان المؤرخ فى تفسيره للشخصية المؤثرة فى مجرى الاحداث ، يستنتج من تصرفاتها السابقة امكان تصرفات اخرى .

---

(١٢) زمل : « مشاكل فلسفة التاريخ » ط ٢ ، ص١٦ .

ولكن هذا الاستنتاج تعوزه الدقة المنطقية . ويواصل زمل ايضاح هذه المعانى فيقول : « من الموضوعات ذات الاهمية الكبرى فى فلسفة التاريخ تحديد المعايير التى تتخذها قواعد لتوحيد الطبائع ، ومعايير للواقع المعطى ، ووسائل للعرض ، مما يمكن من تكوين صورة سابقة لما ينبغى ان يقوم فى تشكيل هذه الشخصية ، ومن هذه الموضوعات كذلك تحديد الهامش الذى فى داخله نتصور امكان الافعال التى تنحرف عنها ، وتحديد الوان النمو والتحول التى نقبلها نتائج ناشئة عن المبدا الباطن للشخصية ، وما نعتقد ان تفسيره ينبغى ان يلتمس فى الظروف الخارجية . اذ ما من شك فى وجود قواعد محددة لهذا التفسير ، قواعد يفترض وجودها المؤرخ والقارىء على السواء ، وان لم تتحدد بعد بوضوح (١٢) » .

وحين يتعلق الامر بجماعات ، فان وحدة الجماعة فى تصرفاتها يردها المؤرخ اما الى الاحداث النفسانية التى جرت فى نفوس زعمائها ، او الى نمط نفسانى وسط ، او الى مشاعر الاغلبية فيها . ويشير زمل هاهنا الى ما فعله **ماكولى** (١٨٠٠ ــ ١٨٥٩) المؤرخ الانجليزى الشهير ، حينما اقترح عشرة اسباب ودوافع لتفسير تحمس حزب الهويج لمشروع قانون معين ، ويعلق قائلا : « من الواضح انه ، فى شعور كل واحد من اعضاء الحزب لم توجد هذه الدوافع العشرة كلها معا ولا بنفس القوة . والحزب الذى انتجت وحدته النفسانية هذه الدوافع ليس الا صورة مثالية ، ووهما ناشئا ومتولدا فى مخ المؤرخ بوصفه مركبا للوقائع المعطاة (١٤) . ومن هذا يظهر دور المؤرخ فى تشكيل الاحداث التاريخية وتصور دوافع الجماعات والافراد . والحق اننا لو تتبعنا ما يقوم به المؤرخ فى ذهنه حين يفسر احداث التاريخ لوجدناه يستخدم عمليتين اساسيتين : **الاولى** تقوم فى بذل مجهود يتولاه الخيال والتعاطف ، بواسطته يضع المؤرخ نفسه فى روح الشخصيات او الجماعات التاريخية ، وعلى المؤرخ ان يستعيد فى نفسه المضمونات النفسانية التى انتجت فى الشخص الذى يدرسه . ويبدو ان هذا لا يكون ممكنا الا اذا كان المؤرخ نفسه قد عاش تجارب ومضمونات مماثلة ، وهو ما يثار عادة تحت مشكلة : من هو الاقدر على فهم التاريخ : من عاش احداثا تاريخية وشارك فيها واسهم فى صنع التاريخ ؟ او من لم يشارك فيها ، وكان مشاهدا محايدا « موضوعيا » لها ؟ وهى من اعسر المشاكل القديمة فى فلسفة التاريخ .

والعملية الثانية ان نضع المضمونات المعاشة على انها خارجة وراجعة الى الغير .

على انه يلاحظ انه ليس من الضرورى ان تتميز هاتان العمليتان تميزا بارزا اذ الغالب ان يترابطا وان يتكاملا .

وهنا يتطرق **زمل** الى فكرة الموضوعية فى المعرفة التاريخية فيبين ان المعرفة التاريخية شأنها شأن اية معرفة انسانية ، تنقل المعطيات المباشرة الى لغة اخرى وتخضعها لاشكالها ومقولاتها ومقتضياتها الخاصة . ففي الترجمة الذاتية لا بد لمن يترجم لنفسه ان يختار بين الاحداث وان يرتبها ترتيبا جديدا . وهذا عينه يصدق على التراجم او السير وكل انواع الكتابة

(١٣) زمل : مشاكل فلسفة التاريخ ، ط ٢ ص ٢٤ .

(١٤) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ، ط ٢ ، ص ٢٦ .

فى التاريخ . اذ يضع المؤرخ اطارات واتصالات لاوجود لها فى الواقع التاريخى . والمؤرخ لا يأخذ من المعطيات النفسانية غير جزء ، ينظمه وفقاًلمقولاته هو .

وفى هذا تقريب بين الفكر التاريخى والفكرالجمالى . فكما ان الفن يقتضى ترتيبا للاحداث وفقا لفكـرة معينـة ، كذلك الفكـر التـاريخى،لا يستطيع ان يركب الاحداث التاريخية الا وفقا لمنظور معين من وضعه هو .

• • •

هل توجد قوانين لسير التاريخ ؟

وهذا يقودنا الى التحدث عن مشكلة اخرى‌تناولها **زمل** ، وهى امكان وجود قـوانين تحكم سير التاريخ .

ان القانون قضية تعبر عن العلاقة الثابتة‌بين مجموعة من الوقـائع السـابقة التى تتلوها بالضرورة وقائع لاحقـة لا تتخلف منهـا ابدا . ولتقرير هذه العلاقة لا بد من الفصل بين الوقائع السابقة والوقائع اللاحقة من ناحية ، وبين مجرى‌العوامل والاحداث الاخـرى وهى عديدة جدا ومشتبكة كل الاشتباك . فاذا ما نظرنا الى‌الاحداث التاريخية ، وجدناها فى غايـة التعقيد والتركيب والاشتباك بحيث يصـعب جـدا‌استخلاص العلاقات الثابتة بين مجموعات منها ، كما هى الحال فى الظواهر الفزيائية . وهذا يقـرب من المستحيل على المؤرخ ان يقرر روابط ثابتة بين الاحـداث التاريخيـة بحيث تقـع النتائج‌بالضرورة كلما تحققت الاسباب . ولهذا لا نجد فى التاريخ حـوادث متشـابهة تماما ، والحادث‌التاريخى الواحد لا يتكرر ابدا .

وما زعم من وجود قوانين تحكم التاريـخ‌هو محض تخرص ، ومن امثالها : « الحرية تنتشر تدريجيا من قلة من الافـراد الى الجماهـير » ، « الجماعات تنتقل تدريجيا من حالة الشباب الى النضوج ، الى الشيخوخة » ، « اشكال الانتاج‌الاقتصادى فى عصر ما تتحد بقوى الانتاج فى ذلك العصر » .

لكن هذا لايعنى مع ذلك ان الواقع التاريخى‌يتأبى على كل تحديد عام . فثم طريقان امـام الفكر الفلسفى لايجـاد تفسير عقلى للاحـداث‌التاريخى ووضع صيغ عامة لهـذا التفسـير . **والطريق الاول** هو القول بأن قيمة معرفة القوانين‌التاريخية هـى قيمة نسـبية وموقتـة ، وان الملاحظات العامة على مجرى التاريخ ، وان لـم تعبر عن قوانين بالمعنى الدقيق ، فانها « اعدادات لقوانين » Vorberei-tungen Auf Gesetze على حد تعبير **زمل** . وهذه الملاحظات كلما تنوعت وقورن بعضها ببعض ادت الى مزيد من التدقيق،وبالتالى الى مزيد من الاقتراب مـن القوانين . ولهذا يفيدنا كثيرا فى هـذا المجـال استقصـاء‌الاحداث ومقارنتها واجراء التحليـل الدقيـق العميق عليها .

والطريق الثانى عكس الاول : فبدلا مـن‌التحليل الى عناصر ، نقوم بالتركيب بين المعانى اكثر فأكثر « حتى تكـون التركيبـات الاصيلة‌والتصورات المركبة » ، والمجموعات التى تتدرج فيها الاحداث ـ بمثابة وحدات ، لاحاجة الـى‌تحليلها الى اقل مـن ذلك » (١٥) . فمثلا لفهم

---

(١٥) زمـل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٠٨ .

معركة ماراثون (١٦) يمكن أن نصرف النظر عن معرفة حياة كل محارب اشترك فيها ولا كيف تصرف هذا اليوناني او ذاك ، بل علينا ان نعرف كيف تصرف اليونانيون عموما ، وهكذا لايهتم المؤرخ بالافراد منعزلين ، بل بالمجموع ، وليس المجموع ناتج جميع الافراد ، لانه الى جانب الطباع المشتركة بين الافراد هناك طباع خاصة لاتعرف الا بالتركيب والتكامل .

والخلاصة انه : « سواء اتجه التطور التاريخي الى مزيد من التفاضل للافراد ، او الى مزيد من التشارك ، وسواء قامت الثقافة الاخلاقية على الثقافة العقلية او على العكس كانت لها قوانينها الخاصة للتطور ، وهى قوانين مرضية بالنسبة الى الثقافة العقلية ، وسواء ذهبت الحرية الاجتماعية للافراد جنبا الى جنب مع تكوين روح موضوعية وكثير من النتاجات فوق الشخصية للحضارة ، في الميادين العلمية والفنية والتكتيكية : فان كل هذه التوكيدات وامثالها يمكن ان تعد ، من ناحية ، كارهاصات وتحضيرات لروابط معلومة بدقة ومحكومة بقوانين عقلية ، ولكن من ناحية اخرى فانها ـ على مستوى التركيبات التصورية ـ هى اسقاطات للحادث مرضية بذاتها : فالمقولات المجردة الظاهرياتية ، التى من زاويتها تضع المعرفة اسئلة من هذا النوع ، لاتستطيع ان تظفر باجابات اكثر دقة ، او تتعلق بحقائق وباسباب فردية . صحيح ان هذه المقولات يمكن كثيرا ان تدلك على انها خاطئة ، لكن مايحل محلها ليست ابدا غير تحقيقات اخرى لنفس اشكال المعرفة ، تظل على مسافة مساوية من المثل الاعلى للعلية في العلوم الطبيعية . وهكذا ينكشف ان هاتين الطريقتين في الوجود الخاصتين بالقوانين التاريخية هما اسلوبان مختلفان يتخذهما العقل في وضعه للاسئلة ، ووجهان يرتفع اليهما فوق حقيقة الاشياء ، بسبب تفاوت الحاجات النظرية : وهذا من شانه ان يبرهن مرة اخرى في مواجهة الواقعية التاريخية الساذجة ، على ان هذين المظهرين لا يعنيان ابدا نسخة من الواقع ، بل تشكيلا داخل العقل لهذا الواقع . وتبعا للطابق الذى تضعه فيه ، يتخذ الواقع تنظيما خاصا ، يلائم هذا الطابق وحده . لكن هذا التنظير بين القوانين التاريخية وبين التامل ، في ايقاع المعرفة ، لا يعنى ابدا ان التاريخ قد صار من اختصاص الفلسفة ، وانما يعنى ان مقتضيات المعرفة ومقولاتها ـ وهى تعبر عن علاقاتنا النموذجية مع الواقع ، تؤدى ، في كلا الميدانين ، الى تكوينات مناظرة لماديهما » (١٧) .

هل في مجرى التاريخ غائية ؟

ثم ينتقل زمل الى البحث في نوعين من المشاكل الفلسفية المتعلقة بفلسفة التاريخ :

أ ـ **الاول** هو مسالة معرفة ما اذا كان « كل » التاريخ ، وهو ليس الا مجموع الجزئيات التجريبية ، يمكن ان يظفر بماهية ومعنى لاتملكه هذه الجزئيات ، وماهو الوجود المطلق ، او الحقيقة العالية التى تقوم وراء الطابع الظاهرى للمعطيات التجريبية للمعرفة التاريخية » (١٨) .

---

(١٦) قرية في اقليم اتيكا في اليونان اشتهرت بالمعركة التى انتصر فيها ملتيادس ، القائد اليونانى ، على الفرس في سنة ٤٩٠ قبل الميلاد .

(١٧) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(١٨) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ، ص ١٢٥ .

ولا يمكن حل هذه المشكلة الا بتحويل السلسلة العلية للظواهر التاريخية الى سلسلة غائية تملك ، بما هنالك من غائية باطنة تحكمها ، وحدة عضوية . وهذا التحويل لايمكن حدوثه الا بافتراض اله ، وعناية الهية تعين مجرى التاريخ .

ب ـ والثاني يتعلق بالقيم والمعاني التي تتلقاها المعطيات التاريخية من الاهتمامات غير النظرية » . وفي هذا يقول **زمل** : « ان الانعكاسات التي تلقيها اهتماماتنا التاملية وغير النظرية على معطيات علم التاريخ هي عناصر ميتافيزيقا التاريخ ، وهذه الميتافيزيقا تتوجه على نحو مختلف تماما عن التكييف النظري للحادث ، وفي هذا التمييز الدقيق بينها وبين هذا الاخير تجد تلك الميتافيزيقا حقها في الوجود . بيد ان النظرية المحض هي مثل اعلى لايتحقق ابدا ، ويظل يؤثر فيها فعل المقولات الميتافيزيقية . والتامل في التاريخ ليس ، في شطره الاكبر ، غير الاستخلاص والاتمام والتنسيق المتلائم مع مبادىء وفروض وقوى فعالة في تركيب مادة الحادث ، كما يتصوره التاريخ الدقيق » (١٩) .

ويفحص **زمل** عن هذه الاهتمامات فوق النظرية التي تحكم فلسفة التاريخ فيجد في مقدمتها الميل الى المعرفة . ويتلوه رد الفعل العاطفي نحو المضمونات الكيفية للاحداث ، وذلك في الاحداث التي تثير فينا تشويقا خاصا . ولا يهم هل الاحداث حدثت بالفعل ، او فيها جانب من الخيال او كلها من نسج الخيال . وهذا امر ذاتي خالص ، يتوقف على مزاج المؤرخ .

ولايضاح هذه النقطة الثانية ، تنظر في معنى يلعب دورا كبيرا في اهتمام المؤرخ ، وهو فكرة التقدم . فمن الواضح انه لايمكن تصور التقدم الا بالنسبة الى فكرة سابقة عن الغاية ، والا فكيف نعرف ان ماحدث يعد تقدما وليس تاخرا ان لم تكن ثم غاية محددة من قبل ؟ وفي هذا يقول **زمل** : « كوننا ندرك ، اولا ندرك ، تقدما في التاريخ ـ هذا يتوقف على مثل اعلى قيمته ، بهذه المثابة ، لاتصدر عن توالي الوقائع ، بل تنضاف اليها بفعل الذاتية » (٢٠) ولا يمكن ان يعترض على هذا بالقول بتقدم صوري خالص ، من نوع الاخلاص الصورية عند **كانت** Kant ، فانه من المستحيل تصور تقدم صوري محض ، لان فكرة التقدم يدخل فيها عنصران اساسيان هما : وجود تغير في الاحوال ، ووجود نماء في القيمة من الحالة الاولى الى الحالة التالية . وهذا العنصر الثاني هو بطبعه متغير .

كذلك يلاحظ انه لكي يكون ثم تقدم معامن عصر تاريخي الى آخر ، فلابد ان يبدو العصر التالي محددا في جوهره بالعصر الاول ، في السلسلة القائية ، مهما يحدث من انقطاعات في السلسلة تحت تاثير ظروف طارئة عارضة : وهذا لايتم الا اذا تصورنا ، في الاحداث التي تؤلف نسيج التاريخ ، وحدة وتوترا باطنين . ولا يمكن ان يكون ثم تقدم اذا لم يكن هناك وحدة جوهرية هي الحامل للظواهر .

ولهذه الاهتمامات يختلف المؤرخون في تقويم العوامل التاريخية ، مما يجعل المؤرخ يقوم « باختيار » في الواقع التاريخي ، ويغلب بعض العوامل على بعض ، كما هو مشاهد بكل جلاء في نظرة انصار « المادية التاريخية » الذين يغلبون عوامل الاقتصاد ، او على حد تعبير **زمل** عامل « الجوع » على سائر العوامل .

---

(١٩) الكتاب نفسه ، ص ١٣٥ .

(٢٠) زمل « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٥٦ .

والحق ان الواقع مليء بالاهتمامات من كل نوع . « والمادية التاريخية بسبب روح الاصرار التى تميزها فى اتباع هذا المبدا ، لاتفعل الا انتبين » بطريقة مثيرة ، تلك الميتافيزيقا التى تتضمنها كل نظرية تاريخية اخرى لان امكان النفوذ فى التاثير المتبادل لكل العوامل التاريخية امر غير ميسور لنا ، وبينما هذا وحده هو الذى يستطيع ان يجعلنا نتصور الوحدة الفعلية للتاريخ ، فان كل صورة يتيسر لنا تكوينها عن مجموع الاحداث لا يمكن ان يتم رسمها الا بتركيب من طرف واحد » (٢١) « اى من وجهة نظر واحدة . » وهكذا تخلط المادية التاريخية بين صورة الحادث كما صورت بفضل اهتمامات المعرفة ، وبين الحادث المباشر كما يتحقق فى الواقع ، وكذلك يخلط بين مبدا له أهميته بوصفه مبدا للبحث ، ولا يمكن تطبيقه ، من جميع الاعتبارات ، الا على سبيل المحاولة ــ وبين مبدا تكوينى يوضع مقدما وعنه تصدر كل الوقائع » (٢٢) . وهذا يفضي بالمادية التاريخية الى مازق لا سبيل الى الخروج منه : « لانه اذا صح ان تطورات العادات والقانون والدين والادب تسلك منحنى التطور الاقتصادى دون ان تؤثر فى هذا الاخير تاثيرا جوهريا ، فانى لا استطيع ان افهم كيف تحدث التحولات فى الحياة الاقتصادية » (٢٣) . وبعبارة ابسط : لماذا نتصور تاثر القانون والعرف والدين والادب بالحياة الاقتصادية ، دون ان نتصور تاثر الحياة الاقتصادية هى الاخرى بالقانون والعرف والدين والادب ؟ ان ما تقوم به المادية التاريخية من اختيار فى نسيج الواقع التاريخي ينطوى على اهتمامات ميتافيزيقية ، وعلى ميول واماني ذاتية . ذلك اننا لو حللنا الاسباب التى من اجلها اختارت المادية التاريخية الاهتمامات والقيم والمصالح الاقتصادية وحكمتها فى تفسيرها لمجرى الاحداث التاريخية ، فاننا نجد مصدر ذلك النزعة الاشتراكية ، التي ترى ان المصلحة الاقتصادية هى العامل المشترك بين كل العناصر التى تتحكم فى الجماهير ، لان الاشتراكية تنحو نحو التسوية بين المستويات ، ولا يمكن الطموح الى التسوية الا فى الميدان الاقتصادى . ولهذا فان الاشتراكية ليست النتيجة المنطقية للمادية الاقتصادية ، بل على العكس من ذلك الاشتراكية هى السبب النفسانى المؤدى الى اعتناق المادية الاقتصادية والمادية التاريخية اساسا لتفسير مجرى التاريخ .

٢ ــ بندتو كروتشه

وننتقل الآن الى فيلسوف ومؤرخ كان من اشد الفلاسفة والمؤرخين اهتماما بمسالة العلاقة بين الفلسفة وبين التاريخ ، الا وهو بندتو كروتشه (١٨٦٦ ــ ١٩٥٢) .

والغريب انه ينكر « فلسفة التاريخ » لسبب بسيط وهو ان الفلسفة تاريخ ، والتاريخ فلسفة !

ويشرح كروتشه رايه هذا فيقول (٢٤) انه من المعروف ان « فلسفة التاريخ » كانت تعنى

---

(٢١) : « امشاج من الفلسفة النسبية » ، ترجمة فرنسية ، ص ٢٠٧ ، باريس سنة ١٩٦٢ .

(٢٢) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٦٦ .

(٢٣) الكتاب نفسه ، ص ١٦٧ .

(٢٤) راجع كتابه La Storia Come Pensiero e come azione الطبعة الثانية ص ١٣٦ ــ ١٤٢ باري ، سنة ١٩٢٨ .

ـ فى معناها الاول الذى كان شـائعا فى القرن الثامن عشر » ـ « تأملات فى التاريخ » ، او كتابة التاريخ مرتبطة بفكرة الانسانية والحضارة اى على نحو اقرب الى الفلسفة مما كانت الحال عليه عند المؤرخين الذين خضعوا لسلطان العقائد الدينية العتيقة . ولكن هذا التعبير « فلسفة التاريخ » لو حللناه جيدا لوجدناه ينطوى على تكرار وعدم تلاؤم ، لان « التفكير فى التاريخ هو فى ذاته تفلسف ، ولا يمكن التفلسف الا بالرجوع الى الوقائع ، اى الى التاريخ (٢٥) .

ولكن التأملات العامة غير المقرونة بالوقائع تؤدى الى صيغ جوفاء ، هى ما آلت اليه كتب « فلسفة التاريخ » . ويكفى المرء ان يطالعها ليتبين له فى الحال ما فيها من خلط وهوى . ففى بعضها نجد مثلا ان الشرق هو « الشعور المباشر » بينما اليونان هى « حرية الفرد » ، وروما هى « العموم المجرد » او « الدولة » ، والعالم الجرمانى هو « وحدة الفردى والكلى » . وفى كتاب آخر نجد ان الشرق هو « اللامتناهى » ، والحضارة اليونانية الرومانية هى « المتناهى » ، والعصر المسيحى هو « التركيب المؤلف من المتناهى واللامتناهى » . وفى كتاب ثالث يقال ان التاريخ القديم يقوم على فكرة « المصير » ، والعصر المسيحى فى فكرة « الطبيعة » . وبالمثل تسلك فلسفات التاريخ التى تستخدم معانى او شبه مقولات مادية ، كما هو شأن الفلسفة الماركسية فى التاريخ : اذ هى تقول ان العصر القديم يقوم على معنى « الاقتصاد القائم على الرق » ، والعصر الوسيط يقوم على « الاقتصاد المستعبد » ، والعصر الحديث يقوم على « الاقتصاد الراسمالى » ، والعصر المقبل سيقوم على « اشتراكية وسائل الانتاج » . وهذا هو الشأن كذلك فى فلسفات التاريخ القائمة على العنصرية فى الاجناس ، فهى تحول المجتمعات الجغرافية واللغوية للشعوب الى اجناس نقية دائمة مستمرة ، وبعد ذلك تقسمها الى اجناس منحطة واخرى سامية ، وتربط بينها وبين الفضائل والرذائل ، والقوى الروحية او النقائص الفكرية ، والشجاعة والتدين والقدرة على التفكير والابداع الفنى ، او الانحطاط والخسة وانعدام التدين والتخلف الفكرى ، وهكذا .

وثم فلسفات فى التاريخ تنطلق من فكرة احوال بدائية ، تلقائية ، بريئة ، من نوع من الفردوس الارضى ، الذى فقد فيما بعد ، ثم تمر بعد ذلك بجحيم ومطهر العصور التالية ، ثم تكسب بصورة اعلى وتسترد ذلك الفردوس الذى ان تفقده مرة اخرى . وهذا النمط هو الاكثر شيوعا ، ويوجد ايضا فى المادية التاريخية بما تقول به من جنة الشيوعية الاولى ، وما تلا ذلك من فترة وسطى قاسية سيتلوها مستقبل عقلى سعيد .

وثم فلسفات اخرى فى التاريخ ترسم الصراع بين مبداين احدهما للخير والآخر للشر ، احدهما للسعادة والآخر للشقاء والالم ، مع القول بان الانتصار النهائى سيكون لمبدأ الخير والسعادة ويتحقق الجنة على الارض او فى السماء . وهناك اخرى تصور التحرر فى الحصول الشاق على الشعور المتزايد بالشقاء الانسانى ، مما سيقود الى افناء كل ارادة عن طريق الزهد او الى الانتحار الكلى الواعى (شوبنهور) .

ويرى كروتشه ان طابع الاسطورة يسود كل فلسفات التاريخ ، لانها تريغ الى الكشف عن « خطة فى العالم » Weltplan من ميلاده الى فنائه ، او من دخوله فى الزمان الى دخوله فى الابدية ،

---

(٢٥) الكتاب نفسه ص ١٣٦ .

ويشيع فيها لاهوت او عالم من الجن . وليست القرابة بين الاسطورة وفلسفة التاريخ بعيدة ، اذ ليست قرابة مثالية فحسب ، بل وقرابة تاريخية يتضح ذلك لمن يتامل في هذه الحقيقة وهي ان فلسفة التاريخ ـ وقد ادعى الالمان زمنا انها علم جديد والمانى ـ كان لها رواج وازدهار في البيئة التي هيأتها البروتستنية والكتاب المقدس بما فيه من حلم نبخذ نصر وتاويل دانيال بأن سيكون ثم توالى لممالك : مملكة الذهب ، مملكة الفضة ، ومملكة النحاس ، ومملكة الحديد ومملكة الطين .

وبهذه المناسبة ينفى كروتشه ارتباط مايذهب اليه البعض من جعل اعمال **فيكو** Vico (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤) على راس « فلسفة التاريخ » الالمانية من حيث ان هذه كانت في جوهرها اسطورية التكوين ، بينما كانت ابحاث فيكو نقدية .

وبالمثل يهاجم كروتشه « فلسفة الطبيعة » ويرى فيها تأويلات رمزية Allegorismo « والتاويل الرمزى Allegoria لا يضع وحدةعليا ، بل هو كتابة تولج حروفها بين اسطر كتابة اخرى ، وهو كتاب اقحم في كتاب آخر ، كتاب يمكن ان يكون جيدا او رديئا ، وان يقول اشياء معقولة او غير معقولة » (٢٦) .

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول : « ان علو فلسفة التاريخ مثله مثل اي علو Trascendenza آخر ، يساوى علو فلسفة الطبيعة ، التي ازدهرت واضمحلت معها . ومثل اي علو نراه يتخذ شكلين : احدهما شكل الاسطورة والآخر شكل الميتافيزيقا ، التي لا يمكن تمييزها بدقة من المنطق ، لأن كل ميتافيزيقا فيها نصيب من الاسطورة ، اعنى انها تحتوى على عنصر امتثالى ، وكل اسطورة فيها نصيب من الميتافيزيقا ، اعنى انها تحتوى على عنصر منطقى ، بفضله هي اسطورة وليست مجرد خيال شعرى » (٢٧) .

ويرى ارهاصات فلسفة التاريخ في التصورات الهدوية عند العبرانيين وفي الكونيات الشرقية ، ثم اتخذت شكلها الواضح لأول مرة في المسيحية وخصوصا في عصر آباء الكنيسة ، ودخلت فيها بعض التنويعات خلال العصور الوسطى ، على يد رجال مثل يواقيم الفلورى Gioacchino di Fiore (حوالى سنة ١١٣٠ ـ ١٢٠٢) . فلما جاء عصر النهضة قامت حركة لكتابة التاريخ لا تعتمد على الاسطورة . وادخلت المعانى الجديدة في العصور الحديثة ، واخيرا دخلتها النزعة العقلية ونزعة التنوير ، هنالك انحصرت فلسفة التاريخ في دائرة الكنائس (الكاثوليكية والانجيلية على السواء) وتجاهلتها كتابة التاريخ ذات النزعة العلمانية ، ولم تدخل في صراع معها لانها لم تجد نفسها في مواجهة خصم مستكبر ومنافس . وفيكو Vico نفسه لم يحسب لها حسابا . والقرن الثامن عشر لم يفهم من « فلسفة التاريخ » غير التاريخ المروى بروح تنويرية واصلاحية .

لكن حينما استأنف المثاليون التالون « **لكانت** Kant والرومنتيك في المانيا ـ وكانت جامعاتها قد حافظت على التقاليد المنحدرة من العصور الوسطى ـ تقول حينما استأنف هؤلاء منهج فلسفة التاريخ المسيحية العتيقة المنسية في كل مكان غير المانيا ، وبلغت هذه الحركة اوجها

---

(٢٦) كروتشه : « التاريخ فكرا وفعلا » ، ط ٢ ص ١٤٠ . بارى ، سنة ١٩٣٨ .

(٢٧) كروتشه : « فلسفة ـ شعر ، تاريخ » صفحات ماخوذة من كل مؤلفاته ، ص ٥٩٠ ميلانو ـ نابلى ١٩٥٢ .

في فلسفة **هيجل** ، وحينما نمت هذه الحركة وصارت البدع السائد ــ حدث ان تحول عدم الاكتراث القديم نحو فلسفة التاريخ الى رفض عنيف وتهكم ساخر . ولنضرب امثلة على مبالغات هذه الحركة بما فعله **فريدرش اشليجل** (١٧٧٢ ــ ١٨٢٩) من النظر الى التاريخ العالمي على انه سقوط من حالة براءة اولية وحكمة عالية ، بسبب النزاع بين ابناء شيث وابناء قابيل ، سقوط في حالة انعدام الدين والالحاد ، وما فعله **جيرس** Görres (١٧٧٦ ــ ١٨٤٨) من تقسيم تاريخ العالم بحسب ستة ايام موسى ، وجاء شلنج (١٧٧٥ ــ ١٨٥٤) في طوره الثاني فقال بالانتقال من حالة اولية تتسم بالتوحيد الى حالة تتسم بالشرك وذلك بالسقوط في الشر ، وشبه هذا « بالالياذة » التي ستتلوها « اوديسا » عودة الانسانية الى الله . وصارت خصائص العصور المختلفة والشعوب اكثر غرابة : ففي كتب فلسفة التاريخ التي كتبها هؤلاء نقرأ ان العالم القديم هو الجانب الواقعي او الطبيعي للتاريخ ، ومقامه مقام الطبيعة بازاء الروح (او العقل) ، والمتناهي بازاء اللامتناهي ، بينما العالم الحديث هو الجانب المثالي والروحي . او نقرأ كذلك ان مبدأ العالم القديم هو الاحساس ، بينما مبدأ العالم الحديث هو العقل ، وان الشعوب تتميز بغلبة احدى الملكات او الصفات : فالصينيون يتميزون بالعقل ، والهنود بالخيال ، والمصريون بالوجدان النافذ ، والعبرانيون بالارادة .

لكن المؤرخين الوضعيين الذين خسروا من تهاويل هؤلاء الفلاسفة في التاريخ لم يوفقوا في نقد هؤلاء الاخيرين ، لانهم رفضوا الفلسفة نفسها كما رفضوا فلسفة التاريخ ، فحرموا انفسهم من السلاح الصالح الوحيد للقيام بعملية النقد ، واحلوا محل الثنائية الميتافيزيقية نزعة طبيعية ليست اقل ميتافيزيقية من مثالية اولئك ، وجهلوا الثنائية الباطنية التي قال بها كانت Kant واحلوا محلها الميكانيكية الحتمية ، وبهذا لم يخطئوا فلسفة التاريخ ، بل التاريخ نفسه .

ولا سبيل الى تفنيد فلسفة التاريخ ، وكذلك الحتمية التاريخية التي تلدها ، الا بالفحص الدقيق من فعل الفكر الذي يولد كل قضية تاريخية ، وهو فعل يقوم به المؤرخون الحقيقيون ، وهو يقوم على اساس ان الفعل التاريخي يتولد من حاجة واضحة الى الفعل ، او الى التهيؤ للفعل ، ابتغاء الخروج من الموقف الذي يوجد فيه المرء ، وبالتالي ادراك هذا الموقف ، موقفنا نحن في العالم المحيط بنا ، ثم هذا العالم نفسه ، اعني القوى الفعالة فيه . وكل قول في التاريخ محدود اذن بالحاجة التي تدفع اليه ، ولا يمكن الخروج من هذه الدائرة دون السقوط في الخواء . « ان الحكم التاريخي (اى الذي يصدره المؤرخ) هو دائما جواب عن سؤال تصدره الحياة ابتغاء توليد حياة جديدة ، حتى اذا ما عرف ما يراد معرفته ، واتضح ما ينبغي ايضاحه ، لا يبقى ثم وجه للسؤال ، فاذا حصل هذا المصباح المنير ، ينبغي العقل » ولا يمكن ان يكون ثم سؤال آخر وجواب آخر تاريخي الا اذا تكون موقف جديد وانبثقت حاجة جديدة . والتواريخ العارية عن المشاكل العملية التي تتطلبها وتقودها ما هي في قصارى امرها غير تهاويل ومماحكات ، وليست ابدا تواريخ حقيقية .

« ومن التهاويل والمماحكات في المقام الاول ، ادعاء فلسفة التاريخ وضع تلك الاجابات فلسفيا ، وهي في ذاتها فلسفة تتضمن معرفة مقولات العقل (او الروح) التي لا تحيا ولا تقوم الا فيما هو حكم تاريخي عيني : وفي هذه النقطة يرتبط مانذهب اليه من ان كل الفلسفة تحيا فقط في

التاريخ وبوصفها تاريخا ، وان الفلسفة والتاريخ يتطابقان وهما شيء واحد . وهذه حقيقة لمحها او استشعرها هيجل ، لكنه سرعان ما أضاعها حينما تصور « تطبيق » الفلسفة على التاريخ ، تطبيق فلسفة جميلة ممشوقة على تاريخ جميل ممشوق ، الواحدة بغير تاريخ ، والآخر بغير فلسفة . والذين يقولون اليوم او يعتقدون ان النظرية المشار اليها ـ والقائلة بالهوية فيما بين التاريخ والفلسفة ـ ليست غير تكرار للنظرية الهيجلية ، هؤلاء لم يتأملوا في كتب هيجل ولا في النظرية الجديدة ، او هم مخطئون في ادراك الفوارق بين الكلمات التي تتشابه في الرنين ، وهي كلمات لا تأخذ معناها الحق الا في ملابسات تاريخية وحضارية مختلفة . واقول هذا مرة واحدة والى الابد ، انني لا اقرر هذا من تفاخر بالاصالة ، بل من اجل فهم المعاني التي ذكرناها » (٢٨) .

ويكفي هذا بيانا لموقف **كروتشه** من « فلسفة التاريخ » بالمعنى الذي فهمه هو من هذا التعبير ، وهو معنى محدود لا يقره عليه اصحاب فلسفة التاريخ ، ولا ينطبق على نظريات كبار فلاسفة التاريخ : مثل هيجل ودلتاي وزمل واشبنجلر ويسبرز . ويعجب المرء من موقف كروتشه هذا ، ويتساءل : **بأي حق قصر معنى** فلسفة التاريخ على ما اشرنا اليه هاهنا ؟ ان هذا تحكم منه لا مبرر له .

لعل ما دعا كروتشه الى الوقوف هذا الموقف الغريب من « فلسفة التاريخ » هو ايمانه بان الفلسفة تاريخ ، والتاريخ فلسفة كما صرح بذلك مرارا وتكرارا . ولهذا رأى **انه لا محل « لفلسفة التاريخ »** لأن ذلك ـ في نظره ـ تحصيل حاصل .

التاريخية المطلقة

وهذه النظرية هي ما يعرف بالتاريخية المطلقة عند كروتشه ، وقد **كرس لها بحثا في سنة ١٩٣٩ بعنوان « معنى** الفلسفة بوصفها تاريخية مطلقة » (٢٩) .

في هذا البحث يحاول كروتشه ان يبين قضيتين :

الاولى ان الفلسفة لا يمكن ان تكون وليست هي في الحقيقة ، الا فلسفة للعقل (أو الروح) .

والثانية ان فلسفة العقل لا يمكن أن تكون ، وليست هي في الواقع الفعلي ، ولم تكن ابدا حقا ، الا تفكيرا تاريخيا او كتابة للتاريخ ، الفلسفة تمثل في عمليتها لحظة ـ التأمل المنهجي ، التي يمكن ابراز جانب او آخر منها ولكنها لا تنفصل عن العملية الوحيدة للتفكير التاريخي .

ويلاحظ في تاريخ الفلسفة صراع متفاوت ولكنه متواصل تقوم به المعرفة النقدية او فلسفة **العقل ضد طريقتين معارضتين لها في القاء الضوء** الذي تحتاجه الحقيقة . والطريقة الاولى منهما ليست الشعر كما رأى افلاطون ، بل الاسطورة : الاسطورة التي ليست مجرد صورة مثالية او غنائية مثل الشعر ، بل الصورة التي تقوم بدور الحقيقة التصورية وبدور تفسير الاشياء والاحداث . والطريقة الثانية هي الميتافيزيقا . والميتافيزيقا تتولد من الانفصال عن الاساطير

---

(٢٨) كروتشه : « فلسفة ـ شعر ـ تاريخ » ، ص٤٧٠ ـ ٤٧١ . ميلانو ـ نابلي ، سنة ١٩٥٢ . وهذا البحث نشره كروتشه في سنة ١٩٤٣ .

(٢٩) انظره في : كروتشه : « فلسفة ـ شعر ـ تاريخ » ص ١٢ ـ ٢٩ .

وحقائق الوحى ، ابتغاء البحث فى المقولات التى تفكر بها فى الواقع . ويتم ذلك حين لا تجد طريقها الحق فتأخذ بمنهج العلوم الطبيعية او التجريبية ، مما يضطرها الى القول بمقولات فلسفية ، وتصورات تجريبية هى تصورات محضة ، وموضوعات او قوى مادية هى فى آن واحد روحية ومنطقية . والطابع الطبيعى النزعة فى التأملات الميتافيزيقية يتضح فى محاولتها اكتناه السبب أو اسباب الواقع ، لان مبدأ السببية من شأن العلوم الطبيعية . والطابع المقولى يتجلى فى ادعائها البحث فى السبب ، والاسباب النهائية او « العالية » ، وهذا تناقض فى الحدود لأن الاسباب ليست أبدا نهائية ولا عالية ، اذ هى مجرد علاقات بين وقائع جزئية . واسم « الميتافيزيقا » نفسه ، فى انتقاله من معنى الى آخر ، ومن ال **بعد** Post **الى عبر** trans ، يدل على محاولة زائفة للارتفاع من عالم الموضوعات الى عالم الكيانات entita ، وبهذا تضع الفلسفة فى وضع زائف ، واضعة « نفسها **« كفلسفة اولى » او « فلسفة عامة »**. والميتافيزيقا تعلو — أو تسىء فى البعد — على التاريخ ، ابتغاء **الوصول الى عالم خارج التاريخ أو فوق التاريخ .**

وفى مقابل ذلك نجد فلسفة العقل (اوالروح) — وهى التى يدعو اليها كروتشه — **قد انتجت وتنتج دائما كل المعانى والتصورات التى بواسطتها** تحكم الانسان على الحياة وعلى الواقع **وتفهمها . ومنهجها ليس** التجريد والتعميم ، بل التفكير فى الكلى المحايث فى **الفردى** ، وليس ضم **الكليات الى الكليات** ، بل ادراك العلاقات بين الكليات فى داخل الكل الذى يتألف منها ، وليس **رد الوقائع الجزئية الى** أصناف ، بل فهم الوقائع الجزئية بوصفها الكلى المتحقق عينيا .

ان الحكم التاريخى وحدة بين الفردى والكلى ، بين الموضوع والمحمول ، بين الادراك الحسى والتصور . ولا يوجد حكم حقيقى وعينى الا اذا كان تاريخيا . وتاريخية ايضا هى الحلول والتعريفات الفلسفية ، اذ هى تميل دائما الى موقف تاريخى معين يوجد فيه المفكر . « ان الفلسفة الحقة ، وهى تختلف تماما عن مباحث المدارس الفلسفية الهزيلة الشاحبة ، حافلة بالحياة الوجدانية والاخلاقية التى تزخر بها والتى تشبع الرغبة بازاحة الوان الغموض العقلى التى تعانيها وتضعها فى مواجهة الموقف التاريخى ، ممهدة السبيل الى الاشباع اللاحق الذى هو الفعل العملى .

وهنا نصل الى مبدأ مهم وصفه كروتشه للفهم التاريخى ، وهو مبدأ المعاصرة contemparaneità بوصفه الاساس فى كل كتابة حقيقية للتاريخ . فهذه تضع نفسها على انها فى جوهرها **معاصرة** . ذلك ان الحكم التاريخى فى **لحظة** تولده يتبدى انه يتولد من « اهتمام بالحياة الحاضرة » ، والا لم يتولد . ولهذا كان على كتابة **التاريخ** بالضرورة أن تتولد من اهتمام بالحياة الحاضرة . وواقعة التاريخ الماضى يجب ان تشيع فيها روح الحياة الحاضرة حتى تتخذ صورتها الحقيقية . ولهذا ينبغى رفع التاريخ الى الشعور بالحاضر الابدى .

وهنا يميز كروتشه بين « التاريخ » و « الأخبار » ، فيقول « ان التاريخ storia **هو** فى جوهره **فعل للفكر** ، بينما الأخبار cronaca **هو فعل للارادة** . والتاريخ storia **فعل للفكر** ، فعل نظرى لأنه وصف مقولى categoriale للاحداث التى احدثتها الروح الانسانية فى الماضى ، وبوصفه فعلا نظريا فانه فعل « تركيب تاريخى » و « الأخبار » cronaca **فعل ارادة** ، لانها يجب عليها الا تحكم او تصف ، بل فقط عليها ان تسجل امتى ان تحفظ . ان فعله شبيه بفعل **العالم الطبيعى الذى لا يحكم على التجارب الجديدة** المختلفة التى يشاهدها بل يعمم فيها من اجل تصنيفها ، ويقوم بعمل وصف اعتباطى او ميسر . ان الاخبارى يسجل ما يحدث بترتيب زمنى ، انه

لا يتلقى الحياة التاريخية فى ميلادها ونموها من الداخل ، بل يرصدها من الخارج فحسب ، ولهذا فان الاخبار cronaca لا تنفذ الى الفردية المميزة للوقائع التاريخية .

ان الاخبار والتاريخ لا يتميزان بوصفهما شكلين للتاريخ ، يكمل كل منهما الاخر ، او يخضع احدهما للاخر ، بل هما موقفان روحيان مختلفان . « ان التاريخ storia هو التاريخ الحى ، والاخبار هى التاريخ الميت ، والتاريخ هو التاريخ المعاصر ، بينما الاخبار Cronaca هى التاريخ الماضى ، والتاريخ هو اساسا فعل للفكر ، بينما الاخبار فعل للارادة . وكل تاريخ يصير اخبارا اذا لم يعد مفكرا فيه ، بل مذكورا فقط فى كلمات مجردة ، كانت حينا ما عينية وتعبر عن التاريخ . وحتى تاريخ الفلسفة هو اخبار ، كتبها غير الفاهمين للفلسفة ، او قراها هؤلاء ، وتاريخ هو ذلك الذى تكون على استعداد لقراءته على انه اخبار ، الا وهو تاريخ الراهب فى مونت كاسينو الذى وقع ما يلى : « ١٠٠١ : **دومينيك الطوباوى** رحل الى المسيح . ١٠٠٢ : فى هذه السنة جاء الشرقيون (= المسلمون) الى كابوا . ١٠٠٤ : زلزال هائل هز هذا الجبل ، الخ ، وكانت هذه الوقائع جاهزة فى ذهنه ، وبكى على رحيل دومينيك الطوباوى ، وتحزن على المصائب الانسانية والطبيعية التى هزت بلاده ، وابصر فى توالى هذه الحوادث يد الله ممدودة . وهذا لا يمنع من كون هذا التاريخ ، بالنسبة الى نفس الراهب الذى من مونت كاسينو ، امكن ان يتخذ شكل الاخبار ، حينما سطر صيغها الباردة دون ان يتمثل بعد مضمونها ويفكر فيه ، ولم يكن همه غير ان يحفظ هذه الاخبار لاولئك الذين سيقيمون بعده فى مونت كاسينو » (٢٠) .

والتاريخ ، اذا فصل عن الوثيقة الحية وصار اخبارا ، لا يعود يعد فعلا روحيا ، بل شيئا ، ومركبا من اصوات او من علامات اخرى . وبالمثل الوثيقة اذا فصلت عن الحياة لا تعود غير شىء شبيه باى شىء آخر ، ومجموعة من الاصوات او من العلامات الاخرى .

والتاريخية storicismo بالمعنى العلمى ـ هكذا يقول كروتشه (٢١) ـ هى القول بأن الحياة والواقع تاريخ ولا شىء غير تاريخ . وفى نفس الوقت هى تنكر النظرية التى تقسم الواقع الى « فوق تاريخ » ، و « تاريخ » الى عالم الصور او القيم ، والى عالم سفلى يعكسها او عكسها حتى الآن على نحو ناقص عابر وينبغى ان نضع مكان التاريخ الناقص او التاريخ واقعا عقليا كاملا . ولما كانت هذه النظرية تعرف باسم « النزعة العقلية المجردة » او « التنوير » فان التاريخية ـ تسير فى معارضة ونزاع ضد « التنوير » وترتفع فوقه .

ويقوم هذا النزاع على اساس ان الصور او القيم ، التى عدت نماذج ومعايير للتاريخ ، ليست صورا ولا قيما كلية ، بل هى وقائع جزئية وتاريخية هى الأخرى ، رفعت خطأ الى مستوى القيم والصور الكلية . فمثلا فكرة الجمال التى كانت مقياسا للحكم على الاعمال الفنية كانت مستمدة من خطوط الجمال الخاصة عند فرجيل ورفائيل ، وافكار القانون الطبيعى كانت فى اساسها هى النظم القانونية التى وضعت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والافكار الاخلاقية وقواعد السلوك والفضائل هى تلك التى تصورتها الحضارة القديمة او المسيحية القديمة او الحديثة . بينما الافكار (او الصور) والقيم الحقيقية ذات الطابع الكلى تملك تلك القدرة على فهم مختلف الاعمال فى الحياة الفنية والاخلاقية والقانونية ، من اشدها سذاجة وبساطة الى

---

(٢٠) بندتو كروتشه : فلسفة ـ شعر ـ تاريخ » ص٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

(٢١) بندتو كروتشه : « فكرا وفعلا » ص ٥١ ومايتلوها . ط ٢ ، بارى ، سنة ١٩٢٨ .

اكثرها دقة وتركيبا ، وهى اذن ليست نماذج وتعميمات تجريبية ، بل صور محضة ومقولات ، مبدعة وحاكمة دائمة على كل تاريخ .

ومذهب كروتشه فى التاريخية يقوم على المبادىء التالية :

١ ــ انكار بقاء الطبيعة عالما قائما بذاته ،

٢ ــ الاعتراف بالطابع الروحى (العقلى) للواقع ، كل واقع .

٣ ــ تفسير الروح (العقل) على انها عملية تطورية ديالكتيكية ، اى عملية لها فى ذاتها مبدؤها الخاص فى الفهم .

٤ ــ رفض كل نوع من العلو البعد تاريخى Trascendenza metastorica وتوكيد محايثة الروح فى التاريخ ــ وبعبارة اخرى توكيد الهوية بين العقل (الروح) وبين التاريخ .

٥ ــ رد المعرفة الى معرفة تاريخية ، ورد الفلسفة الى لحظة منهجية فى التاريخ (٣٢) .

والروح ــ عند كروتشه ــ تطور ، (والتطور هو تغلب مستمر على الذات وتجاوز لها ، وهو فى الوقت نفسه محافظة مستمرة عليها) (٣٣) . الروح (أو العقل ــ والمعنى دائما واحد عند هيجل وعند كروتشه وفى المثالية بعامة) تقدم ، وكل لحظة من لحظاته لها قيمة ايجابية . وفى داخلها تتدرج وقائع الطبيعة كما تتدرج وقائع الحياة الانسانية ، لان الطبيعة ، تكوين وحياة تاريخية » و « الواقع » الواقع الوحيد (الذى يشمل فى داخله الانسان والطبيعة وهما لا ينفصلان الا تجريبيا وتجريدا فقط) كله تطور وحياة » (٣٤) .

٤ ــ كارل يسبرز

واخيرا نصل الى الفيلسوف الوجودى المعاصر **كارل يسبرز** Karl Jaspers (١٨٨٣ ــ ١٩٦٩) الذى أودع آراءه فى فلسفة التاريخ فى كتاب بعنوان : « فى أصل التاريخ وغايته » (٣٥) .

يرى **يسبرز** ان « التاريخ حدث وشعور بالحدث ، تاريخ ومعرفة بالتاريخ . انه محاط بما يشبه الهاويات . فان تردى فيها ، لم يعد بعد تاريخا . وعلينا ان نغلقه دائما على نفسه ، وان نفتحه للعلو .

« **اولا** : للتاريخ حدود تعزله من كل واقع آخر : طبيعة كان او كونا . وحوله ينتشر المكان اللامتناهى للوجود بوجه عام .

---

(٣٢) راجع Pietro Rossi : Storia e Storicismo nella filosofia contemporania, p. 288 Milano 1960.

(٣٣) كروتشه : « نظرية وتاريخ كتابة التاريخ » ، ص ٧٢ .

(٣٤) الكتاب نفسه ص ١١٨ .

(٣٥) Karl Jaspers : Von Vrsprung und Ziel den Geschichte

ARCHIVE

« **ثانيا** : للتاريخ تركيب باطن ، يرجع الى تحول الواقع البسيط للظواهر الجزئية ولكل ما يمضي دون توقف . وهو لا يصير تاريخا الا باتحاد الكلي مع الفردي ، لكن بحيث في ضوئه الفردي ، في كل صفاته ، يتخذ اهمية لا يمكن الاستغناء عنها ويصير كليا على نحو ما . انه عبور يتحقق فيه الموجود .

« **ثالثا** : يصير التاريخ فكرة شمولية حين نضع السؤال : اين تقوم وحدة التاريخ ؟

« ورؤية هذه الهاويات : الطبيعة الخارجية عن التاريخ التي هي بمثابة تربته السفلى البركانية ، والواقع الذي يتجلى فيها بصورة عابرة فانية ، والتشتت اللانهائي الذي تحاول التخلص منه وحدة اشكالية دائما ـ ان رؤية هذه الهاويات **يسمو فنيا بمعنى ما هو تاريخي حقا** » (٣٦) .

في هذه العبارات فحص يسبرز مشاكل فلسفة التاريخ ، وعقد لها فصولا عنونها كما يلي :

(١) حدود التاريخ .

(٢) التراكيب الاساسية للتاريخ .

(٣) وحدة التاريخ .

(٤) الشعور بالتاريخ لدى الانسان اليوم .

(٥) العلو على التاريخ .

فلنأخذ في بيان المعاني الرئيسية التي عرضها يسبرز في هذه الفصول الخمسة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حدود التاريخ

ان الحياة على الارض ظهرت قبل الانسان . وتاريخ الانسانية ، وهو لا يرتفع الى أعلى من نهاية العصر الثالث ، قصير المدى جدا لو قورن بعمر النبات والحيوان ، وهو عمر يتجاوز عمر الارض بما لا نهاية له من الزمان . والستون قرنا التي **توضحها لنا النقول التاريخية ، لا تمثل غير** فترة ضئيلة لو قورنت بما قبل التاريخ .

لكن التاريخ هو نحن وفارق هائل بين التاريخ الطبيعي وتاريخ الانسانية . ذلك ان التاريخ الطبيعي غير مشعور به : انه مجرد صيرورة بسيطة محضة ، الانسان وحده هو الذي يعرفها ، ولا يتوقف على اي قصد شعوري .

وبحسب مقاييسنا الانسانية فان مجرى هذا التطور للتاريخ الطبيعي بطيء جدا ، ويبدو لنا لأول وهلة كأنه تكرار مستمر . وبهذا المعنى فان الطبيعة ليست تاريخية . واذا كنا نقيم تناظرا بين تاريخها ، فما ذلك الا لأن فكرنا قد تعود على هذه المقولات :

١ ـ فنحن نتمثل لانفسنا ذهاب وعودة دائمين ، واختفاءات متلوة ببدايات ؛ وفي لانهائية الزمان يمكن ان يحدث كل شيء ، لكن ليس ثم معنى ثابت . ومن هذه الناحية ، فان التاريخ بالمعنى الحقيقي غير موجود .

(٣٦) الكتاب المذكور ص ٢٩٣/٢٩٤ من الترجمة الفرنسية .

٢ ـ والعملية الحيوية لا تظهر فى الانسان الا على نوع حيوانى ينتشر على سطح العالم مثل اشكال حية أخرى .

وتطور الانسانية فى مجموعة يتصور على انه عملية واحدة . ان الانسانية تنمو ، وتزدهر ، وتنضج ، وتشيخ ، وتموت . ومع ذلك فنحن نتصور ذلك لا على انه عملية لن تتكرر أبدا ، بل على انه تطورات متوالية او متواقتة ، هى الحضارات المختلفة . فمن المادة الانسانية الهلامية تتولد الحضارات ، كانها « اجسام » تاريخية خاضعة لقوانين تطورها، ولأوجه حياتها : من الميلاد الى الموت . انها بمثابة كائنات عضوية لها حياتها الخاصة ، وعلى الرغم من استقلالها فانها يمكن ان تتصل بعضها ببعض وان يعدل بعضها بعضا او يضر بعضها ببعض .

الوراثة والمنقول

نحن طبيعة ونحن تاريخ . والطبيعة فينا تتجلى فى الوراثة ، والتاريخ يتجلى فى المنقول tradition .

والنمو التاريخى يمكن ان يحدث له انقطاع بسبب النسيان او ضياع التراث المنقول .

ولكننا اناس بالمنقول اكثر منا بالوراثة . ففى الوراثة يجد الانسان عنصرا لا يمكن تدميره ، ولكن فى المنقول عنصر يمكنه ان يفقده نهائيا .

ان المنقول Tradition يصاعد فى الماضى السابق على التاريخ، ويشمل كل ما ليس وراثيا ، بل ما هو مادة تاريخية للآنية (= الوجود الانسانى) .

وعلى وصية التاريخ ، وكانه تراث خلفه ما قبل التاريخ ، يوجد راس مال انسانى ليس وراثيا بالمعنى البيولوجى ، ولكنه جوهر ما هو تاريخى ، ويمكن الانسان أن يستثمره او ان يبدده . وهذا الواقع يوجد قبل كل فكر ، ولايمكن خلقه ولا صناعته صنعا . ولا يمكن ان يكتسب ملاءة ووضوحه الا فى الحركة الروحية التى تتم خلال التاريخ . والانسان يجرى فيه تحويلات . وربما انبثقت ينابيع جديدة هى بدورها مقدمات (واكبر مثال لهذا : العصر المحورى ، وسنتحدث عنه تفصيلا فيما بعد) . ولكن ليس لم جماعات ، بل اشخاص سامية متمزلة ترسل شعاعها ولكن الناس ينسونهم وينكرونهم ولا يرونهم .

وفى التاريخ ميل الى الانفصال عن المنقول وعن قيمه الجوهرية للافلات الى الفكر المحض ، وكان من الممكن ان يولد شىء فى التجريد المطلق للعقل .

التاريخ والكون

لماذا نحن موجودون على الارض ؟ ولماذا نعيش قسطنا من التاريخ فى هذه البقعة من المكان اللامحدود ، وعلى هذه الجنة غير المرئية من التراب الملقى فى ركن من الكون ، وفى هذه اللحظة بالذات ، ضمن لا متناهى الديمومة ، تلك اسئلة لا جواب عنها ، ولكنها هى التى تجعلنا ندرك وجود لغز .

وشعورنا باننا منعزلون فى الكون هو معطى جوهرى فى حياتنا . وفى صمت الكون نحن وحدنا

المزودون بالعقل والكلام . وكان في تاريخ النظام الشمسي لحظة عابرة فيها على الارض حصل اناس على فكرة الوجود ووجودهم هم . وهناك ، وليس في مكان آخر ، حدث هذا الكشف للذات عن نفسها ، كشفا باطنيا خالصا . وفي الكون الهائل ، وعلى كوكب صغير جدا ، وفي تلك القطعة الصغيرة من الزمان التي تؤلف بضعة عشرات من القرون ، **حدثت ظاهرة يبدو انها تجل للشامل** . وفي هذا المكان الضئيل القيمة جدا بالنسبة الى الكون استيقظ الوجود مع الانسان .

لكن الكون هو ظلام الموجود الشامل ، انه عندنا هو المكان والينبوع والواسطة « لكل تحقيق شخصي اصله لا يمكن فهمه . غير ان الكون هو ايضا ما يخلق ويغذي الكشف التدريجي للتاريخ الانساني .

ولقد كان المكان يبدو للانسان قديما شيئا **لا يحد . ولكنه اليوم يحس بان مسكنه على** الارض قد انحصر وضاق : لقد عرفت كل اجزائه وصار في وسعه ان يشمله بنظرته . وكان من اثر هذا ان تكثف وجود الانسان على الارض . وصار **ما حوله اشبه ما يكون بصحراء لا تسكنها الروح** ومحرمة على الانسان . وفي هذه العزلة لا تفهم الانسانية ــ وقد انطوت على نفسها ، غير واقعها هي .

وهذه العزلة في وسط الكون تكون الحد المطلق للتاريخ . انه ليس ثم دليل على وجود كائنات اخرى في عوالم اخرى غير عالم الارض . ولا يهمنا من هذا الامر شيء ، طالما كنا لا نحس بأثر لهذه الكائنات المزعومة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفردي والكلي

واذا حاولنا حصر التاريخ في قوانين عامة ، فلن نستطيع ادراكه ابدا ، لان خاصيته هو انه ظاهرة فريدة .

واذا نظر اليه من خارج ، فان ما نسميه « **تاريخا** » هو ما يحدث في نقطة محددة من المكان والزمان . لكن هذا يمكن ان يقال من كل واقع . فالعلوم تسجل كل تطور طبيعي وفقا لقوانين عامة ، لكنها لا تقول لنا لماذا ــ مثلا ــ الكبريت يوجد بكميات كبيرة في صقلية ، ولا تذكر لنا السبب في التوزيع المحلي للمواد الاولية بوجه عام .

والتحديد في المكان والزمان لا يكفي لبيان خصائص ما هو فردي في التاريخ . وما يتكرر وما يمكن استبداله بوصفه ظاهرة خاصة ، كل هذا هو في ذاته ليس تاريخا . فالظاهرة لكي تكون تاريخية ، يجب أن تكون فريدة لا يمكن استبدال غيرها بها ، ولا يمكن تكرارها .

وطابع التفرد والتاحد هذا لا يتحقق الا في الانسان وفيما يبدعه ، ولا نجده الا حيث يمكن ان تقوم علاقة بين الانسان والظاهرة : بان يكون واسطة ، او تعبيرا ، او غرضا ، الخ . « ان الانسان ليس تاريخيا الا باعتباره موجودا مزودا بعقل ، لا بوصفه موجودا طبيعيا . ونحن ، بوصفنا اناسا ، لا نكون ميسورين لانفسنا الا في التاريخ ، لكن فيما هو جوهري لنا ، لا بوصفنا موضوعا للبحث ، فنحن لا نصير موضوعا للبحث الا بوصفنا طبيعة ، وقانونا عاما ، وحقيقة واقعية تجريبية خاصة . وفي التاريخ نحن نلقى انفسنا بوصفنا حرية ، ووجود ، وعقل ، وجادين في

اتخاذ القرارات ، وذوى استقلال عن العالم . ومايواجهنا فى التاريخ ، لا فى الطبيعة ، هو هذا السر المزدوج : الانتقال المفاجىء الى الحرية واكتشاف الوجود فى الشعور الانسانى » (٣٧) .

وما هو تاريخى هو الوحيد ، الذى لا يمكن استبدال غيره به ، وليس تلك الواقعة الجزئية التجريبية التى سيتفقد فيها ويمتصها ويحولها العنصر التاريخى ، وليس ايضا المفرد بوصفه حاويا او « رمزا » للكلى ، وانما هو بالأحرى ذلك الواقع الذى يهب الحياة لذلك الكلى .

« وهذا الموجود الجزئى فى التاريخ ، لا يدرك الا بالحب والوجدان المتنبىء الذى يولده الحب . انه حاضر بالنسبة الى من يحب ، وتفرده ينكشف حين يلهم الحب الرغبة فى المعرفة . وهو يتجلى فى ظواهر يمكن ان تتنوع الى غير نهاية . وهو واقعى بوصفه جزئيا تاريخيا ، والـ واقعى فى الوقت نفسه بالنسبة الى المعرفة التجريبية . وحبنا لموجود تاريخى جزئى يجعلنا نستشعر الاساس الانطولوجى الذى يرتبط به هذا الموجود . والعالم ينكشف فى لا متناهى الفرد حينما نحبه . ولهذا فان الحب الحقيقى يتسع ويرتفع من تلقاء نفسه ، وينتشر على كل ما هو تاريخى ، ويتحول الى حب للكائن فى ذاته ومنذ اصله . ومن يحب يعرف ، بنوع من الوجدان الكاشف ، كيف ان الموجود ، هذا المفرد الفريد الرائع ، هو تاريخى فى العالم . لكنه لا يتجلى الا فى تاريخية حب موجود مفرد لموجود آخر .

« ويناظر موجود التاريخ الجزئية العينية للمعرفة التاريخية . والتوثيق (جمع الوثائق واستعمالها) وهو يجمع الوثائق الحقيقية ، يقدم المقدمات ، وبفضل هذه ينفتح ، على حدودها ، ما يفلت من البحث التجريبى ، لكنه يرشده فى اختيار موضوعاته وفى التمييز بين الجوهرى والعرضى . والبحث ، وهو يتجاوز الطابع العام للمعرفة ، يبين ، عند حدوده ، ان العنصر المفرد الذى لا غنى عنه للتاريخ ، ليس ابدا قانونا عاما . ولما يتجلى لنا هذا العنصر المفرد فانه يربطنا بذاته على مستوى قائم خارج مجال المعرفة ولكنه غير ميسور الا بالنسبة اليها . وما تمكن من اكتسابه على انه مفرد تاريخيا يمكننا من التوجه صوب تاريخ كلى سيكون بمثابة موجود مفرد ووحيد . وكل تاريخية تغرز جذورها فى ارض هذه التاريخية الوحيدة العالية » (٣٨) .

والتاريخ لا يمحو الطبيعة ، بل تظل هذه الحقيقة الحاملة الثابتة . وكل ما يبقى ولا يتحول الا ببطء شديد هو الطبيعة . لكن بالروح يبدأ الشعور والتأمل والحركة المتصلة والعمل المتواصل من الذات فى الذات ، بينما تنفتح ابعاد الممكن اللامتناهية .

وكلما تأكد جانب التفرد فى الظاهرة ، انعدم التكرار ، وصارت تنتسب الى التاريخ الحقيقى اكثر . وكل ما هو عظيم هو ظاهرة انتقال .

والوجود يتجلى تدريجيا خلال التاريخ . والحرية ، وان كانت موجودة فى كل مكان فى التاريخ ، فانها لا تكون تامة ابدا ، بل تظل دائما فى حركة . وهى تصنع اذا ما اعتقد المرء أنه

---

(٣٧) يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٢٠٢ من الترجمة الفرنسية ، باريس سنة ١٩٥٤ .

(٣٨) كارل يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٢٠٢ – ٢٠٤ من الترجمة الفرنسية .

امثلكها نهائيا . وكلما كانت الحركة جذرية ،كانت الحقيقة ، المتجلية ذات جذور اعمق. ولهذا فان اعظم اعمال الروح (العقل) اعمال انتقال على حدود عصر ، وهاك امثلة لذلك :

ا ـ ان المأساة (التراجيديا) اليونانية انتقال من الاسطورة الى الفلسفة . فمؤلفو المآسى قد استمدوا من المادة الاولية للتقاليد القديمة جدا وصاروا مبدعين فى عالم الاسطورة . لقد عمقوا الاسطورة بواسطة الخيال ، ولكنهم كانوا يعيشون بين المشاكل والتفسيرات . وهم فخموا مضمون الاسطورة وصاروا على الطريق الذى ستضيع فيه . ولهذا فانهم يمثلون انحلالها ، فى الوقت الذين فيه يمثلون انحلالها .

ب ـ واذا كان تصوف السيد اكرت (حوالى ١٢٦٠ ـ ١٣٢٨) كان جريئا ساذج الجراة ، فما هذا الا لانه صار الينبوع لديانة جديدة متحررة . وبفضله امكن تعميق الرؤية ، وفى الوقت نفسه بدا المنقول فى التفكك .

ج ـ وفلسفة المثالية الالمانية ، من فشته :وهيجل الى شلنج ، تقع فى نقطة الانتقال بين الايمان والالحاد . وفى عهد جيته كان للدين طابع جمالى ، فى اللمعان الباهر لعقل قادر على فهم كل اعماق الروح .

د ـ كذلك ينبغى ان ننظر الى افلاطون وشيكسبير . ورمبرنت على انهم شخصيات انتقال. ولم قرون باكملها تمثل انتقالا ، خصوصا القرون من سنة ٦٠٠ الى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، وهى التى يطلق عليها يسبرز اسم « العصر المحورى » .

فمن الخصائص الاساسية للتاريخ اذن انه انتقال اساسا . وما يدوم لا ينتسب اليه ، انه مجرد اساس ومادة ووسيلة عنده .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن هنا تلح علينا فكرة ان تاريخ الانسانية لا بد له من نهاية ، كما كانت له بداية . غير ان الحد النهائى ـ سواء اكان بداية ام نهاية ـ هو بالنسبة الينا من البعد بحيث لا يمكن ادراكه . لكن هذه الحقيقة لا بد ان تلقى ظلها على كل شىء .

وحدة التاريخ

هل هناك وحدة التاريخ ؟

سؤال يطرحه يسبرز ، كما طرحه كل الباحثين فى فلسفة التاريخ . واسباب النفى لهذه القضية عديدة : واولها ان الظواهر التاريخية مشتتة الى غير نهاية : فهناك شعوب وحضارات عديدة ، وفى كل منها قدر لاقيناه من الوقائع التاريخية الجزئية . وحيثما سمح اقليم فى الارض بالعيش ، نظم الانسان جماعة .

ويرد يسبرز على هذه الحجة قائلا ان النظر الى الانسان من هذه الزاوية معنا ، تصنيفه على نحو ما يفعل علماء النبات فى تقسيمه الى انواع واسر نباتية . وهذا معناه الافتقار الى ادراك ما يميز الانسان حقا الا وهو انه على الرغم من تشتت الجماعات الانسانية فان الناس لا يظلون فى عزلة ، بل حيثما التقوا تبادلوا اشياء فيما بينهم : معارف او افكارا . وفى هذا اللقاء يستشعر كل واحد منهم نفسه فى الآخر ويستشعر انه مدعو لاتخاذ موقف بازائه . فهو يحس اذن انه يستهدف شيئا فريدا لا يملكه ولا يعرفه ، ولكنه مع ذلك يدفعه دون ان يدرى .

ومن وجهة النظر هذه يمكن عد مظاهر التشتت فى التاريخ حركة تنحو نحو الوحدة ، وربما كانت تصدر عن أصل مشترك .

ويبحث يسبرز فى دواعى هذه الوحدة فيبدأ باستبعاد الاعتبارات البيولوجية والنفسانية لكي يتلمس الوحدة ودواعيها فيما يشاهد فى مجرى التاريخ من تطور نحو الوحدة فى المعرفة ، ونحو الوحدة فى الاصل : وهذا يتبين من القسمات التالية :

ا ــ ان وحدة الانسان ، من خلال حركة تحولاته ، **ليس لها ثبات الطبائع الثابتة التى** ستحقق كل بدورها . ان الانسان صار ما هو خلال التاريخ ؛ بواسطة حركة ليست فقط طبيعية . انه بوصفه موجودا حيا ، هو مجموع استعداداته الفطرية فى تنوعها ، وبوصفه موجودا تاريخيا ، وصادرا عن أصله ، فانه يتجاوز هذا **المعطى الطبيعى . وهذا الاصل يحمله على الاتجاه** دائما نحو الوحدة التى تربطه بأمثاله من الناس . وتلك مصادرة : اذ بدون هذه الوحدة لن يتيسر الفهم ، وسيكون ثم هوات بين طبائع مختلفة **اختلافا جوهريا ، ولن يتيسر اى تفسير تاريخى .**

ب ــ كل فردية ، بوصفها حقيقة محددة ، لها طابع استبعادى : **فلا انسان قادر على ان يجمع كل الامكانيات** التى تنتسب اصلا الى الانسان بما هو انسان ، ولا بد من الانتخاب ، **فاما القديس او البطل مثلا** . ان الانسان بوجه عام وكذلك الفرد ، من حيث **أصله الذى صدر عنه ، يشتمل على كل الممكنات** ، ولكنه فى الواقع الفعلى ليس الا فرديا . والفرد **ليس ابدا انسانا كاملا مطابقا لمثل اعلى . ولا** يمكن وجود انسان كامل ، لأن ثم شقا وثغرة فى كل ما **يحققه** .

جـ ــ ومن اللافت للانتباه ، ان ثم وحدة انسانية فيما يتجلى من **مشابهات فى القسمات الاساسية** ، سواء فى الاديان ، وفى اشكال الفكر وفى النظم الاجتماعية .

د ــ والعلم والقدرة التى يمد بها التكنيك الانسان يزيدان فى تقدم **الانسان خطوة فخطوة** ، وفى تاريخ الحضارة يرتسم خط يصاعد دائما ، بيد ان الوان التقدم هذا **محصورة فى ميدان العالم والتكنيك** ، وهما عاريان من الشخصية . ومن هذه الناحية يمكن تصور التاريخ على انه تصاعد مستمر . صحيح ان فيه مع ذلك رجعات وتخلفات وتوقفات ، لكن بوجه عام يمكن القول بوجود تزايد فى الخبرات التى يسهم فيها الجميع والتى هى ميسرة للجميع . ونستطيع ان نستقرى مراحل التقدم هذه على مدى التاريخ .

غير ان الانسانية فى ذاتها ، واخلاق الانسان ، وطيب ذاته ، وحكمته ــ كل هذه لا تقدم . ثم اذن تقدم علمى وصناعى (تكنيكى) يوسع من ممكناتنا ، ولكن ليس هناك تقدم بالنسبة الى جوهر الانسان . واعلى الحضارات قد غرقت فى هاوية العدم ، وخضعت لغيرها من الحضارات التى كانت احط منها . وبعض الحضارات دمرها المتبربرون ــ حتى لا يخطىء المرء كثيرا ان قال : « كل ما هو عظيم ينهار ، وكل ما هو منحط يدوم » .

• • •

على انه اذا لم تكن الوحدة واقعة ، فيمكن النظر اليها على انها غاية ، وهذه الغاية يمكن ان تعد معنى خفيا . فلنحاول ان نفسر التاريخ من حيث النهاية : ــ

ا ــ ان الغاية هي المدنية ، هى تأسيس الانسان ، وما نقصده من هذا ، وراء التنظيم المادى للحياة ، لم يتحدد نهائيا ، ولكنه ينتسب الى التاريخ . وعلى مستوى هذا التنظيم ، فانه

النظام القانوني للعالم . ان حركة التاريخ تسير من التشتت الى حياة مشتركة على الارض في وحدة قانونية ، بعد الازمنة التي كانت الاتصالات**الوحيدة فيها هي أعراض السلام والحرب** . وهذه الوحدة بتنظيمها للحياة العملية ، تترك المجال حرا لكل الامكانات الروحية والمعنوية للمبدعات الانسانية .

٢ ــ **الغاية هي الحرية** ، الحرية الواعية . ويمكن تصور كل ما جرى حتى اليوم على انه محاولات لاكتساب هذه الحرية والظفر بها . لكن ماهيتها حقا لن تتجلى الا في اللامتناهي .

وارادتنا في تنظيم عالم مؤسس على القانون لا يضع لنا كفاية مباشرة الحرية العالية ، بل الحرية السياسية ، وهذه الاخيرة تهيىء للانسان الحد الاقصى من الامكانيات لتحقيق الحرية العالية .

٣ ــ **الغاية هي انسانية عليا** ، وعملها الروحي هو ميلاد مدنية في الجماعة المتحققة انها العبقرية .

ان الدافع الباطن فينا يدفعنا الى شعور متزايد في الوضوح . ووحدة المعنى تاتينا من **النقطة التي فيها الانسان** ، في المواقف الحدية ، يستشعر نفسه باوضح ما **يكون** ، وفيها يضع لنفسه **المسائل الجوهرية** ، ويجد الاجابات الخلاقة التي ستقود حياته **وتطبعها بطابع** نهائي حاسم . وهذه الوحدة المتحققة في المظلمة لا تقوم في ان يتسع الانسان في علمه ووسائله التكتيكية ، ولا في غزو مزيد من الامكنة وتنظيمها بطريقة امبريالية ، كذلك فان النظم التربوية المتخصصة الى اقصى درجة ، والتي لا تكون غير زهاد خارجين عن تيار الحياة او الكشارية ، لن يجعلوا هذه الوحدة تتخذ شكلها ، وليست تقوم ايضا في ثبات الانظمة والمذاهب ، وانما لتقوم في تلك **اللوامع التي فيها يكشف** الانسان عن نفسه ، في كشف جوهري .

وربما لا يكون هذا غير نقطة فرارة في مدى التاريخ الهائل . ولكنه سيكون بمثابة خميرة في **مجموع الصيرورة** . وربما يكون الاثر سريعا ، ربما كان هذا الكشف ــ الذي يبقى اولا في عمق ذكرى الناس ، مستعدا للعمل ــ مجرد سؤال يوضع للمستقبل ، او الا تلتقط هذه القوة في العالم ، والا تترك اي اثر في رد الناس ولا تبقى الا امام العلو .

فاذا كانت هذه القيم في نظرنا لا يمكن ان يحل محلها غيرها ، فهذا مرجعه الى انها ترجع الى وحدة مفترضة دائما ولكنها غير مملوكة ابدا ، هي الغاية والاصل والمصير في التاريخ .

٤ ــ الغاية هي **الوجود المتكشف في الانسان** ، وحينما يتاحد الانسان مع الوجود في اعماقه فهذا هو الكشف عن الالوهية » (٣٩) .

●●●

وعند يسبرز ان ادراك الوحدة في التاريخ ، اي تصور التاريخ العام على انه يؤلف كلا ، هو ما تصبو اليه المعرفة التاريخية التي تبحث عن معناه الاسمى .

---

(٣٩) كارل يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٣٢٢ ــ ٣٢٤ من الترجمة الفرنسية .

والمؤرخون الذين ارادوا تصور التاريخ الكلى قد ضيقوا من وحدته بسبب ضيق آفاقهم : ففى اوروبا كان التاريخ هو تاريخ الغرب ، وفى الصين كان التاريخ هو تاريخ امبراطورية الوسط . وما كان خارج هذا النطاق لم يكن فى نظرهم موجوداً بوصفه تاريخاً ، بل كان حياة المتبربرين والبدائيين، ولا قيمة له الا من ناحية علم الاجناس. وكانت فكرة الوحدة قائمة على اساس ان كل هذه الشعوب المجهولة لا بد لها ذات يوم ان تشارك فى المدنية الحقيقية وستنضم الى النظام الذى كان يعد وحده الصالح .

ولما اراد الايمان ان يميز فى التاريخ بين علة وغاية ، وجدهما فى الوقائع . وادى ذلك الى تصور اله يوحى للانسان بوجود هذه الوحدة ، او بعلم عقلى يمده برؤيا واضحة لها :

الغرب راى عمل الله فى التاريخ ، وابصر سلسلة من الافعال الالهية : الخلق، عقاب الانسان المطرود من الجنة الارضية ، التنبؤات التى تعلن عن ارادات الله ، الخلاص المتحقق بظهور شخص الهى على الارض ، حتى نهاية الزمان ويوم الحساب المقبل . وما تصوره الانبياء أولا شكله **اوغسطين** (٣٥٤ — ٤٣٠) فى صورة مسيحية ثم تكرر وتعدل خلال القرون ابتداء من **يواقيم الفلورى** حتى **بوسويه** (١٦٢٦ — ١٧٠٤) ثم عبر عنه فى صورة علمانية الفلاسفة من **لسنج** (١٧٢٩ — ١٧٨١) **وهردر** (١٧٤٤ — ١٨٠٣) حتى **هيجل** . وكلها محاولات استهدفت الى تصور التاريخ فى وحدته ، حيث يجد كل شيء مكانه . لكن **يسبرز** يبدى على هذه المحاولات الملاحظات التالية :

ا — لو عرفت مجموع الاشياء ، فان لكل حياة انسانية مكانها المعلوم فى هذا التاريخ . انها فى ذاتها ليست بشيء ، لكنها مجرد وسيلة . وهى ليست على **علاقة مباشرة بالعلو** (transcendance) ولكن عن طريق **محلها** فى الزمان ، مما يحد منها ويمنع من أن تكون شمولا **totalité** . وكل شكل من **اشكال الحياة** ، وكل عصر ، وكل شعب قد رد الى مجرد وسيلة . بيد ان **فكرتنا** عن وجود **علاقة اصيلة مع الله** ، وعن لامتناه شامل يمكن فى كل لحظة ان يكون كلا ، تحتج من هذا التصور .

ب — والمعرفة الشاملة تمكن من افلات الشطر الاكبر من الوجود الانسانى ، اذ تنحى جانبا شعوب باكملها هى وحضاراتها وتعد عرضية ومجرد مصادفة فى التطور الطبيعى .

جـ — والتاريخ لم ينته ولا يمكننا من ادراك اصله . ومع هذا فان هذا التصور — وحدة التاريخ — يدعى انه يحيط به . وبدايته ونهايته تستخلص بواسطة وحى مزعوم . والواقع اننا بازاء نظريتين فى التاريخ متعارضتين وتستبعد كل منهما الاخرى :

١ — فاما ان نقول ان التاريخ امامنا بوصفه كلا : انه مجموع التطور المعروف او القابل ان يعرف من أوله الى آخره . ونحن وعصرنا موضوعون فى نقطة محددة من هذا المنحنى ، ونعد هذه اللحظة بمثابة اوجه او احط نقطة فيه .

٢ — او نقول ان التاريخ ناقص وغير تام بالنسبة الى شعورنا . ونحن متأهبون بالنسبة الى ما يمكن أن يحدث . وهذا الموقف موقف تربص ، ويبحث عن الحقيقة ، وتحوط وتحفظ وفطن ، لا يدعى ولا معرفة الحاضر ، لان هذا لن يفهمه الا المستقبل . ومن وجهة النظر هذه ، فان الماضى نفسه ناقص ، لم يتم ، انه لا يزال يحيا ، والقرارات التى اتخذت سابقا ليست نهائية ، بل نسبية ، يمكن تعديلها وتنقيحها واعادة النظر فيها باستمرار ، ويمكن اعادة تفسير الاحداث الماضية وتأويلها من جديد . وما بدا انه تقرر قد اعيد وضعه موضع التساؤل .

وعلى هذا النحو يتبدى لنا التاريخ كانه مجال للمحاولات ، ووحدته تضيع فى لا نهائية الممكن . والموقف الدائم هو التساؤل .

والخلاصة « ان وحدة التاريخ ليست موضوعا للمعرفة . ولا يمكن ان نميز فيها وحدة اصل بيولوجى للانسان . وبوصفها وحدة كوكبية ، محددة فى المكان والزمان ، فانها ظاهرية فحسب . ولا يمكن البرهنة على وحدة غاية عالية . وتصور نظام عالمى مؤسس على القانون يقوم على اساس افكار انسانية ، لا على معنى التاريخ فى مجموعه ، ولا يزال تصورا احتماليا . وهذه الوحدة نحن لا نستطيع ان نقول انها حقيقة **واحدة كلية ، لأن هذه الهوية لا تقوم الا على** الذهن . ووحدة التاريخ ليست تقدما نحو غاية ، وليست ايضا المنحنى الصاعد لعملية لا متناهية . ولا توجد بالنسبة الى الشعور الواضح ، ولا تعثر عليها . فوق أعالى الخلق الروحى . وليست معنى يصدر عنه كل شيء او يجب ان يصدر عنه كل شيء . ولا يمكن عدها تركيبا صنعته الانسانية فى مجموعها . وشمول التاريخ ليس حاضرا حقا فى رؤيتنا التأملية : لا كواقع ، ولا كمعنى (٤٠) .

ان كل قول بوحدة التاريخ هو تبسيط خاطىء اذا كان يرى ان يفسر التاريخ فى شموله . وانما الواجب علينا ان نحافظ على الجزئيات والتفاصيل العديدة ، وفى نفس الوقت نعترف بأن ثم شيئا يتجاوزها ويعلو عليها ، ولا بد اذن من ان يظل العقل متأهبا ومتفتحا لادراك نوع من الوحدة .

ذلك « ان فكرة الوحدة تستمر فى فرض نفسها علينا . ومهمتنا هى تحقيق التاريخ الكلى :

ا ـ فنحن نرتفع على الاقل الى الحصول على « نظرة شاملة للتطور الانسانى فى العالم باسره . ونرفض فى وقت واحد كلا طرق التبادل الذى يقوم فى الاختيار بين تفتيت الوقائع المشتتة وبين تركيب ذى نزعة مركزية ، اننا نبحث بالاحرى عن نظام ملائم للتاريخ فى مجموعه . وحتى لو كان تشييدنا للوحدة التاريخية يجب دائما ان ينبه معرفتنا الى هوات الجهل ، فمن الممكن مع ذلك القول بنظام تسوده فكرة الوحدة .

ب ـ وهذه الوحدة عليها ان تستند اولا على هذه الواقعة وهى ان كوكبنا جسم متناه ويمكننا امتلاكه كله ، وثانيا على تسلسل زمنى معين ، فى حضن قطعة من المرة ـ مهما يكن من تجريد هذه الفكرة ـ ، واخيرا تستند على الجذر الوحيد الذى ولد الانسانية ، لأن ثم خصائص متجانسة تجعلنا نفترض أصولا لنا مشتركة .

جـ ـ والسبب الجوهرى للاعتقاد فى هذه الوحدة هو ان الناس يلتقون فى تفاهم كلى ، ويلتقون فى روح تشمل الجميع ، روح لا يستطيع احد ان يدرك مداها ، لكنها ترحب بنا جميعا . وهذه الوحدة يعبر عنها على ادق وجه فى تصور اله واحد .

د ـ وفكرة الوحدة حاضرة عينيا فى الشعور الذى يدرك الامكانيات الكلية للانسانية . ومتى ماكان المرء مستعدا ، فان الفكرة القائلة بان كل شيء **يمكن ان تكون له اهمية كلية ويتبرر بمجرد** وجوده ـ هذه الفكرة تفرض نفسها اقوى واقوى ونحن نشعر باننا نعيش على مستوى لاشيء فيه

---

(٤٠) يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ من الترجمة الفرنسية .

يبدو غير مهم ، ويشف لنا عن اماكن بعيدة وفى نفس الوقت يبين لنا ان كل دقيقة فى الحاضر تقتضى منا قرارا ، فى الطريق الذى نسلكه . وان نظرة نلقيها على هذه البدايات الاولى للانسانية – وهى بعيدة مع ذلك عن الاصول الاولية – ونظرة على المستقبل – ولا يزال دائما مفتوحا – سيمكناننا من ادراك الامكانيات المتضمنة فى مجموع لايمكن الاحاطة به ، حتى ان وحدة الكل تنكشف فى التحديد الباطن الذى يجعلنا نؤدى مهمتنا المباشرة .

هـ – واذا كان علينا ان نتخلى عن تكوين صورة متسقة تامة للكل ، فقد بقيت لنا على الاقل اشكال تعكسها . وهذه الاشكال هى : التاريخ يترتب وفقا لسلم من القيم ، منذ اصوله وخلال مراحله الحاسمة . والواقع ينقسم الى جوهري وعرضى .

والتاريخ يتوقف على كل سمي : العناية ، وادرك فيما بعد على انه القانون . وحتى لو كان الانسان قد اخطأ فى التمسك بتلك الفكرة ، فان فكرة الكل هذه تبقى تصورا حديا . نحن لانستطيع ان نرى الكل ، بيد اننا نعيش فيه ، ونحن لانستطيع التصرف فيه كما نهوى ، ولكننا نرتب فيه حياتنا . والتاريخ ، فى مجموعه ، لايتكرر ، انه تاريخي حقا ، وليس طبيعيا . وتبقى الفكرة القائلة بوجود كل منظم ، فيه لكل ظاهرة مكانتها الخاصة بها . وليس ثم فى هذا مجموع من الصدف ، بل كل الخصائص الارضية تتدرج فى الوحدة الاساسية » . (٤١)

ليس ثم وحدة فى التاريخ العام ، وانما ينشد الانسان الوحدة دون ان يبلغها ابدا . ومزج الانسانية كلها فى وحدة هو حد التاريخ ، بمعنى ان هذه الوحدة لو تحققت لانتهى التاريخ .

لكن يسبرز لايقف عند هذا المعنى ذى النغمة الحزينة ، بل نراه – على عادته دائما فى كل ما يكتب – يختم بنبرة حارة سخية فيقول : ان الوحدة النهائية ستشرق فى منطقة لايمكن بلوغها من الملكوت التى فيها تتلاقى الارواح وتتآخى ، انها الملكوت المستور الذى فيه ينكشف الوجود فى اجماع النفوس . لكى يبقى شيء تاريخى ، الا وهو الحركة التى فيما بين البداية والنهاية لاتبلغ ابدا معناها الخاص اللهم الا اذا لم يكن ثم غيرها هى » .

ويبدو ان شعورنا بالتاريخ بسبيل ان يتطور . واعمال الباحثين المخلصين فى التاريخ تتوالى ولاتزال لها كل اهميتها . وفى وسعنا ان نحدد بعض نقط هذا التطور للشعور بالتاريخ :

ا – ان الجديد هو **كلية مناهج البحث ودقتها** ، واحساس بالتنوع اللانهائى للاسباب ، وارادة للفحص الموضوعى عن التاريخ بمساعدة مقولات اخرى غير مقولات السببية : التراكيب المورفولوجية ، معانى الكل ، الاشكال النمطية .

ب – لم يعد من حقنا اليوم ادعاء ان نرى فى التاريخ **كلا يمكن ادراكه فى مجموعه** . ولم يعد فى وسعنا ان ننساق وراء الرؤى الشاملة . ولانجد فى اى موضع كشفا تاريخيا محددا للحقيقة المطلقة . ولا يوجد فى اى مكان مايمكن ان يتكرر **هو نفسه** .

ج – ولنرتفع الآن فوق التامل الجمالى للتاريخ . فلا ننساق وراء دعوى ان كل ما فى التاريخ جميل ، يجذبنا . ذلك ان علاقتنا الحقيقية بالتاريخ ليست علاقة استمتاع وتامل

(٤١) يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٣٢٨ – ٣٣٠ من الترجمة الفرنسية .

جمالى ، بل هى صراع : ذلك ان التاريخ يهمنانحن باشخاصنا ، وما يهمنا فيه يزداد اتساعا كل يوم . « وكلما كان التاريخ حاضرا لنا ، قل نظرنااليه على انه موضوع للتأمل الجمالى » (٤٢) .

د ـ وها نحن أولاء مدفوعون **نحـو وحدةانسانية** بمعنى أوسع واكثـر عينيـة مما كانت الحال عليـه من قبـل . ونحن نعرف السرورالعميق الذى تحدثه فينا النظرة التى تلقيها على أصـل الانسـانية . ولا يقصـد من هذا معنى« الانسانية » ، فان كلمة « انسانية » تصور مجرد يضيع فيه الانسان . ولقد تخلينا من هذهالفكرة الغامضة . ان فكرة الانسـانية لا تصبح عينية وقابلة للاحاطة الا فى جماع التاريخ الفعلى .

ولقد يبدو التاريخ الكلى خليطا من الاحداثالعرضية ، التى تدور فى دوامة أعصـار . انه يجرى دائما من اضطراب الى اضطراب ، ومن شر الى شر ، مع فترات تهدئة بسيطة ؛ وجزر صغيرة تطفو على الامواج العاتية المضطربة ، امواج الاحداث التاريخية ، حتى ليكاد يصدق قـول ماكس ڤيبر Max Weber « ان التاريخ الكلى طريق رصفه الشيطان بقيم محطمة » .

ولو نظرنا الى التاريخ من هذه الزاوية ، لماكانت له وحدة ، ولا تركيب ، ولا يعنى ـ غير التسلسل المشوش الاسباب والاشكال ، مثلمايحدث فى الطبيعة على نحو اكثر انتظاما . « لكن مهمة فلسفة التاريخ هى البحث من هذا المعنى ، وهذا التركيباللذين لا يمكن أن يهما غير الانسانية فى مجموعها » (الكتـاب نفسـه ، ص ٣٢٩ من الترجمة الفرنسية) .

هـ ـ والتاريخ والحاضر يصيران بالنسـبةالينا غير قابلين للانفصال الواحد عن الآخر . ان شعورنا بالتاريخ مندرج فى استقطاب : ففى وسعى أن أعود كيما أتأمل التاريخ من بعد ، وأن أراه كموضوع بازائى ، أو ككهل فى البعد ، يمكن ان يدرك كله فى خطوطه العامة وفى تفاصيله . وفى وسعى ايضا ان ادمج نفسي فى الحاضر الأبدى : فى اللحظة التى انا فيهـا ، والتى تنحفر ، وهنالك يصير التاريخ فى نظرى ذلك الحاضر الذى هو انا .

على ان النظرتين ضروريتان : **موضـوعيةالتاريخ بوصفه حقيقة اجنبية عنى ، مستقلة عن ذاتى ، وذاتية اللحظة الحاضرة ، التى بدونها لن يكون لتلك الحقيقـة اى معنى عندى .** وعلينا ان نغذى الواحدة بالاخرى : نغذى الصـورة الكلية للتاريخ بالشعور بالموقف الحاضر . فأعانى الحاضر وفقا لطريقتى فى رؤية جماع الماضى . وكلما تعمقت فى الماضى ازدادت مشـاركتى فى المجـرى الحاضر للاشياء جوهرية واهمية .

« اين مكانتى ،ولماذا احيا ، هذا امر لا افهمه الا بفضل مرآة التاريخ . ومن لا يحسب حسابا للثلاثة آلاف سنة التى سبقته يظل فى الظل ، انه كمن خلا من التجربة ويعيش ليومه » .

* * *

(٤٢) يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٣٢٨ منالترجمة الفرنسية .

لقطات علمية
من تاريخ الطب العربي

توفيق الطويل

تمهيد

لقطاتنا من طب المشرق والمغرب العربيين[1]، في عصر الاسلام الذهبي الذي امتد من منتصف القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر لميلاد المسيح .

اما الاطار العلمي الذي سنتحرك فيه ونحن نتخير هذه اللقطات ، فيضم كل تفكير طبي اعتمد على المشاهدة الحسية منهجا ، واقتصر على الوقائع الجزئية موضوعا ، واستهدف تفسير الواقعة وتقنينها (او تقعيدها) غرضا ، ومن هنا كانت هذه اللقطات وشبيهاتها تشكل الطب العربي علما طبيعيا بمفهومه عند المحدثين من الغربيين ، برغم ان التطور الذي صاحب هذه المرحلة من حياتهم ، لم يزودهم بما يعرف الآن من صنوف الآلات والأجهزة وغيرها ، مما

(١) كان يطلق المشرق العربي على العراق وسوريا ومصر ، ويطلق المغرب العربي على اسبانيا او بلاد الاندلس (وهي ما دان لحكم العرب من شبه جزيرة ايبريا) .

قفز بتقدم الطب العلمى فى عصرنا الحاضر اوسع القفزات .

ويخطىء من يستبعد من علماء العرب كل من انحدر من اصل غير عربى ، فقد حدد مفهوم العالم العربى الذى نقصده فى هذا البحث المنصفون من المستشرقين (من امثال ف . بارتولد Barthold ، وكارلو الفونسو نللينو Nallino ، والدو ميلى Aldo Mieli) فقالوا ان علماء العرب فى هذا المجال هم كل من اسهموا فى تقدم العلم ممن كتبوا بالعربية من اهل العصور الوسطى ، وعاشوا فى بلاد عربية ، او تدين لسلطان العرب ، يجمعهم تراث واحد ، ويربطهم مصير واحد (٢) .

وهذه دراسة لا تدفعنا اليها الرغبة فى تمجيد الأجداد ، والاشادة بتراثهم ، لأن مثل هذه الرغبة لا تتمشى مع منهج البحث العلمى الذى يقتضى الباحث ان يتوخى النزاهة ويلتزم الموضوعية فى بحثه، وانما يغرينا بهذه الدراسة انها تكشف عن حقائق مطمورة ، او مجهولة للكثيرين منا ، ممن لا يعرفون تصيب العرب فى حلبة الصراع مع الآفات والأمراض .

وفى الحق لقد كانت المعرفة منذ فجر التاريخ مطلب الشعوب التى اخترعت الحضارات ، او اسهمت فى بنائها بنصيب ملحوظ ، وباستثناء المعرفة التى تزيد التجربة الدينية ثراء ، آثرت هذه الشعوب من مجالات المعرفة ما تيسرت الافادة منه فى خدمة الحياة العملية وتحقيق مطالبها ، ترحب به حين تسلمها اليه خبرتها ، وتسعى اليه فى مظانه اذا لم تدركه فى بيئتها .

وكان اول شيء اثار اهتمام الانسان الاول : الدين والطب،اثارت القوى الطبيعية مخاوفه ، فاستعان على مقاومتها بآلهة تصورها،واشفق على نفسه من مغبة المرض ، وافزعته آلام المصابين به من اهله وذويه ، فنزع الى صناعة الطب ، واستعان ـ اول الامر ـ فى محاربة المرض بالتعاويذ والأحجبة والرقى السحرية ، حتى اذا استقام ادراكه ونضج وعيه ، ارتفعت بالأديان المنزّلة اساليب تدينه ، واستقامت بالخبرة والوعى طرق المحافظة على صحته ، وَسَمَا بالعلاج الطبى الى مستوى يشرّف انسانيته .

وكان العرب ، وخاصة فى عصورهم الوسطى ، من أشد شعوب الارض طلبا للمعرفة ورغبةً فى الافادة منها فى حياتهم ، وكان فى مقدمة العلوم العملية التى ظفرت بنصيب ملحوظ من اهتمامهم : الطب ثم الفلك وسائر فروع المعرفة التى تقوم على خدمتهما .

والآن ننبه ـ بعد هذا التمهيد ـ الى اننا سنضمن هذا المقال ثلاثة فصول خاطفة ، نتناول فى اولها آفاق الطب العربى وقائيا وعلاجيا ، ونعرض فى ثانيها لتطور هذا الطب عبر تاريخه الطويل ، ونبين فى ثالثها مظاهر النضج فى دراساته .

آفاق الطب العربى

نحدد فى هذا الفصل اطار الطب العربى ، ونتتبعه موجزين فى حقله الوقائى ، ثم فى مجاله العلاجى ، ونستكمل صورته بالاشارة الى العلوم المساعدة له ، ومجال تطبيقه فى المستشفيات التى كانت دورا لعلاج المرضى ، ومعاهد لتعليم الطب،وتدريب الأطباء ، وتلفت النظر ـ مع هذا ـ الى آداب الطبيب والتزاماته .

علم الطب ، عند مؤرخيه من الغربيين المحدثين ، يضم **فن الوقاية من الامراض ، وكفالة الصحة عند الافراد والجماعات ، ثم**

(٢) انظر فى تفصيل هذا كتابنا : العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى ص ٢٢ وما بعدها .

الكشف عن الامراض فى بواكيرها ، وتدبير العلاج الكفيل بتخفيف آلامها ، والقضاء عليها عند استفحالها ، ومن الضلال ان يظن ظان ان وظيفة الطب لا تعدو علاج الامراض ، فان الطب الوقائي اسبق من الطب العلاجى مهمة واعظم خطرا ، وهذا معنى لا يتبادر الى الاذهان ، لأن الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى !

وقد فطن الى هذا المعنى مؤلفو العرب فى عصورهم الوسطى ، فكان الطب عندهم وقائيا يستهدف حفظ الصحة ، وعلاجيا يقصد الى شفاء المرضى ، والوقائى اجل من العلاجى واكثر نفعا ، لأن الصحة فى الاصحاء موجودة ، وفى المرضى معدومة ، والمحافظة على الموجود اجل من طلب المفقود — فيما يقول علي بن عباس المجوسى (ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م) فى كتابه « الكامل فى الصناعة الطبية — او الكناشة الملكية » وشاعت هذه النظرية عند أطباء العرب ومؤلفيهم ، فعبر عنها « ابن سينا » شعرا فى ارجوزة من اراجيزه الطبية حين قال :

هذه ارجوزة قد اكتمل
فيها جميع الطب علم وعمل

الطب حفظ صحة بـرء مرض
من سبب فى بدن منذ عرض (٣)

وارتبط الطب بحياة الناس ، وكان مثار اهتمام العرب ، فجدوا فى ارتياد مجاهله والكشف عن حقائقه (٤) .

فلنقف الآن عند :

(أ) الطب الوقائى :

تهتم الأمم المتقدمة فى أيامنا الحاضرة بالطب الوقائى ، لأنه يكفل لمواطنيها الخدمات الصحية التى تقيهم شر الامراض والاوبئة قبل وقوعها ، ويهيئهم للعمل ويمكنهم من الانتاج ، ويوجه الجهود الى العناية بحالة المساكن ونقاء الهواء ، ومستوى الغذاء ، ونشر الوعى الصحى ، وانشاء المعامل التى تساعد على كشف الامراض فى بواكيرها ، وصنع اللقاحات والامصال الواقية . . . وغير ذلك مما احتل مكان الصدارة من اهتمام الحكومات ومؤسساتها فى أيامنا الحاضرة : فلا تقنع بالطب العلاجى ودراساته الاكاديمية مكتفين باستخدام السماعة وميزان الحرارة وانبوبة الاختبار !

وقد بدأت فتوحات الطب الوقائي فى الغرب منذ ان وضحت العلاقة بين الفقر والمرض ، واقتنع البرلمان الانجليزى بأن يعتمد عام ١٨٤٨ م قانونا يكفل المحافظة على صحة الشعب ، وينظم اول مجلس عام لتحسين موارد الحياة ، ويقوم — بمشاريع المجارى وتنظيف المدن الكبرى ، ونشأ فى الولايات

---

(٣) الارجوزة الكبرى (الالفية فى الطب) وهى تتالف من الف وثلاثمائة وستة عشر بيتا ! وقد شرحها كثيرون فى مقدمتهم ابن رشد ، وترجمت فى القرن الخامس عشر الى اللاتينية (لغة العلم فى أوربا اذ ذاك) .

(٤) لا يمنع هذا من ان نشير الى طائفة آثرت ترك التداوى عند الاصابة بمرض ، اتكالا على الله ، قال شاعرهم :

ان الطبيب بطبه ودوائه — لا يستطيع دفاع امر قدرا
ما للطبيب يموت بالداء الذى — قد كان يبرىء قبله مستظهرا
هلك المداوَى والمداوى والذى — جلب الدوا وابتاعه ومن اشترى

وبنظرة فلسفية رفض بعض كبار الاطباء علاج انفسهم ! فالرازى رفض معالجة عينيه بحجة انه رأى من العالم ما يكفيه ! وابن زهر رفض اى اسعاف قائلا لولده الذى كان يقوم على خدمته انه عانى من الحياة ما يكفيه ! وابن سينا رفض ان يتعاطى الدواء ، وباع ممتلكاته ووزع ثمنها على الفقراء !

المتحدة عام ١٩٠١ معهد روكفلر للأبحاث الطبية بمعامله وآلاته واجهزته العلمية والباحثين المتفرغين به ، وفى العام التالى وافق الكونجرس على قانون يحرم غش الاغذية والأدوية .

ولكن العرب فى عصورهم الوسطى قد توصلوا الى الكثير من اسس الطب الوقائى ومقوماته ، فتوسلوا الى الوقاية من الامراض بدراسة الجسم ووظائف اعضائه ، وحاولوا الكشف عن اسباب الأمراض واعراضها وطرق انتشارها ، لمعرفة اساليب الوقايه منها دفعا لوقوعها ، واهتموا بما نسميه اليوم بعلم الصحة (Hygine or Hygenics) وحرصوا على وضع القواعد التى تكفل العافية وتحول دون الوقوع فى المرض ، ومعرفه الوسط الذى يعيش فيه الانسان ، كما يبدو فى الهواء الذى يستنشقه ، والغذاء الذى يطعمه ، والماء الذى يشربه ، والمسكن الذى يقيم فيه ، والعمل الذى يقتات منه ... بل كان بين اطباء العرب من اضافوا ضرورة الاهتمام بالحالات النفسية التى تتمثل فى الخوف والغضب والحزن والفزع ، والياس والامل ... وغير هذا من انفعالات لها تاثيرها البالغ فى صحة الانسان ومرضه .

وكثرت مؤلفات العرب فى المحافظة على الصحة واتقاء الأمراض ، فكتب الرازى كتابه « منافع الأغذية ومضارها » وجرى على نهجه الكثيرون ، وارسلوا اهتمامهم كتبا أو ابوابا فى كتب ، وتناول الرازى فى كتابه السالف الذكر منافع الحنطة والخبز ومضارهما ، والطرق التى تستخدم فى دفع هذه المضار ، وعرض لمنافع الماء باردا وحارا ، والشراب المسكر ومضاره ، ومنافع اللحوم والاسماك ووجه الأذى من تناولها ، والكوامخ والزيتون والمخللات ونحوها ، ومنافع البيض والبقول ، النيىء منها والمطبوخ ، والتوابل والفواكه والحلوى ... وعرض للأسباب التى تفسد الاستمراء مع جودة الطعام ودفع كل منها ... الى آخر ما تناوله فى ذلك الكتاب .

وخصص تلميذه « علي بن عباس » فى كتابه السالف الذكر « الكامل فى الصناعة الطبية » واحدا وثلاثين فصلا فى علم الصحة ، تحدث فيها عن حفظ الصحة وتدبيرها بالرياضة والاستحمام والغذاء والشراب والنوم والجماع ، وعرض لحالات الهواء فى كل فصل من فصول السنة ، وتدبير من ناله اعياء ، ومن فى اعضائه آفة ، ومن أصيب بهزال ... وحذر من الامراض الوبائية ونبه الى الاعراض المنذرة بها ، ولم يفته ان يتحدث عن الامراض النفسية وغيرها مما يدخل فى علم الصحة .

وزاد « ابن سينا » فعرض فى قانونه للحديث عن اختيار المرضعة ، والوقاية من حرارة الشمس ، وعوامل البيئة من طقس وتربة وغذاء وشراب .. ونحو ذلك مما تناوله فى الفن (الباب) الثانى من كتابه .

وكان للعرب فى اسباب الصحة والمرض لفتات طبية نقتبس منها نموذجا من مقدمة ابن خلدون ، اذ تحدث فيها عن اهمية الهواء والغذاء ومكانهما من حياة البدو وسكان الحضر ، فقال ان مرد الأمراض فى اغلب الحالات الى التغذية ، وهى تصيب اهل الحضر والامصار اكثر مما تصيب اهل البدو « لخصب عيشهم وكثرة ماكلهم » وتنوع اصنافها واقبالهم على تناولها ، مع خلطها بالتوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسا ، الى جانب طبخها والاكثار من صنوفها حتى لتبلغ فى اليوم الواحد اربعين نوعا من النبات والحيوان ... يزيد هذا ان الهواء فى الامصار تفسده الابخرة العفنة والناشئة من كثرة الفضلات ... وان اهل الأمصار لا يزاولون الرياضة الا نادرا .. واما اهل البدو فيغلب عليهم الجوع لقلة ما لديهم من حبوب ، حتى صار الجوع عادة ظنها البعض جبلة فطرت عليها طبائعهم ، ويكاد طعامهم يخلو من الدسم ، ولا يعالج بالطبخ ولا يزود

بالفواكه ، ... وأما الهواء الذي يستنشقونه فنقى قليل العفن ، مختلف ان كانوا ظواعن ، وهم يزاولون الرياضة بحكم حياتهم ، ويكثرون الحركة وركوب الدواب ومباشرة الصيد ونحوه مما يساعد على هضم الطعام وتفادى البردة (ادخال طعام الى المعدة قبل ان يهضم ما فيها) وبالتالى تقل حاجتهم الى الطب ... سنة الله التى خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا (٥) .

وحديث علي بن عباس المجوسي عن **خطر الوقاية** من الأمراض ، يستحق ان نقف عنده قليلا :

يقول ان الاجسام من شأنها ان تتغير وتستحيل ، لأن مصيرها الفساد والفناء ، وهما يعرضان للابدان اما ضرورة واما غير ضرورة « ويعرض أولهما بسبب الجفاف الذى يصير به النبات الى الذبول ، والحيوان الى الهرم ثم الى الموت ... وقد يعرض الفساد بسبب الفضلات التى تتولد عن الاطعمة والاشربة ، اما ما يعرض من الفساد الضرورى من خارج فيكون بسبب الهواء المحيط به ، اما الفساد الذى يعرض للاجسام من غير ضرورة ، فيبدو فيما يلحق بالانسان من خارج ، كصدمة الحجر او قطع السيف او لدغ الهوام ونهشها ، واذا كان الأمر على هذا فان الأجسام تتغير دواما ، ولا تثبت على حال ، ومن هنا مست الحاجة بالضرورة الى تدبير يصلح ذلك التغير ويمنع الأجسام من الفساد ، ويحفظها على حال صحتها الى وقت الهرم والموت الطبيعى ، ان منع الفناء مستحيل لانه ينشأ عن طبيعة الأبدان ، ولكن الطبيب يتعين عليه أن يصطنع التدبير الذى يمنع الأسباب الداعية الى فساد الجسم وفنائه ، حتى لا يسرع اليه الهرم ، وذلك بالمبادرة بالتحفظ من الأسباب المفسدة غير الضرورية ، وتدبير البدن بما ينبغى ، فتصلح بذلك الأسباب الضرورية ، ولا يسرع الى الجسم الفساد ، وهذا التدبير هو حفظ الصحة على الاصحاء وردها الى المرضى ، وحفظ الصحة اعظم من علاج الامراض ، لأنه الغرض الذى تقصد اليه صناعة الطب .

وفى تراث الطب وصايا هدت اليها خبرة الطبيب العربى ، فمن أقوال العرب ليس أضر على الشيخ من طباخ حاذق وجارية حسناء ، لانه يستكثر من الطعام فيسقم ، ومن الجماع فيهرم ... يقول « ابن سينا » :

اجعل غذاءك كل يوم مرة
واحذر طعاما قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فانه
ماء الحياة يراق فى الأرحام (٦)

ومثل هذا فى تراث الطب العربى اكثر من ان يحصى ، وهو يكفى ابطالا للزعم القائل بأن عقيدة القضاء والقدر قد صرفت اهلها من المسلمين عن الالتزام بقواعد الصحة ، ونسى اصحاب هذا الزعم ما فطن اليه بعض الغربيين - من امثال ول ديورنت - من ان من مسلمات الاسلام ان النظافة من الايمان ، وان الشراب المسكر حرام ، وميل سكان المناطق الحارة الى ايثار الطعام النباتى على الحيوانى ، والدعوة الى الاستحمام وخاصة عند الاصابة بالحميات ، والدعوة الى استخدام حمامات البخار وغيرها مما لا يزال يتبناه الطب الحديث .

قد لا يجد قارىء اليوم شيئا غريبا فيما اسلفناه عن موقف العرب فى عصورهم الوسطى من الطب الوقائى ، ولكنه اذا وضع هذا الموقف فى اطاره الزمنى ومجاله الحضارى ، كان خليقا

---

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٢ - ٩٣ .

(٦) وان قيل ان ابن سينا قد مات بسبب الافراط فى اشباع شهوته !

بان يجد فيه سبقا لعصره بمئات السنين ، ويراه اهلا لان يمثل مكانه من هذه اللقطات .

(ب) الطب العلاجي :

التشخيص والعلاج : اهتم العرب بتشخيص المرض ومعرفة اعراضه وطرق علاجه ، فكان الطبيب يستفسر من مريضه عن ماكله ومشربه ومسكنه واسرته وحالته الصحية والاجتماعية ونحو هذا مما لا يزال طبيب اليوم يتوخى معرفته ، وكان للعرب فضلهم في الكشف عما سموه بالاسباب والعلامات ، اى اسباب الامراض واعراضها ، وكان الرازى يرتبها طبقا لأهميتها ، وهذا هو ما يسميه اطباء اليوم بهيرارشية العلامات ، وقد اشار الرازى الى اختلاف العلامات باختلاف الوقت الذى تحدث فيه عبر تاريخ المرض ، فكان العرب اول من ابتدع استقصاء العلامات وتدوين المشاهدات بدقة بالغة ، مع استنباط نتائجها التى تلزم عنها بالضرورة .

واهتم الطبيب العربي بفحص البول وجس النبض ، وعرض مؤلفوهم لبيان هذا في مئات الكتب ، وسموا الاستنتاج من فحص البول بالتفسرة ، ولم يكن يعالج مريض الا بعد فحص بوله ، وله عندهم علامات تميز السليم من المريض ، وكان النبض يشير الى حركة القلب ومدى حيويته ، فكان رسولا صادقا ومناديا يكشف برغم خَرَسِه عن اشياء خفية فيما يقول « علي بن عباس » .

وساعدهم هذا على وضع قواعد التشخيص، والتفرقة بين الامراض المتشابهة في اعراضها ، ففرق « الرازى » بين الجدرى والحصبة ، وميز « ابن سينا » بين الالتهاب الرئوى والتهاب السحايا الحاد ، وبين المغص المعوى والمغص الكلوى ، وبين حصاة المثانة وحصاة الكلية .. وغير هذا مما سنعرض له في « كشوف طبية عربية » .

اما العلاج فكان ــ فيما اشار « ابن سينا » وغيره ــ بممارسة الرياضة ، ونوعية الغذاء وكميته ونحو ذلك من اساليب العلاج الطبيعي، ثم باستخدام الدواء والعقاقير او باجراء الجراحة التي اسماها العرب « العمل باليد او بالحديد » ، ولنقف عند بعض فروع الطب في تراثهم :

في طب العيون وغيره :

امتد الطب العلاجي الى امراض العيون والنساء والتوليد والأطفال والأمراض العصبية والنفسية وغيرها مما يقتضي التخصص ويستلزم التعمق في الدراسة ، فازدهر طب العيون على ايدى العرب لنشوء امراضه في بلادهم الحارة ، ويرجع الفضل في وقوفنا على براعتهم فيه الى « يوليوس هيرشبرج » J. Hirchberg استاذ طب العيون بجامعة برلين سابقا ، اذ افرد لتاريخ طب العيون سبع مجلدات استغرق اعدادها الاكباب على الدراسة الأمينة الواعية خمسة وعشرين عاما ، خصص سبعا منها لمجلد عن طب العيون عند العرب والمسلمين .

ومن خير ما وضع في طب العيون كتاب « دغل العين » ليوحنا بن ماسويه + ٨٢٧ م ــ وشهرته عند الفرنجة Mesue Maior ويسمى ايضا يوحنا الدمشقي ــ وهو من السريان والنساطرة الذين تولوا التدريس في مدرسة جند يسابور ، وقد عهد اليه الرشيد برياسة دار الحكمة، ويقول «ماكس مايرهوف» عن كتابه السالف الذكر انه اول كتاب عربي منظم في علم الرمد ، بل يقول انه اقدم الكتب التي وضعت في طب العيون في مختلف اللغات القديمة ، لان ما وضع في هذا الباب في السريانية قد فقد،والكتاب حافل باصطلاحات فنية وفارسية ، وان كان اسلوبه العربي رديئا ، وبعض مؤلفاته الطبية مزود برسوم الأعشاب الطبية ، وعلى نهجه سار كثيرون من العرب في تزويد كتبهم بالرسوم .

وبلغ طب العيون كماله بكتاب حققه حنين ابن اسحاق + ٨٧٧ م ــ وشهرته عند الفرنجة Johannitus ــ هو كتاب « العشر مقالات

في العين » على ما بينه وشرحه جالينوس الحكيم ـ فيما يقول حنين في مقدمته ـ وهو أقدم كتاب مؤلف على الطريقة العلمية في طب العيون ـ فيما يقول ناشره ومترجمه الى الانجليزية ماكس مايرهوف (٧) وقد زوده مؤلفه برسوم شائقة للغاية ، وهي أول رسوم عرفت في تشريح العين ، ثم هي أدق من كثير من مثيلاتها في الكتب الاوروبية في القرون الوسطى ، فيما يقول الباحثون المحدثون من اطباء العيون انفسهم ـ وقد جرى على نهجه في تزويد الكتب برسوم ايضاحية بعض خلفائه من المؤلفين ، وفي مقدمتهم ابن اخته حبيش بن الاعثم .

واتضح من هذا كله كتاب « تذكرة الكحالين الذي صنفه « علي بن عيسى » في القرن العاشر ـ وشهرته عند الفرنجة Jesu Haly ـ وهو بين الكتب العربية يعد أكملها جميعا في هذا المجال ، ولا يفضله حتى بين الكتب الاوربية كتاب آخر حتى القرن التاسع عشر ـ فيما يقول الدوميلي وماكس مايرهوف (٨) .

وعلى هذا المستوى نفسه كان كتاب « المنتخب في علاج امراض العين » « لعمار بن علي » الموصلي بالقاهرة ـ وشهرته عند الفرنجة Canamusli (٩) ويتفق ماكس مايرهوف مع هيرشبرج في ان عمارا كان مجددا في تصور طريقته ، وبخاصة لازالة ماء العين (الكتاراكتا Cataracta) وهو الذي اخترع الابرة المجوفة التي تمتص هذا الماء .

وقد صنف « خليفة بن ابي المحاسن » في النصف الثاني من القرن الثالث عشر كتابه « الكافي في الكحل » وزوده برسوم لآلات تستخدم في جراحات العين ، ومن فرط ثقته في قدرته على اجراء جراحة ماء العين كان لا يتردد في اجرائها للمريض ولو كان بعين واحدة !

وفي ذلك السيل من مؤلفات العرب في طب العيون عرفت دراسات عميقة في تشريح عيون الحيوانات وعضلاتها، مما أعانهم على تشخيص أمراض العيون وطرق علاجها على أحسن وجه يتيسر لمن تنقصه الآلات والأجهزة الحديثة التي يستخدمها المعاصرون من اطبائنا .

وبرع العرب في الجراحة بأوسع معانيها ، ومنها جراحات النساء والتوليد ، وقد قام « خلف ابو القاسم الزهراوي » (ت ٤١٤ هـ /١٠١٢ م) ـ وشهرته عند الفرنجة Abulcasis ـ بجراحه تفتيت رأس الجنين متى كان ضخما ، واخترع منظار المهبل ، وكتب مع غيره من المؤلفين ـ من امثال « ابن سينا » و « ابن زهر » ـ في الأورام الرحمية ، والعنق وتقرحه ، وشرح « علي بن عباس » طريقة توليد الجنين الميت دون ايذاء المرأة الحامل ، وتحدث عن الأدوية التي تعوق الحمل، وان آثر عدم ذكرها خشية ان يستخدمها من لا يحتاجها بالضرورة ، وذلك تمشيا مع تقاليده الدينية من ناحية ، وولائه لِقَسَم « ابقراط » الذي اخلص له اطباء العرب ـ وسنعود اليه عند الحديث على « التزامات الطبيب وآدابه » ، كما أوصى الطبيب ان يشير بدواء ينفع في احتباس الطمث ... وغير هذا مما يدخل في امراض النساء والتوليد .

---

(٧) مقدمة العشر مقالات في العين لناشره ماكس مايرهوف ـ المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٢٨ .

(٨) الدوميلي : العلوم عند العرب ص ٢٥١ ـ ولم ينشر نص الكتاب العربي كاملا ، ونشر ماكس مايرهوف نص بعض فصوله ملحقا بكتابه عن تاريخ التراكوما وعلاجها قديما وعند العرب (بالانجليزية) وللكتاب ترجمة المانية .

(٩) لم ينشر نصه العربي ، وترجمه الى الالمانية هيرشبرج مع آخرين ، ونشر ماكس مايرهوف للمؤلف نفسه كتابا آخر عن عمليات ماء العين .

فى الامراض المعديه

وامتد طبهم العلاجى الى الأمراض المعدية ، وكانوا يسمونها بالأمراض السارية ، فتحدث « ابن سينا » عن عدوى السل الرئوى ، وسبق الى وصف داء الفيلاريا وسريانه فى الجسم ، والى وصف الجمرة الخبيثة التى أسماها النار المقدسة ، كما سبق « الرازى » الى وصف الجدرى والحصبة والتفرقة بينهما ، والقول بالعدوى الوراثية ، وسبق « علي بن ربان الطبرى » (الذى لمع نحو سنة ٨٥٠ م) الى الكشف عن الحشرة التى تسبب داء الجرب ، وسبق « ابن ماسويه » الى وصف الجذام . . .

وكان العرب ـ فيما روى مؤرخو الطب العربى ـ **اول من قرر ان الاوبئة تنشا عن التعفن ، وتنتقل بالهواء والمخالطة** ، واشار « ابن التميمى » الى استخدام التدخين لتطهير الهواء اثناء انتشار الوباء ، واثبت « ابن الخطيب الأندلسى » وجود العدوى **ولاحظ مرارا ان من خالط مريضا مصابا بمرض سار (اى معد) او لبس من ثيابه ابتلى بالمرض ، ومن لم يخالطه نجا من العدوى** . وقد تحدث فى رسالته « مقنعة المسائل عن المرض الهائل » ـ ويقصد الطاعون ـ فيقول : « فان قيل كيف نسلم بدعوى العدوى وقد ورد فى الشرع ما ينفى ذلك (١٠) قلنا **وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة ، وهذه مواد البرهان ، وغير خفى عمن نظر فى هذا الامر او اراد ادراكه ، هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالبا ، وسلامة من لا يباشره كذلك ، ووقوع المرض فى الدار والمحلة لثوب او آنية ، حتى ان القرط اتلف من علق باذنه واباد البيت باسره ، ووقوعه فى المدينة فى الدار الواحدة ثم اشتعاله فيها فى افراد المباشرين ، ثم فى جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصه حتى يتسع الخرق ، وفى مدن السواحل المستصحيه حال السلامة الى ان يحل بها منْ فى البحر من عدوى اخرى قد شاع عنها خبر الوباء . . . وصح النقل بسلامة اهل العهود والرحالين من العرب بافريقيا وغيرها لعدم انحصار الهواء ، وقلة تمكن الفساد منه »** .

واشار « ماكس مايرهوف » فى فصل الطب فى كتاب **تراث الاسلام The Legacy of Islam** الى ان الطاعون كان موضع دراسات علمية عربية فى مقدمتها دراسة « ابن الخاتمة » (ت ٧٧١ هـ/١٣٦٩ م) وكان قد اجتاح بعض المدن الأسبانية فى عصره .

ولا عجب فى هذا كله ، فقد فطن الى العدوى نبى الاسلام (ص) فى القرن السابع للميلاد فيما أثر عنه انه قال : « اذا وقع الطاعون بأرض فلا تقدموا عليها ، واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » فلا غرابة ان قيل ان العرب كانوا اول رواد الحجر الصحى .

كان هذا عند العرب فى عصورهم الوسطى ، بينما كانت أول دراسة علمية فى أوروبا عن العدوى والأمراض المعدية عام ١٥٤٦ م وكانت اوروبا تجهل اسباب الامراض المعدية عند فشو الطاعون عدة مرات فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، وعده الغربيون قضاء من الله لا يرد !

وقريب من هذا كله يمكن ان يقال فى براعة العرب فى طب الامراض العصبية والنفسية والعقلية ، وطب الاطفال والاسنان* والبيطرة وغيرها من فروع الطب المختلفة .

---

(١٠) الاصل ان رسول الله (ص) قال : لا عدوى ولاطيره ، وقال : لا يورد ممرض على مصح ، اى مريض على صحيح ، فالحديث يجب ان يحمل على التهيوليس على النفى بمعنى : تجنبوا العدوى واتقوا شرها وعندئذ يكون الحديث : لا يدخل مريض على صحيح ، مفسرا للحديث : لا عدوى .

* انظر النصوص القيمة التى جمعها اوتوشبيس عن« طب الاسنان عند العرب » وترجمها عن الالمانية الدكتور حسين مؤنس ونشرها فى مجلة معهد الدراسات الاسلاميةبمدريد مجلد ١٣ عام ١٩٦٨ .

فى التشريح والجراحه :

اما الجراحة ، فانها لا تستقيم بغير ممارسة التشريح ، والمحدثون من المستشرقين على اتفاق فى ان الشريعة الاسلامية قد حرمت تشريح الجثث ، انسانية كانت او حيوانية ، واستندوا الى هذا فى القول بتأخر الجراحة والطب العلمى عند العرب ، ومن ثم كان اعتمادهم على ما كتبه « جالينوس + ٢٠١ م فى هذا المجال ، مع انه اقتصر على تشريح جثث القردة وغيرها من الحيوانات ، وحتى « ادور جورج براون » E. G. Browne قد اعتمد على مؤرخ الطب العربى « ابن ابى اصيبعة » ومعجم ايرانى وضعه اربعة من العلماء اجابة لطلب الشاه ، وذكر ان « ابن ماسويه » + ٨٢٧ م كان يميل الى التشريح ، ولا يستطيع ان يحصل على جثث انسانية ، فعمد الى تشريح قردة فى غرفة خاصة اقيمت على شاطىء دجلة ، وقد اعد له امير النوبة بمصر ـ بأمر من الخليفة المعتصم ـ نوعا من القردة تشبه الانسان شبها قويا ليمارس تشريحها ؛ ومع هذا يزعم براون ـ مع الدو ميلى A. Mieli وول ديورنت Durant وغيرهما ـ ان ليس لديهم دليل يعتد به على ممارسة التشريح ـ لجثث انسانية او حيوانية ـ فى مدارس الطب العربى : واشارة « ابن ابى اصيبعة » الى ما سلف تنفى الزعم الذى ردده بعض الغربيين من ان التشريح كان محرما فى الشريعة الاسلامية ، والرأى عندنا ان الوقوف على ما كتب اطباؤهم يشهد بأن الكثيرين منهم قد زاولوا التشريح وان لم يجرأوا على الجهر بما فعلوا مخافة ان يتعرضوا لسخط المتزمتين من رجال الدين .

لم يقنع العرب بالالمام بما كتبه الاقدمون ، ولا سيما امامهم جالينوس ـ فى مجال التشريح ، بل نبهوا الى الكثير من اخطاء اسلافهم فى هذا المجال ، فى ضوء خبراتهم الشخصية ، ومن الادلة الناطقة على صدق هذا ان « ابن النفيس » (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) برغم انه كان يجاهر بانه لا يقوم بتشريح الجثث استجابة لتعاليم الشريعة ، كان فى كتابه « شرح تشريح القانون » ينقد « الفاضل جالينوس » ويقول : « والتشريح يكذبه ! » وفى ضوء خبرته الذاتية كشف الدورة الدموية لأول مرة فى تاريخ الطب ، كما سنعرف عندما نتحدث عن « كشوف طبية عربية » .

وكان « عبد اللطيف البغدادى » (ت ٦٢٩/ ١٢٣١ م) وهو يصف رحلته الى مصر فى كتاب « الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » يصرح بانه وجد تلا من الهياكل البشرية فى احدى المقابر بمصر القديمة وتبين بخبرته خطأ « جالينوس » الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه » !

هذا عن التشريح عند العرب فى عصر رأت فيه اوروبا ان فن التشريح امتهان للجسم الذى خلقه الله ! وقد اجريت اول عملية تشريح فى باريس اواخر القرن الحادى عشر ، اى بعد وفاة « ابن النفيس » بنحو قرنين ! وفى مونبليه بفرنسا اجريت عام ١٥٥١ م وفى بازل بسويسرا عام ١٥٨٨ وفى بولونيا عام ١٦٣٧ ! ولم تنشأ نواة فن التشريح الوصفى الا اواخر القرن الخامس عشر باذن من البابا سكستوس الرابع ، ولم تنشأ مدرجات للتشريح فى اوروبا الا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ـ فيما اشار الدكتور غليونجى .

وفى ظل التشريح عند العرب تقدمت الجراحة ، وكان امامها « ابو القاسم الزهراوى » (ت ٤١٤ هـ/١٠١٣م) ـ وشهرته عند الفرنجة Abulcasis . وبكتابه « التصريف لمن عجز عن التاليف » احتل مكان

الصدارة بين جراحي العصور الوسطى ، وقد قدره الفرنجة أكثر مما قدره بنو وطنه ، وكان كتابه دائرة معارف طبية ، تناول في قسمها الاول الطب الباطني ، وفي الثاني الاقرباذين (الصيدلة) والكيمياء ، وفي الثالث الجراحة ، وهو اهمها واخطرها ، عرض فيه للعلاج بالكي ، وآثره على المشرط ، واوصى به في فتح الخراجات واستئصال السرطان ، وقد زود كتابه برسوم مجموعة ضخمة من الالات المستخدمة في الجراحة ، نورد هنا نموذجا منها نقلا عن مؤرخ الطب العربي « لوسيان لوكلير » + ١٨٩٣ .

وكان « الزهراوي » السباق الى ربط الشرايين في الجراحات ، ومعرفة الطريقة التي تستاصل بها الحصى المثانية في النساء عن طريق المهبل ، وقد وصف استعداد بعض الاجسام للنزيف وعالجه بالكي ، واجرى جراحات ناجحة في شق القصبة الهوائية وتفتيت الحصاة في المثانة وغير ذلك كثير ، وقد كان كتابه مرجع الدارسين في اوروبا ، والكتاب المدرسي في جامعاتها حتى مطلع القرن السابع عشر (١١) .

علوم مساعدة للطب :

اتصلت بالطب العربي علوم تجريبية اعانت على تحقيق اغراضه ، في مقدمتها الصيدلة التي افادت من علمي النبات والكيمياء ، لأن على الصيدلي أن يعرف حقيقة الاعشاب ، ويقف على خصائصها ،ويقوم بتركيب المركبات واعداد المستحضرات وتحليلها ، فلنقف عند هذه العلوم قليلا :

في علمي النبات والكيمياء :

اهتم العرب بالنبات من ناحية منفعته في علاج الأمراض منذ ان اخذت الدولة الاسلامية في التحضر ، واتصلوا بتراث اسلافهم في دراساته ، وفي مقدمتهم ديسقوريدس + ٦٠م Dioscorides الذي كان كتابه في الحشائش مرجع خلفائه من بعده ، وكان يضم اكثر من ستمائة عشبة مع ادوية وعطور وادهان وصموغ وانواع شراب وادوية معدنية. وقد وضع ابن جلجل في مطلع القرن الحادي عشر ذيلا لترجمة هذا الكتاب استكمل فيه مافات ديسقوريدس من اسماء العقاقير الطبية ، بل أضاف العرب الفي نبات الى ما كان يعرفه اليونان .

وفي اواسط القرن السابع اخذ « ابن البيطار » (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٩م) يطوف البلاد لملاحظة النبات ومشاهدته في منابته ، وعين في بلاط الملك الكامل الأيوبي نقيب العشابين (الصيادلة) في الديار المصرية .

وفعل مايشبه هذا « رشيد الدين الصوري (ت ٦٢٩هـ/١٢٤١م) وزاد فاصطحب معه في رحلاته مصورا مزودا باصباغ والوان ، واطلعه على النبات في منابته ليتوخى الدقة عند رسمه في تعيين لونه ، وحجم اوراقه ، واغصانه واصوله ـ على نحو ما يفعل علماء النبات في ايامنا الحاضرة .

اما الكيمياء فان مؤرخيه على اتفاق في ان نشاته علما تجريبيا ، كان مقدرا لها ان تكون على يد علماء العرب ، ومن انكر منهم ـ مستشرقين كانوا او عربا ـ وجود « جابر بن حيان (ت ١٩٨هـ/٨١٣م) كشخصية تاريخية، رد نشاة هذا العلم الى عالم عربي آخر هو « ابو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦ م) ـ شهرته عند الفرنجة Le Razes فيما يرى الدوميلي بوجه اخص ، فالعرب هم الذين ازالوا عن الكيمياء السرية والغموض والرمزية التي لازمتها عند اسلافهم،واصطنعوا

(١١) لا توجد طبعة كاملة للكتاب ولا لترجمته اللاتينيةالتي قام بها جيرار الكريموني او غيرها وللكتاب او اجزاء منه ترجمات مختلفة اشار اليها الدوميلي ص ٢٥٥ ـ ٥٦ .

فى دراساتها منهجا استقرائيا تجريبيا ، واستخدموا فيها المكاييل والموازين وغيرها من الآلات تحقيقا للدقة والضبط .

والى العرب يرجع الفضل فى كشف الكثير من المركبات والمستحضرات التى لاتزال معتمدة فى ايامنا الحاضرة ، ومن المركبات التى استحدثوها ماء الفضة (حامض النتريك) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الذهب ... وقد كشفوا البوتاسا والنوشادر وملحه (نترات الفضة) والسليمانى (كلوريد الزئبق) واكسيده ، ونترات البوتاسا والزاج الأخضر (كبريتات الحديد) والكحول والزرنيخ وغيرها من مستحضرات ومركبات لم يعرف بعضها فى أوروبا الا أواخر القرن الماضى .

فى علم الصيدلة : تقول جمعية الصيدلة المصرية فى العدد الاول من نشرتها ، ان الصيدلة فن علمى يبحث فى اصول الادوية ـ نباتية كانت او حيوانية او معدنية ـ من حيث تركيبها وتحضيرها ومعرفة خواصها الكيمائية والطبيعية ، وتأثيرها الطبى ، وتحضير الادوية المركبة منها ، والعقار ـ بضم العين ـ يعنى الدواء،وكان يراد بالاقرباذين Pharmacology تركيب الأدوية المفردة وقوانينها فيما يقول حاجى خليفة ، وزاد المحدثون الادوية المركبة فيما يقول الاب قنواتى فى تاريخه للصيدلة .

والعرب هم اول من انشا صناعة العقاقير علما تجريبيا ، وتمكنوا عن طريقه من ابتكار ادوية لم تكن معروفة من قبل ، وركبوها من اصول نباتية وحيوانية ومعدنية ، واضافوها الى ما عرفوا من صنوفها عن اليونان والهنود وغيرهم ، وكانوا بهذا السباقين الى ابتداع الاقرباذين على الصورة التى وصلت الينا .

وكان العرب اول من ابتدع حوانيت العقاقير ـ الصيدليات ـ على الصورة التى نعرفها اليوم ، وعنهم اخذ الفرنجة ذلك ، ولا يزال هؤلاء يستخدمون الكثير من اسمائها العربية ، كما كان العرب اول من ابتدع مدرسة للصيدلة، ووضع المؤلفات القيمة فى علم الاقرباذين وغير هذا مما استرعى نظر الغربيين من المؤلفين .

وكان للعرب الفضل فى كشف الكثير من الادوية،فى مقدمتها الكافور والصندل والراوند والمسك والمر والتمر هندى والحنظل وجوز الطيب والقرفة وغيرها ، كما ابتدعوا صنوفا من الشراب والكحول والمستحلب والخلاصة العطرية ونحوها ، وزادوا فاخترعوا آلات لتذويب الاجسام وتدبير العقاقير، واستخدموا الكاويات فى الجراحة وكان مما ساعدهم عليها تقدم الكيمياء التجريبية وعلم النبات المستند الى الملاحظة الحسية .

ولما كان الاشتغال بالصيدلة فى ذلك العصر من عمل الاطباء ، كثر تناولها فى كتب المؤلفين منهم ، وقد سبق الى ابتداع الاقرباذين « يوحنا بن ماسويه » ، وتابعه « ابن سهل » صاحب الاقرباذين الكبير ، وامين الدولة « ابن التلميذ » (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م) و « حنين بن اسحاق » فى العشر مقالات فى العين،و«الرازى» فى الحاوى ، و « على بن عباس » ، فى الكامل فى الصناعة الطبية و « ابن سينا » فى القانون.. وغيرهم كثيرون .

وكان « ابو جعفر احمد الغافقى » (ت٥٥٠/ ١١٥٥م) بكتابه فى الادوية المفردة يتميز بالدقة البالغة فى وصف النباتات ، وبعده « ماكس مايرهوف » اعظم الصيادلة اصالة وارفع النباتيين مكانة عند المسلمين طوال العصور الوسطى ، واذا كان كتابه لم يصلنا كاملا فان المتاخرين ـ من امثال « ابن البيطار » ـ قد حفظوا عنه اجزاء وفيرة .

وقد وضع « ابن البيطار » (ت ٦٤٦/ ١٢٤٩ م) ـ رئيس العشابين (اى نقيب الصيادلة) فى مصر اكبر موسوعة فى هذا المجال ، بكتابه الجامع فى الادوية المفردة ، وقد تضمن اكثر من الف واربعمائة صنف من الادوية المختلفة مرتبة على حروف المعجم ،

منها للاثمالة لم يعرض لبحثها كتاب في الصيدلة من قبل ، وبرغم اعتماده على أسلافه ، فانه يسجل – فيما يقول الدوميلي A. Mieli تقدما بعيد المدى، وان لاحظ «جورج سارتون» G. Sarton ان تاثيره في أوروبا المسيحية لم يكن ملحوظا ، لان كتبه قد نقلت الى أوربا بعد ان فقد العلم العربي تاثيره في العالم الغربي ، ولكن تاثيره في العالم الاسلامي كان عظيما حتى ان كثيرين من الصيادلة قد سطوا عليه واستنسخوه .

وتمشيا مع تعاليم الدين وتقاليده كان على من يلي امر المسلمين ان يكفل قيام المصالح العامة ، ولما كان من الصيادلة من يلتمس الربح الحرام بغش الادوية ، فقد نشا نظام الحسبة الذي يفرض الرقابة لمنع الغش ، وتوقيع العقوبه على من يسيء الى مصلحة الجمهور ، ومن هنا اقتضت المصلحة فرض امتحان ومنع ترخيص بمزاولة المهنة لكل من يريد الاشتغال بالصيدلة – كما كان الحال مع الاطباء – كما سنعرف عند الحديث على التزامات الطبيب وآدابه .

وخضعت المهنة للرقابة ،وتعرضت حوانيتها للتفتيش ، ذلك ان الافشين احد قادة « المعتصم بن الرشيد » (ت ٢٢٩هـ/٨٤٣م) طلب الى طبيبه « زكريا الطيفوري » ان يعقد للصيادلة امتحانا لمعرفة « الناصح منهم » فقال الطبيب ان كيميائيا قال للمامون يوما ان آفة الكيمياء هي الصيدلة ، فما يطلب احد الى صيدلي دواء الا قال انه في حانوته ! وطلب الى المامون ان يخترع اسما وهميا ويرسل الى الصيادلة في طلبه ، فعاد الرسل ومع كل منهم دواء من بذور او قطع احجار او وبر حيوان او نحوه ، وكرر « الافشين » التجربة ، ثم استدعى الصيادلة جميعا ، ورخص بمزاولة المهنة لمن انكر الادوية الوهمية ، ونفى الباقين وكتب الى المعتصم يستاذنه في ان يوفد اليه صيادلة على دين وخلق وعلم ، واجاب المعتصم طلبه فيما روى « ابن ابي اصيبعة » .

هكذا وجد الطب العربي في النبات والكيمياء والصيدلة غذاء ، زاده حيوية وخصوبة وثراء، وكان اخصب مجال زاول فيه الاطباء مهنتهم هو مجال المستشفيات ، فلنقف عندها قليلا :

في المستشفيات :

حرص الخلفاء والأمراء واهل اليسار من المسلمين على اقامة المستشفيات (البيمارستانات) (١٢) دورا لعلاج المرضى ، ومعاهد لتعليم الطب ، والى جانب العام منها مستشفيات خاصة ببعض الأمراض ، كالجذام والأمراض العصبية والعقلية وغيرها ، واقام العرب الى جانب هذا مستشفيات متنقلة Ambulance وفقا لانتشار الأوبئة والأمراض، او لتصحب الخلفاء والأمراء في تنقلاتهم ، وزودوها بالأدوية وانواع الطعام والشراب والصيادلة والأطباء .

واما المستشفيات العامة فكانت بفضل الاوقاف التي تحبس عليها ، والأموال التي ترصد لها وتنفق عليها بسخاء ، في وفرة من الغذاء والكساء والاثاث والادوية والأطباء والصيادلة والخدم ، وفي كل منها ساعور (مدير) يعاونه رؤساء الاقسام المختلفة والأطباء .

وكان نظام المستشفيات العربية في عصورها الوسطى اشبه مايكون بنظامها في ايامنا الحاضرة ، من حيث وجود اقسام تختلف باختلاف الذكور والاناث ، وتتنوع بتنوع الامراض ، ومن حيث استقبال المرضى ، والحاقهم باقسامها او علاجهم خارجها ،

---

(١٢) كلمة فارسية . بيمار = مريض ، ستان = دار ولما اقتفت مواردها اقفرت من المرضى الا المصابين بامراض عقلية ، واصبح المارستان مستشفى المجانين وحدهم .

والاشراف على غذائهم وراحتهم ، ونقاهتهم .. فكان المرضى يترددون على العيادة الخارجية ويعالجون بالمجان ، يبقى منهم بالمستشفى من يتطلب علاجه البقاء بالقسم الخاص بمرضه ، فاذا اقام المريض بالمستشفى نزعت عنه ثيابه وحفظت عند امين المستشفى ، ثم البس ثياب المستشفى وقدم له ما يناسبه من غذاء وعلاج ودواء حتى يبرأ من مرضه ، وكل هذا بغير اجر ... ومن امكن علاجه خارج المستشفى صرف الدواء من صيدليته ، واذا اقتضى المرض استشارة طبيب من غير القسم استدعى الى ذلك ، وكان على الطبيب ان يمر بالقسم الذى ينتمى اليه ويتفقد احوال مرضاه ، ومن ورائه مساعدوه من الأطباء والمرضين وغيرهم، فاذا فرغ من هذا مضى الى مكتبه بالمستشفى متفرغا للقراءة وحده او مع زملائه وتلامذته ، ويتبادلون النقاش فى شتى الموضوعات التى يقراونها ، وقد اسفرت مجالس الطب عن كتب قيمة يتداولها الأطباء وينتفع بها طلاب الطب . (١٣)

وعن المسلمين فى عصورهم الوسطى اخذ الغربيون المحدثون نظام مستشفياتهم ، بل سبق العرب الى اقامة مستشفيات للأمراض العقلية فى وقت كان المصابون بها فى أوروبا يكبلون بسلاسل من حديد ، ويسامون العذاب الوانا ، واقام العرب اول مستشفى للجذام فى مطلع القرن الثامن (٧٠٧م) مع ان فيليب الجميل أمر فى مطلع القرن الرابع عشر باحراق جميع المجذومين فى فرنسا !

وكان أطباء العرب وجراحوهم موضع التقدير البالغ من « الخلفاء » والأمراء وعامة الناس ، فى عصر كانت فيه اوروبا تحتقر الجراحين ، وتدخلهم فى زمرة الجزارين والحلاقين (١٤) ويصدر البابوات بين الحين والحين منشورات بمنع مزاولتها ! وكانت مع الطب الباطنى بمختلف فروعه تحارب من الكنيسة ــ ذات الحول والطول ــ بحجة أنها تعاند قضاء الله !

وكان الطبيب عامة يدين بقيم ادبية يحسن بنا ان نقف عندها قليلا :

فى التزامات الطبيب وآدابه :

كانت مزاولة الطب الى القرن العاشر لا تقتضى صاحبها اكثر من ان يقرأ الطب على طبيب ثابت حتى يطمئن الى قدرته على امتهان الطب ، فيمارسه بغير قيد ولا شرط ، وشجع هذا على ان يباشر الطب من ليسوا من اهله ابتغاء الكسب الحرام ، ثم حدث عام ٣١٩ هـ /٩٣١ م ان تسامع الخليفة المقتدر بنبأ طبيب تسبب بجهله فى موت مريض من عامة الناس ، فامر المحتسب بمنع الأطباء من مزاولة المهنة ما لم يجتازوا امتحانا يعقده لهم « سنان ابن ثابت » (اوائل القرن العاشر الميلادى) وكتب له فى ذلك بخطه ، وتقدم للامتحان فى بغداد وحدها ثمانمائة وستون طبيبا ــ فيما قيل ــ باستثناء المعروفين من الأطباء ، ومن كان منهم فى خدمة السلطان . **ومنذ ذلك التاريخ تعين على من يريد ان يمتهن الطب ان يتقدم الى نقيب الاطباء فى القطر المصرى ، ويلتمس اليه ان يجيزه ويمنحه ترخيصا بمباشرة المهنة ، وكان سبيل هذا ان يتقدم برسالة فى الطب يكفل له النجاح فيها الحق فى امتهان الطب .**

---

(١٣) من اراد مزيدا من التفصيلات فليقرا : د . احمدعيسى : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام (١٩٣٩) .

(١٤) لا يزال الجراح فى انجلترا يخاطب بلقب : السيد .Mr وليس بالدكتور !

وكان الذى يجيز الرسالة يبدأ بحمد الله وشكره ، ثم يعقب بامتداح الرسالة والثناء على الدراسة التي تضمنتها ، وتحديد فروع الطب التى يباح لصاحبها ان يشتغل بها ، فمن ذلك قول رئيس الجراحين بدار الشفاء المنصورى (قلاوون بالقاهرة) وهو يجيز فى عام ١٠١١ هـ/١٦٠٢ م رسالة شمس الدين محمد : « .... فاستخرت الله تعالى واجزت له ان يتعاطى من صناعة الجراح ما اتقن معرفته ، ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التي تبدأ بالبط ، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط ، وان يفصد من الاوردة ويبتر الشرايين ، وان يقلع من الاسنان الفاسدة .. » .

وكان المحتسب يأخذ على الاطباء عهد « ابقراط » ، وسنتحدث عنه عند الكلام على عصر الترجمة ـ **وهو يحرم افشاء الاسرار ، او تقديم السم لعدو ،** او الارشاد باجهاض **امراة حامل ، او اعاقة** الرجال عن النسل ، **كما يوجب على الطبيب مع مرضاه ان يغض الطرف عن المحارم ، وان يستكمل آلات الطب التى تتطلبها هذه الصناعة ، وان يلمّ بكتب الطب المعروفة ، ويقف على منافع (وظائف) الأعضاء** ... ومما نلاحظه فى هذا الصدد ان « حنين بن اسحاق » قد اوجب على اطباء العيون أن يجتازوا امتحانا فى كتاب « العشر مقالات فى العين » وأن يعرفوا تشريح العين وامراضها ، ويبرعوا فى تركيب الأكحال والعقاقير الضرورية لعلاج العيون ، وأن يستكملوا ادوات المهنة وآلاتها ، وان يرعوا الله والضمير فيما يفعلون .

وهكذا التزم اطباء العرب فى عصورهم الوسطى بقانون اخلاقى رفيع ، قوامه قسم « ابقراط » أبى الطب القديم ، وهو يتألف من قواعد صاغها وعاشها أطباء مصر القديمة (١٥) ، وتوارثها خلفاؤهم جيلا بعد جيل (١٦) ولبنى العرب عهد « ابقراط » فاورده مؤلفوهم فى صيغ تختلف عبارة وتتفق جوهرا ، بعد أن اضافوا اليه عناصر استمدوها من تعاليم دينهم فمن ذلك ما رواه « ابن ابى أصيبعة » عن « على بن رضوان » (ت ٤٥٣/١٠٦١ م) نقيب اطباء القاهرة من انه لخص الخصال التى اوجبها « ابقراط » على الطبيب فى سبع ، منها كمال الخلق ، وتوافر العقل والقدرة على التذكر ، والحرص على كتمان أسرار مرضاه ، والاعتدال فى تقدير اجره ـ وخاصة مع الفقراء ـ وطهارة البدن بحيث لا يطمع فى شىء مما يراه فى بيوت الأعلاء من نساء او اموال ، بل التعرض الى شىء منها ، والتعفف عن وصف دواء قتال أو صنعه ، والعزوف عن اسقاط الاجنة ...

وقد تبنت كليات الطب هذا القسم فى عصرنا الحاضر ، أوجزت صيغته وبترت منه ما لا يلائم روح العصر الذى نعيش فيه ،

---

(١٥) يقول جاريسون ان قواعد الاخلاق التى التزمها اطباء مصر القديمة (قبل ابقراط بقرون) تشبه اعظم الشبه قسم ابقراط عاطفة وتعبيرا F. H. Garrison, Introduction to the History of Medicine, 1929, P. 57 **وانظر** W. Durant, The Story of civilization, Vol. I, p. 182.
وقد قال ما يشبه هذا مؤرخ العلم جورج سارتون

(١٦) فمن ذلك انهم احسنوا معاملة المرضى بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية ، واخلصوا فى العمل مهما كان الخطر الذى يتهدد حياتهم ، فكان من هؤلاء الاطباء المصريين من تطوع لمكافحة الطاعون فى الجزائر وبغير اجر ، فاذا استشهد سارع غيره من زملائه المصريين الى القيام بعمله .

كفرض مسئولية الطبيب المادية والأدبية كاملة عن أبناء استاذه ! (١٧)

ووضع العرب فى آداب الطبيب مصنفات مختلفة فى مقدمتها : المدخل لابن الحاج (١٣٣٦ م) ومعالم القربى فى احكام الحسبة لابن الاخوة (١٣٢٠ م) ... والتزم بهذه الآداب جمهرة اطباء العرب لأنها تساير تعاليم دينهم ولا تتعارض معها ، فمن ذلك أن « حنين ابن اسحاق » قد رفض أن يصنع السم استجابة لأمر المتوكل ، ولم ينفع معه ترغيب ولا تهديد ، وعد ولا وعيد ، وكان هذا ـ فيما قال هو نفسه ـ اذعانا لما قضت به آداب مهنته ، وتمسكا بتعاليم دينه ، وسنرى القصة كاملة فى ترجمة حياته فيما بعد .

ولا يعنى هذا أن الاشتغال بالطب قد خلا من الدجل والاحتيال ، والا لما مست الحاجة الى عقد امتحان للاطباء ، ومنح ترخيص بمزاولة المهنة للصالح منهم ، ولا اقتضت الضرورة فرض نظام الحسبة والرقابة على أعمال الاطباء والصيادلة (١٨) .

هذه لمحة الى آفاق الطب العربى ، فى حقله الوثائقى ، وفى مجاله العلاجى ، مع اشارة الى موقف أهله من بعض ميادينه ، ولا سيما طب العيون والأمراض المعدية والتشريح والجراحة، ولفت النظر الى العلوم التى غذت تطوره ، من نبات وكيمياء وصيدلة ، وحديث موجز عن مجال مباشرته فى المستشفيات العربية ، وما التزم به الطبيب العربى من آداب فى مزاولة مهنته ... فلتكن الآن لقطاتنا :

٢ ـ من تطور الطب العربى عبر التاريخ

فى هذا الفصل نتتبع ـ فى لقطات خاطفة ـ الطب العربى منذ نبت فى عصره الجاهلى ، وهم بالنمو فى صدر الاسلام ، وازدهر فى عصر الترجمة فى مطلع العصر العباسى ، حتى بلغ ذروة اصالته فى المشرق والمغرب العربيين ، ثم نتركه متى اشرف على عصر التدهور والاضمحلال .

اذا توخينا ان تتخير لقطاتنا من ماضى الطب العربى عبر تاريخه الطويل ، تبين لنا أن له جذوراً تمتد الى ماضيه السحيق، وانه تعرض خلال نموه للتأثر العميق بالطب الأجنبى الدخيل، واستمد منه الكثير من عناصر حيويته وتفتحه وتطوره، فلنقف لبيان ذلك :

فى الجاهلية

[illegible] العرب فى جاهليتهم مستقين من

(١٧) صيغة القسم الذى يقسمه اليوم خريجو كليات الطب فى الجامعات المصرية هى : « اقسم بالله واشهده ان احترم مهنتى ، وان اعتبر اساتذتى بمنزلة والدى ، وان اتبع العلاج الطريقة التى أؤمن انها مجدية ومفيدة ، وان امتنع من كل ما هو ضار أو مؤذى ، ولا اعطى دواء قاتلا او اسدى نصيحة ضارة ، وسوف افنى حياتى فى ممارسة فنى فى طهر وقداسة ، وان احترم البيت الذى ادخله ، ولا افشى سرا اطلعت عليه ، ولا ابوح بشىء يجب عدم الاجابة عليه مما اراه او اسمعه من مرضاى فى نطاق عملى ، وان اعتبر هذه الأشياء من الاسرار المقدسة » .

(١٨) من ذلك ما رواه ابن ابى اصيبعة ان « ابن التلميذ » امين الدولة (ت ٥٦٠ هـ/١١٦٤ م) ـ نقيب اطباء بغداد ـ قد لاحظ وهو يمتحن الاطباء ان بينهم شيخا وقورا كان يلتزم الصمت طوال الجلسة ، فسأله ابن التلميذ عن السبب فى عدم مشاركته فى المناقشة ، فادعى الشيخ انه على علم بكل ما قاله زملاؤه ، فسأله عمن قرأ عليه صناعة الطب ، فقال: ان من بلغ من العمر ما بلغت، لا يسأل عن شيوخه الذين ماتوا منذ زمن طويل ، بل الأحرى ان يسأل عن تلامذته ، فسأله ابن التلميذ عما قرأ من كتب ، وكان على دراية بالعلاج دون معرفة بكتبه فقال : سبحان الله ، تسألنى عما يسأل عنه الصبية الصغار، والخير ان تسألنى عن مؤلفاتى فى هذه الصناعة، لا بد ان اقدم نفسى اليك ، ثم نهض ودنا من ابن التلميذ وقال له هامسا : يا سيدى قد كبرت سنى واشتهرت بهذه الصناعة ، وانا اعول اسرة كبيرة ! فسألتك بالله يا سيدى الا تفضحنى امام هؤلاء القوم ! فقال له هامسا : بشرط الا تهجم على مريض بغير ما تعرف ، ثم التفت الى المتقدمين للامتحان وقال بصوت مسموع : يا شيخ اعذرنا فما كنا نعرفك ، والآن قد عرفناك ، فامض فيما انت فيه ، ولا احد يعارضك بعد اليوم !

الطب : طبا هيأته لهم معتقداتهم الدينية فنهض به الكهان والعرافون ، واستخدموا فيه الرقى والتعاويذ وذبح الذبائح حول الكعبة ، والتوجه بالدعاء الى الآلهة التماسا للشفاء ؛ وتوصلوا مع هذا الى طب هدتهم اليه خبرتهم اليومية ، واستعانوا فيه بالعقاقير وكان اكثرها مستمدا من النبات ويؤخذ شرابا ، وكان العسل كثيرا ما يستخدم في علاج الأمراض الباطنة ، وفي الجراحة استخدموا الحجامة والفصد واكثروا من الكي بالنار ، فقامت النار عندهم مقام المطهرات في الطب الحديث ، وقد استعانوا بها في جراحات البتر وغيرها .

واطلق العرب في جاهليتهم لفظ الحكماء على الاطباء الذين يعالجون ما يعرض للأبدان من امراض ، وعلى القضاة الذين يفصلون فيما ينشب بين الناس من نزاع ، وكان الحكيم عندهم يجمع بين العلم والتجربة والنفوذ ، وكان من هؤلاء « الحارث بن كلدة » (١٩) (ت ١٣ هـ ٦٣٤ م) ومن جراحيهم « ابن ابي رمثة » ، ومن بيطريهم « العاص بن وائل » .

في صدر الاسلام

وهكذا يبدو ان صناعة الطب لم تكن بمستنكرة عند جماهير العرب في الجاهلية ، رعاية للصحة وعلاجا للأمراض ، فلما اعتنقوا الاسلام لم يجدوا في الاشتغال بالطب خطرا يتهدد عقيدتهم ، وابطل الاسلام الكهانة والعرافة ، اذ لا كهانة بعد النبوة ، ولم يكل صناعة الطب الى رجال الدين ، فبطل الطب الذي يمارسه الكهان ، وتمهد الطريق الى طب خبرة اكثر وعيا ، وامتدح القرآن الكريم الحكمة ، والطب من ضروبها ، وسلم النبي بطب الابدان وحث على الاشتغال به لمن استطاع اليه سبيلا ، قال يا عباد الله : تداووا فان الله لم يضع داء الا وضع له دواء ، الا واحدا هو الهرم ، وورد في حديث نبوي أن العلم علمان ، علم الأديان ، وعلم الابدان . فارتفع الطب بهذا الى مرتبة تدنو من مرتبة الدين .

ولكن العرب ـ فيما يقول « صاعد الاندلسي » (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م) في طبقات الأمم : « لم يعنوا في صدر الاسلام بشيء من العلوم الا ما اتصل بلغتهم واحكام شريعتهم ، مع استثناء علوم الطب ، فانها كانت معروفة لأفراد منهم ، غير منكورة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس اليها في حياتهم » ، فاستمر طب الابدان قائما في ظل الاسلام وفي رعاية نبيه (ص) بل اثرت عن الرسول مجموعة من الاحاديث النبوية تبلغ نحو الثلاثمائة حديث ، شكلت ما سمي بالطب النبوي ، وكانت تنضم على قواعد للصحة ، وطرق لمعالجة بعض الأمراض ، واتخذ اكثر هذه الأحاديث صورة جوامع الكلم (٢٠) وقد اوصى النبي بالاعتدال في المأكل والمشرب ، واوجب الاستحمام وحث

---

(١٩) من حكم الحارث المأثورة : دافع بالدواء ما وجدت مدفعا ، ولا تشربه الا من ضرورة ، فانه لا يصلح شيئا الا افسد مثله ، وقال عند احتضاره : لا تتزوجوا النساء الا من شابة ، ولا تأكلوا الفاكهة الا في اوان نضجها ، ولا يتعالجن احدكم ما احتمل بدنه الداء ، وقد نهى عن الاستحمام بعد الطعام ، واوصى بالتخفف من الديون والهموم ، وسأله معاوية : ما الطب يا حارث ؟ قال الأزم (الجوع) يا معاوية ، سألوه عن الدواء قال : ما لزمتك الصحة فاجتنبه ، فان هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فان البدن بمنزلة الأرض اذا اصلحتها عمرت ، واذا تركتها خربت ... ويكفي هذا نموذجا لطب الخبرة في الجاهلية .

(٢٠) منها : المعدة بيت الداء ، والحمية (الجوع) بيت الدواء ، اصل كل داء البردة (اى ادخال الطعام في المعدة قبل ان يتم هضم ما فيها) ـ الافراط يسبب المرض ، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا اكلنا لا نشبع ، اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ... وقد وضعت كتب في الطب النبوي منها كتاب الحافظ ابي عبد الله الذهبي ، وكتاب ابن قيم الجوزيه الحنبلي (ت ٧٥١ هـ/١٢٥٠ م) وكتاب الاحكام النبوية في الصناعة الطبية لابي الحسن الحموي .

على النظافة لأنها من الايمان ، وواصل ما كان معروفا فى الجاهلية من استخدام العقاقير التى تؤخذ فى العادة شرابا ، وقوامها العسل ، وابقى على الكى والفصد والحجامة . . .

ولكن الى اى حد يصدق الطب النبوى ؟ **لقد كان النبى يصدر عن وحى فيما يتصل بشئون الدين ، « وما ينطق عن الهوى » ولكنه كان يفتى برايه فى شئون الدنيا ، فتحتمل فتواه الصواب والخطأ ، واذا اثبتت التجربة خطاه قال لمحدثيه : انتم اعلم بشئون دنياكم .**

ويبدو أن الطب النبوى من هذا النوع الذى يحتمل الصواب والخطأ ، وقد فطن الى ذلك « ابن خلدون » (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) فاشار فى مقدمته الى ان للبادية طبا ينبنى فى غالب الأمر على خبرة بعض الأفراد ، ويتوارثه الناس عن مشايخ الحى وعجائزه ، وان هذا النوع من الطب يصدق احيانا ولكنه لا يجرى على قانون طبيعى ، ثم يقول ابن خلدون : « والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحى فى شىء ، وانما هو امر كان عاديا للعرب ، ووقع فى ذكر احوال النبى صلى الله عليه وسلم من نوع احواله التى هى عادة وجبلة ، لا من جهة ان ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث للتعريف بالطب ولا غيره من العاديات ، وقد وقع له فى شان تلقيح النخل ما وقع ، فقال انتم اعلم بأمور دنياكم ، فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الاحاديث المنقولة على انه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه ، اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك ، وصدق العقد الايمانى ، فيكون له اثر عظيم فى النفع . . . »(٢١)

والطب الذى عرف أيام النبى قد استمر قائما طوال صدر الاسلام ، وفى العصر الاموى اتصل العرب بمدرسة الاسكندرية القديمة ، وكانت قد اسهمت فى نقل العلوم اليونانية الى العرب ، وكان لمؤلفات علمائها تاثيرهم الملحوظ فى دراساتهم الأولى ، وفى مقدمتها كتب طبية ترجمت مبكرا الى السريانية والعربية .

لكن اول نقل فى الاسلام ـ فيما يقول ابن النديم ـ كان فى عصر خالد بن يزيد (ت ٨٥ هـ ٧٠٤ م) وقد اسلم الطبيب الاسكندرانى « ابن ابجر » على يد أتقى بني امية « عمر بن عبد العزيز » (ت ١٠١ هـ/٧٢٠ م) وصحبه واستطبه واعتمد عليه فى صناعة الطب ، ـ فيما يروى ابن ابى اصيبعة ـ وقيل ان اول من اقام فى الاسلام مستشفى هو « الوليد بن عبد الملك » (ت ٨٨ هـ) واشتهر فى العصر الأموى اطباء من اشهرهم « زينب » طبيبة بنى اود ، وكانت خبيرة بالعلاج ومداواة امراض العين ، مع براعة فى الجراحة .

واقبل عصر بنى العباس فى منتصف القرن الثامن للميلاد ، فكان فاتحة عهد جديد فى اتصال الطب العربى بالطب الأجنبى ـ ولا سيما اليونانى والهندى ، ومن هنا كان تطوره ونضجه وازدهاره :

فى عصر بنى العباس :

(أ) عصر الترجمة :

بدأ عصر النضج والازدهار فى الطب ، وغيره من آفاق المعرفة ، بحركة ترجمة واسعة النطاق ، نقل العرب خلالها تراث السابقين من الأمم المتحضرة ، من منتصف القرن الثامن حتى أواخر القرن التاسع للميلاد ، حين بدأ الانتاج الأصيل المبتكر على نحو ما سنعرف بعد . وكان « كسرى أنوشروان » + ٥٧٨ قد انشأ فى مدينة جند يسابور ـ بقرب الاهواز فى

(٢١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٦ ـ الطبعة البهية بالقاهرة .

ايران ــ مدرسة لتعليم الطب ، ومستشفى لعلاج الامراض ، تحت اشراف النساطرة (٢٢)، واستقدم اليها الاساتذة من اليونان والهنود ، واشترط فيمن يتولى التدريس بها ان يجيد اليونانية حتى يتسنى له الاطلاع على كتب اليونان فى صناعة الطب ، وكان الطب يدرس فى هذه المدرسة نظريا وعمليا فى مستشفى كان فيما بعد نموذج الدراسة فى العالم الاسلامى ، وفيها تفاعل علم اليونان والسريان والفرس والهنود ، وكان لهذا كله صداه فى الطب العربى فيما بعد .

واستطارت سمعة جند يسابور ، فلما اصيب المنصور (ت ١٥٩ هـ/ ٧٧٥ م) ثانى خلفاء العباسيين بمرض افقده شهيته للطعام ، واخفق فى علاجه اطباؤه ، استقدم من تلك المدرسة الى بغداد عام ١٤٨ هـ/٧٦٥ م جورجيس بن بختيشوع + ٧٧١ م رئيس اطباء جند يسابور ، ووفق هذا فى علاج المنصور فابقاه فى بلاطه طبيبا له ، ومنذ ذلك الحين احتل ستة من اسرة بختيشوع مكانهم عند الخلفاء نحو ثلاثة قرون من الزمان ، كانوا خلالها اطباء البلاط ومعلمى الطب ، وكانت اكبر خدماتهم للطب العربى انهم نبهوا العرب الى علم لم يكن قد استكمل علميته بعد ، ولم يكونوا هم على دراية كافية به ؛ وان مدرستهم قد خرجت من اعلام الطب فى باكورة حياته عمالقة من امثال « يوحنا بن ماسويه » ، و « حنين بن اسحاق » .

وقد بولغ فى شهرة جند يسابور فى الطب(٢٣) ولعل مرد هذا الى انهم اغراب على غير ملة أهل البلاد (٢٤) ، حتى اذا كان عصر المامون اخذت جند يسابور تفقد اهميتها كمدرسة للطب ، واذا كان القرن الثالث (التاسع للميلاد) هو العصر الذهبى للنصارى من المترجمين ، فقد كان القرن الذى تلاه العصر الذهبي لنشاط العرب .

وقد اوفد خلفاء المسلمين وامراؤهم واهل اليسار منهم بعوثا الى مواطن الطب العلمى فى اليونان وغيرها لجمع المخطوطات الطبية ، وشجعوا على نقلها الى لغة العرب واجزلوا للمترجمين العطاء ــ على نحو ما ستعرف فى سيرة « حنين بن آسحاق » .

(٢٢) انشاها ملك الفرس شابور الاول + ٢٧١ م ،ولما اغلق جستنيان مدرسة أثينا عام ٥٢٨ م فر فلاسفتها وعلماؤها الى فارس ، واحسن كسرى استقبالهم وحثهم على التاليف والترجمة فى الطب وغيره ، وفتحها العرب عام ١٧ هـ /٦٣٨ م . اما النساطرة الذين اشرفوا على هذه المدرسة فقدترجموا الكثير من كتب اليونان من اليونانية الى السريانية ، وكانوا اكبر من نقلوا تراث اليونان الى فارس ، وحملوه الىدول الاسلام فى اول عهد المسلمين بالعلوم الدخيلة ، يقول القفطى فى اخبار الحكماء : « ولم يزل امرهم يقوى فى العلم ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى امزجة بلدانهم حتى برزوا فى الفضائل ، وجماعة يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهنود ، لانهم اخذوا فضائل كل فرقة ، فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوالهم دساتير وقوانين وكتبا جمعوا فيها كل حسنة » .

(٢٣) لم يستدع المنصور جورجيس الا بعد مشورة من اطبائه الذين قالوا عنه انه اقدر اهل زمانه ، وحينما استدعى الرشيد ابنه بختيشوع لمعالجته ، اوعز الى اطبائه ان يمتحنوه ، فقال له اكبرهم سنا ان احدا منهم لا يستطيع ان يناقشه فى الطب ، لانه سليل اسرة جميع افرادها فلاسفة واطباء ، فعمد الخليفة الى امتحانه بنفسه ، وطلب الى احد اتباعه ان يجيء ببول حيوان ، وزعم انه لاحد محظياته ، ففحصه بختيشوع جيدا ، ثم قال للخليفة : ان هذا ليس بول انسان ، الا اذا كان الانسان قد تحول الى حيوان ! فضحك الخليفة وساله عما ياكل المريض ، فقال بختيشوع العالم النكتة : الشعير يا سيدى ! وهكذا بولغ فى براعة هذه الاسرة .

(٢٤) روى الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م) فى كتاب البخلاء عن الطبيب المسلم أسد بن جانى انه قال معللا ما اصابه من كساد ، ان الطبيب لا يكون (فى عصره وبلده) موضع ثقة من الناس ، الا متى كان مسيحيا ، يحمل اسما سريانيا ، ويتحدث بلهجة سريانية ، ويلبس رداء من الحرير (وهو محرم على المسلم) ويقوم بالتدريس فى المدرسة السريانية الفارسية المشهورة (جند يسابور) .. !

ومنذ القرن الاول من خلافة بنى العباس اتجه المترجمون خاصة الى ترجمة الكتب الطبية (من اليونانية الى السريانية ، ومن السريانية الى العربية) وكان فى مقدمة هؤلاء « جورجيس ابن بختشوع » + ٧٧١ م) وحفيده جبريل + ٨٠٠م « وتيوفيل بن توما » الرهاوى + ٨٧٥ م « وابو يحيى البطريق » (ت ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م ويوحنا بن ماسويه + ٨٥٧ م الذى درس فى جند يسابور ، وشارك فى الترجمة من السريانية ، واسهم فى التاليف ، ومارس الطب على طريقة آل بختيشوع .

وظهر شيخ المترجمين « حنين بن اسحاق » + ٨٧٧ ومدرسته التى كان من اعلامها ابنه اسحاق وابن اخته « حبيش بن الاعثم » ، واصطفان بن بسيل الذى كان اول من ترجم كتب « ديسقوريدس » فى الاقرباذين ، ونسبت اليه اول ترجمة لكتب اوريباسيوس (Oribaseus) الذى لمع فى النصف الثانى من القرن الرابع .

وكان اكبر نبع نهل منه المترجمون الى العربية طب اليونان ، ممثلا فى تراث ابى الطب القديم « ابقراط » +٣٧٧ق.م Hippocrates وامام الطب فى عصر الاسكندرية « جالينوس » + ٢٠١ م Galenus ، **ولما كان الطب العربى ــ فيما يقول بعض المستشرقين ــ قد نما ونضج وتطور فى جو من الاعجاب بابقراط ، وبالهام مباشر من « جالينوس » ، كان اغفال الحديث عن تراثهما ، يفضى الى الجهل بتاريخ الطب عامة ، والعربى منه بوجه خاص ، ولهذا** وجب ان نقف عندهما قليلا :

نقل اليونان طب مصر وبابل ، وارتفعوا باضافاتهم له الى ذروة الطب القديم ، يقول تشارلس سنجر Ch. Singer : « ان مؤلفات ابقراط وجالينوس لم يعد لها مكان فى مقررات الطب فى معاهد اليوم ، ولكن من يقف عليها يتبين انها ليست سارية فى طب الغربيين فحسب ، بل انها لا تزال تشكل بطانة الطب فى عصرنا الحديث ، ولا يزال المعاصرون من الاطباء الغربيين يستخدمون التعبيرات اليونانية كلما جلسوا على كثب من سرير مريض ، ومن الحق أن يقال ان الطب الحديث فى جوهره من خلق اليونانيين (٢٥) وكانت اكبر مميزات الطب اليونانى فى عصره الذهبي (ق ٥ ق . م) انه رفض رد الامراض الى الشياطين، وتوخى البحث عن عللها الطبيعية ، فتادى به هذا الى دراسة اعضاء الجسم ووظائفها ، فتقدم بهذا علم الجراحة على يد اليونان فيما يقول العلامة الالمانى « برستيد » وارتفع الطب على يدهم الى مستوى لم يتجاوزه فى ايامنا الحاضرة الا فى الجزئيات والمعلومات الخاصة (٢٦) .

وعلى يد ابقراط ــ المؤيد بتايد الهى فيما ظن ابن ابى اصيبعة ــ اتسم الطب بالنزعة العلمية ، لانه رفض الاوهام وشك فى الخوارق، وابعد الطب عن الدين والفلسفة ، وتوخى الصبر فى ملاحظة الحقائق والدقة فى تسجيلها ــ فيما يقول جورج سارتون ــ وزاد فارتفع بمهنة الطب حين اكد جانبها الاخلاقى فى قسم اشرنا اليه عند الحديث على التزامات الطبيب وآدابه .

وكانت الاسكندرية اعظم مركز للطب فى العالم القديم وفى رحابها عاش « جالينوس » الذى سيطر على الطب فى مشارق الارض ومغاربها ، حتى عصر النهضة الاوربية ، وكان تراثه دائرة معارف فى كل فروع الطب والتشريح والجراحة والصيدلة ... وبسبب عكوفه على تشريح الحيوانات نضجت معرفته

---

(٢٥) 1. The Legacy of Greece, P. 248, Oxford Clardendon Press, 1921.

(٢٦) الدوميلى : العلم عند العرب ص ٥١ ــ ٢ .

بالجسم الانساني ووظائف اعضائه ، وكان أكبر من اذاعوا علمه الطبيب البيزنطي أوريباسيوس Oribasius الذي لمع في النصف الثاني من القرن الرابع ، كما أشرنا من قبل ، وكان أعظم اطباء عصره ، وقد عاش تراث « جالينوس » في اللاتينية واليونانية والعربية (٢٧) ونقل العرب مؤلفاته فكانت المرجع الرئيسي المعصوم من الخطأ ! وكان بهذا ارسطو الطب في العصور الوسطى .

فلا عجب بعد هذا كله ان كان الطب اليوناني اعظم نبع نهل منه العرب في عصورهم الوسطى، وكانت العلوم اليونانية قد شاعت قبل الاسلام في المنطقة التي تتكلم السريانية والفارسية الوسطى في مجموعة من المدارس ، منها مدرسة الرها ، ولما اغلقها امبراطور بيزنطة عام ٤٨٩ م فر علماؤها الى فارس واستقروا في مدرسة جند يسابور (٢٨) التي عرفنا من قبل تأثيرها في الطب العربي .

هذه هي اكبر مصادر الطب العربي التي عكف على نقلها الى العربية المترجمون منذ مطلع العصر العباسي ، ولمزيد من الضوء على عصر الترجمة نقف قليلا عند :

شيخ المترجمين حنين بن اسحاق : (٢٩)

درس الطب في مدرسة جنديسابور السالفة الذكر ، وتتلمذ على « يوحنا بن ماسويه » رئيس بيت الحكمة في ذلك الوقت ، وكان اساتذة جند يسابور يكرهون ان يزاول الطب ابناء التجار من امثال « حنين » ، ولكن مهارته في اللغات الاربع : السريانية والفارسية واليونانية والعربية ، مع حبه للدراسة ودأبه على العمل وقدرته على الترجمة التي مرن عليها ، اكرهتهم على احترامه وتقدير جهوده ، وقد عينه المأمون رئيسا لبيت الحكمة الذي نهض بترجمة التراث الدخيل ، واضطلع حنين بترجمة مجموعة ضخمة من مؤلفات « جالينوس » وغيره ، فما كانت سنة ٨٥٦ م حتى كان ــ فيما يقال ــ قد ترجم خمسة وتسعين كتابا الى السريانية، وتسعة وثلاثين كتابا الى العربية، الى جانب ما صححه وراجعه من ترجمات تلامذته ، وهي ست الى السريانية ، ونحو سبعين الى العربية ، بل راجع وصحح معظم الخمسين كتابا مما ترجمه الى السريانية « سرجيوس الراسعيني » وغيره ، وذلك الى جانب تآليفه في طب العيون وغيره من فروع الطب ، وكان مثار اهتمام من كبار المستشرقين المحدثين من امثال برجشتراسر Bergstrasser وماكس مايرهوف ولوسيان لوكلير وهيرشبرج وغيرهم .

ولم تكن الترجمة الى العربية بالأمر الهين الميسور ، اذ ضمت الكتب التي ترجمها مئات المصطلحات التي لم يكن يعرف لها في العربية مقابل ، ولهذا كان كثيرا ما يضع المصطلح بنصه الاصلي في العربية ثم يعقب بشرحه وتفسيره ، وأبدى في هذا تمكنا وقدرة على فهم المصطلحات ومعرفة معانيها، وان كان المتأخرون من الناسخين قد حرفوا الكثير منها ، لأن تنقيط الحروف لم يكن مستعملا على الدوام في عصر « حنين » ، وفي القرون التي اعقبته ، وكان فوق هذا يلتزم الدقة ويتوخى الأمانة فيما ينقل ، فكان يجمع كل ما تيسر له من نسخ المخطوط الذي يعتزم ترجمته ، ويصنفها ويقابل بين بعضها والبعض الآخر ، وقد يقارنها بترجمتها في السريانية ، ثم يستخرج مما تحت

(٢٧) جورج سارتون : العلم القديم والمدنية الحديثةص ١٧٩ (ترجمة عبد الحميد صبره) .

(٢٨) بحث ماكس مايرهوف في انتقال التراث « من الاسكندرية الى بغداد » ترجمة د . عبد الرحمن بدوي في كتابه « التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية » ــ القاهرة ١٩٤٠ .

(٢٩) ولد عام ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م ومات عام ٢٦٤/٨٧٧م

يده نسخة صحيحة ينقلها الى العربية ، ويقول « وهذه عادتي التي اتبعتها في كل ما ترجمته » .

وحين بلغ « حنين » الثلاثين من عمره ، ضاق بكل ما ترجم في صباه ، وعمد الى اصلاحه او اعادة ترجمته ، كما كان يفعل بترجمات بعض اقرانه ممن كانوا يترجمون تحت اشرافه ، وكان المأمون قد عينه رئيسا لبيت الحكمة ـ الذي قيل انه انشىء عام ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ـ وكان قد اوفده مع آخرين للبحث عن مخطوطات يونانية ، وكان الخلفاء وكبار رجال البلاط يتحملون في العادة نفقات هذه الرحلات ، ويدفعون في الكتب النادرة اغلى الاثمان ، وكان في مقدمة من عينهم المأمون للترجمة تحت اشراف « حنين » : الحجاج ابن مطر وابن البطريق وغيرهما ، وجرى الحال على هذا بعد المأمون ، فعين المتوكل مترجمين يعملون تحت اشرافه منهم اسطفان بن باسيل وموسى بن خالد الترجماني ويحيى بن هارون ، وكان حنين يقوم بمراجعة ترجماتهم وتصحيح اخطائها .

وبرزت كفاءة حنين حتى اخرست حساده ، وردتهم الى الافراط في تقديره ، ونال حظوة عند جبرائيل بن بختيشوع واستاذه يوحنا بن ماسويه ومنافسه علميا سلمويه بن بنان الذي عين بعد ممات المأمون عميدا لأطباء المعتصم .

ومع استثناء محنتين تعرّض لهما ايام المتوكل (٢٠) ، اصاب حنين حظوة عند الخلفاء قبلهما وبعدهما بعشرين عاما (٢١) . وقدر له ان ينقل خلال هذا الزمن الطويل الحافل بالنشاط والعمل ، فيضا من الكتب التي ضمت تراث الطب القديم بوجه خاص ، وبمثل هذه الدقة والامانة انتقل تراث اليونان الى العربية ، وما عرف في العربية من اخطاء في الترجمة مرده الى اخطاء وقع فيها المترجمون الى السريانية من غير العرب ، ولم يكن هذا حال الترجمة من العربية الى اللاتينية حين انتقل الى اوروبا تراث العرب ، تشهد بهذا الموازنة بين ترجمات حنين ومدرسته ، وترجمات « قسطنطين الافريقي » + ١٠٨٧ م اول رائد لحركة الترجمة من العربية الى اللاتينية في صقلية ، او « جيرار الكريموني » + ١١٧٨ م اكبر واشهر المترجمين في حركة الترجمة في بلاد الاندلس .

وقيل ان جالينوس كان يستهدف تحويل الطب الى علم دقيق (exact Science) شبيه بعلم الفلك والعلوم الرياضية ، وان « حنينا » هو الذي طبع اللغة العربية ، الى حد ما ، بطابع الاسلوب العلمي على عهد العباسيين . وكان كتابه العشر مقالات في العين اقدم مؤلف اصطنع المنهج العلمي في طب العيون ، وقد زوده باول رسوم شائعة عرفت في تشريح العين ، وكانت ادق من مثيلاتها في الكتب الاوربيه في القرون الوسطى ـ فيما يقول

(٢٠) انكشفت غمته التي سنشير اليها في الهامش التالي عام ٢٤٤ هـ وبقي بعدها موضع تقدير من الخلفاء : المنتصر بالله (٢٤٨ هـ) والمستعين بالله (٢٥١ هـ) والمعتز بالله (٢٥٥ هـ) والمهتدي بالله (٢٥٦ هـ) والمعتمد على الله (٢٧٩ هـ) وفي عهده مات حنين ٢٦٤ هـ على ارجح الاقوال .

(٢١) اراد المتوكل ان يختبر امانته خشية ان يغدر به ، فخلع عليه ووعده باقطاع ما يعادل خمسين الف درهم ، لو طلب اليه ان يُعِدَّ سما يقتل به عدوا ، فأبى حنين ، ولم يرده عن امتناعه وعد ولا وعيد ، فحبسه الخليفة عاما قضاه في الدرس غير مكترث ، فاستدعاه الخليفة واوهمه انه مقبل على قتله ، فقال : لي رب يأخذ بحقي في اليوم الاعظم ... فابتسم الخليفة وساله عن سبب امتناعه ، فقال : الدين ، وقسم الاطباء ـ وبعد بضع سنوات وشى به حساده فعذبه الخليفة وصادر املاكه واعتقله ستة شهور عذب خلالها بالسياط ، ومرض الخليفة فلم يفلح في علاجه سواه ، فعفا عنه وعاقب حساده ، ورد اليه املاكه وكافاه من اموالهم واموالهم بما يعادل اكثر من ربع مليون درهم ، ومنحه اقطاعا وراتبا شهريا يبلغ خمسة عشر الف درهم ، وبرغم هذا كان حنين في مجده رحيما بخصومه وحساده .

ناشره ومترجمه طبيب العيون « ماكس مايرهوف » .

واذا كان من النقاد — من أمثال سيمون — من زعم ان ترجمات حنين وحبيش بن الأعثم مليئة بفقرات منتحلة غريبة عن الاصل ، وأن طريقتهما تفتقر الى الأناقة احيانا ، فان برجشتراسر Bergstrasser أستاذ اللغات السامية في جامعة ميونيخ ، واعظم حجة في تراجم حنين العربية ، يصرح بأن حنينا وحبيشا — وهو احسن تلامذته — قد احتملا عناء كبيرا في التعبير عن المعاني اليونانية ، وحرصا على ان يكون تعبيرهما واضحا ، وتوخيا الترجمة الحرفية ولو جاء هذا على حساب الأسلوب الجميل ، حرصاً منهما على الدقة في نقل المعاني اليونانية ، وترجماتهما تشهد بسيطرة كاملة على اللغة ، تعوب منها القدرة على التوفيق بين العربية واليونانية ، والدقة في التعبير الموجز ، وهذا هو المشاهد على فصاحة حنين ، وقد اشرنا الى صعوبة الترجمة في عصره .

وبرغم ما عرف عنه من أمانة وتعفف ، استغل سخاء المأمون مع المترجمين ، اذ كان المأمون يمنحه وزن ترجماته ذهبا ! فعمد حنين الى كتابة ترجماته على ورق سميك ثقيل الوزن ، وتوخى أن يكبّر الحروف ويوسّع ما بين الأسطر حتى تعظم مكافأته من الذهب !

وكان حنين الى جانب ترجماته مؤلفا ممتازا ، كتب كثيرا بالسريانية حينا وبالعربية حينا ، وذكر ابن ابي اصيبعة أن له في العربية اكثر من مائة كتاب في شتى فروع الطب ، وردد ذلك الفرنجة من امثال لوسيان لوكلير Leclere ، وفي مقدمة كتبه كتابان كانا أساس ما وضع في الطب العام من مؤلفات ، هما كتابا المسائل في الطب ، وطب العيون ، وكان اولهما مدخلا للطب العام في صورة اسئلة واجوبة ، كما وضع مجموعة اخرى من المؤلفات الطبية تتناول غذاء المرضى الناقهين ، وامراض الامراض ، والنبض والبول والحمى وعلم الصحة وغير ذلك .

ولكن من هذا التراث الضخم كتبا كثيرة نحلت عليه خطأ ، وكان كثير من مؤلفي الرسائل الطبية يعمدون الى وضع اسم « حنين » عليها ترويجا لها بين القراء .

وكان حنين مع هذا الفيض من مترجماته ومؤلفاته طبيبا ممتازا وكحالا — طبيب عيون — لا نظير له ، وكان كتابه « العشر مقالات في العين » ، مرجعا يمتحن فيه الطالب الذي يتقدم لاحراز اجازة ، والحصول على ترخيص بمزاولة المهنة .

كان حنين حركة دائبة اتصلت بعد وفاته على يد تلامذته ممن غذوا النهضة العلمية وبعثوا فيها الحياة ، وصدق المستشرق الفرنسي « لوسيان لوكلير » حين قال انه ربما كان اعظم شخصية انجبها القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وانه كان من اساطين الفكر الذين يتميزون بحدة الذكاء وسمو الخلق ، واذا قيل ان النهضة العلمية في المشرق لا تدين بوجودها له ، لما كان احد سواه اوفر منه عملا على ايجادها .

وبانتهاء مدرسة حنين في الترجمة ، بدا عصر الانتاج الخصب في المشرق العربي منذ اواخر القرن التاسع حتى بلغ عصره الذهبي في القرن الحادي عشر ، ثم اخذ في التناقص من بدء القرن الثالث عشر حتى اواخر القرن الثالث عشر ، حين بدات مرحلة تدهور واضمحلال افتقد فيه الانتاج الاصالة والابتكار ، اما في المغرب العربي (بلاد الاندلس) فقد ازدهر الانتاج في ميادين الطب وغيره ابان القرنين العاشر والحادي عشر ، وبلغ عصره الذهبي في القرن الثاني عشر للميلاد ، ثم اخذ في التناقص ابان القرن الثالث عشر ، وبدات بعده مرحلة تدهور واضمحلال .

(ب) عصر الانتاج الاصيل :

بحركة الترجمة السالفة الذكر ، تهيا للعرب تراث الطب القديم ، فعكفوا على دراسته حتى استوعبوه،ثم اخذوا فى تنسيقه ابوابا وفصولا ، وزادوا فعرضوا للكتب التى ترجموها بالتفسير والتحليل ، وتولوها بالنقد والتمحيص ، فكشفوا عن الكثير من اخطائها ومواضع الضعف فيها ، وجاء هذا فى ضوء فيض من الخبرات والتجارب التى عاشوها ، ولم تسلم من هذا التمحيص الواعى مؤلفات ائمة الطب القديم من امثال ابقراط وجالينوس، وخلال تفسير هذا التراث وتمحيصه والكشف عن مواطن القوة ومواضع الضعف فيه ، اضافوا اليه ثروة من الحقائق التى تكشفت عنها دراساتهم التجريبية الواعية ، وكان فى مقدمة هؤلاء الاعلام : ابو بكر محمد بن زكريا الرازى ــ جالينوس العرب فيما كان يسمى ــ وقد كان من عادته ان يدون فى اوراق كل ما يقتبسه من الكتب الطبية التى يقرؤها ، ثم يدمجه ــ متى سلم به ــ فى فيض من خبراته الشخصيةفى مؤلفاته ، وفى مقدمتها «الحاوى»، بل كان لا يفرق بين اقتباساته من الاخرين ، وملاحظاته السريرية التى استقاها من مرضاه وهم على اسرة المرض ، فكان معجمه الطبى من امهات مصادر الطب حتى العصر الحديث. وسنعود الى الحديث عن الرازى بعد قليل .

وكان من اعلام مؤلفى الطب الرئيسى « ابو على عبد الله بن سينا » (ت ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٧ م) ابقراط العرب فيما كان يسمى ــ وقد استوعب تراث الأقدمين ونهض بتنسيقه وتبويبه ، وزاده خصوبة وثراء ، وخاصة فى كتاب « القانون » الذى يعد معجما فى مختلف فروع الطب ، ويتميز بالوضوح والدقة والخصوبة ، فكان اكبر مصادر الطب حتى مطلع العصر الحديث فى اوروبا ، **وقد سيطر « ابن سينا » على الطب فى الشرق والغرب قرونا ، وجمد الطب بعده ولم يجازف احد فى اوروبا بمناقشته زمنا طويلا** ، وان وجد بين اطباء العرب من امثال البغدادى وابن النفيس (فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر) من ناقشه الحساب . وازدهر الطب العربى وتطور فى المشرق على يد الرازى وتلميذه علي بن عباس المجوسى (٣٥٤ هـ/٩٩٤ م)وابن سينا وفى المغرب على يد ابى القاسم خلف الزهراوى (ت ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م) امير الجراحة فى العصور الوسطى ، واسرة ابن زهر التى مارست الطب نحو قرن ونصف قرن من الزمان ، وكان اكبر افرادها ابو مروان عبدالملك ابن زهر (ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) وهو يعد اعظم طبيب سريرى ــ بعد الرازى ــ يباشر علاج المرضى فى المستشفيات .

وقد اعتمد هذا الطب العربى على تراث يونانى وهندى وايرانى ، ولكنه كشف عن مصدره العربى الاصلى ، وواصل السير فى آثاره الهامة فى اتجاهه نفسه « وكان فى كثير من الاحيان يوفق فى تنمية النظريات والافكار المستمدة من الآثار القديمة وشروحها ، وكان فى الاغلب ينشىء صنوفا من الشروح ، ويوسع المبادىء والنظريات القديمة ويبسطها ، مع عرضها فى اكثر الاحيان فى صورة اكثر وضوحا وحذقا ، واعظم دقة وعمقا . . . ومن الخطا ــ فيما يقول الدوميلى ــ ان « نظن ان العرب لم يضيفوا شيئا جديدا الى العلم الذى كانوا اوصياء عليه ، بل على النقيض من ذلك ، واذا كانت خطوات التنمية والانضاج التى خطوها فى هذا السبيل كثيرا ما ضاعت وتفرقت فى الحشد الكبير من الكتب التى تركوها ، فليست تلك الخطوات اقل اصالة ولا ابعد عن الواقع

من اجل ذلك ... » (٣٢) وفى حديثنا عن الكشوف الطبية العربية ما يشهد بأصالة الطب العربى ويؤكد وجه الجدة والابتكار فيه .

وقد يقتضينا سياق البحث ان نقف قليلا عند اكبر ائمته :

امام الطب العربى : ابو بكر محمد بن زكريا الرازى (٣٣) :

هو اكبر اطباء العصور الوسطى ، وامام الطب العربى غير منازع ، فيما قرر جمهرة المستشرقين (٣٤) وهو جالينوس العرب وطبيب المسلمين غير مدافع - فيما يقول مؤرخ الطب العربى « ابن ابى أصيبعة » ، وقد ظل فى أوروبا الحجة الذى لا ينازع فى الطب حتى القرن السابع عشر ، وذلك فوق انه كان من أعظم الكيميائيين فى العصور الوسطى ، ان لم يكن منشىء الكيمياء علما تجريبيا (٣٥) وقد تولى رياسة بيمارستان الخليفة المقتدر بالله الذى أنشىء عام ٩١٨ م .

وكانت اهم مؤلفاته فى الطب : الحاوى : الجامع الحاصر لصناعة الطب ، وهو دائرة معارف ضخمة تختلف موضوعاتها وتصنيفها باختلاف مخطوطاتها ، لأنه توفى قبل ان يكملها، فنهض باكمالها تلامذته بعده (٣٦) . وكان أكبر مميزات هذا السفر الضخم ان صاحبه قد ضمنه فيضا من ملاحظاته السريرية (الاكلينيكية) جمعها بطريقته فى مزاولة صناعة الطب ، وممارسته لعلاج مرضاه ، وهم على اسرة المرض - كما أشرنا من قبل - فكان اذا فحص مريضا شخّص مرضه ، وحدّد علاجه ، واخذ يلاحظ فى دقة سير المرض وتاثير العلاج ، ويسجل ملاحظاته اولا باول ، ومن اجل هذا قيل **ان التعمق فى دراسة الحاوى تقف الباحث على تاريخ العلاج العلمى فى المستشفيات العربية** ، ويؤيد هذا ان « الرازى » كان يرغم تقديره للحكمة التى وعتها بطون الكتب التى خلفها القدماء يؤثر عليها الخبرة الحسيّة ، ويرفعها فوق نتائج الاستدلالات المنطقية التى لم تمحصها التجربة (٣٧) .

وكانت طريقته تقتضيه ان يستقصى اعراض المرض فى دقة وصبر ، ويحصر الاحتمالات التى تشير الى حقيقته ، ثم يستبعد منها ما توحى خبرته وملاحظاته بضرورة استبعاده ، فاذا رجح عنده أن يكون مرضا بعينه ، وصف له العلاج ، وتتبع سير المرض تحت تاثيره ، وكان التوفيق يحالفه فى اكثر الحالات التى رويت عنه .

وتكفى دراسة الحاوى وحده للكشف عن مميزات صاحبه ، فى مهارته الفنية ودقة ذكائه .

---

(٣٢) الدوميلى : العلم عند العرب ص ١٤٢ - ٤٤ .

(٣٣) ولد ٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م ومات ٣١٤ هـ / ٩٢٦(على غير اتفاق بين مؤرخيه) .

(٣٤) من ادورد براون ، وجورج سارتون ، والدوميلى،وجارسون ، واوسلر ، واوليرى ... وغيرهم .

(٣٥) هذا راى الدوميلى بعد ان سلم برأى جمهرةالمحدثين من المستشرقين (من امثال مارسيلان بيرتلو مؤرخ الكيمياء القديمة) فى رفض القول بان منشىء علم الكيمياء هوجابر بن حيان ، لان جابرا فى رأيهم شخصية خرافية لا وجود لها فى التاريخ . انظر ص ٩٩ وما بعدها فى « العلم عندالعرب » .

(٣٦) قيل ان ابن العميد طلب الى اخت الرازى بمدوناته ان تسلمه مخطوطة الحاوى ، واغراها بالمال حتى استجابت له ، ثم اجتمع تلامذة الرازى واكملوا الكتاب علىالنحو الذى ظهر فيه .

(٣٧) باستثناء قطع نشرها « ماكس مايرهوف » ، اوترجمها « ادورد براون » او غيره ، يمكن القول بان الحاوى لم يقدر له ان ينشر او يترجم حديثا ، اما فىالعصور الوسطى فقد ترجم الى اللاتينية ونشر عام ١٤٨٦ واعيد طبعه اكثر من مرة فى القرن السادس عشر ، وكان قدترجمه فرج بن سالم .

ومن اشهر رسائله التى ابدى فيها اصالة وابتكاراً ، رسالته فى الجدري والحصبة ، وقد فطن الرازى نفســه الى ذلـك ، فاشار فى مقدمتها الى ان احدا من القدماء ولا المحدثين ــ اى المعاصرين له ــ قد قال فى هذا الموضوع قولا مُستقصىً ولا كافيا ، فان « جالينوس » وان كان قد عرف الجدرى الا انه لم يذكر له علاجا كافيا ، ولا سببا مقنعا ، ويقول نويبرجر M. Neuberger ان هذه الرسالة تعد من خير المؤلفات العربية ، وانها احتلت برغم صغرها مكانا ملحوظا فى تاريخ الاوبئة ، فوق انها اول رسالة وضعت عن مرض الجدرى ، وهى تكشف عن الرازى طبيبا علميا ذا ضمير حى ، متحررا من المعتقدات القديمة ، وقد وفق فى هذه الرسالة الى التفرقة بين الجدرى والحصبة ، ووصف تشخيصهما وابان عن اعراضهما ، وأوصى بفحص القلب والنبض والتنفس والبراز فى دقة ، ولاحظ أن ارتفاع الحرارة من عوامل انتشار الطفح ... الخ وليس أدل على قيمة هذه الرسالة من مظاهر الاهتمام الذى صادفته فى الأوساط الطبية فى أوروبا حتى مطلع القرن العشرين (٢٨) .

ووضع الرازى كتاب المنصورى الذى اهداه الى « المنصور بن اسحاق » امير خراسان ، وهو يصغر الحاوى وان فاقه شهرة ؛ وقد ضمنه فيما يقول فى مقدمته حفظ الصحة ومعالجة الأمراض ، وتوابع ذلك ولواحقه مما لا يزال يحدث وتمس الحاجة الى معرفته ، ويتسنى لأهل العقل والراى ان يشاركوا فيه الأطباء ، وقد مهد له بمدخل فى الطب ، وعقب بالحديث عن موضوعات اهمها حفظ الصحة وتدبير المسافرين ، وصناعة الجبر والجراحات والقروح ، والسموم ، والحميات ونحوها(٢٩) .

وكانت كتب الرازى مع كتب ابن سينا مراجع للتدريس فى جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر ، تشهد بهذا برامجها عام ١٦١٧ ، ومنها نرى ان حظ المؤلفات اليونانية حتى ذلك العصر كان ضئيلا .

وفى الرازى اصالة لا تخفى ، وفى تراثه كشوف علمية كان السباق اليها ، وفى حديثنا عن « كشوف طبية عربية » نجد الكثير منها يشهد بوجوه الابتكار والاصالة فى انتاجه ، فليرجع اليه القارىء ليعرف مكانة الرازى طبيبا اصيلا .

هذه لمحة خاطفة عن ائمة الطب العربى ، واعظم اعلامه واخصبهم انتاجا مبتكرا اصيلا .

عصر التدهور :

اخذت الحركة العلمية تتدهور فى المشرق العربى منذ مطلع القرن الثاني عشر ، اى بعد نصف قرن من غزوات السلاجقة الاتراك للدولة

---

(٢٨) وقد نقل هذه الرسالة الى الانجليزية W. A. Greenhill ونشرها بلندن عام ١٨٤٨ تحت عنوان A. Treatise on the small-pox & Measles وكان قد ترجمها الى اللاتينية فى عصر النهضة E. Valla ونشرها فى البندقية عام ١٤٩٨ ، كما نقلها الى اليونانية Jacque Gompyl ونشرها فى باريس ١٥٤٨ ، ثم نشرها مع ترجمتها اللاتينية عام ١٧٦٦ J. Channing وكذلك نقلها الى الفرنسية فى باريس عام ١٧٦٣ Jacques Paulet واخرى فى باريس عام ١٨٦٦ المستشرق لوسيان لوكلير Leclerc و Lenoir وترجمها الى الالمانية فى ليبزج عام ١٩١١ Karl Opitz .. الخ . ويقول ول ديورنت مؤرخ الحضارات ان فى وسعنا ان نتبين اهمية هذه الرسالة اذا عرفنا انها طبعت بالانجليزية وحدها اربعين مرة بين سنتى ١٤٩٨ و ١٨٦٦ .. !!

(٢٩) ترجم المنصورى الى اللاتينية ونشر فى العصور الوسطى وفى عصر النهضة الاوربية عدة مرات ، وظل متداولا فى ايدى طلاب الطب فى اوروبا حتى القرن السادس عشر ، ونشر الجزء الاول منه ــ وهو خاص بالتشريح ــ مع ترجمة فرنسية كوننج تحت عنوان P. da Koning., Trois Trantes d'Anatomie Arabe, Leiden, 1903 وترجم W. Brunner القسم الخاص بالرمد ، ونال به الدكتوراه من برلين عام ١٩٠٠ .

الاسلامية ، ومكن لهذا التدهور نشوب الحرب الصليبية التى اشعلت نيرانها اواخر القرن الحادى عشر ، وحملات المغول المخربة الهدامة التى استولت على عاصمة الدولة الاسلامية عام ١٢٥٨ م فالقوا بالاف المخطوطات فى نهر دجلة حتى اسودت مياهه من مدادها ، وشكلت جسرا يعبر عليه الناس ! وانهار العلم العربى بانهيار السلطان السياسى للدولة .

واذا كانت نهضة العلم فى المغرب العربى قد تاخرت قرنا ، فان تدهوره جاء بدوره متاخرا عنه فى المشرق العربى قرنا من الزمان ، ومنذ منتصف القرن الثالث عشر توقفت اوروبا عن ترجمة التراث العربى ، الا ما جاء منها على ايدي افراد ، وسنتعرض الى هذا عند الحديث على « انتقال الطب العربى الى اوروبا » .

ومع هذا فقد ظهرت فى عصر التدهور ، على يد قلة من افراده ، بوادر ثورة على تراث الفكر القديم ، نذكر فى مجال الطب منها نموذجين كانا فى مقدمة الثائرين ، هما « عبد اللطيف البغدادى » (ت ٦٢٩ هـ/١٢٣١ م) و « ابن النفيس » القرشى المصرى (ت ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م) .

فاما اولهما فقد استند الى ملاحظاته الحسية فى تكذيب سابقيه من علماء التشريح ، وفى مقدمتهم شيخهم « جالينوس » الذى استبد باعجاب اطباء العرب واجلالهم ، ومنهم البغدادى نفسه ، ومن ذلك انه رفض زعم « جالينوس » بان الفك الاسفل عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، بينما دلت مشاهداته على انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز اصلا ! وقد تحدثنا عن هذا بشىء من التفصيل فى مقال سابق (٤٠) .

واما « ابن النفيس » رئيس اطباء المارستان الناصرى بمصر فقد تحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا مع فرط اعجابه بأولهما ، وخطأه فى زعمه ان بين البطين الايمن فى القلب والبطين الايسر فتحة صغيرة او فتحات ، وانتهى من نقده الى وصف للدورة الدموية الصغرى على نحو لم يقل به احد سابقيه ، وسنرى بشىء من التفصيل معالم هذا الكشف العلمى الخطير فى حديثنا عن « كشوف طبية عربية » .

والذى يلفت النظر فى هذه الظاهرة ان يجيء الاعتراض على جالينوس فى عصر التدهور والاضمحلال من ناحية ، ثم فى وصفه لحقائق التشريح ــ الذى كان يعد امامه الأوحد ــ من ناحية أخرى .

وبعد ، فهذه لقطات خاطفة من ماضى الطب العربى ، تتبعنا فيها بعض معالم تطوره منذ انبت طبا تجريبيا ، حتى اكتمل وازدهر على اسس علمية ، ثم اشرنا الى تدهوره حين ادركه الهرم ، مشيرين خلال ذلك الى العناصر التى تلقاها عن الطب الأجنبى الدخيل الذى اقتحم داره وعاش فى كنفه ، دون ان نغفل العناصر التى استقاها من بيئته ، واستمدها من عبقرية اهله ، ولنقف الآن عند :

٢ ــ مظاهر النضج فى الطب العربى

شارك العرب فى تطور الطب العالمى ، واسهموا فى العمل على انضاجه ، وتركوا بصماتهم على طريق تقدمه وازدهاره ، ومن دلالات هذه المشاركة الايجابية ما وفقوا اليه من كشوف علمية طبية ، وما حققوه له من شرائط « العلمية » بدراساتهم التجريبية، وما افاده الاوربيون الذين نهلوا من ثمراته . . . فلنقف قليلا لبيان ذلك على قدر ما يسمح المقام :

---

(٤٠) انظر مقالنا : خصائص التفكير العلمى بين تراث العرب وتراث الغربيين ــ فى مجلة عالم الفكر (عدد يناير ــ مارس ١٩٧٢) .

(ا) كشوف طبية عربية

فى تاريخ العلم وثبات بدت فى كشوف علمية اصيلة ، وكان كل منها حدا فاصلا بين عهدين، وبداية لتطور ناضج ينبض حيـاة ، (٤١) وفى الطب العلمى الحديث عند الغربيين ، وهـو وليد القرن الاخير بوجه اخص ، وثبات تحققت بفضل ما اسفر عنه من كشوف ، واخترع فيه من آلات واجهزة فتحت آفاق الطب ، ومكنت اهله من ارتياد مجاهله (٤٢) ولكن العصـــور الوســطى لم تكن لتهيىء لأهلهـا ، الا نادرا ، سبل الوثب السريع واسباب التطور المفاجىء ، واختراع الآلات والاجهزة التى تدفـع عجلة التقدم فى قوة وعنف ، بل ان الأمـة حتى فى عصرنا الحاضر كثـيرا ما تفتقد العمالقة الذين يغيرون وجه العلم باحداث انقلاب فى تاريخه ، ولا يعوقها ذلك عن ان تكـون فى يقظة حيـة وازدهـار علمى يشـيع فى الكثير من مرافق حياتها ، لان الزمان لا يجـود بالائمة العمالقة الا نادرا .

ومع ان العلم العربى عامـة ، والطبى منه خاصة ، كان فى عصره الوسيط ، الذى يعنينا فى هذا البحث ، فى ظـروف لا تهىء للظهـور العملاق الذى يغير وجه العلم ويترك بصماته على تقدمه ، فان تاريخه لا يعدم من الاسماء اللامعة من يرتفع باصـحابها الى مرتبة الائمة الذين كشفوا عن صفحات مشرقة وضـاءة ، سبقوا بها زمانهم فى الدنيا كلها بمئات السنين، وكانت فاتحـة عصر جديد فى طـريق التقدم والرقى .

وفى تاريخ الطب العـربى فتوحات لا تخفى على مؤرخ ، الا اذا اضلته العصبية او اعماه الهوى ، فقد سبق العرب شعوب الأرض الى تأميم الطـب بعلاج المرضى فى المسـتشفيات بالمجان ، ومنحهم من المال والثياب بعد الشفاء ما يعينهم على دور النقاهة ، وكانوا اول رواد الحجر الصحى ، حين سبقوا الى الكشف عن الامراض المعدية (وسموها بالسـارية) والعمل على تفادى انتشارها، ومعرفةالوباء والتوصية بحصار البلد الذى يظهر فيه ، فلا يخرج منه ولا يدخل اليه احد معاق غير مصاب .

وكان العرب اول من انشا الصـيدلة علما تجريبيا ، واشتغلوا بالكيمياء والنبات اللذين تطورا على أيديهم وتوافرت لها خصائص العلم ، فى ابتكار ادويـة لم تكن معروفة من قبـل ، وتركيبها من اصول نباتية وحيوانية ومعدنية ،

---

(٤١) كقول جاليليو بدوران الارض ، واسحاق نيوتن الجاذبية ، وتشـارلس داروين بالتطـور ، وكارل ماركس بالصراع الطبقى ، واينشتاين بالنسبية .... الخ .

(٤٢) منها اختراع هنرى لاينك السماعة الطبية عام١٨٦١ وتوماس كليفورد اليات ميزان الحـرارة الصـغير ، وهرمان فون هلمهولتز مرآة تثبت على راس الطبيب للفحصقاع العين عام ١٨٥١ فبدا طب العيون الحديث ، ومانويل جارسيا منظار الحنجرة عام ١٨٥٤ ووليم اينتهوفن جهاز رسمالقلب وتخطيطه عـام ١٩٠٢ ، وشيفالير جاكسـون منظار الشعب الهوائية عام ١٩٥٨ وفردريك بانينج كشف الانسولينلرضى السكر عام ١٩٢١ وفيليب درينكر اول رئة صناعية عام ١٩٢٨ وفون لوفنهوك اختراع الميكروسكوب لرؤية الجراثيمعام ١٨٦٢ ولوى باستير نظرية الجراثيم عام ١٨٦٤ وويلهلم رونتجن اشعة x لرؤية العظام ومواضع الاجسام الغريبة فىالجسم عام ١٨٩٥ وفردريك ويلهيلم شتونر لتسكين الالام بالمورفين مع ضبط جرعته عام ١٨٠٣ ووليم موران التخديرالذى يعطل الاحساس بالالم عام ١٨٤٦ وتشارلس برافاز ابرة الحقن لادخال الدواء الى تيار الدم عـام ١٨٥٣ وجوزيفليستر التعقيم لقتل الجراثيم عام ١٨٦٥ ووليم هالتز الكمامة المعقمة عـام ١٨٩١ ، لى دى فورست السكين الكهربـائىلاستئصال الرئة واورام المخ وترقيع قرنية العين وغيرها . وروبرت كوخ فى كشفه لجرثومة الكوليرا فى مصر فى مطلع القرنالعشرين ... ويمثل هذه الكشوف والمخترعات كان الطب العلمى الحديث عند الغربيين خلال مائة السنة الاخيرة بوجهاخص ، انظر فى تفصيل ذلك :

Elizabeth Rider Montagomery, The Story behind Great Medical Discoveries, 1945.

واضافوها الى ما عرفوا من صنوفها عند اليونان والهنود ، فكانوا بهذا السباقين الى ابتداع الأقرباذين Pharmacology الذى تعرفه اليوم ، كما سبقوا الى انشاء الصيدليات ومدارسها .

وسبقوا الغربفى عصوره القديمةوالوسطى فى توفير الأطباء والجراحين ، وكفالة الحياة الكريمة السخية لهم ، بعد أن امتهنهماليونان قديما وحاربتهم الكنيسة فى العصور الوسطى اطباء وجراحين حتى كانت تصدر بين الحين والحين منشورات تحقر من صناعتهم ، بحجة انها تعاند قضاء الله ! وبصيانة المهنة وابعادها من الدجل والاحتيال سبق العرب شعوب الارض منذ النصف الاول من القرن العاشر الى فرض امتحان يجتازه من يصلح طبيبا أو جراحا ، ومنحه ترخيصا بمزاولة المهنة ، وانشأوا نظام الحسبة الذى يفرض الرقابة على الأطباء والصيادلة منعا للغش ، وتفاديا للكسب الحرام ، وصيانة لكرامة المهنة ، وقرروا توقيع العقوبة على من يسوء الى مصالح الجمهور .

وكان لهم الفضل فى تحسين المستشفيات ، ورفع مستوى خدماتها ، وفرض نظام دقيق حازم تجرى عليه ، حتى اضحت شبيهة فى عصورها الوسطىبمثيلاتها فى أرقى دولالغرب فى عصورها الحديثة ، وكانت لهم بها فتوحات فى مجال الطب السريرى (الاكلينيكى) الذى انبنى على الملاحظة الدقيقة،وتتبع سير المرض، ورصد نتائج العلاج لمعرفة مدى نجاحه أو مبلغ اخفاقه .

فلنقف قليلا عند نماذج من الفتوحات الطبية التى تحققت على ايدي اعلام الطب العربى :

فأما **الرازى** ــ جالينوس العرب وامامالطب العربى ــ فمن كشوفاتهالعلميةانه كان السباق الى استخدام امعاء الحيوان فى التقطيب والاكثار مناستعمال الفتائلوخيوطالجراحة، ووصف جراحة استخراج الماء الابيض (الكتاركتا) واستخدام المحاجم فى علاج داء السكتة ، ووصف الطاعون وما نسميه اليوم بحمى الدريس Hay Fever واول من ميز فى دقة بالغة بين الجدرى والحصبة ، وكانت رسالته فى ذلك اول دراسة علمية فى الأمراض المعدية ، وكان اول من ادخل فى الصيدلية الملينات ، وطبق فى الطب المركبات الكيماوية ، واستخدم الزئبق فى علاج الأمراض الجلدية ، وسبق الى الاهتمام بالاحوال النفسية فى تشخيص الأمراض الباطنية وعلاجها ، وكان من رواد الكتابة فى امراض الأطفال ، وكان اول من فطن الى الاصابة بدودة Guinea Worm واستخدم الحرام ، وعدّ الحمى عرضا لا مرضا ، وادخل فى المداواة اساليب جديدة ــ كاستخدام الماء البارد فى الحميات ، وكان أول من كشف « البول السكرى » اذ كان يطلب الى المريض الذى يشتبه فيه ان يبول على رمل ، وينتظر قليلا ، فاذا اجتمع النمل فوق الرمل دل هذا على ان البول سكرى !

وقد اعاد الحياة الى شخص فقد حسه فى شارع فى قرطبة ، وذلك بان جلد جسمه ، ولا سيما قدميه ، ومع ذلك قال فى رده على الخليفة الذى امتدح براعته انه تعلم هذه الطريقة من اعراب البادية ، وان فضله لا يعدو تشخيص المرض ، الذى يرجح انه كان ضربة شمس !

وكان فيما سجله فى مشاهداته السريرية (الاكلينيكية) والطرق التى واجه بها صعوبات عمله ، اعظم ــ عند بعض مؤرخيه ــ من جميع سابقيه ، لا يستثنون من ذلك ابقراط وجالينوس !

وبرغم انه كان اعظم اطباء العصور الوسطى غير منازع ، برع فى الكيمياء العلمية حتى عده بعض مؤرخيها منشئها علما تجريبيا ، وفيها استحضر حوامض لا تزال مستعملة حتى يومنا الحاضر (كحامض الكبريتيك) كما

استخرج الكحول باستقطار مواد نشوية وسكرية مخمرة ، واستخدمه فى تحضير الأدوية ... ويطول بنا الشرح اذا توخينا ان نستقصى فتوحاته العلمية .

واما « **ابن سينا** » ـ ابقراط العرب فى الطب ، وأمامهم فى الفلسفة ـ فقد تمكن بملاحظاته السريرية من ان يصف فى دقة تقيح التجويف البلورى ، وأن يميز بين الالتهاب الرئوى والالتهاب السحائى الحاد ،ويفرق بين المغص المعوى والمغص الكلوي ، وبين شلل الوجه الناشىء عن سبب مركزى فى الدماغ ، وما ينشأ منه عن سبب محلى ، وحدد مختلف انواع اليرقان واسبابها ، وكان صاحب الفضل فى علاج القناة الدمعية بادخال مسبار معقم فيها ، وكان أول من شخص داء الانكلستوما ، اذ يقول الأستاذ الدكتور « محمد خليل عبد الخالق » أستاذ الطفيليات بطب القاهرة « ان ابن سينا هو أول من كشف الطفيلية الموجودة فى الانسان المسماة بالانكلستوما وكذلك المرض الناشىء منها المسمى بالرهقان (أو الانكلستوما) » كشف ذلك فى الفصل الذى افرده للديدان المعوية فى كتاب القانون ، ويقول الدكتور أن ما يقرب من نصف سكان المعمورة الآن مصاب بها ، وان مؤسسة روكفلر بالولايات المتحدة قد جمعت ما كتب عن هذا المرض حتى عام ١٩٢٢ فكان خمسين الف مرجع !

واوصى « ابن سينا » بتغليف الحبوب التى يتعاطاها المريض ، وكشف فى دقة بالغة عن اعراض حصاة المثانة السريرية بعد ان اشار الى اختلافها عن اعراض الحصاة الكلوية .

وقد سبق **ابو القاسم الزهراوى** ـ اكبر جراحى العصور الوسطى ـ الى ربط الشرايين فى الجراحات ، وتفتيت راس الجنين متى كان ضخما ، واخترع منظار المهبل ، وأبان عن طريقة استئصال الحصى المثانية فى النساء عن طريق المهبل ، ووصف استعداد بعض الأجسام للنزيف وعالجه بالكى ، واجرى جراحات ناجحة فى شق القصبة الهوائية وتفتيت الحصاة فى المثانة بالشق والتفتيت ، واستئصال اللوز بسنارة ، ووصف استعمال الجفت لاستخراج المولودين ...

والى **ابن زهر** يرجع الفضل فى جراحات فتح القصبة والكسر والانخلاع ... وقد كان بعد الرازى اعظم اطباء العصور الوسطى اهتماما بالملاحظات السريرية (الاكلينيكية) وقد قيل انه احتل فى الطب مكان الزهراوى فى الجراحة .

ولنقف الآن قليلا عند اعظم كشف علمى قدر له ان يكون على يد عالمين عربيين :

كشف الدورة الدموية :

يقوم الطب الحديث على معرفة الدورة الدموية والوقوف على حركتها ، وقد وفق عالمان عربيان الى هذا الكشف الخطير قبل ان يعرفه الاوربيون ببضعة قرون من الزمان ، وهذان العالمان هما الطبيبان : على بن عباس المجوسى (ت ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م) وابن نفيس القرشى المصرى (ت ٦٨٧ هـ/١٢٨٨ م) .

تحدث « **علي بن عباس** » فى الجزء الأول من « **كامل الصناعة الطبية** » عن الانقباض والانبساط فى وظائف الجسم الحيوية ، **فكشف الدورة الدموية فى الأوعية الشعرية** حين قال :

« وينبغى ان نعلم العروق الضوارب فى وقت الانبساط ، ما كان منها قريبا من القلب اجتذب الهواء والدم اللطيف من القلب باضطرار الخلاء ، لأنها فى وقت الانقباض تخلو من الدم والهواء ، فاذا انبسطت عاد اليها الدم وملأها ، وما كان منها قريبا من الجلد ، اجتذب الهواء من خارج ، وما كان منها متوسطا فيما بين القلب والجلد ، فمن شأنه ان يجتذب من العروق غير الضوارب الطف ما فيها من الدم ، وذلك ان العروق غير الضوارب فيها منافذ الى العروق الضوارب ، والدليل على ذلك ان

العرق الضارب اذا انقطع ، استفرغ منه جميع الدم الذي في العروق غير الضوارب » وهذا اقرب وصف الى الحقيقة فيما يقول الدكتور خير الله .

اما **ابن نفيس** فقد كان رئيساً لأطباء البيمارستان الناصري بمصر ، وقد استوعب قانون ابن سينا ومؤلفات جالينوس ، فمثل بهذا روح عصره ، ولكنه مع ذلك كان من الاعتزاز بالنفس واستقلال الفكر بحيث حرر نفسه من تقاليد عصره ، وجاهر بانكار كل مالم تدركه حواسه ، او يقبله عقله ، ووضع هذا في كتاب له كان مفخرة العرب ، وان قبع منسيا في بطون الكتب لثلاثة قرون من الزمان حتى كشفه في مكتبة برلين شاب مصري كان يعد دراسة عنه للدكتوراة في جامعة فريبورغ **الالمانية ، هو الدكتور** محيي الدين التطاوي ، **اما الكتاب فهو** « شرح تشريح القانون » الذي توصل فيه ، في أول ثورة حقيقية على تشريح جالينوس ، الى كشف الدورة الدموية .

ويزعم « ابن النفيس » أنه لم يمارس التشريح اذ يقول « وقد حدثنا ـ منعنا ـ عن مباشرة التشريح وازع الشريعة ، وما في اخلاقنا من الرحمة ، فلذلك رأينا ان نعتمد في تعرف صور الاعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الامر ، خاصة الفاضل جالينوس ، اذ كانت كتبه اجود الكتب . . . » وهو يقول هذا خشية ان يتعرض لسوء ، لأن التشريح في عصره كان يعد عند المتزمتين من رجال الدين انتهاكا لحرمة الجسم البشري ، **فهو يجاهر بانه لم يعتمد على اقوال اسلافه ، وفي مقدمتهم جالينوس « الا في امور ظننا انها من اغاليط النساخ ، او ان اخباره عنها لم يكن بعد تحقق المشاهدة فيها ، وأما منافع (وظائف) كل واحد من الاعضاء فانما نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك راى من تقدمنا او خالفه» !**

وتثبت كتاباته انه مارس التشريح بالفعل ، واعتمد على خبرته في تخطئة سابقيه ، وفي مقدمتهم جالينوس وابن سينا ، وحديثه عن تشريح العظام والأربطة والقلب والرئة والعروق وغيرها من مكونات الجسم لا يكون بغير مباشرة للتشريح ، **وبه كاد ان يتوصل الى علم لم يكن قد عرف بعد ، هو علم التشريح المرضي (الباثولوجيا)** وذلك عندما لاحظ ان « **تشريح العروق الصغار في الجلد يعسر في الأحياء لتألمهم ، وفي الموتى الذين ماتوا من امراض تقلل الدم كالاسهال والدق والنزف ، وانه يسهل فيمن مات بالخنق ، لأن الخنق يحرك الروح والدم الى الخارج فتنفتح العروق ، على أن هذا** التشريح ينبغي ان **يعقب الموت مباشرة لتجنب تجمد الدم** » .

وفي غمرة تفنيده لاقوال القدماء كشف الدورة الدموية ، ونفى نظرية جالينوس في حركة الدم ، وليس في دورته ، وهي النظرية التي اكملها ابن سينا وعاشت بعده حتى القرن السابع عشر ، وسجلها ليوناردو دافنشي + ١٥١٩ في لوحاته التشريحية ، اكد بطلان هذه النظرية لأن « **اتجاه الدم عنده ثابت يمر من التجويف الايمن الى الرئة حيث يخالط الهواء ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدي (الوريد الشرياني) الى التجويف الايسر** » ، **وبدت الشرايين عنده منفصلة تماما ، لان العدسة المكبرة لم تكن قد اخترعت بعد ، ولم تكن الاوعية الدموية قد كشفت ، ولكن ابن النفيس قد مهد لكشفها الذي تحقق بعده بعدة قرون .**

ومؤدى نظرية ابن النفيس انه « كان يرى ان الدم يأتي غليظا من الكبد الى التجويف الايمن حيث يلطف ، ثم يمر في الوريد الشرياني (الشريان الوريدي) وهو وعاء غير نابض يتحرك بحركة الرئة حركة معتدلة ، هي سبب غلظ جداره ، ثم يصل الى الرئة حيث ينقسم

الى قسمين : قسم رقيق يصفى من مسام الشريان الرئوى ، وقسم غليظ يتبقى فى الرئة لتغذيتها ، أما القسم الرقيق فانه يختلط بالهواء القادم الى الرئة عن طريق القصبة الهوائية ويدخل الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) عبر جداره النحيف وعلة هذه النحافة اولا ضرورتها لتسمح بمرور الدم الرقيق ثم كثرة حركتها ، اذ انها كانت — فى زعمه — نابضة تلقائيا ، بالاضافة الى انها متحركة تبعا لحركة الرئة ، ثم يصل الدم الرقيق المخلوط بالهواء الى التجويف الايسر حيث تتكون الروح التى تخرج منه الى الاورطة فالشرايين فالانسجة ، أما غذاء القلب فيكون من طريق اوعيه خاصة تمر فى صميم عضلة القلب » .

هكذا كشف ابن النفيس الدورة الدموية ، ولكن تعاليمه قد اهملت بعده ثلاثة قرون من الزمان ، ثم ظهر خلال واحد وستين عاما من ترجمة كتابه الى اللاتينية (عام ١٥٤٧ م) ثلاثة من علماء أوروبا يصفون دورة الدم فى الرئة بنفس الالفاظ التى استخدمها ابن نفيس ، هم : ميشيل سرفيتوس Servitus الأسبانى الذى نشر عام ١٥٥٣ كتابه : Christianismi restitutio وقد اعدم بسببه حرقا ! وريالدو كولومبو استاذ التشريح فى جامعة بادوا الذى نشر عام ١٥٥٩ م رايه فى كتابه De re Anatomica ثم وليم هارفى Harvey (+ ١٦٥٨) — والذى نشر عام ١٦٢٢ كتابه De Motu Cardis ونسبت اليه نظرية الدورة الدموية !

وقد اثبت البحث العلمى ان هؤلاء الرواد من الغربيين لم يهتدوا الى النظرية مستقلين عن ابن النفيس ، ولا مستقلا احدهم عن الاخر ، فان كتاب ابن النفيس قد ترجمه الى اللاتينية طبيب ايطالى هو « الباجو » ونشرت الترجمة لاول مرة فى البندقية عام ١٥٤٧ وقد كان هذا على التحقيق مرجع هارفى الذى تعزى اليه اليوم هذه النظرية (٤٢) .

هذه نماذج من كشوف علمية سبق بها اطباء العرب زمانها بمئات السنين ، وبها تركوا بصماتهم على تقدم الطب وتطور الحياة العلمية فى تاريخ البشرية .

(ب) علمية الطب العربي متى وكيف نشأت ؟

استكمل الطب العلمي الحديث مقوماته حين اصبح فرعاً من العلم الطبيعي فى مفهومه عند المحدثين ، وبهذا المفهوم لا تكون الدراسة علما طبيعيا ما لم تتوافر لها هذه الأركان : ان تتخذ الظواهر الجزئية المحسوسة موضوعا لا تتجاوزه الى ما وراءها ، وان يصطنع فيها منهج تجريبي يستند الى الملاحظة الحسية ، والتجربة العلمية ان كانت ممكنة ، وان تستهدف هذه الدراسة التجريبية للظواهر الطبيعية وضع قانون عام يفسرها ، وقد اشتد اهتمام المحدثين فى الفترة الاخيرة من عصرنا الحاضر بصياغة القانون العلمي فى صورة رياضية تتحول فيها الكيفيات الى كميات عددية ، تحقيقا للدقة والضبط — وذلك امر كثيرا ما يشق على اهله فى العلوم الانسانية — وهذا الى جانب خصائص اساسية يقتضيها هذا المنهج العلمي ، منها موضوعية البحث ونزاهة الباحث ونحو ذلك .

فهل توافرت هذه الخصائص فى دراسات الطب العربي ؟ ومتى وكيف كان ذلك ؟

لقد ظل الطب العربى حتى اواخر العصر الاموى وليد خبرة عملية يزاولها بعض الافراد ويتوارثها بعدهم جيل بعد جيل ، كان مجرد

---

(٤٢) مولنا فيما كتبناه عن ابن نفيس بوجه خاص على د. بول غليونجى فى كتابه « ابن النفيس » وبحثه المنشور فى العدد الاول من المجلد الاول من تراث الانسانية — القاهرة يناير ١٩٦٣ .

ملاحظات ومعلومات متفرقة حول أمثلة فردية معينة ، لا ترقى الى وضع قواعد عامة تندرج تحتها هذه الظواهر الفردية ، ولا يصطنع في دراستها منهج علمي تجريبي يمنع البحث فيما وراء الظواهر المحسوسة مما لا يدخل في نطاق العلم ، فلما اتصل العرب بالطب الأجنبي الدخيل ـ ولا سيما ما كان منه عند اليونان في عصر بني العباس ، كان منهج الدراسة استقرائيا علميا ، وتحولت المعلومات الطبية ـ وكثير غيرها من المعارف ـ الى علوم لها مقوماتها وشرائطها ، وكثرت المؤلفات التي اصطنع فيها دارسوها المناهج العلمية ، فتجاوزوا عن طريقها الوقائع الجزئية الى وضع قواعد لتفسيرها ، وقد لفتت هذه الظاهرة انظار بعض القدماء من مؤرخي العرب، ولو كان تقنين المعلومات المفرقة او تقعيدها مما عرفه العرب ما استرعت هذه الظاهرة انظار هؤلاء المؤرخين القدماء ، ذلك ان اتصال العرب بالطب الأجنبي الدخيل قد بدأ باطباء منهم درسوا في مدرسة جند يسابور في فارس ـ منهم « يوحنا بن ماسويه » الذي كان أول من شرّح جثث القردة في الاسلام ، و « حنين بن اسحاق » شيخ المترجمين ، كما بدا هذا الاتصال باستقدام اساتذة من هذه المدرسة الى بلاط الخلفاء ، منذ أيام المنصور ثاني خلفاء بني العباس ـ كاسرة بختيشوع التي استمرت نحو ثلاثة قرون ـ وقد أشرنا الى ان اساتذة هذه المدرسة كانوا من اليونان والهنود ، وانهم جميعا كانوا يجيدون اليونانية حتى يتسنى لهم الاطلاع على كتب اليونان في صناعة الطب ، وان مستشفاها بما كان يمارس فيه من علاج ودراسة وتدريب للأطباء كان المثل الاعلى لأطباء العرب منذ مطلع العصر العباسي ، وفي هذه المدرسة تفاعل علم اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأن هذا كله كان له صداه في الطب العربي فيما بعد ، كما أشرنا الى ان المترجمين منذ القرن الأول من خلافة العباسيين ، قد اتجهوا الى ترجمة الكتب الطبية من اليونانية الى السريانية ، ومن السريانية الى العربية ، فكان طب اليونان وخاصة طب « ابقراط » و « جالينوس » اعظم نبع نهل منه اطباء العرب . واذا كانت جند يسابور قد بدات تفقد أهميتها كمدرسة للطب في عصر المأمون فقد كان خلفاء المسلمين وامراؤهم واهل اليسار منهم يوفدون بعوثا الى مواطن الطب العلمي في اليونان خاصة لجمع المخطوطات الطبية وترجمتها الى العربية .

فماذا لاحظ قدماء مؤرخي العرب في ذلك ؟ وما الذي استرعى نظرهم مما كان غريبا على التراث العربي ؟ لاحظوا ما أشرنا اليه من قبل، من ان هؤلاء **كانوا يستخدمون المنهج العلمي الذي يمكن الباحث من ان يعلو فوق الوقائع الجزئية الى القانون العام . كانوا يتخطون الملاحظات التجريبية التي تؤدي اليها الحاجات العملية ، ويستهدفون المبادىء ويستندون الى البرهان .**

يقول « حاجي خليفة » (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٨ م) في « كشف الظنون » أثناء حديثه عن النساطرة الذين اشرفوا على مدرسة جند يسابور : « ولم يزل امرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه ويرتبون « **قوانين** » **العلاج** على مقتضى امزجة بلدانهم ، حتى برزوا في الفضائل وجماعة يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهنود لانهم اخذوا فضائل كل فرقة ، فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم، **فرتبوا لهم « دساتير وقوانين »** وكتبا جمعوا فيها كل حسنة » ولا نضيف الى هذا ما قاله الغربيون في نشأة « العلم » عامة عند اليونان (٤٤) وربما امكن الاستشهاد على صحة هذا بما لاحظه بعض المستشرقين عما يميز التاليف في العصر العباسي ، فمن ذلك ان

(٤٤) انظر في بيان هذا الاتجاه كتابنا « اسس الفلسفة » ص ٣٨ وما بعدها .

« ماكس مايرهوف » يقول عن كتاب « دغل العين » الذى صنفه « يوحنا بن ماسويه » انه أول كتاب عربي منظم فى علم الرمد ، مع ان العرب والسريان وغيرهم قد كتبوا الكثير من الكتب فى هذا المجال . واوضح من هذا قوله عن كتاب « حنين بن اسحاق » « العشر مقالات فى العين » : **انه اقدم مؤلف اصطنع المنهج العلمي فى طب العيون » .**

واذا كان جالينوس قد استهدف تحويل الطب الى علم دقيق ، شبيه بعلم الفلك والعلوم الرياضية ، فان ((حنين بن اسحاق)) هو الذى طبع اللغة العربية بطابع الاسلوب العلمي على عهد العباسيين ... فيما يقول هذا المستشرق (٤٥) ، ويزيد « الدوميلي » فيقول عن الكتاب السالف الذكر ان اهميته مردها الى انه أول كتاب وصل الينا فى الرمد ، لا من الحضارة الاسلامية فحسب بل من العصر اليوناني القديم كذلك ، وليس ايضا لانه يوضح لنا نظريات القدماء ، بل لانه يزودنا بجميع الموضوعات المتصلة بالعين وامراضها على وجه التقريب (٤٦) .

والناظر فى المؤلفات الطبية فى ذلك العصر ، وخاصة فى مرحلة الانتاج الاصيل ، يجد فيها فيضا من الشواهد التي تشهد بصدق ما نقول ، وسنعرض بعض نماذج لهذه الظاهرة .

من هذا المنطلق بدات دراسات العرب فى الطب وغيره من مجالات المعرفه تتسم بطابع علمي ، باصطناعها منهجا تجريبيا بفرض قصر الدراسة على الوقائع الجزئية عن طريق الملاحظة الحسية ، ويستهدف وضع قاعدة عامة لتفسيرها ، وقد اقتضاهم هذا ان ينظروا الى المرض كظاهرة طبيعية تنشا عن علل طبيعية ولا ترتد الى الشياطين او الارواح الخبيثة، كما يتوهم عامة الناس فى الشعوب المختلفة بوجه اخص ، ولا ترجع ظاهرة المرض الى عقاب من الالهة فيستحيل علاجها الا بارضائها ، او يحرم علاجها لأن علاجها مقاومة لارادة الله ، كما ظنت الكنيسة فى اوروبا فى عصورها الوسطى ، وقد نادى المنهج العلمي بالعرب الى استبعاد الخوارق والغيبيات فى تفسير الأمراض والكشف عن اسبابها ، ووضعت الدولة نظام الحسبة لمحاربة الدجالين والمشعوذين الذين يعتمدون على الأوهام ويستغلون سذاجة الدهماء ، وفرضت امتحانا يجتازه الطبيب ومنحت لمزاولة المهنة ترخيصا .

وفى هذا الطب العربي تمزقت الصلات التي كانت تربطه بالفلسفة من ناحية وبالدين من ناحية أخرى ، وذلك من حيث انه اعتمد على الملاحظة الحسية وليس على مجرد التاملات العقلية والاستدلالات المنطقية ، وكان الاسلام منذ البداية قد حارب طب الكهانة ولم يجعل الطب من عمل رجال الدين ، وجاهر المستنيرون من المسلمين ــ من امثال ابن خلدون ــ بان الطب النبوى نفسه ، لم يصدر عن وحي الهي، وانما هو من راى النبي (ص) فى شأن من شئون الدنيا ، ومن ثم تعرض للصواب والخطا، ولا يمنع هذا ــ عند ابن خلدون ــ من ان يستعمل « على جهة التبرك وصدق العقد الايماني ، فيكون له اثر عظيم النفع » وهذه ملاحظة طبية ، اذ أن المريض المؤمن الذى يستجيب لوصايا الطب النبوى ، يستعين على الشفاء بايمانه ، والملاحظ ان الطب الحديث فى ايامنا الحاضرة يستعين فى علاج المرض بطرق سيكولوجيه تستند الى الايحاء .

(٤٥) مقدمة ماكس مايرهوف لكتاب العشر مقالات العين وخاصة ص ٥٧ و ٦٢ و ٦٦ .

(٤٦) الدوميلي : العلم عند العرب ص ١٤١ .

ولم يقنع اطباء العرب باصطناع الملاحظة الحسيه فى دراساتهم الطبية ، وانما زادوا فاجروا التجارب العلمية فيما تيسر فيه اجراؤها ، ومن امثلة ذلك : ان « ابن سينا » قد فطن الى ما نسميه اليوم بكيس الثلج ، اذ اصابه ذات يوم الم فى راسه تصور معه ان مادة توشك ان تهبط الى حجاب راسه ، وانه لا مأمن من ورم يدركه ، فطلب كمية كبيرة من الثلج ، وقام بدقه ثم لفه فى خرقة وغطى بها راسه فامتنع الالم وعوفي مما اصابه .

وتوصل « ابن زهر » الى تجربة يسرت تعاطي المسهلات ، وذلك ان الخليفة **عبد المؤمن** كان فى حاجة الى مسهل ، ولكنه كان يضيق بشرب الادوية المسهلة ، فمضى « ابن زهر » الى كرمة فى بستان ، واكسب الماء الذى يسقيها قوة الدواء المسهل الذي وصفه له ، فلما اثمرت عنبا كانت له قوة ذلك الدواء ، فاتاه بعنقود منها وطلب اليه ان يأكله ، فلما فعل قال له « ابن زهر » : حسبك هذا يا امير المؤمنين ، فقد اكلت عشر حبات من العنب وهي تخدمك عشرة مجالس ... وكان ان استراح الخليفة مما به .

وكان اطباء العرب فوق هذا كله يتوخون الصبر فى ملاحظة الحالات التي درسوها ، ويحرصون على الدقة فى تسجيلها ورصد نتائجها ، ويلتزمون موضوعية البحث ويتمسكون بنزاهة الباحث ، وفى ضوء هذا المنهج العلمي خلفوا لنا وثائق سريرية اكلينيكية مستمدة من ملاحظاتهم لمرضاهم وهم على اسرة المرض ، وذلك كله بالرغم من جهلهم بنوعية الآلات والاجهزة التي اخترعت بعدهم ، وقفزت بالطب العلمي الحديث فى ايامنا الحاضرة قفزات واسعات (٤٧) .

ومن شواهد الكتابات العلمية التى تعالت على الحالات الجزئية المعينة ، واستهدفت تقعيد المعلومات المفرقة نقتبس هذين النموذجين اللذين احتفظا بصواب حقائقهما حتى اليوم :

يقول « الرازى » فى احتباس البول : « البول يحتبس اما لان الكلى لا تجذبه ، وعلامته ان يكون البول محتبسا وليس فى الظهر وجع ثقيل ولا فى الخاصرة والحالب ، ولا المثانة متكورة ، ولا فى عنق المثانة ضرب من ضروب السدة على ما نستبين ، وان يكون مع ذلك البطن لينا ، وقد حدث فى البدن ترهل واستسقاء وكثرة عرق » .

« واما الذى يكون من الكلى فيكون محتبسا وفيها المرض ، وذلك اما لورم او حجر او علق دم او مِدّة ، ويعمّه كله ان يكون الوَجَع فى البطن مع فراغ المثانة ، الا انه ان كان حصاة ظهرت دلائل الحصاة قبل ذلك ، وان كان ورما حارا كان مع الوجع شيء من ضربات » .

« وان كانت اوجاع الكلى فانما هي ثقل فقط ، وان كان ورما صلبا لم يحتبس البول ضربة ، لكن قليلا قليلا وكان ثقل فقط ، وان كان علق دم ومِدّة فيتقدمه قرحة ، وان كان احتباسه من اجل مجارى البول من الكلى فتكون المثانة فارغة ، والوجع فى الحالب ، حيث هذا المجرى ، مع نخس ووخز ، فان وجع المجرى ناخس لا ثقيل ، وعند ذلك استعمل سائر الدلائل فى الكلى » .

« وان كان من قبل المثانة فاما أن يكون لضعفها عند دفع البول ، فعند ذلك فاغمز عليه والمثانة متكورة ، فان لم يدرّ فالآفة فى رقبة المثانة ، وحينئذ استعمل الدلائل المذكورة » .

« وان كان الورم حادا فى هذه المواضع تبع ورم المثانة حمى موصوفة ، وورم الكلى حمى

(٤٧) انظر نماذج منها فى الهامش الذى كتبناه فى مطلع حديثنا عن « كشوف طبية عربية » .

موصوفة ، وقد ينضم مجرى رقبة المثانة من انضمام يقع له ، ويكون للبرد واليبس ، ومن ثؤلول يخرج فيه ، ويكون قليلا قليلا ، وقد تفسد هذه المجارى بخلط غليظ ، وعلاج ذلك التدبير الغليظ » .

هذه كلها قواعد عامة توصل اليها الرازى من غير شك بمشاهدات وتجارب استغرقت جهدا بالغا ، اما من مدى صحتها من الناحية الطبية فحسبنا ان نشير الى أن الدكتور محمد كامل حسين الأستاذ بطب القاهرة قد نقل هذا النص وهو فى معرض القول بان العرب قد ابتدعوا فى الطب علم التشخيص المقارن الذى كان « الرازى » السباق اليه ، وعقب الدكتور على النص بقوله « واكثر هذه الفقرة يفيد منه كل طبيب حتى الأطباء المعاصرون » (٤٨) .

ونسوق شاهدا آخر على « علمية » الدراسات الطبية العربية من « ابن سينا » ، اذ وصف فى الجزء الثاني من قانونه حصى المثانة السريرية بعد ان اشار الى اختلاف الأعراض فى الحصى الكلوية عنها فى الحصى المثانية ، فقال :

« يجب أن نتامل ما قلناه فى حصاة الكلية ، ثم ننتقل الى تامل هذا الباب ، وقد علمت الفرق بين حصاة المثانة وحصاة الكلية فى الكيفية والمقدار ، وبالفرق بين الحصاتين كانت الكلوية الين يسيرا ، واصغر واقرب الى الحمرة ، والمثانية أصلب واكبر جدا واقرب الى الدكنة والرمادية والبياض ، وان كان قد يتولد فيها حصاة متفتتة ، والمثانية تتميز فى الاكثر بعد انفصال . واكثر من تصيبه حصاة المثانة نحيف ، وفى الكلية بالعكس ، والصبيان ومن يليهم تصيبهم حصاة المثانة » .

« ونقول ها هنا ايضا ان البول فى حصاة المثانة الى بياض ورسوب ليس بأحمر ، بل الى بياض أو رمادية ، وربما كان بولا غليظا زيتى الثقل واكثره يكون رقيقا وخصوصا فى الابتداء ، ولا يكون ايجاع حصاة المثانة كايجاع حصاة الكلية ، لان المثانة مخلاة فى فضاء الا عند حبس الحصاة للبول ، فان وجعه يشتد عند وقوعها فى المجرى ، والخشونة فى حصاة المثانة اكثر لانها فى فضاء يمكن أن يتركب عليها ما يخشنها ، ولذلك هي أعظم لان مكانها أوسع ، وقد يتفق ان يكون فى مثانة واحدة حصيتان او اكثر من ذلك ، فيتساحج ويكثر تفتيت الرملية ، وقد يكون مع الرملية تخالي لانجراد سطحها من الحصاة الخشنة ، ويدوم فى حصاة المثانة الحكة والوجع فى الذكر ، وفى أصله وفى العانة مشاركة من القضيب للمثانة ، ويكثر صاحبه العبث بقضيبه خصوصا اذا كان صبيا ، ويدوم منه الانتشار ، وربما ادى ذلك الى خروج المقعدة والى الحبس والعسر ، مع ان ما يخرج بقوة لانحفازه من ضيق وعن حافز ثقيل وراءه . وربما بال فى آخره بلا ارادة ، وكلما فرغ من بول يبوله ، اشتهى أن يبول فى الحال . والمتقاضي لذلك هو الحصاة المستدفعة استدفاع البول المجتمع ، وكثيرا ما يبول الدم لخدش الحصاة خصوصا اذا كانت خشنة كبيرة ، وكثيرا ما تحبس ، فاذا استلقى المحصو واشيل وركاه وهز ، زالت الحصاة عن المجرى ، واذا غمز حينئذ فى العانة انزرق البول ، وهذا دليل قوى على الحصاة . . . والحصاة الصغيرة احبس للبول من الكبيرة لانها تنشبق المجرى ، واما الكبيرة فقد تزول عن المجرى بسرعة ، واعلم ان حصاة المثانة تكثر فى البلاد الشمالية وخصوصا فى الصبيان » .

---

(٤٨) اثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية فى فصل الطب والاقرباذين ص ٢٩٧ ـ ٩ .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا الفيض من الحقائق العامة تجاوز فيه « ابن سينا » الأمثلة الفردية الى قواعد عامة ، استغرق التوصل اليها سيلا من المشاهدات التجريبية ، ويكفي في التدليل على دقتها الطبية البالغة ان يقول طبيب محدث وهو الدكتور خير الله تعليقا على هذا النص « ويصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئا جديدا الى هذا الوصف » (٤٩) .

ومثل هذين الشاهدين كثير ، وكلها شاهدة على ان اطباء العرب قد اصطنعوا المنهج العلمي في دراساتهم ، فاستندوا الى الملاحظه الحسية والتجربة العلمية، وتوصلوا من دراسةالوقائع الفردية الى قواعد عامة تندرج تحتها الحالات **الجزئيه ، وتمكنوا بهذا** من التوصل الى حقائق **يشهد المتخصصون** من المعاصرين **بصوابها حتى اليوم .**

وفي ضوء ما اسلفنا نستطيع ان نقول الآن ان الطب العربي وان كان قد نشأ في بيئته **العربية الاسلامية . واستقى من ينابيعها ونما في كنفها ، الا ان اتصاله بالطب الدخيل اليوناني والهندي والفارسي ـ في حركة الترجمة التي بدات مع مطلع العصر العباسي ـ هو الذي افاد اطباء العرب في اصطناع المنهج العلمي في دراساتهم ، ورفع معلوماتهم الطبية الى مرتبة العلم الدقيق ، ومكنهم من ان يتجاوزوا في دراساتهم الحالات الجزئية المفردة الى وضع قواعد عامة تندرج تحت كل منها مجموعة من الحالات المتشابهه .**

ولكن بين المعاصرين من مؤلفينا من يظن ان هذا التحول في الطب العربي شأنه فيها شأنه في العلوم الدينية واللغوية ، كان وليد تطور طبيعي للفكر العربي دون تأثر بالثقافات الأجنبية الدخيلة (٥٠) ، **ونبادر فنقول انه لا خلاف** بيننا وبين **اصحاب تلك الدعوة في ان العلوم** العربية ـ الدينية **واللغوية بوجه** اخص ـ قد نشأت **ونمت في بيئتها قبل ان** تؤثر الثقافات الأجنبية **فيها ـ كما قلنا من** قبل ـ ولكن **الخلاف هو في « علمية » هذه** العلوم ، بالمفهوم الذي **شرحناه فيما سلف .**

---

(٤٩) د. امين اسعد خير الله : الطب العربي ص ١٥١ ـ ٥٢ .

(٥٠) فلننظر زميلنا الدكتور شوقي ضيف الذي يقولوهو يؤرخ لعلوم اللغة والدين (تاريخ الادب العربي ج ٣ ط ٢ ص ١١٨ وما بعدها) : ان العرب قد ارسوا قواعدالعلوم العربية والدينية باصولها المستقرة ومناهجها الواضحة قبل ان يتصلوا بالثقافات الاجنبية . والدكتور محمد كامل‌حسين الذي يقول (اثر العرب في النهضة الاوربية ص ٧٠ ـ ٧١) ان العرب قبل اتصالهم ـ بالثقافات الاجنبية « كانت‌لهم علومهم الخاصة بهم ، ساروا فيها شوطا كبيرا ، ووضعوا لها اصولا مستقرة ، ومناهج واضحة ، وكان هذا من عملهم‌وحدهم على غير مثال ... » ولتفنيد هذا الاتجاه نقتبس من الدكتور شوقي نفسه ، قوله ان الخليل بن احمد مؤسس‌النحو العربي ، كان « يتقن المنطق الذي ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ... » ص ١٢٢ ـ ٢٣ وان‌البصرة التي وضعت اصول النحو قد احتكمت في ذلك « احتكاما شديدا الى القياس » ص ١٢٤ ـ ويقول ان‌الشافعي واضع علم اصول الفقه كان اول رائد « للاتجاه العلمي الذي لايكاد يعنى بالجزئيات والفروع ... بل يعنى‌بضبط الاستدلالات التفصيلية باصول تجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفي » ـ وهو دخيل على العرب ـ وقد كان‌الشيخ الاكبر الاستاذ مصطفى عبد الرازق يستعرض اقوال المستشرقين (من امثال كارادي فو ، وجولد تسيهر) ومؤداهاان علم الفقه تأثر في تكوينه بعناصر اجنبية ، ثم يورد اقوال علماء الاسلام (من امثال ابن خلدون وابن قيم الجوزية) ‌يرد هذا العلم الى عناصر اسلامية دون ملاحظة التأثير الأجنبي فيها ، ثم يقول معقبا : « حتى لقد انتهى علم اصول الفقه بان‌جمع من مسائل المنطق وابحاث الفلسفة والكلام شيئا غير قليل ... على ان هذا لا يمس ما قررناه من ان النظر العقلي‌نشأ اصلا من اصول التشريع في الاسلام يؤيده ويحميه . » (التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٣٠ و ٢٤٥ ثم١٢٤ ـ ١٢٥) وفيما قلناه في متن الكلام ما يكفي تعليقا على هذا الهامش .

ونقول اخيرا : ما الضير فى ان نعترف بان العرب فى مطلع نهضتهم الفكرية قد تلقوا عن غيرهم ، وافادوا مما اخذوا ؟ اننا نعلم ان العرب فى العصر الذهبي لنهضتهم قد سددوا هذه الديون مضاعفة واعطوا اوروبا اضعاف ما اخذوا عنها ، فانتقل التراث العربي الى اوروبا فى مطلع يقظتها منذ النصف الثاني من القرن الحادى عشر ـ كما سنعرف عندما نتحدث عن « انتقال الطب العربي الى اوروبا » وهذه هي طبيعة النهضات العالمية ، يتفاعل بعضها مع بعض ويعيش كلها بين اخذ وعطاء ، تاثر وتاثير ... واستقراء تاريخها اعدل شاهد على صدق ما نقول .

(ج) انتقال الطب العربي الى أوروبا .

اجتاحت القبائل الجرمانية المتوحشة روما عاصمه الدولة الرومانية الغربية فى اواخر القرن الخامس ، فانطفا مشعل الحضارة فى اوروبا بضعة قرون من الزمان ، بينما ظهر الاسلام فى المشرق العربي ابان القرن السابع الميلاد ، ونشر طيلسانه على صقلية واسبانيا وغيرهما فى العالم الأوروبي ، ومنذ منتصف القرن الثامن اتصل اهله فى حركة الترجمة بتراث بناة الحضارة من الأمم القديمة ، وسرعان ما ازدهرت فى ظله حضارة ناضجة كانت مركز الاشعاع الفكرى ومصدر النور فى الدنيا كلها فترة طويلة من الزمن .

وقد عبرت الحضارة العربية الى أوروبا من ثلاثة طرق : احتكاك الغرب بالشرق فى الحروب الصليبية ، وبحركة الترجمة التي نشات فى صقلية ، وبحركة اخرى فى بلاد الأندلس كانت أوسع مدى واغزر مادة واطول عمرا .

(ا) فى الحروب الصليبية

من الباحثين الغربيين من رد الى الحروب الصليبية يقظة الغرب التي تلتها فى المحيط الاجتماعي والديني والسياسي والثقافي ، وكان من هؤلاء «هن ام راين» Henne am Rhyn وهانز بروتز Hans Brutz الذى رد الى هذه الحروب وحدها تقدم اوروبا فى الفترة الواقعة بين عامي ١١٠٠ و ١٣٠٠م (٥١) .

وحقيقة ان اتصال الغربيين بالشرق فى الحروب الصليبية قد أثار دهشتهم بازدهار الحضارة العربية واعجابهم بتقدم العلوم ونضج اهلها ، ومكن من تاثير العلم العربي فى قلة من المفكرين من امثال اديلار أوف باث الذى كان نشاطه بين سنتى ١١١٦ ـ ١١٤٢م ونقل الى اللاتينية الكثير من كتب العرب ، لكن الواقع ان جمهرة المحاربين من هؤلاء الغربيين كان همهم الانتصار على اعدائهم والاستحواذ على بلادهم ، ثم هم كانوا فى الاغلب والأعم من اهل الحرف الذين تعوزهم الثقافة ، بل ان هؤلاء الصليبيين لم يفكروا حتى فى اقامة مدارس يعلمون فيها ابناءهم، برغم الأمد الطويل الذى استغرقته حروبهم ! ومع انهم كانوا يدهشون لبراعة اطباء العرب ، ويستدعون منهم من يقوم بعلاج قادتهم ، فانهم لم يفيدوا من ازدهار الطب العربي أكثر من ذلك . **واقصى ما نستطيع افتراضه من تاثير الحروب الصليبية فى مجال الطب هو ان نقرن قيام مدرسة الطب فى مونبلييه بالتجارة التي تبودلت بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر الروم الشرقي** ـ فيما يقول باركر أستاذ السياسة

(٥١) ياخذ المستشرق ارنست باركر E. Barker على اصحاب هذا القول (١) خطا القول بعلة مفردة واحدة تفسر كل ما اعقبها من احداث مع اغفال تاثير صقلية واسبانيا على النحو الذى سنعرفه بعد قليل . (٢) وخطا القول بان حادثا سابقا هو بالضرورة علة ما بعده من احداث ـ وذلك فى فصل كتبه عن الحروب الصليبية فى كتاب تراث الاسلام ، وترجم الفصل د.على احمد عيسى .

بجامعة كمبردج ـ وسنعود الى الحديث من هذه المدرسة عندما نتحدث عن حركة الترجمة في بلاد الأندلس .

حركة الترجمة في صقلية :

اخذ العرب في غزو صقلية منذ عام ٨٢٧م واستولوا على الجزيرة كلها عام ٨٧٨م واخذوا ينشرون حضارتهم في ربوعها حتى انحسر عنها سلطانهم عام ١٠٩٢م على يد ملوك النورمانديين الذين لم يكونوا أقل من حكام العرب تسامحا في الدين ، وكفالة للعلم ورعاية لأهله ، وفي مقدمة هؤلاء « روجار الثاني » الذى حكم بين سنتي ١١٣٠ و ١١٥٤ م واقترن اسمه بأكبر جغرافي عربي هو « الشريف الادريسي » ، ثم حفيده « فردريك الثاني » + ١٢٥٠ الذى استبد به الاعجاب بحضارة العرب فتشبه بهم في عاداته وأساليب حياته ، وكان يقرأ كتبهم في أصولها ، لأنه كان ملما بالعربية الى جانب الألمانية والفرنسية والايطالية واللاتينية واليونانية ! وقد انشأ عام ١٢٢٤ م جامعة نابلي لنقل العلم العربي الى العالم الغربي وسرعان ما أضحت مركز الاهتمام بالثقافة العربية ، وفيها وضعت ترجمات مختلفة من العربية الى اللاتينية والعبرية ، وبتشجيعه زار « ميخائيل سكوت » طليطلة عام ١٢١٧ ونقل الكثير من الكتب العربية .

واهتم فردريك الثاني بمدرسة سالرنو التي سنشير اليها بعد قليل ، وسن لها لائحة تفرض على الطبيب الا يزاول الطب في مملكته بغير ترخيص رسمي منها ، فكانت هذه أول لائحة جادة في أوروبا ! وتخصصت مدرسة سالرنو في الطب وأضحت كتب العرب الطبية مصادر دارسي الطب في أوروبا حتى مطالع العصور الحديثة .

وكانت صقلية تنهل من ينابيع عربية ولاتينية ويونانية ، لكن الصدارة في العلوم عامة وفي الطب خاصة كانت لثقافة العرب .

وجاء أول تأثير للطب العربي في أوروبا أواسط القرن العاشر في مدرسة سالرنو (٥٢) السالفة الذكر ـ موطن ابقراط أبي الطب اليوناني القديم ، ومن الطريف ان الطب العربي قد عرف طريقه الى هذه المدرسة عن طريق تاجر عربي من قرطاجنة ـ بتونس ـ درس الطب العربي وجمع كثيرا من مخطوطاته ، وأبحر بها الى جنوبي ايطاليا واستقر في سالرنو ، بعد أن غرقت بعض مخطوطاته في عاصفة هاجمته أثناء رحلته ، واعتنق المسيحية وأسمى نفسه « قسطنطين الافريقي » + ١٠٨٧م (٥٣) واعتكف عام ١٠٥٦م في دير وانهمك في ترجمة مخطوطاته الطبية من العربية الى اللاتينية ـ لغة أوروبا العلمية اذ ذاك ـ فكانت ترجماته نواةمدرسة سالرنو وتخصصها في الطب .

وعلى هدى ذلك الرائد سار تلميذه يؤانس افلاكيوس + ١١٠٣م وغيره ممن حاولوا ان يمزجوا بين طب العرب والنصوص اليونانية الرومانية المتوارثة .

وانتشر خريجو سالرنو في أوروبا ، فخف

---

(٥٢) قيل انها نشأت على شاطىء صحي مشمس ، وان مستشفى قد انشأته بها طائفة البندكت أواخر القرن السابع ، وان مدرسة للطب قد نشأت بها في منتصف القرن التاسع ، وان لم يعرف الطب الحقيقي طريقه اليها قبل مطلع القرن الحادى عشر ، وتميزت مدينة سالرنو من غيرها من المدن الأوربية بحرية الفكر وعلمانية الدراسة والتحرر من قيود اللاهوت .

(٥٣) مع ان قسطنطين لم يكن عالما ولا ذا دراية كافية باللاتينية ، وكانت ترجماته أقرب الى التلخيص منها الى الترجمة الدقيقة ، وقد نقل من العربية قسما كبيرا من كامل الصناعة الطبية لعلى بن عباس ، وزاد المسافرين لابن الجزار ، وطب العيون لحنين بن اسحاق ، وكثيرا من كتب اسحاق الاسرائيلي في البول والحميات والادوية المفردة وغيرها ، وترجم كذلك نصوصا عربية ترتد الى أصول يونانية .

فريق منهم عام ١١٦٠م الى جنوبي فرنسا واستقر كثيرون منهم فى مونبلييه التى خلفت سالرنو بفضل تحررها من سلطة الكنيسة ، ونزوعها العلماني ، ومنها تسلل الطب الى باريس وغيرها من المدن الاوروبية .

وظلت مدرسة سالرنو قائمة حتى القرن الرابع عشر حين اخذ نجمها يافل ، وفى مطلع القرن التاسع عشر اغلقها نابليون (٥٤) ، وخلفتها پادوا ، بفضل ما تميزت به من تسامح ديني وحرية فكرية فسيطرت على الطب فى اوروبا ابان القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وبدا بذلك تاثير الطب العربي فى توجيه الطب الاوروبي وتجديد مصطلحاته ، كما تمثل فى كتب التشريح فى مدرسة سالرنو بوجه اخص ، وكما لوحظ فى الادوية التى كان للعرب فضل انتقالها ، بل بدا فى غير هذا من مجالات الطب وفروعه ، فاثرت جهود قسطنطين ومدرسة سالرنو وآتت اكلها فى انحاء أوروبا كلها .

٢ ــ حركة الترجمة فى بلاد الاندلس

عبر العرب الى اسبانيا عام ٧٠٩ ولم ينحسر سلطانهم عنها الا بسقوط آخر مملكة عربية فى غرناطة عام ١٤٩٢م ــ اى بعد خروج العرب من صقلية باربعمائة عام تماما ــ وخلال هذه القرون الثمانية انتشرت حضارة العرب المزدهرة فى ربوع البلاد ، وفرضت اللغة العربية نفسها على المفكرين بوجه خاص ، وكفل حكام العرب التسامح الديني ، وبسطوا رعايتهم على اهل العلم من جميع الملل ، وحذا ملوك الاسبان ــ حين استردوا بلادهم ــ حذو العرب فى كفالة التسامح مع من ليسوا من أهل ملتهم ، وكانوا يقاتلون العرب وهم يجلون علماءهم ، ويكنون الاعجاب بحضارتهم .

وقد بدا اتصالهم بتراث العرب برحلة قام بها الى قرطبة « جربرت » الذى ولي عرش البابوية باسم « سلفستر الثاني » ، اذ قضى فى اسبانيا ثلاث سنوات (٩٦٧ ــ ٩٧٠م) استهوته خلالها اسرار العلوم العربية وكنوزها .

ومع ذلك فان المحدثين من مؤرخي الأسبان ينكرون اثر التراث العربي فى أسبانيا ، ويخطئون الراي الذى شاع فى اوائل القرن التاسع عشر وبالغ فى خطورة الدور الذى قام به العرب فى بلاد الاندلس ، وكان من اسباب هذا ميل الباحثين ــ تحت تاثير الجامعات الفرنسية والامريكية ــ الى الارتداد بكل شيء الى اصول لاتينية ما امكن ذلك ، ولم يوفق الباحثون ــ من امثال « ميشيل آسين » Miguel Asin « وجوليان ريبيرا » Julian Rebera بكل دراساتهم القيمة الى تغيير هذا الموقف (٥٥) .

لكن يبدو ان الاسلام قد اثر فى كل مرافق الحياة فى اسبانيا ابان القرن العاشر ، وبسقوط طليطلة ــ وسنتحدث عنها بعد قليل ــ اخذ يشيع تاثيره فى كل اوروبا ، اذ كانت طليطلة مركز الثقافة الاسلامية فى القرن الحادى عشر بعد ان خرب البربر قرطبة اوائل ذلك القرن ، واحتفظت بمكانها حتى بعد ان غزاها « الفونس السادس » عام ١٠٨٥م فاصطبغ بلاطه بالثقافة الاسلامية كما كان بلاط « فردريك الثاني » فى

---

(٥٤) وكان من الكتب الطبية التى نقلت الى اللاتينية فى حركة الترجمة فى صقلية : كتاب الحاوى للرازى ، والطب التجريبي المنسوب الى جالينوس ــ وكان قد نقله الى العربية حنين بن اسحاق ــ وكتاب جراحة ماسويه وتقويم الابدان فى تدبير الانسان لابن جزلة ، وابقراط فى الطب البيطرى .

(٥٥) J. B. Trend فى فصل عن اسبانيا والبرتغال فى كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذى صدر عام ١٩٢٧ وترجمته الى العربية لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة عام ١٩٣٦ ــ وهذا الفصل من ترجمة د. حسين مؤنس .

بالرمو بعد ذلك بقرنين ، بل أعلن الفونس هذا نفسه امبراطور العقيدتين ! ونشطت فى طليطلة حركة علمية جعلتها قبلة طلاب العلم فى كل انحاء اوروبا .

ووضحت الحركة العلمية فى طليطلة منذ أن استدعى رئيس اساقفتها المونسنير « ريموند » (١١٢٦ - ١١٥١م) العلماء والمهرة فى اللغات ،وانشأ ديوانا لترجمة التراث العربي ليكون فى متناول طلاب العلم من الأوروبيين ، وجعل على راس المدرسة كبير الشماسة ارشيدوق سيجوفيا « دومنيك جنديسالفوس » Dominic Gundisalvus وزاد فادخل الدراسة بالمدارس ، واستمرت حركة الترجمة نشيطة من العربية الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر حتى الرابع عشر ، بل الى ما بعده ، وفيها نقلت أوروبا كتب العرب التي كانت تتضمن التراث اليوناني مع شرحه والتعليق عليه ، وزاد النور توهجا فى عهد « الفونس الخامس » (الحكيم) + ١٢٨٤ م ملك قشتالة واكبر دعاة الثقافة العربية فى اسبانيا المسيحية ، وزاد فافرى المترجمين بان ينقلوا الى القشتالية التي اصبحت لغة اسبانيا الحديثة .

وكان اشهر المترجمين من العربية فى طليطلة « جيرار الكويموني » + ١١٨٧م الذى خلف « جنديسالفوس » على رياسة الديوان ، ويرجح « الدوميلي » أنه كان رئيسا معترفا به لمدرسة من المترجمين باشرت نشاطها فى طليطلة تحت رعاية الحكومة ، وبهذه الجهود كلها اضحت طليطلة مدينة العلم والنور .

وفى ظل هذه الحركة التي اتسعت آفاقها وعمق نشاطها وطال أمدها ترجمت من العربية الى اللاتينية كتب طبية كثيرة لابن ماسوية والرازى وابن سينا ، وابي القاسم الزهراوى وعلي بن يونس المصرى وكثيرين غيرهم ، كما ترجمت من العربية الى العبرية او القشتالية « زاد المسافرين » ثم « الأقرباذين » لابن الجزار ، « والأقرباذين وتدبير الصحة والأخلاق المتحول » لجالينوس ، و « طب العيون » لعمار بن علي وغير ذلك كثير .

ونشأت فى اوروبا مدارس طبية تقيم دراساتها على الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية ، ويبدو هذا فى **مدارس مونبلييه ، ونابلى ، وبولونيا ، وبادوا ، واكسفورد ، وكمبردج** ، وغيرها . وقد أسس اولاها (مونبلييه) أطباء العرب المطرودون من اسبانيا، واصبحت معهدا للدراسات الطبية المؤسسة على تعاليم ابقراط وجالينوس ، وان كان المظنون أن النصوص التى رجعوا اليها كانت فى البداية مترجمة عن نسخ عربية ، ولم تستخدم فيها كتب الطب العربى الا فى بداية القرن الرابع عشر . ففى عام ١٣٠٤ ترجم كتاب « قوانين الادوية المسهلة » لابن رشد عن نسخة عبرية ، وفى عام ١٣٤٠ ادخل الشطر الاول من قانون « ابن سينا » فى المنهج الرسمى المقرر على المرشحين للدرجات العلمية فى الطب ، ومنذئذ تضمنت المحاضرات الدراسات الطبية عند العرب ، ولبث هذا حتى عام ١٥٦٧ حين استبعدت كتب الطب العربى من قائمة الكتب المقررة للامتحان فى مدارس الطب ، على اثر شكوى تقدم بها الطلاب انفسهم ! وان كان المحاضرون قد ظلوا يعتمدون على قانون « ابن سينا » حتى عام ١٦٠٧م - فيما يروى ديلاسى اوليرى O'Leary فى كتابه عن « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ» .

وقريب من هذا يقال فى اثر الطب العربى فى المدارس التى نشأت فى اوروبا وتشيعت للثقافة العربية وتاثرت بكتبها المترجمة عن العربية .

ومن طريف المفارقات ان يكون مقدرا للعلم العربى ان يسود اوروبا المسيحية على يد رجال دين من الكنيسة التى اشعلت فى ذلك العصر

ارنولد توينبي

صدقي عبد الله حطاب *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لعل خير مفتاح لشخصية **ارنولد توينبي** هو بيت من الشعر للكاتب المسرحي الروماني **تيرنس** (١٩٥ ـ ١٥٩ ق.م) في روايته « **معذب نفسه** » ردده توينبي في كتابه « **تجارب** » ثلاث مرات في اماكن متفرقة من الكتاب وهو « **انني انسان ، ومن ثم فليس هناك شيء انساني لا اشعر انه يهمني** » .

والحقيقة ان توينبي ـ باجماع الاراء ـ بحر زاخر بالمعرفة الشاملة ، ومثل فريد في القرن العشرين ، قرن التخصص . ولا يقتصر الأمر في معرفة توينبي على الاطلاع الواسع وحده ، وانما هناك جانب آخر للمسالة وهي غزارة الانتاج . ولقد أصدر توينبي بضع عشرات من الكتب اهمها سفره الرائع « **دراسة للتاريخ** » وقد احصى الاستاذ السوفييتي **كوسمينسكي** في كتابه « **فلسفة التاريخ عند الاستاذ توينبي** » عدد صفحات المجلدات العشر الاولى من الكتاب فقال انها تبلغ ٦٫٢٩٠ صفحة فيها ٣٫١٥٠٫٠٠٠ كلمة ، فاذا اضفنا الى هذه المجلدات المجلد الحادي عشر الذي اصدره في عام ١٩٥٩ بالتعاون مع **ادوارد مايرز** وعدد صفحاته يربو على ٢٥٠ صفحة والمجلد الثاني عشر (١٩٦١) الذي تزيد صفحاته على ٦٧٤ صفحة (عدا عن الفهارس والبيليوجرافيا) لوجدنا ان هذا الكتاب الضخم يربو عدد صفحاته على سبعة الاف صفحة .

---

* **الاستاذ صدقي حطاب ، يعمل في المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب في الكويت . ترجم عددا من الكتب النقدية والمسرحية والمقالات .**

ولقد لاقى ظهور هذا الكتاب وموجزه الذى وضعه **سمرفيل** حماسا كبيرا لدى جمهور المثقفين وان كان قد لقي ــ المؤلف ــ عنتا كثيرا من عدد من المؤرخين . **يقول كوسميتسكي عن ظهور الكتاب :**

« لقد قابلت الصحافة البورجوازية ظهور « **دراسة التاريخ** » و « **الموجز** » بحماس ، واصبح توينبي نبي الاذاعة والصحافة . واثارت محاضراته التي القاها في الاذاعة البريطانية في برنامج « محاضرات ريث » عام ١٩٥٢ ضجة . وقام توينبي بعدد من الرحلات الى امريكا ليحاضر هناك .. واعتبرته مجلة لوك اعظم مؤرخ معاصر ، وان اسمه يتمم قائمة المؤرخين التي بدأت **بهيرودوتس** . وقارن حواريو توينبي « مكتشفاته » بمكتشفات **كوبرنيكس وجاليليو ونيوتن وداروين** . وشبهوا منهجه في دراسة التاريخ باكتشاف نظرية الكم في الميكانيكا . واعتبر اليوم الذى تظهر فيه اية كتابات له « يوما مشهودا في تاريخ الحضارة الغربية » وقد حيي توينبي لا على انه مبدع فهم جديد تماما للتاريخ فحسب ، وانما ايضا على اعتباره نبيا عظيما يرشد البشرية الى الطريق المؤدية الى مستقبل افضل » . (١)

واذا كان هذا ما لاقاه توينبي من حماس في الثلاثينات وفي الاربعينات وفي الخمسينات ، فان المتحمسين له لم ينتهوا ، فقد صدر في عام ١٩٧٢ كتاب بعنوان « **ارنولد ج. توينبي : مؤرخ لعصر متأزم** » **لرونالد سترومبيرج** . يقول في مقدمته :

« ان توينبي سيتذكره الناس على اعتبار انه المؤرخ العظيم لعصرنا ــ حقبة حروب القرن العشرين العالمية ــ وكما ان **جيبون وماكولي وبوركهارت** مثلوا عصورهم ، فان توينبي سيمثل عصرنا للاجيال القادمة .. ليس هناك من مؤرخ في هذا العصر ينافسه في المجال الواسع وفي الاسلوب وفي الموضوع وفي المنزلة الرفيعة التي يحتلها . ان اشتغاله باضمحلال الحضارات ، وتمكنه المدهش من قدر كبير جدا من المعرفة ، حول جميع حضارات العالم تجعل منه شخصية من شخصيات القرن العشرين حيث تقترن الكفاءة الفنية بالانهيار الاجتماعي . » (٢) ويرى **باتريك جاردنر** « ان نظام توينبي وهو فلسفته في دراسة التاريخ ، يمثل ــ بدون شك ــ اكبر اسهام قام به القرن العشرون في ميدان التأمل التاريخي . ومن لم فقد اصبح مركزا للجدل والنقاش ، وتركز فيه الكثير من المعارضة العامة للمشروعات والخطط التأملية التي برزت بشكل واضح في السنوات الاخيرة » (٣) .

لقد شغل توينبي ــ وما زال ــ المؤرخين وعلماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ كثيرا بما كتب (٤) ، ولقد كان سعيدا بكل ما كتب عنه من نقد ، فهو يقول في مقدمة كتاب صدر بعنوان « **غاية تاريخ توينبي** » ويضم عددا من الدراسات التي كتبها عدد من العلماء حول تاريخه « ان

---

(١) Y. Kosminski, Professor Toynbee's Philosophy of History crisis, Moscow, 1965. pp. 3-4.

(٢) Ronald N. Stromberg, Arnold J. Toynbee : Historian for an Age in Crisis, Southern Illinois University Press, 1972. p. XIII.

(٣) Patrick Gardner, "Speculative Systems of History", Encyclopedia of Philosophy (Collier-Macmillan, 1967) Vol. 7, p. 521.

(٤) خصص توينبي المجلد الثاني عشر من تاريخه ــ يقع في ٧٤٠ صفحة ــ لمناقشة نقاده ومراجعة ارائه . واورد في هذا المجلد الذى صدر في عام ١٩٦١ ببليوغرافيا لما كتب من نقد لكتابه الكبير تقع في ١١ صفحة . وصدرت في مجلة History and Theory العدد الرابع (١٩٦٤) ببليوغرافيا تضم عشرين صفحة عما كتب عن توينبي في اللغات الغربية ما بين ١٩٤٦ و ١٩٦٠ .

المؤلف مدين لكل ناقد ، حتى الناقد الذى يهدف الى سلخ فروة الراس ولا يريد زيادة المعرفة . ان مثل هذا الناقد الذى يسعى الى سلخ فروة الراس يقدم لضحيته على الاقل تحية عندما يعطي شيئا من وقته واهتمامه لعمل هذا المؤلف ، فليس سلخ فروة الراس اسوأ مصير يمكن ان يلقاه المؤلف ، ان تجاهله اسوأ بكثير من هذا المصير » (٥) .

وعرف القارىء العربي توينبي من خلال مواقفه المشرفة فى تأييد القضية الفلسطينية ، والتنديد بالصهيونية ، ومما ترجم له من مؤلفات ـ وان كان عددها لا يتجاوز العشرة .

وستحاول فى هذا المقال اعطاء صورة عامة عن حياة توينبي ، وعن انجازاته الضخمة ، وعن مواقفه الانسانية .

بالرغم من أننا نجد نتفا متناثرة عن حياة توينبي فى كتبه الكثيرة ، الا ان هناك ثلاثة كتب منها تتحدث عن حياته : الاول من هذه الكتب هو المجلد العاشر من كتابه « **دراسة التاريخ** » وهو بعنوان « الهامات المؤرخين » وفيه يتحدث عن المؤرخين الذين افاد منهم ، ومن هؤلاء **ابن خلدون** (٦) **وابن الطقطقي** من المؤرخين العرب . والكتاب الثاني هو كتاب « **معارف** » الذى صدر فى عام ١٩٦٧ . والكتاب الثالث هو كتاب « **تجارب** » الذى صدر فى عام ١٩٦٩ ، وهذان الكتابان الاخيران هما الاساس الذى اعتمدنا عليه فى الترجمة لحياته .

ولد ارنولد جوزيف توينبي فى لندن فى ١٤ ابريل (نيسان) ١٨٨٩ ، من اسرة تنتمي الى الطبقة الوسطى المثقفة ، فقد كان والده يعمل موظفا فى شركة للشاى ، وامه حصلت على درجة البكالوريوس فى التاريخ من جامعة كيمبرج . اما جده لابيه فقد كان اول طبيب فى لندن يتخصص فى الاذن والحنجرة ، واول طبيب يأخذ جنيهين للاستشارة الطبية بدلا من جنيه واحد . وقد كان رائدا فى الصحة العامة وفى التخدير . وقد مات فى شرخ شبابه وهو يجرى على نفسه تجارب التخدير ، ولم يترك وراءه مالا كثيرا . اما جده لامه فقد كان مخترعا فى مجال السكك الحديدية ، وحاول ان يجد مصدرا لتمويل مخترعاته ، الا انه فشل فاثر ذلك عليه ومات مبكرا دون ان يترك مالا كثيرا . ويحمد ارنولد توينبي المقادير التي جعلته يلد لآباء غير اغنياء ، لان ذلك كان سيحول بينه وبين الانتاج الغزير ، فالطبيعة البشرية ـ كما يقول توينبي ـ حتى ولو توفرت لها نزعة اصيلة نحو فن من الفنون او حرفة من الحرف لا تميل عادة الى بذل جهد كبير اذا عرفت ان لديها من الامكانات المادية ما يجعلها تحيا حياة مريحة بدون مجهود . وصحيح ان الضمير والطموح قد يكونا حافزين بديلين ، ولكن لابد من ان يكونا قويين اذا اريد لهما ان يكونا حافزين فعالين ، وهذه حالات نادرة ، فان وخز الحاجة ـ كما يرى صاحبنا ـ حافز لا يمكن الاستغناء عنه عند معظمنا (٧) .

---

(٥) Edward T. Gargan, ed., The Intent of Toynbee's History (Loyola University Press, Chicago 1961) p. iv.

(٦) يذكر توينبي ابن خلدون فى مواضع كثيرة من كتابه « دراسة للتاريخ » ويفرد له فى المجلد الثالث سبع صفحات (٣٢١ ـ ٣٢٧) وفى المجلد العاشر اربع صفحات (٨٤ ـ ٨٧) ويرى ان ابن خلدون قد « تصور فى مقدمته ووضع فلسفة للتاريخ هي بلا مراء اعظم عمل من نوعها ابتدعه عقل فى اى مكان او زمان » المجلد الثالث صفحة ٣٢٢ .

(٧) Arnold J. Toynbee, Acquaintances (Oxford, 1967) الصفحات ٣ ، ٤ ، ٥ .

ويحدثنا توينبي عن فضل امه عليه ، التي جعلت منه مؤرخا عندما اذكت فيه حب التاريخ (٨) ، وكانت صحبتها له صحبة فكرية ساحرة (٩) ، والفت كتابا مدرسيا في التاريخ. وكان تاثير عمه هارى عليه قويا بآرائه المتحررة وشخصيته القوية .

درس ارنولد في مدرسة داخلية في وتون كورت ، حيث قضى فيها ثلاث سنوات ، ثم التحق بكلية ونشستر ، حيث امضى فيها خمس سنوات (١٩٠٢ – ١٩٠٧) وفاز في نهاية دراسته الثانوية بمنحة دراسية ، مكنته من مواصلة دراسته الجامعية في جامعة اكسفورد (١٩٠٧ – ١٩١١) حيث درس التاريخ القديم ، وعين في تلك الجامعة بعد تخرجه ، وارسلته جامعة اكسفورد للدراسة في المدرسة البريطانية للآثار في اثينا (١٩١١ – ١٩١٢) فقضى هناك عاما واحدا ورجع بعد ذلك الى جامعته (١٠) .

تلقى توينبي تعليما ممتازا في الموضوعات الكلاسيكية (ونقصد بها التاريخ اليوناني القديم والتاريخ الروماني واللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما) وتتلمذ على يد استاذ الادب اليوناني القديم **جلبرت مرى** . وقد درس ارنولد اللاتينية وهو في السابعة من العمر ولمدة خمسة عشر عاما ، ودرس اليونانية القديمة وهو في العاشرة ولمدة اثنى عشر عاما . وقد اتقن هاتين اللغتين اتقانا تاما ، حتى انه نظم فيهما قصائد اوردها في القسم الثالث من كتابه « تجارب » ، كما ان العبارات اللاتينية واليونانية ترد كثيرا في كتابه **« دراسة التاريخ »** دون ان يحاول ترجمتها (وقد اخذ عليه بعض النقاد ذلك) . واستطاع ان يتعلم في المدرسة وفي الجامعة اللغات الفرنسية والالمانية والايطالية واليونانية الحديثة ، وان يلم بالتركية (وبالعربية فيما بعد) .

ويتحدث ارنولد عن اثر هذه الثقافة

---

(٨) M. F. Ashley Montagu, ed., Toynbee and History : Critical Essays and Reviews (Porter Sargent Publisher, Boston, 1956) p. 8.

راجع ايضا المجلد العاشر من « دراسة للتاريخ » صفحة ٢١٣ .

(٩) Arnold Toynbee, Experiences (Oxford, 1969) p. 194.

(١٠) يعطى توينبي اهمية كبيرة لهذه الفترة التى قضاها في اليونان ، ويستخدم في تسميتها الكلمة الالمانية Wanderjahr – وتعنى سنة ينفقها المتدرب مسافراً لتحسين مهاراته قبل ان يشرع في عمله – ويتحدث عنها طويلا في كتابه « تجارب » (من صفحة ١٨ الى صفحة ٢٩)ويرى انها كانت تكملة للثقافة الاغريقية ، وانها كانت سببا في نقله من عالم اليونان والرومان القديم الى عالم القرن العشرين . يقول توينبي :

« كنت امشي من قرية لقرية ، وانفق الليل في قرية اخرى ، وامضى المساء – قبل ان آوى الى فراشي – في دكان القرية الذى كان بمثابة ناد للرجال يؤمونه بعد عودتهم الى منازلهم اثر عملهم نهار يومهم في الحقول او المراعى . وكنت اصغى مساء اثر مساء الى الاحاديث التي كانت تدور في دكان القرية ، وفي النهاية بدأت اشارك في هذه الاحاديث بعد ان ازدادت معرفتي بلغة الفلاحين اليونانية الحديثة تدريجيا . وفي هذا المكان حصلت على ثقافتي اليونانية غير المنتظرة المتصلة بشئون العالم المعاصر – وهي ثقافة حملتني بعد ذلك الى مؤتمرى السلام في باريس ، واعطتني لمدة ثلاث وثلاثين سنة لان اكون احد مؤلفين تعاونوا في اصدار مسح للشئون الدولية عن دار شاتام » « تجارب » صفحة ٢٩) .

ولقد ظل حب السفر صفة ملازمة لتوينبي طوال حياته ، لانه يرى ان السفر يجب ان يسبق كل شيء عند من يدرس الشئون الانسانية . اذ ان الناس والمجتمعات البشرية لا يمكن فهمها بمعزل عن بيئاتها ، ولا يمكن فهم بيئاتها الجغرافية بطريق غير مباشر (« التجارب » صفحة ٩٩)وهو يرى ان امتع وسيلة للسفر ابطؤها ، اى ان الحمار خير وسيلة لمن يريد ان يعرف ما حوله من العالم ، وامتع الدروب اوعرها ، ولقد قال احدهم عن توينبي انه رحالة دربه المفضل شعاب الجبال التي تسلكها الماعز . وقد الف توينبي عددا من الكتب يصف فيها اسفاره ، وهي من امتع ادب الرحلات .

الكلاسيكية عليه فيقول انها « منحتني موقفا عقليا خارج نطاق الزمان والمكان الذى صدف ان ولدت فيهما ، وقد انقذني هذا من الافراط في تقدير اهمية الحضارة الغربية الحديثة . كما اكتسبت من هذه التربية الكلاسيكية ايمانا دائما بان الشئون الانسانية لا تصبح مفهومة الا اذا نظر اليها كوحدة ومن ثم كرست حياتي كلها للوصول الى رؤية شاملة للشئون الانسانية » .. وبفضل تاثير هذا التعليم الكلاسيكي على صار مذهب القرن التاسع عشر في التخصص لا يعني لي شيئا .. وقد علمتني تربيتي ان ارى الحضارة اليونانية الرومانية كوحدة ، وقد حاولت ان اوسع افقي التاريخي بانتظام . وحاولت ان ادخل ضمن رؤيتي وضمن عملي جميع المجتمعات الاخرى .. وحاولت مثل ذلك في الفلسفات وفي الاديان العليا (١١) » (تجارب ص ١٠٦ ــ ١١١) .

ويرى نقاد توينبي انه ينطلق في دراسته للحضارات الاخرى ، ووضعه القوانين لنموها وفنائها ، من ثقافته الكلاسيكية ومن تجربة الحضارتين اليونانية والرومانية ، وهي تجربة محدودة زمانيا وجغرافيا ومن ثم فانها لا تصلح لان تكون المقياس الذى يقيس به الحضارات الاخرى او يصدر بوحي منها الاحكام حولها . غير ان توينبي لم يستعرض في دراسته الحضارتين اليونانية والرومانية وحدهما ، وانما تناول احدى وعشرين حضارة كما سناتي الى ذلك فيما بعد .

ومن الكتب التي اثرت في ثقافة توينبي « الكتاب المقدس » وقد اثر فيه تاثيرا عميقا جدا ، **واجاممنون** لاسخيلوس ، **وفاوست** لجيته (ومنه استوحى فكرة التحدى والاستجابة في سيرة التاريخ ونشوء الحضارات) كما تاثر بافلاطون وبشكسبير وملتون وشيلي ، وبالعالم النفساني يونج ، وبالفيلسوف الفرنسي برجسون ، ويفرد توينبي في المجلد العاشر من تاريخه ثلاثين صفحة (٢١٣ ــ ٢٤٢) تحت عنوان « اعتراف بالفضل وشكر » يورد فيها ذكر من استفاد منهم من المفكرين الكثيرين .

ولما نشبت الحرب العالمية الاولى لم يلتحق بالجيش لعدم لياقته الطبية ، لاصابته بالدزنتاريا في عام ١٩١٢ اثناء رحلة له في ريف اليونان (١٢) ، وهو لا ينفك يكرر في اكثر من كتاب من كتبه انه نجا من الموت بالصدفة ، فقد التهمت الحرب نصف اقرانه ، وكلما ذكر هؤلاء ابدى اسى وحسرة عليهم ، وبغضا للحرب وويلاتها . والتحق بدائرة الاستخبارات السياسية في وزارة الخارجية البريطانية ، وقد مكنته هذه الوظيفة من رؤية خلفية القرارات السياسية ، وتزوير الوثائق الرسمية التي يلتقفها المؤرخون وبكل سذاجة فيكتبون منها تاريخ الافراد والشعوب (١٣) . كما اشترك في مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، واشترك في مؤتمر عام ١٩٤٦ الذى عقد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ويتحدث في كتابه « **تجارب** » (صفحة ٥٢) من تجربته فيقول :

« وفي كل مؤتمر (من هذين المؤتمرين) لم تكن وظيفتي الا ثانوية ولكنها كانت توصلني الى المقاعد الخلفية في قاعة المؤتمر ، وكنت

---

(١١) يقصد توينبي بالاديان العليا : المسيحية والاسلام والبوذية الماهايانية والهندوسية ، وقد اضاف الى هذه الاديان الاربعة في المجلد الثاني عشر من « دراسة التاريخ » ص ٢١٨ اليهودية والزرادشتية .

(١٢) Ibid, pp. 37-38.

(١٣) Acquaintances, pp. 117-118.

قارن هذا مع ما يورده ليدل هارت عن تزوير التاريخ في كتابه

Why Don't We Learn from History (Allen & Unwin, London, 1971) pp. 27-30.

امسك باوراق قد تلزم وقد لا تلزم المندوبين الجالسين فى الصف الامامي ، ولما كانت مسئوليتي بالفعل ضئيلة فان فرصي للمراقبة كانت جيدة . ان الساعات الكثيرة التي انفقتها فى المؤتمرين مصغيا اصبحت جزءا قيما جدا من ثقافتي » .

ويسرد توينبي فى كتابه « معارف » (٢١١ — ٢١٢) القصة التالية التي توضح لنا ابعاد المؤامرة الاستعمارية على بلادنا ابان مؤتمر السلام عام ١٩١٩ :

« ذات يوم كان على ان اسلم بعض الاوراق الى **لويد جورج** (رئيس وزراء بريطانيا حينئذ) على اثر انتهاء أحد الاجتماعات الخاصة بالشرق الاوسط . انني كثيرا ما رايت لويد جورج وسمعته يتكلم ، ولكن هذه كانت هي المناسبة الوحيدة التي قابلته فيها ، ولقائي هذا معه لم يستمر أكثر من دقيقة او دقيقتين ، ولكنه كان كاشفا بشكل غير متوقع ، اذ انه عندما اخذ الاوراق وبدا فى تفحصها نسي وجودي — وهذا اسرني — وبدا يفكر بصوت مرتفع . (ما بين النهرين .. نعم .. نفط .. رى .. يجب ان ناخذ ما بين النهرين ، فلسطين .. نعم .. الارض المقدسة .. الصهيونية .. يجب ان ناخذ فلسطين .. سوريا .. ها .. ماذا فى سوريا ؟ لياخذها الفرنسيون) » .. ويعلق توينبي على هذه الواقعة فيقول : « ان حوار لويد جورج الذاتي اللاواعي قد كشف عن معرفة ذكية لمزايا الاقطار العربية العثمانية ، السياسية والاقتصادية ، ولكن لم يكن هناك ذكر مسموع للعامل الانساني الذى كان موضوع تحرى وتقرير **لجنة كنج وكرين** . ان لويد جورج عندما عدد « النقاط » فى الدول العربية اهمل حقوق العرب انفسهم وامانيهم » .

ويخرج توينبي من المؤتمر ويعود للعمل فى الجامعة ، وفى هذه المرة يعرض عليه منصب استاذ فى جامعة لندن لكرسي كوريس للدراسات البيزنطية واليونانية الحديثة ، وظل يعمل فى هذا المنصب حتى اضطر الى الاستقالة منه فى عام ١٩٢٤ . وسبب استقالة توينبي هو انه عندما انتهى مؤتمر الصلح كانت الاخطاء المتعمدة التي ارتكبها ساسة المؤتمر الكبار توحي بان السلام لن يعمر كثيرا فى بقاع كثيرة من العالم . وقد نشبت الحرب فعلا بين اليونان وتركيا (١٩١٩ — ١٩٢٢) وارتكب اليونانيون جرائم كثيرة ضد الشعب التركى ، فلما ذهب توينبي فى صيف عام ١٩٢١ لزيارة مناطق القتال كتب لجريدة المانشستر جارديان عن تلك الجرائم ، ولم يابه توينبي لرد الفعل الذى اثارته مقالاته ضده لدى الاوساط الليبرالية البريطانية ولدى العالم الغربي ككل « حيث ظل التعصب المسيحي ، ضد المسلمين حيا فى عقول كثيرين ممن نبذوا المسيحية نفسها » ، (« **معارف** » صفحة ٢٣٠) واصدر بعد ذلك كتابا بعنوان « المسالة الغربية فى اليونان وتركيا » عام ١٩٢٢ ، ادان فيه الدبلوماسية الغربية والتسوية السلمية ، واتخذ موقفا محايدا من تركيا ومن اليونان ، ولكن هذا الموقف لم يرق لليونانيين المقيمين فى لندن والذين يساهمون فى تمويل الكرسي التي يحتلها ، فاضطروه الى الاستقالة .

وفى عام ١٩٢٤ عرضت عليه وظيفة مدير المعهد البريطاني للشئون الدولية (الذى سمي فيما بعد بالمعهد الملكي للشئون الدولية) أو « دار شاتام » ليتولى اصدار حولية « **مسح الشئون الدولية** » فقبلها ، وحتى ذلك الحين كان احسن ما يعرفه توينبي من التاريخ هو التاريخ اليوناني والروماني ، وان كانت اسفاره فى بلاد اليونان واعماله المتصلة بالحرب قد

ضمنت له موطىء قدم فى التاريخ المعاصر ؛ ولكن هذا الموطىء القى عليه مهمة خطيرة وهي كتابة مسح شامل للشئون الدولية الجارية(١٤). وقد امتاز هذا « **المسح** » بالموضوعية والدقة العلمية والبحث الرصين ، حتى ان هتلر استقبل توينبي فى عام ١٩٣٦ لمدة ساعتين ونصف الساعة ، والقى عليه محاضرة فى السياسة وذلك لان هتلر كان يدرك قيمة هذا « **المسح** » (١٥) . وقد استطاع توينبي ان يكمل عمله بالمسح بعمل آخر الا وهو كتابه الضخم (**دراسة للتاريخ**) . ويقول توينبي ان عمله ارضاه فكريا واخلاقيا . ويفسر هذا الارضاء الاخلاقي على النحو التالي :

« كيف يمكن ان يكون هناك ارضاء اخلاقي فى عمل قصد به ان يكون « علميا » بمعنى تناول دراسة الاحداث الدولية بطريقة موضوعية غير شخصية ؟ انني فى كتابتي « **للمسح** » بذلت اقصى ما استطيع لكي احول دون آمالي الشخصية واحكامي بالخطأ وبالصواب ، ودون تلوين سرد لهذه الاحداث ، وعندما كنت اشعر بانني لم احقق هذه الغاية كنت ابذل قصارى جهدى فى كشف اوراقي امام القارىء لاساعده على ملاحظة اهوائي واسقاطها » (١٦) .

وقد ظل توينبي يعمل فى « دار شاتام » ثلاثة وثلاثين عاما ، وكانت تساعده فى تحرير « **المسح** » **السيدة فيرونيكا بولتر** التي تزوجها عام ١٩٤٦ بعد ان طلق زوجته الاولى **روزلند** ابنة **جلبرت مرى** (من اولاده منها الناقد الادبي فيليب توينبي) . كما ظل يعمل حتى عام ١٩٥٥ استاذا باحثا للتاريخ فى جامعة لندن .

ان العمل الذى اقترن « **بالمسح** » ــ كما قلنا ــ « **هو دراسة التاريخ** » ، وبينما كان الاول يحقق الحاضر كان الثاني بحثا فى الماضى . وقد استفاد العملان من بعضهما البعض . ويروى لنا توينبي ان فكرة الكتاب قد جاءته كتعليق على الجوقة الثانية فى مسرحية « **انتيجونه** » **لسوفوكليس** ، وانه كتب اثناء سفره بالقطار من استامبول الى لندن فى ١٧ ايلول ١٩٢١ على نصف ورقة قائمة تضم نحو اثنى عشر عنوانا ، وقد ظلت هذه العناوين ــ مع تغيير طفيف جدا ــ عناوين الاقسام الثلاثة عشرة فى كتابه « **الدراسة** » ، وبدأ يكسو هذه الدراسة لحما فى عام ١٩٢٧ ، غير ان البداية الجدية كانت فى عام ١٩٣٠ . وفى عام ١٩٣٤ اصدر المجلدات الثلاثة الاولى من كتابه ، وقبل الحرب العالمية الثانية باحدى واربعين يوما اصدر ثلاثة مجلدات اخرى ، واستطاع ان يحتفظ بمذكراته الخاصة بالكتاب فى نيويورك اثناء الحرب العالمية الثانية ، وشغل بالحرب فلم يبدأ بالعمل على اتمام كتابه الا فى عام ١٩٤٧ . وفى عام ١٩٥٤ اصدر اربعة مجلدات اخرى هي تتمة الكتاب . وعاد واصدر فى عام ١٩٥٩ المجلد الحادى عشر بعنوان « **اطلس تاريخي ومعجم جغرافي** » بالتعاون مع **ادوارد مايرز** ، وفى عام ١٩٦١ اصدر المجلد الثاني عشر تحت عنوان « **مراجعات** » واصدر سمرفيل موجزا للاجزاء الستة الاولى فى عام ١٩٤٧ ، وموجزا للاجزاء من ٧ ــ ١٠ فى عام ١٩٥٧ . وقد ترجم هذا الموجز ونشر فى القاهرة . واصدر توينبي طبعة جديدة مختصرة ومنقحة ومصورة لكتابه ، بالتعاون مع **جين كابلان** فى مجلد واحد عام ١٩٧٢ .

يقول البرت حوراني : « كان واضحا منذ البداية ان الكتاب رائع ، حتى عندما ينظر اليه من ناحية سطحية جدا كمخزن للحقائق .

---

(١٤) Experiences, p. 75.

(١٥) راجع الصفحات من ٢٧٦ ــ ٢٩٥ Acquaintances

(١٦) Experiences, p. 80.

فهو يضم الوانا مختلفة من الحقائق الغريبة والمشوقة حول العالم الانساني ، بل ان اكثر القراء مرضية اذا نظر الى صفحة هنا او هناك في السرير او اثناء رحلة سيخرج منها وقد زادت حصيلته من المعرفة ، وقد تعمق احساسه بغرابة الحياة البشرية . واذا كان بعض الحقائق غير دقيق نستطيع ان نقول عنه ما قاله توينبي نفسه عن كتاب **« الموجز في التاريخ » لويلز** : « مثل هذه الاخطاء شيء لا مفر منه ؛ ويمكن اغتفارها بسهولة في كتاب ، حاول ان يحيا من جديد البشرية كلها كتجربة خيالية واحدة » (١٧) .

واذا كان اى عمل فكرى هو وليد العصر الذى كتب فيه ، فان كتاب **« الدراسة »** هو وليد العقدين الثاني والثالث من هذا القرن ، حيث طرحت الحرب العالمية الاولى تساؤلات قوية وملحة حول مستقبل الحضارة ، فقام الشاعر الانجليزى **اليوت** (كان امريكيا حينئذ واخذ الجنسية البريطانية عام ١٩٢٧) والف قصيدته « الارض الخراب » عام ١٩٢٢ في تعليق قاتم على الحضارة الغربية ، واتى **اوزفالد اشبنجلر** الالماني فنشر في عام ١٩١٨ كتابه **« سقوط الحضارة »** . ورأى اشبنجلر ان التاريخ يتألف من وحدات ثقافية مستقلة بذاتها . وان كل ثقافة كالنبتة ، لها دورة حيث تزدهر هذه الثقافة وتنمو ثم يصيبها الانحلال ثم تندثر . وقد قرأ توينبي كتاب اشبنجلر عام ١٩٢٠ وتساءل في كتابه **« الحضارة على المحك »** (١٨) . اذا كان منهجه في النظر الى ان اصغر وحدات البحث التاريخى هى المجتمعات او الحضارات وليست الدول القومية ، وان هناك معاصرة بين هذه الحضارات ، لم يتأثر برأى اشبنجلر . وكان اشبنجلر قد تناول في دراسته ثماني ثقافات او حضارات وانتهى في تحليله الى ان الحضارة الغربية محكوم عليها بالاندثار ، وان حضارات من الشرق ستحل محلها .

والى جانب تأثير اشبنجلر ، اثارت الحرب العالمية الاولى في نفسه ما اثارت الحرب البيلوبونيسية (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق.م) التي قامت بين اثينا واسبرطة وحلفائهما في نفس مؤرخ هذه الحرب **ثوسيديديز** ، وهو الذى كان قد درس ثوسيديديز لطلبته في كلية باليول في اكسفورد عام ١٩١٤ ، فرجع الى ثوسيديديز واذا به يجد الكتاب مليئا بالمعاني الجديدة ، وانه ينطبق الى درجة مدهشة على الصراع المعاصر في اوروبا . وقد كتب توينبي نفسه يتحدث عن هذه التجربة فقال :

« .. وفجأة اتير فهمي . ان التجربة التي نمر بها الآن في عالمنا هي نفس التجربة التي مر بها ثوسيديديز في عالمه .. وقد بدا الآن ان ثوسيديديز كان فوق هذه الارض من قبل . وقد سبقني وسبق جيلي هو وجيله في مرحلة التجربة التاريخية التي قد وصلنا اليها بعده .. ومهما تقل التواريخ فقد البت عصر ثوسيديديز وعصرى انهما متعاصران فلسفيا . واذا كانت هذه هي العلاقة الصحيحة بين الحضارة الرومانية اليونانية والحضارة الغربية ، أفلا يمكن ان تكون العلاقة بين جميع الحضارات المعروفة لدينا هي على هذا الحال » (١٩) .

وتمرد توينبي على منهج المؤرخين الغربيين حين اعتبر الوحدة الصالحة لدراسة التاريخ هي المجتمع او الحضارة . وقد احصى توينبي

(١٧) Albert Hourani, A Vision of History (Khayats, Beirut, 1961) p. 1.

(١٨) A. Toynbee, Civilization on Trial and the World and the West (Meridian Book, New York, 1958) pp. 20-21.

(١٩) Ibid pp. 18-19.

(١٩) انظر المجلد العاشر من دراسة للتاريخ صفحة ٩٤

في تاريخه احدى وعشرين حضارة درسها واستنتج قوانينه منها . وهذه الحضارات هي : المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والسريانية والمينوية والهيلينية والايرانية والعربية والهندوسية والهندية والصينية وحضارة الشرق الاقصى والانديه واليوكاتيكية والمايانية والمكسيكية والمسيحية الارثوذوكسية البيزنطية والاورثوذوكسية الروسية ، وقسم حضارة الشرق الاقصى الى حضارة صينية وحضارة كورية يابانية ، ثم الحضارة الغربية. وقد ابتلعت مسيرة التحضير جميع هذه الحضارات الا سبع حضارات هي : الاورثوذوكسية المسيحية ، والارثوذوكسية الروسية ، والاسلامية (التي تضم الحضارتين الايرانية القديمة والعربية) والهندوسية والصينية والكورية اليابانية والغربية. وبالرغم من ان توينبي يتفق مع اشبنجلر في ان الحضارة الغربية تمر في ازمة حرجة ، الا انه يختلف معه في انه يرى ان بالامكان انقاذها بسلوك السبيل الروحي .

وقد قسم توينبي كتابه الى اثلاثة عشر قسما هي : المقدمة ، تكوين الحضارات ، نمو الحضارات ، انهيار الحضارات ، انحلال الحضارات ، الدول العالمية ، والكنائس (الاديان) العالمية ، عصور البطولة ، الاتصالات بين الحضارات مكانيا (المجابهات بين الحضارات المعاصرة) والاتصالات بين الحضارات زمانيا (عصور النهضات) ، القانون والحرية في التاريخ ، مستقبل الحضارة الغربية ، الهامات المؤرخين. ونلاحظ انه قد عدل في هذا التقسيم في موجزه الذي اصدره في نهاية عام ١٩٧٢ . اذ ضم الموجز احد عشر قسما هي : شكل التاريخ، وتكوين الحضارات، ونمو الحضارات، وانهيار الحضارات ، والدول العالمية ، والكنائس (الاديان) العالمية ، وعصور البطولات ، والاتصالات بين الحضارات مكانيا ، والاتصالات بين الحضارات زمانيا ، ولماذا يدرس التاريخ .

ولعل اشمل تلخيص موجز لنظام توينبي ـ فيما قرأت ـ هو ما بسطه البرت حوراني في كتابه الذي اشرنا اليه فيما سبق . يقول الاستاذ حوراني (٢٠) :

« وتنطلق هذه النظرية من تمييز بين حالتين اساسيتين يرمز لهما عند توينبي بالمصطلحين الصينيين Yin (السلب) و Yang (الايجاب) (٢١) : حالة من الخمود والمحافظة السلبية على تماثل مدرك ، وحالة من التقدم الابداعي الى المجهول ، وتحول عن عادات السلف الى اسلوب في الحياة جديد ، وغير رسمي ولم يرسم بعد . وهذه هي الازدواجية النهائية في الحياة الانسانية ، والمبدأ الاول في التفكير التاريخي . ان مسيرات التاريخ تنبع من انتقال مجموعة من الناس من السلب الى الايجاب . وكل ما يستطيع التفكير التاريخي

---

(٢٠) Op. Cit. pp. 4-7.

وقد نشرت مقالة الاستاذ حوراني " Toynbee's Vision of History " لاول مرة في مجلة The Dublin Review المجلد ٢٢٩ العدد (٤٧٠) لندن ـ ديسمبر ١٩٥٥ من ص٣٧٥ ـ ٤٠١ .

(٢١) الين واليانج ـ في الفلسفة الصينية ـ مبدءان للسلب والايجاب على التوالي في الكون ، او دور الانثى السلبي ودور الذكر الايجابي وهما متناقضان دائما ولكنهما متكاملان . وهما موجودان ايضا ومتمثلان في السماء والارض ، وفي الرجل والمرأة ، وفي الشمس والقمر ، وفي الخير والشر . (ص . ع)

راجع M. Rosenthal and P. Yudin, eds., A Dictionary of Philosophy, (Moscow, 1967)

و D. D. Runes, ed., Dictionary of Philosophy (Peter Owen, London, 1970).

ان يفعله هو متابعة الظروف التي حصل فيها التغيير والنتائج التي تمخضت عنه ، اما لماذا حصل هذا التغير في هذه الظروف فهو لغز يختفي في حرية الاستجابة الانسانية (يمكن ان نلاحظ بشكل عابر ان هذه الازدواجية ـ السلب والايجاب ـ التي تعبر عن نفسها بصور متعددة ـ في الانسحاب والعودة ، وفي التحدي والاستجابة ، وفي التبديد والحشد ـ هي مثل واحد على ولع توينبي بالازدواجية ».

« وتنمو الحضارات بمثل هذا الانتقال ، ويعني النمو نقل ميزان العمل والتحدي من التحدي الخارجي الى الداخلي ، وهو تقدم نحو تقرير المصير ، واتجاه تصبح فيه شخصية الحضارة هي ميدان عملها . ويحدث هذا عندما تواجه الحضارة تحديا فتقابله باستجابة ناجحة ، وهي عندما تفعل هذا لا تقتصر على امتصاص ذلك العنصر الذي يشكل عدم امتصاصه نفسه تحديا ، وانما تولد في نفسها طاقة لمجابهة تحد آخر . ولكن كيف تستجيب احدى الحضارات للتحدي بينما تعجز حضارة اخرى عن ذلك ؟ الجواب على ذلك هو وجود اقلية مبدعة في الحضارة الناجحة ـ فرد او نفر قليل من الناس او جماعة كاملة ـ وعندما تتحمل هذه الاقليه عبء التحدي اثناء عزلة انسحابها من المجتمع تعود الى صميمه وقد حلت المشكلة ومن ثم تجر وراءها كل الجماهير غير المبدعة بقوة التقليد او المحاكاة .

« ولكن قوة المحاكاة هذه التي تيسر نقل الافكار او المهارات الجديدة من الاقلية الى الاكثرية ، ومن ثم تعطي قوتها للمجتمع النامي، هي ايضا نقطة الضعف في الحضارات كلها ، اذ لا يمكن زعزعة الاكثرية غير المبدعة من حالة السلب الا بقوة السحر ، فاذا ما انتهى مفعول السحر انحلت حالة التعايش ، ان كل عمل يصدر عن المحاكاة غير ثابت لانه ليس تلقائيا » . ويتضح هذا بشكل خاص في مجتمع متحرك حيث لم يعد رباط السحر يوثقه رباط العادة . وقد يحدث « انهيار » ان عاجلا او آجلا : اى فقدان الانسجام ـ بشكل او بآخر ـ بين مؤسسات المجتمع القديمة وبين افكارها الجديدة مثلا ، او بين الاكثرية والاقلية . وقد تنسحب هذه الفئة الاخيرة من مسئوليتها نحو المجتمع الى حياة سرية غامضة ، او ربما فعلت عكس ذلك ، ففرضت ارادتها بكل قوة حتى تفسد بذلك المجتمع كله . فاذا سلكت احد السبيلين ربما اصبحت عاجزة عن الاستجابة المبدعة للتحديات الجديدة ، بل ان نجاحها نفسه في مواجهة لحد قد يجعلها عاجزة عن معالجة التحدى التالي .

« فاذا حدث هذا (ونقول « اذا » لانه ليست هناك اشارة الى ان العملية كلها يجب ان تحدث بل ان الامر على عكس ذلك ، فهناك اصرار على ان الانسان يستطيع دائما ـ اذا اراد ـ ان يحطم الاغلال التى يبدو انها تقيده) فان الحضارة ستنتقل من « الانهيار » الى « الانحلال » . ونفس هذا التحدى الذى لا يجابه بنجاح ابدا ، ومن ثم يعيد نفسه مرات ومرات بنفس (الرتابة القاسية) يصير التنافر الى شرخ وهوة تتسع ببطء في جسم الجماعة . وقد تظهر هذه الهوة بين الجماعات المحدودة التي تقسم اليها الحضارة (كالجماعات القومية التي تكون الحضارة الغربية) ، وقد تكون هوة بين « العناصر » المختلفة او « الطبقات » التي تكوّن الحضارة . وتقسم الحضارة الى ثلاث طبقات مستقلة ، تصبح الاقلية المبدعة فيها ـ بعد ان توقفت عن الاستجابة المبدعة للتحديات ـ اقلية مسيطرة ، تظن ان مركزها في القيادة هو امتياز لها ، وتتشبث به بطرق لا تساعد الحضارة على التغلب على مشاكلها ،

وتبـــرز مقابلها بروليتاريا (٢٢) داخلية ، وهي جماهير لم تعد مرتبطة بالاقلية بالمحاكاة ، وقد قامت بعمل انفصالي ، ولا تعتبر نفسها منتمية للحضارة ، ثم بروليتاريا خارجيـة مكونة من عناصر جذبتها قوة الى تخوم الحضـارة ابان نمو هذه الحضارة ، ولكنها لم تعد تقبل الدور الذى خصصته لها الحضارة .

ويتقدم الانحلال .. تتحـول العلاقات بين هذه العناصر من الانسجام الى القوة ، وتبذل الاقلية محاولة يائسة للمحافظة على مركزها فتردعليها البروليتاريا بالعنف. وليست هذه هي كل القصة : اذ في اللحظة التي تدمر فيها الطبقات الثلاث انفسـها ، وتدمـر الحضارة ككل نتيجه صراعها العنيف ، تتفتق الطبقات الثلاث عن اعمال ابداعية تضيء العالم المحتضر . وقد تنتج الاقلية المسيطرة ــ وهي في الرمق الاخير ــ دولة عالميـة ، وتنتـج البروليتاريا الداخلية كنيسـة عالميـة (٢٣) ، وتتمخض البروليتاريا الخارجية عن دول بربرية وآلهة حرب وبطولات وشعر حماسي .

« والكنيسـة العالمية هي الوحيـدة من بين هذه ، هي « المتطلعة الى الامام » وهي شرنقة حضارة جديدة ، وهي ايضا الطـريق الـذى يستطيع ان ينقذ الناس به انفسهم من مـوت الشيخوخة . لقد خلقت الكنيسة من قبـل اقلية جديدة ظهرت في صفوف البروليتاريا ، وهي اقلية من نوع جديد ، ان تجربة الحياة في مجتمع متداع تلقي امام الروح الفردية تحديا . ان الانقسـام في المجتمع يؤدى الى انقسـام في الروح ، وقد يبرز قائد من طراز جـديد يبين كيف يداوى هذا الانقسـام ، وهو المنقذ الذى يقود من يتبعه ويخرجه من مجتمع محكـوم عليه بالهلاك . اما من يتخلف عن هذا القائد ، فان مصيره التـردى في شراك الانحلال التي تاخذ الشكل التالي : تبديد ــ حشد ــ انهيار . وعند حافة الهزيمة يحاول المجتمع المنهار ان يضم صفوفه ، ويبدو وكانه قد استعاد قوته ، ولكنه سرعان ما يسمع اصرار التحدى العائد القاسي . ومن اقوى محاولات خداع هـذا الموت تلك المحاولة التي تتمخض عنها الدولة العالمية ، وعندما تتداعى الدولة العالمية تموت الحضارة اما بالفناء في حضارة اخرى واما بالذوبان في الفوضى ، وقد تنشا عنها في الوقت المناسب حضارة جديدة » .

وهكذا فان الحضارة في راى توينبي تنشا عندما يواجه شعب تحديا فيستجيب لهـذا التحدى بقوة اكثر من التحدى نفسه ، ويرى توينبي ان افضل تحد هو الذى لا يقتصر على دفع المتحدى الى تحقيـق اسـتجابة ناجحة واحدة ، وانما يدفعه ايضا الى الوصول الى حركة تدفعه الى الامام فينتقل من الانجاز الى كفاح جديد ، ومن حل مشكلة الى طرح مشكلة اخـرى ، ومـن راحـة آنيـة الى حركـة متكررة (٢٤) . ومن شروط هذا التحدى ان لا يكون مفرطا في قوته ، والا فقد يؤدى الى

(٢٢) ان استخدام توينبي لكلمة بروليتاريا هـواستخدام خاص ، ويعني بها جميع الذين يشعرون بانهم لا ينتمون الى المجتمع المرتبطين به عضويا . وتتسم هذهالطبقة بسخطها وبشعورها بحرمانها من المكان الطبيعي في مجتمعها . وتعيش « البروليتاريا الداخلية » ضـمنالمجتمع اما « البروليتاريا الخارجية » فتعيش خارجه وان كانت ضمن نطاق اشعاعه . وتظل المجتمعات البربريةضمن نطاق حضارة معينة وتحت التاثير الروحي لتلـك الحضارة ما دامت هذه المجتمعات في حالة نمو . وعندمايبدا الانهيار تفقد الحضارة سحرها ويصبح البرابرة اعداء لها ويشكلون بروليتاريا خارجية . (ص . ح)

(٢٣) كلمة كنيسة عالمية « يعني بها توينبي ديناعالميا ، وليس الاستعمال مقصورا على الكنيسة المسيحية وحدها » . (ص . ح .)

(٢٤) A Study of History, Vol. 3, p. 119.

الموت ، وان لا يكون مفرطا في ضعفه والا فانه لن يستخلص الاستجابة الفعالة . وهكذا يطرح توينبي قانون الوسط الذهبي في مبدأ التحدي والاستجابة . ويظل المجتمع متماسكا ما دام في حالة نمو ، ويتميز باقلية مبدعة تقود هذا المجتمع ، وتجابه التحديات بنجاح ، وتبدأ الحضارة في الانهيار عندما تعجز الاقلية المبدعة عن مجابهة التحديات وتتحول الى اقلية حاكمة ، ومن ثم لا يعود هذك مثل اعلى تقلده الجماهير ، فتنفرط لذلك وحدة المجتمع .

لقد هاجم المؤرخون توينبي هجوما شديدا على اختلاف المدارس والمذاهب التي ينتمون اليها ، فالاستاذ الماركسي كوسمنسكي الذي اشرنا اليه فيما سبق — انكر على توينبي ما سماه بالجانب الصوفي — او الخرافي — في فلسفته ، واعتبر توينبي احد المفكرين الغربيين الذين وضعوا نظما او فلسفات لمحاربة « الاشتراكية العلمية » ، وانكر على توينبي رجوعه الى الاساطير في دعم فلسفته وهو — اى توينبي — الذى يزعم انه اتخذ لنفسه مبدأ التجريبية في بحثه ودراسته .

وانكر على توينبي منهجه في اعتبار الافراد العظام ، وليست الشعوب ، القوى الرئيسية المحركة في تطور المجتمع ، وفي ان الصانع الحقيقي للتاريخ هو الشخصية الفردية المبدعة ، وان تجربة هؤلاء الافراد الداخلية هي مصدر طاقتهم الابداعية ، سواء اكان هؤلاء الرجال صوفيين ام انبياء ام شعراء ام رجال سياسة ام قادة عسكريين ام مؤرخين ام فلاسفة .

وهاجمه المؤرخ الهولندى بيترجيل ، واتهمه بانتخاب الشواهد التى تناسب حجته ، او بعرض هذه الحجج بالطريقة التى تروق له ، ورأى ان نظامه لافائدة منه ، فان المقارنات يجب الا يعتمد عليها ، لان لكل واقعة ظروفها التى تحول دون تكرارها بالصورة التى تمت فيها . ويسلم جيل بشاعرية توينبى وغزارة معرفته ولكنه ينكر عليه منهجه التاريخي (٢٥) .

وبعد ان انكر ولش على توينبي ان يكون مؤرخا في كتابه « **الدراسه** » تساءل هل سيوجد هذك من سيقرأ « **دراسةللتاريخ** » بعد خمسين سنة ؟ وان كان قد اعترف ولش بفضل توينبي باخراجه المؤرخين من حظيرة التخصص الضيق الى آفاق اوسع . « ان المؤرخين المحترفين غالبا مايكونون على حق في نقده ، ولكن كثيرا منهم بحاجة الى شيء من كبر عقله » (٢٦) .

ويسلكه باتريك جاردنر في عداد فلاسفة التاريخ التأمليين في المقال الذى كتبه عنه في « **موسوعه الفلسفة** » في المجلد الثامن (١٥١ - ١٥٣) ، وكذلك في مادة « انظمة تأملية للتاريخ » في المجلد السابع من الموسوعة .

وانكر عليه المؤرخون فرضه قوانينا لتفسير التاريخ تفسيرا حتميا ، ورأوا ان هذه القوانين ليست سوى فرضيات حلا لتوينبي ان يختارها ، وقالوا انه اتخذ الحضارة اليونانية الرومانية المعيار الذى قاس به حضارات العالم كلها ، ووضع بوحي من تجربة هذه

---

(٢٥) Pieter Geyl, Debates with Historians (Fontana Library, London, 1970).
راجع الصفحات ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٧٠ . افرد جيل هذا الكتاب نحو مائة صفحة لمناقشة نظام توينبي .

(٢٦) W. H. Walsh, An Introduction to Philosophy of History (London, 1970) pp. 160-165

الحضارة قانونا فسر فيه أو رسم به مسار الحضارات الاخرى ، وان كان هناك من النقاد من دافع عن توينبي ونفى عنه الحتمية (٢٧) . ويرد توينبي على هذا الاتهام بقوله عن نفسه « انه ليس حتميا فى قراءاته لألغاز الحياة البشرية . فهو يعتقد انه حيث توجد حياة يوجد أمل ، وان الانسان ـ بعون الله ـ سيد مصيره ، او على الاقل الى حد ما فى بعض الاعتبارات (٢٨) .

ويأخذون على توينبي غيبيته ، ويرون فيها ضبابية فى التفكير . ونحن نلاحظ ان تأثير الدين عليه لم يكن ضعيفا فى يوم من الايام ، وان كان قد زاد فىالاجزاء الاربعة التى اصدرها عام ١٩٥٤ ، كما اصدر فى عام ١٩٥٦ كتابا بعنوان « سبيل مؤرخ الى الدين » . وفى عام ١٩٥٧ كتابا آخر بعنوان « المسيحية بين أديان العالم » . وهو يردد ـ وفى اكثر من موضع فى كتبه ـ ان طريق الحضارة الغربية سيؤدى بها الى التهلكة مالم ترجع الى الله نادمة وتائبة .

ان الاديان ـ فى راى توينبي ـ قد ولدت من تلاقى أو تجابه الحضارات . « ومستقبل البشرية ـ اذا قدر للبشرية ان يكون لها مستقبل فى هذا العالم ـ هو ـ كما اعتقد ـ فى هذه الاديان العليا .. وليس فى الحضارات التى وفر تلاقيها الفرص لميلاد الاديان العليا « **الحضارة على المحك** » صفحة (١٤٣ـ١٤٤)

ويرفض توينبي راي المؤرخين الذين يرون ان كل ما فى التاريخ صدفة ، هذا الراى الذى ولد فى القرن التاسع عشر ، وعبر عنه فىالقرن العشرين المؤرخ **فيشر** فى مقدمته لكتابه « تاريخ اوروبا » الذى قال ـ وبتواضع العلماء ـ انه لم يستطع ان يرى فى التاريخ نسقا مطردا ، وان كان قد راى هذا النسق رجل اكثر منه علما واغزر حكمة . ويناقش توينبي راى فيشر « **دراسة التاريخ** » المجلد الخامس ٤١٤ ـ ٤١٥) ولا يسلم به .

وناصب النقاد اليهود توينبي العداء ، لمواقفه العادلة من قضية فلسطين ، فمثلا بدا خصام المؤرخ الصهيوني لويس نامير له فى عام ١٩٢٩ وكان سبب هذا الخصام كما يرويه توينبي فى كتابه (معارف) صفحة ٦٩ ـ ٧١ :

« وكان خصام لويس معي حول ما كنت اكتبه فى مسح دار شاتام حول تاريخ فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وقد عارض معالجتى لهذا الموضوع الشائك والمثير للجدل ، لانه كان قد اصبح فى ذلك الوقت صهيونيا متحمسا ، بينما اصبحت انا اثناء تكشف الاحداث فى فلسطين ازداد شكا فى امكانية نجاح السلطة المنتدبة فى التوفيق بين التزاماتها نحو الفلسطينيين العرب ونحو التزاماتها فى فلسطين مع اليهود . وقد خشيت من ان العرب سيلاقون معاملة ظالمة ، ومن ثم جعلت همي التأكد من ان اسجل فى سردى الحقائق التى بدت لى وكأنها تعطى للعرب سببا معقولا للقلق ومن ثم للسخط » . ولم يحفل توينبي بهذه المعارضة واستمر فى موقفه النزيه . ولما صدر الجزء الثامن من كتابه « **دراسة التاريخ** » (٢٩٨ ـ ٣١٣) فى عام ١٩٥٤ ادان بشدة وحزم الغرب والصهيونية فى جريمتهما فى

(٢٧) Oscar Halecki, "The Validity of Toynbee's Conception of the Prospects of Western Civilization," The Intent of Toynbee's History, p. 202.

(٢٨) Civilization on Trial, p. 38.

فلسطين . وقام اليهود والصهاينة يردون على توينبي اما بالدفاع عن الصهيونية واليهود ، واما بتحريف آرائه (٢٩) . وجرت بينه وبين السفير الصهيوني ياكوف هيرتزوج في كندا في ٣١ يناير ١٩٦١ محاورة انتقد فيها سياسة اسرائيل وندد بها .

وفي كتابه « **تجارب** » يتحدث في أكثر من موضع عن قضية فلسطين ، يقول في صفحة (١٣٥ – ١٣٦) :

« لست أؤمن ان اليهود شعب الله المختار . ان اعتقاد المرء بان قبيلته هي شعب الله المختار هو خطأ القومية . انه خطأ اخلاقي وفكري » . ويدافع في الصفحات من ٢٤٤ الى ٢٦٤ عن حق الفلسطينيين في وطنهم ، ويندد بجريمة اسرائيل ومواقفها اللااخلاقية ، ويقول في موضع آخر من الكتاب (صفحة ٢٦٦) :

« ان الاستعمار الاسرائيلي منذ انشاء دولة اسرائيل هو احد اسوأ حالتين في جميع تاريخ الاستعمار في العصر الحديث ، ويزيد من شدة سواد الصورة تاريخها . ان الصهاينة من اوروبا الشرقية يزاولون الاستعمار في فلسطين على شكل طرد السكان العرب المواطنين ، وسلبهم ممتلكاتهم في الوقت الذى ترك فيه الاوروبيون الغربيون حكمهم المؤقت للشعوب غير الاوروبية . . (والصورة الثانية من الاستعمار تمت في الولايات المتحدة ما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٨ عندما سلبت اراضي السكان الاصليين) لخمس ولايات وبمساندة الجيش الامريكي) لقد كان هذا الاستعمار الامريكي في القرن التاسع عشر جريمة ، والاستعمار الاسرائيلي الذى ينفذ الان في وقت كتابة هذه السطور (عام ١٩٦٩) هو جريمة ومفارقة تاريخية اخلاقية » .

وتحدث عن القضية في كتابه « **بين النيجر والنيل** Between Neger and Nile » الذى صدر عام ١٩٦٥ (٨٦ – ٩٠) . وكان من آخر ما نشر توينبي حول القضية الفلسطينية حوار جرى بينه وبين الصحفي البريطاني **لويس ايكس** ونشر في مجلة **دراسات فلسطينية** Palestine Studies عدد الربيع لعام ١٩٧٣ وكان مما قاله لما سأله **ايكس** : « هل تعتقد ان بلفور كان أعمى عن رؤية مرامي التصريح ؟ »

توينبي : كلا ، لقد كان يفهمها . وهناك مذكرة منه الى زملائه في الوزارة يقول فيها : « لا استطيع ان افهم لماذا جعلتم هذا انتداب حرف « أ » ، الذى يعني حق تقرير المصير ، اذ اننا لا ننوى ان نعطي هؤلاء حق تقرير المصير » (وهو يعنى « بهؤلاء » الفلسطينيين العرب) . واذن فقد كان يعرف ما يفعل . انني اقولها لك صريحة : لقد كان بلفور رجلا

---

(٢٩) من الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب :

M. Samuel, The Professor and the Fossil (New York, A. Knopf, 1956).

وهو رد على اتهام توينبي لليهود بانهم شعب متحجر ، ومقالة ابا ايبان بعنوان « هرطقة توينبي » (المنشورة في كتاب Toynbee and History) من صفحة ٣٢٠ – ٣٢٧ .

كما يحتوى هذا الكتاب على مقالة بعنوان « المتحجر والاستاذ » لفردريك روبن من صفحة ٣١٦ – ٣١٩ .

ويقول ستروميرج في كتابه عن توينبي (صفحة ٥١) « ان رفا كبيرا يمكن ان يملأ بما كتبه اليهود في الهجوم على توينبي .

شريرا » . . . كان بلفور يعرف (كل التعبيرات الغامضة مثل تعبير وطن قومي ــ وكانت هذه متعمدة في تصريح بلفور . وكذلك قوله « الحقوق المدنية والدينية» وليست « الحقوق السياسية » للجماعات غير اليهودية الاخرى في فلسطين » . انني اعتقد ان كل كلمة قد كتبت بعناية لتكون غامضة . وهذا امر سيء جدا » .

ان موقف توينبي من القضية الفلسطينية نابع من ايمانه بالحق العربي فيها ، ومن كراهيته للحركة الصهيونية المتمثلة في احياء قومية بغيضة لديه ، بل انه يرى ان الصهيونية خيانة لليهودية الحقة ، ويرى المؤرخ الصهيوني **نامير** في كتابه Avenues of History ان كراهية توينبي للصهيونية لا تنطوي على كراهية لليهود ، ويعزو هذه الكراهية الى موقف توينبي المشايع للاسلام منذ عام ١٩١٩ . ويرى لويس ممفورد ان تناول توينبي لليهود هو « زلته الكبرى » .

وليس من شك في ان محاولة استعراض جميع القضايا الهامة التي تناولها توينبي في كتبه الكثيرة في مقال واحد عمل مستحيل ، فلقد كان انتاجه غزيرا واهتماماته واسعة ومتشعبة ، وما اظنه وهو يتحدث في المجلد العاشر من كتابه **« دراسة التاريخ »** عن المفكرين الذين انتجوا كثيرا الا يتحدث عن نفسه :

« النظام ــ في الحقيقة ــ هو مفتاح حياة جميع هؤلاء الرجال الناجحين من ذوي العمل الفكري ، ويظهر هذا في ابلغ صورة في استخدامهم المنظم لاوقاتهم . فقد اظهروا مقدرة على المثابرة في متابعة اهداف فكرية طويلة المدى في فترات تبلغ نصف او ثلاثة ارباع حياتهم العملية العادية ، وفي هذه الاثناء انتزعوا من الحياة العملية ــ التي كانت مشغولة بصورة رئيسية بواجبات ــ جزءا من الفراغ لاستغلاله في الاقتراب من هدف فكري بعيد ، وذلك بتعليم انفسهم كيف يقتصدون في وقتهم ، وكيف يخططون له على احسن وجه في مجرى حياتهم اليومية » (المجلد العاشر صفحة ١٥٣ ــ ١٥٤) او ليس من بين هؤلاء الرجال مؤرخنا العظيم الذي يضع في عام ١٩٢١ مخططا لسفره الضخم ، ويظل منصبا على انجازه قرابة اربعين عاما ،دون ان ينحرف عن الخطوط الاولى التي وضعها للكتاب ، بل وانه ليشير في المجلدات الاولى الى موضوعات سيتطرق اليها في مجلداته التالية محددا مكانها ، وكان هذه المجلدات ستصدر غدا او بعد ، وكانه فرغ لتوه من كتابتها . وهو الذي يقول عن نفسه (الاوبزرفر اللندنية ١٢ مارس ١٩٧٢) وقد بلغ الثمانين « الآن ــ وفجاة ــ بدات الشيخوخة تتطلب مني ان استرخي » وبدا يستيقظ في الثامنة والربع صباحا بدلا من السادسة الا ربعا .

وسنختار بعض هذه القضايا ، ونمر بها مرا سريعا ، بلا استقصاء او تفصيل ، ولعل اكثر كتبه تناولا للقضايا العامة كتبه **« تجارب »** ، و **« الحضارة على المحك »** و **« العالم والغرب »** **« البقاء في المستقبل »** (٢٠) **« انشغال الانسان بالموت »** (٢١) (شارك توينبي بثلث مادة هذا الكتاب) .

ليس هناك امر ابغض الى نفس توينبي من الحرب ، ومن القومية باعتبارها سببا رئيسيا من اسباب الحروب . فالحرب عند توينبي هي ام الكبائر ، وهي احدى اعراض ونتائج فشل الانسان الخلقي ، وقد بدات مع بداية حضارة الانسان،ولعلها بدات عند السومريين، وقد ولدت الحروب عندما اصبح لدى الانسان فائض من الوقت ومن الطاقة ومن الانتاج فوق ما يحتاجه ليقيم اوده ، « وعندما استطاع ان

(٢٠) Surviving the Future, London, 1971.

(٢١) Man's Concern with Death, London, 1968.

يحصل على مايكفيه من قوة التنظيم والادارة والمذهبية لتدريب أعداد من الناس على العمل، متكاتفين لقتل أناس آخرين بشكل منتظم ، وكذلك لتكييف هؤلاء لمحاولة ان يقتلوا (بفتح الياء) والتعرض لان يقتلوا (بضم الياء) دون ان ترتعد فرائصهم من هذه المحنة المزدوجة » . واخترعت الحرب لها تقاليدا كان منها الا تشترك المرأة الا في حالات محدودة في الحروب، وان كان ذلك لم يعفها من نتائج الحروب وويلاتها . ومن تقاليد الحروب الزى الذى يتخذ لها ، ويرى توينبي أن هذا الزى « الصبيانى » له وظيفتان الاولى نفسية اذ انه يمثل نقض التحريم العادى لقتل الانسان لأخيه الانسان ليحل محله واجب قتله ، والوظيفة الثانية لتمييز الجنود عن المدنيين . ويلاحظ توينبي ان ويلات الحروب تزداد بالرغم من ادعاء الانسان بانه اكثر مدنية وحضارة من اجداده ، بل ان احساس هذا الانسان وثورته عليها اضعف من ذى قبل ، بل ان اهتمامه بها محدود مالم تكن وسائل العنف فيها جديدة . ويعلق توينبي على جرائم الولايات المتحدة في فيتنام فيقول : « وتشاهد بانتظام في برامج التلفاز في الولايات المتحدة اليوم مشاهد من الحياة الواقعية ، حيث الجنود يقتلون ويجرحون بعضهم بعضا في فيتنام . وقد تعود الاطفال الصغار عليها . وكان يجب ان يكون رد الفعل على هذه المشاهدة المباشرة لوقائع الحرب الشنيعة اصرارا من الامة كلها على ايقاف الحرب فورا في فيتنام . ولكنه قيل لي ان مشاهدة وقائع الحرب على شاشة التلفاز بدلا من ان تقرب الناس من هذه الوقائع ، جعلتهم يشعرون انها غير حقيقية ، وذلك لربط العقل الباطن هذه المشاهد التلفازية بالتمثيل وليس بالحياة الحقيقية . فمشاهد المعارك التى ينقلها التلفاز تتحول في عقول المشاهدين وقلوبهم من واقع الى وهم . فكل طفل يعلم ان القتل عند « الغربيين » غير حقيقى ، ومن هنا يصبح القتل الحقيقى — عندما يقدم كغربى — وكأنه ايضا غير حقيقى ، وهذا لايجعل المشاهد فاقدا للاحساس فحسب ، وانما يجعله متحجر القلب » (انشغال الانسان بالموت ص ١٤٩) .

وطريق الخلاص عند توينبي هو ان تقبل بعدد من التغييرات الاقتصادية والسياسية التى لن يستسيغها الكثيرون ، ومنها خضوع جميع دول العالم لحكومة واحدة لديها القوة لكبح جماح الدول من اللجوء الى الحرب . ومنها توزيع جذرى لخيرات العالم بين الاقطار الغنية ، والاقطار الفقيرة ، بل وتوزيع الخيرات في البلدان الغنية بين الاكثرية الغنية والاقلية الفقيرة . ويتساءل توينبي : « هل يستطيع اى نظام ان يحقق هذه الاصلاحات الضرورية دون سلطة ديكتاتورية مسلحة ؟ » ويعترف بان هذه مسألة سياسية كبيرة تواجهنا الآن (**البقاء في المستقبل** صفحة ١١١) ولكن ليس من المستحيل ايجاد هذه الحكومة بالاتفاق المتبادل دون ان تلجأ اقلية الى فرض حكم ديكتاتورى على اكثرية سكان هذا العالم ، نتيجة لما تمتلكه هذه الاقلية من المعرفة التقنية (**البقاء في المستقبل** صفحة ١٣٩) ويتطلع توينبي الى الزمن الذى يصبح فيه كل انسان عضوا في ثلاث مجتمعات، فهو عضو في مجتمع عالمي ، ومواطن في دولة عالمية ، وهو عضو في جماعته المحلية ، وهو عضو في جماعة صغيرة متفرقة في ارجاء العالم تشاركه في التفكير وتبادله الرأى (**البقاء في المستقبل** ١٤٣ — ١٤٤) . ويرى توينبي أن هذا المجتمع الفاضل يحتاج حتى يتحقق الى ثورة روحية عالمية (**البقاء في المستقبل** ص ٦٦)؛ كما يحتاج الى تربية جديدة تنبذ التعصب القومي ، وتؤاخى بين الناس (المصدر السابق صفحة ٩٦) ، والى ثقافة عالمية تختار افضل ما في الثقافات المحلية وتجعله ملكا مشتركا لجميع الناس (المصدر السابق صفحة ١٤٩) ، ويمكن ان تستخدم التكنولوجيا لتحقيق بعض هذه الغايات ، كما ان الشباب والاجيال الصاعدة هى التى عقد عليها توينبي آماله لروح الشباب هى روح الكرم والاستعداد للتغيير والمثالية والنزاهة والتفتح العقلى ، ومن ثم فهو يطالبهم بتحمل مسئوليتهم التاريخية في احداث هذا التغيير المنشود ،

وهو يسألهم ان يتحلوا بالصبر وان يجتنبوا اللجوء الى العنف ، وان يقتدوا برجال الاديان الكبرى والفلسفات العظيمة . (المصدر السابق ١٥٢ ــ ١٥٤) . وهو يعتقد ان الجنس البشرى يواجه اختيارين وكلاهما سيء : الاول افناء نفسه بحرب ذرية ، والثاني ــ وقد يكون اهون الشرين ــ تجنب الحرب بتوحيد العالم تحت حكم ديكتاتورى عالمي ، حيث تخضع فيه اقلية قوية وغنية اكثرية فقيرة ومتاخرة ، ودور الشباب هو فى محاولة الخروج من هذا المأزق بايجاد وحدة عالمية تمكن الجنس البشرى من البقاء ومن الازدهار دون اضطهاد واستعباد.

وقد تنبأ توينبى فى كتابه « **التغير والعادة** ، صفحة ١٥٨) بأن الصين وليست الولايات المتحدة او روسيا هى التى ستكون نواة وحدة سياسية على مستوى عالمي ، ويسندها فى ذلك وحدتها الداخلية وكثرة عدد سكانها وتاريخها.

ويقف توينبى فى كتابه « **العالم والغرب** » عند الوحدة الاسلامية ، ويعيب على الاتراك والعرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية ، تبنيهم للقومية الغربية تلك « المثل الاعلى السياسى الغربي الضيق القلب » رغم ان لهم تراثا يجعل من جميع المسلمين اخوة بفضل دينهم المشترك ، بالرغم من اختلاف اجناسهم ولغاتهم واوطانهم . ويرى ان هذا التراث الإسلامي ، الذى يعتبر المسلمين اخوة ، افضل كمثل أعلى فى تلبية حاجات العصور الاجتماعية من التراث الغربي الذى ينادى باستقلال عدد من القوميات. ويرجو توينبي ان يتوقف انتشار هذا الوباء السياسي الغربي فى العالم الاسلامي على الاقل ــ بفضل الشعور الاسلامي التقليدى بالوحدة . (**الحضارة على المحك والعالم والغرب** ٢٥٣ ــ ٢٥٥) . وتسترعى اهتمام توينبي جامعة الازهر حيث الثقافة الاسلامية الواحدة ، التي تقدم باللغة العربية لجميع الطلاب على اختلاف أجناسهم ولغاتهم (**البقاء فى المستقبل** ص ٩٧) .

ويرفض توينبي نظرية التفوق العرقي ، ويقول انه ليس هناك اى دليل علمي على أن الفروق الجسمية فى لون البشرة مثلا او فى شكل الشعر او الانف مرتبطة بالقدرات والصفات . فلعل جميع الاجناس متساوية فى نسبة من فيها من عباقرة وبلهاء ومجرمين وقديسين (**تجارب** ص ٢٥٠) . ولا يتردد توينبي فى نعته الغرب بانه المعتدي الاول فى العصور الحديثة ، وان الغرب اذا كان قد بدا يقاسي على يد الامم الاخرى ، فلطالما قاست أمم العالم منه قرونا عديدة (**الحضارة على المحك** ٢٢٥ ــ ٢٣٧) .

ويتحدث توينبى عن الآثار العميقة التى تنجم عن استعارة شعب من الشعوب للتكنولوجيا الغربية . فيقول ان التكنولوجيا تعمل على سطح الحياة ، ومن ثم يبدو ان من المناسب علميا تبنى تكنولوجيا اجنبية دون ان يتعرض (الشعب) لخطر فقدان روحه . ولكن هذا خطأ فى التقدير ، اذ ان العناصر المختلفة فى اية ثقافة مترابطة ترابطا داخليا ، فاذا هجر الشعب ما لديه من تكنولوجيا ، واصطنع بدلا منها تكنولوجيا اجنبية ، فان اثر التغيير هذا على سطح الحياة التكنولوجية لن يظل محصورا فى السطح، بل سيبدا فى التسرب تدريجيا الى الاعماق حتى تتصدع جميع ثقافة هذا الشعب التقليدية وتدخل اليه جميع الثقافة الاجنبية شيئا فشيئا عبر الثغرة التى صنعها اسفين التكنولوجيا الاجنبية فى حصون ثقافة الشعب . ان لكل اطار ثقافى تاريخى وحدته العضوية الكاملة تستند اجزاؤها الى بعضها البعض ، فاذا فصل اى جزء عن مكانه فان الجزء المفصول والكل المشوه يسلكان سلوكا مغايرا لسلوكهما يوم ان كانا فى اطار متماسك . ان دمارا عظيما يمكن ان ينشأ من نزع فكرة او تنظيم او اسلوب ، من مواطنها الاصلية وزرعها فى بيئة اجتماعية اخرى

تتعارض فيها مع الاطار المحلي التاريخي للحياة الاجتماعية . واذا اخذ جزء من ثقافة ما ، وادخل في جسم اجتماعي اجنبي ، فان هذا الجزء سيسحب وراءه عناصر أخرى من النظام الاجتماعي الذي جاء منه هذا الجزء . (**الحضارة على المحك** ، الصفحات ٢٧٠ ، ٢٨٢ و ٢٨٣) .

ومن الامثلة الطريفة التي يقدمها توينبي على هذا الغزو الثقافي ، القصة التالية : لما اراد محمد علي ان ينشيء اسطولا بحريا قويا ، رأى انه لا بد من ان يصنع سفنه بأيد مصرية وفي أحواض مصرية . ومن ثم اعلن عن حاجته الى خبراء غربيين ، فاشترط هؤلاء الغربيون احضار عائلاتهم معهم ، كما اشترطوا توفير رعاية طبية لهم ، ومن ثم تعاقد محمد علي مع عدد من هؤلاء الخبراء الغربيين ، وكذلك مع بعض الاطباء الغربيين . وفي عام ١٨٣٩ انشيء مستشفى للولادة الى جانب دار الصناعة البحرية في الاسكندرية ، غير ان علاج هؤلاء الاطباء لم يقتصر على زوجات الموظفين الاجانب وانما امتد ليشمل ايضا عددا من السيدات المصريات . وقد لا يكون هذا الامر مثيرا لنا في الوقت الحاضر ، ولكنه في ذلك الحين كان خروجا على تقاليد كانت تفصل المرأة فصلا كليا عن اي رجل اجنبي ، ومن ثم كانت له آثاره العميقة على اطار حياة المجتمع المصري التقليدية . (المصدر السابق ٢٨٣ ـ ٢٨٥) .

ويتحدث توينبي عن آثار التكنولوجيا في العالم وعن تغييرها لكثير من الانماط التقليدية ، وبعض هذه الآثار قد يكون ضررها اكبر من نفعها . ومن الامثلة التي يعطيها التلفاز والعقل الاليكتروني وآثارهما السلبية على عملية التربية والتعليم . فمشاهدة التلفاز ـ عند توينبي ـ نشاط سلبي يعارض مبدأ « اعمله بنفسك » وهذا المبدأ هو ـ في رأيه ـ اساس التربية ، كما ان المشاهد اقل قدرة على التمييز بين ما هو حقيقي وبين ما هو غير حقيقي ، واقل حرية في اختيار ما يريد من القاريء ، فهو مكيف (بفتح الياء) لأن يسلم بكل ما تريد المؤسسة التي وراء التلفاز منه ان يسلم به . ويروي ان من الاشياء التي كان بعض الفرنسيين ينكرونها في نظام ديغول ان الحكومة قد احتكرت التلفاز ، ومن ثم فهم لا يستطيعون ان يروا الا ما يريد ديغول ان يروه ، ومن ثم حرموا من رؤية الوقائع بانفسهم وبالتالي حرموا من ان يقرروا بانفسهم ما يريدون ان يفعلوه . وقد أوردنا من قبل أثر التلفاز على الجمهور الأمريكي . غير ان توينبي في بحثه عن وسائل لتحقيق الحكومة العالمية يفطن الى التلفاز فيعتبره اداة قيمة ـ ولكنه يبغضها ـ لتحقيق قبول من يكرهون احتمال الخضوع لحكومة ديكتاتورية عالمية ، بل انه اكثر قيمة في ترويض الجماهير لتقبل النظام الذي يمكن ان تفرضه مثل هذه الحكومة العالمية عليهم . (**البقاء في المستقبل** ٧١ ـ ٧٢ ، ١١٥ ـ ١١٦) .

والعقل الاليكتروني لا يقل خطرا عن التلفاز في تحطيم مبدأ « اعمله بنفسك » التربوي . لقد خطا العقل الاليكتروني خطوات سريعة في السيطرة على العالم ، بما يقدمه من حلول لمشكلة معالجة الكميات والحجوم ، التي يتسم بها مجتمعنا المعاصر . فهو يستطيع ان يتناول كميات هائلة من المعلومات بسرعة البرق ، ومن ثم ينظمها ويضعها في متناول الاداريين والمدراء والحكومات . بل انه يستطيع ان ينظم العلاقات البشرية على نطاق هائل ، ولكن ذلك على حساب سلب الانسان انسانيته . ويعترف توينبي انه (وقد بلغ الثمانين) في هذه السن لا يحب التلفاز او العقل الاليكتروني لانهما يقيدان حرية الانسان في الاختيار ، ولكنه يعترف بانه قد يكون متحاملا ضد اختراعات جديدة ، وقد يكون باخسا لقيمة هاتين الوسيلتين بالنسبة للمجتمع . (**البقاء في المستقبل** ١١٧) .

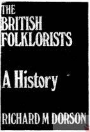
لقد مكنت التكنولوجيا الانسان من السيطرة على الطبيعة ، ولكن ذلك جعل منه عبدا لبيئة جديدة مصطنعة ومن صنعه . وهذه البيئة اكثر استبدادا واقل ملائمة ، واقوى ازعاجا نفسيا من بيئته القديمة ، وهو بهذا الاستبدال اضحى وكأنه قد فتح غطاء صندوق بندورا ، الذى تزعم الاسطورة الاغريقية انه كان مليئا بكل شرور الدنيا ، وهذا ما نراه من عدم استقرار وعنف وصراع . **(البقاء فى المستقبل صفحة ٢٠)** .

وكان من نتائج هذا التقدم التكنولوجي ان اختل توازن الثروة فى العالم ، كما لم يختل مثله فى اى وقت من الاوقات فى التاريخ . ان اغنى البلدان الصناعية اليوم الولايات المتحدة ، ولكن عشر سكانها وربما خمسهم يعيشون عيشة ضنكا ، وحظهم من الرعاية ضئيل . كما ان البلدان التى استغنى جزء من سكانها لا تشكل الا اقلية بين بلدان العالم كله . وما زال ثلاثة ارباع سكان العالم فلاحين ، يعيشون فى مستوى لا يفوق كثيرا مستوى انسان العصر الحجرى الحديث . **(البقاء فى المستقبل** صفحة ٣١) . بل ان هذه الاقلية التى اصبحت غنية قد حققت ذلك على حساب فقدانها لحريتها ولسعادتها . وقد اصبح الانسان سجينا للانجازات والخطوات التقنية التي خطاها . وانفصل العمل فى حياته من الحماس له ، ولم يعد يجد فيه ما كان يجد من رضا روحي .

وفى محاولة العلم والتكنولوجيا الحلول محل الدين فشلا فى اسعاد الانسان . ان العلم لم يحل فى يوم من الايام محل الدين ، ويعتقد توينبي انه لن يحل محل الدين فى المستقبل ، وذلك لان العلم يتطلب اجوبة محددة ولا تقبل الجدل ، ولكن الاسئلة التى تهم البشر كثيرا جدا لا يمكن ان تجاب اجابة يقينية . ولعل سر نجاح العلم فى الاجابة على اسئلته ان هذه الاسئلة ليست هى اهم الاسئلة . وبالرغم من ان نجاح العلم والتكنولوجيا كان مدهشا ، الا ان هناك حدودا لما يمكن ان يقدماه للانسان . ان حاجتنا الكبرى هى لتحسين روحى فى انفسنا وفى علاقاتنا باخواننا من بنى البشر ، وهذه حاجة لا يمكن ان يلبيها العلم او التكنولوجيا . ان من المعروف ان الطبيعة لا تقبل الفراغ المادى ، ومثل هذا يصدق عن الجانب الروحي فى هذا العالم . ان العلم والتكنولوجيا قد يخلقان فراغا روحيا عندما يكذبان الاديان السابقة ، ولكنهما لا يستطيعان ملء هذا الفراغ ؛ فلا بد من ملء هذا الفراغ باديان من نوع ما . ان الشعور بالتقديس والرهبة غرائز فطرية فى الانسان ، وان الانسان الذى لا يشعر بدينه فى الظروف العادية يشعر بالحاجة اليه عندما يمر بأزمات فى حياته . **(البقاء فى المستقبل ٤٤ ـ ٤٥ ، ٤٧)** .

ومن الموضوعات الشيقة التي يتطرق لها توينبي ابحاث اكتشاف الفضاء ، وهو لا يشارك المتحمسين فى حماسهم لهذه الاكتشافات ، لانه يرى ان اتخاذ اى قرار يحدد بالأولويات هو قرار اخلاقي ، ومن ثم فان اعطاء الاولوية لابحاث الفضاء هو قرار اخلاقي ، ولكنه قرار لا يمكن الدفاع عنه لان ابحاث الفضاء اعطيت الاولوية على اطعام واسكان وكساء الغالبية الفقيرة من سكان هذا العالم . ويرى توينبى ان هذه الحاجة الصارخة يجب ان تحتل المركز الاول فى الاستفادة من مصادر البشرية وطاقتها ومهاراتها . ثم يقول « واشك فى ان حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ما كانتا ستنفقان على برنامج الفضاء هذه المواد الطائلة التى انفقاها فعلا عليه لو لم تكونا تتنافسان على الارتقاء السياسي والعسكرى فوق هذا الكوكب . انني اعتقد ان المنافسة سياسية فى حد ذاتها ، وعمل غير اخلاقي فى عصر معظم

عرض الكتب



الفولكلوريون البريطانيون

دراسة تاريخية

عرض وتحليل : الأستاذ صفوت كمال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منذ ان استخدم الاثرى البريطاني وليام **جون تومز** William John Toms (١٨٠٣ ـ ١٨٨٥) مصطلح فولكلور Folk-lore (١) ليدل على مواد التراث الثقافي الشفاهي . شاع استخدام هذا المصطلح ليدل على المأثورات الشعبية التي تتناقل شفاهة عبر الاجيال ، وتؤثر في انماط الممارسات اليومية وكوامن التفكير ، وتشكل حكمة الشعب The Lore of the People .

وفي هذه الدراسة التاريخية للفولكلوريين البريطانيين تناول الاستاذ ريتشارد دورسون تاريخ حركة الفولكلور البريطانية منذ بداية الاهتمام العلمي بمواد المأثورات في العصر الفيكتوري الى الحرب العالمية الاولى . متتبعا في دراسته الجهود العلمية والاهتمامات الادبية بمواد التراث الثقافي الشفاهي للمجتمع باعتبار ان مواد التراث الثقافي الشعبي هي جانب مكمل لدراسة التراث الثقافي لأي مجتمع ..

فدراسة الفولكلور ، كمادة .. وعلم ، ارتبطت في بداياتها بالدراسات التاريخية ،

---

* Richard M. Dorson, **the British Folklorists** A History, Routledge & Kegan_Paul, London 1968.

(١) استخدم تومز هذا المصطلح في مقال نشره في مجلة الاثينيوم The Athenaeum, No. 982 (August 22, 1846), 826—63.
ووقعه باسم مستعار هو امبروز ميرتون Ambrose Merton

والاهتمام بالموروثات القديمة والعادات المتوارثة ، قبل أن ترتبط بدراسة ثقافة الشعوب والاهتمام بالاساطير ودراسة العناصر الأسطورية التي عاشت عبر العصور في الممارسات الطقوسية والحكايات الشعبية .

ومؤلف هذا الكتاب ، الاستاذ **ريتشارد دورسون هو** احد أساتذة الفولكلور الامريكيين المعاصرين ، ممن لهم مكانة علمية دولية . فهو استاذ للتاريخ ، وللفولكلور ، ومدير معهد الفولكلور في جامعة انديانا ، الذي يعتبر من انشط المعاهد العلمية المتخصصة في الدراسات الفولكلورية . كما يشغل الاستاذ دورسون منصب رئيس جمعية الفولكلور الامريكية ، ونائب رئيس هيئة الاثنولوجي والفولكلور الدولية . . كما انه يشرف على سلسلة الكتب التي تنشرها دار روتلدج وكيجان بول Routledge & Kegan Paul عن الحكايات الشعبية ، والتي يختص كل عدد منها بدراسة عن حكايات بلد من البلاد . . كما يدرس تحت اشرافه حاليا عدد من الدارسين العرب الذين يستكملون دراساتهم العليا في الفولكلور .

وقد نشر الاستاذ دورسون في نفس تاريخ صدور هذا الكتاب كتابا آخر يعتبر مكملا لهذا الكتاب يتناول فيه عادات الفلاحين واساطير البدائيين (٢) اقتبس مادته العلمية من دراسات الفولكلوريين البريطانيين الذين تناولهم في دراسته التاريخية هذه عن الفولكلوريين البريطانيين وقد بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب كما يقول المؤلف ، في صيف عام ١٩٤٨ حينما زار انجلترا زيارة شخصية لشقيقته التي تقيم في لندن . . وفي اثناء زيارته لها زار مكتبة جمعية الفولكلور ، فتعرف على غزارة المادة العلمية التي تحتويها هذه المكتبة ، ثم تابع بعد ذلك زياراته لانجلترا خلال عام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٦٣ . ثم عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ ـ بهدف استكمال جمع مادة هذا الكتاب الذي نشر عام ١٩٦٨ .

الكتاب :

والكتاب يقع في ٥١٨ صفحة من القطع الكبير وينقسم الى احد عشر فصلا غير المقدمة والخاتمة والفهرس التفصيلي والببليوجرافيا التي تشغل وحدها ١٩ صفحة .

والفصل الاول يخصصه المؤلف لمجموعة الاثريين الذين اهتموا بجمع مواد من المأثورات الشعبية وسجلوها في دراساتهم التاريخية عن الحياة القديمة قبل حياة التمدين والمدنية .
ومن بين هؤلاء **وليام كامدن William Camden** (١٥٥١ ـ ١٦٢٣) الذي جمع خلال جولاته العلمية نماذج عديدة من عادات وتقاليد الايرلنديين القدامى ، ومعتقداتهم الشعبية وكذلك بعض الممارسات الطقوسية التي يمارسونها خلال حياتهم اليومية لجلب الحظ ، أو لدرء الشر وكف الحسد .

وبعد وفاة كامدن بثلاث سنوات ولد **جون اوبرى John Aubrey** (١٦٢٦ ـ ١٦٩٧) الذي اكد اهمية الجانب الشفاهي في دراسة التراث ، ونظر الى الناس باعتبارهم مركز حفظ التقاليد وحفظة التراث . . وربط أوبرى في دراساته أواصر الصلة بين دراسة الموروثات القديمة وعلم التاريخ الطبيعي . . كما اهتم بعادات وتقاليد الجناز والدفن ، من حيث انها اشد العادات احتفاظا بالآثار التقليدية ، كما اهتم بالحكايات الخرافية بما تحمل من تصورات وأوهام قديمة .

(٢) R. M. Dorson (Edit.), **Peasant Customs and Savage Myths. Selections from the British Folkorists**, Routledge & Kegan Paul, London 1968.

وقبل وفاة اوبرى بثلاث سنوات ولد **هنرى بورن** Henry Borne (١٦٩٤ – ١٧٣٣) الذى اهتم ايضا بحياة الناس العاديين وما تتضمنه من موروثات ثقافية (٣) وعاداتهم وتقاليدهم بجانب اهتمامه الاصلى بالتاريخ ، ويتابع المؤلف فى هذا **الفصل الاول** من كتابه ذكر جهود هذا الجيل من الرواد الذين اهتموا بالتقاليد الشائعة والمتوارثة بين الناس مثل **جون براند** John Brand (١٧٤٤ – ١٨٠٦) الذى اهتم بالاعراف السائدة فى التجارة وتقاليد البيع والشراء والعادات ، وطقوس الحصاد التى وضع لها **جيمس فريزر** James Frazer فيما بعد نظرية خاصة عنها فى كتابه الغصن الذهبى The Golden Bough .

وقد جمع براند مادة غزيرة ، أوضحت الكثير من جوانب الحياة البريطانية . كما اوضح المؤلف جهود **فرانسيس جروس** (١٧٣١ ؟ – ١٧٩١) Francis Grose واهتمامه باللهجات الشعبية (٤) ودراساته عن تاريخ الجيش البريطانى وتاريخ انجلترا وويلز وكذلك من اسكتلندة وايرلنده .. كما ذكر المؤلف الباحثين الاخرين الذين اهتموا بجمع مواد الحياة القديمة وذكريات الاسلاف والموروثات الباقية من عصور سابقة وما زالت حية فى الحياة اليومية يمارسها الناس تلقائيا ..

وفى الفصل الثانى ، قدم المؤلف مجموعة اخرى من جامعى الموروثات القديمة الفولكلوريين The Antiquary Folklorists والذى يعتبر **توماس كروفتون كروكر** Thomas Crofton Croker (١٧٩٨ – ١٨٥٤) أحد الاعلام المبرزين فى هذه المجموعة حينما نشر عام **١٨٢٥** مجلدا عن الخرافات والحكايات الخيالية والتقاليد فى جنوب ايرلندا (٥) . وقد صدر هذا الكتاب بدون اسم مؤلفه ولاقى نجاحا كبيرا . فطلب الناشر (Murray) من كروكر أن يجمع مادة أخرى من ايرلنده . وفى سنة **١٨٢٨** نشر كتابين آخرين وقد ترجم الاخوان **جريم** (Wilhelm & Jacob Grimm) **هذا العمل الى** الالمانية بعد صدوره بعام واحد .. كما ترجم الى الفرنسية ايضا بعد ثلاث سنوات . وقد كتب وليهام جريم خطابا رقيقا الى كروكر وجهه الى « الرجل صاحب المجموعة القيمة من الحكايات والاساطير الايرلندية ، الذى شغلنا بعمله عدة شهور ... » وتابع **كروكر** جمع الحكايات والاساطير الايرلندية ولكن **توماس كيتلى** " Thomas Keightley " (١٧٨٩ – ١٨٧٢) انتقد عمله فقد افترض ان بعض الحكايات التى اوردها كروكر هى حكايات مزيفة غير اصيلة مما اضطر كروكر بعد ذلك الى اختصار الحكايات التى نشرها من خمسين حكاية خرافية الى اربعين . وتعاون مع **كيتلى** Keightley فى جمع ودراسة الاساطير والحكايات الخرافية . واصدر كيتلى كتابين هامين هما الاساطير الخيالية (١٨٢٦) ، وحكايات وروايات شعبية (١٨٣٤) The Fairy Mythology و Tales and Popular Fictions

ثم تحدث المؤلف بعد عرض جهود كروكر وكيتلى عن **فرانسيس دوس** Francis Douce (١٧٥٧ – ١٨٤٣) الذى كان ، رغم اتجاهه

---

(٣) Henry Borne, **Antiquitates Vulgares,** or the Antiquities of the Common People .... (Newcastle : J. White, 1725).

(٤) Francis Grose, **A Provincial Glossary,** London, 1970.
Francis Grose, **A Classical Dictionary of the Vulgar Tongue** (1785)

(٥) **Fairy Legends and Traditions of the South of Ireland,** (John Murray, 1825).

القليل ، مرشدا لكثير من الدارسين، فمعلوماته الموسوعية الغزيرة ساعدت كثيرا من الباحثين فى التعرف على مصادر مواد بحوثهم . كما ان ملاحظات دوس على أعمال شكسبير كانت لها اهمية بالغة فى القاء الضوء على المؤثرات الثقافية التقليدية التى تأثر بها شكسبير فى أعماله (٦) . كما يعتبر دوس من أوائل الذين اهتموا برمزية الرقص الشعبي ودلالاته الفولكلورية .

بعد فرانسيس دوس تناول المؤلف حياة وأعمال **توماس رايت** Thomas Wright (١٨١٠ ـ ١٨٧٧) الذى يعتبر واحدا من الثقات فى أدب العصور الوسطى وممن شاركوا العالمين الالمانيين الأخوين جريم ، يعقوب (١٧٨٥ ـ ١٨٦٣) وويلهـــــام (١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) فى اهتماماتهما بالتقاليد والآداب الشعبية .

واهم أعمال رايت ، كتابه عن موضوعات ترتبط بالادب والخرافات الشعبية ، وتاريخ انجلترا فى العصور الوسطى (٧) . . الذى يتناول فى حوالى ٢٠ مقالا من مقالاته التقاليد الشعبية الشائعة فى ذلك الوقت وردها الى أصولها التاريخية التى ترجع الى القرنين الثانى والثالث عشر .

كما له غير ذلك عديد من المؤلفات ذكرها الكاتب وعرض لها فى ايجاز .

ومن الذين تعاونوا مع رايت جيمس اورشارد هاليويل فيلبس James Orchard Halliwell Phillipps الذى اهتم بجمع أغانى تهتين الاطفال (٨) كما نشر قاموسا للكلمات العامية ، وعددا من الكتب عن الاغاني القصصية ، والنوادر ، والمعتقدات الخيالية. كما نشر دراسة أعدها لجمعية شكسبير سنة ١٨٤٥ عن التصورات الاسطورية فى حلم ليلة صيف Illustrations of the Fairy Mythology of Midsummer Night's Dream والتى اورد فيها ٣٩ فقرة مقتطفة من الآداب الشعبية الشائعة فى عصر شكسبير أو سابقة له .

وفى نهاية هذا الفصل الذى افرده الاستاذ **دورسون** عن الأثريين الفولكلوريين ، قدم لنا عالم الآثار الانجليزى **وليام جون تومز** William John Thoms (١٨٠٣ ـ ١٨٨٥) صاحب مصطلح الفولكلور ، والذى فرق فيه بين الموضوعات التى يتناولها المؤرخون بالدراسة من حياة الشعوب .. فقد اهتم وليام تومز بالخرافات والمعتقدات وما تتضمنه الاغنيات الشعبية واغانى الاطفال من عناصر أسطورية ومعتقدات خرافية . كما أن باب « ملاحظات واستفسارات » الذى اشرف عليه لمدة خمسة وعشرين عاما فى مجلة الاثينيوم (٩) كان له أهميته فى جمع مواد فولكلورية مفيدة للدارسين ، كما ساعد على نشر مصطلح Folklore .

وجهود تومز العلمية كان لها اكبر الاثر فى تنمية وتنشيط حركة الفولكلور العلمية والاهتمام بالمأثورات الشعبية ، داخل انجلترا وخارجها .. حتى أصبح الفولكلور علما قائما بذاته له مادة دراسته ، وطرق ومناهج بحثه العلمية مستقلا عن العلوم الانسانية التى ارتبط

(٦) **Illustrations of Shakespeare, and of Ancient Manners.**

(٧) Thomas Wright, **Essays on Subjects Connected with the Literature, Popular Superstitions, and History of England in the Middle Ages**, London : John Russell Smith, 1846.

(٨) James Orchard Halliwell, **The Nursery Rhymes of England**, 4th edition (London : John Russell Smith, 1846).

(٩) مجلة اسبوعية تختص بالآداب والعلوم والفنون .

بها فى بداياته .. مثل علم التاريخ .. وعلم دراسة الانسان .. وعلم الاجتماع . وان كان مازال وثيق الصلة بطرق ومناهج بحث علم الاثنولوجيا والدراسات الميدانية الاثنوجرافيه.

ولا يذكر مصطلح فولكلور فى اى لغة الا ويذكر اسم تومز ، كما يرجع لتومز فضل تأسيس جمعية الفولكلور الانجليزية التى تعتبر من أقدم الجمعيات الفولكلورية فى العالم .. ودوريتها التى أصدرتها فى أول عام من تكوينها ١٨٧٨ مازالت تصدر للآن وتعتبر مرجعا علميا للدارسين والباحثين الفولكلوريين .

ومنذ تكوين هذه الجمعية Folklore Society وصدور دوريتها Folklore ١٨٧٨ اخذ مصطلح فولكلور ينتشر الى ان اصبح مصطلحا علميا عالميا متعارف على دلالته العلمية ومادته .

وفى **الفصل الثالث** يتناول المؤلف مجموعة اخرى من رواد الحركة الفولكلورية البريطانية .. يسميهم الفولكلوريين الادباء . ففى أوائل القرن التاسع عشر حينما اخذت روح الاهتمام بالتراث الشعبى تنتشر اخذ الرومانسيون أيضا ، وخاصة الشعراء ، بحكم اهتمامهم وميلهم وحبهم لحياة الريف وبساطة الفطرة الطبيعية ، يتجهون ايضا الى ابداع الفلاحين البسطاء ، ويهتمون باغانيهم وفنونهم وعاداتهم وتقاليدهم التى توارثوها .. واهتم الشعراء الرومانسيون مثل وردزورث Wordsworth وكوليردج Coleridge بالحياة الريفية .

هذا الاتجاه الرومانسى الذى ارتبط فى نفس الوقت بالروح القومية ، شاع فى مختلف بلدان أوروبا كما ساعدت دراسات **الأخوين جريم** فى المانيا على نشر الاهتمام بالموروثات الثقافية والادب الشعبى ، وشاعت هذه الحركة الادبية الرومانسية القومية فى كثير من البلدان وبخاصة فى المانيا والنرويج وفنلندا والمجر والصرب .. ومن الشعراء الذين اهتموا بالاغانى الشعبية وجمعها **يوهان جوتفريدفون هيردر** Johann Gottfried Von Herder.

هذا الاتجاه الرومانسى أثر على الاتجاه العقلى والمنهج الوضعى فى مناهج البحث ، فاتجه الاهتمام العلمى بالمواد الفولكلورية وجهة ادبية ، كما ان ظهور مجموعات من الحكايات الشعبية وخاصة مجموعة الحكايات التى جمعها الاخوان جريم ، اثرت فى اتجاه الكتاب الروائيين من **اوفيد** Ovid الى **بوكاتشيو** Boccaccio (١٠) كما أثار **هذا الاتجاه اتجاها** آخرا فرعيا أعطى لجامع الحكايات الشعبية حق اعادة صياغة المادة الشفاهية باسلوبه الشخصى .

مع هذا الاتجاه ظهرت مجموعة من الادباء الذين يهتمون بالتراث الشعبى الذين يسميهم دورسون **الفولكلوريين الادباء** The Literary Folklorists ، مثل **روبرت سوزى** Robert Southy (١٧٧٤ – ١٨٤٣) والروائية **آنا براى** Anna Eliza Bray (١٧٩٠ – ١٨٨٣) التى كتب لها **سوزى** فى احدى رسائله قائلا ، انه كان يود ان يحفظ كل ما كان يرويه اقاربه المسنون من ذكريات عن حياتهم وتقاليدهم ، وما كانوا يقصونه من قصص وسوالف عن اقاربهم واسلافهم ، تصف حياتهم القديمة وعاداتهم ، وما كان شائعا فى زمانهم السابق والازمان التى سبقتهم .

---

(١٠) لم يشر المؤلف الى اثر حركة ترجمة التراث العربى مثل الف ليلة وليلة والمقامات فى هذا الاتجاه الروائى وخاصة عند بوكاتشيو فى عمله Decameron **وكانديد** Candid **لفولتير وظهور فن الرواية المسمى اصطلاحا** Novels Picaresque .

وقد اصدرت السيدة **براى** كتابا من ثلاثة اجزاء (١٨٣٦) اشتهر بعد ذلك (١٨٧٦) بعنوان The Borders of the Tamar and the Tavy يتضمن وصفا للتاريخ الطبيعى والعادات وانماط السلوك والخرافات والموروثات الثقافية فى ديفونشير Devonshire مع ترجمة لبعض الشخصيات الهامة القاطنة هذه المنطقة التى تقع بالقرب من تاماروتافى .

هذا الاتجاه الادبى ، فى رصد الظواهر الفولكلورية استمر عند **جون روبى** John Roby (١٧٩٣ ـ ١٨٥٠) الذى وضع ١٨٢٩ كتابا عن تقاليد لانكشير Lancashire (١١) ، وغير ذلك من مجموعات قصصية ، كما سار **صمويل لفر** Samuel Lover (١٧٩٧ ـ ١٨٦٨) على نهج خطى روبى ، واصدر مجموعات من القصص الشعبى الايرلندى .

اما الفصل الرابع من الكتاب : فيخصصه المؤلف للفولكلوريين الاسكتلنديين الاوائل مثل **والتر سكوت** Walter Scott (١٧٧١ـ١٨٣٢) الذى اهتم بالمعتقدات الخرافية والاشباح وانواع الجنيات وشخصيات الساحرات التى ترد فى الحكايات والمعتقدات الشعبية . كما اشترك **الان كننجهام** Allan Cunningham مع سكوت فى دراسة الخرافات الشعبية وجمع الاشعار الشعبية ، وعلى نهج سكوت سار ايضا **روبرت تشامبرز** Robert Chambers (١٨٠٢ ـ ١٨٧١) الذى جمع مادة من التراث الثقافى فى ادنبرج Traditions of Edinburgh (١٨٢٤) وكذلك اشعارا غنائية من اسكتلنده Popular Rhyms of Scotland (١٨٢٦) وحكايات ونوادر اسكتلندية (١٨٣٢) .

من بين مجموعة الفولكلوريين الاسكتلنديين الذى اشار اليهم **دورسون** فى هذا الفصل من كتابه ، **هـ . ميلر** Hugh Miller (١٨٠٢ ـ ١٨٥٦) الذى لم يكن مجرد جامع او مسجل للسوالف والعادات ، بل كان يتمتع بقدرة كبيرة على تمثل هذه المأثورات الشعبية ، وقدرة ملاحظة واستيعاب لكل ما يحوطه من موروثات ثقافية قديمة ، وقد نشر دراسات من الخرافات الشائعة فى شمال اسكتلندة Scenes and legends of the North of Scotland (١٨٣٥) كما نشر ترجمة ذاتية لحياته .

ومن بين هذه المجموعة من جامعى المأثورات القديمة الباحثة **آن جرانت** Anne MacVicar Grant (١٧٥٥ ـ ١٨٣٨) التى اصدرت دراسة عن الخرافات الشعبية فى مرتفعات اسكتلندة Essays on the Superstitions of the Highlanders of Scotland **ووليام جرانت ستيوات** (١٢) .

ووليام جون جراهام داليل John Graham Dalyell (١٧٧٥ ـ ١٨٥١) الذى اهتم بجمع الخرافات الشعبية من الكتب القديمة والمخطوطات وكذلك من خلال الممارسات اليومية .

The Darker Superstitious of Scotland Illustrated from History and Practice (1834)

• • •

وبعد ان تناول المؤلف فى هذا الفصل من كتابه اعمال اهم الفولكلوريين الاسكتلنديين مع ترجمة موجزة لحياتهم واهتماماتهم قدم فى **الفصل الخامس** جماعة الفولكلوريين الذين

---

(١١) John Roby, **Popular Traditions of Lancashire**, 3 Vols. (3rd edition, London, Henry G. Bohn, 1843.

(١٢) Stewart, William Grant, **The Popular Superstitions and Festive Amusements of the Highlanders of Scotland** (1823).

اهتموا بالجانب الاسطورى فى التراث الشعبى. وهو فى تتبعه التاريخى لمختلف المراحل التى مرت بها حركة الفولكلور البريطانية يتابع فى نفس الوقت الاتجاهات العلمية التى ساعدت على تحديد مفهوم الفولكلور .

ومن اهم اعلام المدرسة الفولكلورية الاسطورية **ماكس مولر** Max Möller **واندرو لانج** Andrew Lang وقد ولد مولر فى المانيا عام ١٨٢٣ ، ثم انتقل الى انجلترا ١٨٤٦، وعمل أستاذا فى جامعة اكسفورد منذ ١٨٤٦ الى ان مات سنة ١٩٠٠ . ودراسات مولر فى علم الاساطير المقارن، وتاريخ الاديان والمعتقدات عديدة .. وعرض المؤلف لاعمال مولر العديدة فى ايجاز . ونظرياته التى وضعها عن الاساطير الهندية واليونانية والاساطير الهند ــ اوروبية. كما عرض المؤلف للنقد الذى وجهه مولر للانج ، وكذلك نقد لانج لمولر .. كما تناول فى هذا الفصل علماء الاساطير الآخرين المعاصرين لكل من مولر ولانج مثل العالم الالمانى **ادلبرت كون** Adalbert Kuhn **ووليام جل** William Wyatt Gill **وولتر كيللى** Walter K. Kelly وغيرهم من اساتذة علم الأساطير مثل **روبرت براون « الصغير »** Robert Brown, "Junior" (١٨٤٤ ــ ١٩١٢) الذى بين اثر الثقافات السامية القديمة على الاساطير الهلينية الدينية. وقد اشار براون الى انه يجب على هؤلاء المشغولين بميدان الدراسات الآرية أن يتنبهوا الى ما وفد اليهم من شواطىء الفرات والنيل (١٢) وكما حاول مولر ان يبين الصلة بين آلهة اليونان وآلهة الهند كما ورد فى نصوص الفيدا ، فقد حاول براون المتخصص فى التراث المصرى والآشورى أن يربط اليونان بثقافة واساطير الشرق الادنى .

والواقع ان المدرسة الأسطورية فى الفولكلور لعبت دورا كبيرا فى موضوعات الدراسات الفولكلورية ، واوجدت نوعا من العلاقة بين دراسة الحكايات الشعبية والخرافية منها بخاصة والاساطير . فكثير من الحكايات الشعبية تحمل فى مكوناتها عناصر اسطورية ، كما تداخلت عناصر من الاساطير والتصور الإسطورى مع بعض عناصر المعتقدات الدينية. ورغم الاستقلال العلمى الذى يتميز به علم الفولكلور ــ حاليا ــ توجد صلة وطيدة بين علم الاساطير ومباحث الحكايات الشعبية والممارسات الطقوسية.. فالباحث الفولكلورى يجد نفسه دائما فى حاجة الى معاونة تفسيرات علماء الاساطير (١٤) مثل حاجته الى معاونة الدراسات الاثنولوجية . (١٥)

وكما طالب مولر دارسى الاساطير بمعرفة السنسكريتية ، وطالب لانج دراسة الاثنولوجى ؛ فان براون طالب بضرورة ان يتعرف الدارسون للاساطير على آخر الدراسات عن الحضارات الكلدانية والآشورية والفينيقية والعربية والفارسية ، والمصرية . فالثقافات

---

(١٢) Robert Brown, **The Great Dionysiak Myth**, 2 Vols. (London 1877 — 78) 1—162.

(١٤) راجع ، الدكتور عبد الحميد يونس ، الفولكلوروالميثولوجيا ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ابريل ــ مايو ــ يونيه ١٩٧٢ ، الكويت ، ص ١٥ ــ ٥٤ .

(١٥) Smith Thompson, **Advances in Folklore Studies,** in Anthropology Today, An Encyclopedic Inventory, The University of Chicago Press, 1953.

انظر ترجمة هذه الدراسة (التقدم فى دراسات الفولكلور)الكاتب ــ مجلة « المجلة » القاهرة ــ سبتمبر ١٩٦٤ .

السامية الاسيوية قد اضافت آلهة عديدة الى آلهة اليونان القديمة التى كان اصلها هنديا آريا (١٦) .

ثم فى **الفصل السادس** يتناول المؤلف الفولكلوريين الذين اهتموا بالحياة البدائية . ورائد هذه الجماعة هو **ادوارد برنت تايلور** Edward Burnet Taylor الذى يعتبر ابا **لعلم الانسان** Anthropology وعرّاب Godfathre **مدرسة الفولكلوريين** الانثروبولوجيين . فدراسات تيلور الرائدة **عن التاريخ المبكر للانسان : (١٨٦٥)** Researches into the Early History of Mankind **اوجدت الحد بين الفولكلور وعلم الاساطير . كما ان تيلور وضع تعريفا او تفسيرا جديدا للفولكلور بمعنى « الثقافة الحية »** وقد استلهم **هذا التعريف** من ملاحظاته ودراساته لثقافة **الشعوب البدائية .**

وقد عرض **المؤلف** اعمال تيلور ونظرياته **بتوسع اكثر من غيره من العلماء ، نظرا لاهمية تيلور فى تحديد المفهوم الثقافى للفولكلور .. كما اوضح جهود الذين عاونوا تيلور فى دراساته مثل جون لوبوك** John Lobbock الذى نشر **عام ١٨٦٥ كتابا نفد فور صدوره**

Pre Historic Times, as Illustrated by Ancient Remains and the Manners and Customs of Modern Savages.

وفى **الفصل السابع** ، يقدم المؤلف المجموعة العظيمة من الفولكلوريين مثل اندرولانج (١٨٤٤ ـ ١٩١٢) احد اعلام المدرسة الفولكلورية الاسطورية التي سبق الاشارة الى جهوده مع ماكس مولر فى دراسة الاساطير والذي حدد مناهج البحث الفولكلورية فى كتابه الذى تضمن مقالات من العادة والاسطورة Custom and Myth (١٨٨٤) . وقد تناول الاستاذ دورسون حياة واعمال اندرولانج لا باعتباره عالما من علماء الانثروبولوجيا بل كعالم انثروبولوجى فولكلورى ، وكذلك موقف لانج من الحكايات والقصص الخيالى . كما ان اهتمام لانج بالحكايات والقصص الشعبية قد وجه تفكيره نحو « دراسة الطابع القومى فى الحكايات الشعبية ، كما انه رفض فكرة تبعية الفولكلور للدراسات اللغوية ، وربط الفولكلور بالدراسات الاثنولوجية (١٧) .

اما اول من نادى بأن الفولكلور هو علم قائم بذاته فهو **چورج لورانس جوم** George Laurence Gomme (١٨٥٣ـ١٩١٦) الذى يعتبر **الرجل المنظم لجموعة الفولكلوريين الانجليز ، والذى لعب دورا فعالا فى نشاط جمعية الفولكلور الانجليزية ، ونشر عدة دراسات عن** تاريخ لندن . وهو الذى **نبه الى ان الحكايات** الشعبية تحتوى على عناصر تاريخية ، وعناصر اسطورية ، كما تتضمن **الحكايات ايضا نماذج من النظم السياسية البدائية . كما اصدر دراسات عن الامثال والعادات والتقاليد. وحث جمعية الفولكلور على المشاركة فى جمع مواد المأثورات الشعبية ونشرها .. واول كتاب** اصدره عن الفولكلور كان عن المجالس التى تعقد خارج البيت فى بريطانيا (١٨) .

ومن العلماء الذين شاركوا بجهودهم فى جمعية الفولكلور الانجليزية **الفردنت** Alfred Nutt ١٨٥٦ ـ ١٩١٢) فهو بجانب انه

---

(١٦) Robert Brown, op, cit 1. Vi ; II 334.

(١٧) ص ٢١٧ من الكتاب .

(١٨) **Primitive Folk-Moots, or Open Air Assemblies in Britain, London 1880.**

ومن مؤلفاته ايضا :

1. Ethnology in Folklore 1892)
2. Folklore as an Historical Science (1908).

احد العلماء الانثولوجيين العظام ، ينضم ايضا الى جماعة الفولكلوريين العظام الذين دفعوا بحركة الفولكلور الى مجالها المتميز فى الدراسات الانسانية .. وقد تناول المؤلف اعمال **هذه الجماعة العظيمة** The Great Team of Folklorists الذين تعاونوا معا فى الكشف عن الموروث الثقافى الانسانى وبلورة الدراسات الفولكلورية مثل **هارتلاند** Edwin Sidney Hartland (١٨٤٨ – ١٩٢٧) **وادوارد كلود** Edward Clodd (١٨٤٠ – ١٩٣٠) **ووليام كلوستون** William Alexander Clouston (١٨٤٣ – ١٨٩٦) الذى نشر مجموعة من الاشعار العربية سنة ١٨٨١ (١٩) وقصة سندباد .

كما تناول **المؤلف** حياة واعمال غير هؤلاء من الفولكلوريين الرواد ، واعضاء جمعية الفولكلور الانجليزية .

وقد خصص **المؤلف الفصل الثامن** من كتابه لعرض جهود **هذه الجمعية** وما تناولته من دراسات ، ودوريتها التى مازالت تصدر للآن ربع سنوية تتضمن دراسات فولكلورية .

بعد ذلك تناول **المؤلف** عمليات الجمع الميدانى التى قام بها الباحثون الفولكلوريون فى الارياف . والتى يرجع الى **جوم** Gomme فضل الريادة فى وضع الأساس المنهجى لها حينما اعد كتاب « دليل الفولكلور » Hand Book of Folklore لجمعية الفولكلور عام ١٨٩٠ وتعاون معه مجموعة من الباحثين الفولكلوريين . وقد أوضح جوم فى هذا الكتاب الموضوعات التى تتكون منها المأثورات الحية التى تسمى Folklore والتى تقسم الى :

اولا : المعتقدات الخرافية والممارسات الطقوسية والسحر .

ثانيا : الاحتفالات التقليدية والالعاب .

ثالثا : المرويات التقليدية وتتضمن الحكايات الشعبية وقصص الابطال وحكايات الحيوان والقصص الغنائية .

رابعا : الاقوال السائرة وتحتوى على اغانى تهنين الاطفال والامثال والالغاز والاسماء المستعارة .

وقسم هذه الاقسام الى اقسام فرعية ، كما احتوى الكتاب على ٧٨٤ سؤالا حول هذه الموضوعات تساعد الجامع على جمع مادة بحثه بدقة وترتيب ، كما تضمن الكتاب فصلا عن تعريف الفولكلور « الفولكلور ما هو » ، و « السبيل الى جمع الفولكلور » و « العمل فى المكتبة » . وقد اثمر هذا الكتاب فى تكوين مجموعة من الباحثين الميدانيين ، الذين جمعوا موادا من المأثورات الشعبية الشفاهية جمعا اكثر منهجية .. وقد اورد الاستاذ دورسون فى هذا الفصل قائمة باسماء هؤلاء الباحثين الميدانيين وأعمالهم (٢٠) . وتحدث عن بعض هذه الاعمال بايجاز بنفس الطريقة التى اتبعها فى مختلف فصول هذا الكتاب فى عرضه التاريخي لتطور حركة الفولكلور البريطانية ومؤثراتها وتأثرها بحركات الفولكلور فى بلدان اخرى وخاصة فى المانيا .

ثم **فى الفصل قبل الاخير** تناول المؤلف حركة الفولكلور عبر البحار .. والفولكلوريين الذين

---

(١٩) وفى سنة ١٨٨٧ اصدر احسن اعماله :

Arabian Poetry for English Readers.

Popular Tales and Fictions, their Migrations and Transformations.

(٢٠) ص ٣٢٠ من الكتاب .

جمعوا مادتهم من الدول التي استعمرتها الامبراطورية البريطانية .. فى الهند وافريقيا .. وكذلك لحركة الفولكلور فى أوروبا والمواد التي جمعت منها ..

ثم فى **الفصل الحادى عشر والاخير** ، تناول الفولكلوريين الكلتيين The Celtic Folklorists واستهل حديثه فى هذا الفصل بعبارة لالفرد نت قالها عن **كامبل** J. F. Campbell الذى تعلم منه الفرد نت حب التراث الكلتى .

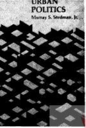
وتناول المؤلف الحركة الفولكلورية فى اسكتلندة وايرلنده ثم اختتم كتابه بخاتمة مختصرة عن اثر الحرب العالمية الاولى فى توقف النمو الطبيعى لهذه الجهود العلمية .. ففى ١٩١٤ توفى اندرو لانج والفردنت وجوم ، وهاجر جوزيف يعقوب الى امريكا احد مؤسسي جمعية الفولكلور ، وساد الاهتمام بالدراسات الانثروبولوجية اكثر من الاهتمام بالفولكلور ..

ولكن منذ أوائل الخمسينات فى هذا القرن بدأ الاهتمام الجاد بالمأثورات الشعبية يظهر من جديد وبشكل اكاديمى .. وصدرت عدة دراسات عن أغانى الاطفال وعن الحكايات الشعبية .

وفى الواقع ان هذا الكتاب رغم غزارة مادته وتنوعها قد قدمه المؤلف فى اسلوب ونهج واضحين .. كما ان المنهج الذى اتبعه فى وضع كتابه يعتبر نموذجا يحتذى به فى تاريخ حركة الفولكلور العربية .. فى مختلف اقطار الوطن العربى . فرغم ان حركة الفولكلور العربية لم تتخذ شكلها الرسمى تحت هذا المصطلح الا فى بداية النصف الثانى من هذا القرن ، فان الجهود العلمية العديدة والمتنوعة لجمع مواد التراث الشفاهى العربى تمتد فى عمر الزمان الى عشر قرون خلت حينما سجل الرحالة والمؤرخون العرب مشاهداتهم عن الحياة اليومية للمجتمع العربى ، وانماط السلوك والاعراف الشائعة والعادات والتقاليد بجانب رصدهم لمختلف الظواهر الفنية فى مختلف العصور .

والاستاذ دورسون بطبيعة تكوينه العلمى كاستاذ للتاريخ .. واستاذ للفولكلور قد امكنه بطواعية شديدة وضع تاريخ دقيق وواضح لحركة الفولكلور البريطانية ، كما حدد فى نفس الوقت التطور العلمى لعلم الفولكلور كمادة ، وموضوع بحث .

* * *



السّياسَة الحضريّة

عرض وتحليل : الدكتور عبد الباسط محمد حسن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تميز العصر الحديث بزيادة عدد المدن فى العالم ، ونموها مساحة وسكانا ، ووصول كثير منها الى مرتبة المدينة المتروبوليتانية (المائة الفية) ، ثم المدينة العملاقة التى تضم عدة ملايين من البشر ، وقد ترتب على ذلك نمو التجمعات الحضرية الكبيرة بصورة لم تكن مالوفة من قبل ، وزيادة معدل التحضر ، وانتشار الحضرية كاسلوب للحياة ، ونمط للمعيشة يؤثر فى سلوك الناس وتفكيرهم ، ويطبعهم بطابع خاص متميز .

ولما كانت عملية التحضر فى المجتمعات المختلفة تصاحبها تغيرات فى البناء الاجتماعي ، وتنشأ عنها انماط مستحدثة ، وقيم اجتماعية جديدة ، وترتبط بها مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية وحضارية متعددة ، فقد اتجهت جهود الباحثين والمفكرين — على اختلاف تخصصاتهم — الى دراسة ظواهر الحياة السائدة فى المجتمعات الحضرية ، والكشف عن المشكلات التى تواجهها، والوقوف على الصلات التى تقوم بينها وبين غيرها من المجتمعات المحلية فى اطار المجتمعالقومي العام.

والكتاب الذى تعرض له فى هذا المجال واحد من الكتب التى تتخذ من المجتمع الحضرى ميدانا للدراسة ، وتجعل من النظام السياسى موضوعا للبحث ، فيناقش المؤلف الأسس النظرية لفلسفة الحكم فى الولايات المتحدة ، والمبادىء العامة التى ترتكز عليها الديموقراطية الامريكية ، ويركز على مبداين اساسيين هما : مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلى ، ومبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى اى منها من غير قهر أو اكراه ، ثم يعالج قضايا الديموقراطية فى مجال التطبيق العملى ،

والممارسة الفعلية ، ويظهر بوضوح ان « جماعات المصالح Interest Groups » تدخل في دائرة الصراع ، وتؤثر على بناء القوة في المجتمعات الحضرية ، ويصبح لها الدور الرئيسي في صنع القرارات، وصياغةالمستقبل، بحيث تنحرف الديموقراطية عن مسارها الطبيعي ، وتتحول من حكم الاغلبية الى « احتكار القلة Oliopoly » ومن نظام يقوم على التوفيق بين المصالح المتعارضة Compromise الى نظام يجعل من « الصراع Conflict » ركيزته الاساسية في السياسة والحكم .

ومؤلف هذا الكتاب هو « مري ستيدمان » استاذ العلوم السياسية بجامعة « تمبل » بفيلادلفيا بولاية « بنسلفانيا » . وله مؤلفات كثيرة في مجال تخصصه ، من اهمها :

ـ الدين والسياسة في امريكا .

ـ تصدير الاسلحة .

ـ عدم الرضا امام صناديق الاقتراع (بالاشتراك) .

ـ ديناميات الحكم الحديث (بالاشتراك) .

ـ تحديث الحكومة الامريكية : متطلبات التغير الاجتماعي .

وقد اختار « ستيدمان » المجتمع الحضري بالذات ليكون ميدانا لدراسته لاحساسه بتعاظم الدور الذي تقوم به المجتمعات الحضرية في المجالات السياسية والاقتصادية والحضارية؛ ولادراكه مدى التاثير الذي تحدثه تلك المجتمعات على غيرها من البيئات المحلية في اطار المجتمع الكبير . وفي رأيه ان النظام السياسي في الولايات المتحدة كان من اكثر النظم تاثرا بعملية التحضر . ففي الوقت الذي كان فيه الاقتصاد القومي يعتمد على الانتاج الزراعي ، كانت الولايات المتحدة تنقسم الى مناطق لزراعة القطن والذرة والقمح ، وكانت اعداد كبيرة من السكان تشتغل في الزراعة او في الاعمال الاستخراجية البسيطة ، غير انه بعد حدوث الثورة الحضرية ، ونمو المراكز الصناعية ، ظهرت وحدات ايكولوجية جديدة ، ووجدت طبقات جديدة لم تكن معروفة من قبل ، واصبح العمال ينتظمون في نقابات تدافع عن مصالحهم المشتركة بغض النظر عن المناطق الجغرافية التي يعملون فيها ، كما تغير الاساس الطبقي للتنظيمات السياسية ، فاصبحت الاحزاب تعتمد على تأييد فئات جديدة غير الفئات التي كانت تساندها من قبل ، وليس ادل على ذلك من ان الحزب الديموقراطي اصبح يعتمد اعتمادا اساسيا على سكان الحضر بعد ان تزايدت هجرة الزنوج واهل بورتوريكو الى المدن الكبيرة ، كما اصبح لقادة الحزب الديموقراطي في المدن الصناعية مثل نيويورك وبوسطن وشيكاجو دور كبير في تصريف امور الحزب على المستوى القومي .

وبالنسبة للاتجاه النظري الذي يتبناه « ستيدمان » في دراسته يقول :

لقد كان الاتجاه السائد بين المؤرخين في الولايات المتحدة هو تصوير التاريخ الامريكي كما لو كان يسير نحو خلق وحدة داخلية بين الجماعات غير المتجانسة .

وكان الشعار السائد هو : من الكثير الى الواحد (١) .

وقد اخذ علماء السياسة هذا المفهوم عن المؤرخين الامريكيين في تفسيرهم لاتجاهات التطور السياسي ، فكان ينظر الى عمليات المنافسة والصراع السياسي على انها وسائل للوصول الى قدر من الاتفاق ، وليست غايات

(١) Stedman, Murray S., Urban Politics, Winthrop Publishers, Inc., 1972, p. 11

في ذاتها . وهذه النظرة كان يطلق عليها في مفهوم الفلسفة السياسية « اصطلاح التعدد Pluralism » ، وكان يطلق عليها – في مجال المنافسة الحزبية – اصطلاح « سياسة المساومة أو السمسرة Brokerage Politics » . غير انه في السنوات الاخيرة اثيرت تساؤلات كثيرة – من جانب المؤرخين وعلماء السياسة – حول صحة هذا الاتجاه ، وظهرت نظرية جديدة تركز على « الصراع » كعملية اساسية في توجيه السياسة الامريكية (٢) .

والاتجاه الذي يتبناه المؤلف هو : تقدير اهمية الصراع كعنصر اساسي في فهم السياسة الامريكية لاعتقاده في فشل مفهوم « التوفيق Compromise » أو « الاجماع Consensus » في تفسير العلاقات والاوضاع السياسية السائدة .

ويذهب « ستيدمان » الى ان نموذج الصراع الذي يستخدمه في تفسير السياسة الحضرية له جذوره في الفكر القديم ، كما انه يعتمد – الى حد ما – على آراء كارل ماركس التي تؤكد دور الصراع الطبقي بين القوى الاقتصادية والاجتماعية القائمة في المجتمع ، غير انه في اساسه مستمد من واقع الخبرة باساليب السياسة الحضرية في المجتمع الامريكي خلال العشرين عاما الماضية .

ويقول « ستيدمان » :

قد يتساءل البعض : لكن ما هو الجديد في هذا التفسير لمعالم السياسة الحضرية ؟ وردا على هذا التساؤل فانني اقول : ان الجديد هنا يتلخص في نقطتين هما : محاولة الوصول الى تعريف للسياسة الجديدة ، ثم محاولة تحديد خصائصها المميزة .

فبالنسبة للنقطة الأولى ، يمكن تعريف السياسة الجديدة بانها « سياسة لا تعتمد على التكيف Accomodation الذي يتم عن طريق المساومة او الوساطة أو السمسرة ، وانما تعتمد على الصراع بين قوى متعددة بحيث يستطيع صاحب القوة الاكبر ان يفرض رأيه ، ويملي قراراته على الآخرين دون ان يتمسك كثيرا بالمبادىء والقيم الاخلاقية (٣) » .

اما من ناحية الخصائص ، فيمكن تحديد معالم السياسة الجديدة فيما يلي :

١ – اتساع نطاق الصراع السياسي ، وامتداده الى كثير من مجالات الحياة .

٢ – تزايد حدة الصراع السياسي وتغلغله في كثير من المسائل التي لم تكن تلقى اهتماما سياسيا كبيرا .

٣ – زيادة عدد الافراد والجماعات الذين دخلوا دائرة الصراع السياسي .

٤ – اتساع دائرة المشاركة في المسائل السياسية نتيجة لتزايد عدد المشتركين في النشاط السياسي .

٥ – اخضاع القوانين والاجراءات الحكومية للمناقشة للتأكد من مدى التزامها بمبدأ الشرعية ، بعد أن كانت القوانين تطاع وتنفذ في الماضي من غير مناقشة او اعتراض (٤) .

ويقع الكتاب في ثلاثمائة وتسع وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، منها للاثمائة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢) Ibid., p. 12.

(٣) Ibid, p. 12.

(٤) الكتاب : ص ١٢ .

واحدى عشرة صفحة للمتن ، وثماني عشرة صفحة للتعليقات والتذييلات . وينقسم الكتاب الى مدخل وخمسة أقسام وخاتمة ، تضم اثنى عشر فصلا يعالج فيها المؤلف موضوعات لها اهميتها من الناحيتين النظرية والتطبيقية .

ففى مدخل الكتاب ــ الذى يشتمل على فصل واحد ــ يتحدث المؤلف عن الوضع الحضرى فى العالم بصفة عامة ، وفى الولايات المتحدة بصفة خاصة . فيعرض لنشأة المدن فى العالم وتطورها ، ثم يعرض لنشأة المدن الامريكية والمراحل التى مرت بها ، والمشكلات التى اعترضت سبيلها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، والعوامل التى أدت الى فشلها فى مواجهة تلك المشكلات ، وما ترتب على ذلك من انتشار التشاؤمية لدى جماهير الشعب الامريكى التى اصبحت اقل ثقة فى مستقبل مدنها مما كانت عليه منذ سبعين عاما مضت . ومن اهم النقاط التى ناقشها المؤلف فى هذا الفصل التأثيرات التى أحدثها النمو الحضرى السريع فى الولايات المتحدة من حيث زيادة معدلات الهجرة الى المدن المتروبوليتانية ، وظهور جماعات المصالح ، وتغير الاساس الطبقى للتنظيمات السياسية، وظهور متغيرات جديدة لها وزنها فى العمل السياسى ، مثل التركيب العمرانى والنوعى والعنصري للسكان، وارتفاع مستوى التعليم ، وتنوع المهن ، وارتفاع متوسط الدخل الفردى ، وحدوث التفاوت الكبير بين الطبقات الاجتماعية ، وعدم التجانس الشديد فى بناء المجتمع .

وفى ختام هذا الفصل يناقش المؤلف الاتجاهات الجديدة فى السياسة الحضرية ، والتي ترتكز فى أساسها على الصراع بدلا من المساومة والتوفيق ، كما يعمد الى تحديد المصطلحات التى يستخدمها بكثرة فى دراسته وهي : العلوم السياسية ، والصراع السياسي ، والشرعية ، والمنطقة الحضرية ، والمدينة ، والمنطقة المتروبوليتانية ، والسياسة الحضرية .

وفى **القسم الاول من الكتاب** ــ الذى يشتمل على فصلين ــ يعرض المؤلف للوضع الحضرى العام فى الولايات المتحدة ، ويبدأ بتحديد الخصائص المميزة للحياة الحضرية ، وينتقل الى تحديد مصطلح « الايكولوجيا » ، ويعتمد فى تحديده للمفهوم على قاموس التراث الامريكى الذى يعرف الايكولوجيا بانها « العلم الذى يدرس العلاقة بين الكائنات العضوية وبين الظروف البيئية المختلفة » (٥) ، ثم يعرض النظريات ثلاث تفسر النمو العمرانى فى المدينة وهي « نظرية النموذج الدائرى المتمركز Concentric Zone Theory » التى ترى أن المدينة تنمو بفعل حركة الطرد المركزية من الداخل الى الخارج فى شكل حلقات دائرية حول المركز بحيث تختص كل دائرة بنوع معين من انواع النشاط ، « ونظرية القطاع Sector Theory » التى تقول بأن المدينة لا تنمو فى شكل دائرى وانما تنمو فى شكل قطاعات تبدأ من الداخل وتتجه نحو الخارج ، « ونظرية النوايا المتعددة Multiple Nuclear Theory » التى تقول بوجود عدد من المراكز فى كل مدينة بخلاف النظريتين السابقتين (٦) . وبعد ذلك يعرض المؤلف لنمو المناطق المتروبوليتانية فى المجتمع الامريكى ، ثم يوضح العلاقة بين الجانب الايكولوجى والجانب السياسي .

(٥) الكتاب : ص ٢٢ .

(٦) الكتاب : ص ٢٢ ، ٢٢٤ .

ونظرا لاهمية الجانب السياسي فى هذه الدراسة ، فان المؤلف يخصص فصلا كاملا يعالج فيه النظم والعمليات السياسية فى البيئات الحضرية ، فيعرض بالتفصيل للاطار القانونى للحكم المحلى ، ولاشكال الحكم فى المدينة ، والتى تتمثل فى اشكال ثلاثة هى : نظام حكومة المحافظ والمجلس ، ونظام المجلس والمدير ، ونظام اللجنة ، ويناقش مزايا وعيوب كل نوع ، ثم يعرض للعلاقات المتبادلة بين حكومات المدن ، ومدى تدخل الدولة فى شئون الحكم المحلى .

والقسم الثاني من الكتاب عبارة عن فصل واحد ، يعتبر من اهم فصول الكتاب . يعرض فيه المؤلف لتطور النظرية السياسية فى الولايات المتحدة ، ويحاول أن يستفيد من فكرة اقامة « النماذج Models » فى تأصيل نموذج نمطى للسياسة الامريكية .

اما عن تطور النظرية السياسية فى الولايات المتحدة فيقول :

« لقد كان هناك شبه اتفاق بين علماء السياسة حول طبيعة الديموقراطية الأمريكية ، والخصائص المميزة لها ، ولما نشر مكيفر ـ عالم الاجتماع الامريكى (٧) ـ كتاب « تكوين الدولة » فى سنة ١٩٤٧ ، وعرض فيه للصلة بين الدولة والمجتمع المحلى ، والخصائص التى يتميز بها النظام الديموقراطى عن غيره من النظم السياسية ، زاد اتفاق المجتمع الاكاديمى حول مفهوم وخصائص الديموقراطية الامريكية (٨) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكتابات السياسية فى الولايات المتحدة ـ قبل الاربعينيات ـ كانت تعتمد على تفسيرات مستمدة من التاريخ والقانون والفلسفة ، ولم تكن هناك نظريات مستمدة من علم النفس والاجتماع . فلما قامت الحرب العالمية الثانية ، اهتمت هذه العلوم بالجوانب التطبيقية ، وبدأت تستخدم اساليبها واجراءاتها المنهجية فى الصناعة والحرب وفى غيرها من مجالات الحياة . وكان للنتائج العملية التى توصلت اليها أثر كبير فى تقدم علم السياسة الذى كان يمر فى تلك الآونة بمرحلة حاسمة من مراحل تطوره ، فكان عليه ان يكيف نفسه لنمط التفكير الذى تأخذ به العلوم السلوكية . وخلال حقبتين من الزمان بدا واضحا ان علماء السياسة تأثروا بالعلوم السلوكية تأثرا كبيرا . وكانت « نظرية العمل السياسي The Theory of Political Action » التى عرفت باسم « نظرية الجماعة فى المجال السياسي Group Theory of Politics » من النظريات التى تركت بصمات واضحة فى مجال العلوم السياسية . وتذهب هذه النظرية الى ان العلاقات السياسية الرئيسية هى التى تنشأ داخل الجماعة ، او تقوم بين الجماعات بعضها وبعض . ويعنى هذا ان ما يحصل عليه الفرد انما يتم عن طريق تفاعله مع غيره من الناس . ويتطلب هذا وجود نوع من التنظيم . ولذا فان دراسة سلوك الافراد يمكن ان تتم من خلال الانشطة التى تمارسها الجماعات . ويهتم عالم السياسة بالدرجة الاولى بالجماعات التى لها تأثير حقيقى او فعال فى العملية السياسية ، وهى التى تعرف باسم « جماعات المصالح » ، وهى جماعات يجمع بين افرادها مشاعر واتجاهات مشتركة ، وتسعى الى فرض سيطرتها ، واملاء رغباتها واتجاهاتها على غيرها من الجماعات الموجودة بالمجتمع (٩) » .

---

(٧) وهو من اصل اسكتلندى .

(٨) الكتاب : ص ٧٩ .

(٩) الكتاب : ص ٨٤ .

وفي سنة ١٩٥١ نشر « ترومان » كتابا بعنوان « العملية الحكومية » ، وقد اعتبر انجيلا لأصحاب نظرية الجماعة ، ومرجعا اساسيا للمشتغلين بالعلوم السياسية . ويمكن القول بان نظرية الجماعة ساعدت على ظهور وتدعيم الاتجاهات الامبيريقية في علم السياسة، كما ساعدت على فهم وتفسير الصراع السياسي، ومن ثم اصبحت نظرية الجماعة جزءا من النظرية الرسمية للسياسة الامريكية .

اما عن النموذج النمطي للسياسة الامريكية، فيقول « ستيدمان » : « من المفيد في العلوم الاجتماعية والطبيعية بناء نماذج تفيد في تحليل وفهم العمليات التي تدور داخل الانساق الكبيرة . وقد حاول افلاطون في جمهوريته ان يضع نموذجا لدولة مثالية ، كما قدّم « هوبز » نموذجا آخر في كتابه « Leviathan » ، وبالمثل يمكن بناء نموذج لدولة شيوعية مستمد من كتابات « ماركس وانجلز ولينين » ، ونماذج اخرى لدول دكتاتورية وأوليجاركية وديموقراطية (١٠) .

والنموذج الامريكي يمكن تأصيله بالرجوع الى القرارات الحاسمة التي اتخذها القادة الكبار الذين ساهموا في ارساء دعائم الديموقراطية الامريكية ، والى الكتابات التي تناولت هذه القرارات بالدراسة والتحليل ، بالاضافة الى ما كتبته « الصفوة المفكرة » في هذا المجال .

ويشير « ستيدمان » الى ان النموذج الامريكي في الحكم الديموقراطي يعتمد على مبدأين اساسيين اشار اليهما **مكيفر** هما : مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي ، ومبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى اي منها من غير قهر او اكراه . ومن شأن المبدأ الاخير ان يضيق نطاق الصراع السياسي ، ويحصره في دائرة محدودة .

وقد ناقش « ستيدمان » هذا النموذج ، وابدى بعض التحفظات على المبادىء والأسس النظرية التي يستند اليها .

اما القسم الثالث من الكتاب ، فيشتمل على فصول ثلاثة ، يعالج فيها المؤلف الاسلوب التقليدي في الحكم ، وقد اتخذ له مصطلحا خاصا هو « اسلوب الوساطة او السمسرة Brokerage Style » . وقد عرض « ستيدمان » في الفصل الخامس للأسس التي يقوم عليها هذا الاسلوب ولأنماطه الرئيسية ، ويحددها في نمطين هما : النمط الآلي Machine Type ، والنمط الاصلاحي Reform Type . وقد ناقش مزايا وعيوب كل نمط ، ثم حاول تطبيق النموذج الديموقراطي على اساليب الحكم التي كانت سائدة في البيئات الحضرية في المراحل التاريخية السابقة . وكان هدفه من وراء ذلك ان يختبر مدى صحة النموذج وصلاحيته من الناحية العملية .

وفي الفصل السادس من الكتاب عرض للاتهامات التي وجهت الى أسلوب الوساطة ، واوضح انه فشل في تحقيق العدالة بين المواطنين ، وفي ترتيب اولويات العمل ، وفي الاعتماد على التخطيط العلمي في تحديد الاحتياجات الفعلية للمواطنين ، وتعبئة امكانياتهم ومواردهم وفقا لاستراتيجية واضحة المعالم ، محددة القسمات ، كما انه فشل في ايجاد فلسفة تعبر عن المصالح المشتركة للمواطنين (١١) .

---

(١٠) الكتاب : ص ٨٥ .

(١١) الكتاب : ص ١٤٧ .

وفي الفصل السابع من الكتاب ناقش المؤلف أساليب الحكم والسياسة في « الضواحي Suburbs » ، على أساس أنها أصبحت مركزا لتجمعات سكانية كبيرة ، فوفقا لتعداد السكان لسنة ١٩٧٠ ظهر أن أكثر من نصف سكان المناطق المتروبوليتانية بالولايات المتحدة يعيشون في ضواحي ، بالاضافة الى ان سكان تلك المناطق لهم خصائص اقتصادية واجتماعية وثقافية تميزهم عن سكان المدن المركزية .

وقد أشار « ستيدمان » الى ان الفكرة الشائعة عن الضواحي انها مجرد أماكن لسكنى المديرين الاغنياء الذين يعملون في المدينة المركزية ، وانها لا تزيد عن كونها اماكن للمبيت ، او حسب التعبير الشائع « مجتمعات غرف النوم Bedroom Communities » غير انه يعارض هذه الفكرة ، معتمدا على النتائج التى أسفرت عنها البحوث السوسيولوجية الحديثة والتى تقول بتعدد انماط الضواحي واختلافها فيما بينها من حيث التركيب الاقتصادي والاجتماعي ، ومن حيث الاساليب المعيشية السائدة .

وقد عرض للعوامل التى تدفع الناس الى الانتقال الى الضواحي ، وأشار الى وجود عوامل طاردة واخرى جاذبة . فعوامل الطرد تتمثل في ارتفاع معدلات الجريمة في المدن المركزية ، وفي عجز المؤسسات والهيئات القائمة في المدينة عن تقديم الخدمات المتعلقة بالاسكان والتعليم والصحة ، بالاضافة الى ان المدينة المركزية ـ كما يقول ممفورد ـ تفتقر الى الارض الفضاء التى تلزم لاقامة الحدائق العامة وساحات الالعاب . فالانسان لا يرى فيها سوى حركة العمل ولا يشعر الا بزحمة الحياة ، ولا يسمع الا ضجيج الآلة ، اما ضوء الشمس ونور القمر ، فلا يراه الانسان الا من خلال ناطحات السحاب والمباني العالية .

اما عوامل الجذب فتتمثل في الرغبة في امتلاك مسكن تحيط به ارض فضاء ، وفي الحصول على خدمات تعليمية وصحية كافية ، بالاضافة الى ان هناك شيئا آخر يغري الناس بترك المدينة ، وهو ـ على حد تعبير ممفورد ـ ان تتوافر لهم الحرية في ان يفعلوا ما يشاؤون وهذه هي النغمة الحقيقية لصوت الضاحية ، ويمكن تلخيصها في ان يعتزل المرء الناس كراهب ، ويعيش كأمير .

وقد ركز « ستيدمان » بعد ذلك على دراسة جوانب السلوك السياسي في الضواحي ، وحاول الاجابة على السؤالين التاليين :

١ ـ هل الاقامة في الضواحي تساعد على الاحتفاظ بعنصر المنافسة الذى يقوم عليه النموذج التعددي في السياسة ؟

٢ ـ هل تختلف نظم الحكم وأساليب السياسة في الضواحي عن النظم والاساليب المستخدمة في المدن المركزية ؟

وانتهى من دراسته الى وجود اختلافات اساسية في أساليب العمل السياسي بين الضواحي والمدن المركزية . ففي الضواحي تسود سياسة التوفيق والاجماع ، كما أن عنصر المنافسة يكاد ينعدم نتيجة لتجانس السكان من النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، بعكس الحال في المدن المركزية ، بالاضافة الى ان سكان الضواحي يتعاونون فيما بينهم ليواجهوا الضغوط التي تقابلهم ، وليحصلوا على اكبر قدر ممكن من الخدمات من جانب الهيئات الحكومية والاهلية ، وليحققوا لانفسهم نوعا من الاستقلال الذاتي [١٢] .

وفي القسم الرابع من الكتاب ـ الذى يشتمل على فصل واحد ـ يناقش المؤلف بناء القوة في المجتمع المحلي باعتباره موضوعا أساسيا في السياسة الحضرية ، ويطرح تساؤلات كثيرة

(١٢) الكتاب : ص ١٧٢ .

تتعلق بطبيعة القوة السياسية واهدافها وتوزيعها فى المجتمعات المحلية . وقد عرض لنظريات « الصفوة Elite » التى تقول بأن كل مجتمع يشتمل على فئتين اساسيتين : فئة حاكمة قليلة العدد ، واخرى محكومة كثيرة العدد . وبمقتضى ذلك تتولى الفئة الاولى مقاليد القوة فى المجتمع بحيث تصبح صاحبة السلطة النهائية فى اصدار القرارات الاساسية ، بينما تنحصر مهمة الفئة المحكومة فى طاعة الفئة الحاكمة وتنفيذ قراراتها . وقد عرض للنظرية الماركسية التى تقول بان علاقات الانتاج تمثل الاساس الضرورى لفهم كل الجوانب السياسية فى المجتمع ، كما عرض لنظرية « ماكس فيبر » التى تفسر بناء القوة فى التنظيم البيروقراطى ، ثم عرض لكثير من الدراسات التى اهتمت بدراسة بناء القوة فى المجتمعات المحلية . واشار الى ان دراسات « دومهوف Domhoff ولينه Lynd وهنتر Hunter » تؤكد وجود طبقة تمتلك مقاليد القوة فى المجتمع ، وتتمتع بالهيبة Prestige ، والمكانة Status ، وتستأثر بالسيادة والسيطرة Dominance ولها القدرة على التاثير Influence (١٣) . وفى الجانب المقابل توجد دراسات اخرى تقول بتعدد مراكز القوى والتاثير ، وترفض القول بوجود فئة واحدة تسيطر على الحكم فى المجتمع .

ويختتم « ستيدمان » مناقشته لهذا الموضوع بقوله :

« ان بناء القوة ليس واحدا فى كل المجتمعات . ففى الوقت الذى تسيطر فيه طبقة واحدة على مقاليد الامور فى مجتمع ما ، نجد مجتمعا آخر تتوزع فيه القوة بين عدة طبقات . وليس ثمة شك فى ان نوع النشاط الاقتصادى فى المجتمع له صلة بتوزيع النفوذ فى المجتمع . ففى المدن الصناعية مثلا يزداد عنصر المنافسة بين اصحاب المصانع بحيث يحاول كل منهم ان يكون له التاثير الكامل فى مختلف السياسات والقرارات التى تتخذ على المستوى المحلى . اما المدن التى تعتمد على التجارة او الخدمات فان توزيع القوة يأخذ نمطا مغايرا . ويمكن القول ايضا بان اختلاف المناهج والاساليب التى استخدمها الباحثون فى دراساتهم كان لها اثر كبير فى اختلاف النتائج التى توصلوا اليها (١٤) .

اما القسم الخامس من الكتاب فيشتمل على فصول ثلاثة يناقش فيها المؤلف قضايا : التعليم ، والاسكان ، والقانون والنظام ، وكان يهدف من وراء دراسته الى اختبار احد المبادىء الاساسية التى يتألف منها « النموذج التعددى للديموقراطية » ، وهو مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلى . وقد توصل الى ان هذا المبدأ لا وجود له من الناحية العملية ، ذلك لان عنصر « الصراع » هو الذى يؤثر فى رسم السياسات المتعلقة بالتعليم والاسكان والامن ، وان هناك اتجاها متزايدا نحو « تسييس Politicization » هذه القطاعات (١٥) .

اما خاتمة الكتاب ، فقد اشتملت على فصل واحد ، جعله بعنوان : نحو اسلوب سياسى جديد ، حاول فيه ان يقدم نموذجا سياسيا يتمشى مع التغيرات الجديدة التى يشهدها المجتمع الامريكى المعاصر ، ويهدف الى تحقيق الديموقراطية الكاملة ، ويكون قادرا فى الوقت نفسه على تحديد الاحتياجات ، وترتيب الاولويات ، واقتراح السياسات وتنفيذها ، مع ضمان المشاركة الكاملة من جانب المواطنين فى اتخاذ القرارات ورسم السياسات .

---

(١٣) الكتاب : ص ١٨٧ .

(١٤) الكتاب : ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(١٥) الكتاب : ص ٢٩٠ .

وقد ناقش اساليب المشاركة فى الجماعات والتنظيمات القائمة فى المجتمع ، ولم يتمكن من وضع نموذج سياسي محدد . فاكتفى بتحديد بعض الخصائص والاتجاهات المتوقعة ، واشار الى ان اساليب العمل السياسي فى المستقبل سوف تتركز حول القضايا السياسية ، وتقوم على مبدأ الصراع، وتعتمد على القواعد الشعبية فى التنظيمات الحزبية ، وسوف يتسع نطاق الحركات المطالبة بحق تقرير المصير والحكم الذاتى داخل المدن (١٦) .

وتعرض فيما يلى لبعض القضايا والافكار الرئيسية التى عالجها المؤلف ، والتى تحتاج الى مزيد من المناقشة .

١ ــ الوضع الحضرى العام فى الولايات المتحدة وعلاقته بالوضع السياسي :

اذا رجعنا الى الاحصاءات المختلفة ــ التى تنشر عن التوزيعات السكانية فى الولايات المتحدة ، وعن نسب سكان المناطق الحضرية الى جملة السكان ، فاننا نجد ان عدد السكان فى الولايات المتحدة قد تضاعف فى الفترة ما بين ١٨٧٠ ، ١٩٠٠ ثم تضاعف مرة أخرى فيما بين عامى ١٩٠٠ ، ١٩٥٠ . وقد اظهر احصاء ١٩٧٠ أن العدد الكلى لسكان الولايات المتحدة بلغ ٢٠٤٫٧٦٥٫٧٠٠ نسمة ، ومن المتوقع ان يصل العدد الى ٣٠٠ مليون نسمة فى نهاية هذا القرن .

وتشير الاحصاءات المختلفة الى أن نسبة السكان فى المناطق الريفية قد انخفضت من ٥٤٫٣٪ فى سنة ١٩١٠ الى ٢٥٪ فى سنة ١٩٧٠ . وبالنسبة لسكان الحضر ، فان هناك تزايدا مستمرا فى عدد السكان منذ سنة ١٩١٠ باستثناء الفترة ما بين ١٩٣٠ ، ١٩٤٠ حيث كانت نسبة الزيادة متساوية بين سكان المناطق الريفية والمناطق الحضرية (١٧) .

وليس من شك فى أن ارتفاع معدلات التحضر فى المجتمع تؤثر الى حد كبير فى خصائصه البنائية والوظيفية . وقد اهتم « ستيدمان » بتحديد الخصائص المميزة للحياة الحضرية ، فاشار الى ان نمط العلاقات الاجتماعية فى البيئة الحضرية يأخذ طابعا جديدا ، اذ تحل العلاقات الثانوية محل العلاقات الاولية . ويحدث ذلك نتيجة لكثرة التحركات الجغرافية والمهنية فى المدينة ، بحيث لا يجد الفرد وقتا كافيا ليدخل فى علاقات دائمة مع كل الناس الذين يتصل بهم او يتعامل معهم ، سواء فى محيط العمل او فى نطاق الجيرة . كما اشار الى ضعف الضوابط الاجتماعية غير الرسمية ، وتحرر الأفراد من سيطرة القيم الجماعية التى كانت تفرضها المعايير الثقافية فى المجتمعات التقليدية ، والى ضعف الروابط القرابية . وهذا من شانه ان يؤدى الى احساس الانسان فى المدينة بالفردية، والاغتراب ، وعدم الانتماء الى المجتمع (١٨) . ومن الخصائص الاخرى للحياة الحضرية ــ وبخاصة فى المدن الامريكية ــ انفصال اماكن العمل عن مناطق الاقامة . وقد ساعد على ذلك سهولة المواصلات وسرعتها مما ادى الى نزوح السكان من وسط المدينة الى الضواحى بعيدا عن حركة العمل ، وزحمة الحياة . وتتميز حياة المدينة ايضا بكثرة الحراك

(١٦) الكتاب : ص ٢١٠ .

(١٧) الكتاب : ص ٩ .

(١٨) الكتاب : ص ٢٠ .

الجغرافي مما تتسبب عنه مشكلات شخصية واجتماعية .

ويتساءل « ستيدمان » : ما هي الاهمية السياسية للخصائص الاجتماعية التي تميز اسلوب الحياة في البيئات الحضرية عن اسلوب الحياة في البيئات الريفية ؟

ويجيب على هذا التساؤل بقوله : ان من الصعب ان نعطي اجابةدقيقةعلى هذا السؤال، فما تزال الحاجة ماسة الى مزيد من الدراسة والبحث ، غير أن من الممكن القول بأن مثل هذه الاختلافات من شأنها ان تؤدى الى تغير نظرة الناس الى الحياة السياسية ، والى تغير اتجاهاتهم وأفكارهم وطريقة تصرفهم في المواقف المختلفة (١٩) .

وبالنسبة للعلاقات بين الجانب الايكولوجي والجانب السياسي يقول ستيدمان :

ان دراسة ايكولوجيا المدينةتفيد من الناحية السياسية ، حيث أن كثيرا من جوانب الصراع السياسي في البيئات الحضرية تتسبب عن الارض وتوزيعها وطرق استخدامها ، ولا يقتصر الامر على الافراد ، وانما يتسع ليشمل الجماعات العنصرية والعرقية والاقتصادية ، وفي كل مرة يحدث فيها صراع بين هذه الجماعات تجد الهيئات الحكومية نفسها في دائرة الصراع (٢٠) .

وبالنسبة لنمو المناطق المتروبوليتانية وتاثيرها على الجوانب السياسية يقول ستيدمان :

ان اى دراسة للنمو الحضرى في الولايات المتحدة ، وانعكاساته السياسية ينبغي أن تأخذ في الاعتبار نمو المناطق المتروبوليتانية وتوزيعها (٢١) . ولعل من اهم النتائج التى ترتبت على نشاة هذا النوع من المناطق الحضرية تركز الزنوج والطبقات الفقيرة في المناطق المركزية ، ونزوح أصحاب الدخول المرتفعة ـ وغالبيتهم من البيض ـ الى الضواحى والمدن التابعة . ويشير الجدول التالى الى هذا التوزيع :

المدن المركزية

	البيض	الزنوج
١٩٦٠	٧٥ر٣ مليون	٨ر٠ مليون
١٩٧٠	٣٣ر٨ مليون	١٠ر٨ مليون

الضواحي

	البيض	الزنوج
	٤١ر٦ مليون	١ر٨ مليون
	٥٤ر١ مليون	٢ر٦- مليون

ويقول « ستيدمان » : لقد ترتب على حركة الهجرة الداخلية الى المدن ان اصبح غالبية السكان في المدن الكبيرة من الزنوج ، بينما بقي العنصر الابيض متفوقا في الضواحى . وتشير الاحصاءات الى أنه من بين المدن الكبرى الخمسين في الولايات المتحدة يمثل الزنوج اكثر من ٥٠ ٪ من نسبة السكان في ثلاث مدن كبرى هي : واشنطن ، واطلنطا ، ونيويورك ، كما ان مدينة جارى بانديانا بها أغلبية سوداء .

(١٩) الكتاب ص ٢١ .

(٢٠) الكتاب : ص ٢٤ .

(٢١) الكتاب : ص ٢٤ .

ويختتم ستيدمان عرضه لاتجاهات التطور العمراني في المناطق المتروبوليتانية بقوله : ان السياسة في المناطق المتروبوليتانية يمكن النظر اليها على انها مجموعة من المشكلات التي تتعلق بصنع القرارات . وفي داخل هذا الاطار تثور تساؤلات كثيرة اهمها :

١ ـ من الذي يقوم بصنع القرارات في المنطقة المتروبوليتانية ؟

٢ ـ هل تتمسك الجماعات التي تقوم بصنع القرارات بمبدأ الشرعية ؟

٣ ـ ما هي الجماعة او الجماعات التي تمسك في يدها زمام السلطة في المنطقة المتروبوليتانية ؟

٤ ـ كيف تحل الخلافات والصراعات التي تنشأ بين مختلف الجماعات في المنطقة المتروبوليتانية ؟

ثم يقول : ان كثيرا من الدراسات التي اجريت في المجتمعات المحلية المختلفة تشير الى ان التنظيمات السياسية في تلك المجتمعات تسيطر عليها صفوة من الناس . وهذه الصفوة قادرة على توجيه تلك التنظيمات لتحقيق اغراضها الخاصة . ويقول ايضا : ان ثمة اعتبارا آخر ينبغي الاشارة اليه وهو انه حينما تحدث خلافات محلية حول اتخاذ القرارات المتعلقة بالمشكلات المتروبوليتانية ، فان الحكومة المركزية تتخذ القرارات التي تراها مناسبة لحل المشكلة (٢٢) .

٢ ـ اشكال الحكم في المدينة :

توجد ثلاثة اشكال لحكومة المدينة في الولايات المتحدة . وهذه الاشكال هي :

أ ـ حكومة المحافظ والمجلس Mayor-Council

ب ـ اللجنة Commission

جـ ـ حكومة المجلس والمدير Council-Manager (٢٣) .

ونعرض فيما يلي لهذه الاشكال الثلاثة بشيء من التفصيل .

أ ـ حكومة المحافظ والمجلس :

يعتبر هذا الشكل اقدم الاشكال لحكومة المدينة واكثرها انتشارا في الولايات المتحدة ، وبالرغم من منافسة الاشكال الجديدة ، الا ان ما يزيد على نصف المدن ـ التي يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة ـ تستخدم هذا النظام . وهو في أساسه مقتبس من النظام الانجليزي ، غير ان تطورا بالغ الاهمية قد حدث بالنسبة لهذا النظام في الولايات المتحدة بحيث اصبح يختلف كليا عن النظام الانجليزي . فبينما نجد ان منصب المحافظ فخري في النظام الانجليزي ، نجد ان المحافظ في الولايات المتحدة يتمتع بسلطات ضخمة ، بحيث فقد المجلس اهميته الى المدى الذي اصبح فيه المحافظ اكثر اهمية من المجلس في كثير من المدن . ويلاحظ ان بعض المدن اعطت محافظيها سلطات تشريعية أوسع من غيرها من المدن ، بحيث اصبح من المعتاد ترتيب المدن على

(٢٢) الكتاب : ص ٢٩ .

(٢٣) الكتاب : ص ٤٦ .

اساس انها مدن لها محافظ قوى Strong Mayor Type ، او مدن لها محافظ ضعيف Weak Mayor Type (٢٤) .

ويتم اختيار المحافظين فى الولايات المتحدة بواسطة الناخبين لمدة سنتين او اربع سنوات ، ومن المفروض ان يتم انتخاب المحافظ دون التقيد بانتمائه الحزبى ، غير ان القاعدة العامة فى اغلب المدن هى انتخاب المحافظ على اساس انتمائه لأحد الحزبين الرئيسيين فى الولايات المتحدة .

وتختلف وظائف المحافظ باختلاف المدن ، ففي المدن الصغيرة تكون مسئوليات المحافظ ومهامه محدودة ، بعكس الحال فى المدن الكبيرة حيث تتنوع اختصاصاته ، وتكثر الاعمال والواجبات الملقاة على عاتقه . وللمحافظ عادة سلطات تشريعية واخرى تنفيذية ، وهو يتمتع فى اغلب المدن بحق الفيتو فى مجال السلطة التشريعية (٢٥) غير أن من الممكن ان يبطل المجلس اعتراضاته بأغلبية ثلثي الاصوات . وفى اغلب المدن يقوم المحافظ بتعيين رؤساء الاجهزة الادارية واجهزة الخدمات (البوليس والحريق والصحة العامة) .

اما مجالس المدن فتقوم باصدار اللوائح الخاصة بتنظيم الصحة العامة والأمن والآداب العامة فى المدينة ، كما تقوم بفرض الضرائب ، وتخصيص الاموال لمختلف المشروعات . واذا لم توجد نصوص رسمية تحدد حق الانتفاع بالملكيات العامة فان المجالس يكون لها الحق فى منح امتيازات الى شركات المنافع العامة التى ترغب فى استخدام الشوارع او الملكيات العامة الاخرى ، كذلك العقود الخاصة باقامة المبانى وتمهيد الطرق وتعبيدها .

ب ـ نظام اللجنة :

يعتمد هذا النظام على مجموعة من الاعضاء يتراوح عددهم ما بين ثلاثة اعضاء وسبعة ، ويتم تعيينهم بالانتخاب لمدة سنتين او اربع سنوات ، ويختار منهم واحد لشغل منصب المحافظ ، وان لم تكن لهذا المنصب فى ظل نظام اللجنة اهمية حقيقية .

ويقوم اعضاء اللجنة كمجموعة بوضع السياسة العامة ، وفرض الضرائب ، واعداد الميزانية ، وتعيين الموظفين وفصلهم ، واصدار اللوائح التنفيذية كما ان لهم الحق فى الاشراف على الادارات المختلفة بالمدينة .

وقد ظهرت عيوب هذا النظام واضحة خلال السنوات الاخيرة ، فتقسيم المسئولية بين اعضاء اللجنة كان يمنع اتخاذ قرارات موحدة ، يضاف الى ذلك ان غالبية الاعضاء ليست لديهم الخبرة الادارية اللازمة لممارسة العمل فى الاقسام المختلفة . ومن الملاحظ ان الاخذ بهذا النظام بدأ يقل بشكل ملحوظ ، واصبح الاتجاه الآن نحو الاخذ باحد النظامين الآخرين (٢٦) .

جـ ـ حكومة المجلس والمدير :

استخدم هذا النظام فى أوائل القرن الحالى فى كثير من المدن للتغلب على نقاط الضعف الموجودة فى نظام اللجنة ، واصبح يحتل المركز الثانى بعد نظام حكومة المحافظ والمجلس .

ويشبه هذا النظام التنظيم الموجود فى الشركات الخاصة ، ويعطى اهمية خاصة للعلاقة الوثيقة بين الاقسام التشريعية والتنفيذية ، فبينما يقوم المجلس بالجوانب

(٢٤) الكتاب : ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢٥) الكتاب : ص ٤٨ .

(٢٦) الكتاب : ص ٥٠ .

التشريعية ، يقوم المدير بتنفيذ القرارات ، ويتولى اختيار رؤساء الاقسام ويشرف على اجراءات التنفيذ .

والمدير هو الذى يقوم بالاشراف على الجوانب الادارية للحكومة، كما يحدث بالنسبة لمدير الشركة ، فهو يراقب كل مرحلة من مراحل العمل ، ويعين رؤساء الوكالات الادارية، ويقوم بالتنسيق بين مختلف الوكالات والاقسام .

وفى ظل هذا النظام يقوم المجلس بوضع السياسة العامة ، وللمدير الحق فى تقديم مقترحاته وتوصياته الى المجلس ، وهو يشترك عادة فى مناقشة السياسة العامة مع المجلس بالرغم من عدم وجود صوت له بالمجلس . ويقوم المدير بتقديم تقارير الى المجلس عن سير العمل فى الادارات المختلفة ، كما يعد الميزانية ويعرضها على المجلس ، ومتى وافق عليها يقوم بالاشراف على عمليات التنفيذ .

وقد ثبت ان لهذا النظام مزايا عديدة ، فهو يشجع على وجود مدير واحد توضع فى يده المسئولية ، ويكون مسئولا بمفرده عن اجراءات التنفيذ ، وهذا من شأنه ان يوفر الوقت والجهد بعكس ما هو موجود فى نظام اللجنة . ومن عيوب هذا النظام انه نظام غير ديموقراطي . كما انه لا يسمح بقيادة سياسية على مستوى عال من الكفاءة كما هو الحال فى منصب المحافظ (٢٧) .

٣ ـ النموذج الرسمي للسياسة الحضرية :

يقوم النموذج الرسمي للسياسة الحضرية على تطبيق « النموذج التعددى للديموقراطية Pluralistic Model » ، ويعتمد هذا النموذج على مبدأين اساسيين اشار اليهما مكيفر فى كتابه « تكوين الدولة » ، وهذان المبدءان هما :

١ ـ مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلى .

٢ ـ مبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى اى منها ، من غير ضغط أو اكراه (٢٨) .

وقد ركز مكيفر فى تفرقته بين الدولة والمجتمع المحلى على النقاط التالية :

١ ـ يبنى الانسان لنفسه عالما غير مرئى من النظم والمؤسسات ينقل عبرها تراث ماضيه الى حاضره ، ولولاها لكانت حياته فوضى وقرانا ، ولظلت محصورة فى المستوى الحيواني .

٢ ـ المجتمع المحلي وليس الدولة هو الكيان الكامل الذى نحيا ونتحرك فى اطاره . والانسان يقضي حياته كلها داخل مجتمعات محلية . والمجتمع المحلى تنشأ فيه اشكال للقرابة ليست كلها اشكالا حكومية ، وتتكون فيه تجمعات ليست كلها تجمعات سياسية ، وتتواتر فيه اعراف ومستويات السلوك ليست كلها من خلق الدولة ، وليست كل قوانين المجتمع المحلى من صنع الدولة ، بل ان للمجتمع المحلى قانونا ينمو وراء قانون الدولة ، وتكون له حرماته قبل ان تنشأ الدولة ، وتظل له هذه الحرمات بعد ان تنشأ الدولة .

٣ ـ الديموقراطية وحدها هى التى تعترف به اشكال الحكم الاخرى اعترافا ضمنيا .

٤ ـ الديموقراطية وحدها هى النظام الذى يجعل من الحكومة وكيلا ، ومن الشعب سيدا يسأل وكيله الحساب ، والمجتمع المحلى يراقب

---

(٢٧) الكتاب : ص ٥٢ .

(٢٨) الكتاب : ص ٧٦ .

الحكومة في النظام الديموقراطي ، ولكن هذا لا يعني ان الشعب يمارس بكليته هذه الرقابة ، ولا سبيل للشعب بكامله لأن يقرر من هم حكامه الا بالاعتماد على الرأى العام والاعتماد على صناديق الاقتراع . والديموقراطية تقوم على حكم الرأى ولا تفضل ابدا اصطناع القوة ضد الرأى .

٥ ـ تقوم الديموقراطية على الاستجابة الحرة بين الدولة والمجتمع المحلي .

٦ ـ القانون الأساسي في الدولة الديموقراطية يجعل المجتمع المحلي في وضع اعلى من الدولة .

٧ ـ الديموقراطية هي روح للحكم بقدر ما هي شكل له ، واذا كانت الديموقراطية تعرف بشكلها لئلا تلتبس خصائصها بخصائص اشكال الحكم الاخرى ، فانها في الاساس نسق للحياة ، والاخطار التي تتهددها تتهدد شكلها وروحها .

٨ ـ تتشابه كل انظمة الحكم الدكتاتوري من حيث انها لا تفرق بين الدولة والمجتمع المحلي ، وحينما يسود نظام دكتاتوري فانه يقضي نهائيا على كل ما من شأنه ان يميز بين ما هو من اختصاص الدولة وما هو من اختصاص المجتمع المحلي (٢٩) .

وبالنسبة لمبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أى منها ، فاننا نجد أن الدولة الدكتاتورية تقضي على الشخصية الخاصة التي تتميز بها الجماعات ، بحيث تصبح هيئات حكومية او شبه حكومية ، ولذا فان الجماعات المتعددة التي تعتنق قيما متنوعة تجد نفسها في النظام الدكتاتوري تتبنى قيما واحدة .. هي قيم الدولة . والديموقراطية تقوم على مبدأ التنوع القيمي والاخلاقي والاعتقادي ، واتاحة الفرصة لكل جماعة ولكل عقيدة لأن تقوى اجتماعيا بدون أن ترتبط بالدولة ، فتظل بذلك حياة الافراد متنوعة تنوعا عضويا ، واذا اقترنت اية ديموقراطية باخلاقية معينة فان مرجع ذلك الى انتشار هذه الاخلاقية بين مختلف الجماعات لا الى صدورها عن الدولة .

ويضع « ستيدمان » بعض التحفظات على هذا النموذج ، ويحددها فيما يلي :

١ ـ النموذج مشتق من نظرية يشوبها الغموض في بعض المواضع ، ولذا يصبح موضعا للشك ، فحكم الاغلبية لا يتحقق في عالم الواقع وكثيرا ما يحدث ان تسيطر احدى الجماعات على مقاليد الامور في المجتمع ، كما ان القرارات تتخذ بعد مساومات طويلة (٣٠) .

٢ ـ يفشل النموذج في وضع الحدود القاطعة بين الدولة والمجتمع المحلي ، وكثيرا ما يوسع كل منهما دائرة نفوذه على حساب الآخر (٣١) .

٣ ـ يصور النموذج وجود حرية في الرأى ومنافسة حرة بين الافراد والجماعات ، غير أن هذا لا يحدث في عالم الواقع ، وغالبا ما يتحول الأمر الى احتكار القلة لمجال العمل السياسي ... ان المنافسة الحرة تستلزم وجود تكافؤ بين القوى المتنافسة من النواحي الاقتصادية والسياسية ، غير ان هذا لا يتحقق في المجال التطبيقي .

---

(٢٩) الكتاب : ص ٨٠ ، ٨١ .

(٣٠) الكتاب : ص ٨٧ .

(٣١) الكتاب ص ٨٨ ، ٨٩ .

٤ ـ يقوم النموذج على افتراضات اقتصادية لم يعد لها وجود فى الوقت الحالى . فالمنافسة التى كانت قائمة فى القرن التاسع عشر بين جماعات ومنظمات متكافئة لم يعد لها وجود نتيجة لتغير الوضع الاقتصادى ، وبعد ان كان مجتمع الطبقة الوسطى يحافظ على توازن القوى اصبح اليوم اداة فى يد الدولة .

٥ ـ يعتمد النموذج الامريكى للديموقراطية على سياسة ليبرالية تفترض ان النموذج يصحح نفسه بدون تدخل من جانب الدولة ، غير ان هذا ليس له اساس من الصحة (٣١) .

٤ ـ اسلوب الوساطة او السمسرة :

استعار ستيدمان هذا الاصطلاح من المجال الاقتصادى، فكما يقوم الوسيط او «السمسار» Broker بتنظيم عمليات البيع والشراء وفقا لقواعد واجراءات متعارف عليها ، يقوم الحزب او التنظيم السياسى بالتدخل لدى الهيئات المختلفة لتحقيق مصالح الافراد والجماعات ، ويكون دوره فى هذه الحالة كدور الوسيط تماما . فهو الذى ينظم عمليات بيع واستغلال الاراضى ، وهو الذى يخلق المناخ المناسب للمهاجرين الجدد ليستقروا فى البيئات الجديدة، وهو الذى يساعد الفئات العرقية والطبقات الفقيرة على الحصول على احتياجاتها ، وذلك عن طريق الاتصال بالهيئات المسئولة التى تملك زمام الامور .

وهذا الأسلوب له نمطان هما : النمط الآلى والنمط الاصلاحى .

وهذا النمط الآلى على افتراض مؤداه انه ليس ثمة تعارض بين مصلحة التنظيم ومصلحة الافراد . ولذا فان القرارات التى يتخذها القائد او الرئيس تحقق مصالح الافراد بطريقة آلية ، ومن هنا تترك السلطة كلها للقائد ليتصرف بالطريقة التى يراها مناسبة. ويذهب « ستيدمان » الى ان هذا النمط يشبه الى حد كبير النمط البيروقراطى الذى يقوم على مبدأ تسلسل السلطة ، والذى يعطى للرئيس الحق فى الاشراف على مرؤوسيه واصدار الاوامر اليهم . (٣٢)

ومن الواضح ان هذا النظام من شانه ان يخلق الوحدة ويحقق التكامل بين فئات وعناصر التنظيم ، الا انه يمنع الافراد من المشاركة فى اتخاذ القرارات ولا يساعد على تنمية المهارات والقدرات الفردية .

اما النمط الاصلاحى فيهدف الى تحويل السلطة الى الشعب ، ويعتمد على عناصر المشاركة على أساس ان كافة الفئات والهيئات ينبغى ان تشترك فى صنع مستقبلها وتقرير مصيرها .

وقد طالب المصلحون منذ سنة ١٨٩٤ بتطبيق هذا النمط ، وكانت لهم مطالب محددة اهمها: تكوين مجالس للمواطنين ، واحزاب محلية مستقلة ، ونواد اصلاحية ، ويذهب « ستيدمان » الى ان النظام الآلى يجد مساندة من جانب الطبقات الفقيرة ، على حين ان النظام الاصلاحى يجد المساندة والتأييد من جانب الطبقات المتوسطة .

ولذا فان اى تغير فى البناء الطبقى فى

(٣١) الكتاب : ص ٩٢ .

(٣٢) الكتاب : ص ١٢٠ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المجتمعات المحلية كفيل بأن يحدث تغيرات مماثلة فى اتجاهات الافراد نحو النمط السائد . (٢٤)

خاتمة :

يتضح من العرض السابق لأقسام الكتاب وفصوله وموضوعاته أن المؤلف ركز على دراسة النظام السياسى فى البيئات الحضرية معتمدا على المنهج التحليلى ، ومرتكزا على النتائج التى اسفرت عنها البحوث المعاصرة فى علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، مستفيدا بالاستقراء التاريخى فى شرح وتفسير الظواهر السياسية السائدة فى المجتمع الحضرى الامريكى . والواقع ان هذا المنهج لا غنى عنه لأى باحث يقوم بدراسة نظام سياسى او اقتصادى او اجتماعى معين ، لما بين ظواهر الحياة الاجتماعية ـ بصورها المتعددة ـ من ترابط وثيق ، واعتماد متبادل .

وهذا الكتاب اذ يحلل الأسلوب القديم فى السياسة الحضرية ، ويظهر تخلفه عن تحقيق الديموقراطية الصحيحة ، انما يبرز فشل أسلوب المساومة والتوفيق فى حل المشكلات بطريقة جذرية ، وفى مواجهة التغيرات التى يمر بها العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين .

وليس ثمة شك فى أن الاتجاه الذى يتبناه المؤلف ـ وهو الذى يركز على مبدأ الصراع ـ يجد له صدى كبيرا فى الكتابات الاجتماعية المعاصرة .

وقد حاول المؤلف ان يقدم نموذجا سياسيا يتمشى مع التغيرات الجديدة التى يشهدها المجتمع الأمريكى المعاصر ، غير أنه لم يستطع ان يقدم نموذجا واضح المعالم ، محدد القسمات ، واكتفى بتحديد بعض الخصائص والاتجاهات المتوقعة فى مجال العمل السياسى . وقد يكون له بعض العذر فى ذلك نظرا لتضارب النتائج التى تسفر عنها البحوث الاجتماعية ، ولصعوبة وضع نموذج نمطى ـ يتسم بشىء من الثبات ـ فى عالم دائم التغير .

وقد لمس المؤلف بنفسه هذه النقطة فى اكثر من موضع ، واشار الى ان الهدف من الكتاب هو وصف التحول العظيم فى أساليب السياسة الحضرية ، ومحاولة تفسيرها بقدر الامكان ، ويتضح ذلك فيما كتبه فى مقدمة الكتاب اذ يقول : وقد كنت احاول أن أقدم تقييما للموقف كلما دعت الضرورة ، او كلما وجدت ذلك ممكنا ومناسبا ، كما كنت أقوم بصياغة بعض الفروض على أمل ان يكون ذلك دافعا لباحثين آخرين لأن يتناولوها بالتحقيق والدراسة العلمية المتعمقة .

والكتاب فى جملته جهد علمى قيم ، جدير بالقراءة المتعمقة ، والدراسة الجادة .

* * *

(٢٤) الكتاب : ص ١٢٢ .